موسوعة الأعمال الكاملة
للإمام ابن قيم الجوزية

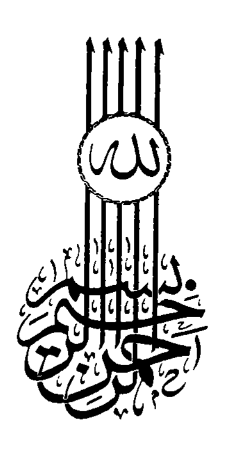


جامع الآداب

جمعه ووثّق نصوصه وخرّج أحاديثه

يسري السيّد محمّد

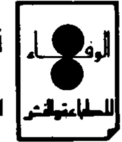
الجزء الثاني


بسم الله الرحمن الرحيم


جامع الآداب

الطَّبعَةُ الأولى

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ج.م.ع - المنصورة

الإدارة : ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ص.ب: ٢٣٠

ت: ٢٢٥٦٢٢٠/ ٢٢٥٦٢٣٠ - فاكس: ٢٢٦٠٩٧٤/ ٠٥٠

المكتبة: أمام كلية الطب ت٢٢٤٩٥١٣/ ٠٥٠

E-Mail : DAR ELWAFA @ HOTMAIL. COM

كتاب

الفتيا وآداب المفتين



فصل
فى أن النبى ﷺ أول المفتين

أول من قام بهذا المنصب الشريف سيدُ المرسلين ، وإمام المتقين ،وخاتم النبيين ، عبد الله ورسوله ، وأمينُه على وحيه ، وسفيره بينه وبين عباده ، فكان يفتى عن الله بوحيه المبين ، وكان كما قال له أحكم الحاكمين : ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص : ٨٦] ، فكانت فتاويه ﷺ جوامع الأحكام ،ومشتملة على فصل الخطاب ، وهى فى وجوب اتباعها وتحكيمها والتحاكم إليها ثانية الكتاب وليس لأحد من المسلمين العدول عنها ما وجد إليها سبيلا. وقد أمر الله عباده بالرد إليها حيث يقول: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء:٥٩].

فصل
فى قيام الصحابة بالفتوى بعد النبى ﷺ

ثم قام بالفتوى بعده برَكُ الإسلام ، وعصابة الإيمان ، وعسكر القرآن،وجند الرحمن، أولئك أصحابه ﷺ ألينُ الأمة قلوبا ، وأعمقها علما ، وأقلها تكلفا ، وأحسنها بيانا ، وأصدقها إيمانا ، وأعمها نصيحة ، وأقربها إلى الله وسيلة . وكانوا بين مكثر منها ، ومقل ومتوسط .

والذين حفظت عنهم الفتوى من أصحاب رسول الله ﷺ مائة ونيف وثلاثون نفسا ما بين رجل وامرأة .

وكان المكثرون منهم سبعة : عمر بن الخطاب ، وعلى بن أبى طالب ، وعبد الله بن مسعود ، وعائشة أم المؤمنين،وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر . قال أبو محمد بن حزم : ويمكن أن يجمع من فتوى كل واحد منهم سفر ضخم . قال : وقد جمع أبو بكر محمد بن موسى بن يعقوب ابن أمير المؤمنين المأمون فتيا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما فى عشرين كتابا .

وأبو بكر محمد المذكور أحد أئمة الإسلام فى العلم والحديث .

قال أبو محمد : المتوسطون منهم فيما روى عنهم من الفتيا : أبو بكر الصديق ، وأم سلمة ، وأنس بن مالك ، وأبو سعيد الخدرى ، وأبو هريرة ، وعثمان بن عفان ، وعبد الله بن عمر بن العاص ، وعبد الله بن الزبير ، وأبو موسى الأشعرى ، وسعد بن أبى وقاص ، وسلمان الفارسى ، وجابر بن عبد الله ، ومعاذ بن جبل : فهؤلاء ثلاثة عشر يمكن أن يجمع من فتيا كل واحد منهم جزء صغير جدا ، ويضاف إليهم طلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن بن عوف ،وعمران بن حصين ،وأبو بكَرَةَ ،وعبادة بن الصامت ،ومعاوية بن أبى سفيان .

والباقون منهم مقلون فى الفتيا لا يروى عن الواحد منهم إلا المسألة والمسألتان ، والزيادة اليسيرة عن ذلك ، يمكن أن يجمع من فتيا جميعهم جزء صغير فقط بعد التقصى والبحث ، وهم : أبو الدرداء ، وأبو اليسر ، وأبو سلمة المخزومى ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وسعيد بن زيد ، والحسن والحسين ابنا على ، والنعمان بن بشير ، وأبو مسعود، وأُبىّ بن كعب ، وأبو أيوب ، وأبو طلحة ، وأبو ذرٍّ ، وأم عطية ، وصفية أم المؤمنين ، وحفصة ، وأم حبيبة ، وأسامة بن زيد ، وجعفر بن أبى طالب ، والبراء بن عازب ، وقرظة بن كعب ، ونافع أخو أبى بكَرَة لأمه ، والمقداد بن الأسود ، وأبو السنابل ، والجارود ،والعبدى ، وليلى بنت قائف ، وأبو محذورة ، وأبو شريح الكعبى ، وأبو برزة الأسلمى ، وأسماء بنت أبى بكر ، وأم شريك ، والخولاء بنت تويت،وأسيد بن الحضير ، والضحاك بن قيس ، وحبيب بن مسلمة ، وعبد الله بن أنيس ، وحذيفة بن اليمان ، وثُمامَة بن أثال ، وعمار بن ياسر ، وعمرو بن العاص ،وأبو الغادية السلمى ، وأم الدرداء الكبرى ، والضحاك بن خليفة المازنى ، والحكم بن عمرو الغفارى ، ووابصة بن معبد الأسدى ، وعبد الله بن جعفر البرمكى ، وعوف بن مالك ، وعدى بن حاتم ، وعبد الله ابن أبى أوفى ، وعبد الله بن سَلام ، وعمرو بن عبسة ، وعتاب بن أسيد ، وعثمان بن أبى العاص ، وعبد الله بن سرجس ، وعبد الله بن رواحة ، وعقيل بن أبى طالب ، وعائذ بن عمرو ، وأبو قتادة عبد الله بن معمر العدوى ، وعُمَىّ بن سُعلة ، وعبدَ الله بن أبى بكر الصديق ، وعبد الرحمن أخوه ، وعاتكة بنت زيد بن عمرو ، وعبد الله بن عوف الزهرى ، وسعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة ، وأبو منيب ، وقيس بن سعد ، وعبد الرحمن بن سهل ، وسَمُرَة بن جندب ، وسهل بن سعد الساعدى، وعمرو بن مقرن ، وسويد بن مقرن ، ومعاوية بن الحكم ، وسهلة بنت سهيل ، وأبو حذيفة بن عتبة ، وسلمة بن الأكوع ، وزيد بن أرقم ، وجرير بن عبد الله البجلى ، وجابر بن سلمة ،

وجويرية أم المؤمنين ، وحسان بن ثابت ، وحبيب بن عدى ، وقدامة بن مظعون ، وعثمان ابن مظعون ، وميمونة أم المؤمنين ، ومالك بن الحويرث . وأبو أمامة الباهلى ، ومحمد ابن مسلمة ، وخباب بن الأرت ، وخالد بن الوليد ، وضمرة بن الفيض ، وطارق بن شهاب ، وظهير بن رافع ، ورافع بن خديج ، وسيدة نساء العالمين : فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، وفاطمة بنت قيس ، وهشام بن حكيم بن حزام ، وأبوه : حكيم بن حزام ، وشُرَحبيل بن السمط ، وأم سلمة ، ودحية بن خليفة الكلبى ، وثابت بن قيس بن الشماس ، وثوبان مولى رسول الله ﷺ ، والمغيرة بن شعبة ، وبُرَيدة بن الحصيب الأسلمى ، ورويفع بن ثابت ، وأبو حميد ، وأبو أسيد ، وفضالة بن عبيد ، وأبو محمد روينا عنه وجوب الوتر ـ قلت :أبو محمد هو : مسعود بن أوس الأنصارى نجارى بدرى ـ وزينب بنت أم سلمة ، وعتبة بن مسعود ، وبلال المؤذن ، وعروة بن الحارث ، وسياه بن روح أو روح بن سياه ، وأبو سعيد بن المعلى ،والعباس بن عبد المطلب ، وبشر بن أرطاة، وصهيب بن سنان ، وأم أيمن ، وأم يوسف ،والغامدية ،وماعز ،وأبو عبد الله البصرى .

فهؤلاء من نقلت عنهم الفتوى من أصحاب رسول الله ﷺ ، وما أدرى بأى طريق عد معهم أبو محمد الغامدية وماعزاً ، ولعله تخيل أن إقدامهما على جواز الإقرار بالزنا من غير استئذان لرسول الله ﷺ فى ذلك هو فتوى لأنفسهما بجواز الإقرار ، وقد أقر عليها ، فإن كان تخيل هذا فما أبعده من خيال !! أو لعله ظفر عنهما بفتوى فى شىء من الأحكام .

فصل
فى أن الصحابة رضى الله عنهم سادة المفتين من الأمة

وكما أن الصحابة سادة الأمة وأئمها وقادتها ، فهم سادات المفتين والعلماء . قال الليث ، عن مجاهد : العلماء أصحاب محمد ﷺ . وقال سعيد عن قتادة فى قوله تعالى : ﴿ **وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ** ﴾ [سبأ : ٦] قال : أصحاب محمد ﷺ .

وقال يزيد بن عمير : لما حضر معاذ بن جبل الموت ، قيل: يا أبا عبد الرحمن أوصنا ، قال: « أجلسونى ، إن العلم والإيمان مكانهما من ابتغاهما وجدهما » يقول ذلك ثلاث مرات: التمس العلم عند أربعة رهط :عند عويمر بن أبى الدرداء ، وعند سلمان

الفارسي، وعند عبد الله بن مسعود ، وعند عبد الله بن سلام .

وقال مالك بن يخامر : لما حضر معاذ الوفاة بكيت ، فقال: ما يبكيك ؟ قلت : والله ما أبكى على دنيا كنت أصيبها منك ، ولكن أبكى على العلم والإيمان اللذين كنت أتعلمهما منك ، فقال : إن العلم والإيمان مكانهما من ابتغاهما وجدهما ، اطلب العلم عند أربعة فذكر هؤلاء الأربعة ، ثم قال : فإن عجز عنه هؤلاء فسائر أهل الأرض عنه أعجز ، فعليك بمعلم إبراهيم ، قال : فما نزلت بى مسألة عجزت عنها إلا قلت : يا معلم إبراهيم .

وقال أبو بكر بن عياش عن الأعمش عن أبى إسحاق ، قال : قال عبد الله : علماء الأرض ثلاثة ، فرجل بالشام ، وآخر بالكوفة ، وآخر بالمدينة ، فأما هذان فيسألان الذى بالمدينة ، والذى بالمدينة لا يسألهما عن شيء .

وقال الشعبى: ثلاثة يستفتى بعضهم من بعض ، فكان عمر وعبد الله وزيد بن ثابت ، يستفتى بعضهم من بعض ، وكان على ، وأبىّ بن كعب ، وأبو موسى الأشعرى يستفتى بعضهم من بعض .

قال الشيبانى : فقلت للشعبى : وكان أبو موسى بذاك ؟ فقال : ما كان أعلمه !! قلت : فأين معاذ ؟ فقال : هلك قبل ذلك .

وقال : أبو البخترى : قيل لعلى بن أبى طالب : حدثنا عن أصحاب رسول الله ﷺ، قال : عن أيهم ؟ قال : عن عبد الله بن مسعود . قال : قرأ القرآن ، وعلم السنة ثم انتهى ، وكفاه بذلك . قال : فحدثنا عن حذيفة ، قال : أعلم أصحاب محمد بالمنافقين ، قالوا : فأبو ذر ؟ قال : كنيف ملئ علما ، عجز فيه . قالوا : فعمار ؟ قال : مؤمن نسى إذا ذكرته ذكر ،خلط الله الإيمان بلحمه ودمه ، ليس للنار فيه نصيب . قالوا:فأبو موسى ؟ قال : صبغ فى العلم صبغة . قالوا : فسلمان ؟ قال : علم العلم الأول والآخر ، بحر لا ينزح ، منا أهل البيت . قالوا : فحدثنا عن نفسك يا أمير المؤمنين ، قال : إياها أردتم ، كنت إذا سئلت أعطيت وإذا سكت ابتديت .

وقال مسلم ، عن مسروق : شاممت أصحاب محمد ﷺ فوجدت علمهم ينتهى إلى ستة : إلى على ، وعبد الله ، وعمر ، وزيد بن ثابت ، وأبى الدرداء ، وأبى بن كعب ، ثم شاممت الستة ، فوجدت علمهم انتهى إلى على ، وعبد الله .

وقال مسروق أيضا : جالست أصحاب محمد ﷺ فكانوا كالإخاذ ، الإخاذة تروى الراكب ، والإخاذة تروى الراكبين ، والإخاذة تروى العشرة ، والإخاذة لو نزل بها أهل

الأرض لأصدرتهم ، وإن عبد الله من تلك الإخاذ .

وقال الشعبى : إذا اختلفت الناس فى شىء فخذوا بما قال عمر .

وقال ابن مسعود : إنى لأحسب عمر ذهب بتسعة أعشار العلم .

وقال أيضا : لو أن علم عمر وضع فى كفة الميزان ، ووضع علم أهل الأرض فى كفة لرجح علم عمر .

وقال حذيفة : كأن علم الناس مع علم عمر دس فى جحر .

وقال الشعبى : قضاة هذه الأمة عمر وعلى وزيد وأبو موسى .

وقال سعيد بن المسيب : كان عمر يتعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو حسن .

وشهد رسول الله ﷺ لعبد الله بن مسعود بأنه عليم معلم ، وبدأ به فى قوله :« خذ القرآن من أربعة : من ابن أم عبد ، ومن أبى بن كعب ، ومن سالم مولى أبى حذيفة ، ومن معاذ بن جبل » (١) .

ولما ورد أهل الكوفة على عمر أجازهم ، وفضل أهل الشام عليهم فى الجائزة ، فقالوا: يا أمير المؤمنين ، تفضل أهل الشام علينا ؟ فقال : يا أهل الكوفة أجزعتم أن فضلت أهل الشام عليكم لبعد شقتهم ، وقد آثرتكم بابن أم عبد ؟!

وقال عقبة بن عمرو : ما أرى أحداً أعلم بما أنزل على محمد ﷺ من عبد الله ، فقال أبو موسى : إن تقل ذلك ، فإنه كان يسمع حين لا نسمع ، ويدخل حين لا ندخل .

وقال عبد الله : ما أنزلت سورة إلا وأنا أعلم فيم أنزلت ، ولو أنى أعلم أن رجلا أعلم بكتاب الله منى تبلغه الإبل لأتيته .

وقال زيد بن وهب : كنت جالسا عند عمر فأقبل عبد الله فدنا منه ، فأكب عليه ، وكلمه بشىء ، ثم انصرف ، فقال عمر : كنيف ملئ علما ، وقال الأعمش عن إبراهيم : إنه كان لا يعدل بقول عمر وعبد الله إذا اجتمعا ، فإذا اختلفا ، كان قول عبد الله أعجب إليه ؛ لأنه كان ألطف .

وقال أبو موسى لمجلس كنت أجالسه : عبد الله أوثق فى نفسى من عمل سنة .

---

(١) البخارى (٣٨٠٨) فى مناقب الأنصارى ، باب : مناقب أبى بن كعب رضى الله عنه ، ومسلم (٢٤٦٤ / ١١٦) فى فضائل الصحابة ، باب : من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رضي الله عنهما ، والترمذى (٣٨١٠) فى المناقب ، باب : مناقب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وأحمد (٢ / ١٩٠ ، ١٩١) ، كلهم بلفظ:«خذوا».

وقال عبد الله بن بريدة فى قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ [محمد : ١٦] قال : هو عبد الله بن مسعود .

وقيل لمسروق : كانت عائشة تحسن الفرائض ، وقال : والله لقد رأيت الأحبار من أصحاب رسول الله ﷺ يسألونها عن الفرائض .

وقال أبو موسى : ما أشكل علينا أصحاب محمد ﷺ حديث قط ، فسألناه عائشة إلا وجدنا عندها منه علما .

وقال ابن سيرين :كانوا يرون أن أعلمهم بالمناسك عثمان بن عفان ثم ابن عمر بعده .

وقال شهر بن حوشب : كان أصحاب محمد ﷺ إذا تحدثوا ، وفيهم معاذ نظروا إليه هيبة له .

وقال على : أبو ذر أوعى علما ثم أوكى عليه ، فلم يخرج منه شيئا حتى قُبِض .

وقال مسروق : قدمت المدينة فوجدت زيد بن ثابت من الراسخين فى العلم .

وقال الجريرى عن أبى تميمة : قدمنا الشام ، فإذا الناس مجتمعون ، يطيفون برجل ، قال : قلت من هذا ؟ قالوا : هذا أفقه من بقى من أصحاب النبى ﷺ ، هذا عمرو البكالى .

وقال سعيد :قال ابن عباس وهو قائم على قبر زيد بن ثابت : هكذا يذهب العلم .

وكان ميمون بن مهران إذا ذكر ابن عباس ، وابن عمر عنده ، يقول : ابن عمر أورعهما ، وابن عباس أعلمهما .

وقال أيضا : ما رأيت أفقه من ابن عمر ، ولا أعلم من ابن عباس .

وكان ابن سيرين يقول : اللهم أبقنى ما أبقيت ابن عمر ، أقتدى به .

وقال ابن عباس : ضمنى رسول الله ﷺ ، وقال :« اللهم علمه الحكمة »[1] .

وقال أيضا : دعانى رسول الله ﷺ فمسح على ناصيتى ، وقال :« اللهم علمه الحكمة وتأويل الكتاب »[2] .

---

(١) البخارى (٣٧٥٦) فى فضائل الصحابة ، باب : ذكر ابن عباس رضي الله عنهما ، والترمذى (٢٦٢٤) فى المناقب ، باب : مناقب عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ،وأحمد ١/ ٣٥٩ بلفظ : «الكتاب» بدل : «الحكمة »

(٢) الطبقات الكبرى (٢ / ٢٧٨) ، وابن ماجه (١٦٦) فى المقدمة ، باب :فضائل أصحاب رسول الله ﷺ، وانفرد بلفظ:« ضمنى رسول الله ﷺ » .
وكنز العمال (٣٣٥٨٦) ، وانظر التعليق عليه : فتح البارى (١ / ١٧٠) .

ولما مات ابن عباس قال محمد بن الحنفية : مات ربانى هذه الأمة .

وقال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة : ما رأيت أحدا أعلم بالسنة ، ولا أجلد رأيا ولا أثقب نظرا حين ينظر مثل ابن عباس ، وإن كان عمر بن الخطاب ليقول له : قد طرأت علينا عضل أقضية ، أنت لها ولأمثالها .

وقال عطاء بن أبى رباح :ما رأيت مجلسا قط أكرم من مجلس ابن عباس ، أكثر فقها، وأعظم . إن أصحاب الفقه عنده وأصحاب القرآن ، وأصحاب الشعر عنده يصدرهم كلهم فى واد واسع .

وقال ابن عباس:كان عمر بن الخطاب يسألنى مع الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ.

وقال ابن مسعود : لو أن ابن عباس أدرك أسناننا ما عسره منا رجل .

وقال مكحول : قيل لابن عباس : أنى أصبت هذا العلم ؟ قال : بلسان سؤول ، وقلب عقول .

وقال مجاهد : كان ابن عباس يسمى البحر من كثرة علمه .وقال طاوس :أدركت نحوا من خمسين من أصحاب رسول الله ﷺ ، إذا ذكر ابن عباس شيئا ، فخالفوه لم يزل بهم حتى يقررهم .

وقيل لطاوس : أدركت أصحاب محمد ﷺ ، ثم انقطعت إلى ابن عباس ، فقال : أدركت سبعين من أصحاب محمد ﷺ إذا تدارؤوا فى شىء انتهوا إلى قول ابن عباس .

وقال ابن أبى نجيح : كان أصحاب ابن عباس يقولون : ابن عباس أعلم من عمر ، ومن على ، ومن عبد الله ، ويعدون ناسا ، فيثب عليهم الناس ، فيقولون : لا تعجلوا علينا إنه لم يكن أحد من هؤلاء إلا وعنده من العلم ما ليس عند صاحبه ، وكان ابن عباس قد جمعه كله .

وقال الأعمش : كان ابن عباس إذا رأيته ، قلت : أجمل الناس ، فإذا تكلم قلت : أفصح الناس ، فإذا حدث قلت : أعلم الناس .

وقال مجاهد : كان ابن عباس إذا فسر الشىء رأيت عليه النور .

قال الشعبى : من سره أن يأخذ بالوثيقة فى القضاء فليأخذ بقول عمر .

وقال مجاهد : إذا اختلف الناس فى شىء فانظروا ما صنع عمر ، فخذو به .

وقال ابن المسيب : ما أعلم أحدا بعد رسول الله ﷺ أعلم من عمر بن الخطاب .

وقال أيضا : كان عبد الله يقول : لو سلك الناس واديا وشعبا ، وسلك عمر واديا وشعبا ، لسلكت وادى عمر وشعبه .

وقال بعض التابعين : دفعت إلى عمر ، فإذا الفقهاء عنده مثل الصبيان قد استعلى عليهم فى فقهه وعلمه .

وقال محمد بن جرير : لم يكن أحد له أصحاب معروفون حرروا فتياه ومذاهبه فى الفقه غير ابن مسعود ، وكان يترك مذهبه وقوله لقول عمر ، وكان لا يكاد يخالفه فى شىء من مذاهبه ، ويرجع من قوله إلى قوله ، وقال الشعبى : كان عبد الله لا يقنت ، وقال : ولو قنت عمر لقنت عبد الله .

وكان من المفتين : عثمان بن عفان ، قال ابن جرير : غير أنه لم يكن له أصحاب يعرفون ، والمبلغون عن عمر فتياه ومذاهبه وأحكامه فى الدين بعده كانوا أكثر من المبلغين عن عثمان والمؤدين عنه .

وأما على بن أبى طالب ـ عليه السلام ـ فانتشرت أحكامه وفتاويه ، ولكن قاتل الله الشيعة ، فإنهم أفسدوا كثيرا من علمه بالكذب عليه ، ولهذا تجد أصحاب الحديث من أهل الصحيح لا يعتمدون من حديثه وفتواه ، إلا ما كان من طريق أهل بيته ، وأصحاب عبد الله بن مسعود كعبيدة السلمانى، وشريح ، وأبى وائل ونحوهم .

وكان ـ رضى الله عنه وكرم وجهه ـ يشكو عدم حملة العلم الذى أودعته ، كما قال : إن ههنا علما لو أصبت له حملة .

والدين والفقه والعلم انتشر فى الأمة عن أصحاب ابن مسعود ، وأصحاب زيد بن ثابت ، وأصحاب عبد الله بن عمر ، وأصحاب عبد الله بن عباس . فعلم الناس عامته عن أصحاب هؤلاء الأربعة ، فأما أهل المدينة فعلمهم عن أصحاب زيد بن ثابت وعبد الله بن عمر ، وأما أهل مكة فعلمهم عن أصحاب عبد الله بن عباس ، وأما أهل العراق فعلمهم عن أصحاب عبد الله بن مسعود : قال ابن جرير : وقد قيل : إن ابن عمر وجماعة ممن عاش بعده بالمدينة من أصحاب رسول الله ﷺ إنما كانوا يفتون بمذاهب زيد بن ثابت ، وما كانوا أخذوا عنه مما لم يكونوا حفظوا فيه عن رسول الله ﷺ قولا . وقال ابن وهب : حدثنى موسى بن على اللخمى عن أبيه : أن عمر بن الخطاب خطب الناس بالجابية ، فقال: من أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت ، ومن أراد أن يسأل عن الفقه ، يأت معاذ بن جبل ، ومن أراد المال فليأتنى .

وأما عائشة فكانت مقدمة فى العلم والفرائض والأحكام والحلال والحرام ، وكان من الآخذين عنها الذين لا يكادون يتجاوزون قولها المتفقهين بها : القاسم بن محمد بن أبى بكر ابن أخيها ، وعروة بن الزبير ابن أختها أسماء . قال مسروق : لقد رأيت مشيخة أصحاب رسول الله ﷺ يسألونها عن الفرائض . وقال عروة بن الزبير : ما جالست أحدا قط كان أعلم بقضاء ، ولا بحديث بالجاهلية ، ولا أروى للشعر ، ولا أعلم بفريضة ، ولا طب من عائشة .

فصل
فى المفتين من التابعين

ثم صارت الفتوى فى أصحاب هؤلاء كسعيد بن المسيب راوية عمرو حامل علمه ، قال جعفر بن ربيعة : قلت لعراك بن مالك : من أفقه أهل المدينة ؟ قال : أما أفقههم فقها ، وأعلمهم بقضايا رسول الله ﷺ ، وقضايا أبى بكر ، وقضايا عمر ، وقضايا عثمان ، وأعلمهم بما مضى عليه الناس سعيد بن المسيب ، وأما أغزرهم حديثا فعروة بن الزبير ، ولا تشاء أن تفجر من عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود بحرا إلا فجرته .

قال عراق : وأفقههم عندى ابن شهاب؛لأنه جمع علمهم إلى علمه ، وقال الزهرى : كنت أطلب العلم من ثلاثة : سعيد بن المسيب ، وكان أفقه الناس ، وعروة بن الزبير ، وكان بحرا لا تكدره الدلاء ، وكنت لا تشاء أن تجد عند عبيد الله طريقة من علم لا تجدها عند غيره إلا وجدت .

وقال الأعمش : فقهاء المدينة أربعة : سعيد بن المسيب ، وعروة ، وقبيصة ، وعبد الملك .

فصل

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : لما مات العبادلة عبد الله بن عباس ، وعبد الله ابن الزبير ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، صار الفقه فى جميع البلدان إلى الموالى ، فكان فقيه أهل مكة : عطاء بن أبى رباح ، وفقيه أهل اليمن : طاوس ، وفقيه أهل اليمامة:يحيى بن أبى كثير ، وفقيه أهل الكوفة : إبراهيم ، وفقيه أهل البصرة : الحسن ، وفقيه أهل الشام : مكحول ، وفقيه أهل خراسان : عطاء الخرسانى ، إلا المدينة فإن الله

خصها بقرشى ، فكان فقيه أهل المدينة سعيد بن المسيب غير مدافع .

وقال مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب، قال :مررت بعبد الله بن عمر ، فسلمت عليه ، ومضيت ، قال : فالتفت إلى أصحابه ، فقال : لو رأى رسول الله ﷺ هذا لسره ، فرفع يديه جدا وأشار بيده إلى السماء ، وكان سعيد بن المسيب صهر أبى هريرة زوجه أبو هريرة ابنته وكان إذا رآه قال:أسأل الله أن يجمع بينى وبينك فى سوق الجنة ، ولهذا أكثر عنه من الرواية .

فصل

وكان المفتون بالمدينة من التابعين : ابن المُسَيَّب ، وعروة بن الزبير ، والقاسم بن محمد ، وخارجة بن زيد ، وأبا بكر بن عبد الرحمن بن حارث بن هشام ، وسليمان بن يسار ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، وهؤلاء هم الفقهاء ، وقد نظمهم القائل ، فقال :

إذا قيل من فى العلم سبعة أبحر روايتهم ليست عن العلم خارجة
فقل : هم عبيد الله ، عروة ، قاسم ، سعيد ، أبو بكر ، سليمان ، خارجة

وكان من أهل الفتوى أبان بن عثمان وسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ونافع وأبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف وعلى بن الحسين . وبعد هؤلاء : أبو بكر بن محمد ابن عمرو بن حزم ، وابناه محمد وعبد الله وعبد الله بن عمر بن عثمان ، وابنه محمد ، وعبد الله ، والحسين ابنا محمد بن الحنفية ، وجعفر بن محمد بن على، وعبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبى بكر ، ومحمد بن المنكدر ، ومحمد بن شهاب الزهرى ، وجمع محمد بن نوح فتاويه فى ثلاثة أسفار ضخمة على أبواب الفقه ، وخلق سوى هؤلاء .

فصل

وكان المفتون بمكة : عطاء بن أبى رباح ، وطاوس بن كيسان ، ومجاهد بن جبر ، وعبيد بن عمير ، وعمرو بن دينار ، وعبد الله بن عبيد الله بن أبى مليكة : وعبد الرحمن ابن سابط ، وعكرمة مولى ابن عباس ثم بعدهم : أبو الزبير المكى وعبد الله بن طاوس، ثم بعدهم : عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج ، وسفيان بن عيينة .

وكان أكثر فتواهم فى المناسك ،وكان يتوقف فى الطلاق ، وبعدهم : مسلم بن خالد الزنجى ، وسعيد بن سالم القداح ، وبعدهما : الإمام محمد بن إدريس الشافعى، ثم عبد الله بن الزبير الحميدى، وإبراهيم بن محمد الشافعى ابن عم محمد ، وموسى بن أبى الجارود وغيرهم .

فصل

وكان من المفتين بالبصرة : عمرو بن سلمة الجرمى ، وأبو مريم الحنفى ، وكعب بن سَوْد ، والحسن البصرى ، وأدرك خمسمائة من الصحابة ، وقد جمع بعض العلماء فتاويه فى سبعة أسفار ضخمة ، قال أبو محمد بن حزم : وأبو الشعثاء جابر بن زيد ، ومحمد بن سيرين ، وأبو قلابة عبد الله بن زيد الجرمى ، ومسلم بن يسار ، وأبو العالية ، وحميد بن عبد الرحمن ،ومطرف بن عبد الله الشخير : وزرارة بن أبى أوفى وأبو بردة بن أبى موسى ثم بعدهم أيوب السختيانى ، وسليمان التيمى ، وعبد الله بن عوف ، ويونس بن عبيد ، القاسم بن ربيعة وخالد بن أبى عمران ، وأشعث بن عبد الملك الحمرانى ، وقتادة ، وحفص بن سليمان ، وإياس بن معاوية القاضى ، وبعدهم : سوار القاضى ، وأبو بكر العتكى ، وعثمان بن سليمان البتى وطلحة بن إياس القاضى ، وعبيد الله بن الحسن العنبرى ، وأشعث بن جابر بن زيد .

ثم بعد هؤلاء : عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفى ، وسعيد بن أبى عروبة ، وحماد ابن سلمة ، وحماد بن زيد ، وعبد الله بن داود الحرشَى ،وإسماعيل بن علية ، وبشر بن المفضل ، ومعاذ بن معاذ العنبرى ، ومعمر بن راشد ، والضحاك بن مخلد ، ومحمد بن عبد الله الأنصارى .

فصل

وكان من المفتين بالكوفة : علقمة بن قيس النخعى ، والأسود بن يزيد النخعى ، وهو عم علقمة ، وعمرو بن شُرَحبيل الهمدانى ، ومسروق بن الأجدع الهمدانى ، وعبيدة السلمانى ، وشريح بن الحارث القاضى ، وسليمان بن ربيعة الباهى ، وزيد بن صوحان ، وسويد بن غفلة ، والحارث بن قيس الجعفى ، وعبد الرحمن بن يزيد النخعى ، وعبد الله

ابن عتبة بن مسعود القاضى ، وخيثمة بن عبد الرحمن ، وسلمة بن صهيب ، ومالك بن عامر ، وعبد الله بن سخبرة ، وزِرّ بن حبيش ، وخلاس بن عمرو ، وعمرو بن ميمون الأودى ، وهمام بن الحارث ، والحارث بن سويد ، ويزيد بن معاوية النخعى ، والربيع بن خثيم ، وعتبة بن فرقد ، وصلة بن زُفر ، وشريك بن حنبل ، وأبو وائل : شقيق بن سلمة ، وعبيد بن نضلة . وهؤلاء أصحاب على وابن مسعود ، وأكابر التابعين كانوا يفتون فى الدين ، ويستفتيهم الناس وأكابر الصحابة حاضرون ، يجوزون لهم ذلك ، وأكثرهم أخذ عن عمر وعائشة وعلىّ ، ولقى عمرو بن ميمون الأودى معاذ بن جبل وصحبه وأخذ عنه وأوصاه معاذ عند موته أن يلحق بابن مسعود ، فيصحبه ، ويطلب العلم عنده ، ففعل ذلك .

ويضاف إلى هؤلاء أبو عبيدة ، وعبد الرحمن ابنا عبد الله بن مسعود ، وعبد الرحمن ابن أبى ليلى ، وأخذ عن مائة وعشرين من الصحابة ، وميسرة ،وزاذان والضحاك .

بعدهم إبراهيم النخعى ، وعامر الشعبى ، وسعيد بن جبير ، والقاسم بن عبد الرحمن ابن عبد الله بن مسعود،وأبو بكر بن أبى موسى ، ومحارب بن دثار ، والحكم بن عتيبة ، وجبلة بن سحيم ، وصحب ابن عمر ، ثم بعدهم : حماد بن أبى سليمان ، وسليمان بن المعتمر ، وسليمان الأعمش ، ومسعر بن كدام ، ثم بعدهم : محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى،وعبد الله بن شبرمة ،وسعيد بن أشوع ، وشريك القاضى ، والقاسم بن معن ، وسفيان الثورى ، وأبو حنيفة والحسن بن صالح بن حى .

ثم بعدهم : حفص بن غياث ، ووكيع بن الجراح ، وأصحاب أبى حنيفة كأبى يوسف القاضى ، وزفر بن الهذيل ، وحماد بن أبى حنيفة ، والحسن بن زياد اللؤلؤى القاضى ، ومحمد بن الحسن قاضى الرقة ، وعافية القاضى ، وأسد بن عمرو ، ونوح بن دراج القاضى ، وأصحاب سفيان الثورى كالأشجعى ، والمعافى بن عمران ، وصاحبى الحسن بن حى الزولى ، ويحيى بن آدم .

فصل

وكان من المفتين بالشام : أبو إدريس الخَوْلَانى ، وشُرَحْبيل بن السِّمْطِ ، وعبد الله ابن أبى زكريا الخزاعى ، وقَبِيصَة بن ذُؤَيْبِ الخزاعى ، وحبَّان بن أمية ، وسليمان بن حبيب المُحارِبى ، والحارث بن عميرة الزّبيدى ، وخالد بن مَعْدَان ، وعبد الرحمن بن غَنْم الأشعرى ، وجُبَير بن نُفَير ، ثم كان بعدهم : عبد الرحمن بن جبير بن نفير ، ومكحول ،

وعمر بن عبد العزيز ، ورجاء بن حيوة ، وكان عبد الملك بن مروان يُعَد فى المفتين قبل أن يَلِى ما وَلِى ، وحدير بن كريب ، ثم كان بعدهم يحيى بن حمزة القاضى ، وأبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعى،وإسماعيل بن أبى المهاجر ،وسليمان بن موسى الأموى ، وسعيد بن عبد العزيز ، ثم مخلد بن الحسين ، والوليد بن مسلم ، والعباس بن يزيد صاحب الأوزاعى ،وشعيب بن إسحاق صاحب أبى حنيفة ، وأبو إسحاق الفزارى صاحب ابن المبارك.

فصل

فى المفتين من أهل مصر : يزيد بن أبى حبيب ، وبكير بن عبد الله بن الأشج ، وبعدهما : عمرو بن الحارث ، وقال ابن وهب : لو عاش لنا عمرو بن الحارث ما احتجنا معه إلى مالك ، ولا إلى غيره ، والليث بن سعد ، وعبيد الله بن أبى جعفر ، وبعدهم : أصحاب مالك كعبد الله بن وهب ، وعثمان بن كنانة ، وأشهب ، وابن القاسم على غَلَبَةِ تقليده لمالك إلا فى الأقل ، ثم أصحاب الشافعى كالمزنِى ، والبُوَيْطِىّ وابن عبد الحكم، ثم غلب عليهم تقليدُ مالك وتقليد الشافعى إلا قوما قليلا لهم اختيارات ، كمحمد بن على بن يوسف،وأبى جعفر الطحاوى ،وكان بالقيروان سَحْنُونُ بن سعيد ، وله كثير من الاختيار ، وسعيد بن محمد الحداد ، وكان بالأندلس ممن له شىء من الاختيار يحيى بن يحيى ، وعبدُ الملك بن حبيب ، وبقى بن مخلد ، والقاسم بن محمد صاحب الوثائق ، تحفظ لهم فتاوٍ يسيرة ،وكذلك مسلمة بن عبد العزيز القاضى ، ومنذر بن سعيد. قال أبو محمد : وممن أدركنا من أهل العلم على الصفة التى من بلغها استحق الاعتداد به فى الاختلاف : مسعود ابن سليمان ، ويوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر.

فصل

وكان باليمن : مُطَرِّف بن مازن قاضى صنعاء ، وعبد الرزاق بن همام ، وهشام بن يوسف ، ومحمد بن ثور ، وسماك بن الفضل .

فصل

وكان بمدينة السلام من المفتين خلق كثير ، ولما بناها المنصور أقدم إليها من الأئمة

والفقهاء والمحدثين بَشَرا كثيرا ، فكان من أعيان المفتين بها أبو عبيد القاسم بن سلام ، وكان جبلا نفخ فيه الرُّوح علما وجلالة ونُبْلا وأدبًا ، وكان منهم : أبو ثور إبراهيم بن خالد الكلبى صاحب الشافعى ، وكان قد جالس الشافعى وأخذ عنه ، وكان أحمد يعظمه ويقول : هو فى سلاخ الثورى .

وكان بها إمام أهل السنة على الإطلاق أحمد بن حنبل ، الذى ملأ الأرض علما وحديثًا وسنة ، حتى إن أئمة الحديث والسنة بعده هم أتباعه إلى يوم القيامة ، وكان ﷺ شديد الكراهة لتصنيف الكتب ،وكان يحب تجريد الحديث ، ويكره أن يكتب كلامه ، ويشتد عليه جدا ، فعلم الله حسن نيته وقصده ، فكتب من كلامه وفتواه أكثر من ثلاثين سفرًا ، ومنَّ الله ـ سبحانه ـ علينا بأكثرها ، فلم يفتنا منها إلا القليل .

وجمع الخلال نصوصه فى الجامع الكبير ، فبلغ نحو عشرين سفرًا أو أكثر ، ورويت فتاويه ومسائله ، وحُدِّث بها قرنا بعد قرن ، فصارت إماما وقدوة لأهل السنة على اختلاف طبقاتهم ، حتى إن المخالفين لمذهبه بالاجتهاد ، والمقلدين لغيره لَيعظِّمون نصوصه وفتاواه ، ويعرفون لها حقها وقربها من النصوص ، وفتاوى الصحابة . ومن تأمل فتاواه وفتاوى الصحابة رأى مطابقة كل منها على الأخرى ورأى الجميع كأنها تخرج من مِشْكاة واحدة ، حتى إن الصحابة إذا اختلفوا على قولين جاء عنه فى المسألة روايتان ، وكان تحريه لفتاوى الصحابة كمتحرّى أصحابه لفتاويه ونصوصه بل أعظم ، حتى إنه ليقدم فتاواهم على الحديث المرسل ، قال إسحاق بن إبراهيم بن هانئ فى مسائله : قلت لأبى عبد الله : حديث عن رسول الله ﷺ مرسل برجال ثَبْت ، أحب إليك أو حديث عن الصحابة والتابعين متصل برجال ثبْت ؟ قال أبو عبد الله ـ رحمه الله : عن الصحابة أعجب إلى[1].

فصل
فى عِظَم أمر الفتوى

عن محمد بن المنكدر قال: إن العالم بين الله وبين خلقه ، فلينظر كيف يدخل بينهم . وقال سهل بن عبد الله : من أراد أن ينظر إلى محاسن الأنبياء فلينظر إلى محاسن العلماء، يجىء الرجل فيقول : يا فلان أيش تقول فى رجل حلف على امرأته بكذا وكذا ، فيقول : طلقت امرأته ، وهذا مقام للأنبياء ، فاعرفوا لهم ذلك .

(١) إعلام الموقعين (١ / ١١ ـ ٢٩) .

قال عبد الرحمن بن أبى ليلى : أدركت عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ يسأل أحدهم المسألة فيردها هذا إلى هذا ، وهذا إلى هذا ، حتى ترجع إلى الأول، ما منهم من أحد إلا ودّ أن أخاه كفاه الفتيا .

وقال ابن مسعود : من أفتى الناس فى كل ما يستفتونه فهو مجنون . وعن ابن عباس رضي الله عنهما نحوه . وقال حصين الأسدى : إن أحدكم ليفتى فى المسألة ،لو ردت على عمر بن الخطاب لجمع لها أهل بدر . وعن الحسن والشعبى مثله .

وقال الحاكم : سمعت أبا عبد الله الصفار يقول : سمعت عبد الله بن أحمد يقول : سمعت أبى يقول : سمعت الشافعى يقول : سمعت مالك بن أنس يقول : سمعت محمد ابن عجلان يقول : إذا أخطأ العالم لا أدرى أصيبت مقاتله . وروى ذلك بنحوه عن ابن عباس . وذكر أبو عمر عن القاسم بن محمد : أنه جاءه رجل فسأله عن شىء ، فقال القاسم: لا أحسنه، فجعل الرجل يقول : إنى دفعت إليك لا أعرف غيرك ، فقال القاسم : لا تنظر إلى طول لحيتى وكثرة الناس حولى ، والله لا أحسنه . فقال شيخ من قريش جالس إلى جنبه : يا ابن أخى ، الزمها ، فوالله ما رأيت فى مجلس أبيك مثل اليوم، فقال القاسم : والله لئن يقطع لسانى أحب إلى من أن أتكلم بما لا أعلم .

وذكر أبو عمر عن ابن عيينة وسحنون : أجسر الناس على الفتيا أقلهم علما . وكان مالك يقول : من أجاب فى مسألة فينبغى من قبل أن يجيب فيها أن يعرض نفسه على الجنة أو النار ، وكيف يكون خلاصه فى الآخرة .وسئل عن مسألة فقال : لا أدرى ، فقيل له : إنها مسألة خفيفة سهلة ، فغضب وقال : ليس فى العلم شىء خفيف ، ألم تسمع قوله جل ثناؤه : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ۝ ﴾ [المزمل] ، فالعلم كله ثقيل وخاصة ما يسأل عنه يوم القيامة وقال : كان أصحاب رسول الله ﷺ تصعب عليهم المسائل ولا يجيب أحدهم فى مسألة حتى يأخذ رأى صاحبه ، مع ما رزقوا من السداد والتوفيق مع الطهارة ، فكيف بنا الذى غطت الخطايا والذنوب قلوبنا .

وقال عبد الرحمن بن مهدى : جاء رجل إلى مالك يسأله عن شىء أياما ما يجيبه ، فقال : يا أبا عبد الرحمن ، إنى أريد الخروج وقد طال التردد إليك ، فأطرق طويلا ثم رفع رأسه وقال : ماشاء الله ، يا هذا إنى إنما أتكلم فيما أحتسب فيه الخير ، ولست أحسن مسألتك هذه .

وسئل الشافعى عن مسألة فسكت ، فقيل له : ألا تجيب ـ يرحمك الله ـ فقال : حتى أدرى الفضل فى سكوتى أو فى الجواب . وكان سعيد بن المسيب لا يكاد يفتى فتيًا ولا

يقول شيئًا إلا قال :اللهم سلمنى،وسلم منى . وقال سحنون : أشقى الناس من باع آخرته بدنياه ، وأشقى منه من باع آخرته بدنيا غيره ، فقال : تفكرت فيه ، وجدته المفتى يأتيه الرجل قد حنث فى امرأته ورقيقه ، فيقول له : لا شىء عليك ، فيذهب الحانث فيستمتع بامرأته ورقيقته ، وقد باع المفتى دينه بدنيا هذا .

وجاء رجل إلى سحنون يسأله عن مسألة ، فأقام يتردد إليه ثلاثة أيام ، فقال : مسألتى أصلحك الله ، اليوم ثلاثة أيام ، فقال له : وما أصنع بمسألتك ، مسألتك معضلة ، وفيها أقاويل ، وأنا متحير فى ذلك ، فقال : وأنت ـ أصلحك الله ـ لكل معضلة ، فقال سحنون : هيهات يا بن أخى ، ليس بقولك هذا أبذل لحمى ودمى للنار ، وما أكثر ما لا أعرف ، إن صبرت رجوت أن تنقلب بمسألتك ، وإن أردت تمضى إلى غيرى فامض تجاب فى مسألتك فى ساعة ، فقال : إنما جئت إليك ولا أستفتى غيرك ، قال : فاصبر ، ثم أجابه بعد ذلك . وقيل له : إنك تسأل عن المسألة لو سئل عنها أحد من أصحابك لأجاب فيها فتتوقف فيها ، فقال : إن فتنة الجواب بالصواب أشد من فتنة المال.

وقال بعض العلماء : قلّ من حرص على الفتوى وسابق إليها وثابر عليها إلا قل توفيقه،واضطرب فى أمره ، وإن كان كارها لذلك غير مختار له ما وجد مندوحة عنه وقدر أن يحيل بالأمر فيه إلى غيره كانت المعونة له من الله أكثر ، والصلاح فى جوابه وفتاويه أغلب . وقال بشر الحافى : من أحب أن يسأل فليس : بأهل أن يسأل . وذكر أبو عمر عن مالك : أخبرنى رجل أنه دخل على ربيعة فوجده يبكى ، فقال : ما يبكيك ، أمصيبة دخلت عليك ؟ وارتاع لبكائه ، فقال : لا ، ولكن أستفتى من لا علم له وظهر فى الإسلام أمر عظيم . قال ربيعة : ولبعض من يفتى هاهنا أحق بالحبس من السرَّاق [(١)].

فصل
فى تحريم الفتوى بغير علم

قوله تعالى : ﴿ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٣) ﴾ [الأعراف] يتناول القولَ على الله بغير علم فى أسمائه وصفاته وشَرْعه ودينه .

حديث أبى هريرة المرفوع : « من أفتى بفُتْيَا غير ثَبْت فإنما إثمه على من أفتاه » [(٢)]

---

(١) بدائع الفوائد : (٣ / ٢٧٥ ـ ٢٧٧) .

(٢) ابن ماجه (٥٣) فى المقدمة ، باب:اجتناب الرأى والقياس،وأحمد (٢ / ٣٢١) وأبو داود (٣٦٥٧) فى العلم ، =

وروى الزهرى عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال : سمع النبى ﷺ قوما يتماروْن فى القرآن فقال : « إنما هلك من كان قبلكم ، بهذا ضربوا كتاب الله بعضُه بعضًا ، وإنما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضا ، ولا يكذب بعضه بعضا فما علمتم منه فقولوا ، وما جهلتم منه فكلُوه إلى عالِمه »(١) (٢)، فأمر من جهل شيئًا من كتاب الله يكله إلى عالمه ، ولا يتكلف القولَ بما لا يعلمه .

وروى مالك بن مغْوَل ، عن أبى حصين ، عن مجاهد ، عن عائشة : أنه لما نزل عذرها قبَّل أبو بكر رأسها ، قالت : فقلت : ألا عذرتنى عند النبى ﷺ ؟ فقال : أىّ سماء تُظلُّنى ، وأى أرض تُقلِّنى ، إذا قلت ما لا أعلم .

وروى أيوب عن ابن أبى مُلَيكة قال : سئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن آية فقال : أى أرض تُقلِّنى ، وأى سماء تُظِلّنى ، وأين أذهب ، وكيف أصنع إذا أنا قلت فى كتاب الله بغير ما أراد الله بها ؟

وذكر البيهقى من حديث مسلم بن أبى عمران البطين عن عزرة التميمى ، قال : قال على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه فى الجنة: وَابَرْدهَا على كبدى ! ثلاث مرات ، قالوا : يا أمير المؤمنين ، وما ذاك ؟ قال : أن يسأل الرجل عما لا يَعلم ، فيقول : الله أعلم .

وذكر أيضًا عن على رضي الله عنه قال : خمس إذا سافر فيهن رجل إلى اليمن كن فيه عوضا من سفره : لا يخشى عبد إلا ربَّه ، ولا يخاف إلا ذنبه ، ولا يستحى مَنْ لا يعلم أن يتعلم، ولا يستحى مَنْ يعلم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول : الله أعلم ، والصبر من الدين بمنزلة الرأس من الجسد .

وقا الزهرى عن خالد بن أسلم ـ وهو أخو زيد بن أسلم: خرجنا مع ابن عمر نمشى ، فلحقنا أعرابى ، فقال : أنت عبد الله بن عمر ؟ قال : نعم ، قال : سألت عنك ، فدللت عليك ، فأخبرنى : أترث العمة ؟ قال : لا أدرى ، قال : أنت لا تدرى ؟ ! قال : نعم ، اذهب إلى العلماء بالمدينة ، فاسألهم ، فلما أدبر قبل يديه ، وقال : نِعْم ما قال أبو عبد الرحمن ، سئل عما لا يدرى ، فقال : لا أدرى.

= باب : التوقى فى الفتيا بنحوه .

(١) أحمد (٢ / ١٨٥) واللفظ له ، وابن ماجه (٨٥) فى المقدمة ، باب : فى القدر ، بنحوه ، وشرح السنة (١ / ٢٦٠) ، وقال الشيخ شاكر (٦٧٤١) : « إسناده صحيح » .

(٢) إعلام الموقعين (١ / ٣٩) .

وقال ابن مسعود : من كان عنده علم فليقل به ، ومن لم يكن عنده علم فليقل : الله أعلم ، فإن الله قال لنبيه : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) ﴾ [ص]، وصح عن ابن مسعود ، وابن عباس : من أفتى الناس فى كل ما يسألونه عنه فهو مجنون .

وقال ابن شبرمة : سمعت الشعبى إذا سئل عن مسألة شديدة ، قال : رُبَّ ذات وَبَر لا تنقاد ، ولا تنساق ، ولو سُئِل عنها الصحابة لعَضَلَتْ بهم .

وقال أبو حصين الأسدى : إن أحدهم ليفتى فى المسألة ، ولو وردت على عمر لجمع لها أهلَ بدر .

وقال ابن سيرين : لأن يموت الرجل جاهلا، خير له من أن يقول ما لا يعلم .

وقال القاسم : من إكرام الرجل نفسه ألا يقول إلا ما أحاط به علمه .

وقال : يا أهل العراق ، والله لا نعلم كثيرًا مما تسألونا عنه ، ولأن يعيش الرجل جاهلا إلا أن يعلم ما فرض الله عليه خير له من أن يقول على الله ورسوله ما لايعلم .

وقال مالك : من فقه العالم أن يقول : لا أعلم ، فإنه عسى أن يتهيأ له الخير .

وقال : سمعت ابن هُرْمُز يقول : ينبغى للعالم أن يورث جلساءه من بعده : لا أدرى ، حتى يكون ذلك أصلا فى أيديهم يفزعون إليه.

وقال الشعبى : لا أدرى : نصفُ العلم .

وقال ابن جبير : ويل لمن يقول لما لا يعلم : إنى أعلم .

وقال الشافعى : سمعت مالكا يقول : سمعت ابن عجلان يقول : إذا أغفل العالم لاأدرى أصيبت مَقاتله ، وذكره ابن عجلان عن ابن عباس .

وقال عبد الرحمن بن مهدى : جاء رجل إلى مالك ، فسأله عن شىء . فمكث أيامًا ما يجيبه . فقال: يا أبا عبد الله ، إنى أريد الخروج ، فأطرق طويلا ، ورفع رأسه ، فقال : ما شاء الله يا هذا ، إنى أتكلم فيما أحتسب فيه الخير ولست أحسن مسألتك هذه .

وقال ابن وهب : سمعت مالكا يقول : العجلة فى الفتوى نوعٌ من الجهل والخرَق . قال : وكان يقال : التأنى من الله ، والعجلة من الشيطان . وهذا الكلام قد رواه الليث بن سعد عن يزيد بن أبى حبيب ، عن سعد بن سنان عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: « التأنى من الله ، والعجلة من الشيطان » (١) ، وإسناده جيد .

---

(١) أبو يعلى : (٤٢٥٦) ، والبيهقى فى الكبرى (١٠ / ١٠٤) فى آداب القاضى ، باب : التثبت فى الحكم ، وقال الهيثمى فى المجمع (٨ / ٢٢) : « رجاله رجال الصحيح » .

وقال ابن المنكدر : العالم بين الله وبين خلقه . فلينظر كيف يدخل بينهم .

وقال ابن وهب : قال لى مالك وهو ينكر كثرة الجواب فى المسائل : يا عبد الله ، ما علمت فقل ، وإياك أن تقلد الناسَ قِلادة سوء .

وقال مالك : حدثنى ربيعة . قال : قال لى أبو خلدة ـ وكان نعم القاضى :يا ربيعة ، أراك تفتى الناس ، فإذا جاءك الرجل يسألك ، فلا يكن همك أن تتخلص مما سألك عنه .

وكان ابن المسيب لا يكاد يفتى إلا قال : اللهم سلمنى وسلم منى .

وقال مالك : ما أجبت فى الفتوى حتى سألت مَن هو أعلم منى ، وهل ترانى موضعًا لذلك ؟ سألت ربيعة ، وسألت يحيى بن سعيد ، فأمرانى بذلك،فقيل له: يا أبا عبد الله ، فلو نهوْك ؟ قال : كنت انتهى .

وقال ابن عباس لمولاه عكرمة : اذهب فأفْت الناس ، وأنا لك عون . فمن سألك عما يعنيه فأفته ، ومن سألك عما لا يعنيه ، فلا تُفْته ، فإنك تطرح عن نفسك ثلثى مؤنة الناس .

وكان أيوب إذا سأله السائل ، قال له : أعِدْ ، فإن أعاد السؤال كما سأله عنه أولا أجابه ، وإلا لم يجبه ، وهذا من فهمه وفطنته رحمه الله .

وفى ذلك فوائد عديدة :

منها : أن المسألة تزداد وضوحًا وبيانًا بتفهم السؤال .

ومنها : أن السائل لعله أهمل فيها أمرًا يتغير به الحكم ، فإذا أعادها ربما بينه له .

ومنها : أن المسؤول قد يكون ذاهلا عن السؤال أولا ، ثم يحضر ذهنه بعد ذلك .

ومنها : أنه ربما بان له تعنت السائل ، وأنه وضع المسألة ، فإذا غيَّر السؤال ، وزاد فيه ونقص ، فربما ظهر أن المسألة لا حقيقة لها ، وأنها من الأغْلُوطات أو غير الواقعات التى لا يجب الجواب عنها ، فإن الجواب بالظن إنما يجوز عند الضرورة ، فإذا وقعت المسألة صارت حال ضرورة ، فيكون التوفيق إلى الصواب أقرب ، والله أعلم [١] .

وأيضا

قد حرم الله ـ سبحانه ـ القول عليه بغير علم فى الفتيا والقضاء ، وجعله من أعظم

---

(١) إعلام الموقعين (٢ / ١٦٤ ـ ١٦٨) .

المحرمات بل جعله فى المرتبة العليا منها ، فقال تعالى ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [الأعراف : ٣٣] فرتب المحرمات أربع مراتب ، وبدأ بأسهلها ، وهو الفواحش ، ثم ثنى بما هو أشد تحريما منه ، وهو الإثم والظلم ، ثم ثلث بما هو أعظم تحريما منهما ، وهو الشرك به سبحانه ، ثم ربع بما هو أشد تحريما من ذلك كله ، وهو القول عليه بلا علم،وهذا يعم القول عليه ـ سبحانه ـ بلا علم فى أسمائه وصفاته وأفعاله، وفى دينه وشرعه ،وقال تعالى :﴿ **وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [النحل] فتقدم إليهم ـ سبحانه ـ بالوعيد على الكذب عليه فى أحكامه ، وقولهم لما لم يحرمه : هذا حرام ، ولما لم يحله: هذا حلال ، وهذا بيان منه ـ سبحانه ـ أنه لا يجوز للعبد أن يقول : هذا حلال ، وهذا حرام إلا بما علم أن الله ـ سبحانه ـ أحله وحرمه .

وقال بعض السلف : لِيَتَّقِ أحدُكم أن يقول : أحل الله كذا ، وحرم كذا ، فيقول الله له : كذبت ، لم أحل كذا ، ولم أحرم كذا . فلا ينبغى أن يقول لما لا يعلم : ورد الوحى المبين بتحليله وتحريمه : أحله الله وحرمه الله لمجرد التقليد أو بالتأويل .

وقد نهى النبى ﷺ فى الحديث الصحيح أميره « بريدة » أن ينزل عدوه إذا حاصرهم على حكم الله وقال :« فإنك لا تدرى أتصيب حكم الله فيهم ، أم لا ؟ ولكن أنزلهم على حكمك وحكم أصحابك » (١)، فتأمل كيف فرق بين حكم الله، وحكم الأمير المجتهد، ونهى أن يسمى حكم المجتهدين حكم الله .

ومن هذا لما كتب الكاتب بين يدى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حكما حكم به، فقال : هذا ما أرى الله أمير المؤمنين عمر ، فقال : لا تقل : هكذا ، ولكن قل : هذا ما رأى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

وقال ابن وهب : سمعت مالكا يقول : لم يكن من أمر الناس ، ولا من مضى من سلفنا ، ولا أدركت أحدا اقتدى به يقول فى شىء : هذا حلال وهذا حرام ، وما كانوا يجترئون على ذلك ، وإنما كانوا يقولون : نكره كذا ، ونرى هذا حسنا فينبغى هذا ، ولا نرى هذا ، ورواه عنه عتيق بن يعقوب ، وزاد : ولا يقولون:حلال ولا حرام ،أما سمعت

(١) أبو داود (٢٦١٢) فى الجهاد ، باب فى دعاء المشركين ، وابن ماجة (٢٨٥٨) فى الجهاد ، باب وصية الإمام ، وأحمد (٥ / ٣٥٨) .

قول الله تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس : ٥٩] الحلال : ما أحله الله ورسوله ، والحرام ما حرمه الله ورسوله .

والمقصود : أن الله ـ سبحانه ـ حرم القول عليه بلا علم فى أسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه ، والمفتى يخبر عن الله عز وجل وعن دينه ، فإن لم يكن خبره مطابقا لما شرعه كان قائلا عليه بلا علم ، ولكن إذا اجتهد واستفرغ وسعه فى معرفة الحق وأخطأ لم يلحقه الوعيد وعفى له عما أخطأ به وأثيب على اجتهاده ، ولكن لا يجوز أن يقول لما أداه إليه اجتهاده ، ولم يظفر فيه بنص عن الله ورسوله : إن الله حرم كذا وأوجب كذا ، وأباح كذا ،وأن هذا هو حكم الله. قال ابن وضاح : ثنا يوسف بن عدى ، ثنا عبيدة بن حميد ، عن عطاء بن السائب قال : قال الربيع بن خثيم : إياكم أن يقول الرجل لشىء : إن الله حرم هذا ، أو نهى عنه ، فيقول الله : كذبت لم أحرمه ، ولم أنه عنه ، أو يقول: إن الله أحل هذا ، أو أمر به ، فيقول الله : كذبت لم أحله ولم آمر به . قال أبو عمر : وقد روى عن مالك أنه قال فى بعض ما كان ينزل به ، فيسأل عنه ، فيجتهد فيه رأيه :﴿ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية : ٣٢] (١) .

فصل
فى تحريم الإفتاء بما يخالف النصوص والأدلة من القرآن والسنة وأقوال الأئمة

قال الله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا﴾ [الأحزاب : ٣٦] ،وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات : ١] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور : ٥١] ، وقوله تعالى :﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء : ١٠٥] ، وقال تعالى : ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف : ٣] ،

(١) إعلام الموقعين (١ / ٣٩ ـ ٤١، ٤٥ ، ٤٦) .

وقال تعالى : ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] ، وقال تعالى: ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام : ٥٧] ، وقال تعالى: ﴿لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً ﴾ [الكهف : ٢٦] ،وقال تعالى : ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [المائدة : ٤٥] ، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة : ٤٧] ، فأكد هذا التأكيد، وكرر هذا التقرير في موضع واحد لعظم مفسدة الحكم بغير ما أنزله ، وعموم مضرته وبلية الأمة به ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٣] ، وأنكر تعالى على من حاج في دينه بما ليس له به علم فقال تعالى : ﴿ هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران : ٦٦] ، ونهى أن يقول أحد : هذا حلال ، وهذا حرام لما لم يحرمه الله ورسوله نصا ، وأخبر أن فاعل ذلك مفتر على الله الكذب ،فقال :﴿ وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النحل] والآيات في هذا المعنى كثيرة .

وأما السنة ففي الصحيحين من حديث ابن عباس ، أن هلال بن أمية قذف امرأته بشريك ابن السحماء عند النبي ﷺ ، فذكر حديث اللعان ، وقول النبي ﷺ « أبصروها ، فإن جاءت به أكحل العينين سابغ الأليتين خدلج الساقين ، فهو لشريك ابن السحماء ، وإن جاءت به كذا وكذا،فهو لهلال بن أمية » فجاءت به على النعت المكروه ، فقال النبي ﷺ : « لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن »[1] يريد والله ورسوله أعلم بكتاب الله قوله تعالى : ﴿ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ﴾ [النور : ٨] ويريد بالشأن ـ والله أعلم ـ أنه كان يحدها لمشابهة ولدها للرجل الذي رميت به ، ولكن كتاب الله فصل الحكومة ، وأسقط كل قول وراءه ، ولم يبق للاجتهاد بعده موقع .

---

(١) البخاري (٤٧٤٧) في التفسير واللفظ له ، باب ﴿ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ﴾ [النور : ٨] ، ومسلم (١٤٩٦ / ١١) في اللعان ولكن بدون الجملة الأخيرة .

وقال الشافعى : أخبرنا سفيان بن عيينة عن عبيد الله بن أبى يزيد ، عن أبيه ، قال : أرسل عمر بن الخطاب إلى شيخ من زهرة كان يسكن دارنا ، فذهبت معه إلى عمر رضي الله عنه ، فسأله عن ولاد من ولاد الجاهلية ، فقال : أما الفراش فلفلان ، وأما النطفة فلفلان ، فقال عمر : صدقت ، ولكن ﷺ قضى بالفراش (١) .

قال الشافعى : وأخبرنى من لا أتهم عن ابن أبى ذئب ، قال : أخبرنى مخلد بن خفاف قال : ابتعت غلاما ، فاستغللته ، ثم ظهرت منه على عيب ، فخاصمت فيه إلى عمر بن عبد العزيز ، فقضى لى برده ، وقضى على برد غلته ، فأتيت عروة ، فأخبرته ، فقال : أروح إليه العشية فأخبره أن عائشة أخبرتنى أن رسول الله ﷺ قضى فى مثل هذا أن الخراج بالضمان (٢) ، فعجلت إلى عمر ، فأخبرته بما أخبرنى به عروة ، عن عائشة ، عن رسول الله ﷺ ، فقال عمرو : فما أيسر هذا على من قضاء قضيته ، اللهم إنك تعلم أنى لم أرد فيه إلا الحق ، فبلغتنى فيه سنة عن رسول الله ﷺ فارد قضاء عمر وأنفذ سنة رسول الله ﷺ ، فراح إليه عروة ، فقضى لى أن آخذ الخراج من الذى قضى به علىّ له .

قال الشافعى : وأخبرنى من لا أتهم من أهل المدينة عن ابن أبى ذئب ، قال : قضى سعد بن إبراهيم على رجل بقضية برأى ربيعة بن أبى عبد الرحمن ، فأخبرته عن النبى ﷺ بخلاف ما قضى به ، فقال سعد لربيعة : هذا ابن أبى ذئب ، وهو عندى ثقة يخبرنى عن النبى ﷺ بخلاف ما قضيت به ، فقال له ربيعة : قد اجتهدت ، ومضى حكمك ، فقال سعد : وا عجبا أنفذ قضاء سعد ابن أم سعد ، وأرد قضاء رسول الله ﷺ ، بل أرد قضاء سعد ابن أم سعد ، وأنقذ قضاء رسول الله ﷺ ، فدعا سعد بكتاب القضية ، فشقه وقضى للمقضى عليه .

فليوحشنا المقلدون ، ثم أوحش الله منهم .

وقال أبو النضر هاشم بن القاسم : حدثنا محمد بن راشد عن عبدة بن أبى لبابة ، عن هشام بن يحيى المخزومى: أن رجلا من ثقيف أتى عمر بن الخطاب ، فسأله عن امرأة حاضت ، وقد كانت زارت البيت يوم النحر : ألها أن تنفر ؟ فقال عمر : لا ، فقال له الثقفى : إن رسول الله ﷺ أفتانى فى مثل هذه المرأة بغير ما أفتيت به ، فقام إليه عمر يضربه بالدرة ، ويقول: لم تستفتينى فى شىء قد أفتى فيه رسول الله ﷺ ؟ ورواه أبو داود

(١) ترتيب مسند الإمام الشافعى ١/ ٣٥٠ (٩٠٣) .

(٢) ترتيب مسند الإمام الشافعى ٢ / ١٤٤ (٤٨٢) .

بنحوه [(١)] .

وقال أبو بكر بن أبى شيبة : ثنا صالح بن عبد الله ، ثنا سفيان بن عامر ، عن عتاب ابن منصور قال : قال عمر بن عبد العزيز : لا رأى لأحد مع سنة سنها رسول الله ﷺ .

وقال الشافعى : أجمع الناس على أن من استبانت له سنة عن رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس .

وتواتر عنه أنه قال : إذا صح الحديث فاضربوا بقولى الحائط .

وصح عنه أنه قال : إذا رويت عن رسول الله ﷺ حديثا ، ولم آخذ به ، فاعلموا أن عقلى قد ذهب

وصح عنه أنه قال : لا قول لأحد مع سنة رسول الله ﷺ .

وقال إسرائيل عن أبى إسحاق ، عن سعد بن إياس ، عن ابن مسعود : أن رجلا سأله عن رجل تزوج امرأة ، فرأى أمها فأعجبته ، فطلق امرأته ليتزوج أمها ، فقال : لا بأس ، فتزوجها الرجل ، وكان عبد الله على بيت المال ، فكان يبيع نفاية بيت المال يعطى الكثير ، ويأخذ القليل ، حتى قدم المدينة ، فسأل أصحاب محمد ﷺ فقالوا : لا تحل لهذا الرجل هذه المرأة،ولا تصلح الفضة إلا وزنا بوزن ، فلما قدم عبد الله انطلق إلى الرجل ، فلم يجده ووجد قومه فقال:إن الذى أفتيت به صاحبكم لا يحل، وأتى الصيارفة ، فقال : يا معشر الصيارفة ، إن الذى كنت أبايعكم لا يحل ، لا تحل الفضة إلا وزنا بوزن .وفى صحيح مسلم : من حديث الليث عن يحيى بن سعيد ، عن سليمان بن يسار : أن أبا هريرة وابن عباس وأبا سلمة بن عبد الرحمن تذاكروا فى المتوفى عنها الحامل، تضع عند وفاة زوجها ، فقال ابن عباس : تعتد آخر الأجلين ، فقال أبو سلمة : تحل حين تضع ، فقال أبو هريرة : وأنا مع ابن أخى ، فأرسلوا إلى أم سلمة ، فقالت : قد وضعت سبيعة بعد وفاة زوجها بيسير ، فأمرها رسول الله ﷺ أن تتزوج [(٢)] .

وقد تقدم من ذكر رجوع عمر رضي الله عنه وأبى موسى وابن عباس عن اجتهادهم إلى السنة ما فيه كفاية .

وقال شداد بن حكيم عن زفر بن الهذيل : إنما نأخذ بالرأى ما لم نجد الأثر ، فإذا جاء الأثر تركنا الرأى ، وأخذنا بالأثر .

---

(١) أبو داود (٢٠٠٤) فى الحج ، باب : الحائض تخرج بعد الإفاضة .

(٢) مسلم (١٤٨٥ / ٥٧) فى الطلاق ، باب انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها وغيرها بوضع الحمل .

وقال محمد بن إسحاق بن خزيمة الملقب بإمام الأئمة: لا قول لأحد مع رسول الله ﷺ إذا صح الخبر عنه ، وقد كان إمام الأئمة ابن خزيمة ـ رحمه الله تعالى ـ له أصحاب ينتحلون مذهبه ، ولم يكن مقلدا ، بل إماما مستقلا ، كما ذكر البيهقى فى مدخله عن يحيى بن محمد العنبرى .

قال : طبقات أصحاب الحديث خمسة : المالكية والشافعية والحنبلية ، والراهوية والخزيمية أصحاب ابن خزيمة .

وقال الشافعى : إذا حدث الثقة عن الثقة إلى أن ينتهى إلى رسول الله ﷺ فهو ثابت ، ولا يترك لرسول الله ﷺ حديث أبدا إلا حديث وجد عن رسول الله ﷺ آخر يخالفه .

وقال : فى كتاب اختلافه مع مالك : ما كان الكتاب والسنة موجودين فالعذر على من سمعهما مقطوع إلا بإتيانهما .

وقال الشافعى : قال لى قائل : دلنى على أن عمر عمل شيئا ، ثم صار إلى غيره لخبر نبوى ، قلت له : حدثنا سفيان عن الزهرى عن ابن المسيب أن عمر كان يقول : الدية للعاقلة ، ولا ترث المرأة من دية زوجها حتى أخبره الضحاك بن سفيان أن رسول الله ﷺ كتب إليه أن يورث امرأة الضبابى من ديته ، فرجع إليه عمر [١] .

وأخبرنا ابن عيينة عن عمرو وابن طاوس أن عمر قال: أذكر الله امرأ سمع من النبى ﷺ فى الجنين شيئا ، فقام حمل بن مالك بن النابغة ، فقال : كنت بين جارتين لى، فضربت إحداهما الأخرى بمسطح ، فألقت جنينا ميتا ، فقضى فيه رسول الله ﷺ بغرة فقال عمر : لو لم نسمع فيه هذا لقضينا فيه بغير هذا ، أو قال : إن كدنا لنقضى فيه برأينا[٢] ، فترك اجتهاده رضي الله عنه للنص .

وهذا هو الواجب على كل مسلم إذ اجتهاد الرأى إنما يباح للمضطر ، كما تباح له الميتة والدم عند الضرورة ﴿ **فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [البقرة: ١٧٣] ، وكذلك القياس إنما يصار إليه عند الضرورة .

قال الإمام أحمد : سألت الشافعى عن القياس ، فقال : عند الضرورة ، ذكره البيهقى فى مدخله .

---

(١) الرسالة للإمام الشافعى ص٤٢٦ ، والأم (٦/ ٨٨ ، ٨٩) فى جراح العمد ، باب : ميراث الدية ، والبيهقى فى الكبرى (٨/ ١٣٤) فى القسامة ، باب : ميراث الدية .

(٢) الأم (٦ / ١٠٧) فى ديات الخطأ ، باب : دية الجنين ، والبيهقى فى الكبرى (٨ / ١١٤) فى الديات ، باب : دية الجنين .

وكان زيد بن ثابت لا يرى للحائض أن تنفر ، حتى تطوف طواف الوداع ، وتناظر فى ذلك هو وعبد الله بن عباس ، فقال له ابن عباس : إما لا ، فسل فلانة الأنصارية : هل أمرها بذلك ﷺ ، فرجع زيد يضحك ويقول : ما أراك إلا قد صدقت . ذكره البخارى فى صحيحه بنحوه (١) .

وقال ابن عمر: كنا نخابر ولا نرى بذلك بأسا، حتى زعم رافع أن رسول الله ﷺ نهى عنها (٢)، فتركناها من أجل ذلك، وقال عمرو بن دينار عن سالم بن عبد الله أن عمر ابن الخطاب نهى عن الطيب قبل زيارة البيت، وبعد الجمرة، فقالت عائشة: طيبت رسول الله ﷺ بيدى لإحرامه قبل أن يحرم، ولحله قبل أن يطوف بالبيت (٣)، وسنة رسول الله ﷺ أحق .

قال الشافعى : فترك سالم قول جده لروايتها . قلت : لا كما تصنع فرقة التقليد .

وقال الأصم : أخبرنا الربيع بن سليمان : لنعطينك جملة تغنيك إن شاء الله : لا تدع لرسول الله ﷺ حديثا أبدا إلا أن يأتى عن رسول الله ﷺ خلافه ، فتعمل بما قلت لك فى الأحاديث إذا اختلفت .

قال الأصم : وسمعت الربيع يقول : سمعت الشافعى يقول : إذا وجدتم فى كتابى خلاف سنة رسول الله ﷺ فقولوا بسنة رسول الله ﷺ ، ودعوا ما قلت .

وقال أبو محمد الجارودى : سمعت الربيع يقول : سمعت الشافعى يقول : إذا وجدتم سنة عن رسول الله ﷺ خلاف قولى ، فخذوا بالسنة ، ودعوا قولى فإنى أقول بها.

وقال أحمد بن على بن عيسى بن ماهان الرازى: سمعت الربيع يقول: سمعت الشافعى يقول: كل مسألة تكلمت فيها صح الخبر فيها عن النبى ﷺ عند أهل النقل، بخلاف ما قلت، فأنا راجع عنها فى حياتى، وبعد موتى. وقال حرملة بن يحيى، قال الشافعى: ما قلت ، وقد كان النبى ﷺ قد قال بخلاف قولى مما يصح، فحديث النبى ﷺ أولى ، لا تقلدونى .

وقال الحاكم : سمعت الأصم يقول : سمعت الربيع يقول : سمعت الشافعى يقول : وروى حديثا ، فقال له رجل : تأخذ بهذا يا أبا عبد الله ؟ فقال : متى رويت عن رسول الله ﷺ حديثا صحيحا فلم آخذ به فأشهدكم أن عقلى قد ذهب، وأشار بيده إلى رؤوسهم.

---

(١) البخارى (١٧٥٨ ، ١٧٥٩) فى الحج ، باب : إذا حاضت المرأة بعدما أفاضت ، ومسلم (١٣٢٨ / ٣٨١) فى الحج ، باب : وجوب طواف الوداع وسقوطه عن الحائض ، واللفظ لمسلم .

(٢) مسلم (١٥٤٧ / ١٠٦) فى البيوع ، باب : كراء الأرض ، والبيهقى فى المعرفة ٨ / ٣٤٤ (١٢١٣٨) فى الصلح، باب : المزارعة .

(٣) البخارى (١٧٥٤) فى الحج ، باب الطيب بعد رمى الجمار ، ومسلم (١١٨٩ / ٣٣) فى الحج ، باب : الطيب للمحرم عند الإحرام ، والنسائى (٢٦٨٥) فى المناسك ، باب : إباحة الطيب عند الإحرام .

وقال الحميدى : سأل رجل الشافعى عن مسألة ، فأفتاه ، وقال : قال النبى ﷺ كذا ، فقال الرجل : تقول بهذا ؟ قال : أرأيت فى وسطى زنارا ، أترانى خرجت من الكنيسة ؟ أقول : قال النبى ﷺ ، وتقول لى : أتقول بهذا ؟ روى عن النبى ﷺ ، ولا أقول به ؟ وقال الحاكم : أنبأنى أبو عمرو السماك مشافهة أن أبا سعيد الجصاص حدثهم، قال : سمعت الربيع بن سليمان ، يقول : سمعت الشافعى يقول وسأله رجل عن مسألة ، فقال : روى عن النبى ﷺ أنه قال : كذا وكذا ، فقال له السائل : يا أبا عبد الله ، أتقول بهذا ؟ فارتعد الشافعى واصفر وحال لونه ، وقال : ويحك أى أرض تقلنى ، وأى سماء تظلنى ، إذا رويت عن ﷺ شيئا ، فلم أقل به، نعم على الرأس والعينين، نعم على الرأس والعينين .

قال : وسمعت الشافعى يقول : ما من أحد إلا وتذهب عليه سنة لرسول الله ﷺ ، وتعزب عنه ، فمهما قلت من قول ، أو أصلت من أصل فيه عن رسول الله ﷺ خلاف ما قلت ، فالقول ما قال رسول الله ﷺ ، وهو قولى ، وجعل يردد هذا الكلام .

وقال الربيع : قال الشافعى : لم أسمع أحدا نسبته عامة أو نسب نفسه إلى علم يخالف فى أن فرض الله اتباع أمر رسول الله ﷺ والتسليم لحكمه، فإن الله لم يجعل لأحد بعده إلا اتباعه، وأنه لا يلزم قول رجل قال إلا بكتاب الله أو سنة رسوله، وأن ما سواهما تبع لهما ، وأن فرض الله علينا، وعلى من بعدنا وقبلنا فى قبول الخبر، عن رسول الله ﷺ واحد، لا يختلف فيه الفرض، وواجب قبول الخبر، عن رسول الله ﷺ إلا فرقة سأصف قولها إن شاء الله .

قال الشافعى : ثم تفرق أهل الكلام فى تثبيت خبر الواحد عن رسول الله ﷺ تفرقا متباينا ، وتفرق عنهم ممن نسبته العامة إلى الفقه تفرقا أتى بعضهم فيه أكثر من التقليد أو التحقيق من النظر والغفلة والاستعجال بالرياسة .

وقال عبد الله بن أحمد : قال أبى : قال لنا الشافعى : إذا صح لكم الحديث عن النبى ﷺ فقولوا لى ، حتى أذهب إليه . وقال الإمام أحمد : كان أحسن أمر الشافعى عندى : أنه كان إذا سمع الخبر لم يكن عنده قال به ، وترك قوله .

وقال الربيع : قال الشافعى : لا نترك الحديث عن رسول الله ﷺ بألا يدخله القياس، ولا موضع للقياس لموقع السنة .

وقال الربيع : وقد روى عن النبى ﷺ - بأبى هو وأمى - أنه قضى فى بروع بنت واشق أنكحت بغير مهر ، فمات زوجها ، فقضى لها بمهر نسائها ، وقضى لها بالميراث (١) ،

(١) أبو داود : (٢١١٥ ، ٢١١٦) فى النكاح ، باب : فيمن تزوج ولم يسم صداقًا حتى مات ، والترمذى (١١٤٥) فى النكاح ، باب : ما جاء فى الرجل يتزوج المرأة فيموت عنها قبل أن يفرض لها ، والنسائى (٣٣٥٤ - ٣٣٥٨) فى النكاح ، باب : إباحة التزوج بغير صداق ، وابن ماجه (١٨٩١) فى النكاح ، باب : الرجل يتزوج ولا يفرض لها فيموت على ذلك ، وأحمد (١ / ٤٤٧ ، ٤٤٨) .

فإن كان ثبت عن النبى ﷺ فهو أولى الأمور بنا ، ولا حجة فى قول أحد دون النبى ﷺ ، ولا فى قياس ، ولا فى شىء إلا طاعة الله بالتسليم له ، وإن كان لا يثبت عن النبى ﷺ لم يكن لأحد أن يثبت عنه ما لم يثبت ، ولم أحفظه من وجه يثبت مثله ، هو مرة عن معقل بن يسار ، ومرة عن معقل بن سنان ، ومرة عن بعض أشجع لا يسمى .

وقال الربيع : سألت الشافعى عن رفع الأيدى فى الصلاة ، فقال : يرفع المصلى يديه إذا افتتح الصلاة حذو منكبيه ، وإذا أراد أن يركع ، وإذا رفع رأسه من الركوع رفعهما كذلك ، ولا يفعل ذلك فى السجود قلت له : فما الحجة فى ذلك ؟ فقال : أنبأنا ابن عُيَينة عن الزهْرى ، عن سالم عن أبيه عن النبى ﷺ مثل قولنا (١) . قال الربيع : فقلت له : فإنا نقول : يرفع فى الابتداء ، ثم لا يعود .

قال الشافعى : أنا مالك ، عن نافع : أن ابن عمر كان إذا افتتح الصلاة رفع يديه حذو منكبيه ، وإذا رفع رأسه من الركوع رفعهما كذلك ، قال الشافعى : وهو يعنى مالكا يروى عن النبى ﷺ أنه كان إذا افتتح الصلاة رفع يديه حذو منكبيه ، وإذا رفع رأسه من الركوع رفعها كذلك (٢) ، ثم خالفتم رسول الله ﷺ وابن عمر ، فقلتم : لا يرفع يديه إلا فى ابتداء الصلاة،وقد رويتم عنهما أنهما رفعاهما فى الابتداء ، وعند الرفع من الركوع، أفيجوز لعالم أن يترك فعل النبى ﷺ وفعل ابن عمر لرأى نفسه ، أو فعل النبى ﷺ لرأى ابن عمر ثم القياس على قول ابن عمر ، ثم يأتى موضع آخر يصيب فيه ، فيترك على ابن عمر ما روى عن النبى ﷺ فكيف لم ينهه بعض هذا عن بعض ؟ أرأيت إذا جاز له أن يروى عن النبى ﷺ أن يرفع يديه فى مرتين أو ثلاث .

وعن ابن عمر فيه اثنتين،أنأخذ بواحدة ،ونترك واحدة؟ أيجوز لغيره ترك الذى أخذ به؟ وأخذ الذى ترك ؟ أو يجوز لغيره ترك ما روى عن النبى ﷺ ؟ فقلت له : فإن صاحبنا قال: فما معنى الرفع؟ قال: معناه تعظيم لله،واتباع لسنة النبى ﷺ، ومعنى الرفع فى الأولى معنى الرفع الذى خالفتم فيه النبى ﷺ عند الركوع ، وعند رفع الرأس من الركوع ، ثم خالفتم فيه روايتكم ، عن النبى ﷺ وابن عمر معا .

ويروى ذلك عن النبى ﷺ ثلاثة عشر رجلا أو أربعة عشر رجلا ، وروى عن أصحاب النبى ﷺ من غير وجه ، ومن تركه فقد ترك السنة .

---

(١) البخارى(٧٣٥) فى الأذان ، باب : رفع اليدين مع التكبيرة الأولى مع الافتتاح سواء ، ومسلم (٣٩٠ / ٢١) فى الصلاة ، باب : استحباب رفع اليدين حذو المنكبين . . .إلخ ، والأم (١/ ١٠٣) .

(٢) مالك فى الموطأ ١ / ٧٥(١٦) فى الصلاة ، باب : افتتاح الصلاة ، ورواه البخارى فى الموضع السابق ومسلم فى الموضع السابق .

قلت : وهذا تصريح من الشافعى بأن تارك رفع اليدين عند الركوع والرفع منه تارك للسنة .

ونص أحمد على ذلك أيضا فى إحدى الروايتين عنه ، وقال الربيع : سألت الشافعى عن الطيب قبل الإحرام بما يبقى ريحه بعد الإحرام ، وبعد رمى الجمرة والحلاق ، وقبل الإفاضة ، فقال : جائز وأحبه ولا أكرهه لثبوت السنة فيه عن النبى ﷺ والأخبار عن غير واحد من الصحابة ، فقلت : وما حجتك فيه ؟ فذكر الأخبار فيه والآثار ، ثم قال : أنا ابن عيينة عن عمرو بن دينار ، عن سالم ، قال : قال عمر : من رمى الجمرة ، فقد حل له ما حرم عليه إلا النساء والطيب ، قال سالم : وقالت عائشة : طيبت رسول الله ﷺ بيدى (١) ، وسنة رسول الله ﷺ أحق أن تتبع .

قال الشافعى : وهكذا ينبغى أن يكون الصالحون وأهل العلم ، فأما ما تذهبون إليه من ترك السنة وغيرها ، وترك ذلك لغير شىء ، بل لرأى أنفسكم فالعلم إذا إليكم ، تأتون منه ما شئتم ، وتدعون ما شئتم .

وقال فى الكتاب القديم رواية الزعفرانى فى مسألة بيع المدبر فى جواب من قال له : إن بعض أصحابك قد قال خلاف هذا .

قال الشافعى : فقلت له : من تبع سنة رسول الله ﷺ وافقته ومن خلط فتركها ، خالفته ، حتى صاحبى الذى لا أفارق الملازم الثابت مع رسول الله ﷺ ، وإن بعد . والذى أفارق : من لم يقل بحديث رسول الله ﷺ وإن قرب .

وقال فى خطبة كتابه إبطال الاستحسان : الحمد لله على جميع نعمه بما هو أهله وكما ينبغى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، بعثه بكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، فهدى بكتابه ثم على لسان رسوله ﷺ ، ثم أنعم عليه ، وأقام الحجة على خلقه ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وقال : ﴿ **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً** ﴾ [النحل : ٨٩] ، وقال : ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ** ﴾ [النحل : ٤٤] ، وفرض عليهم اتباع ما أنزل إليهم ، وسن رسول الله ﷺ لهم فقال : ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا** ﴾ [الأحزاب : ٣٦] ، فأعلم أن معصيته فى ترك أمره ، وأمر رسول الله ﷺ ، ولم يجعل لهم إلا اتباعه ، وكذلك قال لرسول الله ﷺ : ﴿ **وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي**

---

(١) سبق تخريجه ص٣١ .

به مَن نَّشَـاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ ﴾ [الشورى:٥٢]، مع ما علم الله نبيه ، ثم فرض اتباع كتابه فقال: ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ﴾ [الزخرف: ٤٣] ، وقال : ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [المائدة : ٤٩] ، وأعلمهم أنه أكمل لهم دينهم فقال عز وجل: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣] ، إلى أنه قال : ثم من عليهم بما آتاهم من العلم فأمرهم بالاقتصار عليه ، وألا يقولوا غيره إلا ما علمهم فقال لنبيه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ ﴾ [الشورى:٥٢] ، وقال لنبيه : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ ﴾ [الأحقاف: ٩] ، وقال لنبيه : ﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الكهف] ، ثم أنزل على نبيه ، أن غفر له ما تقدم من ذنبه،وما تأخر ، يعنى والله أعلم ما تقدم من ذنبه قبل الوحى ،وما تأخر قبل أن يعصمه ، فلا يذنب ، فعلم ما يفعل به من رضاه عنه ، وأنه أول شافع ومشفع يوم القيامة وسيد الخلائق،وقال لنبيه : ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء : ٣٦] ، وجاءه ﷺ رجل فى امرأة رجل رماها بالزنا ، فقال له : يرجع ، فأوحى الله إليه آية اللعان ، فلاعن بينهما وقال : ﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ [النمل:٦٥] ، وقال : ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْـمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَـامِ ﴾ الآية [لقمان : ٣٤] ، وقـال لنبيه : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا﴾ [النازعات] ، فحجب عن نبيه علم الساعة ، وكان من عدا ملائكة الله المقربين وأنبياءه المصطفين من عباد الله أقصر علما من ملائكته ، وأنبيائه. والله عز وجل فرض على خلقه طاعة نبيه ، ولم يجعل لهم من الأمر شيئا .

وقد صنف الإمام أحمد رضي الله عنه كتابا فى طاعة الرسول ﷺ ، رد فيه على من احتج بظاهر القرآن فى معارضة سنن رسول الله ﷺ وترك الاحتجاج بها ، فقال فى أثناء خطبته: إن الله جل ثناؤه ، وتقدست أسماؤه ، بعث محمداً بالهدى ، ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون ، وأنزل عليه كتابه الهدى والنور لمن اتبعه ، وجعل رسوله الدال على ما أراد من ظاهره وباطنه ، وخاصه وعامه ، وناسخه ومنسوخه ، وما قصد له الكتاب ، فكان رسول الله ﷺ هو المعبر عن كتاب الله الدال على معانيه ، شاهده فى ذلك أصحابه الذين ارتضاهم الله لنبيه ، واصطفاهم له ، ونقلوا ذلك عنه فكانوا هم أعلم الناس برسول الله ﷺ ، وبما أراد الله من كتابه بمشاهدتهم ، وما قصد له الكتاب ، فكانوا

هم المعبرين عن ذلك بعد رسول الله ﷺ .

قال جابر: ورسول الله ﷺ بين أظهرنا عليه ينزل القرآن، وهو يعرف تأويله، وما عمل به من شيء عملنا، ثم ساق الآيات الدالة على طاعة الرسول، فقال جل ثناؤه فى أول آل عمران: ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) ﴾ [آل عمران] ، وقال : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢) ﴾ [آل عمران]، وقال فى النساء: ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥) ﴾[النساء]، وقال﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ﴾ [النساء] ، وقال : ﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً (٧٩) مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (٨٠) ﴾ [النساء] ،وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٥٩) ﴾ [النساء] ، وقال :﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٤) ﴾ [النساء] ، وقال: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيماً (١٠٥) ﴾ [النساء] ، وقال فى المائدة : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (٩٢) ﴾ [المائدة] ، وقال : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١) ﴾ [الأنفال]، وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) ﴾ [الأنفال] ،وقال: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) ﴾ [الأنفال] ،وقال: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢) ﴾ [النور] ،وقال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) ﴾ [النور] ، وقال: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا

الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (٥٤) ﴾ [النور] ، وقال: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) ﴾ [النور] ، وقال: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٢) ﴾ [النور]، وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) ﴾ [الأحزاب] وقال: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا (٣٦) ﴾ [الأحزاب]، وقال: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١) ﴾ [الأحزاب] ، وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣) ﴾ [محمد] ، وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) ﴾ [الحجرات] ، فكان الحسن يقول : لا تذبحوا قبل ذبحه وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥) ﴾ [الحجرات]، وقال: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (١٧) ﴾ [الفتح] ، وقال: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ﴾ [النجم] ، وقال: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧) ﴾ [الحشر] ، وقال: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٢) ﴾ [التغابن] ، وقال: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [الطلاق] ، وقال: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا

وَنَذِيراً ﴿٨﴾ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٩﴾ ﴾ [الفتح] ، وقال: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ [هود]، قال ابن عباس: هو جبريل، وقاله مجاهد، وقال: ﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴿١٧﴾ ﴾ [هود] ، قال سعيد بن جبير: الأحزاب: الملل ، ثم ذكر حديث يعلى بن أمية : طفت مع عمر ، فلما بلغنا الركن الغربى الذى يلى الأسود جررت بيده ليستلم، فقال: ما شأنك ؟ فقلت: ألا تستلم ؟ فقال : ألم تطف مع النبى ﷺ ؟ فقلت: بلى، قال : أفرأيته يستلم هذين الركنين الغربيين ؟ قال : لا ، قال : أليس لك فيه أسوة حسنة ؟ قلت : بلى ، قال : فانفذ عنك [١] .

قال: وجعل معاوية يستلم الأركان كلها، فقال له ابن عباس : لم تستلم هذين الركنين، ولم يكن رسول الله ﷺ يستلمهما ؟ فقال معاوية : ليس شىء من البيت مهجوراً، فقال ابن عباس : لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ، فقال معاوية : صدقت ، ثم ذكر أحمد الاحتجاج على إبطال قول من عارض السُّنَنَ بظاهر القرآن ، وردها بذلك، وهذا فعل الذين يستمسكون بالتشابه فى رَدِّ المحكم، فإن لم يجدوا لفظًا متشابهاً غير المحكم يردونه به، استخرجوا من المحكم وصفًا متشابهًا ، وردوه به . فلهم طريقان فى رد السنن :

أحدهما : ردها بالمتشابه من القرآن أو من السنن .

الثانى : جعلهم المحكم متشابهًا ؛ ليعطلوا دلالتَه .

وأما طريقة الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ، كالشافعى ، والإمام أحمد ومالك ، وأبى حنيفة ، وأبى يوسف ، والبخارى ، وإسحاق ؛ فعكس هذه الطريق ، وهى أنهم يردون المتشابه إلى المحكم ، ويأخذون من المحكم ما يفسر لهم المتشابه ، ويبينه لهم ، فتتفق دلالته مع دلالة المحكم ، وتوافق النصوص بعضها بعضا ، ويصدق بعضها بعضا ، فإنها كلها من عند الله ، وما كان من عند الله ، فلا اختلاف فيه ، ولا تناقض ، وإنما الاختلاف والتناقض فيما كان من عند غيره [٢] .

---

(١) أحمد (١ / ٣٧ ، ٤٥ ، ٧١ ، ٤ / ٢٢٢) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٣ / ٢٤٣) : « رجاله رجال الصحيح، ورواه ـ أى الإمام أحمد ـ من طريق آخر وفيه رجل لم يسم » .
(٢) إعلام الموقعين (٢ / ٢٧٩ ـ ٢٩٦) .

فصل
فى كراهية السلف والأئمة الفتيا

كان السلف من الصحابة والتابعين يكرهون التسرع فى الفتوى ، ويود كل واحد منهم أن يكفيه إيّاها غيرُه ، فإذا رأى أنها قد تعينت عليه بذل اجتهادَه فى معرفة حكمها من الكتاب والسنة ، أو قول الخلفاء الراشدين ثم أفتى .

وقال عبد الله بن المبارك : حدثنا سفيان عن عطاء بن السائب ، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، قال : أدركت عشرين ومائة من أصحاب رسول الله ﷺ ـ أراه قال : فى المسجد ـ فما كان منهم محدث إلا وَدَّ أن أخاه كفاه الحديث ، ولامُفْتٍ إلا وَدَّ أنَّ أخاه كفاه الفُتْيا .

وقال الإمام أحمد : حدثنا جرير ، عن عطاء بن السائب ، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، قال : أدركت عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ ما منهم رجل يسأل عن شىء إلا ود أن أخاه كفاه ، ولا يحدث حديثًا إلا ودَّ أن أخاه كفاه .

وقال مالك عن يحيى بن سعيد : قال : قال ابن عباس : إن كل من أفتى الناس فى كل ما يسألونه عنه لمجنون . قال مالك : وبلغنى عن ابن مسعود مثل ذلك ، رواه ابن وضاح عن يوسف بن عدى ، عن عبيد بن حميد ، عن الأعمش ، عن شقيق ، عن عبد الله، ورواه حبيب بن أبى ثابت عن أبى وائل عن عبد الله ، وقال سَحْنُون بن سعيد : أجسر الناس على الفتيا أقلُّهم علما ، يكون عند الرجل البابُ الواحد من العلم يظن أن الحقَّ كله فيه .

قلت : الجرأة على الفتيا تكون : من قلة العلم ، ومن غزارته وسعته ، فإذا قلّ علمه أفتى عن كل ما يُسْأل عنه بغير علم ، وإذا اتسع علمُه اتسعت فُتياه ؛ ولهذا كان ابن عباس من أوسع الصحابة فتيا ، وأن فتاواه جمعت فى عشرين سفرًا ، وكان سعيد بن المسيب أيضًا واسع الفتيا ،وكانوا يسمونه الجرىء ،كما ذكر ابن وهب،عن مُد بن سليمان المرادى ، عن أبى إسحاق ، قال: كنت أرى الرجل في ذلك الزمان وإنه ليدخل يسأل عن الشىء فيدفعه الناس عن مجلس إلى مجلس، حتى يدفع إلى مجلس سعيد بن المسيب ، كراهية للفتيا ، قال : وكانوا يدعونه سعيد بن المسيب الجرىء .

وقال سحنون : إنى لأحفظ مسائل منها ما فيه ثمانية أقوال من ثمانية أئمة من

العلماء، فكيف ينبغى أن أعجل بالجواب قبل الخبر ، فلم ألام على حبس الجواب ؟!

وقال أبو عمر بن عبد البر فى كتاب جامع فضل العلم: حدثنا خلف بن القاسم، حدثنا يحيى بن الربيع، ثنا محمد بن حماد المصيصى ، ثنا إبراهيم بن واقد ، ثنا المطلب بن زياد ، قال: حدثنى جعفر بن حسين إمامنا ، قال : رأيت أبا حنيفة فى النوم ، فقلت : ما فعل الله بك يا أبا حنيفة ؟ قال : غفر لى ، فقلت له : بالعلم ، فقال : ما أضر الفتيا على أهلها !! فقلت : فبم ؟ قال : بقول الناس فىّ ما لم يعلم الله أنه منى . قال أبو عمر : وقال سحنون يوما : إنا لله !! ما أشقى المفتى والحاكم !! ثم قال : ها أنذا يتعلم منى ما تضرب به الرقاب ، وتوطأ به الفروج ، وتؤخذ به الحقوق ، أما كنت عن هذا غنيا ؟! قال أبو عمر : وقال أبو عثمان الحداد : القاضى أيسر مأثما وأقرب إلى السلامة من الفقيه - يريد المفتى - لأن الفقيه من شأنه إصدار ما يرد عليه من ساعته بما حضره من القول ، والقاضى شأنه الأناة والتثبت ، ومن تأنى وتثبت تهيأ له من الصواب ما لا يتهيأ لصاحب البديهة . انتهى .

وقال غيره : المفتى أقرب إلى السلامة من القاضى ، لأنه لا يلزم بفتواه ، وإنما يخبر بها من استفتاه ، فإن شاء قبل قوله ، وإن شاء تركه ، وأما القاضى فإنه يلزم بقوله ، فيشترك هو والمفتى فى الإخبار عن الحكم ، ويتميز القاضى بالإلزام والقضاء ، فهو من هذا الوجه خطره أشد .

ولهذا جاء فى القاضى من الوعيد والتخويف ما لم يأت نظيره فى المفتى ، كما رواه أبو داود الطيالسى من حديث عائشة رضي الله عنها : أنها ذكر عندها القضاة فقالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يؤتى بالقاضى العدل يوم القيامة فيلقى من شدة الحساب ما يتمنى أنه لم يقض بين اثنين فى تمرة قط »[1] ، وروى الشعبى عن مسروق عن عبد الله يرفعه : « ما من حاكم يحكم بين الناس إلا وكل به ملك آخذ بقفاه ، حتى يقف به على شفير جهنم ، فيرفع رأسه إلى الله ، فإن أمره أن يقذفه قذفه فى مهوى أربعين خريفا»[2] .

وفى السنن من حديث ابن بريدة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « القضاة ثلاثة: اثنان فى النار وواحد فى الجنة ، رجل عرف الحق فقضى به فهو فى الجنة ، ورجل قضى

(١) مسند الطيالسى (١٥٤٦) .

(٢) ابن ماجه (٢٣١١) فى الأحكام ، باب التغليظ فى الحيف والرشوة ، وكشف الأستار ٢ / ١٣٣ (١٣٥١) فى الأحكام ، باب : فيمن ولى شيئا وفيه : « سبعين خريفا » ، وقال الهيثمى فى المجمع (٤ / ١٩٦) : « فيه مجالد ابن سعيد ، وثقه النسائى وضعفه جماعة » .

بين الناس بالجهل فهو فى النار ، ورجل عرف الحق فجار هو فى النار »[١] .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ويل لديان من فى الأرض من ديان من فى السماء يوم يلقونه ، إلا من أمر بالعدل ، وقضى بالحق ، ولم يقض على هوى ، ولا على قرابة ، ولا على رغب ولا رهب ، وجعل كتاب الله مرآة بين عينيه .

وفى سنن أبى داود من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال :« من طلب قضاء المسلمين حتى يناله .ثم غلب عدله جوره ،فله الجنة،ومن غلب جوره عدله فله النار»[٢] .

وفى سنن البيهقى من حديث ابن جُرَيْج عن عطاء عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ :« الله مع القاضى ما لم يجر ، فإذا جار برئ الله منه ، ولزمه الشيطان »[٣] . وفيه من حديث حسين المعلم عن الشيبانى عن ابن أبى أوفى قال:قال رسول الله ﷺ:« إن الله مع القاضى ما لم يجر ، فإذا جار وكله إلى نفسه »[٤] .

وفى السنن الأربعة من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ :« من قعد قاضيا بين المسلمين فقد ذبح نفسه بغير سكين »[٥] .

وفى سنن البيهقى من حديث أبى حازم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ : قال :« ويل للأمراء ، وويل للعرفاء ، وويل للأمناء ، ليتمنين أقوام يوم القيامة أن نواصيهم كانت معلقة بالثريا يتجلجلون بين السماء والأرض ، وأنهم لم يلوا عملا »[٦] .

وأما المفتى ، ففى سنن أبى داود من حديث مسلم بن يسار قال : سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ :« من قال على ما لم أقل فليتبوأ بيتا فى جهنم ، ومن أفتى بغير علم كان إثمه على من أفتاه ، ومن أشار على أخيه بأمر يعلم الرشد فى غيره ، فقد

---

(١) أبو داود (٣٥٧٣) فى الأقضية ، باب : فى القاضى يخطئ ، والترمذى (١٣٢٢م) فى الأحكام ، باب : ما جاء عن رسول الله ﷺ فى القاضى ، وابن ماجه (٢٣١٥) فى الأحكام ، باب : الحاكم يجتهد فيصيب الحق .

(٢) أبو داود (٣٥٧٥) فى الأقضية ، باب : فى القاضى يخطئ ، وضعفه الألبانى .

(٣) البيهقى فى الكبرى (١٠ / ٨٨) فى آداب القاضى ، باب : فضل من ابتلى بشىء من الأعمال فقام فيه بالقسط وقضى بالحق .

(٤) البيهقى فى الكبرى (١ / ٨٨) فى الكتاب والباب السابقين .

(٥) أبو داود (٣٥٧١، ٣٥٧٢) فى الأقضية ، باب : فى طلب القضاء ، والترمذى (١٣٢٥) فى الأحكام ، باب : ما جاء عن رسول الله ﷺ فى القاضى وقال :« حسن غريب من هذا الوجه » والنسائى فى الكبرى (٥٩٢٣ ، ٥٩٢٥) فى القضاء ، باب : التغليظ فى الحكم ، وقال :« عثمان بن محمد الأخنسى : ليس بذاك القوى ، وابن ماجه (٢٣٠٨) فى الأحكام ، باب : فى ذكر القضاة .

(٦) البيهقى فى الكبرى (١٠ / ٩٦) فى آداب القاضى ، باب : كراهية الإمارة وكراهية تولى أعمالها . . .إلخ .

خانه »[(١)] فكل خطر على المفتى ، فهو على القاضى ، وعليه من زيادة الخطر ما يختص به ، ولكن خطر المفتى أعظم من جهة أخرى ، فإن فتواه شريعة عامة تتعلق بالمستفتى وغيره . وأما الحاكم فحكمه جزئى خاص لا يتعدى إلى غير المحكوم عليه ، وله ، فالمفتى يفتى حكما عاما كليا أن من فعل كذا ترتب عليه كذا ، ومن قال كذا لزمه كذا ، والقاضى يقضى قضاء معينا على شخص معين ، فقضاؤه خاص ملزم ، وفتوى العالم عامة غير ملزمة فكلاهما أجره عظيم وخطره كبير [(٢)] .

فائدة

سأله [(٣)] رجل عن مسألة فقال : لا أدرى ، فردها الرجل عليه فقال : أَكُلُّ العلم نحسنه نحن ! قال : فاذهب إلى هؤلاء فاسألهم ـ يعنى أصحاب الرأى ـ فقال : لا أنظر إلى من يذهب إلى رأى أهل المدينة [(٤)] .

فصل
فى جواز الفتوى بالآثار السلفية والفتاوى الصحابية

الفتوى بالآثار السلفية والفتاوى الصحابية ، أولى بالأخذ بها من آراء المتأخرين وفتاويهم ، وأن قربها إلى الصواب بحسب قرب أهلها من عصر الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ـ وأن فتاوى الصحابة أولى أن يؤخذ بها من فتاوى التابعين ، وفتاوى التابعين أولى من فتاوى تابعى التابعين ، وهلم جرا . وكلما كان العهد بالرسول أقرب كان الصواب أغلب ، وهذا حكم بحسب الجنس ، لا بحسب كل فرد من المسائل ، كما أن عصر التابعين وإن كان أفضل من عصر تابعيهم فإنما هو بحسب الجنس لا بحسب كل شخص شخص ، ولكن المفضلون فى العصر المتقدم أكثر من المفضلين فى العصر المتأخر .

---

(١) أبو داود (٣٦٥٦) فى العلم ، باب : التوقى فى الفتيا .
(٢) إعلام الموقعين (١ / ٣٥ ، ٣٧ ـ ٣٩) .
(٣) من مسائل أبى جعفر محمد بن على الوراق .
(٤) بدائع الفوائد (٤ / ٦٤) .

وهكذا الصواب فى أقوالهم أكثر من الصواب فى أقوال من بعدهم ؛ فإن التفاوت بين علوم المتقدمين والمتأخرين كالتفاوت الذى بينهم فى الفضل والدين ، ولعله لا يسع المفتى والحاكم عند الله أن يفتى ويحكم بقول فلان وفلان من المتأخرين من مقلدى الأئمة ، ويأخذ برأيه وترجيحه ، ويترك الفتوى والحكم بقول البخارى وإسحاق بن راهويه وعلى ابن المَدينى ومحمد بن نصر المروزى وأمثالهم ، بل يترك قول ابن المبارك والأوزاعى وسفيان الثورى ، وسفيان بن عيينة ، وحماد بن زيد ، وحماد بن سلمة وأمثالهم ، بل لا يلتفت إلى قول ابن أبى ذئب والزهرى والليث بن سعد وأمثالهم ، بل لا يعد قول سعيد ابن المسيب والحسن والقاسم وسالم وعطاء وطاوس وجابر بن زيد ، وشريح وأبى وائل وجعفر بن محمد وأضرابهم ، مما يسوغ الأخذ به ، بل يرى تقديم قول المتأخرين من أتباع من قلده على فتوى أبى بكر الصديق ، وعمر ، وعثمان وعلى ، وابن مسعود، وأبيّ بن كعب ، وأبى الدرداء ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعُبادة بن الصامت ، وأبى موسى الأشعرى وأضرابهم ، فلا يدرى ما عذره غدا عند الله إذا سوى بين أقوال أولئك وفتاويهم وأقوال هؤلاء وفتاويهم ، فكيف إذا رجحها عليها ؟ فكيف إذا عين الأخذ بها حكما وإفتاء ، ومنع الأخذ بقول الصحابة ، واستجاز عقوبة من خالف المتأخرين لها ، وشهد عليه بالبدعة والضلالة ومخالفة أهل العلم، وأنه يكيد الإسلام ؟ تالله لقد أخذ بالمثل المشهور : رمتنى بدائها وانسلّتْ ، وسمى ورثة الرسول باسمه هو وكساهم أثوابه ، ورماهم بدائه ، وكثير من هؤلاء يصرخُ ويصيح ويقول ويعلن : أنه يجب على الأمة كلهم الأخذ بقول من قلدناه ديننا ، ولا يجوز الأخذ بقول أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وغيرهم من الصحابة . وهذا كلام من أخذ به ، وتقلده ولَّه الله ما تولى ، ويجزيه عليه يوم القيامة الجزاء الأوفى . والذى ندين الله به ضدٌ هذا القول ، والرد عليه ، فنقول :

إذا قال الصحابى قولا ، فإما أن يخالفه صحابى آخر أولا يخالفه ، فإن خالفه مثله لم يكن قول أحدهما حجة على الآخر ، وإن خالفه أعلم منه ، كما إذا خالف الخلفاء الراشدون أو بعضهم غيرهم من الصحابة فى حكم ، فهل يكون الشق الذى فيه الخلفاء الراشدون ، أو بعضهم حجة على الآخرين ؟ فيه قولان للعلماء ، وهما روايتان عن الإمام أحمد .

والصحيح أن الشق الذى فيه الخلفاء أو بعضهم أرجح وأولى أن يؤخذ به من الشق الآخر .

فإن كان الأربعة فى شق فلا شك أنه الصواب ، وإن كان أكثرهم فى شق ، فالصواب فيه أغلب .

وإن كانوا اثنين واثنين ، فشق أبى بكر وعمر أقرب إلى الصواب ، فإن اختلف أبو بكر وعمر فالصواب مع أبى بكر . وهذه جملة لا يعرف تفصيلها إلا من له خبرة واطلاع على ما اختلف فيه الصحابة وعلى الراجح من أقولهم .

ويكفى فى ذلك معرفة رجحان قول الصديق فى الجد والإخوة ، وكون الطلاق الثلاث بفم واحد مرة واحدة وإن تلفظ فيه بالثلاث ، وجواز بيع أمهات الأولاد ، وإذا نظر العالم المنصف فى أدلة هذه المسائل من الجانبين تبين له أن جانب الصديق أرجح ، ، ولا يحفظ للصديق خلاف نص واحد أبدًا ، ولا يحفظ له فتوى ، ولا حكم مأخذها ضعيف أبدًا ، وهو تحقيق لكون خلافته خلافة نبوة .

وإن لم يخالف الصحابى صحابيًا آخر ، فإما أن يشتهر قوله فى الصحابة أولا يشتهر ، فإن اشتهر فالذى عليه جماهير الطوائف من الفقهاء أنه إجماع وحجة .

وقالت طائفة منهم : هو حجة ، وليس بإجماع ، وقالت شرذمة من المتكلمين وبعض الفقهاء المتأخرين : لا يكون إجماعًا ولا حجة ، وإن لم يشتهر قوله ، أو لم يعلم هل اشتهر أم لا ،فاختلف الناس : هل يكون حجة أم لا ؟ فالذى عليه جمهور الأمة أنه حجة . هذا قول جمهور الحنفية ، صرح به محمد بن الحسن وذكر عن أبى حنيفة نصًا ، وهو مذهب مالك وأصحابه ، وتصرفه فى موطئه دليل عليه . وهو قول إسحاق بن راهويه وأبى عبيد ، وهو منصوص الإمام أحمد فى غير موضع عنه واختيار جمهور أصحابه ، وهو منصوص الشافعى القديم والجديد ، أما القديم فأصحابة مُقرُّون به ،وأما الجديد فكثير منهم يحكى عنه فيه أنه ليس بحجة ، وفى هذه الحكاية عنه نظر ظاهر جدًا ؛ فإنه لا يحفظ له فى الجديد حرْف واحد أن قول الصحابى ليس بحجة ، وغاية ما يتعلق به من نقل ذلك أنه يحكى أقوالا للصحابة فى الجديد ثم يخالفها ، ولو كانت عنده حجة لم يخالفها ، وهذا تعلق ضعيف جدًا ، فإن مخالفة المجتهد الدليل المعين لما هو أقوى فى نظره منه لا يدل على أنه لا يراه دليلا من حيث الجملة ، بل خالف دليلاً لدليل أرجح عنده منه ، وقد تعلق بعضهم بأنه يراه فى الجديد إذا ذكر أقوال الصحابة موافقًا لها لا يعتمد عليها وحدها كما يفعل بالنصوص ، بل يعضده بضروب من الأقيسة ؛ فهو تارة يذكرها ، ويصرح بخلافها ، وتارة يوافقها ولا يعتمد عليها بل يعضدها بدليل آخر ، وهذا أيضًا تعلق أضعف من الذى

قبله ؛ فإن تظافر للأولة وتعاضدها وتناصرها من عادة أهل العلم قديمًا وحديثًا ، ولا يدل ذكرهم دليلا ثانيًا وثالثًا على أن ما ذكروه قبله ليس بدليل .

وقد صرح الشافعى فى الجديد من رواية الربيع عنه ، بأن قول الصحابة حجة يجب المصير إليه ، فقال [١] : المحدثات من الأمور ضربان : أحدهما : ما أحدث يخالف كتابًا أو سنة أو إجماعًا أو أثرًا فهذه البدعة الضلالة ، والربيع إنما أخذ عنه بمصر ، وقد جعل مخالفة الأثر الذى ليس بكتاب ولا سنة ولا إجماع ضلالة ، وهذا فوق كونه حجة .

وقال البيهقى فى كتاب مدخل السنن له : باب ذكر أقوال الصحابة إذا تفرقوا ، قال الشافعى : أقاويل الصحابة إذا تفرقوا فيها نصير إلى ما وافق الكتاب والسنة أو الإجماع إذا كان أصح فى القياس ، وإذا قال الواحدُ منهم القول لا يحفظ عن غيره منهم فيه له موافقة ولا خلاف صرتُ إلى اتباع قوله إذا لم أجد كتابًا ولا سنة ولا إجماعًا ولا شيئًا فى معناه يحكم له بحكمه أو وجد معه قياس .

قال البيهقى : وقال فى كتاب اختلافه مع مالك : ما كان الكتاب والسنة موجودين فالعذر على من سمعه مقطوع إلا بإتيانه ، فإن لم يكن ذلك صرنا إلى أقاويل الصحابة أو واحد منهم ، ثم كان قول الأئمة أبى بكر وعمر وعثمان إذا صرنا إلى التقليد أحبً إلينا وذلك إذا لم نجد دلالة فى الاختلاف تدل على أقرب الاختلاف من الكتاب والسنة فنتبع القول الذى معه الدلالة ؛ لأن قول الإمام مشهور بأنه يلزم الناس ، ومن لزم قوله الناس كان أشهر ممن يفتى الرجل أو النفر وقد يأخذ بفتياه ويدعها ، وأكثر المفتين يفتون الخاصة فى بيوتهم ومجالسهم ولا يعتنى العامة بما قالوا عنايتهم بما قال الإمام ، وقد وجدنا الأئمة ينتدبون فيسألون عن العلم من الكتاب والسنة فيما أرادوا أن يقولوا فيه ويقولون فيخبرون بخلاف قولهم ،فيقبلون من المخبر ، ولا يستنكفون عن أن يرجعوا لتقواهم الله وفضلهم ، فإذا لم يوجد عن الأئمة فأصحاب رسول الله ﷺ عليه فى الدين فى موضع الأمانة أخذنا بقولهم ، وكان اتباعهم أولى بنا من اتباع من بعدهم [٢] .

---

(١) تراجع « أدلة وجوب اتباع الصحابة » فى كتابنا (جامع السيرة ـ مناقب الصحابة) لابن القيم .
(٢) إعلام الموقعين (٤ / ١٥١ ـ ١٥٦) .

فائدة

القاضى والمفتى مشتركان فى أن كلا مهما يجب عليه إظهار حكم الشرع فى الواقعة ويتميز الحاكم بالإلزام به وإمضائه ، فشروط الحاكم ترجع إلى شروط الشاهد والمفتى والوالى ، فهو مخبر عن حكم الشارع بعلمه مقبول بعدالته منفذ بقدرته (١) .

فصل
فى فوائد تتعلق بالفتوى

الفائدة الأولى : أسئلة السائلين لا تخرج عن أربعة أنواع لا خامس لها :

الأول : أن يسأل عن الحكم فيقول : ما حكم كذا وكذا .

الثانى : أن يسأل عن دليل الحكم .

الثالث : أن يسأل عن وجه دلالته .

الرابع : أن يسأل عن الجواب عن معارضه .

فإن سأل عن الحكم فللمسؤول حالتان . إحداهما : أن يكون عالمًا به ، والثانية : أن يكون جاهلا به .

فإن كان جاهلا به حرم عليه الإفتاء بلا علم ، فإن فعل فعليه إثمه وإثم المستفتى ، فإن كان يعرف فى المسألة ما قاله الناس ولم يتبين له الصواب من أقوالهم فله أن يذكر له ذلك ، فيقول : فيها اختلاف بين العلماء ، ويحكيه إن أمكن للسائل .

وإن كان عالمًا بالحكم فللسائل حالتان :

إحداهما : أن يكون قد حضره وقت العمل وقد احتاج إلى السؤال ، فيجب على المفتى المبادرة على الفور إلى جوابه ، فلا يجوز له تأخير بيان الحكم له عن وقت الحاجة .

والحالة الثانية : أن يكون قد سأل عن الحادثة قبل وقوعها ، فهذا لا يجب على المفتى أن يجيبه عنها ، وقد كان السلف الطيب إذا سئُل أحدهم عن مسألة يقول للسائل : هل

---

(١) بدائع الفوائد (٤ / ٢٢) .

كانت أو وقعت ؟ فإن قال : لا ، لم يجبه عنها ، وقال : دعنا فى عافية ، وهذا لأن الفتوى بالرأى لا تجوز إلا عند الضرورة ؛ فالضرورة تبيحه كما تبيح الميتة عند الاضطرار ، وهذا إنما هو فى مسألة لا نص فيها ولا إجماع ، فإن كان فيها نص أو إجماع فعليه تبليغه بحسب الإمكان ، فمن سئل عن علم فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار، هذا إذا أمن المفتى غائلة الفتوى ، فإن لم يأمن غائلتها وخاف من ترتب شر أكثر من الإمساك عنها أمسك عنها ، ترجيحًا لدفع أعلى المفسدتين باحتمال أدناهما .

وقد أمسك النبى ﷺ عن نقض الكعبة وإعادتها على قواعد إبراهيم لأجل حدثان عهد قريش بالإسلام ، وأن ذلك ربما نفَّرهم عنه بعد الدخول فيه [(١)] .

وكذلك إن كان عقل السائل لا يحتمل الجواب عما سأله عنه ، خاف المسؤول أن يكون فتنة له ، أمسك عن جوابه . قال ابن عباس رضي الله عنهما لرجل سأله عن تفسير آية : وما يؤمنك أنى لو أخبرتك بتفسيرها كفرت به ؟ أى جحدته وأنكرته وكفرت به ، ولم يرد أنك تكفر بالله ورسوله .

للمفتى العدول عن جواب المستفتى

الفائدة الثانية : يجوز للمفتى أن يعدل عن جواب المستفتى عما سأله عنه إلى ما هو أنفع له منه ، ولا سيما إذا تضمن ذلك بيان ما سأل عنه ، وذلك من كمال علم المفتى وفقهه ونصحه ، وقد قال تعالى : ﴿ **يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥)** ﴾ [البقرة] ، فسألوه عن المنفق فأجابهم بذكر المصرف؛إذا هو أهم مما سألوه عنه ، ونبههم عليه بالسياق ، مع ذكره لهم فى موضع آخر ، وهو قوله تعالى : ﴿ **قُلِ الْعَفْوَ** ﴾ [البقرة : ٢١٩] وهو ما سهل عليهم إنفاقه ولا يضرهم إخراجه ، وقد ظن بعضهم أن من ذلك قوله تعالى : ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ** ﴾ [البقرة : ١٨٩] ، فسألوه عن سبب ظهور الهلال

(١) البخارى (١٥٨٣ ـ ١٥٨٦) فى الحج ،باب : فضل مكة وبنيانها ، ومسلم (١٣٣٣ / ٣٩٨ ـ ٤٠٤) فى الحج ، باب : نقض الكعبة وبنائها ، والنسائى (٢٩٠٠ ـ ٢٩٠٣) فى الحج ، باب : بناء الكعبة ، ومالك (١ / ٣٦٣) رقم (١٠٤) فى الحج ، باب : ما جاء فى بناء الكعبة ، وأحمد (٦ / ١١٣) .

خفيًا ثم لا يزال يتزايد فيه النور على التدريج حتى يكمل ثم يأخذ فى النقصان ، فأجابهم عن حكمة ذلك من ظهور مواقيت الناس التى بها تمام مصالحهم فى أحوالهم ومعاشهم ومواقيت أكبر عبادتهم وهو الحج ، وإن كانوا قد سألوا عن السبب فقد أجيبوا بما هو أنفع لهم مما سألوا عنه ،وإن كانوا إنما سألوا عن حكمة ذلك فقد أجيبوا عن عين ما سألوا عنه .
ولفظ سؤالهم محتمل ؛ فإنهم قالوا : ما بال الهلال يبدو دقيقًا ثم يأخذ فى الزيادة حتى يتم ثم يأخذ فى النقص ؟

للمفتى أن يجيب بأكثر مما سئل عنه

الفائدة الثالثة : يجوز للمفتى أن يجيب السائل بأكثر مما سأله عنه ، وهو من كان نصحه وعلمه وإرشاده ؛ ومن عاب ذلك فلقلة علمه وضيق عطنه وضعف نصحه ؛ وقد ترجم البخارى لذلك فى صحيحه فقال : باب من أجاب السائل بأكثر مما سأل عنه ؛ ثم ذكر حديث ابن عمر رضي الله عنهما ما يلبس المحرم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لا يلبس القمص ؛ ولا العمائم ؛ ولا السراويلات ؛ ولا الخفاف ، إلا ألا يجد نعلين فليلبس الخفين وليقطعهما أسفل من الكعبين »[1] ، فسئل رسول الله ﷺ عما يلبس المحرم ، فأجاب عما لا يلبس ، وتضمن ذلك الجواب عما يلبس ، فإن مالا يلبس محصور ، وما يلبسه غير محصور ، فذكر لهم النوعين ، وبين لهم حكم لبس الخف عندهم عدم النعل ، وقد سألوه عن الوضوء بماء البحر ؛ فقال لهم : « هو الطهور ماؤه ، الحل ميتته »[2] .

للمفتى أن يدل السائل على ما هو عوض عن الممنوع

الفائدة الرابعة : من فقه المفتى ونصحه إذا سأله المستفتى عن شىء فمنعه منه وكانت حاجته تدعوه إليه ، أن يدله على ما هو عوض له منه ، فيسد عليه باب المحظور ، ويفتح له باب المباح ، وهذا لا يتأتى إلا من عالم ناصح مشفق قد تاجر الله وعامله بعلمه ، فمثاله فى العلماء مثال الطبيب العالم الناصح فى الأطباء يحمى العليل عما يضره ، ويصف

---

(١) البخارى (١٣٤) فى العلم ، باب : من أجاب السائل بأكثر مما سأله .

(٢) أبو داود (٨٣) فى الطهارة ، باب : الوضوء بماء البحر ، والترمذى (٦٩) فى الطهارة ، باب : ما جاء فى ماء البحر أنه طهور ، وقال : « حسن صحيح » ، والنسائى (٥٩) فى الطهارة ، باب : ماء البحر ، وابن ماجه (٣٨٦) فى الطهارة وسنتها، باب : الوضوء بماء البحر ، وأحمد (٢ / ٣٦١) .

له ما ينفعه ، فهذا شأن أطباء الأديان والأبدان .

وفى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « ما بعث الله من نبى إلا كان حقًا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم ، وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم »[(١)] . وهذا شأن خلق الرسل وورثتهم من بعدهم .

ورأيت شيخنا ـ قدس الله روحه ـ يتحرى ذلك فى فتاويه مهما أمكنه ، ومن تأمل فتاويه وجد ذلك ظاهرا فيها ، وقد منع النبى ﷺ بلالا أن يشترى صاعا من التمر الجيد بصاعين من الردىء ، ثم دله على الطريق المباح ، فقال :« بِعِ الجمع بالدراهم ، ثم اشتر بالدراهم جنيبا »[(٢)]. فمنعه من الطريق المحرم ، وأرشده إلى الطريق المباح .

ولما سأله عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث والفضل بن عباس أن يستعملهما فى جباية الزكاة ، ليصيبا ما يتزوجان به ، منعهما من ذلك ، وأمر مَحمِيةَ بن جزء ـ وكان على الخمس ـ أن يعطيهما ما ينكحان به[(٣)] ، فمنعهما من الطريق المحرم ، وفتح لهما الطريق المباح ، وهذا اقتداء منه بربه تبارك وتعالى ، فإنه يسأله عبده الحاجة فيمنعه إياها ، ويعطيه ما هو أصلح له وأنفع منها ، وهذا غاية الكرم والحكمة .

على المفتى تنبيه السائل على وجه الاحتراز

الفائدة الخامسة : إذا أفتى المفتى للسائل بشىء ينبغى له أن ينبهه على وجه الاحتراز مما قد يذهب إليه الوهم منه من خلاف الصواب ، وهذا باب لطيف من أبواب العلم والنصح والإرشاد ، ومثال هذا قوله ﷺ :« لا يقتل مؤمن بكافر ، ولا ذو عهد فى عهده »[(٤)] . فتأمل كيف أتبع الجملة الأولى بالثانية رفعا لتوهم إهدار دماء الكفار مطلقا وإن كانوا فى عهدهم ؛ فإنه لما قال : « لا يقتل مؤمن بكافر » . فربما ذهب الوهم إلى أن دماءهم هدر ،

---

(١) مسلم (١٨٤٤ / ٤٦) فى الإمارة ، باب :وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء ،والنسائى (٤١٩١) فى البيعة ، باب :ذكر ما على مَن بايع الإمام وأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه ،وابن ماجه (٣٩٥٦) فى الفتن ،باب :ما يكون من الفتن .

(٢) البخارى (٢٢٠١ ، ٢٢٠٢) فى البيوع ، باب : إذا أراد بيع تمر بتمر خير منه ، ومسلم (١٥٩٣ / ٩٥) فى المساقاة ، باب : بيع الطعام مثلا بمثل ، ومالك (٢ / ٦٢٢) رقم (٢٠ / ٢١) فى البيوع ، باب : ما يكره من بيع التمر .

(٣) مسلم (١٠٧٢ / ١٦٧) فى الزكاة ، باب : استعمال آل النبى على الصدقة ، وأبو داود (٢٩٨٥) فى الخراج والإمارة والفىء ، باب : بيان مواضع قسم الخمس وسهم ذى القربى ، وأحمد (٤ / ١٦٦) .

(٤) أبو داود (٤٥٣٠) فى الديات ، باب : أيقاد المسلم بالكافر؟ ، والنسائى (٤٧٣٥) فى القسامة ، باب :القود بين الأحرار والمماليك فى النفس ،وابن ماجه (٢٦٦٠) فى الديات ،باب لا يقتل مسلم بكافر ،وأحمد (١/ ١١٩) .

ولهذا لو قتل أحدهم مسلم لم يقتل به ، فرفع هذا التوهم بقوله : ولا ذو عهد فى عهده، ولقد خفيت هذه اللطيفة الحسنة على من قال : يقتل المسلم بالكافر المعاهد . وقدر فى الحديث : ولا ذو عهد فى عهده بكافر ، ومنه قوله ﷺ :« لا تجلسوا على القبور ، ولا تُصلّوا إليها » (١) .

فلما كان نهيه عن الجلوس عليها نوع تعظيم لها عقبه بالنبى عن المبالغة فى تعظيمها حتى تجعل قبلة،وهذا بعينه مشتق من القرآن ، كقوله تعالى لنساء نبيه: ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا (٣٢) ﴾ [الأحزاب] ، فنهاهن عن الخضوع بالقول ، فربما ذهب الوهم إلى الإذن فى الإغلاظ فى القول والتجاوز ، فرفع هذا التوهم بقوله : ﴿ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ﴾ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ [الطور : ٢١] ، لما أخبر ـ سبحانه ـ بإلحاق الذرية ولا عمل لهم بآبائهم فى الدرجة فربما توهم متوهم أن يُحطَّ الآباء إلى درجة الذرية ، فرفع هذا التوهم بقوله : ﴿ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ أى : ما نقصنا من الآباء شيئًا من أجور أعمالهم ، بل رفعنا ذريتهم إلى درجتهم ، ولم نحطهم إلى درجتهم بنقص أجورهم ، ولما كان الوهم قد يذهب إلى أنه يفعل ذلك بأهل النار كما يفعله بأهل الجنة قطع هذا الوهم بقوله تعالى : ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) ﴾ [الطور :٢١]،ومن هذا قوله : ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ [النمل : ٩١]، فلما كان ذكر ربوبيته البلدة الحرام قد يوهم الاختصاص عقبه بقوله : ﴿ وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) ﴾ [الطلاق : ٣] ، فلما ذكر كفايته للمتوكل عليه فربما أوهم ذلك تعجل الكفاية وقت التوكل فعقبه بقوله : ﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ أى وقتا لا يتعداه فهو يسوقه إلى وقته الذى قدره له ، فلا يستعجل المتوكل ويقول : قد توكلت ودعوت فلم أر شيئًا ولم تحصل لى الكفاية، فالله بالغ أمره فى وقته الذى قدر له ، وهذا كثير جدًا فى القرآن والسنة ، وهو باب لطيف من أبواب فهم النصوص .

---

(١) مسلم (٩٧/٩٧٢ ، ٩٨) فى الجنائز ، باب : النهى عن الجلوس على القبر والصلاة عليه ، وأبو داود (٣٢٢٩) فى الجنائز ، باب فى كراهية العقود على القبر ، والترمذى (١٠٥٠ ، ١٠٥١) فى الجنائز ، باب : ما جاء فى كراهية المشى على القبور والجلوس عليها والصلاة إليها ، وأحمد (١٣٥/٤) .

على المفتى أن يذكر دليل الحكم ومأخذه وعلته

الفائدة السادسة : ينبغى للمفتى أن يذكر دليل الحكم ومأخذه ما أمكنه من ذلك ، ولا يلقيه إلى المستفتى ساذجًا مجردًا عن دليله ومأخذه ، فهذا لضيق عطنه وقلة بضاعته من العلم ، ومن تأمل فتاوى النبى ﷺ الذى قوله حجة بنفسه رآها مشتملة على التنبيه على حكمة الحكم ونظيره ووجه مشروعيته ، وهذا كما سئل عن بيع الرطب بالتمر فقال : «أينقص الرطب إذا جف ؟ » قالوا : نعم ، فزجر عنه (١) ، ومن المعلوم أنه كان يعلم نقصانه بالجفاف ، ولكن نبههم على علة التحريم وسببه . ومن هذا قوله لعمر وقد سأله عن قبلة امرأته وهو صائم ،فقال : « أرأيت لو تمضمضت ثم مججته ، أكان يضر شيئًا ؟ » قال : لا (٢) .فنبَّه على أن مقدمة المحظور لا يلزم أن تكون محظورة ، فإن غاية القبلة أنها مقدمة الجماع ، فلا يلزم من تحريمه تحريم مقدمته،كما أن وضع الماء فى الفم مقدمة شربه ، وليست المقدمة محرمة .

ومن هذا : قوله ﷺ : « لا تنكح المرأة على عمتها ، ولا على خالتها ، فإنكم إذا فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم » (٣) ، فذكر لهم الحكم ، ونبههم على علة التحريم .

ومن ذلك قوله لأبى النعمان بن بشير وقد خصَّ بعض ولده بغلام نحله إياه ، فقال: « أيسُرك أن يكونوا لك فى البر سواء ؟ » قال : نعم ، قال : « فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم » (٤) . وفى لفظ : « إن هذا لا يصلح » (٥) ، وفى لفظ : « إنى لا أشهد على

---

(١) كنز العمال (١٠١٠٥) ، ورواه أبو داود (٣٣٥٩) فى البيوع باب : فى التمر بالتمر ، والترمذى (١٢٢٥) فى البيوع ، باب : ما جاء فى النهى عن المحاقلة والمزابنة ، وقال : « حسن صحيح » ، والنسائى (٤٥٤٥ ، ٤٥٤٦) فى البيوع ، باب : اشتراء التمر بالرطب ، وابن ماجه (٢٢٦٤) فى التجارات ، باب : بيع الرطب بالتمر ، وبلفظ : « إذا يبس » .

(٢) أبو داود (٢٣٨٥) فى الصوم ، باب القبلة للصائم ، وأحمد (١ / ١٢) ، والحاكم فى المستدرك ١ / ٤٣١ وقال: « صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه » ووافقه الذهبى .

(٣) الطبرانى فى الكبير ١١ / ٣٣٧ (١١٩٣١)،والكامل فى الضعفاء (٤/١٥٩) ، وابن حبان (٤١٠٤) ولفظه:« إنكن إن فعلتن ذلك قطعتن أرحامكن » .

(٤) مسلم (١٦٢٣/١٧) فى الهبات ، باب : كراهة تفضيل بعض الأولاد فى الهبة ، وأبو داود (٣٥٤٢) فى البيوع، باب : فى الرجل يفضل بعض ولده فى النحل .

(٥) مسلم (١٦٢٤/١٩) فى الهبات ، باب : كراهة تفضيل بعض الأولاد فى الهبة ، وأبو داود (٣٥٤٥) فى الكتاب والباب السابقين .

جور » (١) ، وفى لفظ : « أشهد على هذا غيرى » (٢) ، تهديدًا ، لا إذنًا ، فإنه لا يأذن فى الجور قطعًا ، وفى لفظ : رده ، والمقصود أنه نبهه على علة الحكم .

ومن هذا : قوله ﷺ لرافع بن خديج وقد قال له : إنا لاقو العدو غدًا وليس معنا مدى، أفنذبح بالقصب ؟ فقال : « ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه ، فكل ، ليس السِّن والظفر ، وسأحدثك عن ذلك ، أما السن فعظم ، وأما الظفر فمدى الحبشة » (٣) ، فنبه على علة المنع من التذكية بهما بكون أحدهما عظما ، وهذا تنبيه على عدم التذكية بالعظام إما لنجاسة بعضها وإما لتنجيسه على مؤمنى الجن ، ولكون الآخر مدى الحبشة ، ففى التذكية بها تشبه بالكفار . ومن ذلك قوله : « إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر الإنسية ، فإنها رجس » (٤) .

ومن ذلك : قوله فى الثمرة تصيبها الجائحة : « أرأيت إن منع الله الثمرة ، فبم يأكل أحدكم مال أخيه بغير حق ؟ » (٥) وهذا التعليل بعينه ينطبق على من استأجر أرضًا للزراعة فأصيب الزرع آفة سماوية لفظا ومعنى ، فيقال للمؤجر : أرأيت إن منع الله الزرع فبم تأكل مال أخيك بغير حق ؟ وهذا هو الصواب الذى ندين الله به فى المسألة ،وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية .

والمقصود بأن الشارع مع كون قوله حجة بنفسه يرشد الأمة إلى علل الأحكام ومداركها وحكمها ، فورثته من بعده كذلك .

ومن ذلك : نهيه عن الخذْف وقال : « إنه يفقأ العين ويكسر السن » (٦) .

(١ ، ٢) مسلم (١٦٢٣/ ١٤، ١٥) فى الكتاب والباب السابقين ، وأبو داود (٣٥٤٢) فى الكتاب والباب السابقين .

(٣) البخارى (٥٤٩٨) فى الذبائح والصيد ، باب : التسمية على الذبيحة ومن ترك متعمدًا ، ومسلم (١٩٦٨/ ٢٠) فى الأضاحى ، باب : جواز الذبح بكل ما أنهر الدم إلا السن والظفر وسائر العظم ، وأبو داود (٢٨٢١) فى الضحايا ، باب : فى الذبيحة بالمروة ، والترمذى (١٤٩١) فى الأحكام والفوائد ، باب : ما جاء فى الزكاة بالقصب وغيره .

(٤) أحمد (٣ / ١١١) .

(٥) البخارى : (٢١٩٨) فى البيوع ، باب : إذا باع الثمار قبل أن يبدو صلاحها ، ومسلم (١٥٥٥ / ١٥ ، ١٦) فى المساقاة ، باب : وضع الجوائح بلفظ مقارب ، والنسائى (٤٥٢٦) فى البيوع ، باب : شراء الثمار قبل أن يبدو صلاحها ، ومالك (٢/ ٦١٨) رقم (١١) فى البيوع ، باب : النهى عن بيع الثمر قبل بدو صلاحها .

(٦) البخارى (٦٢٢٠) فى الأدب ، باب : النهى عن الخذف ، ومسلم (١٩٥٤/ ٥٤-٥٦) فى الصيد والذبائح ، باب : إباحة ما يستعان به على الاصطياد والعدو ، وكراهة الخذْف ، وابن ماجه (١٧) فى المقدمة ، باب : تعظيم حديث رسول الله ﷺ والتغليظ على من عارضه ، وأحمد (٥ / ٥٤ ، ٥٥) .

ومن ذلك : إفتاؤه للعاضِّ يدَ غيره بإهدار دية ثنيته لما سقطت بانتزاع المعضوض يده من فيه ، ونبه على العلة بقوله : «أيدع يده فى فيك تقضمها كما يقضم الفحل » (١) ، وهذا من أحسن التعليل وأبينه ؛ فإن العاض لما صال على المعضوض جاز له أن يرد صياله عنه بانتزاع يده من فمه ، فإذا أدى ذلك إلى إسقاط ثناياه كان سقوطها بفعل مأذون فيه من الشارع فلا يقابل بالدية ، وهذا كثير جدا فى السنة ؛ فينبغى للمفتى أن ينبه السائل على علة الحكم ومأخذه إن عرف ذلك ، وإلا حرم عليه أن يفتى بلا علم .

وكذلك أحكام القرآن يرشد سبحانه فيها إلى مداركها وعللها ، كقوله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ﴾ [البقرة : ٢٢٢]، فأمر ـ سبحانه ـ نبيه أن يذكر لهم علة الحكم قبل الحكم ، وكذلك قوله : ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾ [الحشر : ٧]، وكذلك قوله: ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣٨]، وقال فى جزاء الصيد: ﴿ لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ﴾ [المائدة : ٩٥].

التمهيد للحكم المستغرب

الفائدة السابعة : إذا كان الحكم مستغربا جدا مما لم تألفه النفوس وإنما ألفت خلافه ، فينبغى للمفتى أن يوطئ قلبه ما يكون مؤذنا به كالدليل عليه والمقدمة بين يديه، فتأمل ذكره ـ سبحانه ـ قصة زكريا وإخراج الولد منه بعد انصرام عصر الشبيبة وبلوغه السن الذى لا يولد فيه لمثله فى العادة ، فذكر قصته مقدمه بين يدى قصة المسيح وولادته من غير أب ؛ فإن النفوس لما آنست بولد من بين شيخين كبيرين لا يولد لهما عادة سهل عليها التصديق بولادة ولد من غير أب ، وكذلك ذكر ـ سبحانه ـ قبل قصة المسيح موافاة مريم رزقها فى غير وقته وغير إبانه، وهذا الذى شجع نفس زكريا وحركها لطلب الولد وإن كان فى غير إبانه، وتأمل قصة نسخ القبلة لما كانت شديدة على النفوس جدا كيف وطأ سبحانه قبلها عدة موطئات :

منها : ذكر النسخ .

ومنها : أنه يأتى بخير من المنسوخ أو مثله .

---

(١) البخارى (٢٩٧٣) فى الجهاد ، باب : الأجير ، ومسلم (١٦٧٣/ ٢١) فى القسامة ، باب الصائل على نفس الإنسان أو عضوه ، وأحمد (٤/ ٢٢٢) .

ومنها : أنه على كل شىء قدير ، وأنه بكل شىء عليم ؛ فعموم قدرته وعلمه صالح لهذا الأمر الثانى كما كان صالحا للأول .

ومنها : تحذيرهم من الاعتراض على رسوله كما اعترض من قبلهم على موسى ، بل أمرهم بالتسليم والانقياد .

ومنها : تحذيرهم بالإصغاء إلى اليهود ، وألا تستخفهم شبههم ، فإنهم يودون أن يردوهم كفارا من بعدما تبين لهم الحق .

ومنها : إخباره أن دخول الجنه ليس بالتهود ولا بالتنصر ، وإنما هو بإسلام الوجه والقصد والعمل والنية لله مع متابعة أمره .

ومنها: إخباره ـ سبحانه ـ عن سعته ، وأنه حيث ولى المصلى وجهه فثم وجهه تعالى ، فإنه واسع عليم ، فذكر الإحاطتين الذاتية والعلمية ، فلا يتوهمون أنهم فى القبلة الأولى لم يكونوا مستقبلين وجهه تبارك وتعالى ولا فى الثانية ،بل حيثما توجهوا فثم وجهه تعالى.

ومنها : أنه ـ سبحانه وتعالى ـ حذر نبيه ﷺ عن اتباع أهواء الكفار من أهل الكتاب وغيرهم ، بل أمر أن يتبع هو وأمته ما أوحى إليه فيستقبلونه بقلوبهم وحده .

ومنها : أنه ذكر عظمة بيته الحرام ، وعظمة بانيه وملته ، وسفه من يرغب عنها ، وأمر باتباعها ، فنوه بالبيت وبانيه وملته ، وكل هذا توطئة بين يدى التحويل ، مع ما فى ضمنه من المقاصد الجليلة والمطالب السنية .

ثم ذكر فضل هذه الأمة ، وأنهم الأمة الوسط العدل الخيار ، فاقتضى ذلك أن يكون نبيهم ﷺ أوسط الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ وخيارهم ، وكتابهم كذلك ، ودينهم كذلك وقبلتهم التى يستقبلونها كذلك ، فظهرت المناسبة شرعا وقدرا فى أحكامه تعالى الأمرية والقدرية ، وظهرت حكمته الباهرة ، وتجلت للعقول الزكية المستنيرة بنور ربها تبارك وتعالى .

والمقصود : أن المفتى جدير أن يذكر بين يدى الحكم الغريب الذى لم يؤلف مقدمات تؤنس به ، وتدل عليه ، وتكون توطئة بين يديه ، وبالله التوفيق .

للمفتى أن يحلف على ثبوت الحكم عنده

الفائدة الثامنة: يجوز للمفتى والمناظر أن يحلف على ثبوت الحكم عنده ، وإن لم يكن

حلفه موجبا لثبوته عند السائل والمنازع ، ليشعر السائل والمنازع له أنه على ثقة ويقين مما قال له ، وأنه غير شاك فيه ، فقد تناظر رجلان فى مسألة ، فحلف أحدهما على ما يعتقده ، فقال له منازعه : لا يثبت الحكم بحلفك ، فقال : إنى لم أحلف ليثبت الحكم عندك ، ولكن لأعلمك أنى على يقين وبصيرة من قولى ،وأن شبهتك لا تغير عندى فى وجه يقينى بما أنا جازم به ، وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يحلف على ثبوت الحق الذى جاء به فى ثلاثة مواضع من كتابه ، أحدها : قوله تعالى : ﴿ **وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَق** ﴾ [يونس: ٥٣]، والثانى : قوله تعالى :﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ** ﴾ [سبأ : ٣] ، والثالث : قوله تعالى :﴿ **زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ** ﴾ [التغابن : ٧] ، وقد أقسم النبى ﷺ على ما أخبر به من الحق فى أكثر من ثمانين موضعا ، وهى موجودة فى الصحاح والمسانيد .

وقد كان الصحابة ﷺ يحلفون على الفتاوى والرواية ، فقال على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - لابن عباس فى متعة النساء : إنك امرؤ تائه ، فانظر ما تفتى به فى متعة النساء : فوالله وأشهد بالله ، لقد نهى عنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ولما ولى عمر ﷺ حمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا أيها الناس ،إن رسول الله ﷺ أحل المتعة ثلاثا ، ثم حرمها ثلاثا ، فأنا أقسم بالله قسما لا أجد أحدا من المسلمين متمتعا إلا رجمته ، إلا أن يأتى بأربعة من المسلمين يشهدون أن رسول الله ﷺ أحلها بعد أن حرمها . وقد حلف الشافعى فى بعض أجوبته ، فقال محمد بن الحكم : سألت الشافعى ﷺ عن المتعة كان يكون فيها طلاق أو ميراث أو نفقة أو شهادة ؟ فقال : لا والله ما أدرى . وقال يزيد بن هارون : من قال : القرآن مخلوق أو شىء منه مخلوق ، فهو والله عندى زنديق .

وسئل عن حديث جرير فى الرؤية ، فقال : والله الذى لا إله هو من كذب به ما هم إلا زنادقة . وأما الإمام أحمد رحمة الله عليه ورضوانه فإنه حلف على عدة مسائل من فتاويه ، قيل : أيزيد الرجل فى الوضوء على ثلاث مرات ؟ فقال : لا والله ، إلا رجل مبتلى ، يعنى بالوسواس . وسئل عن تخليل الرجل لحيته إذا توضأ ، فقال : إى والله .

وسئل : يكون الرجل فى الجهاد بين الصفين يُبارز علجًا بغير إذن الإمام ، فقال : لا والله . وقيل له : أتكره الصلاة فى المقصورة ؟ فقال : إى والله ، قلت : وهذا لما كانت المقصورة تُحمى للأمراء وأتباعهم . وسئل : أيؤجرُ على بُغْض من خالف حديث رسول

الله ﷺ ؟ فقال : إى والله .وسئل :من قال : القرآن مخلوق كافر ؟ فقال : إى والله . وسئل : هل صح عندك فى النبيذ حديث ؟ فقال : والله ما صح عندى حديث واحد إلا على التحريم .

وسئل : أيكره الخضاب بالسواد ؟ فقال : إى والله . وسئل عن الرجل يؤم أباه ويصلى الأب خلفه ، فقال : إى والله . وسئل : هل يُكره النفخ فى الصلاة ؟ فقال : إى والله .

وسئل عن تزوج الرجل المسلم الأمة من أهل الكتاب ، فقال : لا والله . وسئل عن المرأة تستلقى على قفاها وتنام ، يكره ذلك ؟ فقال : إى والله .

وسئل عن الرجل يَرْهن جاريته فيطؤها وهى مرهونة ، فقال : لا والله .

وسئل عن حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قضى فى رجل استسقى قومًا وهو عطشان فلم يسقوه فمات فأغرمهم عمر الديَّة ، تقول أنت كذا ؟ فقال : إى والله .

وسئل عن الرجل إذا حُدَّ فى القذف ثم قذف زوجته يلاعنها ؟ فقال : إى والله .

وسئل أيضرب الرجل رقيقه ؟ فقال : إى والله . ذكر هذه المسائل القاضى أبو على الشريف .

وقال الإمام أحمد فى رواية ابنه صالح : والله لقد أعطيت المجهود من نفسى ، ولوددت أنى أنجو من هذا الزمر كفافًا لا على ولا لى . وقال فى روايته أيضًا : والله لقد تمنيت الموت فى الأمر الذى كان ؛ وإنى لأتمنى الموت فى هذا وهذا فتنة الدنيا . وقال إسحاق بن منصور لأحمد : يكره الخاتم من ذهب أو حديد ؟ فقال : إى والله .

وقال إسحاق أيضا : قلت : قلت لأحمد : يؤجرُ الرجل يأتى أهله وليس له شهوة فى النساء ؟ فقال : إى والله ، يحتسب الولد ، وإن لم يرد الولد ، إلا أنه يقول : هذه امرأة شابة . وقال له محمد بن عون : يا أبا عبد الله ، يقولون : إنك وقفت على عثمان ، فقال : كذبوا والله على ، وإنما حدثتهم بحديث ابن عمر : كنا نفاضل بين أصحاب رسول الله ﷺ ، نقول : أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم على ، فيبلغ ذلك النبى ﷺ ، فلم يكره، ولم يقل النبى ﷺ : لا تخايروا بعد هؤلاء ، فمن وقف على عثمان ولم يربع بعلى عليه السلام فهو على غير السنة .

وسئل أحمد : هل المقام بالثغر أفضل من المقام بمكة ؟ فقال :إى والله .

وذكر أبو أحمد بن عدى فى الكامل : أن أيوب بن إسحاق بن سافرى قال : سألت أحمد بن حنبل فقلت : يا أبا عبد الله ، ابن إسحاق إذا انفرد بحديث تقبله ؟ فقال : لا والله ، إنى رأيته يُحدّث عن جماعة بالحديث ولا يفصل كلام ذا من كلام ذا .

وقال صالح بن أحمد : قلت لأبى : تقتل الحية والعقرب فى الصلاة ؟ فقال : إى والله . وقال أيضًا : قلت لأبى : تجهرُ بآمين ؟ فقال : إى والله ، الإمام وغير الإمام . وقال أيضًا : قلت لأبى : يفتح على الإمام ؟ قال : إى والله .

وقال الميمونى : قلت لأحمد : ونحن نحتاج فى رمضان أن نُبيِّتَ الصوم من الليل ؟ فقال : إى والله . وقال الميمونى أيضا : تباع الفرس الحبيس إذا عطبت وإذا فسدت ؟ فقال : إى والله . وقال الميمونى أيضا : قلت لأحمد : هل ثبت عن النبى ﷺ فى العقيقة شيء ؟ فأملى على أبى : إى والله ، وفى غير حديث عن النبى ﷺ : « عن الغلام شاتان مكافيتان ، وعن الجارية شاة » (١) .

وقال إسحاق بن منصور : قلت لأحمد ، التسبيح للرجال والتصفيق للنساء ؟ قال : إى والله .

وقال الكوسج أيضًا : قلت لأحمد : قال سفيان : تجزئه تكبيرة إذا نوى بها افتتاح الصلاة ؟ قال أحمد : إى والله ، تجزئة إذا نوى ، ابن عمر وزيد . وقال أيضا : قلت لأحمد : المؤذن يجعل أصبعيه فى أذنيه ؟ قال : إى والله . وقال أيضا : قلت لأحمد : سُئل سفيان عن امرأة ماتت وفى بطنها ولد يتحرك ، ما أرى بأسًا أن يشق بطنها ، قال أحمد : بئس والله ما قال ، يردد ذلك ، سبحان الله ! بئس ما قال : وقال أيضا : قلت لأحمد : تجوز شهادة رجل وامرأتين فى الطلاق ؟ قال : لا والله . وقال أيضا : قلت لأحمد : المرجئ إذا كان داعيًا ، قال : إى والله يُجْفَى ويُقْصَى .

وقال أبو طالب : قلت لأحمد : رجل قال : القرآن كلام الله ليس بمخلوق ، ولكن لفظى هذا به مخلوق ، قال : من قال هذا فقد جاء بالأمر كله ، إنما هو كلام الله على كل حال ، والحجة فيه حديث أبى بكر ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ ﴾ [الروم : ١] فقيل له : هذا مما جاء به صاحبك ؟ فقال : لا والله ، ولكنه كلام الله ، هذا وغيره ، وإنما هو كلام الله، قلت : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا**

---

(١) أبو داود (٢٨٤٢) فى الضحايا ، باب : فى العقيقة ، والترمذى (١٥١٣) فى الأضاحى ، باب : ما جاء فى العقيقة وقال : « حسن صحيح » ، وابن ماجه (٣١٦٢) فى الذبائح ، باب : العقيقة .

بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾ [الأنعام : ١] هذا الذى قرأت الساعة كلام الله ؟ قال : إى والله هو كلام الله . ومن قال : « لفظى بالقرآن مخلوق » فقد جاء بالأمر كله .

وقال الفضل بن زياد : سألت أبا عبد الله عن حديث ابن شبرمة عن الشعبى فى رجل نذر أن يطلق امرأته ، فقال له الشعبى : أوف بنذرك ، أترى ذلك ؟ فقال : لا والله .

وقال الفضل أيضا : سمعت أبا عبد الله ، وذكر يحيى بن سعيد القطان ، فقال : لا والله ، ما أدركنا مثله .

وذكر أحمد فى رسالته إلى مسدد : ولا عين نظرت بعد النبى ﷺ خيرًا من أبى بكر ، ولا بعد أبى بكر عين نظرت خيرًا من عمر ، ولا بعد عمر عين نظرت خيرًا من عثمان ، ولا بعد عثمان عين نظرت خيرًا من على بن أبى طالب ﷺ ! ثم قال أحمد : وهم والله الخلفاء الراشدون المهديون .

وقال الميمونى : قلت لأحمد : جابر الجعفى ، قال : كان يرى التشيع ، قلت : قد يتهم فى حديثه بالكذب ؟ قال : إى والله .

قال القاضى :فإن قيل: كيف استجاز الإمام أحمد أن يحلف فى مسائل مختلف فيها ؟

قيل : أما مسائل الأصول فلا يسوغ فيها اختلاف فهى إجماع ، وأما مسائل الفروع فإنه لما غلب على ظنه صحة ذلك حلف عليه ، كما لو وجد فى دفتر أبيه أن له على فلان دينًا جاز له أن يدعيه لغالبة الظن بصدقه ، قلت : ويحلف عليه .

قال : فإن قيل : أليس قد امتنع من اليمين على إسقاط الشفعة بالجوار ؟

قيل : لأن اليمين هناك عند الحاكم ، والنية فيه للخصم ، قلت : ولم يمنع أحمد اليمين لهذا بل شفعة الجوار عنده مما يسوغ القول بها ،وفيها أحاديث صحاح لا ترد ، ولهذا اختلف قوله فيها ، فمرة نفاها ، ومرة أثبتها ، ومرة فصل بين أن يشتركا فى حقوق الملك كالطريق والماء وغيره ، وبين ألا يشتركا فى الشىء من ذلك فلا يثبت ، وهذا هو الصواب الذى لا ريب فيه ، وبه تجتمع الأحاديث ، وهو اختيار شيخ الإسلام ، ومذهب فقهاء البصرة ، ولا يختار غيره .

وقد روى أحمد عن جماعة من الصحابة والتابعين أنهم حلفوا فى الرواية والفتوى وغيرها تحقيقًا وتأكيدًا للخبر لا إثباتًا له باليمين ، وقد قال تعالى : ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الذاريات : ٢٣] ، وقال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ

حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ الآية [النساء : ٦٥] ، :وقال تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الحجر] ، وكذلك أقسم بكلامه كقوله تعالى : ﴿ يسٓ ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ ﴾ [يس] ، : ﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ ﴾ [ق] ، ﴿ صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ ﴾ [ص] ، وأما إقسامه بمخلوقاته التى هى آيات دالة عليه فكثير جداً .

على المفتى استعمال لفظ النص فى فتواه

الفائدة التاسعة : ينبغى للمفتى أن يفتى بلفظ النص مهما أمكنه ؛ فإنه يتضمن الحكم، والدليل مع البيان التام ، فهو حكم مضمون له الصواب ، متضمن للدليل عليه فى أحسن بيان، وقول الفقيه المعين ليس كذلك ، وقد كان الصحابة والتابعون والأئمة الذين سلكوا على منهاجهم يتحرون ذلك غاية التحرى ، حتى خلفت من بعدهم خلُوف رغبوا عن النصوص ، واشتقوا لهم ألفاظًا غير ألفاظ النصوص ، فأوجب ذلك هجر النصوص ، ومعلوم أن تلك الألفاظ لا تفى بما تفى به النصوص من الحكم والدليل وحسن البيان ، فتولد من هجران ألفاظ النصوص والإقبال على الألفاظ الحادثة ، وتعليق الأحكام بها على الأمة من الفساد ما لا يعلمه إلا الله ، فألفاظ النصوص عصمة ، وحجة بريئة من الخطأ والتناقض والتعقيد والاضطراب .

ولما كانت هى عصمة عهدة الصحابة ، وأصولهم التى إليها يرجعون كانت علومهم أصح من علوم من بعدهم ، وخطؤهم فيما اختلفوا فيه أقل من خطأ من بعدهم ، ثم التابعون بالنسبة إلى من بعدهم كذلك ، وهلم جراً .

ولما استحكم هجران النصوص عند أكثر أهل الأهواء والبدع كانت علومهم فى مسائلهم وأدلتهم فى غاية الفساد والاضطراب والتناقض ، وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا سئلوا عن مسألة يقولون: قال الله كذا ، قال رسول الله ﷺ كذا،أو فعل رسول الله كذا ، ولا يعدلون عن ذلك ما وجدوا إليه سبيلا قط ، فمن تأمل أجوبتهم وجدها شفاء لما فى الصدور ، فلما طال العهد وبُعد الناس من نور النبوة صار هذا عيبًا عند المتأخرين أن يذكروا فى أصول دينهم وفروعه : قال الله ، وقال رسول الله .

أما أصول دينهم فصرحوا فى كتبهم أن قول الله ورسوله لا يفيد اليقين فى مسائل أصول الدين ، وإنما يحتج بكلام الله ورسوله فيها الحشوية والمجسمة والمشبهة .

وأما فروعهم فقنعوا بتقليد من اختصر لهم بعض المختصرات التى لا يذكر فيها نص عن الله ولا عن رسول الله ﷺ ، ولا عن الإمام الذى زعموا أنهم قلدوه دينهم ، بل عمدتهم فيما يفتون ويقضون به وينقلون به الحقوق ويبيحون به الفروج والدماء والأموال على قول ذلك المصنف ، وأجلهم عند نفسه وزعيمهم عند بنى جنسه : من يستحضر لفظ الكتاب ، ويقول : هكذا قال ، وهذا لفظه ؛ فالحلال ما أحله ذلك الكتاب ، والحرام ما حرمه ، والواجب ما أوجبه ، والباطل ما أبطله ، والصحيح ما صححه .

هذا وأنىَّ لنا بهؤلاء فى مثل هذه الأزمان ، فقد دفعنا إلى أمر تضج منه الحقوق إلى الله ضجيجًا ، وتعج منه الفروج والأموال والدماء إلى ربها عجيجًا ، تبدل فيه الأحكام ، ويقلب فيه الحلال بالحرام ، ويجعل المعروف فيه أعلى مراتب المنكرات ، والذى لم يشرعه الله ورسوله من أفضل القربات ، والحق فيه غريب ، وأغرب منه من يعرفه ، وأغرب منهما من يدعو إليه وينصح به نفسه والناس ؛ قد فلق بهم فالق الإصباح صبحه عن غياهب الظلمات ،وأبان طريقه المستقيم من بين تلك الطرق الجائرات ، وأراه بعين قلبه ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه مع ما عليه أكثر الخلق من البدع المضلات ، رفع له علم الهداية فشمر إليه ، ووضح له الصراط المستقيم فقام واستقام عليه ، وطوبى له من وحيد على كثرة السكان ، غريب على كثرة الجيران ، بين أقوام رؤيتهم قذى العيون ، وشجى الحلوق، وكرب النفوس ،وحمى الأرواح وغم الصدور ، ومرض القلوب ، وإن أنصفتهم لم تقبل طبيعتهم الإنصاف ، وإن طلبته منهم فأين الثرايا من يد الملتمس ، قد انتكست قلوبهم ، وعمى عليهم مطلوبهم ، رضوا بالأمانى ، وابتلوا بالحظوظ ، وحصلوا على الحرمان . وخاضوا بحار العلم لكن بالدعاوى الباطلة وشقائق الهذيان ؛ ولا والله ما ابتلَّت من وشله [1] أقدامهم ، ولا زكت به عقولهم وأحلامهم ؛ ولا ابيضت به لياليهم ؛ وأشرقت بنوره أيامهم ؛ ولا ضحكت بالهدى والحق منه وجوه الدفاتر إذا بُلَّتْ بمداده أقلامهم ، أنفقوا فى غير شىء نفائس الأنفاس ؛ وأتعبوا أنفسهم وحيروا من خلفهم من الناس ،ضيعوا الأصول،فحرموا الوصل ، وأعرضوا عن الرسالة فوقعوا فى مهامه الحيرة ، وبيداء الضلالة .

---

(١) الوشل : الماء القليل .

والمقصود : أن العصمة مضمونة فى ألفاظ النصوص ومعانيها فى أتم بيان وأحسن تفسير ، ومن رام إدراك الهدى ودين الحق من غير مشكاتها فهو عليه عسير غير يسير .

على المفتى أن يضرع إلى الله ليلهمه الصواب

الفائدة العاشرة : ينبغى للمفتى الموفق إذا نزلت به المسألة أن ينبعث من قلبه الافتقار الحقيقى الحالى ، لا العلمى المجرد إلى مُلْهِم الصواب ،ومعلم الخير ، وهادى القلوب ، أن يلهمه الصواب ، ويفتح له طريق السداد ، ويدله على حكمه الذى شرعه لعباده فى هذه المسألة ، فمتى قرع هذا الباب فقد قرع باب التوفيق ، وما أجدر من أمَّل فضل ربه ألا يحرمه إياه ! فإذا وجد من قلبه هذه الهمة فهى طلائع بشرى التوفيق ، فعليه أن يوجه وجهه ويحدق نظره إلى منبع الهدى ومعدن الصواب ومطلع الرشد وهو النصوص من القرآن والسنة وآثار الصحابة ، فيستفرغ وسعه فى تعرف حكم تلك النازلة منها ، فإن ظفر بذلك أخبر به،وإن اشتبه عليه بادر إلى التوبة والاستغفار والإكثار من ذكر الله ، فإن العلم نور الله يقذفه فى قلب عبده،والهوى والمعصية رياح عاصفة تطفئ ذلك النور أو تكاد ، ولا بد أن تضعفه .

وشهدت شيخ الإسلام ـ قدس الله روحه ـ إذ غشيته المسائل ، واستصعبت عليه ، فَرَّ منها إلى التوبة والاستغفار والاستعانة بالله واللَّجَأ إليه ، واستنزال الصواب من عنده ، والاستفتاح من خزائن رحمته ، فقلَّما يلبث المدد الإلهى أن يتتابع عليه مدًا ، وتزدلف الفتوحات الإلهية إليه بأيتهن يبدأ ، ولا ريب أن من وفق لهذا الافتقار علمًا وحالا ، وسار قلبه فى ميادينه بحقيقة وقصد فقد أعطى حظه من التوفيق ، ومن حرمه فقد منع الطريق والرفيق . فمتى أعين مع هذا الافتقار ببذل الجهد فى درك الحق فقد سلك به الصراط المستقيم ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

لا يحل للمفتى الإفتاء إلا بما يكون منه على بينة

الفائدة الحادية عشرة : إذا نزلت بالحاكم أو المفتى النازلة ، فإما أن يكون عالمًا بالحق فيها ، أو غالبًا على ظنه بحيث قد استفرغ وسعه فى طلبه ومعرفته . أو لا ، فإن لم يكن عالمًا بالحق فيها ، ولا غلب على ظنه لم يحل له أن يفتى ، ولا يقضى بما لا يعلم ، ومتى أقدم على ذلك فقد تعرض لعقوبة الله ، ودخل تحت قوله تعالى : ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ**

الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٣) ﴾ [الأعراف] ، فجعل القول عليه بلا علم أعظم المحرمات الأربعة التى لا تباح بحال؛ ولهذا حصر التحريم فيها بصيغة الحصر ، ودخل تحت قوله تعالى : ﴿ **وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (١٦٩)** ﴾ [البقرة] ، ودخل فى قول النبى ﷺ : « من أفتى بغير علم فإنما إثمه على من أفتاه » (١) وكان أحد القضاة الثلاثة الذين ثلثاهم فى النار .

وإن كان قد عرف الحق فى المسألة علمًا أو ظنًا غالبًا لم يحل له أن يفتى ولا يقضى بغيره بالإجماع المعلوم بالضرورة من دين الإسلام ، وهو أحد القضاة الثلاثة والمفتين الثلاثة والشهود الثلاثة ، وإذا كان من أفتى أو حكم أو شهد بغير علم مرتكبًا لأعظم الكبائر فكيف من أفتى أو حكم أو شهد بما يعلم خلافه ؟ فالحاكم والمفتى والشاهد كل منهم مخبر عن حكم الله ؛ فالحاكم مخبر منفذ ، والمفتى مخبر غير منفذ ، والشاهد مخبر عن الحكم الكونى القدرى المطابق للحكم الدينى الأمرى ؛ فمن أخبر منهم عما يعلم خلافه ، فهو كاذب على الله عمدًا : ﴿ **وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠)** ﴾ [الزمر] ،ولا أظلم ممن كذب على الله وعلى دينه . وإن أخبروا بما لم يعلموا فقد كذبوا على الله جهلا ، وإن أصابوا فى الباطن ، وأخبروا بما لم يأذن الله لهم فى الإخبار به ، وهم أسوأ حالا من القاذف إذا رأى الفاحشة وحده فأخبر بها فإنه كاذب عند الله ، وإن أخبر بالواقع ؛ فإن الله لم يأذن له فى الإخبار بها إلا إذا كان رابع أربعة ، فإن كان كاذبًا عند الله فى خبر مطابق لمخبره حيث لم يأذن له فى الإخبار به فكيف بمن أخبر عن حكمه بما لم يعلم أن الله حكم به ولم يأذن له فى الإخبار به ؟ قال الله تعالى : ﴿ **وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧)** ﴾ [النحل] ،وقال تعالى: ﴿ **فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ** ﴾ [الزمر:٣٢] ، والكذب على الله يستلزم التكذيب بالحق والصدق ، وقال تعالى : ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ**

---

(١) سبق تخريجه ص ٢٠ .

عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) ﴾ [هود] ،وهذه الآيات وإن كانت فى حق المشركين والكفار فإنها متناولة لمن كذب على الله فى توحيده ودينه وأسمائه وصفاته وأفعاله، ولا تتناول المخطئ المأجور إذا بذل اجتهاده ، واستفرغ وسعه فى إصابة حكم الله وشرعه ، فإن هذا هو الذى فرضه الله عليه ، فلا يتناول المطيع لله وإن أخطأ ، وبالله التوفيق .

المفتى ممن يظهر حكم الله على لسانه

الفائدة الثانية عشرة : حكم الله ورسوله يظهر على أربعة ألسنة :لسان الراوى ، ولسان الحاكم ، ولسان الشاهد ، فالراوى يظهر على لسانه لفظ حكم الله ورسوله .

والمفتى يظهر على لسانه معناه وما استنبطه من لفظه .

والحاكم يظهر على لسانه الإخبار بحكم الله وتنفيذه .

والشاهد يظهر على لسانه الإخبار بالسبب الذى يثبت حكم الشارع .

والواجب على هؤلاء الأربعة أن يخبروا بالصدق المستند إلى العلم ، فيكونون عالمين بما يخبرون به ، صادقين فى الإخبار به .

وآفة أحدهم الكذب والكتمان ، فمتى كتم الحق أو كذب فيه فقد حادَّ الله فى شرعه ودينه ، وقد أجرى الله سنته أن يمحق عليه بركة علمه ودينه ودنياه إذا فعل ذلك ، كما أجرى عادته ـ سبحانه ـ فى المتبايعين إذا كتما وكذبا أن يمحق بركة بيعها ، ومن التزم الصدق والبيان منهم فى مرتبته بورك له فى علمه ووقته ودينه ودنياه ، وكان مع النبيين والصدقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقًا ، وذلك الفضل من الله وكفى بالله عليمًا ، فبالكتمان يعزل الحق عن سلطانه ، وبالكذب يقلبه عن وجهه ، والجزاء من جنس العمل ، فجزاء أحدهم أن يعزله الله عن سلطان المهابة والكرامة والمحبة والتعظيم الذى يلبسه أهل الصدق والبيان ، ويلبسه ثوب الهوان والمقت والخزى بين عباده ، فإذا كان يوم القيامة جازى الله ـ سبحانه ـ من يشاء من الكاذبين الكاتمين بطمس الوجوه وردها على أدبارها كما طمسوا وجه الحق وقلبوه عن وجهه جزاء وفاقًا ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦) ﴾ [فصلت] .

لا يجوز لمفت الحكم على الشيء إلا بما حكم الله به

الفائدة الثالثة عشرة : لا يجوز للمفتي أن يشهد على الله ورسوله بأنه أحل كذا أو حرمه ؛ أو أوجبه أو كرهه ، إلا لما يعلم أن الأمر فيه كذلك مما نص الله ورسوله على إباحته أو تحريمه أو إيجابه أو كراهته . وأما ما وجده فى كتابه الذى تلقاه عمن قلده دينه ، فليس له أن يشهد على الله ورسوله به ؛ ويغر الناس بذلك ، ولا علم له بحكم الله ورسوله .

قال غير واحد من السلف : ليحذر أحدكم أن يقول : أحل الله كذا ؛ أو حرم الله كذا ، فيقول الله له : كذبت ، لم أحل كذا ولم أحرمه .

وثبت فى صحيح مسلم من حديث بُريدَة بن الحصيب أن رسول الله ﷺ قال : « وإذا حاصرت حصنًا فسألوك أن تنزلهم على يحكم الله ورسوله ؛ فلا تنزلهم على حكم الله ورسوله ؛ فإنك لا تدرى أتصيب حكم الله فيهم أم لا ؛ ولكن أنزلهم على حكمك وحكم أصحابك » (١) .

وسمعت شيخ الإسلام يقول : حضرت مجلسًا فيه القضاة وغيرهم ؛ فجرت حكومة حكم فيها أحدهم بقول زُفَر ؛ فقلت له : ما هذه الحكومة ؟ قال : هذا حكم الله . فقلت له : صار قول زُفَر هو حكم الله الذى حكم به وألزم به الأمة ؟ ! . قل هذا حكم زفر ، ولا تقل : هذا حكم الله ؛ أو نحو هذا من الكلام .

أحوال السائل وموقف المفتى منه

الفائدة الرابعة عشرة : المفتى إذا سئل عن مسألة ، فإما أن يكون قصد السائل فيها معرفة حكم الله ورسوله ليس إلا ، وإما أن يكون قصده معرفة ما قاله الإمام الذى شهر المفتى نفسه باتباعه وتقليده دون غيره من الأئمة ، وإما أن يكون مقصوده معرفة ما ترجح عند ذلك المفتى وما يعتقده فيها لاعتقاده علمه ودينه وأمانته ، فهو يرضى تقليده هو ، وليس له غرض فى قول إمام بعينه ؛ فهذه أجناس الفُتيا التى ترد على المفتين .

---

(١) سبق تخريجه ص ٢٤ .

ففرض المفتى فى القسم الأول أن يجيب بحكم الله ورسوله إذا عرفه وتيقنه ، لا يسعه غير ذلك .

وأما فى القسم الثانى ، فإذا عرف قول الإمام نفسه وسعه أن يخبر به ، ولا يحل له أن ينسب إليه القول ، ويطلق عليه أنه قوله بمجرد ما يراه فى بعض الكتب التى حفظها أو طالعها من كلام المنتسبين إليه ، فإنه قد اختلطت أقوال الأئمة وفتاويهم بأقوال المنتسبين إليهم واختياراتهم . فليس كل ما فى كتبهم منصوصًا عن الأئمة ، بل كثير منه يخالف نصوصهم ، وكثير منه لا نص لهم فيه ، وكثير منه يخرج على فتاويهم ، وكثير منه أفتوا به بلفظه أو بمعناه ، فلا يحل لأحد أن يقول : هذا قول فلان ومذهبه إلا أن يعلم يقينًا أنه قوله ومذهبه ، فما أعظم خطر المفتى وأصعب مقامه بين يدى الله تعالى !

وأما القسم الثالث ، فإنه يسعه أن يخبر المستفتى بما عنده فى ذلك مما يغلب على ظنه أنه الصواب ؛ بعد بذل جهده واستفراغ وسعه . ومع هذا فلا يلزم المستفتى الأخذ بقوله ؛ وغايته أنه يسوغ الأخذ به .

فلينزل المفتى نفسه فى منزلة من هذه المنازل الثلاث ، وليقم بواجبها ؛ فإن الدين دين الله ، والله سبحانه ولا بُدَّ سائله عن كل ما أفتى به ،وهو مَوْقِر عليه، ومُحَاسب ولا بد ، والله المستعان .

لا يجوز لمفت الفتوى بمذهب ما

الفائدة الخامسة عشرة : ليحذر المفتى الذى يخاف مقامه بين يدى الله ـ سبحانه ـ أن يفتى السائل بمذهبه الذى يقلده ، وهو يعلم مذهب غيره فى تلك المسألة أرجح من مذهبه ، وأصح دليلا ، فتحمله الرياسة على أن يقتحم الفتوى بما يغلب على ظنه أن الصواب فى خلافه ، فيكون خائنًا لله ورسوله وللسائل وغاشًا له ، والله لا يهدى كيد الخائنين ؛ وحرم الجنة على من لقيه وهو غاش للإسلام وأهله ، والدين النصحية ، والغش مضاد للدين كمضادة الكذب للصدق ،والباطل للحق ، وكثيرًا ما ترد المسألة نعتقد فيها خلاف المذهب ، فلا يسعنا أن نفتى بخلاف ما نعتقده ، فنحكى المذهب الراجح ، ونرجحه ، ونقول هذا هو الصواب ؛ وهو أولى أن يؤخذ به ، وبالله التوفيق .

على المفتى أن يكون بيانه واضحًا

الفائدة السادسة عشرة : لا يجوز للمفتى الترويج وتخيير السائل وإلقاؤه فى الإشكال والحيرة ، بل عليه أن يبين بيانًا مزيلا للإشكال ، متضمنًا لفصل الخطاب ، كافيًا فى حصول المقصود ، لا يحتاج معه إلى غيره ، ولا يكون كالمفتى الذى سئل عن مسألة فى المواريث فقال : يقسم بين الورثة على فرائض الله عز وجل ، وكتبه فلان .

وسئل آخر عن صلاة الكسوف فقال : تصلى على حديث عائشة ؛ وإن كان هذا أعلم من الأول .

وسئل آخر عن مسألة من الزكاة فقال : أما أهل الإيثار ، فيخرجون المال كله ؛ وأما غيرهم فيخرج القدر الواجب عليه ، أو كما قال .

وسئل آخر عن مسألة فقال : فيها قولان ، ولم يزد .

قال أبو محمد بن حزم . وكان عندنا مُفْتٍ إذا سئل عن مسألة لا يفتى فيها حتى يتقدمه من يكتب ، فيكتب هو : جوابى فيها مثل جواب الشيخ ، فقدر أن مفتيين اختلفا فى الجواب ، فكتب تحت جوابهما : جوابى مثل جواب الشيخين ، فقيل له : إنهما قد تناقضا ، فقال . وأنا أتناقض كما تناقضا .

وكان فى زماننا رجل مُشار إليه بالفتوى ، وهو مقدم فى مذهبه ، وكان نائب السلطان يرسل إليه فى الفتاوى فيكتب : يجوز كذا ، أو يصح كذا ، أو ينعقد بشرطه ، فأرسل إليه يقول له : تأتينا فتاوى منك فيها يجوز أو ينعقد أو يصح بشرطه ، ونحن لا نعلم شرطه ، فإما أن تبين شرطه ، وإما ألا تكتب ذلك .

وسمعت شيخنا يقول : كل أحد يحسن أن يفتى بهذا الشرط ، فإن أى مسألة وردت عليه يكتب فيها يجوز بشرطه ، أو يصح بشرطه ، أو يقبل بشرطه ونحو ذلك ، وهذا ليس يعلم ، ولا يفيد فائدة أصلا سوى حيرة السائل ، وتنكده .

وكذلك قول بعضهم فى فتاويه ، يرجع فى ذلك إلى رأى الحاكم ، فيا سبحان الله ، والله لو كان الحاكم شُرَيحًا وأشباهه لما كان مردُّ أحكام الله ورسوله إلى رأيه فضلا عن حكام زماننا ، فالله المستعان .

وسئل بعضهم عن مسألة فقال : فيها خلاف ، فقيل له : كيف يعمل المفتى ؟ فقال : يختار له القاضى أحد المذهبين .

قال أبو عمرو بن الصلاح : كنت عند أبى السعادات ابن الأثير الجزرى ، فحكى لى عن بعض المفتين أنه سئل عن مسألة فقال : فيها قولان ، فأخذ يزرى عليه ، وقال : هذا حيد عن الفتوى ، ولم يخلص السائل من عمايته ، ولم يأت بالمطلوب .

قلت : وهذا فيه تفصيل ؛ فإن المفتى المتمكن من العلم ، المضلع به قد يتوقف فى الصواب فى المسألة المتنازع فيها ، فلا يقدم على الجزم بغير علم ، وغاية ما يمكنه أن يذكر الخلاف فيها للسائل،وكثيراً ما يسأل الإمام أحمد رضي الله عنه وغيره من الأئمة عن مسألة فيقول : فيها قولان ، أو قد اختلفوا فيها ، وهذا كثير فى أجوبة الإمام أحمد لسعة علمه وورعه ، وهو كثير فى كلام الإمام الشافعى رضي الله عنه ، يذكر المسألة ثم يقول : فيها قولان .

وقد اختلف أصحابه هل يضاف القولان اللذان يحكيهما إلى مذهبه وينسبان إليه أم لا؟ على طريقين ، وإذا اختلف علىّ وابن مسعود وابن عمر وابن عباس وزيد وأبىّ وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم ولم يتبين للمفتى القول الراجح من أقوالهم فقال:هذه مسألة اختلف فيها فلان وفلان من الصحابة ، فقد انتهى إلى ما يقدر عليه من العلم .

قال أبو إسحاق الشيرازى : سمعت شيخنا أبا الطيب الطبرى يقول : سمعت أبا العباس الحضرمى يقول:كنت جالسًا عند أبى بكر بن داود الظاهرى ، فجاءته امرأة فقالت : ما تقول فى رجل له زوجة لا هو ممسكها ولا هو مطلقها ؟فقال لها : اختلف فى ذلك أهل العلم ، فقال قائلون : تؤمر بالصبر والاحتساب ويبعث على التطلب والاكتساب ، وقال قائلون : يؤمر بالإنفاق ولا يحمل على الطلاق ، فلم تفهم المرأة قوله ، فأعادت المسألة ، فقال : يا هذه أجبتك عن مسألتك ، وأرشدتك إلى طلبك ، ولست بسلطان فأمضى ، ولا قاض فأقضى ، ولا زوج فأرضى ؛ فانصرفى .

الإفتاء فى الوقف

الفائدة السابعة عشرة : إذا سئل عن مسألة فيها شرط واقف لم يحل له أن يلزم بالعمل به ، بل ولا يسوغه على الإطلاق ، حتى ينظر فى ذلك الشرط ، فإن كان يخالف حكم الله ورسوله فلا حرمة له ، ولا يحل له تنفيذه ، ولا يسوغ تنفيذه ، وإن لم يخالف حكم الله ورسوله فلينظر : هل فيه قربة أو رجحان عند الشارع أم لا ؟ فإن لم يكن فيه قربة ولا رجحان لم يجب التزامه ، ولم يحرم ، فلا تضر مخالفته ، وإن كان فيه قربة وهو راجح على خلافه ، فلينظر : هل يفوت بالتزامه والتقييد به ما هو أحب إلى الله ورسوله

وأرضى له وأنفع للمكلف وأعظم تحصيلا لمقصود الواقف من الأجر ؟ فإن فات ذلك بالتزامه لم يجب التزامه ولا التقييد به قطعًا ، وجاز العدول بل يستحب إلى ما هو أحب إلى الله ورسوله وأنفع للمكلف وأكثر تحصيلا لمقصود الواقف .

وإن كان فيه قربة وطاعة ، ولم يفت بالتزامه ما هو أحب إلى الله ورسوله منه وتساوى هو وغيره فى تلك القربة ، ويحصل غرض الواقف بحيث يكون هو وغيره طريقين موصلين إلى مقصوده ، ومقصود الشارع من كل وجه لم يتعين عليه التزام الشرط ، بل له العدول عنه إلى ما هو أسهل عليه ، وأرفق به . وإن ترجح موجب الشرط ، كان قصد القربة والطاعة فيه أظهر وجب التزامه .

فهذا هو القول الكلى فى شروط الواقفين ، وما يجب التزامه منها ، وما يسوغ ، وما لا يجب .

ومن سلك غير هذا المسلك تناقض أظهر تناقض ، ولم يثبت له قدم يعتمد عليه .

فإذا شرط الواقف أن يصلى الموقوف عليه فى هذا المكان المعين الصلوات الخمس ولو كان وحده وإلى جانبه المسجد الأعظم وجماعة المسلمين لم يجب عليه الوفاء بهذا الشرط ، بل ولا يحل له التزامه إذا فاتته الجماعة ؛ فإن الجماعة إما شرط لا تصلح الصلاة بدونها ، وإما واجبة يستحق تاركها العقوبة وإن صحت صلاته ،وإما سنة مؤكدة يقاتل تاركها ، وعلى كل تقدير فلا يصلح التزامه شرط يخل بها .

وكذلك إذا شرط الواقف العزوبية ، وترك التأهل لم يجب الوفاء بهذا الشرط بل ولا التزامه ، بل من التزمه رغبة عن السنة ، فليس من الله ورسوله فى شىء ؛فإن النكاح عند الحاجة إليه إما فرض يعصى تاركه ، وإما سنة الاشتغال بها أفضل من صيام النهار ، وقيام الليل ، وسائر أوراد التطوعات ، وإما سنة يثاب فاعلها كما يثاب فاعل السنن والمندوبات ، وعلى كل تقدير ، فلا يجوز اشتراط تعطيله أو تركه ؛ إذ يصير مضمون هذا الشرط أنه لا يستحق تناول الوقف إلا من عطل ما فرض الله عليه ، وخالف سنة رسول الله ﷺ ، ومن فعل ما فرضه الله عليه وقام بالسنة لم يحل له أن يتناول من هذا الوقف شيئًا ، ولا يخفى ما فى التزام هذا الشرط والإلزام به من مضادة الله ورسوله ، وهو أقبح من اشتراطه ترك الوتر والسنن الراتبة وصيام الخميس والاثنين والتطوع بالليل ، بل أقبح من اشتراطه ترك ذكر الله بكرة وعشيا ونحو ذلك .

ومن هذا : اشتراطه أن يصلى الصلوات فى التربة المدفون بها ويدع المسجد ، وهذا

أيضا مضاد لدين الإسلام أعظم مضادة ؛ فإن رسول الله ﷺ لعن المتخذين قبور أنبيائهم مساجد [١] ، فالصلاة فى المقبرة معصية لله ورسوله ، باطلة عند كثير من أهل العلم ، لا يقبلها الله ولا تبرأ الذمة بفعلها ، فكيف يجوز التزامه شرط الواقف لها وتعطيل شرط الله ورسوله ؟ فهذا تغيير الدين لولا أن الله ـ سبحانه ـ يقيم له من يبين أعلامه ويدعو إليه .

ومن ذلك : اشتراط إيقاد سراج أو قنديل على القبر ؛ فلا يحل للواقف اشتراط ذلك، ولا للحاكم تنفيذه ، ولا للمفتى تسويغه ، ولا للموقوف عليه فعله والتزامه ، فقد لعن رسول الله ﷺ المتخذين السرج على القبور [٢]، فكيف يحل للمسلم أن يلزم أو يسوغ فعل ما لعن رسول الله ﷺ فاعله ؟

وحضرت بعض قضاة الإسلام يوما ، وقد جاءه كتاب وقف على تربة ليثبته ، وفيه : وأنه يوقد على القبر كل ليلة قنديل ، فقلت له : كيف يحل لك أن تثبت هذا الكتاب وتحكم بصحته مع علمك بلعنة رسول الله ﷺ للمتخذين السرج على القبور ؟ فأمسك عن إثباته وقال : الأمر كما قلت ، أو كما قال [٣] .

على المفتى ألا يطلق الجواب فى مسألة فيها تفصيل

الفائدة الثامنة عشرة : ليس للمفتى أن يطلق الجواب فى مسألة فيها تفصيل إلا إذا علم أن السائل إنما سأل عن أحد تلك الأنواع ، بل إذا كانت المسألة تحتاج إلى التفصيل استفصله ، كما استفصل النبى ﷺ ماعزا لما أقر بالزنا : هل وجد منه مقدماته أو حقيقته ؟ فلما أجابه عن الحقيقة استفصله :هل به جنون فيكون إقراره غير معتبر أم هو عاقل ؟ فلما علم عقله استفصله بأن أمر باستنكاهه ؟ ليعلم هل هو سكران أم صاح ؟ فلما علم أنه صاح استفصله : هل أحصن أم لا ؟ فلما علم أنه قد أحصن أقام عليه الحد [٤] .

ومن هذا قوله لمن سألته : هل على المرأة من غسل إذا هى احتلمت ؟ فقال :« نعم ،

---

(١) إعلام الموقعين (٤ / ٢٠٢ ـ ٢٣٣) .

(٢) أبو داود (٣٢٣٦) فى الجنائز ، باب : فى زيارة النساء القبور ، والترمذى (٣٢٠) فى الصلاة ، باب : ما جاء فى كراهية أن يتخذ على القبر مسجدا ، والنسائى(٢٠٤٣) فى الجنائز ، باب : التغليظ فى اتخاذ السرج على القبور ، وأحمد (١ / ٢٢٩ ، ٢٨٧ ، ٣٢٤ ، ٣٣٧) ، وضعفه الألبانى .

(٣) إعلام الموقعين (٤ / ٢٠٢ ـ ٢٣٣) .

(٤) مسلم (١٦٩٥/٢٢) فى الحدود ، باب : من اعترفه على نفسه بالزنا ، وأبو داود (٤٤٣٠) فى الحدود ، باب : رجم ماعز بن مالك ، والترمذى (١٤٢٩) فى الحدود ، باب : درء الحد عن المعترف إذا رجع ، وقال:«حسن صحيح » .

إذا رأت الماء » [١]، فتضمن هذا الجواب الاستفصال بأنها يجب عليها الغسل فى حال ، ولا يجب عليها فى حال .

ومن ذلك : أن أبا النعمان بن بشير سأل رسول الله ﷺ أن يشهد على غلام نحله ابنه، فاستفصله ، وقال :« أكل ولدك نحلته كذلك ؟ » فقال : لا [٢] ، فأبى أن يشهد . وتحت هذا الاستفصال أن ولدك إن كانوا اشتركوا فى النحل صح ذلك ، وإلا لم يصح .

ومن ذلك : أن ابن أم مكتوم استفتاه : هل يجد له رخصة أن يصلى فى بيته ؟ فقال:« هل تسمع النداء ؟ » ، قال: نعم ، قال :« فأجب » [٣]، فاستفصله بين أن يسمع النداء أو لا يسمعه .

ومن ذلك : أنه لما استفتى عن رجل وقع على جاريه امرأته فقال :« إن كان استكرهها فهى حرة وعليه مثلها ، وإن كانت طاوعته فهى له وعليه لسيدتها مثلها » [٤]، وهذا كثير فى فتاويه ﷺ .

فإذا سئل المفتى عن رجل دفع ثوبه إلى قصار يقصره ، فأنكر القصار الثوب ثم أقر به، هل يستحق الأجرة على القصارة أم لا ؟ فالجواب بالإطلاق خطأ نفيا وإثباتا ، والصواب : التفصيل ، فإن كان قصره قبل الجحود فله أجرة القصارة ؛ لأنه قصره لصاحبه ، وإن كان قصره بعد جحوده فلا أجرة له لأنه قصره لنفسه .

وكذلك إذا سئل عن رجل حلف لا يفعل كذا وكذا ، ففعله ، لم يجز له أن يفتى

---

(١) البخارى (٦٠٩١) فى الأدب ، باب : التبسم والضحك ، ومسلم (٣١٣ / ٣٢) فى الحيض ، باب : وجوب الغسل على المرأة بخروج المنى منها ، والنسائى (١٩٧) فى الطهارة ، باب : غسل المرأة ترى فى منامها ما يرى الرجل ، وابن ماجه (٦٠٠) فى الطهارة ، باب : فى المرأة ترى فى منامها ما يرى الرجل ، وأحمد (٦ / ٢٩٢).

(٢) البخارى (٢٥٨٦) فى الهبة ، باب : الهبة للولد ، ومسلم (١٦٢٣ / ٩) فى الهبات ، باب : كراهية تفضيل بعض الأولاد فى الهبة ، والترمذى (١٣٦٧) فى الأحكام ، باب : ما جاء فى النحل والتسوية بين الولد ، والنسائى (٣٦٧٢) فى النُّحل ، باب : ذكر اختلاف ألفاظ الناقلين لخبر النعمان بن بشير فى النحل ، وابن ماجه (٢٣٧٦) فى الهبات ، باب : الرجل ينحل ولده ، وأحمد (٤ / ٢٦٨) .

(٣) مسلم (٦٥٣ / ٢٥٥) فى المساجد ومواضع الصلاة ، باب : يجب إتيان المسجد على من سمع النداء وهو عن رجل أعمى لم يسم ، وأبو داود (٥٥٢) فى الصلاة ، باب : فى التشديد فى ترك الجماعة ، والنسائى (٨٥١) فى الإمامة ، باب : المحافظة على الصلوات حيث ينادى بهن ، وابن ماجه (٧٩٢) فى المساجد والجماعات ، باب : التغليظ فى التخلف عن الجماعة ، وأحمد (٣ / ٤٢٣) .

(٤) النسائى (٣٣٦٣) فى النكاح ، باب : إحلال الفرج ، وأحمد (٦/ ٥) ، والبيهقى فى الكبرى (٨/ ٢٤٠) فى الحدود ، باب : ما جاء فيمن أتى جارية امرأته ، وضعفه الألبانى .

بحنثه حتى يستفصله . هل كان ثابت العقل وقت فعله أم لا ؟ وإذا كان ثابت العقل فهل كان مختارا فى يمينه أم لا ؟ وإذا كان مختارا فهل استثنى عقيب يمينه أم لا ؟ وإذا لم يستثن فهل فعل المحلوف عليه عالما ذاكرا مختارا ، أم كان ناسيا أو جاهلا أو مكرها ؟ وإذا كان عالما مختارا ، فهل كان المحلوف عليه داخلا فى قصده ونيته أو قصد عدم دخوله فخصصه بنيته أو لم يقصد دخوله ولا نوى تخصيصه ؟ فإن الحنث يختلف باختلاف ذلك كله .

ورأينا من مفتى العصر من بادر إلى التحنيث ، فاستفصلناه ، فوجده غير حانث فى مذهب من أفتاه ، وقع ذلك مرارا ؛ فخطر المفتى عظيم ، فإنه مُوَقِّع عن الله ورسوله ، زاعم أن الله أمر بكذا وحرم كذا أو أوجب كذا .

والمقصود : التنبيه على وجوب التفصيل إذا كان يجد السؤال محتملا ، وبالله التوفيق، فكثيرا ما يقع غلط المفتى فى هذا القسم ، فالمفتى ترد إليه المسائل فى قوالب متنوعة جدا ، فإن لم يتفطن لحقيقة السؤال وإلا هلك وأهلك ، فتارة تورد عليه المسألتان صورتهما واحدة وحكمها مختلف ؛ فصورة الصحيح والجائز صورة الباطل والمحرم ويختلفان بالحقيقة ، فيذهل بالصورة عن الحقيقة ، فيجمع بين ما فرق الله ورسوله بينه ، وتارة تورد عليه المسألتان صورتهما مختلفة وحقيقتهما واحدة وحكمهما واحد ، فيذهل باختلاف الصورة عن تساويهما فى الحقيقة ، فيفرق بين ما جمع الله بينه ، وتارة تورد عليه المسألة مجملة تحتها عدة أنواع ، فيذهب وَهْمه إلى واحد منها ، ويذهل عن المسؤول عنه منها ،فيجيب بغير الصواب ، وتارة تورد عليه المسألة الباطلة فى دين الله فى قالب مزخرف ولفظ حسن ،فيتبادر إلى تسويغها وهى من أبطل الباطل ، وتارة بالعكس ؛فلا إله إلا الله، كم هاهنا من مزلة أقدام ،ومجال أوهام ، وما دعى محق إلى حق إلا أخرجه الشيطان على لسان أخيه ووليه من الإنس فى قالب تنفر عنه خفافيش البصائر وضعفاء العقول وهم أكثر الناس ، وما حذر أحد من باطل إلا أخرجه الشيطان على لسان وليه من الإنس فى قالب مزخرف يستخف به عقول ذلك الضرب من الناس فيستجيبون له ، وأكثر الناس نظرهم قاصر على الصور لا يتجاوزونها إلى الحقائق ، فهم محبوسون فى سجن الألفاظ ، مقيدون بقيود العبارات ، كما قال تعالى : ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ (١١٣)** ﴾ [الأنعام] .

وأذكر لك من هذا مثالا وقع فى زماننا ، وهو أن السلطان أمر أن يلزم أهل الذمة

بتغيير عمائمهم ، وأن تكون خلاف ألوان عمائم المسلمين ، فقامت لذلك قيامتهم ، وعظم عليهم ، وكان فى ذلك من المصالح وإعزاز الإسلام ، وإذلال الكفرة ما قرت به عيون المسلمين ، فألقى الشيطان على ألسنة أوليائه وإخوانه أن صوروا فتيا يتوصلون بها إلى إزالة هذا الغبار ، وهى : ما تقول السادة العلماء فى قوم من أهل الذمة ألزموا بلباس غير لباسهم المعتاد ، وزى غير زيهم المألوف ، فحصل لهم بذلك ضرر عظيم فى الطرقات والفلوات وتجرأ عليهم بسببه السفهاء والرعاة وآذوهم غاية الأذى ، فطمع بذلك فى إهانتهم ، والتعدى عليهم ، فهل يسوغ للإمام ردهم إلى زيهم الأول ، وإعادتهم إلى ما كانوا عليه مع حصول التمييز بعلامة يعرفون بها ؟ وهل فى ذلك مخالفة للشرع أم لا ؟ فأجابهم من مُنِع التوفيق ، وصُدَّ عن الطريق بجواز ذلك ، وأن للإمام إعادتهم إلى ما كانوا عليه .

قال شيخنا : فجاءتنى الفتوى ، فقلت : لا تجوز إعادتهم ، ويجب إبقاؤهم على الزى الذى يتميزون به عن المسلمين ، فذهبوا ، ثم غيروا الفتوى، ثم جاؤوا بها فى قالب آخر ، فقلت : لا تجوز إعادتهم ، فذهبوا ثم أتوا بها فى قالب آخر ، فقلت : هى المسألة المعينة ، وإن خرجت فى عدة قوالب ، ثم ذهب إلى السلطان ، وتكلم عنده بكلام عجب منه الحاضرون ، فأطبق القوم على إبقائهم ، ولله الحمد (١) .

ليس للمفتى أن يستفصل إلا حيث تدعو الحاجة

الفائدة التاسعة عشرة : إذا سئل عن مسألة من الفرائض لم يجب عليه أن يذكر موانع الإرث فيقول : بشرط ألا يكون كافراً ولا رقيقًا ولا قاتلا ، وإذا سئل عن فريضة فيها أخ وجب عليه أن يقول : إن كان لأب فله كذا ، وإن كان لأم فله كذا ، وكذلك إذا سئل عن الأعمام وبنيهم ، وبنى الإخوة ، وعن الجد والجدة فلا بد من التفصيل ، والفرق بين الموضعين أن السؤال المطلق فى الصورة الأولى يدل على الوارث الذى لم يقم به مانع من الميراث ، كما لو سئل عن رجل باع أو آجَرَ أو تزوج أو أقر لم يجب عليه أن يذكر موانع الصحة من الجنون والإكراه ونحوهما إلا حيث يكون الاحتمال متساويًا .

ومن تأمل أجوبة النبى ﷺ رآه يستفصل حيث تدعو الحاجة إلى الاستفصال ، ويتركه حيث لا يحتاج إليه ، ويحيل فيه مرة على ما علم من شرعه ودينه من شروط الحكم وتوابعه، بل هذا كثير فى القرآن كقوله تعالى : ﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ ﴾ [النساء : ٢٤]،

(١) إعلام الموقعين (٤ / ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧) .

وقوله: ﴿ فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ﴾ [البقرة: ٢٣٠]، وقوله تعالى: ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [المائدة : ٥].

ولا يجب على المتكلم والمفتى أن يستوعب شرائط الحكم وموانعه كلها عند ذكر حكم المسألة ، ولا ينفع السائل والمتكلم والمتعلم قوله : بشرطه ، وعدم موانعه ، ونحو ذلك ، فلا بيان أتم من بيان الله ورسوله ، ولا هدى أكمل من هدى الصحابة والتابعين ، وبالله التوفيق .

لا يجوز للمقلد الإفتاء بما هو مقلد فيه

الفائدة العشرون : لا يجوز للمقلد أن يفتى فى دين الله بما هو مقلد فيه ، وليس على بصيرة فيه سوى أنه يقول من قلده دينه ، وهذا إجماع من السلف كلهم ، وصرح به الإمام أحمد والشافعى رضي الله عنهما وغيرهما .

قال أبو عمرو بن الصلاح : قطع أبو عبد الله الحليمى إمام الشافعيين بما وراء النهر والقاضى أبو المحاسن الرويانى صاحب بحر المذهب وغيرهما بأنه لا يجوز للمقلد أن يفتى بما هو مقلد فيه .

وقال : وذكر الشيخ أبو محمد الجوينى فى شرحه لرسالة الشافعى عن شيخه أبى بكر القفال المروزى أنه يجوز لمن حفظ كلام صاحب مذهب ونصوصه أن يفتى به ، وإن لم يكن عارفًا بغوامضه وحقائقه ، وخالفه الشيخ أبو محمد وقال : لا يجوز أن يفتى بمذهب غيره إذا لم يكن متبحرًا فيه عالمًا بغوامضه وحقائقه ، كما لا يجوز للعامى الذى جمع فتاوى المفتين أن يفتى بها ، وإذا كان متبحرًا فيه جاز أن يفتى به .

وقال أبو عمرو : من قال : لا يجوز له أن يفتى بذلك ، معناه : لا يذكره فى صورة ما يقوله من عند نفسه ، بل يضيفه إلى غيره ، ويحكيه عن إمامه الذى قلده : فعلى هذا من عددناه فى أصناف المفتين المقلدين ليسوا على الحقيقة من المفتين ، ولكنهم قاموا مقام المفتين ، وادعوا عنهم ، فعدُّوا منهم ، وسبيلهم فى ذلك أن يقولوا مثلا : مذهب الشافعى كذا وكذا ، ومقتضى مذهبه كذا وكذا ، وما أشبه ذلك ، ومن ترك منهم إضافة ذلك إلى إمامه، فإن كان ذلك اكتفاءً منه بالعلوم عن الصريح فلا بأس .

قلت : ما ذكره أبو عمرو : حسن ، إلا أن صاحب هذه المرتبة يحرم عليه أن يقول : مذهب الشافعى ، لما لا يعلم أنه نصه الذى أفتى به ، أو يكون شهرته بين أهل المذهب

شهرة لا يحتاج معها إلى الوقوف على نصه ، كشهرة مذهبه فى الجهر بالبسملة ، والقنوت فى الفجر ، ووجوب تبييت النية للصوم فى الفرض من الليل ، ونحوه ذلك ، فأما مجرد ما يجد فى كتب من انتسب إلى مذهبه من الفروع فلا يسعه أن يضيفها إلى نصه ومذهبه بمجرد وجودها فى كتبهم ، فكم فيها من مسألة لا نص فيها البتة ولا ما يدل عليه ! وكم فيها من مسألة نصه على خلافها ! وكم فيها من مسألة اختلف المنتسبون إليه فى إضافتها إلى مقتضى نصه ومذهبه ! فهذا يضيف إلى مذهبه إثباتها ، وهذا يضيف إليه نفيها ، فلا ندرى كيف يسع المفتى عند الله أن يقول : هذا مذهب الشافعى ، وهذا مذهب مالك وأحمد وأبى حنيفة ؟

وأما قول الشيخ أبى عمرو : إن لهذا المفتى أن يقول : هذا مقتضى مذهب الشافعى مثلا ، فلعمر الله لا يقبل ذلك من كل من نصب نفسه للفتيا ، حتى يكون عالمًا بمأخذ صاحب المذهب ومداركه وقواعده جمعًا وفرقًا ، ويعلم أن ذلك الحكم مطابق لأصوله وقواعده بعد استفراغ وسعه فى معرفة ذلك فيها إذا أخبر أن هذا مقتضى مذهبه كان له حكم أمثاله ممن قال بمبلغ علمه ، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها .

وبالجملة ، فالمفتى مخبر عن الحكم الشرعى ، وهو إما مخبر عما فهمه عن الله ورسوله ، وإما مخبر عما فهمه عن كتابه أو نصوص من قلده دينه ، وهذا لون وهذا لون، فكما لا يسع الأول أن يخبر عن الله ورسوله إلا بما علمه ، فكذا لا يسع الثانى أن يخبر عن إمامه الذى قلده دينه إلا بما يعلمه ، وبالله التوفيق .

لا يجوز تقليد قاصر فى معرفة الكتاب والسنة فى الفتوى

الفائدة الحادية والعشرون : إذا تفقه الرجل وقرأ كتابا من كتب الفقه أو أكثر ، وهو مع ذلك قاصر فى معرفة الكتاب والسنة ، وآثار السلف والاستنباط والتجريح فهل يسوغ تقليده فى الفتوى ؟

فيه للناس أربعة أقوال : الجواز مطلقا ، والمنع مطلقا ، والجواز عند عدم المجتهد ، ولا يجوز مع وجوده ، والجواز إن كان مطلعا على مأخذ من يفتى بقولهم ، والمنع إن لم يكن مطلعا .

والصواب : فيه التفصيل ، وهو أنه إن كان السائل يمكنه التوصل إلى عالم يهديه السبيل لم يحل له استفتاء مثل هذا ، ولا يحل لهذا أن ينسب نفسه للفتوى مع وجود هذا

العالم ، وإن لم يكن فى بلده أو ناحيته غيره بحيث لا يجد المستفتى من يسأله سواه ، فلا ريب أن رجوعه إليه أولى من أن يقدم على العمل بلا علم ، أو يبقى مرتبكا فى حيرته مترددا فى عماه وجهالته ، بل هذا هو المستطاع من تقواه المأمور بها .

ونظير هذه المسألة : إذا لم يجد السلطان من يوليه إلا قاضيا عاريا من شروط القضاء ، لم يعطل البلد عن قاض ، وولى الأمثل فالأمثل .

ونظير هذا : لوكان الفسق هو الغالب على أهل تلك البلد ، وإن لم تقبل شهادة بعضهم على بعض وشهادته له تعطلت الحقوق وضاعت ، قبل شهادة الأمثل فالأمثل .

ونظيرها : لو غلب الحرام المحض أو الشبهة حتى لم يجد الحلال المحض ، فإنه يتناول الأمثل فالأمثل .

ونظير هذا : لو شهد بعض النساء على بعض بحق فى بدن أو عرض أو مال ، وهن منفردات . بحيث لا رجل معهن كالحمامات والأعراس ، قبلت شهادة الأمثل فالأمثل منهن قطعا ، ولا يضيع الله ورسوله حق المظلوم ، ولا يعطل إقامة دينه فى مثل هذه الصورة أبدا ، بل قد نبه الله تعالى على القبول فى مثل هذه الصورة بقبول شهادة الكفار على المسلمين فى السفر فى الوصية فى آخر سورة أنزلت فى القرآن ، ولم ينسخها شىء البتة ، ولا نسخ هذا الحكم كتاب ولا سنة ولا أجمعت الأمة على خلافه ، ولا يليق بالشريعة سواه ؛ فالشريعة شرعت لتحصيل مصالح العباد بحسب الإمكان ، وأى مصلحة لهم فى تعطيل حقوقهم إذا لم يحضر أسباب تلك الحقوق شاهدان حران ذكران عدلان ؟

بل إذا قلتم : تقبل شهادة الفساق حيث لا عدل ، وينفذ حكم الجاهل والفاسق إذا خلا الزمان عن قاض عالم عادل ، فكيف لا تقبل شهادة النساء إذا خلا جمعهن عن رجل، أو شهادة العبيد إذا خلا جمعهم عن حر ، أو شهادة الكفار بعضهم على بعض إذا خلا جمعهم عن مسلم ؟

وقد قبل ابن الزبير شهادة الصبيان بعضهم على بعض فى تجارحهم ، ولم ينكره عليه أحد من الصحابة ، وقد قال به مالك والإمام أحمد ـ رحمهما الله تعالى ـ فى إحدى الروايتين عنه حيث يغلب على الظن صدقهم بأن يجيبوا قبل أن يجتنبوا أو يتفرقوا إلى بيوتهم ، وهذا هو الصواب ، وبالله التوفيق .

وكلام أصحاب أحمد فى ذلك يخرج على وجهين ؛ فقد منع كثير منهم الفتوى والحكم بالتقليد ، وجوزه بعضهم لكن على وجه الحكاية لقول المجتهد،كما قال أبو إسحاق

ابن شاقلا ،وقد جلس فى جامع المنصور ، فذكر قول أحمد : أن المفتى ينبغى له أن يحفظ أربعمائة ألف حديث ثم يفتى ، فقال له رجل : أنت تحفظ هذا ؟ فقال : إن لم أحفظ هذا فأنا أفتى بقول من كان يحفظه .

وقال أبو الحسن بن بشار من كبار أصحابنا : ما ضر رجلا عنده ثلاث مسائل أو أربع من فتاوى الإمام أحمد يستند إلى هذه السارية ويقول : قال أحمد بن حنبل .

هل يجوز للعامى الإفتاء بمسألة يعرف دليلها ؟

الفائدة الثانية والعشرون : إذا عرف العامى حكم حادثة بدليلها فهل له أن يفتى به ، ويسوغ لغيره تقليده فيه ؟

ففيه ثلاثة أوجه للشافعية وغيرهم .

أحدها : الجواز ؛ لأنه قد حصل له العلم بحكم تلك الحادثة عن دليلها كما حصل للعالم ، وإن تميز العالم عنه بقوة يتمكن بها من تقرير الدليل ودفع المعارض له ، فهذا قدر زائد على معرفة الحق بدليله .

والثانى : لا يجوز له ذلك مطلقا ؛ لعدم أهليته للاستدلال ، وعدم علمه بشروطه وما يعارضه ، ولعله يظن دليلا ما ليس بدليل .

والثالث : إن كان الدليل كتابا أو سنة جاز له الإفتاء ، وإن كان غيرهما لم يجز ؛ لأن القرآن والسنة خطاب لجميع المكلفين ، فيجب على المكلف أن يعمل بما وصل إليه من كتاب ربه تعالى وسنة نبيه ﷺ ، ويجوز له أن يرشد غيره إليه ويدله عليه .

صفات يجب أن يكون المفتى متصفا بها

الفائدة الثالثة والعشرون :ذكر أبو عبد الله بن بطة فى كتابه فى الخلع عن الإمام أحمد أنه قال : لا ينبغى للرجل أن ينصب نفسه للفتيا حتى يكون فيه خمس خصال :

أولها : أن تكون له نية ، فإن لم يكن له نية لم يكن عليه نور ولا على كلامه نور .

والثانية : أن يكون له علم وحلم ووقار وسكينة .

الثالثة : أن يكون قويا على ما هو فيه وعلى معرفته .

الرابعة : الكفاية وإلا مضغه الناس .

الخامسة : معرفة الناس .

وهذا مما يدل على جلالة أحمد ومحله من العلم والمعرفة ؛ فإن هذه الخمسة هى دعائم الفتوى ، وأى شىء نقص منها ظهر الخلل فى المفتى بحسبه .

فأما النية ، فهى رأس الأمر وعموده وأساسه وأصله الذى عليه يبنى ؛ فإنها روح العمل وقائده وسائقه ، والعمل تابع لها يبنى عليها ، يصح بصحتها ويفسد بفسادها ، وبها يستجلب التوفيق ،وبعدمها يحصل الخذلان ،وبحسبها تتفاوت الدرجات فى الدنيا والآخرة، فكم بين مريد بالفتوى وجه الله ورضاه والقرب منه وما عنده ، ومريد بها وجه المخلوق ورجاء منفعته وما ينال منه تخويفا أو طمعا ، فيفتى الرجلان بالفتوى الواحدة وبينهما فى الفضل والثواب أعظم مما بين المشرق والمغرب . هذا يفتى لتكون كلمة الله هى العليا ودينه هو الظاهر ، ورسوله هو المطاع ، وهذا يفتى ؛ ليكون قوله هو المسموع وهو المشار إليه ، وجاهه هو القائم ، سواء وافق الكتاب والسنة أو خالفهما ، فالله المستعان .

وقد جرت عادة الله التى لا تبدل وسنته التى لا تحول أن يلبس المخلص من المهابة والنور والمحبة فى قلوب الخلق وإقبال قلوبهم إليه ما هو بحسب إخلاصه ونيته ومعاملته لربه ، ويلبس المرائى اللابس ثوبى الزور من المقت والمهانة والبغضة ما هو اللائق به ؛ فالمخلص له المهابة والمحبة ، وللآخر المقت والبغضاء .

وأما قوله : أن يكون له حلم ووقار وسكينة ، فليس صاحب العلم والفتيا إلى شىء أحوج منه إلى الحلم والسكينة والوقار فإنها كسوة علمه وجماله ، وإذا فقدها كان علمه كالبدن العارى من اللباس .

وقال بعض السلف : ما قرن شىء إلى شىء أحسن من علم إلى حلم .

والناس هاهنا أربعة أقسام ،فخيارهم من أوتى الحلم والعلم ، وشرارهم من عدمهما ، الثالث من أوتى علمًا بلا حلم ، الرابع : عكسه ، فالحلم : زينة العلم وبهاؤه وجماله. وضد الطيش والعجلة والحسد والتسرع وعدم الثبات؛فالحليم لا يستفزه البدوات ، ولا يستخفه الذين لا يعلمون ، ولا يقلقه أهل الطيش والخفة والجهل . بل هو وقور ثابت ذو أناة يملك نفسه عند ورود أوائل الأمور عليه ، ولا تملكه أوائلها ، وملاحظته للعواقب تمنعه من أن تستخفه دواعى الغضب والشهوة ؛ فبالعلم تنكشف له مواقع الخير والشر والصلاح والفساد ، وبالحلم يتمكن من تثبيت نفسه عند الخير ، فيؤثره ويصبر عليه، وعند الشر فيصبر عنه ؛ فالعلم يعرفه رشده والحلم يثبته عليه ، وإذا شئت أن ترى بصيراً بالخير والشر لا صبر له على هذا ولا عن هذا رأيته ، وإذا شئت أن ترى صابراً على المشاق لا

بصيرة له رأيته ، وإذا شئت أن ترى من لا صبر له ولا بصيرة رأيته ، وإذا شئت أن ترى بصيرًا صابرًا لم تكد ، فإذا رأيته فقد رأيت إمام هدى حقًا فاستمسك بغرزِهِ . والوقار والسكينة ثمرة الحلم ونتيجته (١) .

أما قوله : أن يكون قويًا على ما هو فيه وعلى معرفته أى مستظهرًا مضطلعًا بالعلم متمكنًا منه ، غير ضعيف فيه ؛ فإنه إذا كان ضعيفًا قليل البضاعة غير مضطلع به أحجم عن الحق فى موضع ينبغى فيه الإقدام لقلة علمه بمواضع الإقدام والإحجام فهو يُقدم فى غير موضعه ، ويحجم فى غير موضعه ، ولا بصيرة له بالحق ، ولا قوة له على تنفيذه ؛ فالمفتى محتاج إلى قوة فى العلم وقوة فى التنفيذ ، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له .

وأما قوله : الرابعة : الكفاية وإلا مضغه الناس ، فإنه إذا لم يكن له كفاية احتاج إلى الناس وإلى الأخذ مما فى أيديهم ، فلا يأكل منهم شيئًا إلا أكلوا من لحمه وعرضه أضعافه ، وقد كان لسفيان الثورى شىء من مال،وكان لا يتروى فى بذله ويقول: لولا ذلك لتمندل(٢) بنا هؤلاء ، فالعلم إذا منح غناء ، فقد أعين على تنفيذ علمه ، وإذا احتاج إلى الناس فقد مات علمه وهو ينظر .

وأما قوله : الخامسة : معرفة الناس ، فهذا أصل عظيم يحتاج إليه المفتى والحاكم ، فإن لم يكن فقيهًا فيه فقيها فى الأمر والنهى ، ثم يطبق أحدهما على الآخر ، وإلا كان ما يُفسد أكثر مما يصلح ، فإنه إذا لم يكن فقيهًا فى الأمر له معرفة بالناس تصور له الظالم بصورة المظلوم وعكسه ، والمحق بصورة المبطل وعكسه ، وراج عليه المكر والخداع والاحتيال ، وتصور له الزنديق فى صورة الصديق ، والكاذب فى صورة الصادق ، ولبس كل مبطل ثوب زور تحتها الإثم والكذب والفجور ، وهو لجهله بالناس وأحوالهم وعوائدهم وعرفياتهم ، لا يميز هذا من هذا ، بل ينبغى له أن يكون فقيهًا فى معرفة مكر الناس وخداعهم واحتيالهم وعوائدهم وعرفياتهم فإن الفتوى تغير بتغير الزمان والمكان والعوائد والأحوال ، وذلك كله من دين الله وبالله التوفيق .

الإمام أحمد يبين الصفات اللازمة للمفتى

الفائدة الرابعة والعشرون : فى كلمات حفظت عن الإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى ورضى عنه ـ فى أمر الفتيا ، سوى ما تقدم آنفا.

---

(١) إعلام الموقعين : (٤ / ٢٤٧ ـ ٢٥٦)

(٢) تمندل : تمسح .

قال فى رواية ابنه صالح : ينبغى للرجل إذا حمل نفسه على الفُتْيا أن يكون عالمًا بوجوه القرآن ، عالمًا بالأسانيد الصحيحة ، عالما بالسنن .

وقال فى رواية أبى الحارث : لا تجوز الفتيا إلا لرجل عالم بالكتاب والسنة .

وقال فى رواية حنبل : ينبغى لمن أفتى أن يكون عالمًا بقول من تقدم ، وإلا فلا يفتى.

وقال فى رواية يوسف بن موسى : أحب أن يتعلم الرجل كل ما تكلم فيه الناس . وقال فى رواية ابنه عبد الله ، وقد سأله عن الرجل يريد أن يسأله من أمر دينه مما يبتلى به من الأيمان فى الطلاق وغيره ، وفى مصره من أصحاب الرأى ، وأصحاب الحديث لا يحفظون ، ولا يعرفون الحديث الضعيف ، ولا الإسناد القوى ، فلمن يسأل ؟ لهؤلاء ، أو لأصحاب الحديث على قلة معرفتهم ؟ فقال : يسأل أصحاب الحديث ، ولا يسأل أصحاب الرأى ، ضعيف الحديث خير من الرأى .

وقال فى رواية محمد بن عبيد الله بن المنادى ، وقد سمع رجلا يسأله : إذا حفظ الرجل مائة ألف حديث يكون فقيهًا ؟ قال : لا : فمائتى ألف ؟ قال : لا ، قال : فثلاثمائة ألف ؟ قال : لا ، قال : فأربعمائة ألف ؟ قال : بيده هكذا ، وحركها ، قال حفيده أحمد بن جعفر بن محمد : فقلت لجدى : كم كان يحفظ أحمد ؟ فقال : أجاب عن ستمائة ألف .

وقال عبد الله بن أحمد : سألت أبى عن الرجل يكون عنده الكتب المصنفة فيها قول رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين ، وليس للرجل بصر بالحديث الضعيف المتروك ولا الإسناد القوى من الضعيف ، فيجوز أن يعمل بما شاء ويتخير منها فيفتى به ويعمل به ؟ قال: لا يعمل حتى يسأل ما يؤخذ به منها فيكون يعمل على أمر صحيح ، ويسأل عن ذلك أهل العلم .

وقال أبو داود : سمعت أحمد وسئل عن مسألة ، فقال : دعْنا من هذه المسائل المحدثة ، وما أحصى ما سمعت أحمد سئل عن كثير مما فيه الاختلاف من العلم فيقول : لا أدرى ، وسمعته يقول : ما رأيت مثل ابن عيينة فى الفتيا أحسن فتيًا منه ، كان أهون عليه أن يقول « لا أدرى » مَن يحسن مثل هذا ؟ سل العلماء .

وقال أبو داود : قلت لأحمد : الأوزاعى هو أتبع من مالك ، فقال : لا تقلد دينك أحدًا من هؤلاء ، ما جاء عن النبى ﷺ وأصحابه فخذ به ، ثم التابعين بعد ، الرجل فيه مخير . وقال إسحاق بن هانئ : سألت أبا عبد الله عن الذى جاء فى الحديث : « أجرؤكم

على الفتيا أجرؤكم على النار » ، فقال : يفتى بما لم يسمع .

وقال أيضًا :قلت لأبى عبد الله: يطلب الرجل الحديث بقدر ما يظن أنه قد انتفع به ، قال : العلم لا يعدله شىء . وجاءه رجل يسأل عن شىء فقال : لا أجيبك فى شىء ، ثم قال : قال عبد الله بن مسعود : إن كل من يفتى الناس فى كل ما يستفتونه لمجنون ، قال الأعمش : فذكرت ذلك للحاكم ، فقال : له حدثتنى به قبل اليوم ما أفتيت فى كثير مما كنت أفتى به . قال ابن هانئ : وقيل لأبى عبد الله : يكون الرجل فى قرية فيسأل عن الشىء الذى فيه اختلاف ، قال : يفتى بما وافق الكتاب والسنة ؛ وما لم يوافق الكتاب والسنة أمسك عنه ، قيل له : أفتخاف عليه ؟ قال : لا ، قيل له : ما كان من كلام إسحاق بن راهويه وما كان وضع فى الكتاب وكلام أبى عبيد ومالك ترى النظر فيه ؟ فقال : كل كتاب ابتدع فهو بدعة، أو كل كتاب محدث فهو بدعة ، وأما ما كان عن مناظرة يخبر الرجل بما عنده وما يسمع من الفتيا فلا أرى به بأسًا ، قيل له : فكتاب أبى عبيد غريب الحديث ؟ قال ذلك شىء حكاه عن قوم أعراب ، قيل له :فهذه الفوائد التى فيها المناكير ترى أن تكتب ؟ قال : المنكر أبدًا منكر .

دلالة العالم للمستفتى على غيره

الفائدة الخامسة والعشرون : فى دلالة العالم للمستفتى على غيره ، وهو موضع خطر جدًا ، فلينظر الرجل ما يحدث من ذلك فإنه متسبب بدلالته إما إلى الكذب على الله ورسوله فى أحكامه أو القول عليه بلا علم ،فهو معين على الإثم والعدوان وإما معين على البر والتقوى ، فلينظر الإنسان إلى من يدل عليه ، وليتق الله ربه، فكان شيخنا ـ قدس الله روحه ـ شديد التجنب لذلك ، ودللت مرة بحضرته على مفْتٍ أو مذهب ، فانتهرنى وقال :مالك وله ؟ دعه ، ففهمت من كلامه إنك لتبوء بما عساه يحصل له من الإثم ولمن أفتاه ، ثم رأيت هذه المسألة بعينها منصوصة عن الإمام أحمد.

قال أبو داود فى مسائله : قلت لأحمد : الرجل يسأل عن المسألة فأدله على إنسان يسأله ؟ فقال : إذا كان ـ يعنى الذى أرشدته إليه ـ متبعًا ويفتى بالسنة ، فقيل لأحمد : إنه يريد الاتباع وليس كل قوله يصيب ، فقال أحمد : ومن يصيب فى كل شىء ؟ قلت له : فرأى مالك ، فقال : لا تتقلد فى مثل هذا بشىء ! قلت : وأحمد كان يدل على أهل

المدينة ويدل على الشافعى ويدل على إسحاق ولا خلاف عنه فى استفتاء هؤلاء ، ولا خلاف عنه فى أنه لا يستفتى أهل الرأى المخالفون لسنة رسول الله ﷺ ، وبالله التوفيق ، ولا سيما كثير من المتنسبين إلى الفتوى فى هذا الزمان وغيره ، وقد رأى رجل ربيعة بن أبى عبد الرحمن يبكى ، فقال :ما يبكيك ؟ فقال : أستفتى من لا علم له ، وظهر فى الإسلام أمر عظيم ، قال : ولبعض من يفتى هاهنا أحق بالسجن من السُّراق، قال بعض العلماء : فكيف لو رأى ربيعة زماننا ، وإقدام من لا علم عنده على الفتيا ، وتوثبه عليها ، ومدَّ باع التكلف إليها ، وشغله بالجهل والجراءة عليها مع قلة الخبرة وسوء السيرة وشؤم السريرة ، وهو من بين أهل العلم منكر أو غريب ، فليس له فى معرفة الكتاب والسنة وآثار السلف نصيب ، ولا يبدى جوابًا بإحسان ، وإن ساعد القدر فتواه كذلك يقول فلان ابن فلان .

يمدون للإفتاء باعًا قصيرة ‌ ‌ ‌ ‌ وأكثرهم عند الفتوى يُكذْ لكُ

وكثير منهم نصيبهم مثل ما حكاه أبو محمد بن حزم ، قال : كان عندنا مُفت قليل البضاعة ، فكان لا يفتى حتى يتقدمه من يكتب الجواب ، فيكتب تحته : جوابى مثل جواب الشيخ ،فقدر أن اختلف مفتيان فى جواب ، فكتب تحتهما مثل :جواب الشيخين ، فقيل له : إنهما قد تناقضا ، فقال : وأنا أيضًا تناقضت كما تناقضا . وقد أقام الله ـ سبحانه ـ لكل عالم ورئيس وفاضل من يظهر مماثلته ، ويرى الجهال وهم الأكثرون مساجلته ومشاكلته ، وأنه يجرى معه فى الميدان ، وأنهما عند المسابقة كفرسى رهان ، ولا سيما إذا طوَّل الأردان ، وأرخى الذوائب الطويلة وراءه كذنب الأتان ، وهدر باللسان ، وخلا له الميدان الطويل من الفرسان .

فلو لبس الحمار ثياب خز ‌ ‌ ‌ ‌ لقال الناس : يالك من حمار !!

وهذا الضرب إنما يستفتون بالشكل لا بالفضل ، وبالمناصب لا بالأهلية ، قد غرهم عكوف من لا علم عنده عليهم ، ومسارعة أجهل منهم إليهم ، تعجُّ منهم الحقوق إلى الله تعالى عجيجًا ، وتضج منهم الأحكام إلى من أنزلها ضجيجًا . فمن أقدم بالجرأة على ما ليس له بأهل من فتيا أو قضاء أو تدريس ، استحق اسم الذم ، ولم يحل قبول فتياه ولا قضائه ، هذا حكم دين الإسلام.

وإن رَغِمتْ أنوفٌ من أناس ‌ ‌ ‌ ‌ فقل : يا رب لا ترغم سواها

حكم كذلكة المفتى

الفائدة السادسة والعشرون : فى حكم كذلكة المفتى ، ولا يخلو من حالين :

إمَّا أن يعلم صواب جواب من تقدمه بالفتيا أو لا يعلم ، فإن علم صواب جوابه فله أن يكذلك ، وهل الأولى له الكذلكة أو الجواب المستقل ؟ فيه تفصيل ، فلا يخلو المبتدئ إما أن يكون أهلا أو متسلِّقًا متعاطيًا ما ليس له بأهل ، فإن كان الثانى فتركه الكذلكة أولى مطلقا إذ فى كذلكته تقرير له على الإفتاء ، وهو كالشهادة له بالأهلية .

وكان بعض أهل العلم يضرب على الفتوى من كتب ، وليس بأهل ، فإن لم يتمكن من ذلك خوف الفتنة منه ، فقد قيل : لا يكتب معه فى الورقة ، ويرد السائل ، وهذا نوع تحامل .

والصواب : أنه يكتب فى الورقة الجواب ، ولا يأنف من الإخبار بدين الله الذى يجب عليه الإخبار به لكتابة من ليس بأهل ؛ فإن هذا ليس عذرًا عند الله ورسوله وأهل العلم فى كتمان الحق ، بل هذا نوع رياسة وكبر ، والحق لله عز وجل ، فكيف يجوز أن يعطل حق الله ويكتم دينه لأجل كتابة من ليس بأهل ؟

وقد نص الإمام أحمد على أن الرجل إذا شهد الجنازة ، فرأى فيها منكرًا لا يقدر على إزالته أنه لا يرجع ، ونص على أنه إذا دعى إلى وليمة عُرس ، فرأى فيها منكرًا لا يقدر على إزالته أنه يرجع ، فسألت شيخنا عن الفرق فقال : لأن الحق فى الجنازة للميت ، فلا يترك حقه لما فعله الحى المنكر ، والحق فى الوليمة لصاحب البيت ، فإذا أتى فيها بالمنكر فقد أسقط حقه من الإجابة .

وإن كان المبتدئ بالجواب أهلا للإفتاء ، فلا يخلو إما أن يعلم المكذلِك صواب جوابه أو لا يعلم ، فإن لم يعلم صوابه لم يجز له أن يكذلِك تقليدًا له ؛ إذ لعله أن يكون قد غلط ، ولو نبه لرجح ، وهو معذور ، وليس المكذلك معذورًا ، بل مُفتٍ بغير علم ، ومن أفتى بغير علم فإثمه على من أفتاه ، وهو أحد المفتين الثلاثة الذين ثلثاهم فى النار .

وإن علم أنه قد أصاب فلا يخلو إما أن تكون المسألة ظاهرة لا يخفى وجه الصواب فيها بحيث لا يظن بالمكذلك أنه قلده فيما لا يعلم أو تكون خفية ،فإن كانت ظاهرة فالأولى الكذلكة ؛لأنه إعانة على البر والتقوى ، وشهادة للمفتى بالصواب ، وبراءة من الكبر والحمية ، وإن كانت خفية بحيث يظن بالمكذلك أنه وافقه تقليدًا محضًا فإن أمكنه إيضاح

ما أشكله الأولى وزيادة بيان أو ذكر قيد أو تنبيه على أمر أغفله كالجواب المستقل أولى ، وإن لم يمكنه ذلك فإن شاء كذلك وإن شاء أجاب استقلالا .

فإن قيل : ما الذى يمنعه من الكذلكة إذا لم يعلم صوابه تقليداً له كما قلد المبتدئ من فوقه ؟ فإذا أفتى الأولى بالتقليد المحض فما الذى يمنع المكذلك من تقليده ؟

قيل : الجواب من وجوه:

أحدها : أن الكلام فى المفتى الأول أيضًا ، فقد نص الإمام الشافعى وأحمد وغيرهما من الأئمة على أنه لا يحل للرجل أن يفتى بغير علم ، حكى فى ذلك الإجماع ، وقد تقدم ذكر ذلك مستوفى .

الثانى : أن هذا الأول وإن جاز له التقليد للضرورة فهذا المكذلك المتكلف لا ضرورة له إلى تقليده ، بل هذا من بناء الضعيف على الضعيف ، وذلك لا يسوغ ، كما لا تسوغ الشهادة على الشهادة ، وكما لا يجوز المسح على الخفين على طهارة التيمم ، ونظائر ذلك كثيرة .

الثالث : أن هذا لو ساغ لصار الناس كلهم مفتين ، إذا ليس هذا بجوار تقليد المفتى أولى من غيره ، وبالله التوفيق .

يجوز للمفتى أن يفتى أباه وابنه ومن لا تقبل شهادته

الفائدة السابعة والعشرون :يجوز للمفتى أن يفتى أباه وابنه وشريكه ومن لا تقبل شهادته له ، وإن لم يجز أن يشهد له ولا يقضى له ، والفرق بينهما أن الإفتاء يجرى مجرى الرواية،فكأنه حكم عام ، بخلاف الشهادة والحكم ، فإنه يخص المشهود له والمحكوم له ، ولهذا يدخل الراوى فى حكم الحديث الذى يرويه ، ويدخل فى حكم الفتوى التى يفتى بها ، ولكن لا يجوز له أن يحابى من يفتيه فيفتى أباه أو ابنه أو صديقه بشىء ويفتى غيرهم بضده محاباة ، بل هذا يقدح فى عدالته ، إلا أن يكون ثم سبب يقتضى التخصيص غير المحاباة ، ومثال هذا أن يكون فى المسألة قولان ؛ قول بالمنع وقول بالإباحة ، فيفتى ابنه وصديقه بقول الإباحة والأجنبى بقول المنع .

فإن قيل : هل يجوز له أن يفتى نفسه ؟

قيل : نعم ، إذا كان له أن يفتى غيره ، وقد قال النبى ﷺ :« استفت قلبك وإن

أفتاك المفتون »[1] ،فيجوز له أن يفتى نفسه بما يفتى غيره به ، ولا يجوز له أن يفتى نفسه بالرخصة وغيره بالمنع ، ولا يجوز له إذا كان فى المسألة قولان قول بالجواز وقول بالمنع أن يختار لنفسه قول الجواز ولغيره قول المنع ، وسمعت شيخنا يقول : سمعت بعض الأمراء يقول عن بعض المفتين من أهل زمانه ، يكون عندهم فى المسألة ثلاثة أقوال ، أحدها الجواز ، والثانى المنع ، والثالث التفصيل : فالجواز لهم ، والمنع لغيرهم ، وعليه العمل .

لا يجوز للمفتى أن يعمل من غير نظر فى الترجيح

الفائدة الثامنة والعشرون: لا يجوز للمفتى أن يعمل بما يشاء من الأقوال والوجوه من غير نظر فى الترجيح ولا يعتد به ، بل يكتفى فى العمل بمجرد كون ذلك قولا قاله إمام أو وجها ذهب إليه جماعة ، فيعمل بما يشاء من الوجوه والأقوال حيث رأى القول وفق إرادته وغرضه عمل به ، فإرادته وغرضه هو المعيار وبها الترجيح ، وهذا حرام باتفاق الأمة ، وهذا مثل ما حكى القاضى أبو الوليد الباجى عن بعض أهل زمانه ممن نصب نفسه للفتوى أنه كان يقول : إن الذى لصديقى على إذا وقعت له حكومة أو فتيا أن أفتيه بالرواية التى توافقه ، وقال : وأخبرنى من أثق به أنه وقعت له واقعة فأفتاه جماعة من المفتين بما يضره؛ وأنه كان غائبا ، فلما حضر سألهم بنفسه ، فقالوا : لم نعلم أنها لك ، وأفتوه بالرواية الأخرى التى توافقه ، قال : وهذا مما لا خلاف بين المسلمين ممن يعتد بهم فى الإجماع أنه لا يجوز ، وقد قال مالك ـ رحمه الله ـ فى اختلاف الصحابة رضي الله عنهم : مخطئ ومصيب ، فعليك بالاجتهاد .

وبالجملة فلا يجوز العمل والإفتاء فى دين الله بالتشهى والتخير وموافقة الغرض ، فيطلب القول الذى يوافق غرضه وغرض من يحابيه فيعمل به ، ويفتى به ، ويحكم به ، ويحكم على عدوه ويفتيه بضده ، وهذا من أفسق الفسوق وأكبر الكبائر ، والله المستعان .

أقسام المفتين

الفائدة التاسعة والعشرون: المفتون الذين نصبوا أنفسهم للفتوى أربعة أقسام :

---

(١) حلية الأولياء (٩ / ٤٤) ، وكنز العمال (٢٩٣٣٩) بلفظ :« استفت نفسك . . .» ، وانظره فى صحيح الجامع (٩٤٨) .

أحدهم : العالم بكتاب الله وسنة رسوله وأقوال الصحابة ؛ فهو المجتهد فى أحكام النوازل ، يقصد فيها موافقة الأدلة الشرعية حيث كانت ، ولا ينافى اجتهاده تقليده لغيره أحيانا ، فلا تجد أحدا من الأئمة إلا وهو مقلد من هو أعلم منه فى بعض الأحكام ، وقد قال الشافعى ـ رحمه الله ورضى عنه ـ فى موضع من الحج : قلته تقليدا لعطاء ؛ فهذا النوع الذى يسوغ لهم الإفتاء ، ويسوغ استفتاؤهم ويتأدى بهم فرض الاجتهاد ، وهم الذين قال فيهم النبى ﷺ :« إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»(١) ، وهم غرس الله الذين لا يزال يغرسهم فى دينه ، وهم الذين قال فيهم على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه : لن تخلو الأرض من قائم لله بحجته .

النوع الثانى : مجتهد مقيد فى مذهب من ائتم به ؛ فهو مجتهد فى معرفة فتاويه وأقواله ومآخذه وأصوله ، عارف بها ، متمكن من التخريج عليها وقياس ما لم ينص من أئتم به عليه على منصوصه من غير أن يكون مقلدا لإمامه لا فى الحكم ولا فى الدليل ، لكن سلك طريقه فى الاجتهاد والفتيا ودعا إلى مذهبه ورتبه وقرره ، فهو موافق له فى مقصده وطريقه معا .

وقد ادعى هذه المرتبة من الحنابلة القاضى أبو يعلى والقاضى أبو على بن أبى موسى فى شرح الإرشاد الذى له .

ومن الشافعية خلق كثير،وقد اختلف الحنفية فى أبى يوسف ومحمد وزفر بن الهذيل، والشافعية فى المزنى وابن سريج ، وابن المنذر ، ومحمد بن نصر المروزى .

والمالكية فى أشهب وابن عبد الحكم وابن القاسم وابن وهب .

والحنابلة فى أبى حامد والقاضى : هل كان هؤلاء مستقلين بالاجتهاد أو متقيدين بمذاهب أئمتهم ؟ على قولين ، ومن تأمل أحوال هؤلاء وفتاويهم واختياراتهم علم أنهم لم يكونوا مقلدين لأئمتهم فى كل ما قالوه ، وخلافهم لهم أظهر من أن ينكر ، وإن كان منهم المستقل والمستكثر ، ورتبة هؤلاء دون رتبة الأئمة فى الاستقلال بالاجتهاد .

النوع الثالث : من هو مجتهد فى مذهب من انتسب إليه ، مقرر له بالدليل ، متقن لفتاويه ، عالم بها ، لكن لا يتعدى أقواله وفتاويه ولا يخالفها ، وإذا وجد نص إمامه لم

(١) أبو داود (٤٢٩١) فى الملاحم ، باب : ما يذكر فى قرن المائة ، والحاكم فى المستدرك (٤ / ٥٢٢) فى الفتن والملاحم ، باب : ذكر بعض المجددين فى هذه الأمة ، وسكت عنه هو والذهبى ، والبيهقى فى المعرفة (٤٢٢) فى المقدمة ، باب : ذكر مولد الشافعى رحمه الله وتاريخ وفاته .

يعدل عنه إلى غيره البتة ، وهذا شأن أكثر المصنفين فى مذاهب أئمتهم ، وهو حال أكثر علماء الطوائف ، وكثير منهم يظن أنه لا حاجة به إلى معرفة الكتاب والسنة والعربية لكونه مجتزيا بنصوص إمامه ، فهى عنده كنصوص الشارع ، قد اكتفى بها من كلفة التعب والمشقة، وقد كفاه الإمام استنباط الأحكام ومؤنة استخراجها من النصوص ، وقد يرى إمامه ذكر حكما بدليله ؛ فيكتفى هو بذلك الدليل من غير بحث عن معارض له .

وهذا شأن كثير من أصحاب الوجوه والطرق والكتب المطولة والمختصرة ، وهؤلاء لا يدعون الاجتهاد ، ولا يقرون بالتقليد ، وكثير منهم يقول : اجتهدنا فى المذاهب فرأينا أقربها إلى الحق مذهب إمامنا ، وكل منهم يقول ذلك عن إمامه ، ويزعم أنه أولى بالاتباع من غيره ، ومنهم من يغلو فيوجب اتباعه ، ويمنع من اتباع غيره .

فيا لله العجب من اجتهاد نهض بهم إلى كون متبوعهم ومقلدهم أعلم من غيره ، أحق بالاتباع من سواه ، وأن مذهبه هو الراجح ، والصواب دائر معه ، وقعد بهم عن الاجتهاد فى كلام الله ورسوله ، واستنباط الأحكام منه ، وترجيح ما يشهد له النص ، مع استيلاء كلام الله ورسوله على غاية البيان ، وتضمنه لجوامع الكلم ، وفصله للخطاب ، وبراءته من التناقض والاختلاف والاضطراب ، فقعدت بهم هممهم واجتهادهم عن الاجتهاد فيه ، ونهضت بهم إلى الاجتهاد فى كون إمامهم أعلم الأمة وأولاها بالصواب ، وأقواله فى غاية القوة وموافقة السنة والكتاب ، والله المستعان .

النوع الرابع : طائفة تفقهت فى مذاهب من انتسبت إليه ، وحفظت فتاويه وفروعه ، وأقرت على أنفسها بالتقليد المحض من جميع الوجوه ، فإن ذكروا الكتاب والسنة يوما ما فى مسألةٍ فعلى وجه التبرك والفضيلة لا على وجه الاحتجاج والعمل ، وإذا رأوا حديثا صحيحا مخالفا لقول من انتسبوا إليه أخذوا بقوله وتركوا الحديث ، وإذا رأوا أبا بكر وعمر وعثمان وعليا وغيرهم من الصحابة ﷺ قد أفتوا بفتيا ، ووجدوا لإمامهم فتيا تخالفها أخذوا بفتيا إمامهم وتركوا فتاوى الصحابة قائلين :الإمام أعلم بذلك منا ، ونحن قد قلدناه فلا نتعداه ولا نتخطاه ، بل هو أعلم بما ذهب إليه منا ، ومن عدا هؤلاء فمتكلف متخلف قد دنا بنفسه عن رتبة المشتغلين ،وقصر عن درجة المحصلين ، فهو مكذلك مع المكذلكين ، وإن ساعد القدر واستقل بالجواب قال : يجوز بشرطه ، ويصح بشرطه ، ويجوز ما لم يمنع منه مانع شرعى ، ويرجع فى ذلك إلى رأى الحاكم ، ونحو ذلك من الأجوبة التى يستحسنها كل جاهل ، ويستحيى منها كل فاضل .

ففتاوى القسم الأول من جنس توقيعات الملوك وعلمائهم ، وفتاوى النوع الثانى من

جنس توقيعات نوابهم وخلفائهم ، وفتاوى النوع الثالث والرابع من جنس توقيعات خلفاء نوابهم ، ومن عداهم فمتشبع بما لم يُعط ، متشبه بالعلماء ، محاك للفضلاء ، وفى كل طائفة من الطوائف متحقق بغية ومحاك له متشبه به ، والله المستعان .

هل للمجتهد فى مذهب إمام أن يفتى بقول إمامه ؟

الفائدة الثلاثون :إذا كان الرجل مجتهدا فى مذهب إمام،ولم يكن مستقلا بالاجتهاد، فهل له أن يفتى بقول ذلك الإمام ؟ على قولين وهما وجهان لأصحاب الشافعى وأحمد :

أحدهما : الجواز ، ويكون متبعه مقلدا للميت ، لا له ؛ وإنما له مجرد النقل عن الإمام .

والثانى :لا يجوز له أن يفتى ؛ لأن السائل مقلد له ،لا للميت ، وهو لم يجتهد له ، والسائل يقول له : أنا أقلدك فيما تفتينى به .

والتحقيق أن هذا فيه تفصيل ؛ فإن قال له السائل : أريد حكم الله تعالى فى هذه المسألة ، وأريد الحق فيما يخلصنى ، ونحو ذلك لم يسعه إلا أن يجتهد له فى الحق ، ولا يسعه أن يفتيه بمجرد تقليد غيره من غير معرفة بأنه حق أو باطل ، وإن قال له : أريد أن أعرف فى هذه النازلة قول الإمام ومذهبه ، ساغ له الإخبار به ، ويكون ناقلا له ، ويبقى الدرك على السائل ؛ فالدرك فى الوجه الأول على المفتى ، وفى الثانى على المستفتى .

هل يجوز للحى تقليد الميت

الفائدة الحادية والثلاثون:هل يجوز للحى تقليد الميت والعمل بفتواه من غير اعتبارها بالدليل الموجب لصحة العمل بها ؟ فيه وجهان لأصحاب الإمام أحمد والشافعى ؛ فمن منعه قال : يجوز تغيير اجتهاده لو كان حيا ؛ فإنه كان يجدد النظر عند نزول هذه النازلة إما وجوبا وإما استحبابا ، على النزاع المشهور ، ولعله لو جدد النظر لرجع عن قوله الأول .

والثانى : الجواز ، وعليه عمل جميع المقلدين فى أقطار الأرض ، وخيار ما بأيديهم من التقليد تقليد الأموات ، ومن منع منهم تقليد الميت فإنما هو شىء يقوله بلسانه ، وعمله فى فتاويه وأحكامه بخلافه ، والأقوال لا تموت بموت قائلها ، كما لا تموت الأخبار بموت رواتها وناقليها .

هل للمجتهد فى نوع من العلم الإفتاء فيه ؟

الفائدة الثانية والثلاثون :الاجتهاد حالة تقبل التجزؤ والانقسام ، فيكون الرجل مجتهدا فى نوع من العلم مقلدا فى غيره ، أو فى باب من أبوابه ، كمن استفرغ وسعه فى نوع العلم بالفرائض وأدلتها واستنباطها من الكتاب والسنة دون غيرها من العلوم ، أو فى باب الجهاد أو الحج ، أو غير ذلك ؛ فهذا ليس له الفتوى فيما لم يجتهد فيه ، ولا تكون معرفته بما اجتهد فيه مسوغة له الإفتاء بما لا يعلم فى غيره ، وهل له أن يفتى فى النوع الذى اجتهد فيه ؟ فيه ثلاثة أوجه :

أصحها : الجواز ، بل هو الصواب المقطوع به .

والثانى : المنع .

والثالث : الجواز فى الفرائض دون غيرها .

فحجة الجواز أنه قد عرف الحق بدليله ، وقد بذل جهده فى معرفة الصواب ؛ فحكمه فى ذلك حكم المجتهد المطلق فى سائر الأنواع .

وحجة المنع تعلق أبواب الشرع وأحكامه بعضها ببعض ، فالجهل ببعضها مظنة التقصير فى الباب والنوع الذى قد عرفه ، ولا يخفى الارتباط بين كتاب النكاح والطلاق والعدة وكتاب الفرائض ، وكذلك الارتباط بين كتاب الجهاد وما يتعلق به ، وكتاب الحدود والأقضية والأحكام ، وكذلك عامة أبواب الفقه .

ومن فرق بين الفرائض وغيرها رأى انقطاع أحكام قسمة المواريث ومعرفة الفروض ومعرفة مستحقها عن كتاب البيوع والإجارات والرهون والنضال وغيرها ، وعدم تعلقاتها ، وأيضا فإن عامة أحكام المواريث قطعية ، وهى منصوص عليها فى الكتاب والسنة .

فإن قيل : فما تقولون فيمن بذل جهده فى معرفة مسألة أو مسألتين ، هل له أن يفتى بهما ؟

قيل : نعم يجوز فى أصح القولين ، وهما وجهان لأصحاب الإمام أحمد ، وهل هذا إلا من التبليغ عن الله وعن رسوله ، وجزى الله من أعان الإسلام ولو بشطر كلمة خيرا ، ومنع هذا من الإفتاء بما علم خطأ محض ، وبالله التوفيق .

من أفتى الناس وهو ليس بأهل

الفائدة الثالثة والثلاثون : من أفتى الناس وليس بأهل للفتوى فهو آثم عاص ، ومن أقره من ولاة الأمور على ذلك فهو آثم أيضًا .

قال أبو الفرج بن الجوزى ـ رحمه الله : ويلزم ولى الأمر منهم كما فعل بنو أمية ، وهؤلاء بمنزلة من يدل الركب ، وليس له علم بالطريق ، وبمنزلة الأعمى الذى يرشد الناس إلى القبلة ، وبمنزلة من لا معرفة به بالطب وهو يطب الناس ، بل هو أسوأ حالا من هؤلاء كلهم ، وإذا تعين على ولى الأمر منع من لم يحسن التطبب من مداواة المرضى ، فكيف بمن لم يعرف الكتاب والسنة ولم يتفقه فى الدين ؟

وكان شيخنا ﷺ شديد الإنكار على هؤلاء ، فسمعته يقول : قال لى بعض هؤلاء : أجعلت محتسبًا على الفتوى ؟ فقلت له : يكون على الخبازين والطباخين محتسب ، ولا يكون على الفتوى محتسب ؟!

وقد روى الإمام أحمد وابن ماجه عن النبى ﷺ مرفوعًا : « من أفتى بغير علم كان إثم ذلك على الذى أفتاه » [(١)] .

وفى الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ عن النبى ﷺ: « إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من صدور الرجال ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، فإذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا : فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا » [(٢)] .

وفى أثر مرفوع ذكره أبو الفرج وغيره : من أفتى الناس بغير علم لعنته ملائكة السماء وملائكة الأرض .

وكان مالك ـ رحمه الله ـ يقول : من سئل عن مسألة فينبغى له قبل أن يجيب فيها أن يعرض نفسه على الجنة والنار ، وكيف يكون خلاصه فى الآخرة ، ثم يجيب فيها ، وسئل عن مسألة فقال : لا أدرى ، فقيل له : إنها مسألة خفيفة سهلة ، فغضب وقال : ليس فى العلم شيء خفيف ، أما سمعت قول الله عز وجل : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ۝ ﴾ [المزمل : ٥] فالعلم كله ثقيل ، وخاصة ما يسأل عنه يوم القيامة.

---

(١) أحمد ٢ / ٣٢١ ، وصححه الشيخ شاكر (٨٢٤٩) ، وابن ماجه (٥٣) فى المقدم ، باب : اجتناب الرأى والقياس تلاها بلفظ : (٥٣) « غير ثبت » .

(٢) البخارى (١٠٠) فى العلم ، باب : كيف يقبض ، ومسلم (٢٦٧٣ / ١٣) فى العلم ، باب : رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن آخر الزمان .

وقال : ما أفتيت حتى شهد لى سبعون أنى أهل لذلك ، وقال : لا ينبغى لرجل أن يرى نفسه أهلا لشىء حتى يسأل من هو أعلم منه ، وما أفتيت حتى سألت ربيعة ويحيى ابن سعيد ، فأمرانى بذلك ، ولو نهانى انتهيت ، قال : وإذا كان أصحاب رسول الله ﷺ تصعب عليهم المسائل ، ولا يجيب أحد منهم عن مسألة حتى يأخذ رأى صاحبه مع ما رزقوا من السداد والتوفيق والطهارة ، فكيف بنا الذين غطت الذنوب والخطايا قلوبنا ؟ ! وكان ـ رحمه الله ـ إذا سئل عن مسألة فكأنه واقف بين الجنة والنار . وقال عطاء بن أبى رباح : أدركت أقوامًا إن كان أحدهم يسأل عن شىء فيتكلم وإنه ليرعد ، وسئل النبى ﷺ: أى البلاد شر ؟ فقال : « لا أدرى حتى أسأل جبريل » ، فسأله فقال : أسواقها [(١)].

وقال الإمام أحمد : من عرض نفسه للفتيا فقد عرضها لأمر عظيم ، إلا أنه قد تلجئ الضرورة .

وسئل الشعبى عن مسألة ، فقال : لا أدرى ، فقيل له : ألا تستحيى من قولك : لا أدرى ، وأنت فقيه أهل العراق ؟ فقال : لكن الملائكة لم تستحى حين قالوا : ﴿ **لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا** ﴾ [البقرة : ٣٣] ، . وقال بعض أهل العلم :« تعلم لا أدرى » فإنك إن قلت : « لا أدرى » علموك حتى تدرى ، وإن قلت : « أدرى » سألوك حتى لا تدرى . وقال عتبة بن مسلم : صحبت ابن عمر أربعة وثلاثين شهرًا ، فكان كثيرًا ما يسأل فيقول : لا أدرى . وكان سعيد بن المسيب لا يكاد يفتى فتيا ، ولا يقول شيئًا إلا قال : اللهم سلمنى وسلم منى ، وسئل الشافعى عن مسألة ، فسكت ، فقيل : ألا تجيب ؟ فقال : حتى أدرى الفضل فى سكوتى أو فى الجواب .

وقال ابن أبى ليلى : أدركت مائة وعشرين من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ يُسأل أحدهم عن المسألة فيردها هذا إلى هذا ، وهذا إلى هذا ، حتى ترجع إلى الأول ، وما منهم من أحد يحدث بحديث أو يسأل عن شىء إلا وَدَّ أن أخاه كفاه . وقال أبو الحسين الأزدى : إن أحدهم ليفتى فى المسألة لو وردت على عمر بن الخطاب لجمع لها أهل بدر . وسئل القاسم بن محمد عن شىء فقال : إنى لا أحسنه ، فقال له السائل : إنى جئتك لا أعرف غيرك . فقال له القاسم : لا تنظر إلى طول لحيتى وكثرة الناس حولى ، والله ما أحسنه ، فقال شيخ من قريش جالس إلى جنبه : يا بن أخى ، الزمها ، فوالله ما رأيناك

(١) أحمد (٤ / ٨١) ، وأبو يعلى (٧٤٠٣) ، والطبرانى فى الكبير (٢ / ١٢٨) رقم (١٥٤٥ ، ١٥٤٦) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٤ / ٧٩) : « رجال أحمد وأبى يعلى رجال الصحيح ، خلا عبد الله بن محمد بن عقيل وهو حسن الحديث وفيه كلام » .

فى مجلس أنبل منك اليوم ، فقال القاسم : والله لأن يُقطع لسانى أحب إلىَّ من أن أتكلم بما لا علم لى به . وكتب سلمان إلى أبى الدرداء رضي الله عنهما وكان بينهما مؤاخاة : بلغنى أنك قعدت طبيبًا فاحذر أن تكون متطببًا أو تقتل مسلمًا فكان ربما جاءه الخصمان فيحكم بينهما ثم يقول : ردوهما علىَّ ، متطبب والله أعيدا علىَّ قضيتكما .

حكم العامى لا يجد من يفتيه

الفائدة الرابعة والثلاثون : إذا نزلت بالعامى نازلة وهو فى مكان لا يجد من يسأله عن حكمها ففيه طريقان للناس :

أحدهما : أن له حكم ما قبل الشرع ، على الخلاف فى الحظر والإباحة والوقف ؛ لأن عدم المرشد فى حقه بمنزلة عدم المرشد بالنسبة إلى الأمة .

والطريقة الثانية : أنه يُخَرَّج على الخلاف فى مسألة تعارض الأدلة عند المجتهد ، هل يعمل بالأخف أو بالأشد أو يتخير ؟ والصواب أنه يجب عليه أن يتقى الله ما استطاع ، ويتحرى الحق بجهده ومعرفة مثله ، وقد نصب الله تعالى على الحق أمارات كثيرة ، ولم يسوِّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ بين ما يحبه وبين ما يسخطه من كل وجه بحيث لا يتميز هذا من هذا ، ولا بد أن تكون الفِطَرُ السليمة مائلة إلى الحق ، مؤثرة له ، ولا بد أن يقوم لها عليه بعض الأمارات المرجحة ولو بمنام أو بإلهام ، فإن قدر ارتفاع ذلك كله وعدمت فى حقه جميع الأمارات فهنا يسقط التكليف عنه فى حكم هذه النازلة ، وبصير بالنسبة إليها كمن لم تبلغه الدعوة ، وإن كان مكلفا بالنسبة إلى غيره ؛ فأحكام التكليف تتفاوت بحسب التمكن من العلم والقدرة ، والله أعلم .

من تجوز له الفتيا ، ومن لا تجوز

الفائدة الخامسة والثلاثون :الفتيا أوسع من الحكم والشهادة ، فيجوز فتيا العبد والحر، والمرأة والرجل ، والقريب والبعيد والأجنبى ، والأمى والقارئ ، والأخرس بكتابته والناطق ، والعدو ،والصديق ، وفيه وجه أنه لا تقبل فتيا العدو ولا من لا تقبل شهادته له كالشهادة ،والوجهان فى الفتيا كالوجهين فى الحكم ، وإن كان الخلاف فى الحاكم أشهر ، وأما فتيا الفاسق فإن أفتى غيره لم تقبل فتواه ، وليس للمستفتى أن يستفتيه ، وله أن يعمل بفتوى نفسه ، ولا يجب عليه أن يفتى غيره ، وفى جواز استفتاء مستور الحال وجهان ،

والصواب جواز استفتائه وإفتائه .

قلت : وكذلك الفاسق إلا أن يكون معلنا بفسقه داعيا إلى بدعته ، فحكم استفتائه حكم إمامته وشهادته ، وهذا يختلف باختلاف الأمكنة والأزمنة والقدرة والعجز ؛ فالواجب شيء والواقع شيء ، والفقيه من يطبق بين الواقع والواجب وينفذ الواجب بحسب استطاعته ، لا من يلقى العداوة بين الواجب والواقع ، فلكل زمان حكم ، والناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم ، وإذا عم الفسوق وغلب على أهل الأرض فلو منعت إمامة الفساق وشهاداتهم وأحكامهم وفتاويهم وولاياتهم لعطلت الأحكام ، وفسد نظام الخلق ، وبطلت أكثر الحقوق ، ومع هذا فالواجب اعتبار الأصلح فالأصلح ، وهذا عند القدرة والاختيار ، وأما عند الضرورة والغلبة بالباطل فليس إلا الاصطبار ، والقيام بأضعف مراتب الإنكار .

لا فرق بين القاضي وغيره فى جواز الإفتاء

الفائدة السادسة والثلاثون : لا فرق بين القاضى وغيره فى جواز الإفتاء بما تجوز الفتيا به ، ووجوبها إذا تعينت ، ولم يزل أمر السلف والخلف على هذا فإن منصب الفتيا داخل فى ضمن منصب القضاء عند الجمهور ، والذين لا يجوزون قضاء الجاهل فالقاضى مُفْت ومثبت ومنفذ لما أفتى به ، وذهب بعض الفقهاء من أصحاب الإمام أحمد والشافعى إلى أنه يكره للقاضى أن يفتى فى مسائل الأحكام المتعلقة به ، دون الطهارة والصلاة والزكاة ونحوها ، واحتج أرباب هذا القول بأن فتياه تصير كالحكم منه على الخصم ، ولا يمكن نقضه وقت المحاكمة ، قالوا : ولأنه قد يتغير اجتهاده وقت الحكومة أو تظهر له قرائن لم تظهر له عند الإفتاء ، فإن أصر على فتياه والحكم بموجبها حكم بخلاف ما يعتقد صحته ، وإن حكم بخلافها طرق الخصم إلى تهمته والتشنيع عليه بأنه يحكم بخلاف ما يعتقده ويفتى به ، ولهذا قال شريح : أنا أقضى لكم ولا أفتى ، حكاه ابن المنذر ، واختار كراهية الفتوى فى مسائل الأحكام .

وقال الشيخ أبو حامد الإسفرائينى : لأصحابنا فى فتواه فى مسائل الأحكام جوابان :

أحدهما : أنه ليس له أن يفتى فيها ؛ لأن لكلام الناس عليه مجالا ولأحد الخصمين عليه مقالا .

والثانى : له ذلك ، لأنه أهل له .

حكم فتيا الحاكم

الفائدة السابعة والثلاثون : فتيا الحاكم ليست حكما منه ، ولو حكم غيره بخلاف ما أفتى به لم يكن نقضًا لحكمه ، ولا هى كالحكم ، ولهذا يجوز أن يفتى الحاضر والغائب ومن يجوز حكمه له ومن لا يجوز ، ولهذا لم يكن فى حديث هند دليل على الحكم على الغائب ؛ لأنه ﷺ إنما أفتاها فتوى مجردة ، ولم يكن ذلك حكمًا على الغائب ؛ فإنه لم يكن غائبًا عن البلد،وكانت مراسلته وإحضاره ممكنة ، ولا طلب البينة على صحة دعواها ، وهذا ظاهر بحمد الله .

إذا سئل المفتى عن شىء لم يقع

الفائدة الثامنة والثلاثون : إذا سأل المستفتى عن مسألة لم تقع ، فهل تستحب إجابته أو تكره أو تخير ؟ فيه ثلاثة أقوال ، وقد حكى عن كثير من السلف أنه كان لا يتكلم فيما لم يقع ، وكان بعض السلف إذا سأله الرجل عن مسألة قال : هل كان ذلك ؟ فإن قال : نعم تكلف له الجواب ، وإلا قال : دعنا فى عافية .

وقال الإمام أحمد لبعض أصحابه : إياك أن تتكلم فى مسألة ليس لك فيها إمام .

والحق التفصيل ، فإن كان فى المسألة نص من كتاب الله أو سنة عن رسول الله ﷺ أو أثر عن الصحابة لم يكره الكلام فيها ، وإن لم يكن فيها نص ولا أثر ، فإن كانت بعيدة الوقوع أو مقدرة لا تقع لم يستحب له الكلام فيها ، وإن كان وقوعها غير نادر ولا مستبعد وغرض السائل الإحاطة بعلمها ليكون منها على بصيرة إذا وقعت استحب له الجواب بما يعلم لا سيما إن كان السائل يتفقه بذلك ويعتبر بها نظائرها ، ويفرع عليها ، فحيث كانت مصلحة الجواب راجحة كان هو الأولى ، والله أعلم .

لا يجوز للمفتى تتبع الحيل

الفائدة التاسعة والثلاثون : لا يجوز للمفتى تتبع الحيل المحرمة والمكروهة ، ولا تتبع الرُّخص لمن أراد نفعه ، فإن تتبع ذلك فسق ، وحرم استفتاؤه ، فإن حسن قصده فى حيلة جائزة لا شبهة فيها ولا مفسدة لتخليص المستفتى بها من حرج ، جاز ، بل استحب ، وقد أرشد الله تعالى نبيه أيوب عليه السلام إلى التخلص من الحنث بأن يأخذ بيده ضِغْثًا ، فيضرب به المرأة ضربة واحدة . وأرشد النبى ﷺ بلالا إلى بيع التمر بدراهم ثم يشترى بالدراهم تمرًا

آخر فيتخلص من الربا (١) . فأحسن المخارج ما خلص من المآثم ، وأقبح الحيل ما أوقع فى المحارم ، أو أسقط ما أوجبه الله ورسوله من الحق اللازم ، وقد ذكرنا من النوعين ما لعلك لا تظفر بجملته فى غير هذا الكتاب ، والله الموفق للصواب .

حكم رجوع المفتى عن فتياه

الفائدة الأربعون : فى حكم رجوع المفتى عن فتياه : إذا أفتى المفتى بشىء ثم رجع عنه فإن علم المستفتى برجوعه ولم يك عمل بالأول فقيل : يحرم عليه العمل به ، وعندى فى المسألة تفصيل ، وأنه لا يحرم عليه الأول بمجرد رجوع المفتى ، بل يتوقف حتى يسأل غيره ، فإن أفتاه بموافقة الأول استمر على العمل به ، وإن أفتاه بموافقة الثانى ، ولم يُفْتِهِ أحد بخلافه ، حرم عليه العمل بالأول ، وإن لم يكن فى البلد إلا مُفْتٍ واحد سأله عن رجوعه عما أفتاه به ، فإن رجع إلى اختيار خلافه مع تسويفه لم يحرم عليه ، وإن رجع لخطأ بان له وأن ما أفتاه به لم يكن صوابًا حرم عليه بالأول ، هذا إذا كان رجوعه لمخالفة دليل شرعى ، فإن كان رجوعه لمجرد ما بان له أن ما أفتى به خلاف مذهبه لم يحرم على المستفتى ما أفتاه به أولا إلا أن تكون المسألة إجماعية .

فلو تزوج بفتواه ودخل ثم رجع المفتى لم يحرم عليه إمساك امرأته إلا بدليل شرعى يقتضى تحريمها ، ولا يجب عليه مفارقتها بمجرد رجوعه ، ولا سيما إن كان إنما رجع لكونه تبين له أن ما أفتى به خلاف مذهبه وإن وافق مذهب غيره ، هذا هو الصواب.

وأطلق بعض أصحابنا وأصحاب الشافعى وجوب مفارقتها عليه ، وحكوا فى ذلك وجهين ، ورجحوا وجوب المفارقة . قالوا : لأن الرجوع عنه ليس مذهبًا له كما لو تغير اجتهاد من قلده فى القبلة فى أثناء الصلاة فإنه يتحول مع الإمام فى الأصح .

فيقال لهم : المستفتى قد دخل بامرأته دخولا صحيحا سائغا ، ولم يفهم ما يوجب مفارقته لها من نص ولا إجماع ، فلا يجب عليه مفارقتها بمجرد تغير اجتهاد المفتى ، وقد رجع عمر بن الخطاب ﷺ عن القول بالتشريك وأفتى بخلافه ولم يأخذ المال من الذين شرك بينهم أولا ، وأما قياسكم ذلك على من تغير اجتهاده فى معرفة القبلة فهو حجة عليكم ؛ فإنه لا يبطل ما فعله المأموم بالاجتهاد الأول ، ويلزمه التحول ثانيا ؛ لأنه مأمور بمتابعة الإمام . بل نظير مسألتنا ما لو تغير اجتهاده بعد الفراغ من الصلاة ؛ فإنه لا تلزمه

(١) سبق تخريجه ص ٤٨ .

الإعادة ، ويصلى الثانية بالاجتهاد الثانى .

وأما قول أبى عمرو بن الصلاح وأبى عبد الله بن حمدان من أصحابنا : إذا كان المفتى إنما يفتى على مذهب إمام معين فإذا رجع لكونه بان له قطعا أنه خالف فى فتواه نص مذهب إمامه فإنه يجب نقضه ، وإن كان ذلك فى محل الاجتهاد ؛ لأن نص مذهب إمامه فى حقه كنص الشارع فى حق المفتى المجتهد المستقل ، فليس كما قالا ، ولم ينص على هذه المسألة أحد من الأئمة ، ولا تقتضيها أصول الشريعة ، ولو كان نص إمامه بمنزلة نص الشارع لحرم عليه وعلى غيره مخالفته وفسق بخلافه . ولم يوجب أحد من الأئمة نقض حكم الحاكم ولا إبطال فتوى المفتى بكونه خلاف قول زيد أو عمرو ، ولا يعلم أحد سوغ النقض بذلك من الأئمة والمتقدمين من أتباعهم ، وإنما قالوا : ينقض من حكم الحاكم ما خالف نص كتابه أو سنة أو إجماع الأمة ، ولم يقل أحد : ينقض من حكمه ما خالف قول فلان أو فلان، وينقض من فتوى المفتى ما ينقض من حكم الحاكم ،فكيف يسوغ نقض أحكام الحكام وفتاوى أهل العلم بكونها خالفت قول واحد من الأئمة ؟ ولا سيما إذا وافقت نصا عن رسول الله ﷺ أو فتاوى الصحابة يسوغ نقضها لمخالفة قول فلان وحده ، ولم يجعل الله تعالى ولا رسوله ﷺ ولا أحد من الأئمة قول فقيه من الأمة بمنزلة نص الله ورسوله بحيث يجب اتباعه ويحرم خلافه ، فإذا بان للمفتى أنه خالف إمامه ووافق قول الأئمة الثلاثة لم يجب على الزوج أن يفارق امرأته ويخرب بيته ويشتت شمله وشمل أولاده بمجرد كون المفتى ظهر له أن ما أفتى به خلاف نص إمامه ، ولا يحل له أن يقول له: فارق أهلك ، بمجرد ذلك ، ولا سيما إن كان النص مع قول الثلاثة . وبالجملة فبطلان هذا القول أظهر من أن نتكلف بيانه .

فإن قيل : فما تقولون لو تغير اجتهاد المفتى ، فهل يلزمه إعلام المستفتى ؟

قيل : اختلف فى ذلك ؛ فقيل : لا يلزمه إعلامه ، فإنه عمل أولا بما يسوغ له ، فإذا لم يعلم بطلانه لم يكن آثما فهو فى سعة من استمراره ، وقيل :بل يلزمه إعلامه ؛ لأن ما رجع عنه قد اعتقد بطلانه ، وبان له أن ما أفتاه به ليس من الدين ، فيجب عليه إعلامه ، كما جرى لعبد الله بن مسعود حين أفتى رجلا بحل أم امرأته التى فارقها قبل الدخول ، ثم سافر إلى المدينة وتبين له خلاف هذا القول ، فرجع إلى الكوفة ، وطلب هذا الرجل ، وفرق بينه وبين أهله ، وكما جرى للحسن بن زياد اللؤلؤى لما استفتى فى مسألة فأخطأ فيها، ولم يعرف الذى أفتاه به ، فاستأجر مناديا ينادى أن الحسن بن زياد استفتى فى يوم كذا وكذا فى مسألة فأخطأ فمن كان أفتاه الحسن بن زياد بشىء فليرجع إليه ، ثم لبث أياما

لا يفتى حتى جاء صاحب الفتوى فأعلمه أنه قد أخطأ ؛ وأن الصواب خلاف ما أفتاه به .

قال القاضى أبو يعلى فى كفايته : من أفتى بالاجتهاد ثم تغير اجتهاده لم يلزمه إعلامه المستفتى بذلك إن كان قد عمل به ، وإلا أعلمه . والصواب التفصيل فإن كان المفتى ظهر له الخطأ قطعا لكونه خالف نص الكتاب أو السنة التى لا معارض لها أو خالف إجماع الأمة فعليه إعلام المستفتى ، وإن كان إنما ظهر له أنه خالف مجرد مذهبه أو نص إمامه لم يجب عليه إعلام المستفتى . وعلى هذا تخرج قصة ابن مسعود ﷺ ، فإنه لما ناظر الصحابة فى تلك المسألة ، بينوا له أن صريح الكتاب يحرمها لكون الله تعالى أبهمها فقال تعالى: ﴿**وأُمَّهَاتُ نِسَائِكُم**﴾ وظن عبد الله أن قوله : ﴿ **اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِن** ﴾ [النساء : ٢٣] راجع إلى الأول والثانى ، فبينوا له أنه إنما يرجع إلى أمهات الربائب خاصة ، فعرف أنه الحق ، وأن القول بحلها خلاف كتاب الله تعالى ، ففرق بين الزوجين ولم يفرق بينهما بكونه تبين له أن ذلك خلاف قول زيد أو عمرو ، والله أعلم .

هل يضمن المفتى المال أو النفس إذا بان خطؤه ؟

الفائدة الحادية والأربعون :إذا عمل المستفتى بفتيا مفت فى إتلاف نفس أو مال ، ثم بان خطؤه ، قال أبو إسحاق الإسفرائينى من الشافعية : يتضمن المفتى إن كان أهلا للفتوى وخالف القاطع ، وإن لم يكن أهلا فلا ضمان عليه ؛ لأن المستفتى قصر فى استفتائه وتقليده ، ووافقه على ذلك أبو عبد الله بن حمدان فى كتاب : آداب المفتى والمستفتى له ، ولم أعرف هذا لأحد قبله من الأصحاب ثم حكى وجها آخر فى تضمين من ليس بأهل قال: لأنه تصدى لما ليس له بأهل وغر من استفتاه بتصديه لذلك .

قلت : خطأ المفتى كخطأ الحاكم والشاهد .

وقد اختلفت الرواية فى خطأ الحاكم فى النفس أو الطرف ،فعن الإمام أحمد فى ذلك روايتان :

إحداهما : أنه فى بيت المال ؛ لأنه يكثر منه ذلك الحكم ، فلو حملته العاقلة لكان ذلك إضرارا عظيما بهم .

والثانية :أنه على عاقلته كما لو كان الخطأ بسبب غير الحاكم ،وأما خطؤه فى المال فإذا حكم بحق ثم بان كفر الشهود أو فسقهم نقض حكمه ، ثم رجع المحكوم عليه ببدل المال على المحكوم له ،وكذلك إذا كان الحكم بقود رجع أولياء المقتول ببدله على المحكوم له .

وكذلك إن كان الحكم بحق الله بإتلاف مباشر أو بالسراية ففيه ثلاثة أوجه .

أحدها : أن الضمان على المزكين ؛ لأن الحكم إنما وجب بتزكيتهم .

والثانى : يضمنه الحاكم ؛ لأنه لم يتثبت ، بل فرط فى المبادرة إلى الحكم وترك البحث والسؤال .

والثالث : أن للمستحق تضمين أيهما شاء ، والقرار على المزكين ؛ لأنهم ألجؤوا الحاكم إلى الحكم ،فعلى هذا إن لم يكن ثم تزكية فعلى الحاكم .وعن أحمد رواية أخرى: أنه لا ينقض بفسقهم ، فعلى هذا لا ضمان .

وعلى هذا ، إذا استفتى الإمام أو الوالى مفتيا فأفتاه ثم بان له خطؤه فحكم المفتى مع الإمام حكم المزكين مع الحاكم ، وإن عمل المستفتى بفتواه من غير حكم حاكم ولا إمام فأتلف نفسا أو مالا : فإن كان المفتى أهلا فلا ضمان عليه ، والضمان على المستفتى وإن لم يكن أهلا فعليه الضمان ؛لقول النبى ﷺ:«من تطبب ولم يعرف منه طب فهو ضامن»[1] ، وهذا يدل على أنه إذا عرف منه طب وأخطأ لم يضمن ، والمفتى أولى بعدم الضمان من الحاكم والإمام ؛ لأن المستفتى مخير بين قبول فتواه وردها ، فإن قوله لا يلزم ، بخلاف حكم الحاكم والإمام ، وأما خطأ الشاهد فإما أن يكونوا شهودا بمال أو طلاق أو عتق أو حد أو قود ، فإن بان خطؤهم قبل الحكم لم يحكم بذلك ، وإن بان بعد الحكم باستيفاء القود وقبل استيفائه لم يستوف قطعا ، وإن بان بعد استيفائه فعليهم دية ما تلف ، ويتسقط الغرم على عددهم . وإن بان خطؤهم قبل الحكم بالمال لغت شهادتهم ولم يضمنوا ، وإن بان بعد الحكم به نقض حكمه ، كما لو شهدوا بموت رجل باستفاضة فحكم الحاكم بقسم ميراثه ثم بانت حياته فإنه ينقض حكمه ، وإن بان خطؤهم فى شهادة الطلاق من غير جهتهم كما لو شهدوا أنه طلق يوم كذا وكذا وظهر للحاكم أنه فى ذلك اليوم كان محبوسا لا يصل إليه أحد أو كان مغمى عليه ، فحكم ذلك حكم ما لو بان كفرهم أو فسقهم فإنه ينقض حكمه وترد المرأة إلى الزوج ولو تزوجت بغيره ، بخلاف ما إذا قالوا : رجعنا عن الشهادة ، فإن رجوعهم إن كان قبل الدخول ضمنوا نصف المسمى ؛ لأنهم قرروه عليه ، ولا تعود إليه الزوجة إذا كان الحاكم قد حكم بالفرقة ، وإن رجعوا بعد الدخول ففيه روايتان :

---

(١) أبو داود (٤٥٨٦) فى الديات ، باب : فيمن تطبب بغير علم فأعنت ، والنسائى (٤٨٣٠) فى القسامة ، باب : صفة شبه العمد وعلى من دية الأجنة وشبه العمد ، وابن ماجه (٣٤٦٦) فى الطب ، باب : من تطبب ولم يعلم منه طب .

إحداهما : أنهم لا يغمرون شيئا ؛ لأن الزوج استوفى المنفعة بالدخول فاستقر عليه عوضها .

والثانية : يغرمون المسمى كله ؛ لأنهم فوتوا عليه البضع بشهادتهم ، وأصلهما أن خروج البضع من يد الزوج هل هو متقوم أولا ؟ وأما شهود العتق فإن بان خطؤهم تبينا أنه لا عتق ، وإن قالوا رجعنا غرموا للسيد قيمة العبد .

أحوال لا يجوز للمفتى الإفتاء وهو فيها

الفائدة الثانية والأربعون : ليس للمفتي الفتوى في حال غضب شديد ، أو جوع مفرط ، أو هم مقلق ، أو خوف مزعج ، أو نعاس غالب ، أو شغل قلب مستول عليه ، أو حال مدافعة الأخبثين ، بل متى أحس من نفسه شيئا من ذلك يخرجه عن حال اعتداله وكمال تثبته وتبينه أمسك عن الفتوى ، فإن أفتى فى هذه الحالة بالصواب صحت فتياه . ولو حكم فى مثال هذه الحالة فهل ينفذ حكمه أو لا ينفذ ؟ فيه ثلاثة أقوال : النفوذ ، وعدمه ، والفرق بين أن يعرض له الغضب بعد فهم الحكومة فينفذ وبين أن يكون سابقا على فهم الحكومة فلا ينفذ ، والثلاثة فى مذهب الإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى .

على المفتى الإلمام بالأعراف فى بعض المسائل

الفائدة الثالثة والأربعون : لا يجوز له أن يفتى فى الإقرار والأيمان والوصايا وغيرها مما يتعلق باللفظ بما اعتاده هو من فهم تلك الألفاظ دون أن يعرف عرف أهلها والمتكلمين بها فيحملها على ما اعتادوه وعرفوه وإن كان مخالفا لحقائقها الأصلية ، فمتى لم يفعل ذلك ضل وأضل ؛ فلفظ الدينار عند طائفة اسم لثمانية دراهم ، وعند طائفة اسم لاثنى عشر درهما ، والدرهم عند غالب البلاد اليوم اسم للمغشوش ، فإذا أقر له بدراهم أو حلف ليعطينه إياها أو أصدقها امرأة لم يجز للمفتى ولا للحاكم أن يلزمه بالخالصة ، فلو كان فى فى بلد إنما يعرفون الخالصة لم يجز له أن يلزم المستحق بالمغشوشة وذلك فى ألفاظ الطلاق والعتاق ، فلو جرى عرف أهل بلد أو طائفة فى استعمالهم لفظ الحرية فى العفة دون العتق، فإذا قال أحدهم عن مملوكه : إنه حر ، أو عن جاريته : إنها حرة ، وعادته استعمال ذلك فى العفة لم يخطر بباله غيرها لم يعتق بذلك قطعا ، وإن كان اللفظ صريحا عند من ألف استعماله فى العتق ، وكذلك إذا جرى عرف طائفة فى الطلاق بلفظ التسميح بحيث لا يعرفون لهذا المعنى غيره ، فإذا قلت : اسمح لى ، فقال : سمحت لك، فهذا

صريح فى الطلاق عندهم ،وقد تقدم الكلام فى هذا الفصل مشبعا وأنه لا يسوغ أن يقبل تفسير من قال :لفلان على مال جليل ، أو عظيم ،بدانق أو درهم ،ونحو ذلك ، ولا سيما إن كان المقر من الأغنياء المكثرين أو الملوك .

وكذلك لو أوصى له بقوس فى محلة لا يعرفون إلا أقواس البندق أو الأقواس العربية أو أقواس الرجل .

أو حلف لا يشم الريحان فى محل لا يعرفون الريحان إلا هذا الفارسى .

أو حلف لا يركب دابة فى موضع عرفهم بلفظ الدابة الحمار أو الفرس .

أو حلف لا يأكل ثمرا فى بلد عرفهم فى الثمار نوع واحد منها لا يعرفون غيره .

أو حلف لا يلبس ثوبا فى بلد عرفهم فى الثياب القمص وحدها دون الأردية والأزر والجباب ونحوها ، تقيدت يمينه بذلك وحده فى جميع هذه الصور ، واختصت بعرفه دون موضوع اللفظ لغة أو فى عرف غيره ، بل لو قالت المرأة لزوجها الذى لا يعرف التكلم بالعربية ولا يفهمها : قل لى : أنت طالق ثلاثا ، وهو لا يعلم موضوع هذه الكلمة ، فقال لها ، لم تطلق قطعا فى حكم الله تعالى ورسوله ، وكذلك لو قال الرجل لآخر ، أنا عبدك ومملوكك ، على جهة الخضوع له كما يقوله الناس لم يستبح ملك رقبته بذلك ، ومن لم يراع المقاصد والنيات والعرف فى الكلام فإنه يلزمه أن يجوز له بيع هذا القائل وملك رقبته بمجرد هذا اللفظ .

وهذا باب عظيم يقع فيه المفتى الجاهل ، فيغر الناس ، ويكذب على الله ورسوله ، ويغير دينه ، ويحرم ما لم يحرمه الله ، ويوجب ما لم يوجبه الله ، والله المستعان .

يحرم على المفتى التحيل لمعصية الله

الفائدة الرابعة والأربعون :يحرم عليه إذا جاءته مسألة فيها تحيل على إسقاط واجب أو تحيل محرم أو مكر أو خداع أن يعين المستفتى فيها ، ويرشده إلى مطلوبه ، أو يفتيه بالظاهر الذى يتوصل به إلى مقصوده ، بل ينبغى له أن يكون بصيرا بمكر الناس وخداعهم وأحوالهم ، ولا ينبغى له أن يحسن الظن بهم ، بل يكون حذرا فطنا فقيها بأحوال الناس وأمورهم ، يؤازره فقهه فى الشرع ، وإن لم يكن كذلك زاغ وأزاغ ، وكم من مسألة ظاهرها ظاهر جميل ، وباطنها مكر وخداع وظلم ؟ فالغبى ينظر إلى ظاهرها ويقضى بجوازه ، وذو البصيرة يتفقد مقصدها وباطنها ، فالأول يروج عليه زغل المسائل كما يروج

على الجاهل بالنقد زغل الدراهم ، والثانى يخرج زيفها كما يخرج الناقد زيف النقود .

وكم من باطل يخرجه الرجل بحسن لفظه وتنميقه وإبرازه فى صورة حق ؟ وكم من حق يخرجه بتهجينه وسوء تعبيره فى صورة باطل ؟ ومن له أدنى فطنة وخبرة لا يخفى عليه ذلك ، بل هذا أغلب أحوال الناس ، ولكثرته وشهرته يستغنى عن الأمثلة . بل من تأمل المقالات الباطلة والبدع كلها وجدها قد أخرجها أصحابها فى قوالب مستحسنة وكسوها ألفاظا يقبلها بها من لم يعرف حقيقتها ولقد أحسن القائل :

تقول هذا جناء النحل تمدحه ... وإن تشأ قلت : ذا قيء الزنابير

مدحا وذما ، وما جاوزت وصفهما ... والحق قد يعتريه سوء تعبير

ورأى بعض الملوك كأن أسنانه قد سقطت ، فعبرها له معبر بموت أهله وأقاربه ، فأقصاه وطرده ، واستدعى آخر فقال له : لا عليك ، تكون أطول أهلك عمرا ، فأعطاه وأكرمه وقربه ، فاستوفى المعنى ، وغير له العبارة ، وأخرج المعنى فى قالب حسن .

والمقصود أنه لا يحل له أن يفتى بالحيل المحرمة ، ولا يعين عليها ، ولايدل عليها ، فيضاد الله فى أمره ، قال الله تعالى : ﴿ **وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤)** ﴾ [آل عمران] ، وقال تعالى : ﴿**وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١)** ﴾ [النمل] ، وقال تعالى: ﴿**يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩)**﴾ [البقرة] ، وقال تعالى : ﴿**وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠)** ﴾ [الأنفال] ، وقال تعالى: ﴿**وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ**﴾ [فاطر : ٤٣] ، وقال تعالى : ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ** ﴾ [النساء :١٤٢]، وقال تعالى : ﴿**وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (١٢٣)** ﴾ [الأنعام] ، وقال تعالى : ﴿**وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٦٦)**﴾ [البقرة] .

وفى صحيح مسلم عن النبى ﷺ أنه قال :« ملعون من ضار مسلما أو مكر به » (١).

وقال :« لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود ، فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل » (٢) .

---

(١) لم يعزه صاحب التحفة (٥ / ٣٠٤) إلا للترمذى (١٩٤١) فى البر والصلة ، باب : ما جاء فى الخيانة والغش ، وقال :« حديث غريب » وضعفه الألبانى .

(٢) ابن بطة فى إبطال الحيل ص٤٢ ، وصححه ابن كثير فى التفسير (٣ / ٤٩٣) .

وقال :« المكر والخديعة فى النار » [١] ، وفى سنن ابن ماجه وغيره عنه ﷺ :« ما بال أقوام يلعبون بحدود الله ،ويستهزئون بآياته ،طلقتك راجعتك ،طلقتك راجعتك ؟ » [٢].

وفى لفظ :« خلعتك راجعتك ، خلعتك راجعتك » [٣] .

وفى الصحيحين عنه ﷺ :« لعن الله اليهود ، حرمت عليهم الشحوم فجملوها وباعوها وأكلوا أثمانها » [٤] .

وقال أيوب السختيانى : يخادعون الله كما يخادعون الصبيان . وقال ابن عباس : من يخادع الله يخدعه . وقال بعض السلف: ثلاث من كن فيه كن عليه :المكر والبغى والنكث.

وقال تعالى :﴿ **وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ** ﴾ [فاطر : ٤٣] ،وقال تعالى :﴿ **إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم** ﴾ [يونس : ٢٣] ، وقال تعالى : ﴿ **فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ** ﴾ [الفتح : ١٠] . وقال الإمام أحمد : هذه الحيل التى وضعها هؤلاء ، عمدوا إلى السنن فاحتالوا فى نقضها أتوا إلى الذى قيل لهم: إنه حرام فاحتالوا فيه حتى حللوه . وقال : ما أخبثهم ! ـ يعنى أصحاب الحيل ـ يحتالون لنقض سنن رسول الله ﷺ . وقال : من احتال بحيلة فهو حانث . وقال : إذا حلف على شىء ثم احتال بحيلة فصار إليها فقد صار إلى الذى حلف عليه بعينه . حاجة إلى إعادته .

حكم أخذ المفتى أجرة أو هدية أو رزقا على الفتوى

الفائدة الخامسة والأربعون :فى أخذ الأجرة والهدية والرزق على الفتوى ، فيه ثلاث صور مختلفة السبب والحكم :

فأما أخذه الأجرة فلا يجوز له ؛ لأن الفتيا منصب تبليغ عن الله ورسوله ، فلا تجوز

---

(١) الكامل فى ضعفاء الرجال (٢ / ٥٨) ، والبيهقى فى الشعب (١١٢١٠) باب : فى أن يحب المسلم لأخيه ما يحب لنفسه ، وصححه الألبانى عن قيس بن سعد ، والحاكم فى المستدرك (٤ / ٦٠٧) فى الأهوال ، باب : المكر والخديعة والخيانة فى النار ، من حديث أنس بزيادة :« والخيانة » وسكت عنه هو والذهبى .

(٢) ابن ماجه (٢٠١٧) فى الطلاق ، باب : حدثنا سويد بن سعيد وفى الزوائد :« إسناده حسن ، مؤمل بن إسماعيل اختلف فيه » ، والبيهقى فى الكبرى (٧ / ٣٢٢) فى الخلع والطلاق ، باب : ما جاء فى كراهية الطلاق .

(٣) لم أقف عليه .

(٤) البخارى (٢٢٢٤) فى البيوع ، باب : لا يذاب شحم الميتة ولا يباع ودكه ، ومسلم (١٥٨٢ / ٧٢) فى المساقاة ، باب : تحريم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام .

المعارضة عليه ، كما لو قال له : لا أعلمك الإسلام أو الوضوء أو الصلاة إلا بأجرة ، أو سئل عن حلال أو حرام فقال للسائل : لا أجيبك عنه إلا بأجرة ، فهذا حرام قطعًا ، ويلزمه رد العوض ، ولا يملكه .

وقال بعض المتأخرين : إن أجاب بخطه فله أن يقول للسائل : لا يلزمنى أن أكتب لك خطى إلا بأجرة ، وله أخذ الأجرة ، وجعله بمنزلة أجرة الناسخ ؛ فإنه يأخذ الأجرة على خطه ، لا على جوابه ، وخطه قدر زائد على جوابه .

والصحيح خلاف ذلك ، وأنه يلزمه الجواب مجانًا لله بلفظه وخطه ، ولكن لا يلزمه الورق ولا الحبر .

وأما الهدية ففيها تفصيل ، فإن كانت بغير سبب الفتوى كمن عادته يهاديه أو من لا يعرف أنه مُفتٍ فلا بأس بقبولها ، والأولى أن يكافئ عليها ، وإن كانت بسبب الفتوى ، فإن كانت سببًا إلى أن يفتيه بما لا يفتى به غيره ممن لا يهدى له لم يجز له قبول هديته ، وإن كان لا فرق بينه وبين غيره عنده فى الفتيا ، بل يفتيه به الناس ، كره له قبول الهدية ؛ لأنها تشبه المعاوضة على الإفتاء .

وأما أخذ الرزق من بيت المال فإن كان محتاجًا إليه جاز له ذلك ، وإن كان غنيًا ففيه وجهان ، وهذا فرع متردد بين عامل الزكاة وعامل اليتيم فمن ألحقه بعامل الزكاة قال : النفع فيه عام ، فله الأخذ ، ومن ألحقه بعامل اليتيم منعه من الأخذ ، وحكم القاضى فى ذلك حكم المفتى ، بل القاضى أولى بالمنع والله أعلم .

الإفتاء فى الوقائع المتماثلة

الفائدة السادسة والأربعون : إذا أفتى فى واقعة ثم وقعت له مرة أخرى ، فإن ذكرها ، وذكر مستندها ولم يتجدد له ما يوجب تغير اجتهاده أفتى بها من غير نظر ولا اجتهاد ، وإن ذكرها ونسي مستندها فهل له أن يفتى بها دون تجديد نظر واجتهاد ؟ فيه وجهان لأصحاب الإمام أحمد والشافعى :

أحدهما : أن يلزمه تجديد النظر ؛ لاحتمال تغير اجتهاده وظهور ما كان خافيًا عنه .

والثانى : لا يلزمه تجديد النظر ؛ لأن الأصل بقاء ما كان على ما كان ، وإن ظهر له ما يغير اجتهاده لم يجز له البقاء على القول الأول ، ولا يجب عليه نقضه ، ولا يكون اختلافه مع نفسه قادحًا فى علمه ، بل هذا من كمال علمه وورعه ، ولأجل هذا خرج عن

الأئمة فى المسألة قولان فأكثر ، وسمعت شيخنا ـ رحمه الله تعالى يقول : حضرت عقد مجلس عند نائب السلطان فى وقف أفتى فيه قاضى البلد بجوابين مختلفين ، فقرأ جوابه الموافق للحق ، فأخرج بعض الحاضرين جوابه الأول ، وقال : هذا جوابك بضد هذا فكيف تكتب جوابين متناقضين فى واقعة واحدة ؟ فوجم الحاكم ، فقلت : هذا من علمه ودينه أفتى أولا بشىء ، ثم تبين له الصواب فرجع إليه ، كما يُفتى إمامه بقول ثم يتبين له خلافة فيرجع إليه ، ولا بقدح ذلك فى علمه ولا دينه ، وكذلك سائر الأئمة ، فسر القاضى بذلك وسرى عنه .

أخذ المفتى بالحديث

الفائدة السابعة والأربعون : قول الشافعى ـ رحمه الله تعالى : إذا وجدتم فى كتابى خلاف سنة رسول الله ﷺ فقولوا بسنة رسول الله ﷺ ودعوا ما قلته ، وكذلك قوله : إذا صح الحديث عن النبى ﷺ وقلت أنا قولا فأنا راجع عن قولى وقائل بذلك الحديث ، وقوله : إذا صح الحديث عن رسول الله ﷺ ، فاضربوا بقولى الحائط ، وقوله : إذا رويت حديثًا عن رسول الله ﷺ ولم أذهب إليه فاعلموا أن عقلى قد ذهب ، وغير ذلك من كلامه فى هذا المعنى صريح فى مدلوله ، وأن مذهبه ما دل عليه الحديث ، لا قول له غيره ، ولا يجوز أن ينسب إليه ما خالف الحديث ويقال : هذا مذهب الشافعى ، ولا يحل الإفتاء بما خالف الحديث على أنه مذهب الشافعى ، ولا الحكم به ، صرح بذلك جماعة من أئمة أتباعه ، حتى كان منهم من يقول للقارئ إذا قرأ عليه مسألة من كلامه : قد صح الحديث بخلافها ، اضرب على هذه المسألة فليست مذهبه .

وهذا هو الصواب قطعًا ، ولو لم ينص عليه ، فكيف إذا نص عليه وأبدى فيه وأعاد وصرح فيه بألفاظ كلها صريحة فى مدلولها ؟ فنحن نشهد بالله أن مذهبه وقوله الذى لا قول له سواه ما وافق الحديث ، دون ما خالفه وأن من نسب إليه خلافه فقد نسب إليه خلاف مذهبه ، ولا سيما إذا ذكر هو ذلك الحديث وأخبر أنه إنما خالفه لضعف فى سنده أو لعدم بلوغه له من وجه يثق به ، ثم ظهر للحديث سند صحيح لا مطعن فيه وصححه أئمة الحديث من وجوه لم تبلغه ، فهذا لا يشك عالم ولا يُمارى فى أنه مذهبه قطعًا ، وهذا كمسألة الجوائح ؛ فإنه عَلَّل حديث سفيان بن عُيينة بأنه كان ربما ترك ذكر الجوائح ، وقد صح الحديث من غير طريق سفيان صحة لا مرية فيها ولا علة ولا شُبهة بوجه ؛ فمذهب الشافعى وضع الجوائح ، وبالله التوفيق .

وقد صرح بعض أئمة الشافعية بأن مذهبه أن الصلاة الوسطى صلاة العصر وأن وقت المغرب يمتد إلى مغيب الشفق ، وأن من مات وعليه صيام صام عنه وليه ، وأن أكل لحوم الإبل ينقض الوضوء ، وهذا بخلاف الفطر بالحجامة ، وصلاة المأموم قاعداً إذا صلى إمامه كذلك ؛ فإن الحديث وإن صح فى ذلك فليس بمذهبه ، فإن الشافعى قد رواه وعرف صحته، ولكن خالفه ، لاعتقاده نسخه . وهذا شىء وذاك شىء ، ففى هذا القسم يقع النظر فى النَّسْخ وعدمه ، وفى الأول يقع النظر فى صحة الحديث وثقة السند ، فاعرفه .

هل للرجل أن يفتى بما عنده من كتب الحديث ؟

الفائدة الثامنة والأربعون : إذا كان عند الرجل الصحيحان أو أحدهما أو كتاب من سنن رسول الله ﷺ موثوق بما فيه ، فهل له أن يفتى بما يجده فيه ؟ فقالت طائفة من المتأخرين : ليس له ذلك ، لأنه قد يكون منسوخًا ، أو له معارض ، أو يفهم من دلالته خلاف ما يدل عليه ، أو يكون أمر ندب فيفهم منه الإيجاب يكون عامًا له مخصص ، أو مطلقًا له مقيد ، فلا يجوز له العمل ولا الفتيا به حتى يسأل أهل الفقه والفتيا .

وقالت طائفة : بل له أن يعمل به ، ويفتى به ، بل يتعين عليه ، كما كان الصحابة يفعلون ؛ إذا بلغهم الحديث عن رسول الله ﷺ وحدَّث به بعضهم بعضًا بادروا إلى العمل به من غير توقف ولا بحث عن معارض ، ولا يقول أحد منهم قط : هل عمل بهذا فلان وفلان ؟ ولو رأوا من يقول ذلك لأنكروا عليه أشد الإنكار ، وكذلك التابعون ، وهذا معلوم بالضرورة لمن له أدنى خبرة بحال القوم وسيرتهم ، وطول العهد بالسنة ، وبعد الزمان وعتقها لا يسوغ ترك الأخذ بها والعمل بغيرها ، ولو كانت سنن رسول الله ﷺ لا يسوغ العمل بها بعد صحتها حتى يعمل بها فلان أو فلان لكان قول فلان أو فلان عياراً على السنن ، ومُزكيًّا لها ، وشرطًا فى العمل بها ، وهذا من أبطل الباطل ، وقد أقام الله الحجة برسوله دون آحاد الأمة ،وقد أمر النبى ﷺ بتبليغ سننه ، ودعا لمن بَلَّغها ؛ فلو كان مَنْ بلغته لا يعمل بها حتى يعمل بها الإمام فلان والإمام فلان لم يكن فى تبليغها فائدة ، وحصل الاكتفاء بقول فلان وفلان.

قالوا : والنسخ الواقع فى الأحاديث الذى أجمعت عليه الأمة لا يبلغ عشرة أحاديث البتة بل ولا شطرها ؛ فتقدير وقوع الخطأ فى الذهاب إلى المنسوخ أقل بكثير من وقوع الخطأ فى تقليد من يصيب ويخطئ ،ويجوز عليه التناقض والاختلاف،ويقول القول ويرجع عنه، ويحكى عنه فى المسألة الواحدة عدة أقوال ، ووقع الخطأ فى فهم كلام المعصوم أقل بكثير

من وقوع الخطأ فى فهم كلام الفقيه المعين ؛ فلا يفرض احتمال خطأ لمن عمل بالحديث وأفتى به إلا وأضعاف أضعافه حاصل لمن أفتى بتقليد من لا يعلم خطؤه من صوابه .

والصواب فى هذه المسألة التفصيل ؛ فإن كانت دلالة الحديث ظاهرة بينة لكل من سمعه لا يحتمل غير المراد فله أن يعمل به ، ويفتى به ، ولا يطلب له التزكية من قول فقيه أو إمام ، بل الحجة قول رسول الله ﷺ وإن خالفه من خالفه ، وإن كانت دلالته خفية لا يتبين المراد منها لم يجز له أن يعمل ، ولا يفتى بما يتوهمه مرادًا حتى يسأل ويطلب بيان الحديث ووجه ، وإن كانت دلالته ظاهرة كالعام على أفراده ، والأمر على الوجوب ، والنهى على التحريم ؛ فهل له العمل والفتوى به ؟ يخرج على الأصل وهو العمل بالظواهر قبل البحث عن المعارض ، وفيه ثلاثة أقوال فى مذهب أحمد وغيره : الجواز ، والمنع ، والفرق بين العام والخاص فلا يعمل به قبل البحث عن المخصص ، والأمر والنهى فيعمل به قبل البحث عن المعارض ، وهذا كله إذا كان ثم نوع أهلية ولكنه قاصر فى معرفة الفروع وقواعد الأصوليين والعربية ، وإذا لم تكن ثمة أهلية قط ففرضه ما قال الله تعالى : ﴿**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾ [النحل : ٤٣ ، الأنبياء : ٧] .

وقول النبى ﷺ : « ألا سألوا إذا لم يعملوا ، إنما شفاء العى السؤال » (١) .

وإذا جاز اعتماد المستفتى على ما يكتبه المفتى من كلامه أو كلام شيخه وإن علا وصعد فمن كلام إمامه ؛ فلأن يجوز اعتماد الرجل على ما كتبه الثقات من كلام رسول الله ﷺ أولى بالجواز ، وإذا قدر أنه لم يفهم الحديث كما لو لم يفهم فتوى المفتى فيسأل من يعرفه معناه ، كما يسأل من يعرفه معنى جواب المفتى ، وبالله التوفيق .

هل للمنتسب إلى مذهب الإفتاء بغيره ؟

الفائدة التاسعة والأربعون : هل للمنتسب إلى تقليد إمام معين أن يفتى بقول غيره ؟ لا يخلو الحال من أمرين : إما أن يُسأل عن مذهب ذلك الإمام فقط فيقال له : ما مذهب الشافعى مثلا فى كذا وكذا ؟ أو يُسأل عن حكم الله الذى أداه إليه اجتهاد ؛ فإن سئل عن مذهب ذلك الإمام لم يكن له أن يخبره بغيره إلا على وجه الإضافة إليه ، وإن سئل عن

---

(١) أبو داود (٣٣٦) فى الطهارة ، باب: فى المجروح يتيمم ، والدارقطنى (١ / ١٨٩ ، ١٩٠) رقم (٣) فى الطهارة، باب : جواز التيمم لصاحب الجراح مع استعمال الماء وتعصيب الجرح ، والبيهقى فى الكبرى (١ / ٢٢٨) فى الطهارة باب : المسح على العصائب والجبائر ، وضعفه الألبانى .

حكم الله من غير أن يقصد السائل قول فقيه معين ؛ فهاهنا يحب عليه الإفتاء بما هو راجح عنده وأقرب إلى الكتاب والسنة من مذهب إمامه أو مذهب من خالفه ، لا يسعه غير ذلك، فإن لم يتمكن منه وخاف أن يؤدى إلى ترك الإفتاء فى تلك المسألة لم يكن له أن يفتى بما لا يعلم أنه صواب ؛ فكيف بما يغلب على ظنه أن الصواب فى خلافه ؟ ولا يسع الحاكم والمفتى غير هذا البتة ؛ فإن الله سائلهما عن رسوله وما جاء به ، لا عن الإمام المعين وما قاله، وإنما يُسأل الناس فى قبورهم ويوم معادهم عن الرسول الله ﷺ ؛ فيقال له فى قبره : ما كنت تقول فى هذا الرجل الذى بُعث فيكم ؟ ﴿ **وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥)** ﴾ [القصص] ،ولا يسأل أحد قط عن إمام ولا شيخ ولا متبوع غيره ، بل يسأل عمن اتبعه وائتم به غيره ، فلينظر بماذا يجيب ؟ وليعدَّ للجواب صوابًا .

وقد سمعت شيخنا ـ رحمه الله ـ يقول : جاءنى بعض الفقهاء من الحنفية فقال : أستشيرك فى أمر ، قلت : ما هو ؟ قال : أريد أن أنتقل عن مذهبى ، قلت له : ولم ؟ قال : لأنى أرى الأحاديث الصحيحة كثيراً تخالفه ، واستشرت فى هذا بعض أئمة أصحاب الشافعى فقال لى : لو رجعت عن مذهبك لم يرتفع ذلك من المذهب ، وقد تقررت المذاهب ، ورجوعك غير مفيد ، وأشار علىَّ بعض مشايخ التصوف بالافتقار إلى الله والتضرع إليه وسؤال الهداية لما يحبه ويرضاه ، فماذا تشير به أنت علىَّ ؟ قال : فقلت له : اجعل المذهب ثلاثة أقسام ، قسم الحقُّ فيه ظاهر بين موافق للكتاب والسنة فاقض به وأفت به طيب النفس منشرح الصدر ، وقسم مرجوح ومخالفه معه الدليل فلا تُفْتِ به ولا تحكم به وادفعه عنك ، وقسم من مسائل الاجتهاد التى الأدلة فيها متجاذبة ؛ فإن شئت أن تفتى به وإن شئت أن تدفعه عنك ، فقال : جزاك الله خيراً ، أو كما قال .

وقالت طائفة أخرى ـ منهم أبو عمرو بن الصلاح ، وأبو عبد الله بن حمدان : من وجد حديثًا يخالف مذهبه فإن كملت آلة الاجتهاد فيه مطلقًا أو فى مذهب إمامه أو فى ذلك النوع أو فى تلك المسألة فالعمل بذلك الحديث أولى ، وإن لم تكمل آلته ووجد فى قلبه حزازة من مخالفة الحديث بعد أن بحث فلم يجد لمخالفته عنده جوابًا شافيًا فلينظر : هل عمل بذلك الحديث إمام مستقل أم لا ؟ فإن وجده فله أن يتمذهب بمذهبه فى العمل بذلك الحديث ويكون ذلك عذراً له فى ترك مذهب إمامه فى ذلك ، والله أعلم .

هل للمفتى أن يفتى بمذهب غير مذهب إمامه ؟

الفائدة الخمسون : هل للمفتى المنتسب إلى مذهب إمام بعينه أن يفتى بمذهب غيره إذا ترجَّحَ عنده ؟ فإن كان سالكًا سبيل ذلك الإمام فى الاجتهاد ومتابعة الدليل أين كان ـ وهذا هو المتبع للإمام حقيقة ـ فله أن يفتى بما ترجح عنده من قول غيره ، وإن كان مجتهدًا متقيدًا بأقوال ذلك الإمام لا يعدوها إلى غيرها فقد قيل : ليس له أن يفتى بغير قول إمامه ، فإن أراد ذلك حكاه عن قائله حكاية محضة .

والصواب بأنه إذا ترجح عنده قول غير إمامه بدليل راجح فلا بد أن يخرج على أصول إمامه وقواعده ؛ فإن الأئمة متفقة على أصول الأحكام ، ومتى قال بعضهم قولا مرجوحًا فأصوله تردَّه وتقتضى القول الراجح ، فكل قول صحيح فهو يخرج على قواعد الأئمة بلا ريب ؛ فإذا تبين لهذا المجتهد المقيد رجحان هذا القول وصحة مأخذه خرج على قواعد إمامه فله أن يفتى به وبالله التوفيق .

وقد قال القفال : لو أدى اجتهادى إلى مذهب أبى حنيفة قلت : مذهب الشافعى كذا، لكنى أقول بمذهب أبى حنيفة ؛ لأن السائل إنما يسألنى عن مذهب الشافعى ؛ فلا بد أن أعرفه أن الذى أفتيته به غير مذهبه ، فسألت شيخنا ـ قدس الله روحه ـ عن ذلك ، فقال : أكثر المستفتين لا يخطر بقلبه مذهب معين عند الواقعة التى سأل عنها ، وإنما سؤاله عن حكمها وما يعمل به فيها ، فلا يسع المفتى أن يفتيه بما يعتقد الصواب فى خلافه .

ماذا يصنع المفتى إذا اعتدل قولان

الفائدة الحادية والخمسون : إذا اعتدل عند المفتى قولان ولم يترجح له أحدهما على الآخر ، فقال القاضى أبو يعلى :له أن يفتى بأيهما شاء ،كما يجوز له أن يعمل بأيهما شاء. وقيل : بل يخير المستفتى فيقول له : أنت مخير بينهما ؛ لأنه إنما يفتى بما يراه ، والذى يراه هو التخيير ، وقيل : بل يفتيه بالأحوط من القولين .

قلت : الأظهر أنه يتوقف ، ولا يفتيه بشىء حتى يتبين له الراجح منهما ؛ لأن أحدهما خطأ ، فليس له أن يفتيه بما لا يعلم أنه صواب ، وليس له أن يخيره بين الخطأ والصواب ، وهذا كما إذا تعارض عند الطبيب فى أمر المريض أمران خطأ وصواب ، ولم يتبين له أحدهما لم يكن له أن يقدم على أحدهما ، ولا يخيره ، وكما لو استشاره فى أمر،

فتعارض عنده الخطأ والصواب من غير ترجيح لم يكن له أن يشير بأحدهما ولا يخيره،وكما لو تعارض عنده طريقان مهلكة وموصلة ولم يتبين له طريق الصواب لم يكن له الإقدام ولا التخيير ، فمسائل الحلال والحرام أولى بالتوقف ، والله أعلم .

أتباع الائمة يفتون بما رجع عنه الأئمة من أقوال

الفائدة الثانية والخمسون : أتباع الأئمة يفتون كثيرا بأقوالهم القديمة التى رجعوا عنها ، وهذا موجود فى سائر الطوائف .

فالحنفية يفتون بلزوم المنذورات التى مخرجها مخرج اليمين كالحج والصوم والصدقة ، وقد حكوا هم عن أبى حنيفة أنه رجع قبل موته بثلاثة أيام إلى التكفير .

والحنابلة يفتى كثير منهم بوقوع طلاق السكران ، وقد صرح الإمام أحمد بالرجوع عنه إلى عدم الوقوع كما تقدم حكايته .

والشافعية يفتون بالقول القديم فى مسألة التثويب ، وامتداد وقت المغرب ومسألة التباعد عن النجاسة فى الماء الكثير ، وعدم استحباب قراءة السورة فى الركعتين الأخيرتين ، وغير ذلك من المسائل ، وهى أكثر من عشرين مسألة ومن المعلوم أن القول الذى صرح بالرجوع عنه لم يبق مذهبا له ، فإذا أفتى المفتى به مع نصه على خلافه لرجحانه عنده لم يخرجه ذلك عن التمذهب بمذهبه ، فما الذى يحرم عليه أن يفتى بقول غيره من الأئمة الأربعة وغيرهم إذا ترجح عنده .

فإن قيل : الأول قد كان مذهبا له مرة ، بخلاف ما لم يقل به قط .

قيل ، هذا فرق عديم التأثير ؛ إذ ما قال به وصرح بالرجوع عنه بمنزلة ما لم يقله ، وهذا كله مما يبين أن أهل العلم لا يتقيدون بالتقليد المحض الذى يهجرون لأجله قول كل من خالف من قلدوه .

وهذه طريقة ذميمة وخيمة ، حادثة فى الإسلام ، مستلزمة لأنواع من الخطأ ومخالفة الصواب ، والله أعلم .

على المفتى أن يلتزم النص فى الفتوى

الفائدة الثالثة والخمسون: يحرم على المفتى أن يفتى بضد لفظ النص وإن وافق مذهبه.

ومثاله : أن يسأل عن رجل صلى من الصبح ركعة ثم طلعت الشمس ، هل يتم صلاته أم لا ؟ فيقول : لا يتمها ، ورسول الله ﷺ يقول :« فليتم صلاته »(١) .

ومثل أن يسأل عمن مات وعليه صيام : هل يصوم عنه وليه ؟ فيقول : لا يصوم عنه وليه ، وصاحب الشرع ﷺ قال :« من مات وعليه صيام صام عنه وليه »(٢) .

ومثل أن يسأل عن رجل باع متاعه ثم أفلس المشترى فوجده بعينه ، هل هو أحق به ؟ فيقول : ليس أحق به ، وصاحب الشرع يقول :« فهو أحق به »(٣) .

ومثل أن يسأل عن رجل أكل فى رمضان أو شرب ناسيا ، هل يتم صومه ؟ فيقول : لا يتم صومه ، وصاحب الشرع يقول :« فليتم صومه »(٤) .

ومثل أن يسأل عن أكل كل ذى ناب من السباع ،هل هو حرام ؟ فيقول :ليس بحرام، ورسوله ﷺ يقول :« أكل كل ذى ناب من السباع حرام »(٥) .

ومثل أن يسأل عن الرجل : هل له منع جاره من غرز خشبة فى جداره ؟ فيقول : له أن يمنعه ، وصاحب الشرع يقول :« لا يمنعه »(٦) .

ومثل أن يسأل : هل تجزى صلاة من لا يقيم صلبه من ركوعه وسجوده ؟ فيقول :

---

(١) البخارى (٥٧٩) فى مواقيت الصلاة ، باب : من أدرك من الفجر ركعة ، ومسلم (٦٠٨ / ١٦٣) فى المساجد ومواضع الصلاة ، باب : من أدرك ركعة من الصلاة فقد أدرك تلك الصلاة ، والترمذى (١٨٦) فى الصلاة، باب : ما جاء فيمن أدرك ركعة من العصر قبل أن تغرب الشمس ، وابن ماجه (٦٩٩ ، ٧٠٠) فى الصلاة ، باب : وقت الصلاة فى العذر والضرورة .

(٢) البخارى (١٩٥٢) فى الصوم ، باب : من مات وعليه صوم ، ومسلم (١١٤٧ / ١٥٣) فى الصيام ، باب : قضاء الصيام عن الميت ، وأبو داود (٢٤٠٠) فى الصوم ، باب : فيمن مات وعليه صوم .

(٣) البخارى (٢٤٠٢) فى الاستقراض ، باب : إذا وجد ماله عند مفلس فى البيع والقرض والوديعة فهو أحق به ، ومسلم (١٥٥٩ / ٢٢) فى المساقاة ، باب : من أدرك ما باعه عند المشترى وقد أفلس فله الرجوع فيه ، وأبو داود (٣٥١٩) فى البيوع ، باب : فى الرجل يفلس فيجد الرجل متاعه بعينه عنده ، والترمذى (١٢٦٢) فى البيوع ، باب : ما جاء إذا أفلس للرجل غريم فيجد عنده متاعه ، والنسائى (٤٦٧٦) فى البيوع ، باب : الرجل يبتاع البيع فيفلس ويوجد المتاع بعينه ، وابن ماجه (٢٣٥٨) فى الأحكام ، باب : من وجد متاعه بعينه عند رجل قد أفلس ، وأحمد (٢ / ٢٢٨ ، ٢٥٨) .

(٤) البخارى (١٩٣٣) فى الصوم ، باب : الصائم إذا أكل أو شرب ناسيا .

(٥) النسائى (٤٣٢٤) فى الصيد والذبائح ، باب : تحريم أكل السباع ، وابن ماجه (٣٢٣٣) فى الصيد ، باب : أكل كل ذى ناب من السباع ، ومالك (٢ / ٤٩٦) رقم (١٣ ، ١٤) ، وأحمد ٢ / ٣٦ ، ٤١٨) .

(٦) البخارى (٢٤٦٣) فى المظالم ، باب : لا يمنع جار جاره أن يغرز خشبة فى جداره ، ومسلم (١٦٠٩ / ١٣٦) فى المساقاة ، باب : غررز الخشب فى جدار الجار ، وأبو داود (٣٦٣٤) فى الأقضية ، أبواب من القضاء ، وابن ماجه (٢٣٣٥) فى الأحكام ، باب : الرجل يضع خشبه على جدار جاره .

تجزيه صلاته ، وصاحب الشرع ، يقول :« لا تجزئ صلاة لا يقيم الرجل فيها صلبه بين ركوعه وسجوده »(١) .

أو يسأل عن الرجل يصلى خلف الصف وحده : هل له صلاة أم لا صلاة له ؟ وهل يؤمر بالإعادة ؟ فيقول : نعم له صلاة ، ولا يؤمر بالإعادة ، وقد قال صاحب الشرع :« لا صلاة له »(٢) ، وأمره بالإعادة .

أو يسأل :هل للرجل رخصة فى ترك الجماعة من غير عذر ؟ فيقول : نعم له رخصة، ورسول الله ﷺ يقول :« لا أجد لك رخصة »(٣) .

أو يسأل عن رجل أسلف رجلا ماله وباعه سلعة : هل يحل ذلك ؟ فيقول نعم يحل ذلك ، وصاحب الشرع يقول :« لا يحل سلف وبيع »(٤) .

ونظائر ذلك كثيرة جدا ، وقد كان السلف الطيب يشتد نكيرهم وغضبهم على من عارض حديث رسول الله ﷺ برأى أو قياس أو استحسان أو قول أحد من الناس كائنا من كان ، ويهجرون فاعل ذلك ، وينكرون على من يضرب له الأمثال ، ولا يسوغون غير الانقياد له والتسليم والتلقى بالسمع والطاعة ، ولا يخطر بقلوبهم التوقف فى قبوله حتى يشهد له عمل أو قياس أو يوافق قول فلان وفلان ، بل كانوا عاملين بقوله :﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ**﴾ [الأحزاب:٣٦]، وبقوله تعالى: ﴿ **فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** (٦٥) ﴾ [النساء] ،وبقوله تعالى : ﴿ **اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن**

(١) الترمذى (٢٦٥) فى الصلاة ، باب : ما جاء فيمن لا يقيم صلبه فى الركوع والسجود وقال :«حسن صحيح »، والنسائى (١٠٢٧) فى الافتتاح ، باب : إقامة الصلب فى الركوع ، وابن ماجة (٨٧٠) فى إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب : الركوع فى الصلاة .

(٢) أبو داود (٦٨٢) فى الصلاة ، باب :ما جاء الرجل يصلى وحده خلف الصف ،والترمذى (٢٣٠) فى الصلاة، باب : ما جاء فى الصلاة خلف الصف وحده ، وقال :« حسن »، وابن ماجه (١٠٠٣) فى إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب : صلاة الرجل خلف الصف وحده ، وفى الزوائد :« إسناده صحيح ، رجاله ثقات ، وأحمد (٤ /٢٣) .

(٣) مسلم (٦٥٣/ ٢٥٥) فى المسجد ومواضع الصلاة ، باب : يجب إتيان المسجد على من سمع النداء ، وأبو داود (٥٥٢) فى الصلاة ، باب: فى التشديد فى ترك الجماعة ، وابن ماجه (٧٩٢) فى المساجد والجماعات ، باب : التغليظ فى التخلف عن الجماعة .

(٤) أبو داود (٣٥٠٤) فى البيوع ، باب : فى الرجل يبيع ما ليس عنده ، والترمذى (١٢٣٤) فى البيوع ، باب : ما جاء فى كراهية بيع ما ليس عندك وقال :« حسن صحيح » ، والنسائى (٤٦٣٠) فى البيوع ، باب : شرطان فى بيع ، وأحمد (٢ / ١٧٥) .

رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ٣] ، وأمثالها ، فدفعنا إلى زمان إذا قيل لأحدهم : ثبت عن النبى ﷺ أنه قال كذا وكذا ،يقول:من قال هذا ؟ ويجعل هذا دفعا فى صدر الحديث أو يجعل جهله بالقائل به حجة له فى مخالفته وترك العمل به ، ولو نصح نفسه لعلم أن هذا الكلام من أعظم الباطل ،وأنه لا يحل له دفعه سنن رسول الله ﷺ بمثل هذا الجهل ، وأقبح من ذلك عذره فى جهله ؛ إذ يعتقد أن الإجماع منعقد على مخالفة تلك السنة ، وهذا سوء ظن بجماعة المسلمين ، إذ ينسبهم إلى اتفاقهم على مخالفة سنة رسول الله ﷺ، وأقبح من ذلك عذره فى دعوى هذا الإجماع ، وهو جهله وعدم علمه بمن قال بالحديث ، فعاد الأمر إلى تقديم جهله على السنة ، والله المستعان .

ولا يعرف إمام من أئمة الإسلام البتة قال : لا نعمل بحديث رسول الله ﷺ حتى نعرف من عمل به ، فإن جهل من بلغه الحديث من عمل به لم يحل له أن يعمل به كما يقوله هذا القائل .

لا يجوز إخراج النص عن ظاهره

الفائدة الرابعة والخمسون : إذا سئل عن تفسير آية من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ فليس له أن يخرجها عن ظاهرها بوجوه التأويلات الفاسدة لموافقة نحلته وهواه ، ومن فعل ذلك استحق المنع من الإفتاء والحجر عليه ، وهذا الذى ذكرناه هو الذى صرح به أئمة الإسلام قديما وحديثا .

قال أبو حاتم الرازى : حدثنى يونس بن عبد الأعلى قال : قال لى محمد بن إدريس الشافعى : الأصل قرآن أو سنة ، فإن لم يكن فقياس عليهما ، وإذا اتصل الحديث عن رسول الله ﷺ وصح الإسناد به فهو المنتهى ، والإجماع أكبر من الخبر الفرد ، والحديث على ظاهره ،وإذا احتمل المعانى فما أشبه منها ظاهره أولاها به ،فإذا تكافأت الأحاديث فأصحها إسنادا أولاها ، وليس المنقطع بشىء ، ما عدا منقطع سعيد بن المسيب ، ولا يقاس أصل على أصل ولا يقال لأصل : لم ؟ وكيف ؟ وإنما يقال للفرع : لم ؟ فإذا صح قياسه على الأصل صح وقامت به الحجة . رواه الأصم عن ابن أبى حاتم .

وقال أبو المعالى الجوينى فى الرسالة النظامية ، فى الأركان الإسلامية : ذهب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل ، وإجراء الظواهر على مواردها وتفويض معانيها إلى الرب تعالى ، والذى نرتضيه رأيا وندين الله به عقد اتباع سلف الأمة ؛ فالأولى :الاتباع ،

وترك الابتداع ، والدليل السمعى القاطع فى ذلك أن إجماع الأمة حجة متبعة ، وهو مستند معظم الشريعة ، ،قد درج صحب الرسول ﷺ ، ورضى عنهم على ترك التعرض لمعانيها ، ودرك ما فيها ، وهم صفوة الإسلام ، والمستقلون بأعباء الشريعة ، وكانوا لا يألون جهدا فى ضبط قواعد الملة والتواصى بحفظها ، وتعليم الناس ما يحتاجون إليه منها ، ولو كان تأويل هذه الظواهر مسوغا أو محتوما لأوشك أن يكون اهتمامهم بها فوق اهتمامهم بفروع الشريعة ،وإذا انصرم عصرهم وعصر التابعين لهم على الإضراب عن التأويل ، كان ذلك قاطعا بأنه الوجه المتبع ؛ فحق على ذى الدين أن يعتقد تنزيه البارى عن صفات المحدثين ، ولا يخوض فى تأويل المشكلات ، ويكل معناها إلى الرب تعالى . وعند إمام القراء وسيدهم الوقوف على قوله تعالى: ﴿ **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهِ** ﴾ ومن العزائم ثم الابتداء بقوله: ﴿**وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ** ﴾ [آل عمران : ٧] .

ومما استحسن من كلام مالك أنه سئل عن قوله تعالى :﴿ **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى** ﴾ [طه:٥] ، كيف استوى ؟ فقال : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب،والسؤال عنه بدعة ،فلتجر آية الاستواء والمجىء ،وقوله :﴿ **لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ** ﴾ [ص: ٧٥] ، وقوله :﴿ **وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ** ﴾ [الرحمن: ٢٧] ،وقوله:﴿ **تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا** ﴾ [القمر: ١٤] ، وما صح من أخبار الرسول كخبر النزول [(١)] وغيره على ما ذكرنا . انتهى كلامه .

وقال أبو حامد الغزالى : الصواب للخلف سلوك مسلك السلف فى الإيمان المرسل والتصديق المجمل ، وما قاله الله ورسوله ، بلا بحث وتفتيش .

وقال فى كتاب التفرقة : الحق : الاتباع والكف عن تغيير الظاهر رأسا ، والحذر عن اتباع تأويلات لم يصرح بها الصحابة ، وحسم باب السؤال رأسا ، والزجر عن الخوض فى الكلام والبحث .

إلى أن قال : ومن الناس من يبادر إلى التأويل ظنا لا قطعا ، فإن كان فتح هذا الباب والتصريح به يؤدى إلى تشويش قلوب العوام بدع صاحبه ،وكل ما لم يؤثر عن السلف ذكره وما يتعلق من هذا الجنس بأصول العقائد المهمة فيجب تكفير من يغير الظواهر بغير برهان قاطع .

---

(١) البخارى (٧٤٩٤) فى التوحيد ، باب : قول الله تعالى:﴿ **يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ** ﴾ [الفتح : ١٥] ، ومسلم (٧٥٨ / ١٦٨) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب:الترغيب فى الدعاء والذكر فى آخر الليل والإجابة فيه ، وأبو داود (١٣١٥) فى الصلاة ، باب :أى الليل أفضل ؟ ، والترمذى (٤٤٦) فى الصلاة ، باب: ما جاء فى نزول الرب عز وجل إلى السماء الدنيا كل ليلة

وقال أيضا : كل ما يحتمل التأويل فى نفسه ، وتواتر نقله ، ولم يتصور أن يقوم على خلافه برهان ، فمخالفته تكذيب محض ، وما تطرق إليه احتمال تأويل ولو بمجاز بعيد ، فإن كان برهانه قاطعا وجب القول به ، وإن كان البرهان يفيد ظنا غالبا ، ولا يعظم ضرره فى الدين فهو بدعة ، وإن عظم ضرره فى الدين فهو كفر .

قال : ولم تجر عادة السلف بهذه المجادلات ، بل شددوا القول على من يخوض فى الكلام ، ويشتغل بالبحث والسؤال .

وقال أيضا : الإيمان المستفاد من الكلام ضعيف ، والإيمان الراسخ إيمان العوام الحاصل فى قلوبهم فى الصبا بتواتر السماع ، وبعد البلوغ بقرائن يتعذر التعبير عنها .

قال : وقال شيخنا أبو المعالى : يحرص الإمام ما أمكنه على جمع عامة الخلق على سلوك سبيل السلف فى ذلك . انتهى .

وقال بعض أهل العلم : كيف لا يخشى الكذب على الله ورسوله من يحمل كلامه على التأويلات المستنكرة والمجازات المستكرهة التى هى بالألغاز والأحاجى أولى منها بالبيان والهداية ؟ وهل يأمن على نفسه أن يكون ممن قال الله فيهم : ﴿ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٨] قال الحسن : هى والله لكل واصف كذبا إلى يوم القيامة ، وهل يأمن أن يتناوله قوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٥٢] قال ابن عيينة : هى لكل مفتر من هذه الأمة إلى يوم القيامة ، وقد نزه ـ سبحانه ـ نفسه عن كل ما يصفه به خلقه إلا المرسلين فإنهم إنما يصفونه بما أذن لهم أن يصفوه به ؛ فقال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصفات] ، وقال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [الصافات] .

ويكفى المتأولين كلام الله ورسوله بالتأويلات التى لم يردها ولم يدل عليها كلام الله أنهم قالوا برأيهم على الله ، وقدموا آراءهم على نصوص الوحى ، وجعلوها عيارا على كلام الله ورسوله ، ولو علموا أى باب شر فتحوا على الأمة بالتأويلات الفاسدة ، وأى بناء للإسلام هدموا بها ، وأى معاقل وحصون استباحوها لكان أحدهم أن يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتعاطى شيئا من ذلك ، فكل صاحب باطل قد جعل ما تأوله المتأولون عذرا له فيما تأوله هو ، وقال : ما الذى حرم على التأويل وأباحه لكم ؟ فتأولت الطائفة المنكرة للمعاد نصوص المعاد ، وكان تأويلهم من جنس تأويل منكرى الصفات ، بل أقوى منه لوجوه عديدة يعرفها من وازن بين التأويلين ، وقالوا : كيف نحن نعاقب على

تأويلنا ، وتؤجرون أنتم على تأويلكم ؟

قالوا : ونصوص الوحى بالصفات أظهر وأكثر من نصوصه بالمعاد ، ودلالة النصوص عليها أبين فكيف يسوغ تأويلها بما يخالف ظاهرها ولا يسوغ لنا تأويل نصوص المعاد ؟ وكذلك فعلت الرافضة فى أحاديث فضائل الخلفاء الراشدين وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم ، وكذلك فعلت المعتزلة فى تأويل أحاديث الرؤية والشفاعة ، وكذلك القدرية فى نصوص القدر ، وكذلك الحرورية وغيرهم من الخوارج فى النصوص التى تخالف مذاهبهم ، وكذلك القرامطة والباطنية طردت الباب ، وطمت الوادى على القرى [1] ، وتأولت الدين كله ، فأصل خراب الدين والدنيا إنما هو من التأويل الذى لم يرده الله ورسوله بكلامه ولا دل عليه أنه مراده ، وهل اختلفت الأمم على أنبيائهم إلا بالتأويل ؟ وهل وقعت فى الأمه فتنة كبيرة أو صغيرة إلا بالتأويل ؟ فمن بابه دخل إليها ، وهل أريقت دماء المسلمين فى الفتن إلا بالتأويل ؟[2] .

لا يجوز العمل بمجرد فتوى المفتى

الفائدة السادسة والخمسون : لا يجوز العمل بمجرد فتوى المفتى إذا لم تطمئن نفسه ، وحاك فى صدره من قبوله ، وتردد فيها ، لقوله ﷺ :« استفت نفسك وإن أفتاك الناس وأفتوك » [3] . فيجب عليه أن يستفتى نفسه أولا ، ولا تخلصه فتوى المفتى من الله إذا كان يعلم أن الأمر فى الباطن بخلاف ما أفتاه،كما لا ينفعه قضاء القاضى له بذلك ،كما قال النبى ﷺ :« من قضيت له بشىء من حق أخيه فلا يأخذه،فإنما أقطع له قطعة من نار»[4] .

والمفتى والقاضى فى هذا سواء ، ولا يظن المستفتى أن مجرد فتوى الفقيه تبيح له ما سأل عنه إذا كان يعلم أن الأمر بخلافه فى الباطن . سواء تردد أو حاك فى صدره ، لعلمه بالحال فى الباطن ، أو لشكه فيه ، أو لجهله به ، أو لعلمه جهل المفتى أو محاباته فى فتواه أو عدم تقييده بالكتاب والسنة أو لأنه معروف بالفتوى بالحيل والرخص المخالفة للسنة وغير ذلك من الأسباب المانعة من الثقة بفتواه وسكون النفس إليها ؛ فإن كان عدم الثقة

(١) طم الماء: غمر ، وطم الإناء :ملأه ، والقرى كغنى :مسيل الماء من التلاع أو موقعه من الربو إلى الروضة .
(٢) إعلام الموقعين (٤ / ٢٦٠ ـ ٣١٧) .
(٣) سبق تخريجه ص ٨٤ .
(٤) مسلم (١٧١٣ / ٤) فى الأقضية ، باب : الحكم بالظاهر واللحن بالحجة ، وأبو داود (٣٥٨٣) فى الأقضية ، باب : فى قضاء القاضى إذا أخطأ ، ومالك ٢ / ٧١٩ (١) فى الأقضية ، باب : الترغيب فى القضاء بالحق .

والطمأنينة لأجل المفتى يسأل ثانيا وثالثا حتى تحصل له الطمأنينة ؛ فإن لم يجد فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، والواجب تقوى الله بحسب الاستطاعة .

فإن كان فى البلد مفتيان أحدهما أعلم من الآخر ، فهل يجوز استفتاء المفضول مع وجود الفاضل ؟ فيه قولان للفقهاء ، وهما وجهان لأصحاب الشافعى وأحمد ؛ فمن جوز ذلك رأى أنه يقبل قوله إذا كان وحده ، فوجود من هو أفضل منه لا يمنع من قبول قوله كالشاهد ، ومن منع استفتاءه قال : المقصود حصول ما يغلب على الظن الإصابة ، وغلبة الظن بفتوى الأعلم أقوى فيتعين ، والحق التفصيل بأن المفضول إن ترجح بديانة أو ورع أو تحر للصواب ، وعدم ذلك الفاضل ، فاستفتاء المفضول جائز إن لم يتعين ، وإن استويا ، فاستفتاء الأعلم أولى ، والله أعلم .

للمفتى إقامة ترجمان

الفائدة السابعة والخمسون : إذا لم يعرف المفتى لسان السائل ، أو لم يعرف المستفتى لسان المفتى ، أجزأ ترجمة واحد بينهما ؛ لأنه خبر محض فيكتفى فيه بواحد كأخبار الديانات والطب ، وطرد هذا الاكتفاء بترجمة الواحد فى الجرح والتعديل ، والرسالة ، والدعوى ، والإقرار ، والإنكار بين يدى الحاكم ، والتعريف ،فى إحدى الروايتين ، وهى مذهب أبى حنيفة ، واختارها أبو بكر إجراء لها مجرى الخبر ، والرواية الثانية لا يقبل فى هذه المواضع أقل من اثنين ، إجراء لها مجرى الشهادة ، وسلوكا بها سبيلها ؛ لأنها تثبت الإقرار عند الحاكم ، وتثبت عدالة الشهود وجرحهم ، فافتقرت إلى العدد ، كما لو شهد على إقراره شاهد واحد ؛ فإنه لا يكتفى به ، وهذا بخلاف ترجمة الفتوى والسؤال ؛ فإنه خبر محض ، فافترقا .

موقف المفتى من سؤال يحتمل عدة صور

الفائدة الثامنة والخمسون : إذا كان السؤال محتملا لصور عديدة ؛ فإن لم يعلم المفتى الصورة المسؤول عنها لم يجب عن صورة واحده منها ، وإن علم الصورة المسؤول عنها فله أن يخصها بالجواب ، ولكن يقيد لئلا يتوهم أن الجواب عن غيرها فيقول : إن كان الأمر كيت وكيت ، أو كان المسؤول عنه كذا وكذا ؛ فالجواب كذا وكذا ، وله أن يفرد كل صورة بجواب ؛فيفصل الأقسام المحتملة ،ويذكر حكم كل قسم ،ومنع بعضهم من ذلك لوجهين:

أحدهما : أنه ذريعة إلى تعليم الحيل ، وفتح باب لدخول المستفتى وخروجه من حيث شاء.

الثاني: أنه سبب لازدحام أحكام تلك الأقسام على فهم العامىٍّ فيضيع مقصوده .

والحق التفصيل ؛ فيكره حيث استلزم ذلك ولا يكره ـ بل يستحب ـ إذا كان فيه زيادة إيضاح وبيان وإزالة لبس ، وقد فصل النبى ﷺ فى كثير من أجوبته بقوله : إن كان كذا فالأمر كذا ، كقوله فى الذى وقع على جارية امرأته ، إن كان استكرهها فهى حرة ، وعليه لسيدتها مثلها،وإن كانت مطاوعة فهى له،وعليه لسيدتها مثلها (١)،وهذا كثير فى فتاويه ﷺ.

يجب على المفتى الاحتراز مما يفسد جوابه

الفائدة التاسعة والخمسون : وهى مما ينبغى التفطن له : إن رأى المفتى خلال السطور بياضًا يحتمل أن يُلحق به ما يفسد الجواب فليحترز منه ، فربما دخل من ذلك عليه مكروه ، فإما أن يأمر بكتابة غير الورقة ، وإما أن يخط على البياض أو يشغله ، كما يحترز منه كتاب الوثائق ، والمكاتيب .

وبالجملة فليكن حذرًا فطنًا ، ولا يحسن ظنه بكل أحد ، وهذا الذى حمل بعض المفتين على أنه كان يقيد السؤال عنده فى ورقة ثم يجيب فى ورقة السائل ، ومنهم من كان يكتب السؤال فى ورقة من عنده ثم يكتب الجواب ، وليس شىء من ذلك بلازم ، والاعتماد على قرائن الأحوال ومعرفة الواقع والعادة .

ينبغى للمفتى مشاورة من وثق بعلمه ودينه

الفائدة الستون : إن كان عنده من يثق بعلمه ودينه فينبغى له أن يشاوره ، ولا يستقل بالجواب ، ذهابًا بنفسه وارتفاعًا بها ، أن يستعين على الفتاوى بغيره من أهل العلم ،و هذا من الجهل ، فقد أثنى الله ـ سبحانه ـ على المؤمنين بأن أمرهم شورى بينهم ، وقال تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] ، وقد كات المسألة تنزل بعمر بن الخطاب رضي الله عنه فيستشير لها من حضر من الصحابة ، وربما جمعهم وشاورهم ، حتى كان يشاور ابن عباس رضي الله عنهما وهو إذ ذاك أحدث القوم سنًا ، وكان يشاور عليًا ـ كرم الله وجهه ـ وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم ـ رضى الله عنهم أجمعين ـ ولا سيما إذا قصد بذلك تمرين أصحابه وتعليمهم ، وشحذ أذهانهم .

(١) سبق تخريجه ص ٧٠ .

قال البخارى فى صحيحه : باب إلقاء العالم المسألة على أصحابه ، وأولى ما ألقى عليهم المسألة سئل عنها ، هذا ما لم يعارض ذلك مفسدة من إفشاء سر السائل أو تعريضه للأذى ، أو مفسدة لبعض الحاضرين ، فلا ينبغى له أن يرتكب ذلك ، وكذلك الحكم فى عابر الرؤيا ، فالمفتى والمعبر والطبيب يطَّلعون من أسرار الناس وعوراتهم على ما لا يطلع غيرهم ؛ فعليهم استعمال الستر فيما لا يحسن إظهاره .

إكثار التوسل بحديث الاستخارة والدعاء عند الهم بالفتوى

الفائدة الحادية والستون: حقيق بالمفتى أن يكثر الدعاء بالحديث الصحيح « اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم » (١) .

وكان شيخنا كثير الدعاء بذلك ، وكان إذا أشكلت عليه المسائل يقول يا مُعَلم إبراهيم، علِّمنى ، ويكثر الاستعانة بذلك اقتداء بمعاذ بن جبل ﷺ قال لمالك بن يخامر السكْسكىِّ عند موته ، وقد رآه يبكى ، فقال :والله ما أبكى على دنيا كنتُ أصيبها منك ، ولكن أبكى على العلم والإيمان اللذين كنت أتعلمهما منك ، فقال معاذ بن جبل ﷺ :إن العلم والإيمان مكانهما ، من ابتغاهما وجدهما ، اطلب العلم عند أربعة : عند عويمر أبى الدرداء، وعند عبد الله بن مسعود ، وأبى موسى الأشعرى ، وذكر الرابع ، فإن عجز عنه هؤلاء فسائر أهل الأرض عنه أعجز ، فعليك بمعلِّم إبراهيم ـ صلوات الله عليه .

وكان بعض السلف يقول عند الإفتاء : سبحانك لاعلم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم .

وكان مكحول يقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، وكان مالك يقول : ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وكان بعضهم يقول : ﴿ **رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾** ﴾ [طه] ،وكان بعضهم يقول: اللهم

---

(١) مسلم (٧٧٠ / ٢٠٠) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب : الدعاء فى صلاة الليل وقيامه ، وأبو داود (٧٦٧) فى الصلاة، باب : ما يستفتح به الصلاة من الدعاء ، والترمذى (٣٤٢٠) فى الدعوات ، باب : ما جاء فى الدعاء عند افتتاح الصلاة بالليل ، والنسائى (١٦٢٥) فى قيام الليل وتطوع النهار ، باب : بأى شىء تستفتح صلاة الليل، وابن ماجه (١٣٥٧) فى إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: فى الدعاء إذا قام الرجل من الليل .

وفقنى واهدنى وسدِّدْنى،واجمع لى بين الصواب والثواب ، وأعِذنى من الخطأ والحرمان . وكان بعضهم يقرأ الفاتحة وجربنا نحن ذلك فرأيناه من أقوى أسباب الإصابة .

والمعوَّل فى ذلك كله على حسن النية،وخلوص القصد ،وصدق التوجه فى الاستمداد من المعلم الأول معلم الرسل والأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ فإنه لا يرد من صدق فى التوجه إليه لتبيلغ دينه وإرشاد عبيده ونصيحتهم والتخلص من القول عليه بلا علم ، فإذا صدقت نيته ورغبته فى ذلك لم يعدم أجرًا إن فاته أجران ، والله المستعان .

وسئل الإمام أحمد ،فقيل له : ربما اشتد علينا الأمر من جهتك ، فلمن نسأل بعدك ؟ فقال : سلوا عبد الوهاب الوراق ، فإنه أهل أن يوفق للصواب .

واقتدى الإمام أحمد بقول عمر بن الخطاب ﷺ : اقتربوا من أفواه المطيعين واسمعوا منهم ما يقولون ؛ فإنهم تجلى لهم أمور صادقة ، وذلك لقرب قلوبهم من الله ،وكلما قرب من الله زالت عليه معارضات السوء ،وكان نور كشفه للحق أتم وأقوى ، وكلما بعد عن الله كثرت عليه المعارضات ، وضعف نور كشفه للصواب ؛ فإن العلم نور يقذفه الله فى القلب ، يفرق به العبد بين الخطأ والصواب .

وقال مالك للشافعى ﷺ فى أول ما لقيه : إنى أرى الله قد ألقى على قلبك نورًا ، فلا تطفئه بظلمة المعصية ، وقد قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا** ﴾ [الأنفال : ٢٩] ،ومن الفرقان النور الذى يفرق به العبد بين الحق والباطل ، وكلما كان قلبه أقرب إلى الله كان فرقانه أتم ، وبالله التوفيق .

لا يجوز الإمساك عن الفتوى التى تخالف غرض السائل

الفائدة الثانية الستون: قد تكرر لكثير من أهل الإفتاء الإمساك عما يفتون به مما يعلمون أنه الحق إذا خالف غرض السائل ولم يوافقه ، وكثير منهم يسأله عن غرضه ، فإن صادفه عنده كتب له ، وإلا دله على مفت أو مذهب يكون غرضه عنده ، وهذا غير جائز على الإطلاق ، بل لابد فيه من تفصيل ، فإن كان المسؤول عنه من مسائل العلم والسنة أو من المسائل العلميات التى فيها نص عن رسول الله ﷺ لم يسع المفتى تركه إلى غرض السائل ، بل لا يسعه توقفه فى الإفتاء به على غرض السائل ، بل ذلك إثم عظيم ، وكيف يسعه من الله أن يُقدِّم غرض السائل على الله ورسوله .

وإن كانت المسألة من المسائل الاجتهادية التى يتجاذب أعنتها الأقوال والأقيسة ، فإن لم

يترجح له قول منها لم يسع له أن يترجح لغرض السائل ، وإن ترجح له قول منها وظن أنه الحق فأولى بذلك ؛ فإن السائل إنما يسأل عما يلزمه فى الحكم ويسعه عند الله ، فإن عرفه المفتى أفتاه به ، سواء وافق غرضه أو خالفه ، ولا يسعه ذلك أيضًا إذا علم أن السائل يدور على من يفتيه بغرضه فى تلك المسألة ، فيجعل استفتاءه تنفيذًا لغرضه ، لا تعبدًا لله بأداء حقه ، ولا يسعه أن يدله على غرضه أين كان ، بل ولا يجب عليه أن يفتى هذا الضرب من الناس ؛ فإنهم لا يستفتون ديانة ، وإنما يستفتون توصلا إلى حصول أغراضهم بأى طريق اتفق ، فلا يجب على المفتى مساعدتهم ؛ فإنهم لا يريدون الحق ، بل يريدون أغراضهم بأى طريق وافق ، ولهذا إذا وجدوا أغراضهم فى أى مذهب اتفق اتبعوه فى ذلك الموضع وتمذهبوا به ، كما يفعله أرباب الخصومات بالدعاوى عند الحكام ، ولا يقصد أحدهم حاكمًا بعينه ، بل أى حاكم نفذ غرضه عنده صار إليه .

وقال شيخنا ـ رحمه الله ـ مرة : أنا مخير بين إفتاء هؤلاء وتركهم ؛ فإنهم لا يستفتون للدين ، بل لوصولهم إلى أغراضهم حيث كانت ،ولو وجدوها عند غيرى لم يجيؤوا إلى، بخلاف من يسأل عن دينه ، وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ فى حق من جاءه يتحاكم إليه لأجل غرضه لا لالتزامه لنبيه ﷺ من أهل الكتاب : ﴿ **فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا** ﴾ [المائدة : ٤٣] ،فهؤلاء لما لم يلتزموا دينه لم يلزمه الحكم بينهم ، والله تعالى أعلم .

على المفتى ذكر الفتوى مع دليلها

الفائدة الثالثة والستون: عاب بعض الناس ذكر الاستدلال فى الفتوى ؛ وهذا العيب أولى بالعيب بل جمال الفتوى وروحها هو الدليل فكيف يكون ذكر كلام الله ورسوله وإجماع المسلمين وأقوال الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ والقياس الصحيح عيبًا ؟ وهل ذكر قول الله ورسوله إلا طراز الفتاوى ؟ وقول المفتى ليس بموجب للأخذ به ، فإذا ذكر الدليل فقد حرم على المستفتى أن يخالفه ، وبرئ هو من عهدة الفتوى بلا علم .

وقد كان رسول الله ﷺ يسأل عن المسألة فيضرب لها الأمثال ويشبهها بنظائرها ، هذا وقوله وحده حجة ، فما الظن بمن ليس قوله بحجة ولا يجب الأخذ به ؟ وأحسن أحواله وأعلاها أن يسوغ له قبول قوله ، وهيهات أن يسوغ بلا حجة ، وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا سئل أحدهم عن مسألة أفتى بالحجة نفسها ، فيقول : قال الله كذا ، وقال

رسول الله ﷺ كذا ، أو فعل كذا ، فيشفى السائل ، ويبلغ القائل ، وهذا كثير جدًا فى فتاويهم لمن تأملها ، ثم جاء التابعون والأئمة بعدهم فكان أحدهم يذكر الحكم ثم يستدل عليه ، وعلمه يأبى أن يتكلم بلا حجة ، والسائل يأبى قبول قوله بلا دليل .

ثم طال الأمد ، وبعد العهد بالعلم ، وتقاصرت الهمم إلى أن صار بعضهم يجيب بنعم أو لا فقط ،ولا يذكر للجواب دليلا ولا مأخذًا ، ويعترف بقصوره وفضل من يفتى بالدليل، ثم نزلنا درجة أخرى إلى أن وصلت الفتوى إلى عيب من يفتى بالدليل وذمه ، ولعله أن يحدث للناس طبقة أخرى لا يدرى ما حالهم فى الفتوى ، والله المستعان .

هل يجوز للمفتى تقليد الميت ؟

الفائدة الرابعة الستون: هل يجوز للمفتى تقليد الميت إذا علم عدالته ، وأنه مات عليها من غير أن يسأل الحى ؟ فيه وجهان لأصحاب أحمد والشافعى ، أصحهما له ذلك ؛ فإن المذاهب لا تبطل بموت أصحابها ، ولو بطلت بموتهم لبطل ما بأيدى الناس من الفقه عن أئمتهم ،ولم يسغ لهم تقليدهم والعمل بأقولهم ، وأيضًا لو بطلت أقوالهم بموتهم لم يعتد بهم فى الإجماع والنزاع ، ولهذا لو شهد الشاهدان ثم ماتا بعد الأداء وقبل الحكم بشهادتهما لم تبطل شهادتهما ، وكذلك الراوى لا تبطل روايته بموته و فكذلك المفتى لا تبطل فتواه بموته ، ومن قال تبطل فتواه بموته قال : أهليته زالت بموته ،ولو عاش لوجب عليه تجديد الاجتهاد ؛ ولأنه قد يتغير اجتهاده ، وممن حكى الوجهين فى المفتى أبو الخطاب فقال : إن مات المفتى قبل عمل المستفتى فله العمل بها ، وقيل : لا يعمل بها ، والله أعلم .

هل يستفتى فى الوقعات المتكررة

الفائدة الخامسة والستون: إذا استفتاه عن حكم حادثة فأفتاه وعمل بقوله ثم وقعت له مرة ثانية ، فهل له أن يعمل بتلك الفتوى الأولى أم يلزمه الاستفتاء مرة ثانية ؟ فيه وجهان لأصحاب أحمد والشافعى ، فمن لم يلزمه بذلك قال : الأصل بقاء ما كان على ما كان ؛ فله أن يعمل بالفتوى وإن أمكن تغير اجتهاده ؛ كما أن له أن يعمل بها مدة من وقت الإفتاء؛ وإن جاز تغير اجتهاده. ومن منعه من ذلك قال : ليس على ثقة من بقاء المفتى على اجتهاده الأول ، فلعله أن يرجع عنه فيكون المستفتى قد عمل بما هو خطأ عند من استفتاه ،

ولهذا رجح بعضهم العمل بقول الميت على قول الحى ، واحتجوا بقول ابن مسعود : من كان منكم مُستنًا فليستَنَّ بمن قد مات ، فإن الحى لا تؤمن عليه الفتنة .

هل يلزم المستفتى البحث عن الأعلم ؟

الفائدة السادسة والستون: هل يلزم المستفتى أن يجتهد فى أعيان المفتين ويسأل الأعلم والأدين أم لا يلزمه ذلك ؟ فيه مذهبان والصحيح أنه يلزمه ؛ لأنه المستطاع من تقوى الله تعالى المأمور بها كل أحد .

الحكم إذا أفتاه مفتيان

الفائدة السابعة والستون: فإن اختلفت عليه مفتيان فأكثر ، فهل يأخذ بأغلظ الأقوال ، أو بأخفها ، أو يتخير ، أو يأخذ بقول الأعلم أو الأورع ، أو يعدل إلى مفت آخر ، فينظر من يوافق من الأولين فيعمل بالفتوى التى يوقع عليها ،أو يجب عليه أن يتحرى ويبحث عن الراجح بحسبه ؟ فيه سبعة مذاهب أرجحها السابع ؛ فيعمل كما يعمل عند اختلاف الطريقين أو الطبيبين أو المشيرين وبالله التوفيق .

هل فتوى المفتى موجبة ؟

الفائدة الثامنة والستون: إذا استفتى فأفتاه المفتى ، فهل تصير فتواه موجبة على المستفتى العمل بها بحيث يكون عاصيًا إن لم يعمل بها أو لا يوجب عليه العمل ؟ فيه أربعة أوجه لأصحابنا وغيرهم :

أحدها : أنه لا يلزمه العمل بها إلا أن يلتزمه هو .

والثانى : أنه يلزمه إذا شرع فى العمل ؛ فلا يجوز له حينئذ الترك .

والثالث : أنه إن وقع فى قلبه صحة فتواه وأنها حق لزمه العمل بها .

والرابع : أنه إذا لم يجد مفتيًا آخر لزمه الأخذ بفتياه ؛ فإن فرضه التقليد وتقوى الله ما استطاع ، وهذا هو المستطاع فى حقه ، وهو غاية ما يقدر عليه ، وإن وجد مفتيًا آخر فإن وافق الأول فأبلغ فى لزوم العمل ، وإن خالفه فإن استبان له الحق فى إحدى الجهتين

لزمه العمل به ، وإن لم يستبن له الصواب فهل يتوقف ، أو يأخذ بالأحوط ، أو يتخير ، أو يأخذ بالأسهل ؟ فيه وجوه تقدمت [١] .

يجوز العمل بالفتوى المكتوبة وإن لم يسمعها

الفائدة التاسعة والستون: يجوز له العمل بخط المفتى وإن لم يسمع الفتوى من لفظه إذا عرف أنه خطه أو أعلمه به من يسكن إلى قوله ، ويجوز له قبول قول الرسول : إن هذا خطه وإن كان عبدًا أو امرأة أو صبياً أو فاسقًا ، كما يقبل قوله فى الهدية والإذن فى دخول الدار اعتماداً على القرائن والعرف ، وكذا يجوز اعتماد الرجل على ما يجده من كتابة الوقف على كتاب أو رباط ، أو خان أو نحوه فيدخله وينتفع به .

وكذلك يجوز له الاعتماد على ما يجده بخط أبيه فى برنامجه أن له على فلان كذا وكذا ، فيحلف على الاستحقاق ، وكذا يجوز للمرأة الاعتماد على خط الزوج أنه أبانها فلها أن تتزوج بناء على الخط ، وكذا الوصى والوارث يعتمد على خط الموصى فينفذ ما فيه وإن لم يشهد شاهدان .

وكذا إذا كتب الراوى إلى غيره حديثًا جاز له أن يعتمد عليه ويعمل به ، ويرويه بناء على الخط إذا تيقن ذلك كله ، هذا عمل الأمة قديمًا وحديثًا من عهد نبينا ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وإلى الآن ، وإن أنكره من أنكره .

ومن العجب أن من أنكر ذلك وبالغ فى إنكاره ، ليس معه فيما يفتى به إلا مجرد كتاب قيل : إنه كتاب فلان ، فهو يقضى به ويفتى ويحل ويحرم ، ويقول : هكذا فى الكتاب ، والله الموفق .

وقد كان رسول الله ﷺ يرسل كتبه إلى الملوك وإلى الأمم يدعوهم إلى الإسلام ، فتقوم عليهم الحجة بكتابه ، وهذا أظهر من أن ينكر ، وبالله التوفيق .

إذا حدثت حادثة لم يفت فيها أحد

الفائدة السبعون: إذا حدثتْ حادثة ليس فيها قول لأحد من العلماء ، فهل يجوز الاجتهاد فيها بالإفتاء والحكم أم لا ؟ فيه ثلاثة أوجه :

---

(١) راجع الفائدة السادسة والعشرين .

أحدها : يجوز ، وعليه تدل فتاوى الأئمة وأجوبتهم ؛ فإنهم كانوا يسألون عن حوادث لم تقع قبلهم فيجتهدون فيها ، وقد قال النبى ﷺ : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر » (١) ،وهذا يعم ما اجتهد فيه مما لم يعرف فيه قول من قبله وما عرف فيه أقوالا واجتهد فى الصواب منها ، وعلى هذا درج السلف والخلف ، والحاجة داعية إلى ذلك لكثرة الوقائع واختلاف الحوادث ، ومن له مباشرة لفتاوى الناس يعلم أن المنقول وإن اتسع غاية الاتساع فإنه لا يفى بوقائع العالم جميعا ، وأنت إذا تأملت الوقائع رأيت مسائل كثيرة واقعة وهى غير منقولة ، ولا يعرف فيها كلام لأئمة المذاهب ولا لأتباعهم .

والثانى : لا يجوز له الإفتاء ولا الحكم ، بل يتوقف حتى يظفر فيها بقائل .قال الإمام أحمد لبعض أصحابه : إياك أن تتكلم فى مسألة ليس لك فيها إمام .

والثالث : يجوز ذلك فى مسائل الفروع ، لتعلقها بالعمل ، وشدة الحاجة إليها وسهولة خطرها ، ولا يجوز فى مسائل الأصول .

والحق : التفصيل ، وأن ذلك يجوز ، بل يستحب أو يجب ، عند الحاجة وأهلية المفتى والحاكم ، فإن عدم الأمران لم يجز ، وإن وجد أحدهما دون الآخر احتمل الجواز ، والمنع ، والتفصيل ، فيجوز للحاجة دون عدمها ، والله أعلم (٢) .

فصل
من صفات المفتى

لما كان التبليغ عن الله ـ سبحانه ـ يعتمد العلم بما يبلغ ، والصدق فيه لم تصلح مرتبة التبليغ بالرواية والفتيا إلا لمن اتصف بالعلم والصدق ، فيكون عالما بما يبلغ ،صادقا فيه ، ويكون مع ذلك حسن الطريقة مرضى السيرة ، عدلا فى أقواله وأفعاله ، متشابه السر والعلانية فى مدخله ومخرجه وأحواله .

وإذا كان منصب التوقيع عن الملوك بالمحل الذى لا ينكر فضله ولا يجهل قدره ، وهو من أعلى المراتب السنيات ، فكيف بمنصب التوقيع عن رب الأرض والسموات ، فحقيق بمن

---

(١) البخارى (٧٣٥٢) فى الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب : أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ ، ومسلم (١٧١٦ / ١٥) فى الأقضية ، باب : بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ .

(٢) إعلام الموقعين (٤ / ٣٢٢ ـ ٣٣٦) .

أقيم فى هذا المنصب أن يعد له عدته . وأن يتأهب له أهبته ، وأن يعلم قدر المقام الذى أقيم فيه ، ولا يكون فى صدره حرج من قول الحق والصدع به ، فإن الله ناصره وهاديه . وكيف ،وهو المنصب الذى تولاه بنفسه رب الأرباب فقال تعالى : ﴿ **وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ** ﴾ [النساء : ١٢٧] ، وكفى بما تولاه الله بنفسه شرفا وجلالة ،إذ يقول فى كتابه: ﴿ **يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ** ﴾ [النساء : ١٧٦] ، وليعلم المفتى عمن ينوب فى فتواه ، وليوقن أنه مسؤول غدا ،وموقوف بين يدى الله (١) .

فصول
فى كلام الأئمة فى أدوات الفتيا وشروطها ومن ينبغى له أن يفتى وأين يسع قول المفتى : لا أدرى

قال الإمام أحمد فى رواية ابنه صالح عنه : ينبغى للرجل إذا حمل نفسه على الفتيا أن يكون عالما بوجوه القرآن ، عالما بالأسانيد الصحيحة ، عالما بالسنن ، وإنما جاء خلاف من خالف لقلة معرفتهم بما جاء عن النبى ﷺ ، وقلة معرفتهم بصحيحها من سقيمها . وقال فى رواية ابنه عبد الله : إذا كان عند الرجل الكتب المصنفة فيها قول رسول الله ﷺ واختلاف الصحابة والتابعين ، فلا يجوز أن يعمل بما شاء ،ويتخير فيقضى به ،ويعمل به ، حتى يسأل أهل العلم ما يؤخذ به ، فيكون يعمل على أمر صحيح . وقال فى رواية أبى الحارث : لا يجوز الإفتاء إلا لرجل عالم بالكتاب والسنة . وقال فى رواية حنبل : ينبغى لمن أفتى أن يكون عالما بقول من تقدم ، وإلا فلا يفتى .

وقال محمد بن عبد الله بن المنادى : سمعت رجلا يسأل أحمد : إذا حفظ الرجل مائة ألف حديث يكون فقيها ؟ قال : لا ، قال : فمائتى ألف ؟ قال : لا ، قال : فثلاثمائة ألف ؟ قال : لا ، قال : فأربعمائة ألف ؟ قال : بيده هكذا وحرك يده .

قال أبو الحسين : وسألت جدى محمد بن عبيد الله ، قلت : فكم كان يحفظ أحمد ابن حنبل ؟ قال : أخذ عن ستمائة ألف .

قال أبو حفص : قال لى أبو إسحاق : لما جلست فى جامع المنصور للفتيا ذكرت هذه المسألة ، فقال لى رجل : فأنت هو ذا لا تحفظ هذا المقدار حتى تفتى للناس ، فقلت له :

(١) إعلام الموقعين (١ / ١١) .

عافاك الله ، إن كنت لا أحفظ هذا المقدار ، فإنى هو ذا أفتى الناس بقول من كان يحفظ هذا المقدار وأكثر منه .

قال القاضى أبو يعلى : وظاهر هذا الكلام أنه لا يكون من أهل الاجتهاد إذا لم يحفظ من الحديث هذا القدر الكثير الذى ذكره ،وهذا محمول على الاحتياط والتغليظ فى الفتوى، ثم ذكر حكاية أبى إسحاق لما جلس فى جامع المنصور قال : وليس هذا الكلام من أبى إسحاق مما يقتضى أنه كان يقلد أحمد فيما يفتى به ، لأنه قد نص فى بعض تعاليقه على كتاب العلل على الدلالة على منع الفتوى بغير علم لقوله تعالى : ﴿ **وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ** ﴾ [الإسراء: ٣٦] .

قلت : هذه المسألة فيها ثلاثة أقوال لأصحاب أحمد :

أحدها :أنه لا يجوز الفتوى بالتقليد ؛ لأنه ليس بعلم ، والفتوى بغير علم حرام ، ولا خلاف بين الناس أن التقليد ليس بعلم ، وأن المقلد لا يطلق عليه اسم عالم ، وهذا قول أكثر الأصحاب وقول جمهور الشافعية .

والثانى : أن ذلك يجوز فيما يتعلق بنفسه ، فيجوز له أن يقلد غيره من العلماء إذا كانت الفتوى لنفسه ، ولا يجوز أن يقلد العالم فيما يفتى به غيره ، وهذا قول ابن بطة وغيره من أصحابنا . قال القاضى : ذكر ابن بطة فى مكاتباته إلى البرمكى : لا يجوز له أن يفتى بما يسمع من يفتى ، إنما يجوز أن يقلد لنفسه،فأما أن يتقلد لغيره ، ويفتى به ، فلا .

والقول الثالث : أنه يجوز ذلك عند الحاجة ، وعدم العالم المجتهد ، وهو أصح الأقوال ، وعليه العمل . قال القاضى : ذكر أبو حفص فى تعاليقه قال : سمعت أبا على الحسن بن عبد الله النجاد يقول : سمعت أبا الحسين بن بشر يقول : ما أعيب على رجل يحفظ عن أحمد خمس مسائل استند إلى بعض سوارى المسجد يفتى بها .

وقال الشافعى فيما رواه عنه الخطيب فى كتاب الفقيه والمتفقه له : لا يحل لأحد أن يفتى فى دين الله إلا رجلا عارفا بكتاب الله بناسخه ومنسوخه ، ومحكمه ومتشابهه ، وتأويله وتنزيله ، ومكيه ومدنيه ، وما أريد به. ويكون بعد ذلك بصيرا بحديث رسول الله ﷺ وبالناسخ والمنسوخ ، ويعرف من الحديث مثل ما عرف من القرآن ، ويكون بصيرا باللغة ، بصيراً بالشعر ، وما يحتاج إليه للسنة والقرآن ، ويستعمل هذا مع الإنصاف ، ويكون بعد هذا مشرفا على اختلاف أهل الأمصار ، وتكون له قريحة بعد هذا ، فإذا كان هكذا ، فله أن يتكلم ويفتى فى الحلال والحرام ، وإذا لم يكن هكذا فليس له أن يفتى .

وقال صالح بن أحمد : قلت لأبى : ما تقول فى الرجل يسأل عن الشىء ، فيجيب بما

فى الحديث ، وليس بعالم فى الفقه ، فقال : ينبغى للرجل إذا حمل نفسه على الفتيا أن يكون عالما بالسنن ، عالما بوجوه القرآن ، عالما بالأسانيد الصحيحة ، وذكر الكلام المتقدم.

وقال على بن شقيق : قيل لابن المبارك : متى يفتى الرجل ؟ قال : إذا كان عالما بالأثر ، بصيرا بالرأى . وقيل ليحيى بن أكثم : متى يجب للرجل أن يفتى ؟ فقال : إذا كان بصيرا بالرأى بصيرا بالأثر .

قلت : يريدان بالرأى القياس الصحيح والمعانى ، والعلل الصحيحة التى علق الشارع بها الأحكام ، وجعلها مؤثرة فيها طردا وعكسا .

فصل

فى تحريم الإفتاء فى دين الله بالرأى المتضمن لمخالفة النصوص والرأى الذى لم تشهد له النصوص بالقبول

قال الله : **﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠) ﴾** [القصص] ،فقسم الأمر إلى أمرين لا ثالث لهما ، إما الاستجابة لله والرسول ، وما جاء به وإما اتباع الهوى ، فكل ما لم يأت به الرسول ،فهو من الهوى. وقال تعالى : **﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾** [ص: ٢٦] ،فقسم ـ سبحانه ـ طريق الحكم بين الناس إلى الحق ، وهو الوحى الذى أنزله الله على رسوله ، وإلى الهوى ، وهو ما خالفه .

وقال تعالى لنبيه ﷺ: **﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩)﴾** [الجاثية] ،فقسم الأمر بين الشريعة التى جعله هو ـ سبحانه ـ عليها ،وأوحى إليه العمل بها ، وأمر الأمة بها ، وبين اتباع أهواء الذين لا يعلمون ، فأمر بالأول ، ونهى عن الثانى . وقال تعالى : **﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٣) ﴾** [الأعراف] ،فأمر باتباع المنزل منه خاصة .

واعلم أن من اتبع غيره فقد اتبع من دونه أولياء ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٥٩) ﴾ [النساء] ،فأمر تعالى بطاعته وطاعة رسوله وأعاد الفعل إعلاما بأن طاعة الرسول تجب استقلالا من غير عرض ما أمر به على الكتاب ، بل إذا أمر وجبت طاعته مطلقا سواء كان ما أمر به فى الكتاب أو لم يكن فيه ، فإنه أوتى الكتاب ومثله معه ولم يأمر بطاعة أولى الأمر استقلالا ، بل حذف الفعل، وجعل طاعتهم فى ضمن طاعة الرسول إيذانا بأنهم إنما يطاعون تبعا لطاعة الرسول ، فمن أمر منهم بطاعة الرسول وجبت طاعته ، ومن أمر بخلاف ما جاء به الرسول ، فلا سمع له، ولا طاعة كما صح عنه ﷺ أنه قال: « ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » (١) وقال: «إنما الطاعة فى المعروف » (٢) ، وقال فى ولاة الأمور : « من أمركم منهم بمعصية الله ، فلا سمع له ولا طاعة » (٣) وقد أخبر ﷺ عن الذين أرادوا دخول النار لما أمرهم أميرهم بدخولها : « إنهم لو دخلوا لما خرجوا منها » (٤) مع أنهم إنما كانوا يدخلونها طاعة لأميرهم، وظنا أن ذلك واجب عليهم ، ولكن لما قصروا فى الاجتهار، وبادروا إلى طاعة من أمر بمعصية الله ، وحملوا عموم الأمر بالطاعة بما لم يرده الآمر ﷺ ، وما قد علم من دينه إرادة خلافه ، فقصروا فى الاجتهاد وأقدموا على تعذيب أنفسهم وإهلاكها من غير تثبيت وتبيين ، هل ذلك طاعة لله ورسوله أم لا ، فما الظن بمن أطاع غيره فى صريح مخالفة ما بعث الله به رسوله ؟ ثم أمر تعالى برد ما تنازع فيه المؤمنون إلى الله ورسوله إن كانوا مؤمنين ، وأخبرهم أن ذلك خير لهم فى العاجل وأحسن تأويلا فى العاقبة .

وفى صحيح البخارى من حديث أبى الأسود عن عروة بن الزبير قال: حج علينا عبد الله ابن عمرو بن العاص فسمعته يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله لا ينزع العلم بعد إذ أعطاكموه انتزاعًا ، ولكن ينزعه مع قبض العلماء بعلمهم ، فيبقى ناس جهال

---

(١) ابن أبى شيبة ١٢ / ٥٤٦ (١٥٥٦٤) ، وتاريخ بغداد ٣ / ١٤٥ .

(٢، ٤) البخارى (٧٢٥٧) فى أخبار الآحاد ، باب :ما جاء فى إجازة خبر الواحد الصدوق . . .إلخ ، ومسلم (١٨٤٠/ ٣٩) فى الإمارة ، باب : فى وجوب طاعة الأمراء فى غير معصية وتحريمها فى المعصية ،وأبو داود (٢٦٢٥) فى الجهاد ، باب : فى الطاعة ، والنسائى (٤٢٠٥) فى البيعة ، باب : جزاء من أمر بمعصية فأطاع .

(٣) ابن ماجه (٢٨٦٣) فى الجهاد ، باب : لا طاعة فى معصية الله ، وابن أبى شيبة (١٢ / ٥٤٣) ، وابن عساكر (٧ / ٣٥٥) .

يُسْتَفْتَوْن فيفتون برأيهم ، فيُضِلُّون ويَضِلُّون » (١) ، وقال وكيع : حدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال ، قال رسول الله ﷺ : « لا ينزع الله العلم من صدور الرجال ، ولكن ينزع العلم بموت العلماء ، فإذا لم يبق عالمًا اتخذ الناس رؤوسًا جهالا ، فقالوا بالرأى فضلوا وأضلوا » (٢) ، وفى الصحيحين من حديث عروة بن الزبير قال : قالت عائشة ، يابن أخى بلغنى أن عبد الله بن عمرو مارٌّ بنا إلى الحج فالقه ، فاسأله ، فإنه حمل عن النبى ﷺ علمًا كثيرًا ، قال : فلقيته ، فسألته عن أشياء يذكرها عن رسول الله ﷺ ، قال عروة : فكان فيما ذكر أن النبى ﷺ قال : « إن الله لا ينزع العلم من الناس انتزاعًا ، ولكن يقبض العلماء ، فيرفع العلم معهم ويبقى فى الناس رؤوس جهال ، يفتونهم بغير علم فيضلون ويَضلون » (٣) . وقال عروة : فلما حدثت عائشة بذلك أعظمت ذلك ، وأنكرته ، قال : أحدَّثك أنه سمع رسول الله يقول هذا ؟ قال عروة : نعم ، حتى إذا كان عام قابل ، قالت لى : إن ابن عمرو قد قدم ، فالقه ، ثم فاتحه حتى تسأله عن الحديث الذى ذكره لك فى العلم ، قال فلقيته ، فسألته ، فذكر لى نحو ما حدثنى به فى المرة الأولى ، قال عروة : فلما أخبرتها بذلك قالت : ما أحسبه إلا قد صدق أراه لم يزد فيه شيئا ولم ينقص (٤) .

فصل
فيما روى عن صدّيق الأمة وأعلمها من إنكار الرأى

روينا عن عبد بن حميد : حدثنا أبو أسامة عن نافع عن عمر الجمحى عن ابن أبى مليكة ، قال ، قال أبو بكر رضي الله عنه : أى أرض تقلنى ، وأى سماء تظلنى ، إن قلت فى آية من كتاب الله برأيى أو بما لا أعلم .

وذكر الحسن بن على الحلوانى ، حدثنا عارم عن حماد بن زيد عن سعيد بن أبى صدقة عن ابن سيرين قال : لم يكن أحد أهْيَبَ بما لا يعلم من أبى بكر رضي الله عنه ، ولم يكن أحد بعد أبى بكر أهيب بما لا يعلم من عمر رضي الله عنه ، وإن أبا بكر نزلت به قضية ، فلم يجد

---

(١) البخارى (٧٣٠٧) فى الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب : ما يذكر من ذم الرأى وتكلف القياس .

(٢) انظر : فتح البارى (١٣ / ٢٨٤ ، ٢٨٥) .

(٣) البخارى (١٠٠) فى العلم ، باب : كيف يقبض العلم ، ومسلم (٢٦٧٣ / ١٤) فى العلم ، باب : رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن فى آخر الزمان .

(٤) إعلام الموقعين (١ / ٤٦ ـ ٥١ ، ٥٥) .

فى كتاب الله منها أصلا ، ولا فى السنة أثرًا فاجتهد برأيه ، ثم قال : هذا رأيى ، فإن يكن صوابا ، فمن الله ، وإن يكن خطأ فمنى ، وأستغفر الله .

فصل
فى المنقول من ذلك عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه

قال ابن وهب : حدثنا يونس بن يزيد ، عن ابن شهاب أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال، وهو على المنبر : يا أيها الناس ، إن الرأى إنما كان من رسول الله ﷺ مصيبًا ، أن الله كان يُريه ، وإنما هو منا الظن والتكلف .

قلت : مراد عمر رضي الله عنه قوله تعالى : ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ** ﴾ [النساء : ١٠٥] ، فلم يكن له رأى غير ما أراه الله إياه . وأما ما رأى غيره فظن وتكلف .

قال سفيان الثورى : ثنا أبو إسحاق الشيبانى ، عن أبى الضحى ، عن مسروق قال : كتب كاتب لعمر بن الخطاب: هذا ما رأى الله ، ورأى عمر ، فقال : بئس ما قلت ، قل : هذا ما رأى عمر، فإن يكن صوابا فمن الله ، وإن يكن خطأ فمن عمر .

وقال ابن وهب : أخبرنى ابن لهيعة عن عبد الله بن أبى جعفر ، قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : السنة ما سنه الله ورسوله ﷺ لا تجعلوا خطأ الرأى سنة للأمة . قال ابن وهب : وأخبرنى ابن لهيعة عن أبى الزناد عن محمد بن إبراهيم التيمى : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : أصبح أهل الرأى أعداء السنن ، أعيتهم أن يعوها ، وتفلّتَتْ منهم أن يرْوُوها فاستبقوها بالرأى .

قال ابن وهب : وأخبرنى عبد الله بن عباس عن محمد بن عجلان ، عن عبيد الله ابن عمر أن ابن الخطاب قال : اتقوا الرأى فى دينكم ، وذكر ابن عجلان عن صدقة بن أبى عبد الله أن عمر بن الخطاب كان يقول : أصحاب الرأى أعداء السنن ، أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها ، وتفلّتت منهم أن يعوها ، واستحيوا حين سُئلوا أن يقولوا : لا نعلم ، فعارضوا السنن برأيهم ، فإياكم وإياهم .

وذكر ابن الهادى عن محمد إبراهيم بن التيمى ، قال : قال عمر بن الخطاب : إياكم والرأى ، فإن أصحاب الرأى أعداء السنن أعيتهم الأحاديث أن يعوها وتفلتت منهم أن

يحفظوها ، فقالوا فى الدين برأيهم .

وقال الشعبى ، عن عمرو بن حارث قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إياكم وأصحاب الرأى ، فإنهم أعداء السنن ، أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها ، فقالوا بالرأى ، فضلوا وأضلوا . وأسانيد هذه الآثار عن عمر فى غاية الصحة .

وقال محمد بن عبد السلام الخشنى : ثنا محمد بن بشار ، حدثنا يونس بن عبيد العمرى ، ثنا مبارك بن فضالة ، عن عبيد الله بن عمر عن نافع ، عن ابن عمر عن عمر ابن الخطاب أنه قال : أيها الناس ، اتهموا الرأى فى الدين ، فلقد رأيتنى وإنى لأرد أمر رسول الله ﷺ برأيى ، فأجتهد ولا آلو ، وذلك يوم أبى جندل،والكتاب يكتب ، وقال . « اكتبوا : بسم الله الرحمن الرحيم »،فقال : يكتب باسمك اللهم ، فرضى رسول الله ﷺ وأبيْتُ ، فقال : « يا عمر ترانى قد رضيت ، وتأبى » [(١)] .

وقال أبو بكر بن أبى شيبة : حدثنا عبد الأعلى عن محمد بن إسحاق عن يزيد بن حبيب عن معمر بن أبى حبيبة مولى بنت صفوان ، عن عبيد بن رفاعة ، عن أبيه رفاعة بن رافع قال : بينما أنا عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ دخل عليه رجل ، فقال : يا أمير المؤمنين ، هذا زيد بن ثابت يفتى الناس فى المسجد برأيه فى الغسل من الجنابة،فقال عمر : علىَّ به ، فجاء زيد فلما رآه عمر ، فقال عمر : أى عدوَّ نفسه ، قد بلغت أن تفتى الناس برأيك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، والله ما فعلت ، ولكن سمعت من أعمامى حديثًا فحدثت به من أبى أيوب ، ومن أبىّ بن كعب ، ومن رفاعة بن رافع ، فقال عمر : علىَّ برفاعة بن رافع ، فقال : قد كنتم تفعلون ذلك إذا أصاب أحدُكم المرأة فأكسل أن يغتسل ، قال : كنا نفعل ذلك على عهد رسول الله ﷺ لم يأتنا فيه عن الله تحريم ، ولم يكن فيه عن رسول الله ﷺ شىء . فقال عمر : ورسول الله ﷺ يعلم ذلك ؟ قال : ما أدرى ، فأمر عمر بجمع المهاجرين والأنصار ، فجُمعوا فشاورهم ، فشار الناس ألا غسل ، إلا ما كان من معاذ وعلى ، فإنهما قالا : إذا جاوز الختانُ الختان وجب الغسل ، فقال عمر هذا وأنتم أصحاب بدر قد اختلفتم ، فمن بعدكم أشد اختلافا ، فقال علىٌّ : يا أمير المؤمنين ، إنه ليس أحد أعلم بهذا من شأن رسول الله ﷺ من أزواجه ، فأرسل إلى

(١) الطبرانى فى الكبير (١ / ٧٢) رقم (٨٢) وعزاه الهيثمى فى المجمع (١/ ١٧٩) لأبى يعلى ، وليس فى مسنده ، وقال : رجاله موثقون ، وإن كان فيه مبارك بن فضالة .

حفصة ، فقالت : لا علم لى ، فأرسل إلى عائشة فقالت : إذا جاوز الختان فقد وجب الغسل ، فقال : لا أسمع برجل فعل ذلك إلا أوجعته ضربًا.

قول عبد الله بن مسعود فى ذم الرأى

قال البخارى : حدثنا جنيد ثنا يحيى بن زكريا عن مجالد ، عن الشعبى ، عن مسروق، عن عبد الله ، قال : لا يأتى علكيم عام إلا وهو شرٌّ من الذى قبله ، أما إنى لا أقول : أمير خير من أمير ، ولا عام أخصبُ من عام ، ولكن فقهاؤكم يذهبون ، ثم لا يجدون منهم خلفًا ويجىء قوم يقيسون الأمور برأيهم .

وقال ابن وهب : ثنا شقيق عن مجالد به ، قال : ولكن ذهاب خياركم وعلمائكم ثم يحدث قوم يقيسون الأمور برأيهم ، فينهدم الإسلام ويُثَّلم .

وقال أبو بكر بن أبى شيبة : حدثنا أبو خالد الأحمر عن مجالد عن الشعبى ، عن مسروق قال : قال عبد الله بن مسعود : علماؤكم يذهبون ، ويتخذ الناس رؤوسًا جهالا يقيسون الأمور برأيهم .

وقال سُنيد بن داود : حدثنا محمد بن فضل عن سالم بن أبى حفصة عن منذر الثورى عن الربيع بن خُثَيْم أنه قال : قال عبد الله : ما علمك الله فى كتابه فاحمد الله ، وما استأثر به عليك من علم،فكلْه إلى عالمه ،ولا تتكلف ، فإن الله عز وجل يقول لنبيه : ﴿ **قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ** ﴿٨٦﴾ ﴾ [ص] ، يروى هذا عن الربيع بن خثيم وعن عبد الله .

وقال سعيد بن منصور : حدثنا خلف بن خليفة ، ثنا أبو زيد عن الشعبى ، قال : قال ابن مسعود : إياكم ، وأرأيت أرأيت ، فإنما هلك من كان قبلكم بأرأيت أرأيت ، ولا تقيسوا شيئًا فتزل قدم بعد ثبوتها ، وإذا سئل أحدكم عما لا يعلم ، فليقل : لا أعلم فإنه ثلث العلم ، وصح عنه فى المفوضة أنه قال : أقول فيها برأيى ، فإن يكن صوابًا ، فمن الله ، وإن يكن خطأ فمنى ، ومن الشيطان ، والله ورسوله برىء .

قول عثمان بن عفان فى ذم الرأى

قال محمد بن إسحاق : حدثنى يحيى بن عباد عن عبيد الله بن الزبير ، قال :أنا

والله مع عثمان بن عفان بالجحفة إذ قال عثمان ـ وذكر له التمتع بالعمرة إلى الحج ـ أتموا الحج وأخلصوه فى أشهر الحج ، فلو أخرتم هذه العمرة ، حتى تزوروا هذا البيت زورتين، كان أفضل ، فإن الله قد أوسع فى الخير ، فقال على ، عمدت إلى سنة رسول الله ﷺ ورخصة الله للعباد بها فى كتابه تضيق عليهم فيها ، وتنهى عنها ، وكانت لذى الحاجة ولنائى الدار ، ثم أهل على بعمرة وحج معًا ، فأقبل عثمان بن عفان رضي الله عنه على الناس ، فقال : أنهيت عنها ، وإنى لم أنه عنها ، إنما كان رأيا أشرتُ به ، فمن شاء أخذه ، ومن شاء تركه ، فهذا عثمان يخبر عن رأيه أنه ليس بلازم للأمة الأخذ به ، بل من شاء أخذ به ومن شاء تركه بخلاف سنة رسول الله فإنه لا يسع أحدًا تركها لقول أحد كائنًا من كان .

قول على فى ذم الرأى

قال أبو داود : حدثنا أبو كريب محمد بن العلاء ، ثنا حفص بن غياث ، عن الأعمش عن أبى إسحاق السبيعى ، عن عبد خير عن على رضي الله عنه ، أنه قال : لو كان الدين بالرأى لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه (١) .

قول ابن عباس فى ذم الرأى

قال ابن وهب : أخبرنى بشر بن بكر عن الأوزاعى عن عبدة بن أبى لبابة ، عن ابن عباس أنه قال : من أحدث رأيا ليس فى كتاب الله ، ولم تمض به سنة من رسول الله ﷺ لم يدر على ما هو منه إذا لقى الله عز وجل .

وقال عثمان بن مسلم الصفار: حدثنا عبد الرحمن بن زياد حدثنا الحسن بن عمرو الفقيمى، عن أبى فزارة ، قال :قال ابن عباس : إنما هو كتاب الله ، وسنة رسول الله ﷺ فمن قال بعد ذلك برأيه ، فلا أدرى أفى حسناته يجد ذلك ، أم فى سيئاته . وقال عبد بن حميد: حدثنا حسين بن على الجعفى عن زائدة ، عن ليث عن بكر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : من قال فى القرآن برأيه ، فليتبوأ مقعده من النار .

قول سهل بن حنيف

قال البخارى : حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا أبو عوانة عن الأعمش عن أبى

(١) أبو داود (١٦٢) فى الطهارة ، باب : كيف المسح .

وائل قال : قال سهل بن حنيف : أيها الناس ، اتهموا رأيكم على دينكم ، لقد رأيتنى يوم أبى جندل ولو أستطيع أن أرد أمر رسول الله ﷺ لرددته .

قول عبد الله بن عمر رضي الله عنه

قال ابن وهب : أخبرنى عمرو بن الحارث أن عمرو بن دينار ، قال : أخبرنى طاوس عن عبيد الله بن عمر أنه كان إذا لم يجد فى الأمر يسأل عنه شيئا ، قال : إن شئتم أخبرتكم بالظن .

وقال البخارى: قال لى صدقة ، عن الفضل بن موسى بن عقبة ، عن الضحاك ، عن جابر بن زيد ، قال : لقينى ابن عمر ، فقال : يا جابر ، إنك من فقهاء البصرة ، وتستفتى فلا تفتين إلا بكتاب ناطق ، أو سنة ماضية . وقال مالك عن نافع عنه : العلم ثلاث : كتاب الله الناطق ، وسنة ماضية ، ولا أدرى .

قول زيد بن ثابت

قال البخارى : حدثنا سنيد بن داود ، حدثنا يحيى بن زكريا مولى ابن أبى زائدة ، عن إسماعيل بن خالد ، عن الشعبى ، قال : أتى زيد بن ثابت قوم فسألوه عن أشياء ، فأخبرهم بها فكتبوها ، ثم قالوا : لو أخبرناه ، قال : فأتوه ، فأخبروه ، فقال : أعذرا ، لعل كل شيء حدثتكم خطأ ، إنما اجتهد لكم برأيى .

قول معاذ بن جبل

قال حماد بن سلمة : حدثنا أيوب السختيانى عن أبى قلابة ، عن يزيد بن أبى عميرة عن معاذ بن جبل ، قال : تكون فتن ، فيكثر فيها المال ، ويفتح القرآن حتى يقرأه الرجل والمرأة والصغير والكبير والمنافق والمؤمن ، فيقرأه الرجل ، فلا يتبع ، فيقول : والله لأقرأنه علانية ،فيقرأه علانية ،فلا يتبع فيتخذه مسجدا ، ويبتدع كلاما ليس من كتاب الله، ولا من سنة رسول الله ﷺ ، فإياكم وإياه ، فإنه بدعة وضلالة . قاله معاذ ثلاث مرات .

قول أبى موسى الأشعرى

قال البغوى : حدثنا الحجاج بن المنهال ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن حميد عن أبى

رجاء العطاردى ، قال : قال أبو موسى الأشعرى : من كان عنده علم ، فليعلمه الناس ، وإن لم يعلم ، فلا يقولن ما ليس له به علم ، فيكون من المتكلفين ، ويمرق من الدين .

قول معاوية

قال البخارى: حدثنا أبو اليمان ، حدثنا شعيب عن الزهرى ، قال : كان محمد بن جبير بن مطعم ، يحدث أنه كان عند معاوية وفد من قريش ، فقام معاوية ، فحمد الله ، وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : أما بعد ، فإنه قد بلغنى أن رجالا فيكم يتحدثون بأحاديث ليست فى كتاب الله ، ولا تؤثر عن رسول الله ﷺ ، فأولئكم جهالكم .

فهؤلاء من الصحابة أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلى ابن أبى طالب ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر ، وزيد ابن ثابت ، وسهل بن حنيف ، ومعاذ بن جبل ، ومعاوية خال المؤمنين وأبو موسى الأشعرى رضي الله عنهم يخرجون الرأى عن العلم ويذمونه ويحذرون منه ، وينهون عن الفتيا به ، ومن اضطر منهم إليه أخبرا أنه ظن،وأنه ليس على ثقة منه ، وأنه يجوز أن يكون منه ومن الشيطان ، وأن الله ورسوله برىء منه ، وأن غايته أن يسوغ الأخذ به عند الضرورة من غير لزوم لاتباعه ، ولا العمل به ، فهل تجد من أحد منهم قط أنه جعل رأى رجل بعينه دينا تترك له السنن الثابتة عن رسول الله ﷺ ، ويبدع ويضلل من خالفه إلى اتباع السنن ، فهؤلاء برك الإسلام وعصابة الإيمان ، وأئمة الهدى ومصابيح الدجى ، وأنصح الأئمة للأمة ، وأعلمهم بالأحكام وأدلتها ، وأفقههم فى دين الله وأعمقهم علما ، وأقلهم تكلفا وعليهم دارت الفتيا ، وعنهم انتشر العلم وأصحابهم هم فقهاء الأمة .

ومنهم من كان مقيما بالكوفة ، كعلى ، وابن مسعود .

وبالمدينة ، كعمر بن الخطاب ، وابنه ، وزيد بن ثابت .

وبالبصرة ، كأبى موسى الأشعرى .

وبالشام ، كمعاذ بن جبل ، ومعاوية بن أبى سفيان .

وبمكة ، كعبد الله بن عباس .

وبمصر ، كعبد الله بن عمرو بن العاص .

وعن هذه الأمصار انتشر العلم فى الآفاق ، وأكثر من روى عنه التحذير من الرأى من كان بالكوفة إرهاصا بين يدى ما علم الله ـ سبحانه ـ أنه يحدث فيها بعدهم .

محاولة الدفاع عن الرأى

قال أهل الرأى : وهؤلاء الصحابة ومن بعدهم من التابعين والأئمة وإن ذموا الرأى ، وحذروا منه ، ونهوا عن الفتيا والقضاء به وأخرجوه من جملة العلم ، فقد روى عن كثير منهم الفتيا والقضاء به ،والدلالة عليه ،والاستدلال به ،كقول عبد الله بن مسعود فى المفوضة : أقول فيها برأيى ، وقول عمر بن الخطاب لكاتبه : قل : هذا ما رأى عمر بن الخطاب ، وقول عثمان بن عفان فى الأمر بإفراد العمرة عن الحج : إنما هو رأى رأيته ، وقول على فى أمهات الأولاد : اتفق رأيى ورأى عمر على أن لا يبعن ، وفى كتاب عمر ابن الخطاب إلى شريح : إذا وجدت شيئا فى كتاب الله فاقض به ، ولا تلفت إلى غيره ، وإن أتاك شىء ليس فى كتاب الله فاقض بما سن رسول الله ﷺ ، فإن أتاك ما ليس فى كتاب الله ، ولم يسن رسول الله ﷺ ، فاقض بما أجمع عليه الناس ، وإن أتاك ما ليس فى كتاب الله ولا سنة رسول الله ﷺ ، ولم يتكلم فيه أحد قبلك ، فإن شئت أن تجتهد : رأيك فتقدم ، وإن شئت أن تتأخر ، فتأخر ، وما أرى التأخر إلا خيرا لك ، ذكره سفيان الثورى عن الشيبانى عن الشعبى عن شريح أن أن عمر كتب إليه .

وقال أبو عبيد فى كتاب القضاء : حدثنا كثير بن هشام عن جعفر بن برقان عن ميمون ابن مهران قال : كان أبو بكر الصديق إذا ورد عليه حكم نظر فى كتاب الله تعالى ، فإن وجد فيه ما يقضى به قضى به،وإن لم يجد فى كتاب الله نظر فى سنة رسول الله ﷺ، فإن وجد فيها ما يقضى به قضى به ، فإن أعياه سأل الناس : هل علمتم أن رسول الله ﷺ قضى فيه بقضاء ، فربما قام إليه القوم ، فيقولون : قضى فيه بكذا وكذا ، فإن لم يجد سنة سنها النبى ﷺ جمع رؤساء الناس فاستشارهم ، فإذا اجتمع رأيهم على شىء ، قضى به ، وكان عمر يفعل ذلك إذا أعياه أن يجد ذلك فى الكتاب والسنة سأل : هل كان أبو بكر قضى فيه بقضاء ، فإن كان لأبى بكر قضاء ، قضى به ، وإلا جمع علماء الناس واستشارهم ، فإذا اجتمع رأيهم على شىء ، قضى به .

وقال أبو عبيد : حدثنا أبو معاوية عن الأعمش ، عن عمارة ، عن عمير ، عن عبد الرحمن بن يزيد ، عن ابن مسعود قال : أكثروا عليه ذات يوم ، فقال : إنه قد أتى علينا زمان ، ولسنا نقضى ، ولسنا هناك ، ثم إن الله بلغنا ما ترون ، فمن عرض عليه قضاء بعد

اليوم،فليقض بما فى كتاب الله ، فإن جاءه أمر ليس فى كتاب الله ، ولا قضى به نبيه ﷺ، فليقض بما قضى به الصالحون ، فإن جاءه أمر ليس فى كتاب الله ولا قضى به نبيه ﷺ ولا قضى به الصالحون فليجتهد رأيه ، ولا يقل : إنى أرى ، وإنى أخاف ،فإن الحلال بين والحرام بين ، وبين ذلك مشتبهات ، فدع ما يريبك إلى ما لا يريبك .

وقال محمد بن جرير الطبرى : حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، أنا هشيم ، أنا سيار ، عن الشعبى قال : لما بعث عمر شريحا على قضاء الكوفة ، قال له : انظر ما يتبين لك فى كتاب الله فلا تسأل عنه أحدا ، وما لم يتبين لك فى كتاب الله ، فاتبع فيه سنة رسول الله ﷺ ؛ وما لم يتبين لك فيه السنة فاجتهد فيه رأيك .

وفى كتاب عمر إلى أبى موسى : اعرف الأشياء والأمثال ، وقس الأمور .

وقايس على بن أبى طالب وزيد بن ثابت فى المكاتب ، وقايسه فى الجد والإخوة ، فشبهه على بسيل انشعبت منه شعبة ، ثم انشعبت من الشعبة شعبتان ، وقايسه زيد على شجرة انشعب منها غصن ، وانشعب من الغصن غصنان ، وقولهما فى الجد : إنه لا يحجب الإخوة ، وقاس ابن عباس الأضراس بالأصابع ، وقال : اعتبرها بها .

وسئل على رضي الله عنه عن مسيره إلى صفين : هل كان بعهد عهده إليه رسول الله ﷺ أم رأى رآه ؟ قال : بل رأى رأيته .

وقال عبد الله بن مسعود وقد سئل عن المفوضة : أقول فيها برأيى ، فإن يكن صوابا فمن الله ، وإن يكن خطأ فمنى ومن الشيطان ، والله ورسوله منه برىء .

وقال ابن أبى خيثمة : ثنا أبى ، ثنا محمد بن خازم ، عن الأعمش ، عن القاسم بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن عبد الله بن مسعود ، قال: من عرض له منكم قضاء فليقض بما فى كتاب الله ،فإن لم يكن فى كتاب الله ،فليقض بما قضى فيه نبيه ﷺ، فإن جاء أمر ليس فى كتاب الله ، ولم يقض فيه نبيه ﷺ ، فليقض بما قضى به الصالحون، فإن جاء أمر ليس فى كتاب الله ولم يقض به نبيه ولم يقض به الصالحون فليجتهد رأيه،فإن لم يحسن ، فليقم ، ولا يستحى .

وذكر سفيان بن عيينة عن عبيد الله بن أبى يزيد قال : سمعت ابن عباس إذا سئل عن شىء ، فإن كان فى كتاب الله قال به ، وإن لم يكن فى كتاب الله ، وكان عن رسول الله ﷺ قال به ، فإن لم يكن فى كتاب الله ، ولا عن رسول الله ﷺ وكان عن أبى بكر وعمر قال به ، فإن لم يكن فى كتاب الله ولا عن رسول الله ﷺ ولا عن أبى بكر وعمر

اجتهد رأيه .

وقال ابن أبى خيثمة : حدثنى أبى ، حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، عن سفيان ، عن عبد الملك بن أبجر عن الشعبى ،عن مسروق ،قال : سألت أبى بن كعب عن شيء فقال: أكان هذا ؟ قلت : لا ، قال : فأجمنا (١) حتى يكون ، فإذا كان اجتهدنا لك رأينا . قال أبو عمر بن عبد البر : وروينا عن ابن عباس أنه أرسل إلى زيد بن ثابت : أفى كتاب الله ثلث ما بقى ؟ فقال : أنا أقول برأيى ، وتقول برأيك .وعن ابن عمر أنه سئل عن شيء فعله : أرأيت رسول الله ﷺ فعل هذا أو شيء رأيته ؟ قال : بل شيء رأيته . وعن أبى هريرة أنه كان إذا قال فى شيء برأيه قال : هذه من كيسى. ذكره ابن وهب عن سليمان ابن بلال عن كثير بن زيد عن وليد بن رباح عن أبى هريرة .

وكان أبو الدرداء يقول : إياكم وفراسة العلماء ، احذروا أن يشهدوا عليكم شهادة تكبكم على وجوهكم فى النار ، فوالله إنه للحق يقذفه الله فى قلوبهم . قلت : وأصل هذا فى الترمذى مرفوعا :« اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » (٢) ثم قرأ :﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ** ﴾ [الحجر : ٧٥] .

وقال أبو عمر : ثنا عبد الوارث بن سفيان ، ثنا قاسم بن أصبغ ، ثنا محمد بن عبد السلام الخشنى ، ثنا إبراهيم بن أبى الفياض البرقى الشيخ الصالح ، ثنا سليمان بن بزيع الإسكندرانى ، ثنا مالك بن أنس عن يحيى بن سعيد الأنصارى ، عن سعيد بن المسيب ، عن على ، قال : قلت : يا رسول الله ، الأمر ينزل بنا لم ينزل فيه القرآن ، ولم تمض فيه منك سنة ، قال :« اجمعوا له العالمين ـ أو قال : العابدين ـ من المؤمنين فاجعلوه شورى بينكم ، ولا تقضوا فيه برأى واحد » (٣) وهذا غريب جدا من حديث مالك ، وإبراهيم البرقى وسليمان ليسا ممن يحتج بهما ، وقال عمر لعلى وزيد : لولا رأيكما لاجتمع رأيى ورأى أبى بكر ، كيف يكون ابنى ، ولا أكون أباه ، يعنى : الجد.

وعن عمر أنه لقى رجلا فقال : ما صنعت ؟ قال ، قضى على وزيد بكذا ، قال : لو

---

(١) أى : أرحنا .

(٢) الترمذى (٣١٢٧) فى تفسير القرآن ، باب : ومن سورة الحجر ، وقال :« غريب »، والطبرانى فى الكبير ٨ / ١٢١(٧٤٩٧) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠ / ٢٦٨) :« إسناده حسن »، والكامل فى الضعفاء (٤ / ٢٠٧)، وضعفه الألبانى .

(٣) جامع بيان العلم وفضله (٢ / ٥٩)، وانظر الكلام عليه فى : كنز العمال (٤١٨٨) .

كنت أنا لقضيت بكذا ، قال : فما منعك والأمر إليك ؟ قال : لو كنت أدرك إلى كتاب الله أو إلى سنة نبيه ﷺ لفعلت ، ولكنى أدرك إلى رأى ، والرأى مشترك ، فلم ينقض ما قال على وزيد .وذكر الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود أنه قال : إن الله اطلع فى قلوب العباد، فرأى قلب محمد ﷺ خير القلوب فاختاره لرسالته ،ثم اطلع فى قلوب العباد بعده، فرأى قلوب أصحابه خير قلوب العباد ، فاختارهم لصحبته ،فما رآه المؤمنون حسنا ، فهو عند الله حسن ، وما رآه المؤمنون قبيحا ، فهو عند الله قبيح .

وقال ابن وهب عن ابن لهيعة أن عمر بن عبد العزيز استعمل عروة بن محمد السعدى على اليمن ، وكان من صالحى عمال عمر ، وأنه كتب إلى عمر يسأله عن شيء من أمر القضاء ، فكتب عليه عمر : لعمرى ما أنا بالنشيط على الفتيا ما وجدت منها بدا ، وما جعلتك إلا لتكفينى ، وقد حملت ذلك فاقض فيه برأيك .

وقال محمد بن سعد : أخبرنى روح بن عبادة ، ثنا حماد بن سلمة عن الجريرى أن أبا سلمة بن عبد الرحمن ،قال للحسن : أرأيت ما تفتى به الناس أشيء سمعته ،أم برأيك؟ فقال الحسن :لا والله ما كل ما نفتى به سمعناه ، ولكن رأينا لهم خير من رأيهم لأنفسهم.

وقال محمد بن الحسن :من كان عالما بالكتاب والسنة وبقول أصحاب رسول الله ﷺ، وبما استحسن فقهاء المسلمين ، وسعه أن يجتهد رأيه فيما ابتلى به ويقضى به ويمضيه فى صلاته وصيامه وحجه ، وجميع ما أمر به ، ونهى عنه ، فإذا اجتهد ونظر وقاس على ما أشبه ، ولم يأل وسعه العمل بذلك ، وإن أخطأ الذى ينبغى أن يقول به .

تفسير الرأى وتوضيح المراد مما سبق

ولا تعارض بحمد الله بين هذه الآثار عن السادة الأخيار ، بل كلها حق ، وكل منها له وجه ، وهذا إنما يتبين بالفرق بين الرأى الباطل الذى ليس من الدين ، والرأى الحق الذى لا مندوحة عنه لأحد المجتهدين ، فنقول وبالله المستعان :

الرأى فى الأصل:مصدر رأى الشيء يراه رأيا ،ثم غلب استعماله على المرئى نفسه من باب استعمال المصدر فى المفعول،كالهوى فى الأصل مصدر هويه يهواه هوى ، ثم استعمل فى الشيء الذى يهوى، فيقال : هذا هوى فلان ، والعرب تفرق بين مصادر فعل الرؤية بحسب محالها ، فتقول : رأى كذا فى النوم رؤيا ، ورآه فى اليقظة رؤية ، ورأى كذا لما يعلم بالقلب ، ولا يرى بالعين رأيا ، ولكنهم خصوه بما يراه القلب ، بعد فكر وتأمل

وطلب لمعرفة وجه الصواب ، مما تتعارض فيه الأمارات ، فلا يقال لمن رأى بقلبه أمرا غائبا عنه مما يحس به أنه رأيه ،ولا يقال : أيضا للأمر المعقول الذى لا تختلف فيه العقول، ولا تتعارض فيه الأمارات أنه رأى وإن احتاج إلى فكر وتأمل كدقائق الحساب ونحوها .

وإذا عرف هذا فالرأى ثلاثة أقسام :

رأى باطل بلا ريب ، ورأى صحيح ، ورأى هو موضع الاشتباه . والأقسام الثلاثة قد أشار إليها السلف فاستعملوه الرأى الصحيح ، وعملوا به ، وأفتوا به .وسوغوا القول به وذموا الباطل ، ومنعوا من العمل والفتيا والقضاء به ، وأطلقوا ألسنتهم بذمه وذم أهله .

والقسم الثالث:سوغوا العمل والفتيا والقضاء به عند الاضطرار إليه حيث لا يوجد منه بد ولم يلزموا أحدا العمل به ، ولم يحرموا مخالفته ، ولا جعلوا مخالفه مخالفا للدين ، بل غايته أنهم خيروا بين قبوله ورده فهو بمنزلة ما أبيح للمضطر من الطعام والشراب الذى يحرم عند عدم الضرورة إليه كما قال الإمام أحمد : سألت الشافعى عن القياس فقال لى : عند الضرورة ، وكان استعمالهم لهذا النوع بقدر الضرورة لم يفرطوا فيه ويفرعوه ويولدوه ويوسعوه كما صنع المتأخرون بحيث اعتاضوا به عن النصوص والآثار ، وكان أسهل عليهم من حفظها ، كما يوجد كثير من الناس يضبط قواعد الإفتاء لصعوبة النقل عليه ، وتعسر حفظه ، فلم يتعدوا فى استعماله قدر الضرورة ، ولم يبغوا بالعدول إليه مع تمكنهم من النصوص والآثار كما قال الله تعالى فى المضطر إلى الطعام المحرم: ﴿ **فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [البقرة : ١٧٣] ، فالباغى الذى يبتغى الميتة مع قدرته على التوصل إلى المذكى ، والعادى الذى يتعدى قدر الحاجة بأكلها .

فالرأى الباطل أنواع :

أحدها : الرأى المخالف للنص ، وهذا مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام فساده وبطلانه ، ولا تحل الفتيا به ، ولا القضاء وإن وقع فيه من وقع بنوع تأويل وتقليد .

النوع الثانى : هو الكلام فى الدين بالخرص والظن مع التفريط والتقصير فى معرفة النصوص وفهمها ، واستنباط الأحكام منها ، فإن من جهلها وقاس برأيه ، فما سئل عنه بغير علم ، بل لمجرد قدر جامع بين الشيئين الحق ، أحدهما بالآخر أو لمجرد قدر فارق يراه بينهما ، يفرق بينهما فى الحكم من غير نظر إلى النصوص والآثار ، فقد وقع فى الرأى المذموم الباطل .

وأصل النوع الثالث :الرأى المتضمن تعطيل أسماء الرب وصفاته وأفعاله بالمقاييس

الباطلة التى وضعها أهل البدع والضلال من الجهمية والمعتزلة والقدرية ، ومن ضاهاهم حيث استعمل أهله قياساتهم الفاسدة وآراءهم الباطلة ، وشبههم الداحضة فى رد النصوص الصحيحة الصريحة ،فردوا لأجلها ألفاظ النصوص التى وجدوا السبيل إلى تكذيب رواتها، وتخطئتهم معانى النصوص التى لم يجدوا إلى رد ألفاظها سبيلا ، فقابلوا النوع الأول بالتكذيب، والنوع الثانى بالتحريف والتأويل فأنكروا لذلك رؤية المؤمنين لربهم فى الآخرة ، وأنكروا كلامه وتكليمه لعباده ،وأنكروا مباينته للعالم،واستواءه على عرشه ،وعلوه على المخلوقات وعموم قدرته على كل شىء،بل أخرجوا أفعال عباده من الملائكة والأنبياء والجن والإنس عن تعلق قدرته ومشيئته وتكوينه لها ، ونفوا لأجلها حقائق أخبر به عن نفسه وأخبر به رسوله من صفات كماله ونعوت جلاله ،وحرفوا لأجلها النصوص عن موضعها، وأخرجوها عن معانيها وحقائقها بالرأى المجرد الذى حقيقته أنه ذبالة الأذهان ، ونخالة الأفكار ، وعفارة الآراء ، ووساوس الصدور ، فملؤوا به الأوراق سوادا ، والقلوب شكوكا ، والعالم فسادا .

وكل من له مسكة من عقل يعلم أن فساد العالم وخرابه إنما نشأ من تقديم الرأى على الوحى ، والهوى على العقل ، وما استحكم هذان الأصلان الفاسدان فى قلب إلا استحكم هلاكه ، وفى أمة إلا وفسد أمرها أتم فساد ، فلا إله إلا الله . كم نفى بهذه الآراء من حق . وأثبت بها من باطل ، وأميت بها من هدى . وأحيى بها من ضلالة ، وكم هدم بها من معقل الإيمان ، وعُمر بها من دين الشيطان ، وأكثر أصحاب الجحيم : هم أهل هذه الآراء الذين لا سمع لهم ،ولا عقل ، بل هم شر من الحُمر ،وهم الذين يقولون يوم القيامة :﴿ **لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ** ⦗١٠⦘ ﴾ [الملك] .

النوع الرابع : الرأى الذى أحدثت به البدع ، وغيرت به السنن ، وعم به البلاء وتربى عليه الصغير ، وهرم فيه الكبير ، فهذه الأنواع الأربعة من الرأى الذى اتفق سلف الأمة وأئمتها ، على ذمه وإخراجه من الدين .

النوع الخامس : ما ذكره أبو عمر بن عبد البر عن جمهور أهل العلم أن الرأى المذموم فى هذه الآثار عن النبى ﷺ ، وعن أصحابه والتابعين ﷺ أنه القول فى أحكام شرائع الدين بالاستحسان والظنون ، والاشتغال بحفظ المعضلات والأغلوطات ، ورد الفروع بعضها على بعض قياسا دون ردها على أصولها والنظر فى عللها واعتبارها ، فاستعمل فيها الرأى قبل أن ينزل ، وفرعت وشقت قبل أن تقع ، وتكلم فيها قبل أن يكون بالرأى المضارع للظن ،قالوا :وفى الاشتغال بهذا والاستغراق فيه تعطيل السنن والبعث على

جهلها، وترك الوقوف على ما يلزم الوقوف عليه منها ، ومن كتاب الله عز وجل ومعانيه ، احتجوا على ما ذهبوا إليه بأشياء (١) .

الآثار عن التابعين فى ذم الرأى

قالوا : ومن تدبر الآثار المروية فى ذم الرأى وجدها لا تخرج عن هذه الأنواع المذمومة، ونحن نذكر آثار التابعين ، ومن بعدهم بذلك ، ليتبين مرادهم ، قال الخشنى : ثنا محمد بن بشار ، ثنا يحيى بن سعيد القطان ،عن مجالد ،عن الشعبى .قال : لعن الله أرأيت ،قال :يحيى بن سعيد :وحدثنا صالح بن مسلم ،قال :سألت الشعبى عن مسألة من النكاح، فقال إن أخبرتك برأيى قبُلْ عليه قالوا : فهذا قول الشعبى فى رأيه، وهو من كبار التابعين ،وقد لقى مائة وعشرين من الصحابة ،وأخذ عن جمهورهم.

وقال الطحاوى : ثنا سليمان بن شعيب ، حدثنا عبد الرحمن بن خالد ، ثنا مالك بن مغول عن الشعبى ، قال :ما جاءكم به هؤلاء من أصحاب رسول الله ﷺ ، فخذوه ، وما كان من رأيهم ، فاطرحوه فى الحش (٢) .

وقال البخارى : ثنا سنيد بن داود ، ثنا حماد بن زيد ، عن زيد ، عن عمرو بن دينار قال : قيل لجابر بن زيد :إنهم يكتبون ما يسمعون منك ، قال : إنا لله وإنا إليه راجعون : يكتبونه وأنا أرجع عنه غدا .

قال إسحاق بن راهويه ، قال سفيان بن عيينة : اجتهاد الرأى هو مشاورة أهل العلم، لا أن يقول هو برأيه .

وقال ابن أبى خيثمة : حدثنا الحوطى ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، عن سوادة بن زياد وعمرو بن المهاجر ، عن عمر بن عبد العزيز : أنه كتب إلى الناس أنه لا رأى لأحد مع سنة سنها رسول الله ﷺ . قال أبو بصيرة :سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن يقول للحسن البصرى : بلغنى أنك تفتى برأيك فلا تفت برأيك إلا أن يكون سنة عن رسول الله ﷺ .

وقال البخارى : حدثنى محمد بن محبوب ، حدثنا عبد الواحد ، حدثنا ابن الزبرقان، ابن عبد الله الأسيدى أن أبا وائل شقيق بن سلمة قال : إياك ومجالسة من يقول : أرأيت أرأيت .

---

(١) إعلام الموقعين (١ / ٥٧ ـ ٧٣) .

(٢) الحش بضم الحاء وفتحها وكسرها : البستان والمخرج أيضا ، لأنهم كانوا يقضون حوائجهم فى البساتين.

وقال أبان بن عيسى بن دينار ، عن أبيه ، عن ابن القسم ، عن مالك ، عن ابن شهاب ، قال : دعوا السنة تمضى لا تعرضوا لها بالرأى .

وقال يونس عن أبى الأسود ، وهو محمد بن عبد الرحمن بن نوفل سمعت عروة بن الزبير يقول : ما زال أمر بنى إسرائيل معتدلا ، حتى نشأ فيهم المولدون أبناء سبايا الأمم ، فأخذوا فيهم بالرأى ، فأضلوهم . وذكر ابن وهب عن ابن شهاب أنه قال وهو يذكر ما وقع فيه الناس من هذا الرأى ، وتركهم السنن ، فقال : إن اليهود والنصارى إنما انسلخوا من العلم الذى بأيديهم حين اتبعوا الرأى ، وأخذوا فيه .وقال ابن وهب :حدثنى ابن لهيعة أن رجلا سأل سالم بن عبد الله بن عمر عن شىء فقال : لم أسمع فى هذا شيئا ، فقال له الرجل : فأخبرنى أصلحك الله برأيك ، فقال : لا ، ثم أعاد عليه ، فقال : إنى أرضى برأيك ، فقال سالم : إنى لعلى إن أخبرتك برأيى ثم تذهب . فأرى بعد ذلك رأيا غيره ، فلا أجدك .

وقال البخارى :حدثنا عبد العزيز بن عبد الله الأويسى ،حدثنا مالك بن أنس ، قال : كان ربيعة يقول لابن شهاب : إن حالى ليس يشبه حالك أنا أقول برأيى ، من شاء أخذه ، وعمل به ، ومن شاء تركه .

وقال الفريابى :حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقى،قال :سمعت عبد الرحمن بن مهدى يقول : سمعت حماد بن زيد يقول : قيل لأيوب السختيانى : مالك لا تنظر فى الرأى ؟ فقال أيوب : قيل للحمار : مالك لا تجتر ؟ قال : أكره مضغ الباطل .

وقال الفريابى : حدثنا العباس بن الوليد بن مزيد : أخبرنى أبى ، قال سمعت الأوزاعى يقول : عليك بآثار من سلف ، وإن رفضك الناس ، وإياك وآراء الرجال وإن زخرفوا لك القول .

وقال أبو زرعة : حدثنا أبو مسهر ، قال : كان سعيد بن عبد العزيز إذا سئل لا يجيب حتى يقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، هذا الرأى ، والرأى يخطئ ويصيب .

وقد روى أبو يوسف ، والحسن بن زياد ، كلاهما عن أبى حنيفة أنه قال : علمنا هذا الرأى ، وهو أحسن ما قدرنا عليه ، ومن جاءنا بأحسن منه قبلناه منه .

وقال الطحاوى :حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ،ثنا أشهب بن عبد العزيز، قال : كنت عند مالك فسئل عن البتة ، فأخذت ألواحى ؛ لأكتب ما قال ،فقال لى مالك :

لا تفعل ، فعسى فى العشى أقول : إنها واحدة . وقال معن بن عيسى القزاز : سمعت مالكا يقول : إنما أنا بشر أخطئ وأصيب ، فانظروا فى قولى ، فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوا به، وما لم يوافق الكتاب والسنة ، فاتركوه . فرضى الله عن أئمة الإسلام ، وجزاهم عن نصيحتهم خيرًا ، ولقد امتثل وصيتهم ، وسلك سبيلهم أهل العلم والدين من أتباعهم .

وأما المتعصبون فإنهم عكسوا القضية ونظروا فى السنة فما وافق أقوالهم منها ،قبلوه ، وما خالفها تحيلوا فى رده دلالته ، وإذا جاء نظير ذلك ، أو أضعف منه سندًا ودلالة ، وكان يوافق قولهم قبلوه ، ولم يستجيزوا رده ، واعترضوا به على منازعيهم ، وأشاحوا وقرروا الاحتجاج بذلك السند ودلالته ، فإذا جاء ذلك السند بعينه ، أو أقوى منه ، ودلالتُه كدلالة ذلك أو أقوى منه فى خلاف قولهم ، دفعوه . ولم يقبلوه ؛ وسنذكر من هذا ـ إن شاء الله ـ طرفا عند ذكر غائلة التقليد وفساده ، والفرق بينه وبين الاتباع .

كلام أئمة الفقهاء عن الرأى

وقال بقى بن مخلد : ثنا سحنون ؛ والحارث بن مسكين ، عن ابن القاسم، عن مالك أنه كان يكثر أن يقول : ﴿ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢) ﴾ [الجاثية] .

وقال القعنَبى : دخلت على مالك بن أنس فى مرضه الذى مات فيه ، فسلمت عليه ، ثم جلست ، فرأيته يبكى ، فقلت له : يا أبا عبد الله ، ما الذى يبكيك : فقال لى: يا بن قَعْنَب ، وما لى لا أبكى ، ومن أحق بالبكاء منى ؟ والله لوددت أنى ضربت بكل مسألة أفتيت فيها بالرأى سوطًا،وقد كانت لى السعة فيما قد سبقت إليه ، وليتنى لم أُفْت بالرأى.

وقال ابن أبى داود : ثنا أحمد بن سنان ، قال : سمعت الشافعى يقول : مثل الذى ينظر فى الرأى ، ثم يتوب منه مثل المجنون الذى عولج حتى برأ ، فأعْقَلُ ما يكون قد هاج به .

وقال ابن أبى داود حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل ، قال : سمعت أبى يقول : لا تكاد ترى أحدًا نظر فى الرأى إلا وفى قلبه دَغَلٌ . وقال عبد الله بن أحمد أيضًا : سمعت أبى يقول : الحديث الضعيف أحب إلىّ من الرأى ، فقال عبد الله :سألت أبى عن الرجل يكون ببلد ،لا يجد فيه إلا صاحب حديث،لا يعرف صحيحه من سقيمه، وأصحاب رأى ، فتنزل به النازلة ، فقال أبى : يسأل أصحاب الحديث ، ولا يسأل أصحاب الرأى ، ضعيف

الحديث أقوى من الرأى :

وأصحاب أبى حنيفة ـ رحمه الله ـ مجمعون على أن مذهب أبى حنيفة أن ضعيف الحديث عنده أولى من القياس والرأى ، وعلى ذلك بنى مذهبه كما قدم حديث القَهْقَهَة مع ضعْفه على القياس والرأى ، وقدم حديث الوضوء بنبيذ التمر فى السفر مع ضعفه على الرأى والقياس ، ومنع قطع السارق بسرقة أقل من عشرة دراهم ، والحديث فيه ضعيف ، وجعل أكثر الحيض عشرة أيام ، والحديث فيه ضعيف ، وشرط فى إقامة الجمعة المِصْرَ ، والحديث فيه كذلك ، وترك القياس المحض فى مسائل الآبار لآثار فيها غير مرفوعة ، فتقدم الحديث الضعيف ، وآثار الصحابة على القياس والرأى قوله وقول الإمام أحمد .

وليس المراد بالحديث الضعيف فى اصطلاح السلف هو الضعيف فى اصطلاح المتأخرين، بل ما يسميه المتأخرون حسنًا قد يسميه المتقدمون ضعيفًا ، كما تقدم بياه .

والمقصود أن السلف جميعهم على ذم الرأى والقياس المخالف للكتاب والسنة ، وأنه لا يحل العمل به لا فُتيا ولا قضى ، وأن الرأى الذى لا يعلم مخالفته للكتاب والسنة ، ولا موافقته ، فغايته أن يسوغ العمل به عند الحاجة إليه من غير إلزام ، ولا إنكار على من خالفه .

قال أبو عمر بن عبد البر: حدثنا عبد الرحمن بن يحيى ، ثنا أحمد بن سعيد بن حزم ، ثنا عبد الله بن يحيى ، عن أبيه أنه كان يأتى ابن وهب ، فيقول له : من أين ؟ فيقول له من عند ابن القاسم ، فيقول له ابن وهب : اتق الله ، فإن أكثر هذه المسائل رأى.

وقال الحافظ أبو محمد ، ثنا عبد الرحمن بن سلمة ، ثنا أحمد بن خليل ، ثنا خالد ابن سعيد ، أخبرنى محمد بن عمر بن كنانة ، ثنا أبان بن عيسى بن دينار ، قال كان أبى قد أجمع على ترك الفتيا بالرأى ، وأحب الفتيا بما روى من الحديث ، فأعجلته المنية عن ذلك.

وقال أبو عمر : وروى الحسن بن واصل أنه قال : إنما هلك من كان قبلكم حين تشعبت بهم السُّبُل ، وحادوا عن الطريق ، وتركوا الآثار ، وقالوا فى الدين برأيهم ، فَضلُّوا وأضَلُّوا . قال أبو عمر : وذكر نعيم بن حماد ، عن أبى معاوية ، عن الأعمش ، عن مسلم ، عن مسروق : من يرغب برأيه عن أمر الله يضل .

وذكر ابن وهب قال : أخبرنى بكر بن نصر عن رجل من قريش أنه سمع ابن شهاب يقول : وهو يذكر ما وقع فيه الناس من هذا الرأى ، وتركهم السنن، فقال : إن اليهود

والنصارى إنما انسلخوا من العلم الذى كان بأيديهم حين اشتقوا الرأى ، وأخذوا فيه .

وذكر ابن جرير فى كتاب تهذيب الآثار له عن مالك . قال : قبض رسول الله ﷺ ، وقد تم هذا الأمر ، واستكمل ، فإنما ينبغى أن تتبع آثار رسول الله ﷺ ولا يتبع الرأى ، فإنه من اتبع الرأى جاء رجل آخر أقوى منه فى الرأى ، فاتبعه ، فأنت كلما جاء رجل غلبك اتبعته .

وقال نعيم بن حماد حدثنا ابن المبارك ، عن عبد الله بن وهب أن رجلا جاء إلى القاسم بن محمد ، فسأله عن شيء ، فأجابه ، فلما ولى الرجل ،دعاه ،فقال له : لا تقل إن القاسم زعم أن هذا هو الحق ، ولكن إذا اضطررت إليه عملت به .

وقال أبو عمر : قال ابن وهب : قال لى مالك بن أنس - وهو ينكر كثرة الجواب للمسائل : يا أبا عبد الله ، ما علمته ، فقل به ودل عليه ، وما لم تعلم فاسكت ، وإياك أن تتقلد للناس قلادة سوء ، قال أبو عمر : وذكر محمد بن الحارث بن أسد الخشنى : أنبأنا أبو عبد الله محمد بن عباس النحاس ، قال : سمعت أبا عثمان سعيد بن محمد الحداد ، يقول : سمعت سحنون بن سعيد ، يقول : ما أدرى ما هذا الرأى سفكت به الدماء ، واستحلت به الفروج ، واستحقت به الحقوق غير أنا رأينا رجلا صالحا ،فقلدناه .

وقال سلمة بن شبيب : سمعت أحمد يقول : رأى الشافعى ، ورأى مالك ، ورأى أبى حنيفة كله عندى رأى ، وهو عندى سواء ، وإنما الحجة فى الآثار ، وقال أبو عمر بن عبد البر : أنشدنى عبد الرحمن بن يحيى ، أنشدنا أبو على الحسن بن الخضر الأسيوطى بمكة ، أنشدنا عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه :

دين النبى محمد آثار ... نعم المطية للفتى الأخبار

لا تخدعن عن الحديث وأهله ... فالرأى ليل ، والحديث نهار

ولربما جهل الفتى طرق الهدى ... والشمس طالعة لها أنوار

ولبعض أهل العلم :

العلم : قال الله ، قال رسوله ... قال الصحابة ليس خلف فيه

ما العلم نصبك للخلاف سفاهة ... بين النصوص ، وبين رأى سفيه

كلا ولا نصب الخلاف جهالة ... بين الرسول ، وبين رأى فقيه

كلا ولا رد النصوص تعمدا ... حذرا من التجسيم والتشبيه

حاشا النصوص من الذى رميت بـه من فرقـة التعطيـل والتمـويه [(١)]

فصل
فى الرأى المحمود

وهو أنواع :

النوع الأول : رأى أفقه الأمة ، وأبر الأمة قلوبا ، وأعمقهم علما ، وأقلهم تكلفا ، وأصحهم قصودا ، وأكملهم فطرة ،وأتمهم إدراكا ،وأصفاهم أذهانا الذين شاهدوا التنزيل، وعرفوا التأويل ، وفهموا مقاصد الرسول فنسبة آراءهم وعلومهم وقصورهم إلى ما جاء به الرسول ﷺ كنسبتهم إلى صحبته . والفرق بينهم وبين من بعدهم فى ذلك كالفرق بينهم وبينهم فى الفضل ، فنسبة رأى من بعدهم إلى رأيهم كنسبة قدرهم إلى قدرهم .

النوع الثانى : من الرأى المحمود : الرأى الذى يفسر النصوص ، ويبين وجه الدلالة منها ، ويقررها ، ويوضح محاسنها ، ويسهل طريق الاستنباط منها ، كما قال عبدان : سمعت عبد الله بن المبارك يقول : ليكن الذى تعتمد عليه الأثر ، وخذ من الرأى ما يفسر لك الحديث ،وهذا هو الفهم الذى يختص الله ـ سبحانه ـ به من يشاء من عباده .

النوع الثالث من الرأى المحمود : الذى تواطأت عليه الأمة ، وتلقاه خلفهم عن سلفهم ، فإن ما تواطؤوا عليه من الرأى لا يكون إلا صوابا، كما تواطؤوا عليه من الرواية والرؤيا ، وقد قال النبى ﷺ لأصحابه ، وقد تعددت منهم رؤيا ليلة القدر فى العشر الأواخر من رمضان :« أرى رؤياكم قد تواطأت فى السبع الأواخر » فاعتبر ﷺ تواطؤ رؤيا المؤمنين ، فالأمة معصومة فيما توطأت عليه من روايتها ورؤياها ، ولهذا كان من سداد الرأى وإصابته أن يكون شورى بين أهله ، ولا ينفرد به واحد ، وقد مدح الله ـ سبحانه ـ المؤمنين بكون أمرهم شورى بينهم ، وكانت النازلة إذا نزلت بأمير المؤمنين عمر ابن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ليس عنده فيها نص عن الله ، ولا عن رسوله ، جمع لها أصحاب رسول الله ﷺ ثم جعلها شورى بينهم .

قال البخارى :حدثنا سنيد ، حدثنا يزيد عن العوام بن حوشب عن المسيب بن رافع ، قال : كان إذا جاءه الشىء من القضاء ، ليس فى الكتاب ، ولا فى السنة سمى صوافى الأمر ، فرفع إليهم فجمع له أهل العلم ، فإذا اجتمع عليه رأيهم الحق .

---

(١) إعلام الموقعين (١ / ٧٧ ـ ٨٤) .

وقال محمد بن سليمان الباغندى : حدثنا عبد الرحمن بن يونس ، حدثنا عمر بن أيوب، أخبرنا عيسى بن المسيب ، عن عامر عن شريح القاضى ، قال : قال لى عمر بن الخطاب : أن اقض بما استبان لك من قضاء رسول الله ﷺ ، فإن لم تعلم كل أقضية رسول الله ، فاقض بما استبان لك من أئمة المهتدين ، فإن لم تعلم كل ما قضت به أئمة المهتدين ، فاجتهد رأيك ، واستشر أهل العلم والصلاح .

وقال الحميدى : ثنا سفيان ، حدثنا الشيبانى ، عن الشعبى ، قال : كتب عمر إلى شريح : إذا حضرك أمر لابد منه ، فانظر ما فى كتاب الله ، فاقض به ، فإن لم يكن ، ففيما قضى به رسول الله ﷺ ، فإن لم يكن ففيما قضى به الصالحون ، وأئمة العدل ، فإن لم يكن فأنت بالخيار، فإن شئت أن تجتهد رأيك، فاجتهد رأيك، وإن شئت أن تؤامرنى، ولا أرى مؤامرتك إياى إلا خيرا لك والسلام .

النوع الرابع : من الرأى المحمود أن يكون بعد طلب علم الواقعة من القرآن ، فإن لم يجدها فى القرآن ، ففى السنة ، فإن لم يجدها فى السنة فبما قضى به الخلفاء الراشدون أو اثنان منهم أو واحد ، فإن لم يجده فيما قاله واحد من الصحابة ﷺ فإن لم يجده اجتهد رأيه ، ونظر إلى أقرب ذلك من كتاب الله ، وسنة رسوله ﷺ ، وأقضية أصحابه ، فهذا هو الرأى الذى سوغه الصحابة ، واستعملوه وأقر بعضهم بعضا عليه .

قال على بن الجعد : أنبأنا شعبة عن سيار عن الشعبى ، قال : أخذ عمر فرسا من رجل على سوم ، فحمل عليه ، فعطب ، فخاصمه الرجل ، فقال عمر : اجعل بينى وبينك رجلا ، فقال الرجل : إنى أرضى بشريح العراقى ، فقال شريح : أخذته صحيحا سليما ، فأنت له ضامن حتى ترده صحيحا سليما ، قال : فكأنه أعجبه ، فبعثه قاضيا ، وقال : ما استبان لك من كتاب الله ، فلا تسأل عنه ، فإن لم يستبن فى كتاب الله ، فمن السنة ، فإن لم تجده فى السنة ، فاجتهد رأيك .

وقال أبو عبيد : ثنا كثير بن هشام عن جعفر بن برقان، وقال أبو نعيم عن جعفر بن برقان ، عن معمر البصرى ، عن أبى العوام ، وقال سفيان بن عيينة ثنا إدريس أبو عبد الله ابن إدريس قال: أتيت سعيد بن أبى بردة فسألته عن رسل عمر بن الخطاب التى كان يكتب بها إلى أبى موسى الأشعرى ، وكان أبو موسى قد أوصى إلى أبى بردة ، فأخرج إليه كتبا ،

---

(١) البخارى (٢٠١٥) فى فضل ليلة القدر ، باب : التماس ليلة القدر فى السبع الأواخر ، ومسلم (١١٦٥ / ٢٠٥) فى الصيام، باب : فضل ليلة القدر والحث على طلبها ، ومالك ١ / ٣٣١ (١٤) فى الاعتكاف ، باب : ما جاء فى ليلة القدر .

فرأيت فى كتاب منها (١) .

فصل
فى الفهم الواجب على المفتى

ولا يتمكن المفتى، ولا الحاكم من الفتوى، والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم أحدهما: فهم الواقع ، والفقه فيه ، واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات ، حتى يحيط به علما ، والنوع الثانى : فهم الواجب فى الواقع ،وهو فهم حكم الله الذى حكم به فى كتابه ، أو على لسان رسوله فى هذا الواقع ، ثم يطبق أحدهما على الآخر ، فمن بذل جهده ، واستفرغ وسعه فى ذلك ، لم يعدم أجرين أو أجرا ، فالعالم من يتوصل بمعرفة الواقع والتفقه فيه إلى معرفه حكم الله ورسوله ، كما توصل شاهد يوسف بشق القميص من دبر إلى معرفة براءته وصدقه ، وكما توصل سليمان صلى الله عليه وسلم بقوله :« ائتونى بالسكين حتى أشق الولد بينكما » (٢) إلى معرفة عين الأم،وكما توصل أمير المؤمنين على عليه السلام بقوله للمرأة التى حملت كتاب حاطب لما أنكرته: « لتخرجن الكتاب ، أو لنجردنك » (٣) إلى استخراج الكتاب منها ، وكما توصل الزبير بن العوام ، بتعذيب أحد بنى أبى الحقيق بأمر رسول الله ﷺ حتى دلهم على كنز حيى،لما ظهر له كذبه فى دعوى ذهابه بالإنفاق بقوله :المال كثير ،والعهد أقرب من ذلك(٤)، وكما توصل النعمان بن بشير بضرب المتهمين بالسرقة إلى ظهور المال المسروق عندهم،فإن ظهر وإلا ضرب من اتهمهم،كما ضربهم وأخبر أن هذا حكم رسول الله ﷺ.

ومن تأمل الشريعة وقضايا الصحابة وجدها طافحة بهذا ، ومن سلك غير هذا أضاع على الناس حقوقهم ونسبه إلى الشريعة التى بعث الله بها رسوله (٥) .

(١) إعلام الموقعين (١ / ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٨٩ ـ ٩١) .

(٢) البخارى (٣٤٢٧) فى الأنبياء ، باب : قول الله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ [ص] ، ومسلم (١٧٢٠ / ٢٠) فى الأقضية، باب : بيان اختلاف المجتهدين ، والنسائى (٥٤٠٢) فى القضاة ، باب : حكم الحاكم بعلمه ، وأحمد (٢ / ٣٤٠) .

(٣) البخارى(٣٠٨١) فى الجهاد ، باب : إذا اضطر الرجل إلى النظر فى شعور أهل الذمة والمؤمنات إذا عصين الله وتجريدهن ، وأحمد (١ / ١٠٥) .

(٤) ابن حبان (٥١٧٦) فى المزارعة ، والبيهقى فى الكبرى(٩ / ١٣٧) فى السير ، باب : من رأى قسمة الأراضى المغنومة ومن لم يرها .

(٥) إعلام الموقعين (١ / ٩٤ ، ٩٥) .



كتاب

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر



فصل
فى قيام الرسل عليهم السلام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

إنما بعث الله رسله ،وأنزل كتبه بالإنكار على الخلق بما هم عليه من أحكام البشرية وغيرها. فلهذا أرسلت الرسل ،وأنزلت الكتب ،وانقسمت الدار إلى دار سعادة للمنكرين ، ودار شقاوة للمنكر عليهم. فالطعن فى ذلك: طعن فى الرسل والكتب،والتخلص من ذلك: انحلال من ربقة الدين.

ومن تأمل أحوال الرسل مع أممهم: وجدهم كانوا قائمين بالإنكار عليهم أشد القيام،حتى لقوا الله تعالى،وأوصوا من آمن بهم بالإنكار على من خالفهم،وأخبر النبى ﷺ: أن المتخلص من مقامات الإنكار الثلاثة ليس معه من الإيمان حبة خردل ،وبالغ فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أشد المبالغة،حتى قال: « إن الناس إذا تركوه ؛ أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده » (١).

وأخبر: أن تركه يمنع إجابة دعاء الأخيار ،ويوجب تسلط الأشرار.

وأخبر: أن تركه يوقع المخالفة بين القلوب والوجوه،ويحل لعنة الله ،كما لعن الله بنى إسرائيل على تركه (٢) .

فصل
فى جواب النبى عن قوله تعالى:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾

سئل ﷺ عن قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [المائدة:١٠٥] فقال: « بل ائتمروا بالمعروف،وتناهوا عن المنكر،حتى إذا رأيت شحا مطاعاً ،وهوى متبعاً ،ودنيا مؤثرة،وإعجاب كل ذى رأى ،فعليك بخاصة نفسك،ودع عنك أمر العوام (٣) (٤) .

---

(١) أبو داود (٤٣٣٨) فى الملاحم ،باب:الأمر والنهى ،والترمذى (٢١٦٨)فى الفتن ، باب:ماجاء فى نزول العذاب إذا لم يغير المنكر ،وقال:« هذا حديث صحيح »،وابن ماجه (٤٠٠٥) فى الفتن ، باب :الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

(٢) مدارج السالكين (٣/ ١٢٣).

(٣) أبو داود (٤٣٤١) فى الملاحم،باب:الأمر والنهى،والترمذى (٣٠٥٨) فى تفسير القرآن ،باب:ومن سورة المائدة،وقال الترمذى:« حسن غريب »،وابن ماجه (٤٠١٤) فى الفتن ،باب:الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

(٤) إعلام الموقعين (٤/ ٣٤٤).

فصل
فى والى الحسبة

وأما الحكم بينهم [١] فيما لا يتوقف على الدعوى: فهو المسمى بالحسبة، والمتولى له: والى الحسبة .

وقد جرت العادة بإفراد هذا النوع بولاية خاصة، كما أفردت ولاية المظالم بولاية خاصة. والمتولى لها يسمى والى المظالم، وولاية المال قبضاً وصرفاً بولاية خاصة، والمتولى لذلك يسمى وزيراً ، وناظر البلد لإحصاء المال ووجوهه وضبطه ، تسمى ولايته : ولاية استيفاء . والمتولى لاستخراجه وتحصيله ممن هو عليه ، تسمى ولايته ولاية السر ، والمتولى لفصل الخصومات ، وإثبات الحقوق ، والحكم فى الفروج والأنكحة ، والطلاق والنفقات، وصحة العقود وبطلانها: المخصوص باسم الحاكم والقاضى، وإن كان هذا الاسم يتناول كل حاكم بين اثنين وقاض بينهما. فيدخل أصحاب هذه الولايات جميعهم تحت قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ** ﴾ [النساء:٥٨]، وتحت قوله تعالى : ﴿ **فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ** (٤٤) ﴾ [المائدة]، وقوله: ﴿ **فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** (٤٥) ﴾ [المائدة]، وقوله: ﴿ **فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** (٤٧) ﴾ [المائدة] ، وتحت قوله: ﴿ **وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ** ﴾ [المائدة:٤٩]، وقوله ﷺ: « القضاة ثلاثة » [٢]؛ وقوله: « من ولى القضاء فقد ذبح بغير سكين » [٣] وقوله ﷺ: « المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن ـ وكلتا يديه يمين ـ الذين يعدلون فى حكمهم، وأهليهم وما ولوا» [٤].

والمقصود: أن الحكم بين الناس فى النوع الذى لايتوقف على الدعوى: هو المعروف بولاية الحسبة.

وقاعدته وأصله: هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى بعث الله به رسله، وأنزل

---

(١) أى :الناس.

(٢) الحاكم فى المستدرك (٤/ ٩٠) ،وقال: « صحيح الإسناد ولم يخرجاه. . .إلخ »، وقال الذهبى : « ابن بكير الغنوى منكر الحديث ».

(٣) أبو داود (٣٥٧١) فى الأقضية ، باب : فى طلب القضاء.

(٤) مسلم (١٨٢٧/ ١٨) فى الإمارة باب : فضيلة الإمام العادل . . . إلخ ،والنسائى (٥٣٧٩) فى آداب القضاة ، باب : فضل الحاكم العادل فى حكمه ، وأحمد (٢/ ١٦٠).

به كتبه، ووصف به هذه الأمة ،وفضلها لأجله على سائر الأمم التى أخرجت للناس ،وهذا واجب على كل مسلم قادر، وهو فرض كفاية ويصير فرض عين على القادر الذى لم يقم به غيره من ذوى الولاية والسلطان فعليهم من الوجوب ماليس على غيرهم ، فإن مناط الوجوب: هو القدرة؛ فيجب على القادر مالا يجب على العاجز، قال تعالى: ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**﴾ [التغابن:١٦]، وقال النبى ﷺ: « إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم » (١).

وجميع الولايات الإسلامية: مقصودها الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، لكن من المتولين من يكون بمنزلة الشاهد المؤتمن، والمطلوب منه: الصدق، مثل صاحب الديوان، الذى وظيفته : أن يكتب المستخرج والمصروف ، والنقيب والعريف الذى وظيفته :إخبار ولى الأمر بالأحوال، ومنهم من يكون بمنزلة الآمر المطاع، والمطلوب منه: العدل، مثل الأمير والحاكم والمحتسب.

ومدار الولايات كلها على الصدق فى الإخبار ، والعدل فى الإنشاء ، وهما قرينان فى كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله ﷺ . قال تعالى : ﴿ **وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا** ﴾ [الأنعام:١١٥] وقال النبى ﷺ ـ لما ذكر الأمراء الظلمة: « من صدقهم بكذبهم ،وأعانهم على ظلمهم، فليس منى، ولست منه، ولا يرد على الحوض، ومن لم يصدقهم بكذبهم، ولم يعنهم على ظلمهم، فهو منى وأنا منه وسيرد على الحوض» (٢) وقال تعالى: ﴿ **هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢)** ﴾ [الشعراء] «فالأفاك » الكاذب، و« الأثيم » الظالم والفاجر . وقال تعالى: ﴿**لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦)** ﴾ [العلق] ، وقال النبى ﷺ: « عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة. وإياكم والكذب؛ فإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار »(٣).

ولهذا يجب على كل ولى أمر أن يستعين فى ولايته بأهل الصدق والعدل ، والأمثل فالأمثل ، وإن كان فيه كذب وفجور ؛ فإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ، وبأقوام لاخلاق لهم . قال عمر رضي الله عنه : « من قلد رجلاً على عصابة ،وهو يجد فى تلك العصابة

---

(١) البخارى (٧٢٨٨) فى الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب : الاقتداء بسنة رسول الله ﷺ ...إلخ ، ومسلم (١٣٣٧/ ٤١٢) فى الحج، باب فرض الحج مرة فى العمر.

(٢) النسائى (٤٢٠٧) فى البيعة ، باب : ذكر الوعيد لمن أعان أميرًا على الظلم ،وأحمد (٥/ ٣٨٤).

(٣) البخارى (٦٠٩٤) فى الأدب ، باب : قول الله تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩)**﴾ [التوبة] وما ينهى عن الكذب ، ومسلم (٢٦٠٧/ ١٠٥) فى البر والصلة والآداب ، باب: قبح الكذب وحسن الصدق وفضله.

من هو أرضى لله منه؛ فقد خان الله ورسوله وجماعة المؤمنين ».

والغالب: أنه لايوجد الكامل فى ذلك، فيجب تحرى خير الخيرين ، ودفع شر الشرين. وقد كان الصحابة ﷺ يفرحون بانتصار الروم والنصارى على المجوس عباد النار؛ لأن النصارى أقرب إليهم من أولئك ، وكان يوسف الصديق - عليه السلام - نائباً لفرعون مصر ، وهو وقومه مشركون، وفعل من الخير والعدل ما قدر عليه، ودعا إلى الإيمان بحسب الإمكان.

إذا عرف هذا ؛ فعموم الولايات وخصوصها، وما يستفيده المتولى بالولاية: يتلقى من الألفاظ والأحوال والعرف، وليس لذلك حد فى الشرع. فقد يدخل فى ولاية - القضاء - فى بعض الأزمنة - ما يدخل فى ولاية الحرب فى زمان ومكان آخر، وبالعكس. وكذلك الحسبة، وولاية المال. وجميع هذه الولايات فى الأصل ولايات دينية، ومناصب شرعية ، فمن عدل فى ولاية من هذه الولايات، وساسها بعلم وعدل، وأطاع الله ورسوله بحسب الإمكان؛ فهو من الأمراء الأبرار العادلين ، ومن حكم فيها بجهل وظلم؛ فهو من الظالمين المعتدين ، و﴿ **إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤)** ﴾ [الانفطار].

فولاية الحرب فى هذه الأزمنة ، فى البلاد الشامية والمصرية وما جاورها تختص بإقامة الحدود: من القتل ، والقطع، والجلد ، ويدخل فيها الحكم فى دعاوى التهم التى ليس فيها شهود ولا إقرار ، كما تختص ولاية القضاء بما فيه كتاب وشهود وإقرار ، من الدعاوى التى تتضمن إثبات الحقوق، والحكم بإيصالها إلى أربابها ، والنظر فى الأبضاع والأموال التى ليس لها ولى معين، والنظر فى حال نظار الوقوف، وأوصياء اليتامى ، وغير ذلك.

وفى بلاد أخرى - كبلاد الغرب - ليس لوالى الحرب مع القاضى حكم ، فى شىء، إنما هو منفذ لما يأمر به متولى القضاء.

وأما ولاية الحسبة : فخاصتها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فيما ليس من خصائص الولاة والقضاء وأهل الديوان ونحوهم . فعلى متولى الحسبة أن يأمر العامة بالصلوات الخمس فى مواقيتها ، ويعاقب من لم يصلِ بالضرب والحبس

وأما القتل : فإلى غيره . ويتعاهد الأئمة والمؤذنين فمن فرط منهم فيما يجب عليه من حقوق الأمة ، وخرج عن المشروع ؛ ألزمه به واستعان فيما يعجز عنه بوالى الحرب والقاضى (١).

(١) الطرق الحكمية (٢٤٥ - ٢٤٩).

فصل
فى قيام ولى الأمر بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

إن ولى الأمر يجب عليه أن يمنع من اختلاط الرجال بالنساء فى الأسواق، والفرج، ومجامع الرجال.

قال مالك رحمه الله و ﷺ: أرى للإمام أن يتقدم إلى الصناع فى قعود النساء إليهم ، وأرى لايترك المرأة الشابة تجلس إلى الصناع. فأما المرأة المتجالة والخادم الدون ، التى لا تتهم على القعود، ولايتهم من تقعد عنده ، فإنى لا أرى بذلك بأساً. انتهى.

فالإمام مسؤول عن ذلك والفتنة به عظيمة، قال ﷺ: « ماتركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء » (١) ، وفى حديث آخر: أنه قال للنساء: « لكن حافات الطريق» (٢).

ويجب عليه منع النساء من الخروج متزينات متجملات ، ومنعهن من الثياب التى يكن بها كاسيات عاريات، كالثياب الواسعة والرقاق ، ومنعهن من حديث الرجال فى الطرقات، ومنع الرجال من ذلك.

وإن رأى ولى الأمر أن يفسد على المرأة - إذا تجملت وتزينت وخرجت - ثيابها بحبر ونحوه ، فقد رخص فى ذلك بعض الفقهاء وأصاب، وهذا من أدنى عقوبتهن المالية.

وله أن يحبس المرأة إذا أكثرت الخروج من منزلها ، ولا سيما إذا خرجت متجملة ، بل إقرار النساء على ذلك إعانة لهن على الإثم والمعصية، والله سائل ولى الأمر عن ذلك.

وقد منع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ النساء من المشى فى طريق الرجال ، والاختلاط بهم فى الطريق.

فعلى ولى الأمر أن يقتدى به فى ذلك.

وقال الخلال فى جامعه : أخبرنى محمد بن يحيى الكحال: أنه قال لأبى عبد الله: أرى الرجل السوء مع المرأة ؟ قال : صح به . وقد أخبر النبى ﷺ : « أن المرأة إذا تطيبت

---

(١) البخارى (٥٠٩٦) فى النكاح ، باب : ما يتقى من شؤم المرأة وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ ﴾ [التغابن : ١٤] ، ومسلم (٩٧/٢٧٤٠) فى الذكر والدعاء ، باب : أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر...إلخ.

(٢) أبو داود (٥٢٧٢) فى الأدب باب : فى مشى النساء مع الرجال فى الطريق.

وخرجت من بيتها فهى زانية » (١) .

ويمنع المرأة إذا أصابت بخوراً أن تشهد عشاء الآخرة فى المسجد ، فقد قال النبى ﷺ : « المرأة إذا خرجت استشرفها الشيطان » (٢).

ولا ريب أن تمكين النساء من اختلاطهن بالرجال: أصل كل بلية وشر وهو من أعظم أسباب نزول العقوبات العامة، كما أنه من أسباب فساد أمور العامة والخاصة، واختلاط الرجال بالنساء سبب لكثرة الفوحش والزنا ، وهو من أسباب الموت العام ، والطواعين المتصلة.

ولما اختلط البغايا بعسكر موسى ،وفشت فيهم الفاحشة : أرسل الله عليهم الطاعون، فمات فى يوم واحد سبعون ألفاً . والقصة مشهورة فى كتب التفاسير.

فمن أعظم أسباب الموت العام: كثرة الزنا ، بسبب تمكين النساء من اختلاطهن بالرجال، والمشى بينهم متبرجات متجملات. ولو علم أولياء الأمر مافى ذلك من فساد الدنيا والرعية ـ قبل الدين ـ لكانوا أشد شىء منعاً لذلك.

قال عبدالله بن مسعود ﷺ :« إذا ظهر الزنا فى قرية أذن الله بهلاكها».

وقال ابن أبى الدنيا: حدثنا إبراهيم بن الأشعث حدثنا عبدالرحمن بن زيد العمى عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « ماطفف قوم كيلاً، ولا بخسوا ميزاناً، إلا منعهم الله عز وجل ـ القطر ،ولا ظهر فى قوم الزنا إلا ظهر فيهم الموت، ولا ظهر فى قوم عمل قوم لوط إلا ظهر فيهم الخسف، وما ترك قوم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلا لم ترفع أعمالهم، ولم يسمع دعاؤهم»(٣) (٤).

فصل

وعليه (٥) أن يمنع اللاعبين بالحمام على رؤوس الناس؛ فإنهم يتوسلون بذلك إلى الإشراف عليهم والتطلع على عوراتهم ،وقد روى أبو داود فى سننه من حديث أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ : أنه رأى رجلاً يتبع حمامة فقال : « شيطان يتبع شيطانه » (٦) وقال

---

(١) الترمذى (٢٧٨٦) فى الأدب ، باب : ما جاء فى كراهية خروج المرأة متعطرة ، وقال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح »، وأحمد (٤/ ٤١٤).

(٢) الترمذى (١١٧٣) فى الرضاع، باب: ماجاء فى كراهية الدخول على المغيبات، وقال: « هذا حديث حسن غريب».

(٣) نحوه ابن ماجه (٤٠١٩) فى الفتن باب: العقوبات ، عن عبدالله بن عمر .

(٤) الطرق الحكمية (٢٨٧ ـ ٢٨٩).

(٥) أى : ولى الأمر.

(٦) أبو داود (٤٩٤٠) فى الأدب ، باب فى اللعن بالحمام.

إبراهيم النخعي: من لعب بالحمام الطيارة لم يمت حتى يذوق ألم الفقر. وقال الحسن: شهدت عثمان ابن عفان وهو يخطب وهو يأمر بذبح الحمام وقتل الكلاب ، ذكره البخاري . وقال خالد الحذاء ـ عن بعض التابعين ـ قال: كان تلاعب آل فرعون الحمام (١).

فصل
في تحقيق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

لما كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يتم إلا بالعقوبات الشرعية ، فإن « الله يزع بالسلطان مالم يزع بالقرآن» (٢) فاقامة الحدود واجبة على ولاة الأمور.

والعقوبة تكون على فعل محرم أو ترك واجب .

والعقوبات منها ماهو مقدر ومنها ماهو غير مقدر، وتختلف مقاديرها وأجناسها وصفاتها باختلاف أحوال الجرائم ، وكبرها وصغرها ، وبحسب حال المذنب في نفسه (٣).

فصل
في حكمة الشريعة من إنكار المنكر وبيان درجات إنكاره

إن النبي ﷺ شرع لأمته إيجاب إنكار المنكر؛ ليحصل بإنكاره من المعروف ما يحبه الله ورسوله ، فإذا كان إنكار المنكر يستلزم ، ماهو أنكر منه، وأبغض إلى الله ورسوله فإنه لا يسوغ إنكاره، وإن كان الله يبغضه، ويمقت أهله، وهذا كالإنكار على الملوك والولاة بالخروج عليهم؛ فإنه أساس كل شر وفتنة إلى آخر الدهر ، وقد استأذن الصحابة رسول الله ﷺ في قتال الأمراء الذين يوخرون الصلاة عن وقتها، وقالوا : أفلا نقاتلهم؟ فقال : « لا، ما أقاموا الصلاة » (٤) ، وقال: «من رأى من أميره ما يكرهه فليصبر ، ولا ينزعن يداً من طاعته» (٥) ومن تأمل ماجرى على الإسلام في الفتن الكبار والصغار رآها من إضاعة هذا الأصل، وعدم الصبر على منكر، فطلب إزالته، فتولد منه ماهو أكبر منه، فقد كان رسول الله ﷺ يرى بمكة

---

(١) الطرق الحكمية (٢٨٢).

(٢) ابن كثير (٥/ ١١١) ط. دار طيبة ، في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٠]

(٣) الطرق الحكمية (٢٧٢).

(٤) مسلم (١٨٥٥/ ٦٥) في الإمارة ، باب: خيار الأئمة وشرارهم عن عوف بن مالك ، وأحمد (٣/ ٢٨، ٢٩) عن أبي سعيد الخدري.

(٥) البخاري (٧٠٥٤) في الفتن ، باب: ستروَن من بعدي أموراً تنكرونها ، ومسلم (١٨٤٩/ ٥٥) في الإمارة ، باب : وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن.

أكبر المنكرات، ولايستطيع تغييرها، بل لما فتح الله مكه ، وصارت دار إسلام عزم على تغيير البيت، ورده على قواعد إبراهيم، ومنعه من ذلك مع قدرته عليه خشية وقوع ما هو أعظم منه من عدم احتمال قريش لذلك؛ لقرب عهدهم بالإسلام، وكونهم حديثى عهد بكفر؛ ولهذا لم يأذن فى الإنكار على الأمراء باليد لما يترتب عليه من وقوع ماهو أعظم منه، كما وجد سواء.

فإنكار المنكر أربع درجات:

الأولى: أن يزول ويخلفه ضده.

الثانية: أن يقل وإن لم يزل بجملته.

الثالثة: أن يخلفه ما هو مثله.

الرابعة: أن يخلفه ما هو شر منه.

فالدرجتان الأوليان مشروعتان، والثالثة: موضع اجتهاد، والرابعة محرمة، فإذا رأيت أهل الفجور والفسوق يلعبون بالشطرنج كان إنكارك عليهم من عدم الفقه والبصيرة إلا اذا نقلتهم منه إلى ماهو أحب إلى الله ورسوله كرمى النشاب ، وسباق الخيل، ونحو ذلك، واذا رأيت الفساق قد اجتمعوا على لهو ولعب أو سماع مكاء وتصدية، فإن نقلتهم عنه إلى طاعة الله فهو المراد، وإلا كان تركهم على ذلك خيراً من أن تفرغهم لما هو أعظم من ذلك، فكان ماهم فيه شاغلاً لهم عن ذلك، وكما إذا كان الرجل مشتغلاً بكتب المجون ونحوها، وخفت من نقله عنها انتقاله إلى كتب البدع والضلال والسحرة؛ فدعه وكتبه الأولى، وهذا باب واسع.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه ، ونور ضريحه يقول : مررت أنا وبعض أصحابى فى زمن التتار بقوم منهم يشربون الخمر ، فأنكر عليهم من كان معى ، فأنكرت عليه ، وقلت له : إنما حرم الله الخمر ؛ لأنها تصد عن ذكر الله ، وعن الصلاة، وهؤلاء يصدهم الخمر عن قتل النفوس وسبى الذرية، وأخذ الأموال، فدعهم [(١)].

فصل
فى ثواب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

إنه ما آثر عبد مرضاة الله عز وجل على مرضاة الخلق ، وتحمل ثقل ذلك ومؤنته ، وصبر على محنته : إلا أنشأ الله من تلك المحنة والمؤنة نعمة ومسرة ، ومعونة بقدر ما تحمل من مرضاته ، فانقلبت مخاوفه أماناً ، ومظان عطبه نجاة، وتعبه راحة ، ومؤنته معونة، وبليته نعمة ، ومحنته منحة ، وسخطه رضى . فياخيبة المتخلفين ، وياذلة المتهيبين.

(١) إعلام الموقعين (٣/٦، ٧).

هذا ،وقد جرت سنة الله ـ التى لاتبديل لها ـ أن من آثر مرضاة الخلق على مرضاته: أن يسخط عليه من آثر رضاه ،ويخذله من جهته ، ويجعل محنته على يديه ، فيعود حامده ذاماً. ومن آثر مرضاته ساخطاً ،فلا على مقصوده منهم حصل،ولا إلى ثواب مرضاة ربه وصل ،وهذا أعجز الخلق وأحمقهم.

هذا مع أن رضى الخلق: لا مقدور،ولا مأمور ،ولا مأثور .فهو مستحيل. بل لابد من سخطهم عليك. فلأن يسخطوا عليك وتفوز برضى الله عنك أحب إليك،وأنفع لك من أن يسخطوا عليك والله عنك غير راض. فإذا كان سخطهم لابد منه ـ على التقديرين ـ فآثر سخطهم الذى ينال به رضى الله ، فإن هم رضوا عنك بعد هذا،وإلا فأهون شىء رضى من لاينفعك رضاه ،ولا يضرك سخطه فى دينك،ولا فى إيمانك ،ولا فى آخرتك. فإن ضرك فى أمر يسير فى الدنيا،فمضرة سخط الله أعظم وأعظم. وخاصة العقل: احتمال أدنى المفسدتين لدفع أعلاهما. وتفويت أدنى المصلحتين لتحصيل أعلاهما،فوازن بعقلك،ثم انظر أى الأمرين خير فآثره،وأيهما شر فابعد عنه .فهذا برهان قطعى ضرورى فى إيثار رضى الله على رضى الخلق.

هذا مع أنه إذا آثر رضى الله كفاه الله مؤنة غضب الخلق،وإذا آثر رضاهم لم يكفوه مؤنة غضب الله عليه.

قال بعض السلف: لمصانعة وجه واحد أيسر عليك من مصانعة وجوه كثيرة. إنك إذا صانعت ذلك الوجه الواحد كفاك الوجوه كلها.

وقال الشافعى رضي الله عنه : رضى الناس غاية لاتدرك ،فعليك بما فيه صلاح نفسك فالزمه.

ومعلوم: أنه لاصلاح للنفس إلا بإيثار رضى ربها ومولاها على غيره. ولقد أحسن أبو فراس فى هذا المعنى إلا أنه أساء كل الإساءة فى قوله ـ إذ يقوله لمخلوق لا يملك له ولا لنفسه نفعاً ولا ضراً:

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذى بينى وبينك عامر ... وبينى وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين ... وكل الذى فوق التراب تراب

ثم ذكر الشيخ ـ رحمه الله ـ ما يستطاع به هذا الإيثار العظيم الشأن. فقال: « ويستطاع هذا بثلاثة أشياء: بطيب العود ، وحسن الإسلام ،وقوة الصبر ».

من المعلوم : أن المؤثر لرضى الله متصد لمعاداة الخلق وأذاهم ، وسعيهم فى إتلافه ولابد. هذه سنة الله فى خلقه ، وإلا فما ذنب الأنبياء والرسل، والذين يأمرون بالقسط من

الناس ، والقائمين بدين الله ، الذابين عن كتابه وسنة رسوله عندهم ؟

فمن آثر رضى الله فلابد أن يعاديه رذالة العالم وسقطهم ، وغرثاهم وجهالهم، وأهل البدع والفجور منهم ، وأهل الرياسات الباطلة ، وكل من يخالف هديه . فما يقدم على معاداة هؤلاء إلا طالب الرجوع إلى الله ، عامل على سماع خطاب ﴿ **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٣٠)** ﴾ [الفجر]، ومن إسلامه صلب كامل لاتزعزعه الرجال، ولا تقلقله الجبال، ومن عقد عزيمة صبره محكم لاتحله المحن والشدائد والمخاوف.

قلت: وملاك ذلك أمران: الزهد فى الحياة والثناء. فما ضعف من ضعف، وتأخر من تأخر إلا بحبه للحياة والبقاء، وثناء الناس عليه، ونفرته من ذمهم له. فإذا زهد فى هذين الشيئين؛ تأخرت عنه العوارض كلها. وانغمس حينئذ فى العساكر.

وملاك هذين الشيئين بشيئين: صحة اليقين ، وقوة المحبة.

وملاك هذين بشيئين أيضاً: بصدق اللجأ والطلب، والتصدى للأسباب الموصلة إليهما.

فإلى ههنا تنتهى معرفة الخلق وقدرتهم. والتوفيق بعد بيد من أزمة الأمور كلها بيده ﴿ **وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً (٣٠) يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٣١)** ﴾(١) [الإنسان] .

وأيضـا

المشهد الثامن(٢): مشهد « الجهاد » وهو أن يشهد تولد أذى الناس له من جهاده فى سبيل الله، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وإقامة دين الله، وإعلاء كلماته

وصاحب هذا المقام: قد اشترى الله منه نفسه وماله وعرضه بأعظم الثمن. فإن أراد أن يسلم إليه الثمن فليسلم هو السلعة ليستحق ثمنها، فلا حق له على من آذاه ، ولا شىء له قبله ، إن كان قد رضى بعقد هذا التبايع ؛ فإنه قد وجب أجره على الله.

وهذا ثابت بالنص وإجماع الصحابه ﭫ ولهذا منع النبى ﷺ المهاجرين من سكنى مكة ـ أعزها الله ـ ولم يرد على أحد منهم داره ولا ماله الذى أخذه الكفار، ولم يضمنهم دية من قتلوه فى سبيل الله.

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣٠٠ ـ ٣٠٢).

(٢) من المشاهد التى يشهدها العبد فيما يصيبه من أذى الخلق.

ولما عزم الصديق رضي الله عنه على تضمين أهل الردة ما أتلفوه من نفوس المسلمين وأموالهم . قال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه بمشهد من الصحابة رضي الله عنهم : « تلك دماء وأموال ذهبت فى الله ،وأجورها على الله ، ولا دية لشهيد » فأصفق الصحابة على قول عمر، ووافقه عليه الصديق.

فمن قام لله حتى أوذى فى الله :حرم الله عليه الانتقام.كما قال لقمان لابنه: ﴿**وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ** ⑰﴾ (1) [لقمان] .

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣٢١).



كتاب

الدعوة إلى الله عز وجل

فصل
فى ترتيب الدعوة ولها مراتب

المرتبة الأولى: النبوة.

الثانية : إنذار عشيرته [١] الأقربين.

الثالثة: إنذار قومه.

الرابعة: إنذار قوم ما أتاهم من نذير من قبله، وهم العرب قاطبة.

الخامسة: إنذار جميع من بلغته دعوته من الجن والإنس إلى آخر الدهر.

فصل

وأقام ﷺ ثلاث سنين يدعو إلى الله ـ سبحانه ـ مستخفياً ،ثم نزل عليه: ﴿**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [الحجر: ٩٤]. فأعلن ﷺ بالدعوة، وجاهر قومه بالعداوة ، واشتد الأذى عليه وعلى المسلمين ، حتى أذن الله لهم بالهجرتين [٢].

فصل
فى الصبر على الدعوة إلى الله عز وجل

ومنها [٣] : التأنى والصبر فى الدعوة إلى الله ، وألايعجل بالعقوبة والدعاء على العصاة [٤].

---

(١) أى : النبى ﷺ.

(٢) زاد المعاد (١/ ٨٦).

(٣) أى :من الحكم المستفادة من قدوم وفد دوس على رسول الله ﷺ.

(٤) زاد المعاد (٣/ ٦٢٧).

فصل
فى دعوة أهل الكتاب

ومنها [(١)] جواز مجادلة أهل الكتاب ومناظرتهم، بل استحباب ذلك، بل وجوبه إذا ظهرت مصلحته من إسلام من يرجى إسلامه منهم، وإقامة الحجة عليهم، ولا يهرب من مجادلتهم إلا عاجز عن إقامة الحجة، فليول ذلك إلى أهله، وليخل بين المطى وحاديها، والقوس وباريها، ولولا خشية الإطالة لذكرنا من الحجج التى تلزم أهل الكتابين الإقرار بأنه رسول الله بما فى كتبهم، وبما يعتقدونه بما لا يمكنهم دفعه ما يزيد على مائة طريق، ونرجو من الله سبحانه إفرادها بمصنف مستقل.

ودار بينى وبين بعض علمائهم مناظرة فى ذلك، فقلت له فى أثناء الكلام: ولا يتم لكم القدح فى نبوة نبينا ﷺ إلا بالطعن فى الرب تعالى والقدح فيه، ونسبته إلى أعظم الظلم والسفه والفساد، تعالى الله عن ذلك، فقال: كيف يلزمنا ذلك؟ قلت: بل أبلغ من ذلك، لا يتم لكم ذلك إلا بجحوده وإنكار وجوده تعالى.

وبيان ذلك: أنه إذا كان محمد عندكم ليس بنبى صادق، وهو بزعمكم ملك ظالم، فقد تهيأ له أن يفترى على الله، ويتقول عليه ما لم يقله، ثم يتم له ذلك، ويستمر حتى يحلل ويحرم، ويفرض الفرائض، ويشرع الشرائع، وينسخ الملل، ويضرب الرقاب، ويقتل أتباع الرسل، وهم أهل الحق، ويسبى نساءهم وأولادهم، ويغنم أموالهم وديارهم، ويتم له ذلك حتى يفتح الأرض، وينسب ذلك كله إلى أمر الله تعالى له به ومحبته له، والرب تعالى يشاهده، وما يفعل بأهل الحق وأتباع الرسل، وهو مستمر فى الافتراء عليه ثلاثاً وعشرين سنة، وهو مع ذلك كله يؤيده وينصره، ويعلى أمره، ويمكن له من أسباب النصر الخارجة عن عادة البشر، وأعجب من ذلك أنه يجيب دعواته، ويهلك أعداءه من غير فعل منه نفسه ولا سبب، بل تارة بدعائه، وتارة يستأصلهم ـ سبحانه ـ من غير دعاء منه ﷺ، ومع ذلك يقضى له كل حاجة سأله إياها، ويعده كل وعد جميل، ثم ينجز له وعده على أتم الوجوه، وأهنئها، وأكملها، هذا وهو عندكم فى غاية الكذب والافتراء والظلم، فإنه لا أكذب ممن كذب على الله، واستمر على ذلك، ولا أظلم ممن أبطل شرائع أنبيائه ورسله، وسعى فى رفعها من الأرض، وتبديلها بما يريد هو، وقتل أولياءه وحزبه وأتباع

---

(١) أى: من الحكم المستفادة من قدوم وفد نجران على رسول الله ﷺ.

رسله، واستمرت نصرته عليهم دائماً ، والله تعالى فى ذلك كله يقره ، ولا يأخذ منه باليمين، ولا يقطع منه الوتين ، وهو يخبر عن ربه أنه أوحى إليه أنه لا ﴿ **أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ** ﴾ [الأنعام: ٩٣] فيلزمكم معاشر من كذبه أحد أمرين لا بد لكم منهما:

إما أن تقولوا: لا صانع للعالم، ولا مدبر، ولو كان للعالم صانع مدبر قدير حكيم، لأخذ على يديه ، ولقابله أعظم مقابلة. وجعله نكالاً للظالمين إذا لا يليق بالملوك غير هذا، فكيف بملك السموات والأرض، وأحكم الحاكمين؟.

الثاني: نسبة الرب مالا يليق به من الجور. والسفه، والظلم، وإضلال الخلق دائمًا أبد الآباد ، لا بل نصرة الكاذب ، والتمكين له من الأرض، وإجابة دعواته ، وقيام أمره من بعده، وإعلاء كلماته دائماً ، وإظهار دعوته ، والشهادة له بالنبوة قرناً بعد قرن على رؤوس الأشهاد فى كل مجمع وناد ، فأين هذا من فعل أحكم الحاكمين ، وأرحم الراحمين، فلقد قدحتم فى رب العالمين أعظم قدح، وطعنتم فيه أشد طعن، وأنكرتموه بالكلية ، ونحن لا ننكر أن كثيراً من الكذابين قام فى الوجود ، وظهرت له شوكة ، ولكن لم يتم له أمره، ولم تطل مدته ، بل سلط عليه رسله وأتباعهم ، فمحقوا أثره ، وقطعوا دابره ، واستأصلوا شأفته . هذه سنته فى عباده منذ قامت الدنيا، وإلى أن يرث الأرض ومن عليها.

فلما سمع منى هذا الكلام ، قال : معاذ الله أن نقول: إنه ظالم أو كاذب ، بل كل منصف من أهل الكتاب يقر بأن من سلك طريقه ، واقتفى أثره ، فهو من أهل النجاة والسعادة فى الأخرى. قلت له : فكيف يكون سالك طريق الكذاب، ومقتفى أثره بزعمكم من أهل النجاة والسعادة ؟فلم يجد بدًا من الاعتراف برسالته، ولكن لم يرسل إليهم. قلت: فقد لزمك تصديقه، ولا بد وهو قد تواترت عنه الأخبار بأنه رسول رب العالمين إلى الناس أجمعين ؛ كتابيهم وأميهم، ودعا أهل الكتاب إلى دينه ، وقاتل من لم يدخل فى دينه منهم حتى أقروا بالصغار والجزية ، فبهت الكافر ، ونهض من فوره.

والمقصود: أن رسول الله ﷺ لم يزل فى جدال الكفار على اختلاف مللهم ونحلهم إلى أن توفى، وكذلك أصحابه من بعده، وقد أمره الله ـ سبحانه ـ بجدالهم بالتى هى أحسن فى السورة المكية والمدنية ، وأمره أن يدعوهم بعد ظهور الحجة إلى المباهلة، وبهذا قام الدين، وإنما جعل السيف ناصرًا للحجة، وأعدل السيوف سيف ينصر حجج الله وبيناته، وهو سيف رسوله وأمته (١).

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٦٣٩ ـ ٦٤٢).

فصل
فى السنة فى دعوة أهل الكتاب ومجادلتهم

ومنها [١]: أن السنة فى مجادلة أهل الباطل إذا قامت عليهم حجة الله، ولم يرجعوا، بل أصروا على العناد أن يدعوهم إلى المباهلة ، وقد أمر الله ـ سبحانه ـ بذلك رسوله، ولم يقل: إن ذلك ليس لأمتك من بعدك ، ودعا إليه ابن عمه عبدالله بن عباس لمن أنكر عليه بعض مسائل الفروع ، ولم ينكر عليه الصحابة ، ودعا إليه الأوزاعى سفيان الثورى فى مسألة رفع اليدين ، ولم ينكر عليه ذلك ، وهذا من تمام الحجة[٢].

فصل
فى ابتلاء الدعاة وحكمته

أكمل الخلق عند الله، من كمل مراتب الجهاد كلها، والخلق متفاوتون فى منازلهم عند الله، تفاوتهم فى مراتب الجهاد؛ ولهذا كان أكمل الخلق وأكرمهم على الله خاتم أنبيائه ورسله، فإنه كمل مراتب الجهاد، وجاهد فى الله حق جهاده، وشرع فى الجهاد من حين بعث إلى أن توفاه الله عز وجل، فإنه لما نزل عليه: ﴿ **يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤)** ﴾ [المدثر] شمر عن ساق الدعوة، وقام فى ذات الله أتم قيام، ودعا إلى الله ليلاً ونهاراً ، وسراً وجهاراً، ولما نزل عليه: ﴿ **فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ** ﴾ [الحجر: ٩٤]، فصدع بأمر الله لا تأخذه فيه لومة لائم، فدعا إلى الله الصغير والكبير، والحر والعبد، والذكر والأنثى، والأحمر والأسود والجن والإنس .

ولما صدع بأمر الله. وصرح لقومه بالدعوة ، وناداهم بسب آلهتهم، وعيب دينهم، اشتد أذاهم له، ولمن استجاب له من أصحابه، ونالوه ونالوهم بأنواع الأذى، وهذه سنة الله عز وجل فى خلقه ، كما قال تعالى: ﴿ **مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ** ﴾ [فصلت: ٤٣]، وقال : ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ** ﴾[الأنعام: ١١٢]، وقال ﴿ **كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣)** ﴾ [الذاريات]

---

(١) أى: من الحكم المستفادة من قدوم وفد نجران على رسول الله ﷺ.
(٢) زاد المعاد (٣/ ٦٤٣).

فعزى - سبحانه - نبيه بذلك ، وأن له أسوة بمن تقدمه من المرسلين، وعزى أتباعه بقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿ الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٤) مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥) وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٧) وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (٩) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠)﴾ [العنكبوت].

فليتأمل العبد سياق هذه الآيات، وما تضمنته من العبر وكنوز الحكم ، فإن الناس إذا أرسل إليهم الرسل بين أمرين: إما أن يقول أحدهم: آمنا ، وإما ألا يقول ذلك ، بل يستمر على السيئات والكفر ، فمن قال: آمنا ، امتحنه ربه وابتلاه ، وفتنه ، والفتنة : الابتلاء والاختبار، ليتبين الصادق من الكاذب، ومن لم يقل: آمنا ، فلا يحسب أنه يعجز الله ويفوته ويسبقه ، فإنه إنما يطوى المراحل فى يديه.

وكيف يفر المرء عنه بذنبه   إذا كان تطوى فى يديه المراحل

فمن آمن بالرسل وأطاعهم ، عاداه أعداؤهم وآذوه ، فابتلى بما يؤلمه وإن لم يؤمن بهم ولم يطعهم ، عوقب فى الدنيا والآخرة ، فحصل له ما يؤلمه ، وكان هذا المؤلم له أعظم ألما وأدوم من ألم اتباعهم ، فلا بد من حصول الألم لكل نفس آمنت أو رغبت عن الإيمان ، لكن المؤمن يحصل له الألم فى الدنيا ابتداء ، ثم تكون له العاقبة فى الدنيا والآخرة، والمعرض عن الإيمان تحصل له اللذة ابتداء ، ثم يصير إلى الألم الدائم. وسئل الشافعى - رحمه الله: أيما أفضل للرجل، أن يمكن أو يبتلى ؟ فقال: لا يمكن حتى يبتلى. والله تعالى ابتلى أولى العزم من الرسل فلما صبروا مكنهم ، فلا يظن أحد أنه يخلص من الألم

البتة ،وإنما يتفاوت أهل الآلام فى العقول ، فأعقلهم من باع ألما مستمراً عظيماً بألم منقطع يسير، وأشقاهم من باع الألم المنقطع اليسير بالألم العظيم المستمر.

فإن قيل :كيف يختار العاقل هذا ؟ قيل : الحامل له على هذا :النقد والنسيئة.

والنفس موكلة بحب العاجل :

﴿كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠]، ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً﴾ [الدهر:٢٧]. وهذا يحصل لكل أحد،فإن الإنسان مدنى بالطبع،لابد له أن يعيش مع الناس ،والناس لهم إرادات وتصورات ، فيطلبون منه أن يوافقهم عليها ،فإن لم يوافقهم ، آذوه وعذبوه ،وإن وافقهم ،حصل له الأذى والعذاب ،تارة منهم ، وتارة من غيرهم ،كمن عنده دين وتقى حل بين قوم فجار ظلمة ،ولا يتمكنون من فجورهم وظلمهم إلا بموافقته لهم ، أو سكوته عنهم ، فإن وافقهم ،أو سكت عنهم ، سلم من شرهم فى الابتداء ، ثم يتسلطون عليه بالإهانة والأذى أضعاف ما كان يخافه ابتداء ، لو أنكر عليهم وخالفهم ،وإن سلم منهم ، فلا بد أن يهان ويعاقب على يد غيرهم ، فالحزم كل الحزم فى الأخذ بما قالت عائشة أم المؤمنين لمعاوية :« من أرضى الله بسخط الناس ، كفاه الله مؤنة الناس ،ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً » (١).

ومن تأمل أحوال العالم ،رأى هذا كثيراً فيمن يعين الرؤساء على أغراضهم الفاسدة ، وفيمن يعين أهل البدع على بدعهم هربًا من عقوبتهم فمن هداه الله وألهمه رشده ووقاه شر نفسه، امتنع من الموافقة على فعل المحرم ،وصبر على عدوانهم، ثم تكون له العاقبة فى الدنيا والآخرة.كما كانت للرسل وأتباعهم، كالمهاجرين،والأنصار ،ومن ابتلى من العلماء، والعباد ، وصالحى الولاة ، والتجار ، وغيرهم.

ولما كان الألم لا محيص منه البتة ، عزى الله ـ سبحانه ـ من اختار الألم اليسير المنقطع على الألم العظيم المستمر بقوله: ﴿مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٥﴾ [العنكبوت]،فضرب لمدة هذا الألم أجلاً.لا بد أن يأتى ،وهو يوم لقائه،فيلتذ العبد أعظم اللذة بما تحمل من الألم من أجله ،وفى مرضاته ،وتكون لذته وسروره وابتهاجه بقدر ما تحمل من الألم فى الله ولله ،وأكد هذا العزاء والتسلية برجاء لقائه ،

(١) الترمذى (٢٤١٤) فى الزهد ، باب : ماجاء فى حفظ اللسان ، بلفظ : « من التمس رضاء الله بسخط الناس . . . إلخ »، وابن حبان (١٥٤١ ، ١٥٤٢/ موارد من طريق آخر) .

ليحمل العبد اشتياقه إلى لقاء ربه ووليه على تحمل مشقة الألم العاجل ، بل ربما غيبه الشوق إلى لقائه عن شهود الألم والإحساس به ،ولهذا سأل النبى ﷺ ربه الشوق إلى لقائه ، فقال فى الدعاء الذى رواه أحمد وابن حبان: « اللهم إنى أسألك بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق،أحينى إذا كانت الحياة خيرًا لى ،وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى،وأسألك خشيتك فى الغيب والشهادة ،وأسألك كلمة الحق فى الغضب والرضا ، وأسألك القصد فى الفقر والغنى ،وأسألك نعيماً لا ينفد ، وأسألك قرة عين لا تنقطع ، وأسألك الرضا بعد القضاء،وأسألك برد العيش بعد الموت،وأسألك لذة النظر إلى وجهك ، وأسألك الشوق إلى لقائك فى غير ضراء مضرة ،ولا فتنة مضلة ، اللهم زيِّنَّا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين » (١).

فالشوق يحمل المشتاق على الجد فى السير إلى محبوبه ، ويقرب عليه الطريق ، ويطوى له البعيد ، ويهون عليه الآلام والمشاق ، وهو من أعظم نعمة أنعم الله بها على عبده ، ولكن لهذه النعمة أقوال وأعمال ،هما السبب الذى تنال به ،والله ـ سبحانه ـ سميع لتلك الأقوال، عليم بتلك الأفعال ،وهو عليم بمن يصلح لهذه النعمة ، ويشكرها، ويعرف قدرها ، ويحب المنعم عليه ، فتصلح عنده هذه النعمة ، ويصلح بها كما قال تعالى : ﴿ **وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ** (٥٣) ﴾ [الأنعام] ،فإذا فاتت العبد نعمة من نعم ربه ، فليقرأ على نفسه : ﴿**أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ**﴾ .

ثم عزاهم تعالى بعزاء آخر،وهو أن جهادهم فيه إنما هو لأنفسهم ، وثمرته عائدة عليهم ،وأنه غنى عن العالمين ، ومصلحة هذا الجهاد ، ترجع إليهم ، لا إليه ـ سبحانه ـ ثم أخبر أنه يدخلهم بجهادهم وإيمانهم فى زمرة الصالحين.

ثم أخبر عن حال الداخل فى الإيمان بلا بصيرة ، وأنه إذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس له كعذاب الله ،وهى أذاهم له ، ونيلهم إياه بالمكروه والألم الذى لا بد أن يناله الرسل وأتباعهم ممن خالفهم ،جعل ذلك فى فراره منهم، وتركه السبب الذى ناله ، كعذاب الله الذى فر منه المؤمنون بالإيمان،فالمؤمنون لكمال بصيرتهم،فروا من ألم عذاب الله إلى الإيمان ، وتحملوا ما فيه من الألم الزائل المفارق عن قريب ، وهذا لضعف بصيرته فر من ألم عذاب أعداء الرسل إلى موافقتهم ومتابعتهم ،ففر من ألم عذابهم إلى عذاب الله،فجعل ألم فتنة الناس فى الفرار منه ،بمنزلة ألم عذاب الله، وغبن كل الغبن إذ استجار

(١) أحمد (٤/ ٢٦٤) ، وابن حبان (٥٠٩/ موارد).

من الرمضاء بالنار ،وفر من ألم ساعة إلى ألم الأبد ،وإذا نصر الله جنده وأولياءه ، قال: إنى كنت معكم،والله عليم بما انطوى عليه صدره من النفاق.

والمقصود: أن الله ـ سبحانه ـ اقتضت حكمته أنه لا بد أن يمتحن النفوس ويبتليها ، فيظهر بالامتحان طيبها من خبيثها ،ومن يصلح لموالاته وكراماته ،ومن لايصلح ، وليمحص النفوس التى تصلح له ويخلصها بكير الامتحان ،كالذهب الذى لا يخلص ولا يصفو من غشه ،إلا بالامتحان ،إذ النفس فى الأصل جاهلة ظالمة ،وقد حصل لها بالجهل والظلم من الخبث ما يحتاج خروجه إلى السبك والتصفية ، فإن خرج فى هذه الدار ،وإلا ففى كير جهنم ، فإذا هُذِّب العبد ونقى ،أذن فى دخول الجنة [١] .

فصل
من فقه الداعية

ومنها [٢]: حسن سياسة الوفد وتلطفهم حتى تمكنوا من إبلاغ ثقيف ما قدموا به، فتصوروا لهم بصورة المنكر لما يكرهونه الموافق لهم فيما يهوونه حتى ركنوا إليهم واطمأنوا، فلما علموا أنه ليس لهم بد من الدخول فى دعوة الإسلام أذعنوا ، فأعلمهم الوفد أنهم بذلك قد جاؤوهم ولو فاجؤوهم به من أول وهلة لما أقروا به ولا أذعنوا وهذا من أحسن الدعوة وتمام التبليغ ولا يتأتى إلا مع ألباء الناس وعقلائهم [٣].

فصل
فى بعث الإمام الدعاة

ومنها [٤]: بعث الإمام الرجل العالم إلى أهل الهدنة فى مصلحة الإسلام ،وأنه ينبغى أن يكون أمينا وهو الذى لاغرض له ولا هوى ، وإنما مراده مجرد مرضاة الله ورسوله لا يشوبها بغيرها ، فهذا هو الأمين حق الأمين، كحال أبى عبيدة بن الجراح [٥].

---

(١) زاد المعاد (٣/ ١٢ ـ ١٨).

(٢) أى :من الحكم المستفادة من قدوم وفد ثقيف على رسول اللهﷺ.

(٣) زاد المعاد (٣/ ٦٠١).

(٤) أى بين الحكم المستفادة من قدوم وفد نجران على رسول الله ﷺ.

(٥) زاد المعاد (٣/ ٦٤٤).

كتاب الأذكار



فصل
فى فضل الذكر

وقوله ﷺ :«وآمُرُكُم أنْ تَذْكُرُوا اللّه تعالى ، فإنَّ مثل ذلك كمثل رجُل خرج العدوُّ فى أثَره سرَاعاً ،حتى إذا أتى إلى حصن حصين ،فأحرز نفْسهُ منهم ،كذلك العبدُ لا يُحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر اللّه » [١] :فلو لم يكن فى الذكر إلا هذه الخصلة الواحدة ، لكان حقيقاً بالعبد ألا يفتر لسانه من ذكر الله تعالى ، وألا يزال لهجاً بذكره، فإن لا يحرز نفسهُ من عدوه إلا بالذكر ،ولا يدخل عليه العدو إلا من باب الغفلة ،فهو يرصده ، فإذا غفل وثب عليه وافترسه ،وإذا ذكر اللّه تعالى انخنس عدو اللّه تعالى وتصاغر ، وانقمع، حتى يكون كالوصع[٢] وكالذباب ،ولهذا سمى ﴿ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ﴾ [الناس] أى يوسوس فى الصدور ، فإذا ذكر الله تعالى خنس ، أى : كف وانقبض .

وقال ابن عباس : الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس ، فإذا ذكر اللّه تعالى خنس .

وفى « مسند الإمام أحمد » عن عبد العزيز بن أبى سلمة الماجشون ، عن زياد بن أبى زياد مولى عبد الله بن عياش بن أبى ربيعة ، أنه بلغه عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله ﷺ :« ما عمل آدمى عملا قطُّ أنْجَى لهُ من عذاب اللّه من ذكْر اللّه عزَّ وجلَّ » .

وقال معاذ: قال رسول اللّه ﷺ :« ألا أخبركم بخيْر أعْمالكم وأزكاها عند مليككُم، وأرْفعها فى درجاتكم ،وخيرٌ لكُمْ من إنفاق الذَّهب والفضَّة ،ومنْ أن تلقُوا عدوَّكُمْ فتضربُوا أعناقهُم ، ويضربوا أعناقكم ؟ » ، قالوا : بلى يا رسول اللّه . قال:«ذكرُ اللّه عزَّ وجل »[٣] .

وفى « صحيح مسلم » ،عن أبى هريرة قال: كان رسُولُ اللّه ﷺ يسيرُ فى طريقِ مكة، فمرَّ على جبل يُقال لهُ : جُمْدان،فقال: « سيروا، هذا جمدان ، سبق المُفَرِّدون » . قيل : وما المفرِّدون يا رسول اللّه ؟ قال : « الذَّاكرُون اللّه كثيرا والذاكرات »[٤] .

---

(١) الترمذى (٢٨٦٣) فى الأدب ، باب: ما جاء فى مثل الصلاة والصيام والصدقة .وقال: «حسن صحيح غريب » .

(٢) طائر أصغر من العصفور .

(٣) أحمد ٥/ ٢٣٩ .

(٤) مسلم (٢٦٧٦ / ٤) فى الذكر ، باب : الحث على ذكر اللّه .

وفى« السنن » عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :« ما مِن قوم يقومون من مجلس لا يذكرون الله تعالى فيه ، إلا قاموا عن مِثْل جيفة حمارٍ ،وكان عليهم حسرة»(١).

وفى رواية الترمذى :« ما جَلَسَ قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه ،ولم يُصَلُّوا على نبيهم إلا كان عليهم تِرَة ، فإن شاء عذَّبهم ، وإن شاء غفر لهم » (٢).

وفى «صحيح مسلم»،عن الأغرِّ أبى مسلم قال:أشهدُ على أبى هريرة وأبى سعيد، أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه قال:«لا يقعُدُ قومٌ فى مجلسٍ يذكُرُون الله فيه إلا حَفَّتهم الملائكةُ ،وغَشيتْهُم الرَّحْمةُ ،ونزلتْ عليهمُ السَّكينةُ ،وذكرهُمُ الله فيمنْ عندهُ »(٣).

وفى الترمذى عن عبد الله بن بسر أن رجلا قال: يا رسول الله ، إنَّ أبواب الخَيْر كثيرة ،ولا أستطيع القيام بكُلِّها ، فأخبرْنِى بشىءٍ أتشبَّثُ به ، ولا تُكْثِرْ علىَّ فأنْسى . وفى رواية : إنَّ شرائع الإسلام قدْ كثُرت علىّ ،وأنا قد كبِرْتُ ، فأخبرنى بشىءٍ أتشبَّثُ به . قال:« لا يزالُ لسانُك رطباً بذكر الله تعالى » (٤).

وفى الترمذى أيضا عن أبى سعيد ، أن رسول الله ﷺ سُئل: أىُّ العبادِ أفْضلُ وأرْفَعُ درجةً عِند الله يومَ القيامة ؟ قال: الذَّاكرُون الله كثيرا» ، قيل: يا رسول الله ، ومن الغازِى فى سبيل الله ؟ قال:« لو ضرب بسيفه فِى الكُفار والمُشركين حتى ينكسر ويختضب دما لكان الذاكرون الله أفْضل منهُ درجةً »(٥) .

وفى « صحيح البخارى» ، عن أبى موسى ، عن النبى ﷺ قال: « مثلُ الذى يذْكُرُ ربَّهُ ، والذى لا يذْكُر ربَّهُ . مثلُ الحىِّ والميت » (٦).

وفى « الصحيحين » عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ :« يقُولُ اللهُ تبارك وتعالى : أنا عند حسن ظن عبْدى بى ، وأنا معهُ إذا ذكرنى ،فإنْ ذكرنى فى نفسه ، ذكرتُهُ فى نفسى ، وإنْ ذكرنى فى ملأٍ ، ذكرتُهُ فى ملأٍ خيْر منهُم ،وإنْ تقرَّب إلىّ شبرا تقرَّبْتُ

(١) أبو داود (٤٨٥٥) فى الأدب ، باب : كراهية أن يقوم الرجل من مجلسه ولا يذكر الله .
(٢) الترمذى (٣٣٨٠) فى الدعوات ، باب : القوم يجلسون ولا يذكرون الله ، وقال: « حسن صحيح » .
(٣) مسلم (٢٧٠٠ / ٣٩) فى الذكر والدعاء والاستغفار ، باب : فضل الاجتماع على تلاوة القرآن .
(٤) الترمذى (٣٣٧٥) فى الدعوات ،باب : فضل الذكر ، وقال: « حسن غريب » .
(٥) الترمذى (٣٣٧٦) فى الدعوات ، باب (٥) ، وقال : « غريب »، وضعفه الألبانى .
(٦) البخارى (٦٤٠٧) فى الدعوات ، باب : فضل ذكر الله عز وجل .

إليه ذراعا ، وإنْ تقرب إليَّ ذِراعاً ، تقرَّبْتُ مِنْهُ باعاً ،وإذا أتانى يمشى ، أتيتُهُ هرولة » (١).

وفى الترمذى عن أنس ،أن رسول اللّه ﷺ قال: « إذا مررتُم برياض الجنَّة فارتَعُوا » قالوا : يا رسُول اللّه ، وما رياضُ الجنَّة ؟ قال: « حِلقُ الذِّكْر » (٢).

وفى الترمذى أيضاً عن النبى ﷺ، عن اللّه عز وجل أنه يقول : « إنَّ عبْدى كُلَّ عبْدى الذى يذْكرنى وهو مُلاقٍ قرنهُ » (٣).

وهذا الحديث هو فصل الخطاب فى التفضيل بين الذاكر والمجاهد ،فإن الذاكر المجاهد أفضل من الذاكر بلا جهاد والمجاهد الغافل ، والذاكر بلا جهاد أفضل من المجاهد الغافل عن اللّه تعالى .

فأفضل الذاكرين المجاهدون، وأفضل المجاهدين الذاكرون .

قال اللّه تعالى : **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾** [الأنفال]، فأمرهم بالذكر الكثير والجهاد معاً ، ليكونوا على رجاء من الفلاح، وقد قال تعالى: **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾**[الأحزاب]،وقال تعالى: **﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾**[الأحزاب:٣٥] أى :كثيراً ،وقال تعالى: **﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾** [البقرة : ٢٠٠] .

ففيه الأمر بالذكر بالكثرة والشدة لشدة حاجة العبد إليه ،وعدم استغنائه عنه طرفة عين، فأى لحظة خلا فيها العبد عن ذكر الله عز وجل كانت عليه لا له ، وكان خسرانه فيها أعظم مما ربح فى غفلته عن اللّه .

وقال بعض العارفين :لو أقبل عبد على اللّه تعالى كذا وكذا سنة ،ثم أعرض عنه لحظة، لكان ما فاته أعظم مما حصله .

وذكر البيهقى عن عائشة ،عن النبى ﷺ أنه قال: « ما مِنْ ساعةٍ تَمُرُّ بابْن آدم لا يذْكُر اللّه تعالى فيها إلا تحسَّر عليْها يوم القيامة » (٤).

وذكر عن معاذ بن جبل يرفعه أيضاً : « لَيْس تحسُّرُ أهْل الجنَّة إلا على ساعة مرَّتْ بهم

---

(١) البخارى (٧٤٠٥) فى التوحيد ، باب : قول الله تعالى: **﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾** [آل عمران : ٢٨] ،ومسلم (٢٦٧٥ / ١) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب : الحث على ذكر الله تعالى .

(٢) الترمذى (٣٥٠٩) فى الدعوات ، باب (٨٣) ، وقال: « حسن غريب »، وضعفه الألبانى .

(٣) الترمذى (٣٥٨٠) فى الدعوات ، باب (١١٩) ، وقال : « غريب » ، وضعفه الألبانى

(٤) شعب الإيمان (٥١١) باب:فى محبة اللّه عز وجل، فصل : فى إدامة ذكر الله عز وجل ، وقال : « فى هذا الإسناد ضعف غير أن له شواهد من حديث معاذ »، ورواه أبو نعيم فى الحلية ٥/ ٣٦٢ .

لَمْ يذكُرُوا اللّه عزَّ وجل فيها »(١).

وعن أم حبيبة زوج النبى ﷺ قالت: قال رسول اللّه ﷺ: « كلامُ ابن آدم كُلُّه عليه لا له ، إلا أمرًا بمعروف ، أو نهياً عنْ منكرٍ ،أو ذكرا لله عز وجل » (٢).

وعن معاذ بن جبل قال : سألت رسول اللّه ﷺ :أى الأعمال أحب إلى الله عز وجل؟ قال: « أن تموت ولسانك رطب من ذكر اللّه عز وجل »(٣).

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه عنه :لكل شىء جلاء ،وإن جلاء القلوب ذكر اللّه عز وجل.

وذكر البيهقى مرفوعا من حديث عبد اللّه بن عمرو رضي الله عنه عن النبى ﷺ أنه كان يقول: « لكُلِّ شىء صقالة ،وإن صقالة القلوب ذكر اللّه عز وجل ،وما من شىء أنجى من عذاب الله عز وجل من ذكر اللّه عز وجل » قالوا: ولا الجهادُ فى سبيل اللّه عز وجل؟ قال: «ولو أن يضرب بسيفه حتى ينقطع» (٤).

ولا ريب أن القلب يصدأ كما يصدأ النحاس الفضة وغيرهما ، وجلاؤه بالذكر ،فإنه يجلوه حتى يدعه كالمرآة البيضاء ، فإذا ترك الذكر صدئ ،فإذا ذكره جلاه .

وصدأ القلب بأمرين : بالغفلة والذنب ،وجلاؤه بشيئين :بالاستغفار والذكر ، فمن كانت الغفلة أغلب أوقاته ،كان الصدأ متراكباً على قلبه ،وصدؤه بحسب غفلته ،وإذا صدئ القلب ، لم تنطبع فيه صور المعلومات على ما هى عليه ، فيرى الباطل فى صورة الحق ،والحق فى صورة الباطل ؛ لأنه لما تراكم عليه الصدأ أظلم ، فلم تظهر فيه صورة الحقائق كما هى عليه .

فإذا تراكم عليه الصدأ واسود، وركبه الران ، فسد تصوره وإدراكه ، فلا يقبل حقاً ، ولا ينكر باطلاً ،وهذا أعظم عقوبات القلب .وأصل ذلك من الغفلة ،واتباع الهوى،

---

(١) شعب الإيمان (٥١٢ ، ٥١٣) فى باب : محبة الله عز وجل ، فصل : فى إدامة ذكر الله عز وجل ، وفيه: « يتحسر» وقال المنذرى فى الترغيب والترهيب (٢/ ٤٠١) فى الذكر والدعاء ، باب: الترغيب فى الإكثار من ذكر الله سراً وجهرا : « رواه البيهقى بأسانيد أحدها جيد » . .

(٢) الترمذى (٢٤١٢) فى الزهد ، باب (٦٣) ، وقال : « حسن غريب » ، وابن ماجه (٣٩٧٤) فى الفتن ، باب :كف اللسان فى الفتنة ، والبيهقى فى شعب الإيمان (٥١٤) وضعفه الألبانى .

(٣) الطبرانى فى الكبير ٢٠ / ١٠٦ ،١٠٧ ، (٢٠٨ ، ٢١٢) ، وكشف الأستار (٣٠٥٩) ، وابن حبان (٨١٥) فى الأذكار ، باب ، ذكر أن المداومة على ذكر الله أحب الأعمال إلى الله ،وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٧٧) فى الأذكار ، باب: فضل ذكر الله تعالى والإكثار منه :«رواه الطبرانى بأسانيد ، وفى هذه الطريق : خالد بن يزيد بن عبد الرحمن بن أبى مالك ، وضعفه جماعة، ووثقه أبو زرعة الدمشقى وغيره،وبقية رجاله ثقات،ورواه البزار من غير طريقه وإسناده حسن » .

(٤) شعب الإيمان (٥٢٢) ،باب : فى محبة الله عز وجل ،فصل : فى إدامة ذكر الله عز وجل وفيه ،سقالة بالسين بدل الصاد.

فإنهما يطمسان نور القلب ويعميان بصره ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾[الكهف] .

فإذا أراد العبد أن يقتدى برجل فلينظر : هل هو من أهل الذكر ، أو من الغافلين ؟ وهل الحاكم عليه الهوى أو الوحى ؟ فإن كان الحاكم عليه هو الهوى وهو من أهل الغفلة،وأمره فرط ،لم يقتد به ، ولم يتبعه فإنه يقوده إلى الهلاك .

ومعنى الفرط قد فسر بالتضييع، أى : أمره الذى يجب أن يلزمه ويقوم به وبه رشده وفلاحه ضائع قد فرط فيه ، وفسر بالإسراف ، أى :قد أفرط ،وفسر بالهلاك ،وفسر بالخلاف للحق . وكلها أقوال متقاربة .

والمقصود أن اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ نهى عن طاعة من جمع هذه الصفات ،فينبغى للرجل أن ينظر فى شيخه وقدوته ومتبوعه ، فإن وجده كذلك فليبعد عنه ،وإن وجده ممن غلب عليه ذكر اللّه تعالى واتباع السنة ، وأمره غير مفروط عليه ، بل هو حازم فى أمره ، فليتمسك بعروته ،ولا فرق بين الحى الميت إلا بالذكر ، فمثل الذى يذكر ربه ، والذى لا يذكر ربه ،كمثل الحى والميت .

وفى « المسند » مرفوعاً :« أكثروا من ذكر اللّه تعالى حتى يقال :مجنون » (١) (٢).

فصل
فى المداومة على ذكر اللّه عز وجل

قال بعض السلف : إن اللّه يجب أن يذكر على الأحوال إلا فى حال الجماع وقضاء الحاجة . وأوحى اللّه عز وجل إلى موسى ﷺ أن اذكرنى على جميع أحوالك ،واللّه تعالى لا يضيع أجر ذكر اللسان المجرد ،بل يثيب الذاكر وإن كان قلبه غافلاً . ولكن ثواب دون ثواب (٣).

وسأله ﷺ رجل فقال: إن شرائع الإسلام قد كثرت على فأوصنى بشىء أتشبث به، فقال: « لا يزال لسانك رطبا من ذكر اللّه »(٤) ذكره أحمد (٥).

---

(١) أحمد ٣/٦٨ ، ٧١ ، وضعفه الألبانى .
(٢) الوابل الصيب (٧٢ ـ ٨٣) .
(٣) روضة المحبين (٣٠٩) .
(٤) أحمد ٤ / ١٨٨ .
(٥) إعلام الموقعين (٤/٤٠٢) .

فصل
فى مكان الذكر والشكر

مبنى الدين على قاعدتين : الذكر والشكر ، قال تعالى: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ (١٥٢) ﴾ [البقرة] .

وقال النبى ﷺ لمعاذ : « والله إنى لأحبك ، فلا تنس أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك »(١) ، وليس المراد بالذكر مجرد ذكر اللسان بل الذكر القلبى واللسانى .وذكره يتضمن ذكر أسمائه وصفاته وذكر أمره ونهيه وذكره بكلامه،وذلك يستلزم معرفته والإيمان به وبصفات كماله ونعوت جلاله والثناء عليه بأنواع المدح . وذلك لا يتم إلا بتوحيده . فذكره الحقيقى يستلزم ذلك كله ويستلزم ذكر نعمه وآلائه وإحسانه إلى خلقه .

وأما الشكر فهو القيام له بطاعته والتقرب إليه بأنواع محابه ظاهرا وباطنا ،وهذان الأمران هما جماع الدين ،فذكره مستلزم لمعرفته وشكره، متضمن لطاعته ،وهذان هما الغاية التى خلق لأجلها الجن والإنس والسموات والأرض،ووضع لأجلها الثواب والعقاب، وأنزل الكتب،وأرسل الرسل،وهى الحق الذى به خلقت السموات والأرض وما بينهما، وضدها هو الباطل والعبث الذى يتعالى ويتقدس عنه،وهو ظن أعدائه به. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾[ص: ٢٧] وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾[الدخان]، وقال: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ ﴾ [الحجر: ٨٥].

وقال بعد ذكر آياته فى أول سورة يونس: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾ [يونس: ٥]. وقال : ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) ﴾ [القيامة]،وقال: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) ﴾ [المؤمنون]،وقال: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) ﴾ [الذاريات] ، ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ

---

(١) أبو داود (١٥٢٢) فى الصلاة ، باب : فى الاستغفار ،وأحمد (٥/ ٢٤٥) ،والنسائى فى الكبرى (٩٩٣٧) فى عمل اليوم والليلة ، باب :الحث على قول :« رب أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » دبر الصلوات، والحاكم فى المستدرك ١/ ٢٧٣ وقال :« صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه » ، ووافقه الذهبى.

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق]، وقال: ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾[المائدة].

فثبت بما ذكر أن غاية الخلق والأمر أن يذكر وأن يشكر ، يذكر فلا ينسى ،ويشكر فلا يكفر، وهو سبحانه ذاكر لمن ذكره ،شاكر لمن شكره ، فذكره سبب كذكره ، وشكره سبب لزيادته من فضله ،فالذكر للقلب واللسان ،والشكر للقلب محبة وإنابة،وللسان ثناء وحمد، وللجوارح طاعة وخدمة [١].

فصل
فى فوائد الذكر

وفى الذكر نحو من مائة فائدة :

إحداها : أنه يطرد الشيطان ويقمعه ويكسره .

الثانية : أنه يرضى الرحمن عز وجل .

الثالثة : أنه يزيل الهم والغم عن القلب.

الرابعة : أنه يجلب للقلب الفرح والسرور والبسط .

الخامسة : أنه يقوى القلب والبدن.

السادسة :أنه ينوّر الوجه والقلب.

السابعة : أنه يجلب الرزق .

الثامنة : أنه يكسو الذاكر المهابة والحلاوة والنضرة.

التاسعة :أنه يورثه المحبة التى هى روح الإسلام ،وقطب رحى الدين ،ومدار السعادة والنجاة .وقد جعل الله لكل شىء سبباً ،وجعل سبب المحبة دوام الذكر ،فمن أراد أن ينال محبة الله عز وجل ، فليلهج بذكره، فإنه الدرس والمذاكرة كما أنه باب العلم، فالذكر باب المحبة ، وشارعها الأعظم ، وصراطها الأقوم .

---

(١) الفوائد (١٧٤ ـ ١٧٦) .

العاشرة : أنه يورثه المراقبة حتى يدخله فى باب الإحسان ، فيعبد اللّه كأنه يراه، ولا سبيل للغافل عن الذكر إلى مقام الإحسان ، كما لا سبيل للقاعد إلى الوصول إلى البيت.

الحادية عشرة :أنه يورثه الإنابة،وهى الرجوع إلى اللّه عز وجل ، فمتى أكثر الرجوع إليه بذكره ،أورثه ذلك رجوعه بقلبه إليه فى كل أحواله،فيبقى الله عز وجل مفزعه وملجأه، وملاذه ومعاذه وقبلة قلبه ومهربه عند النوازل والبلايا .

الثانية عشرة : أنه يورثه القرب منه ، فعلى قدر ذكره للّه عز وجل يكون قربه منه ، وعلى قدر غفلته يكون بعده منه .

الثالثة عشرة : أنه يفتح له بابا عظيما من أبواب المعرفة ، وكلما أكثر من الذكر ازداد من المعرفة .

الرابعة عشرة : أنه يورثه الهيبة لربه عز وجل وإجلاله ، لشدة استيلائه على قلبه وحضوره مع اللّه تعالى، بخلاف الغافل ، فإن حجاب الهيبة رقيق فى قلبه .

الخامسة عشرة : أنه يورثه ذكر اللّه تعالى له ، كما قال تعالى: ﴿ **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُم** ﴾ [البقرة:١٥٢]، ولو لم يكن فى الذكر إلا هذه وحدها لكفى بها فضلا وشرفاً .

وقال ﷺ فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى :« من ذكرنى فى نفسه ، ذكرته فى نفسى، ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خيرٍ منهم »[(١)] .

السادسة عشرة : أنه يورث حياة القلب ، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله تعالى روحه ـ يقول: الذكر للقلب مثل الماء للسمك ، فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء ؟

السابعة عشرة : أنه قوت القلب والروح ، فإذا فقده العبد صار بمنزلة الجسم إذا حيل بينه وبين قوته .

وحضرت شيخ الإسلام ابن تيمية مرة صلى الفجر ، ثم جلس يذكر اللّه تعالى إلى قريب من انتصاف النهار ، ثم التفت إلىّ وقال: هذه غدوتى ولو لم أتغذّ هذا الغذاء سقطت قوتى ، أو كلاما قريبا من هذا . وقال لى مرة: لا أترك الذكر إلا بنية إجمام نفسى وإراحتها لأستعد بتلك الراحة لذكر آخر ، أو كلاما هذا معناه .

الثامنة عشرة : أنه يورث جلاء القلب من صدئه ،وكل شىء له صدأ ، وصدأ القلب

---

(١) سبق تخريجه ص ١٧٨ .

الغفلة والهوى، وجلاؤه الذكر والتوبة والاستغفار.

التاسعة عشرة: أنه يحط الخطايا ويذهبها ، فإنه من أعظم الحسنات ، والحسنات يذهبن السيئات .

العشرون: أنه يزيل الوحشة بين العبد وبين ربه تبارك وتعالى ، فإن الغافل بينه وبين الله عز وجل وحشة لا تزول إلا بالذكر.

الحادية والعشرون: أن ما يذكر به العبد ربه عز وجل من جلاله وتسبيحه وتحميده ، يذكر بصاحبه عند الشدة ، فقد روى الإمام أحمد فى « المسند » عن النبى ﷺ أنه قال: «إن ما تذكرون من جلال الله عز وجل من التهليل والتكبير والتحميد يتعاطفن حول العرش لهُن دوى كدوى النحل يذكرن بصاحبهن ، أفلا يحب أحدكم أن يكون له ما يذكر به »[(١)] ؟ هذا الحديث أو معناه .

الثانية والعشرون :أن العبد إذا تعرف إلى الله تعالى بذكره فى الرخاء ،عرفه فى الشدة،وقد جاء أثر معناه : أن العبد المطيع الذاكر لله تعالى، إذا أصابته شدة أو سأل الله تعالى حاجة ،قالت الملائكة: يا رب صوت معروف ،من عبد معروف . والغافل المعرض عن الله عز وجل إذا دعاه وسأله ، قالت الملائكة: يا رب ، صوت منكر ،من عبد منكر.

الثالثة والعشرون:أنه منجاة من عذاب الله تعالى،كما قال معاذ رضي الله عنه. ويروى مرفوعاً:« ما عمل آدمى عملا أنجى له من عذاب الله عز وجل من ذكر الله تعالى »[(٢)].

الرابعة والعشرون:أنه سبب نزول السكينة، وغشيان الرحمة ،وحفوف الملائكة بالذاكر كما أخبر به النبى ﷺ[(٣)] .

الخامسة والعشرون:أنه سبب اشتغال اللسان عن الغيبة والنميمة،والكذب ، والفحش، والباطل ، فإن العبد لا بد له من أن يتكلم ، فإن لم يتكلم بذكر الله تعالى وذكر أوامره ، تكلم بهذه المحرمات أو بعضها ، ولا سبيل إلى السلامة منها البتة إلا بذكر الله تعالى .

والمشاهدة والتجربة شاهدان بذلك ، فمن عوّد لسانه ذكر الله ، صان لسانه عن الباطل واللغو، ومن يبس لسانه عن ذكر الله تعالى ، ترطّب بكل باطل ولغو وفحش ،ولا حول ولا قوة إلا بالله .

---

(١) أحمد (٤ / ٢٦٨ ، ٢٧١) .

(٢) سبق تخريجه ص ١٧٧ .

(٣) سبق تخريجه ص ١٧٨ .

السادسة والعشرون :أن مجالس الذكر مجالسة الملائكة ، ومجالس اللغو والغفلة مجالس الشياطين، فليتخيّر العبد أعجبهما إليه، وأولاهما به ، فهو مع أهله فى الدنيا والآخرة.

السابعة والعشرون : أنه يسعد الذاكر بذكره ، ويسعد به جليسه ، وهذا هو المبارك أين ما كان، والغافل واللاغى يشقى بلغوه وغفلته ، ويشقى به مجالسه .

الثامنة والعشرون : أنه يؤمِّن العبد من الحسرة يوم القيامة ، فإن كان مجلس لا يذكر العبد فيه ربه تعالى كان عليه حسرة وترة يوم القيامة .

التاسعة والعشرون : أنه مع البكاء فى الخلوة سبب لإظلال الله تعال العبد يوم الحرّ الأكبر فى ظل عرشه، والناس فى حر الشمس قد صهرتهم فى الموقف ،وهذا الذاكر مستظل بظل عرش الرحمن عز وجل .

الثلاثون : أن الاشتغال به سبب لعطاء اللّه للذاكر أفضل ما يعطى السائلين ، ففى الحديث عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول اللّه ﷺ :« قال سبحانه وتعالى: من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين »[١] .

الحادية والثلاثون : أنه أيسر العبادات ، وهو من أجلها وأفضلها ، فإن حركة اللسان أخف حركات الجوارح وأيسرها ، ولو تحرك عضو من الإنسان فى اليوم والليلة بقدر حركة لسانه لشق عليه غاية المشقة ، بل لا يمكنه ذلك .

الثانية والثلاثون : أنه غراس الجنة ، فقد روى الترمذى فى « جامعه » من حديث عبد اللّه بن مسعود قال : قال رسول اللّه ﷺ :« لقيتُ ليلة أسرى بى إبراهيم الخليل عليه السلام فقال: يا محمد ، أقْرِئْ أمتك منى السلام ،وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة ،عذبة الماء، وأنها قيعان ، وأن غراسها : سبحان اللّه ، والحمد للّه ، ولا إله إلا اللّه اللّه أكبر »[٢]. قال الترمذى: حديث حسن غريب من حديث ابن مسعود .

وفى الترمذى من حديث أبى الزبير ،عن جابر عن النبى ﷺ قال:« من قال : سبحان اللّه وبحمده ، غرست له نخلة فى الجنة»[٣] . قال الترمذى :حديث حسن صحيح.

---

(١) الترمذى (٢٩٢٦) بلفظ : « من شغله القرآن عن ذكرى » فى فضائل القرآن ، باب (٢٥) ، وقال : « حسن غريب » ، والدارمى (٢/٤٤١) فى فضائل القرآن ، باب: فضل كلام اللّه على سائر الكلام . كلاهما عن أبى سعيد الخدرى . وضعفه الألبانى .

(٢) الترمذى (٣٤٦٢) فى الدعوات ، باب (٥٩) ،وصححه الألبانى .

(٣) الترمذى (٢٤٦٤) فى الدعوات ، باب (٦٠) ،وقال : « حسن صحيح غريب ». و(٢٤٦٥) وقال :«حسن غريب » .

الثالثة والثلاثون :أن العطاء والفضل الذى رتب عليه لم يرتب على غيره من الأعمال.

ففى « الصحيحين » عن أبى هريرة رضي الله عنه ،أن رسول الله ﷺ قال:« من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ،فى يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة ،ومحيت عنه مائة سيئة،وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى،ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه،ومن قال:سبحان الله وبحمده فى يوم مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر» (١).

وفى صحيح مسلم » عن أبى هريرة قال:قال رسول الله ﷺ: « لأن أقول : سبحان الله والحمد لله ،ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، أحب إلى مما طلعت عليه الشمس » (٢).

وفى الترمذى من حديث أنس ،أن رسول الله ﷺ قال:« من قال حين يصبح أو يمسى:اللهم إنى أصبحت أشهدك وأشهد حملة عرشك ،وملائكك ،وجميع خلقك ، أنك أنت الله لا إله إلا أنت ،وأن محمد عبدك ورسولك ،أعتق الله ربعه من النار ،ومن قالها مرتين أعتق الله نصفه من النار،ومن قالها ثلاثا، أعتق الله ثلاثة أرباعه من النار،ومن قالها أربعا ،أعتقه الله تعالى من النار »(٣).

وفيه عن ثوبان، أن رسول الله ﷺ قال:« من قال حين يمسى وإذا أصبح: رضيت بالله ربًا وبالإسلام دينا ،وبمحمد ﷺ رسولا ، كان حقا على الله أن يرضيه » (٤).

وفى الترمذى :« من دخل السوق فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيى ويميت ،وهو حى لا يموت بيده الخير، وهو على كل شيء قدير ،كتب الله له ألف ألف حسنة ،ومحا عنه ألف ألف سيئة ، ورفع له ألف ألف درجة » (٥).

الرابعة والثلاثون : أن دوام ذكر الرب تبارك وتعالى يوجب الأمان من نسيانه الذى هو

---

(١) البخارى (٦٤٠٣) فى الدعوات ،باب : فضل التهليل ، ومسلم (٢٦٩١ / ٢٨) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب : فضل التهليل والتسبيح والدعاء ، واللفظ له .

(٢) مسلم (٢٦٩٥ / ٣٢) فى الكتاب والباب السابقين .

(٣) أبو داود (٥٠٦٩) فى الأدب، باب :ما يقول إذا أصبح ،ورواية الترمذى غير الرواية المذكورة وهى بلفظ:«من قال حين يصبح : اللهم أصبحنا نشهدك ونشهد عرشك وملائكتك وجميع خلقك بأنك لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمدا عبدك ورسولك ،إلا غفر له ما أصاب فى يومه ذلك ، وإن قالها حين يمسى غفر الله له ما أصاب فى تلك الليلة من ذنب » .

(٤) الترمذى (٣٣٨٩) فى الدعوات ،باب : ما جاء فى الدعوات إذا أصبح وإذا أمسى وقال : «حسن غريب » ، وضعفه الألبانى .

(٥) الترمذى (٣٤٢٨) فى الدعوات ، باب : ما يقول إذا دخل السوق ، وقال: « غريب » .

سبب شقاء العبد فى معاشه ومعاده ، فإن نسيان الرب ـ سبحانه وتعالى ـ يوجب نسيان نفسه ومصالحها ،قال تعالى: ﴿**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** (١٩)﴾ [الحشر] .

وإذا نسى العبد نفسه ،أعرض عن مصالحها ونسيها،واشتغل عنها ،فهلكت وفسدت ولا بد، كمن له زرع أو بستان أو ماشية أو غير ذلك مما صلاحه وفلاحه بتعاهده والقيام عليه ، فأهمله ونسيه ، واشتغل عنه بغيره ، وضيع مصالحه ، فإنه يفسد ولا بد .

هذا مع إمكان قيام غيره مقامه فيه ، فكيف الظن بفساد نفسه وهلاكها وشقائها إذا أهملها ونسيها ، واشتغل عن مصالحها ، وعطّل مراعاتها ، وترك القيام عليها بما يصلحها ؟ فما شئت من فساد وهلاك وخيبة وحرمان، وهذا هو الذى صار أمره كله فرطاً فانفرط عليه أمره، وضاعت مصالحه ، وأحاطت به أسباب القطوع والخيبة والهلاك، ولا سبيل إلى الأمان من ذلك إلا بدوام ذكر اللّه تعالى واللهج به، وألا يزال اللسان رطبا به ،وأن ينزله منزلة حياته التى لا غنى له عنها ،ومنزلة غذائه الذى إذا فقده فسد جسمه وهلك ، وبمنزلة الماء عند شدة العطش ، وبمنزلة اللباس فى الحر والبرد ، وبمنزلة الكن فى شدة الشتاء والسموم .

فحقيق بالعبد أن ينزل ذكر الله منه بهذه المنزلة وأعظم ،فأين هلاك الروح والقلب وفسادهما من هلاك البدن وفساده ؟ هذا هلاك لا بد منه ، وقد يعقبه صلاح الأبد ،وأما هلاك القلب والروح ،فهلاك لا يرجى معه صلاح ولا فلاح ،ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

ولو لم يكن فى فوائد الذكر وإدامته إلا هذه الفائدة وحدها ، لكفى بها فمن نسى اللّه تعالى أنساه نفسه فى الدنيا ،ونسيه فى العذاب يوم القيامة .قال تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ** (١٢٤) **قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا** (١٢٥) **قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ** (١٢٦)﴾[طه]، أى تنسى فى العذاب كما نسيت آياتنا : فلم تذكرها ولم تعمل بما فيها .

وإعراضه عن ذكره يتناول إعراضه عن الذكر الذى أنزله ،وهو كتابه ،وهو المراد بتناول إعراضه عن أن يذكر ربه بكتابه ،وأسمائه وصفاته وأوامره وآلائه ،ونعمه فإن هذه كلها توابع إعراضه عن كتاب ربه تعالى ، فإن الذكر فى الآية إما مصدر مضاف إلى معموله الذى هو المذكور ،وإما اسم مضاف إلى الفاعل ، أو مضاف إضافة الأسماء المحضة ، أى: من

أعرض عن كتابى ولم يتله، ولم يعمل به ، ولا فهمه ، فإن حياته ومعيشته لا تكون إلا مضيقة عليه منكدة معذبا فيها .

والضنك : الضيق والشدة والبلاء . ووصف المعيشة نفسها بالضنك مبالغة ، وفسرت هذه المعيشة بعذاب البرزخ ، والصحيح: أنها تتناول معيشته فى الدنيا وعذابه فى البرزخ ، فإنه يكون فى ضنك فى الدارين ، وهو شدة وجهد وضيق . وفى الآخرة ينسى فى العذاب. وهذا عكس أهل السعادة والفلاح، فإن حياتهم فى الدنيا أطيب الحياة، ولهم فى البرزخ وفى الآخرة أفضل الثواب .

قال تعالى: ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً** ﴾[النحل: ٩٧] ، فهذا فى الدنيا ، ثم قال: ﴿**وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** (٩٧)﴾[النحل] ، فهذا فى البرزخ والآخرة . قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** (٤١)﴾[النحل]، وقال تعالى: ﴿ **وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى** ﴾، فهذا فى الدنيا، قال: ﴿**وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ** ﴾ [هود : ٣]، فهذا فى الآخرة .

وقال تعالى: ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ** (١٠) ﴾ [الزمر] .

فهذه أربعة مواضع ذكر تعالى فيها أنه يجزى المحسن بإحسانه جزاءين : جزاءً فى الدنيا، وجزاءً فى الآخرة . فالإحسان له جزاءٌ معجَّل ولا بد ، والإساءة لها جزاء معجل ولا بد .

ولو لم يكن إلا ما يجازى به المحسن : من انشراح صدره وانفساح قلبه وسروره، ولذته بمعاملة ربه عز وجل ، وطاعته ، وذكره ، ونعيم روحه بمحبته وذكره ، وفرحه بربه - سبحانه وتعالى - أعظم مما يفرح القريب من السلطان الكريم عليه بسلطانه .

وما يجازى به المسىء : من ضيق الصدر ، وقسوة القلب، وتشتته ، وظلمته، وحزازته ، وغمه . وهمه، وحَزنه ، وخوفه، وهذا أمر لا يكاد من له أدنى حس وحياة يرتاب فيه ، بل الغموم والهموم والأحزان والضيق : عقوبات عاجلة ، ونار دنيوية ، وجهنم حاضرة.

والإقبال على الله تعالى ، والإنابة إليه ، والرضا به وعنه ، وامتلاء القلب من محبته، واللهج بذكره ، والفرح والسرور بمعرفته : ثواب عاجل ، وجنة، وعيش لا نسبة لعيش الملوك إليه البتة .

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول : إن فى الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة .

وقال لى مرة : ما يصنع أعدائى بى ؟ أنا جنتى وبستانى فى صدرى ، إن رحت فهى معى لا تفارقنى ، إن حبسى خلوة ، وقتلى شهادة ، وإخراجى من بلدى سياحة .

وكان يقول فى محبسه فى القلعة : لو بذلت لهم ملء هذه القلعة ذهبا ما عدل عندى شكر هذه النعمة ، أو قال: ما جزيتهم على ما تسببوا لى فيه من الخير ، ونحو هذا .

وكان يقول فى سجوده وهو محبوس : « اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » ما شاء الله .

وقال لى مرة : المحبوس من حبس قلبه عن ربه تعالى،والمأسور من أسره هواه .

ولما دخل إلى القلعة وصار داخل سورها نظر إليه وقال: ﴿ **فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣)** ﴾ [الحديد] .

وعلم الله ما رأيت أحدا أطيب عيشا منه قط،مع ما كان فيه من ضيق العيش ، وخلاف الرفاهية والنعيم ،بل ضدها ، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشا ، وأشرحهم صدرا ، وأقواهم قلبا، وأسرَّهم نفسا ، تلوح نضرة النعيم على وجهه .

وكنا إذا اشتد بنا الخوف ، وساءت منا الظنون ،وضاقت بنا الأرض، أتيناه ، فما هو إلا أن نراه ، ونسمع كلامه ، فيذهب ذلك كله عنا وينقلب انشراحا وقوة ويقينا وطمأنينة .

فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه ، وفتح لهم أبوابها فى دار العمل ، فآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها .

وكان بعض العارفين يقول :لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه ، لجالدونا عليه بالسيوف .

وقال آخر: مساكين أهل الدنيا ، خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها؟ قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال : محبة الله تعالى ومعرفته وذكره ، أو نحو هذا .

وقال آخر : إنه لتمر بالقلب أوقات يرقص فيها طربا .

وقال آخر : إنه لتمر بى أوقات أقول: إن كان أهل الجنة فى مثل هذا إنهم لفى عيش طيب .

فمحبة اللّه تعالى معرفته، ودوام ذكره ، والسكون إليه ، والطمأنينة إليه، وإفراده بالحب، والخوف ، والرجاء ، والتوكل ، والمعاملة ، بحيث يكون هو وحده المستولى على هموم العبد وعزماته وإرادته ، هو جنة الدنيا ، والنعيم الذى لا يشبهه نعيم ، وهو قرة عين المحبين ، وحياة العارفين .

وإنما تقر أعين الناس بهم على حسب قرة أعينهم بالله عز وجل، فمن قرت عينه باللّه ، قرت به كل عين ، ومن لم تقر عينه باللّه ، تقطعت نفسه على الدنيا حسرات .

وإنما يصدق بهذه الأمور من فى قلبه حياة ، وأما ميت القلب، فيوحشُك ما له ثم ، فاستأنس بغيبته ما أمكن ، فإنك لا يوحشك إلا حضوره عندك، فإذا ابتليت به فأعطه ظاهرك ، وترحل عنه بقلبك ، وفارقه بسرك ، ولا تشغل به عما هو أولى بك .

واعلم أن الحسرة كل الحسرة الاشتغال بمن لا يجر عليك الاشتغال به إلا فوت نصيبك وحظك من اللّه عز وجل ، وانقطاعك عنه وضياع وقتك عليك وشتات قلبك ، وضعف عزيمتك ، وتفرق همك .

فإذا بليت بهذا ـ ولا بد لك منه ـ فعامل الله تعالى فيه ، واحتسب عليه ما أمكنك، وتقرب إلى اللّه تعالى بمرضاته فيه ، واجعل اجتماعك به متجرا لك ، لا تجعله خسارة ، وكن معه كرجل سائر فى طريقه عرض له رجل أوقفه عن سيره ، فاجتهد أن تأخذه معك وتسير به ، فتحمله ولا يحملك ، فإن أبى ولم يكن فى سيره مطمع ، فلا تقف معه بل اركب الدرب ، ودعه ولا تلتفت إليه ، فإنه قاطع الطريق ولو كان من كان ، فانج بقلبك ، وضن بيومك وليلتك ، لا تغرب عليك الشمس قبل وصول المنزلة ، فتؤخذ أو يطلُعُ عليك الفجر وأنت فى المنزلة ، فتسير الرفاق فتصبح وحدك ، وأنى لك بلحاقهم .

الخامسة والثلاثون : أن الذكر يسير العبد وهو قاعد على فراشه، وفى سوقه ، وفى حال صحته وسقمه ، وفى حال نعيمه ولذته ، ومعاشه وقيامه وقعوده واضطجاعه وسفره وإقامته ، فليس فى الأعمال شىء يعم الأوقات والأحوال مثله، حتى إنه يسير العبد وهو نائم على فراشه ، فيسبق القائم مع الغفلة ، فيصبح هذا النائم وقد قطع الركب وهو مستلق على فراشه ، ويصبح ذلك القائم الغافل فى ساقة الركب ، وذلك فضل اللّه يؤتيه من يشاء.

وحكى : عن رجل من العُباد أنه نزل برجل من العباد ضيفا ، فقام العابد ، ليله يصلى، وذلك الرجل مستلق على فراشه ، فلما أصبحا قال له العابد : سبقك الركب ، أو كما قال ، قال: ليس الشأن فيمن بات مسافراً وأصبح مع الركب ،الشأن فيمن بات على فراشه وأصبح قد قطع الركب .

وهذا ونحوه له محمل صحيح، ومحمل فاسد ، فمن حمله على أن الراقد المضطجع على فراشه يسبق القائم القانت ، فهو باطل ، وإنما محمله أن هذا المستلقى على فراشه علق قلبه بربه عز وجل ، وألصق حبة قلبه بالعرش ، وبات قلبه يطوف حول العرش مع الملائكة ، قد غاب عن الدنيا ومن فيها ، وقد عاقه عن قيام الليل عائق من وجع أو برد يمنعه القيام ، أو خوف على نفسه من رؤية عدو يطلبه ، أو غير ذلك من الأعذار ، فهو مستلق على فراشه ، وفى قلبه ما اللّه تعالى به عليم .

وآخر قائم يصلى ويتلو ،وفى قلبه من الرياء والعجب ، وطلب الجاه ،والمحمدة عند الناس ، ما اللّه به عليم ، أو قلبه فى وادٍ ،وجسمه فى واد ، فلا ريب أن ذلك الراقد يصبح وقد سبق هذا القائم بمراحل كثيرة ، فالعمل على القلوب ، لا على الأبدان ، والمعوّل على الساكن ، لا على الأطلال ، والاعتبار بالمحرك الأول ، فالذكر يثير العزم الساكن ، ويهيج الحب المتوارى ، ويبعث الطلب المبيت .

السادسة والثلاثون : أن الذكر نور للذاكر فى الدنيا ،ونور له فى قبره ، ونور له فى معاده ، يسعى بين يديه على الصراط ، فما استنارت القلوب والقبور بمثل ذكر اللّه تعالى .

قال اللّه تعالى : **﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾** [الأنعام: ١٢٢] .فالأول هو المؤمن استنار بالإيمان باللّه ومحبته ومعرفته وذكره ، والآخر هو الغافل عن اللّه تعالى ،المعرض عن ذكره ومحبته ، والشأن كل الشأن ، والفلاح كل الفلاح ، فى النور، والشقاء كل الشقاء فى فواته .

ولهذا كان النبى ﷺ يبالغ فى سؤال ربه تبارك وتعالى حين يسأله أن يجعله فى لحمه ، وعظامه ، وعصبه ، وشعره ، وبشره ، وسمعه ، وبصره ، ومن فوقه ،ومن تحته ، وعن يمينه ، وعن شماله ، وخلفه، وأمامه ، حتى يقول: « واجعلنى نورا» (١)، فسأل ربه تبارك وتعالى أن يجعل النور فى ذراته الظاهرة والباطنة،وأن يجعله محيطا به من جميع جهاته ، وأن يجعل ذاته ،وجملته نوراً .

(١) مسلم (٧٦٣ / ١٨٧) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب : الدعاء فى صلاة الليل وقيامه .

فدين الله عز وجل نور ، وكتابه نور ، ورسوله نور ،وداره التى أعدها لأوليائه نور يتلألأ ، وهو تبارك وتعالى نور السموات والأرض، ومن أسمائه النور ، وأشرقت الظلمات لنور وجهه.

وفى دعاء النبى ﷺ يوم الطائف:« أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ،أن يحل علىّ غضبك ، أو ينزل بى سخطك ،لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك »[١].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه :ليس عند ربكم ليل ولا نهار ، نور السموات والأرض من نور وجهه،وفى بعض ألفاظ هذا الأثر: نور السموات من نور وجهه ،ذكره عثمان الدارمى، وقد قال تعالى : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ [الزمر :٦٩].

فإذا جاء تبارك وتعالى يوم القيامة للفصل بين عباده ،وأشرقت بنوره الأرض ، وليس إشراقها يومئذ بشمس ولا قمر ،فإن الشمس تكوّر ،والقمر يخسف ،ويذهب نورهما ، وحجابه تبارك وتعالى النور .

قال أبو موسى ؛ قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال:« إن الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام ، ولكنه يخفض القسط ويرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سُبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه »[٢] .

ثم قرأ أبو عبيدة : ﴿ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [النمل : ٨] .

فاستنارة ذلك الحجاب بنور وجهه ،ولولاه لأحرقت سبحات وجهه ونوره ما انتهى إليه بصره . ولهذا لما تجلى تبارك وتعالى للجبل ،وكشف من الحجاب شيئا يسيراً ، ساخ الجبل فى الأرض ، وتدكدك ،ولم يقم لربه تبارك وتعالى .

وهذا معنى قول ابن عباس فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾[الأنعام: ١٠٣] قال : ذلك الله عز وجل ،إذا تجلى بنوره لم يقم له شىء . وهذا من بديع فهمه رضى الله تعالى عنه،ودقيق فطنته،كيف لا ؟! وقد دعا له رسول الله ﷺ أن يعلمه الله التأويل .

---

(١) الطبرانى فى الكبير ٢٥ /٣٤٦ ، وقال الهيثمى فى المجمع (٦/ ٣٥) فى المغازى والسير ، باب خروج النبى ﷺ إلى الطائف وعرضه نفسه على القبائل : « فيه ابن إسحاق ، وهو مدلس ثقة، وبقية رجاله ثقات» .

(٢) مسلم (١٧٩/٢٩٣) فى الإيمان ، باب : فى قوله :« نور أنى أراه » ،وابن ماجه (١٩٥) فى المقدمة ، باب: فيما أنكرت الجهمية ، وأحمد (٤/ ٤٠٥) .

فالرب تبارك وتعالى يرى يوم القيامة بالأبصار عيانا ،ولكن يستحيل إدراك الأبصار له وإن رأته، فالإدراك أمر وراء الرؤية ، وهذه الشمس ـ ولله المثل الأعلى ـ نراها ندركها كما هى عليه ،ولا قريبا من ذلك، ولذلك قال ابن عباس لمن سأله عن الرؤية وأورد عليه ﴿ **لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ** ﴾ فقال :ألست ترى السماء قال: بلى،قال : أفتدركها ؟قال: لا، قال : فالله تعالى أعظم وأجل .

وقد ضرب سبحانه وتعالى النور فى قلب عبده مثلا لا يعقله إلا العالمون ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ **اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥)** ﴾[النور] .

قال أبى بن كعب : مثل نوره فى قلب المسلم ،وهذا هو النور الذى أودعه فى قلبه من معرفته ومحبته والإيمان به وذكره ،وهو نوره الذى أنزله إليهم ، فأحياهم به ، وجعلهم يمشون به بين الناس،وأصله فى قلوبهم ،ثم تقوى مادته ، فتتزايد حتى يظهر على وجوههم وجوارحهم وأبدانهم ، بل وثيابهم ودورهم ، يبصره من هو من جنسهم ، وسائر الخلق له منكرون ، فإذا كان يوم القيامة برز ذلك النور ، وصار بإيمانهم يسعى بين أيديهم فى ظلمة الجسر حتى يقطعوه، وهم فيه على حسب قوته وضعفه فى قلوبهم فى الدنيا ، فمنهم من نوره كالشمس ، وآخر كالقمر ،وآخر كالنجم ، وآخر كالسراج ، وآخر يعطى نورا على إبهام قدمه ، يضىء مرة ، ويطفأ أخرى ، إذا كانت هذه حال نوره فى الدنيا ، فأعطى على الجسر بمقدار ذلك ، بل هو نفس نوره ظهر له عيانا ، ولما لم يكن للمنافق نور ثابت فى الدنيا ، بل كان نوره ظاهراً ، لا باطناً ، أعطى نوراً ظاهرًا مآله إلى الظلمة والذهاب .

وضرب الله عز وجل لهذا النور ،ومحله ، وحامله ،ومادته مثلا بالمشكاة ،وهى الكُوّة فى الحائط ، فهى مثل الصدر ،وفى تلك المشكاة زجاجة من أصفى الزجاج ، وحتى شبّهت بالكوكب الدُّرِّىّ فى بياضه وصفائه ،وهى مثل القلب ،وشبهت بالزجاجة ؛ لأنها جمعت أوصافا هى فى قلب المؤمن ،وهى : الصفاء ، والرقة ، والصلابة ، فيرى الحق والهدى بصفائه ،وتحصل منه الرأفة والرحمة ،والشفقة برقّته ،ويجاهد أعداء الله تعالى ، ويغلظ عليهم،ويشتد فى الحق ،ويصلب فيه بصلابته ،ولا تبطل صفة منه صفة أخرى،ولا

تعارضها ،بل تساعدها وتعاضدها ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾[الفتح:٢٩]،وقال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾[آل عمران: ١٥٩] ، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة: ٧٣] .

وفى أثر :« القلوب آنية اللّه تعالى فى أرضه ، فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفاها ».

وبإزاء هذا القلب مذمومان فى طرفى نقيض . أحدهما : قلب حجرى قاس لا رحمة فيه ، ولا إحسان ولا برّ ، ولا له صفاء يرى به الحق ، بل هو جبار جاهل . لا عالم بالحق .ولا راحم بالخلق .وبإزائه قلب ضعيف مائى ، لا قوة فيه ، ولا استمساك ، بل يقبل كل صورة ، وليس له قوة حفظ تلك الصور ، ولا قوة التأثير فى غيره ،وكل ما خالطه أثر فيه ، من قوى وضعيف ، وطيب وخبيث . وفى الزجاجة مصباح ، وهو النور الذى فى الفتيلة ، وهى حاملته ، ولذلك النور مادة ، وهو زيت قد عصر من زيتونة فى أعدل الأماكن تصيبها الشمس أول النهار وآخره فزيتها من أصفى الزيت وأبعده من الكدر،حتى إنه ليكاد من صفائه يضىء بلا نار ، فهذه مادة نور المصباح .

وكذلك مادة نور المصباح الذى فى قلب المؤمن ، هو من شجرة الوحى التى هى أعظم الأشياء بركة ، وأبعدها من الانحراف ، بل هى أوسط الأمور وأعدلها وأفضلها ،لم تنحرف انحراف النصرانية ،ولا انحراف اليهودية ، بل هى وسط بين الطرفين المذمومين فى كل شىء ، فهذه مادة مصباح الإيمان فى قلب المؤمن .

ولما كان ذلك الزيت قد اشتد صفاؤه حتى كاد أن يضىء بنفسه ، ثم خالط النار ، فاشتدت بها إضاءته، وقويت مادة ضوء النار به ، كان ذلك نوراً على نور .

وهكذا المؤمن قلبه مضىء يكاد يعرف الحق بفطرته وعقله ، ولكن لا مادة له من نفسه، فجاءت مادة الوحى ، فباشرت قلبه، وخالطت بشاشته ، فازداد نوراً بالوحى على نوره الذى فطره اللّه تعالى عليه ، فاجتمع له نور الوحى إلى نور الفطرة ، فصار نورا على نور ،فيكاد ينطق بالحق وإن لم يسمع فيه أثرا ، ثم يسمع الأثر مطابقا لما شهدت به فطرته، فيكون نوراً على نور ، فهذا شأن المؤمن يدرك الحق بفطرته مجملا ، ثم يسمع الأثر جاء به مفصلا ، فينشأ إيمانه عن شهادة الوحى والفطرة .

فليتأمل اللبيب هذه الآية العظيمة ، ومطابقتها لهذه المعانى الشريفة، فذكر ـ سبحانه

وتعالى ـ نوره فى السموات والأرض ، ونوره فى قلوب عباده المؤمنين ، النور المعقول المشهود بالبصائر والنور الذى استنارت به البصائر والقلوب ،والنور المحسوس المشهود بالأبصار الذى استنارت به أقطار العالم العلوى والسفلى ، فهما نوران عظيمان ، أحدهما أعظم من الآخر ، وكما أنه إذا فقد أحدهما من مكان أو موضع ، لم يعش فيه آدمى ولا غيره ؛ لأن الحيوان إنما يتكون حيث النور ، ومواضع الظلمة التى لا يشرق عليها نور ، لا يعيش فيها حيوان ،ولا يتكون البتة ، فكذلك أمة فقد فيها نور الوحى والإيمان ، وقلب فقد منه هذا النور ميت ولا بد، لا حياة له البتة، كما لا حياة للحيوان فى مكان لا نور فيه .

واللّه ـ سبحانه وتعالى ـ يقرن بين الحياة والنور ،كما فى قوله عز وجل: ﴿ **أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا** ﴾[الأنعام: ١٢٢]،وكذلك قوله عز وجل: ﴿**وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا** ﴾ [الشورى: ٥٣].

وقد قيل: إن الضمير فى ﴿ **جَعَلْنَاهُ** ﴾ عائد إلى الأمر، وقيل : إلى الكتاب ، وقيل : إلى الإيمان ، والصواب: أنه عائد إلى الروح أى : جعلنا ذلك الروح الذى أوحيناه إليك نوراً: فسماه روحاً لما يحصل به من الحياة ، وجعله نوراً لما يحصل به من الإشراق والإضاءة ،وهما متلازمان ، فحيث وجدت هذه الحياة بهذا الروح ،وجدت الإضاءة والاستنارة ،وحيث وجدت الاستنارة والإضاءة وجدت الحياة ، فمن لم يقبل قلبه هذا الروح ، فهو ميت مظلم ،كما أن من فارق بدنه روح الحياة فهو هالك مضمحل .

فلهذا يضرب ـ سبحانه وتعالى ـ المثلين : المائى والنارى معا ، لما يحصل بالماء من الحياة وبالنار من الإشراق والنور ، كما ضرب ذلك فى أول سورة البقرة فى قوله تعالى : ﴿ **مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ (١٧)**﴾[البقرة]،وقال: ﴿ **ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ**﴾ولم يقل: بنارهم، لأن النار فيها الإحراق والإشراق ، فذهب بما فيه الإضاءة والإشراق ،وأبقى عليهم ما فيه الأذى والإحراق .

وكذلك حال المنافقين:ذهب نور إيمانهم بالنفاق ،وبقى فى قلوبهم حرارة الكفر والشكوك والشبهات تغلى فى قلوبهم ،وقلوبهم قد صليت بحرّها وأذاها وسمومها ووهجها فى الدنيا ،فأصلاها اللّه تعالى إياها يوم القيامة ناراً موقدة تطّلع على الأفئدة .

فهذا مثل من لم يصحبه نور الإيمان فى الدنيا ، بل خرج منه وفارقه بعد أن استضاء به،وهو حال المنافق عرف ثم أنكر ، وأقر ثم جحد ، فهو فى ظلمات أصم أبكم أعمى، كما قال تعالى فى حق إخوانهم من الكفار : ﴿ **وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ**﴾ [الأنعام: ٣٩]،وقال تعالى: ﴿ **وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ (١٧١)** ﴾[البقرة :١٧١]،وشبه تعالى حال المنافقين فى خروجهم من النور بعد أن أضاء لهم بحال مستوقد النار وذهاب نورها عنه بعد أن أضاءت ما حوله ؛ لأن المنافقين بمخالطتهم المسلمين وصلاتهم معهم،وصيامهم معهم،وسماعهم القرآن، ومشاهدتهم أعلام الإسلام ومناره، قد شاهدوا الضوء ،ورأوا النور عياناً ؛ ولهذا قال تعالى فى حقهم: ﴿ **فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ (١٨)**﴾ [البقرة] إليه ،لأنهم فارقوا الإسلام بعد أن تلبسوا به واستناروا ، فهم لا يرجعون إليه .

وقال تعالى فى حق الكفار : ﴿**فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ** ﴾ ؛لأنهم لم يعقلوا الإسلام ،ولا دخلوا فيه ،ولا استناروا به ،بل لا يزالون فى ظلمات الكفر ،صم بكم عمى ،فسبحان من جعل كلامه لأدواء الصدور شافيا، وإلى الإيمان وحقائقه مناديا ، وإلى الحياة الأبدية والنعيم المقيم داعيا، وإلى طريق الرشاد هاديا . لقد أسمع منادى الإيمان لو صادف آذانا واعية ، وشفت مواعظ القرآن لو وافقت قلوبا من غيها خالية ،ولكن عصفت على القلوب أهوية الشبهات والشهوات ، فأطفأت مصابيحها ،وتمكنت منها أيدى الغفلة والجهالة ، فأغلقت أبواب رشدها ، وأضاعت مفاتيحها ،وران عليها كسبها ، فلم ينفع فيها الكلام ، وسكرت بشهوات الغى وشبهات الباطل ، فلم تصغ بعده إلى الملام ،ووعظت بمواعظ أنكى فيها من الأسنة والسهام ،ولكن ماتت فى بحر الجهل والغفلة ، وأسر الهوى والشهوة، و «ما لجرح بميت إيلام » .

والمثل الثانى المائى : قوله تعالى : ﴿ **أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩)** ﴾[البقرة] .الصيب: المطر الذى يصوب من السماء، أى: ينزل منها بسرعة ،وهو مثل القرآن الذى به حياة القلوب ،كالمطر الذى به حياة الأرض والنبات والحيوان ،فأدرك المؤمنين ذلك منه ،وعلموا ما يحصل به من الحياة التى لا خطر لها ، فلم يمنعهم منها ما فيه من الرعد والبرق، وهو الوعيد والتهديد ،والعقوبات والمثلات التى حذر الله بها من خالف أمره، وأخبر أنه منزلها بمن كذب رسول الله ﷺ ،أو ما فيه من الأوامر الشديدة ، كجهاد الأعداء ، والصبر على

اللأواء ، أو الأوامر الشاقة على النفوس التى هى بخلاف إرادتها ، فهى كالظلمات والرعد والبرق ، ولكن من علم مواقع الغيث وما يحصل به من الحياة لم يستوحش لما معه من الظلمة والرعد والبرق ، بل يستأنس لذلك ، ويفرح به لما يرجو من الحياة والخصب .

وأما المنافق ، فإنه لعمى قلبه، لم يجاوز بصره الظلمة ، ولم ير إلا برقا يكاد يخطف البصر ، ورعدا عظيما وظلمة ، فاستوحش من ذلك وخاف منه ، فوضع أصابعه فى أذنيه لئلا يسمع صوت الرعد ، وهاله مشاهدة ذلك البرق، وشدة لمعانه ، وعظم نوره ، فهو خائف أن يختطف معه بصره ؛ لأن بصره أضعف أن يثبت معه ، فهو فى ظلمة يسمع أصوات الرعد القاصف ، ويرى ذلك البرق الخاطف ، فإن أضاء له ما بين يديه مشى فى ضوئه ، وإن فقد الضوء قام متحيرا لا يدرى أين يذهب ،ولجهله لا يعلم أن ذلك من لوازم الصيب الذى به حياة الأرض والنبات،وحياته هو فى نفسه، بل لا يدرك إلا رعداً، وبرقاً ، وظلمة ، ولا شعور له بما وراء ذلك ،فالوحشة لازمة له ، والرعب والفزع لا يفارقه .

وأما من أنس بالصيّب ، وعلم ما يحصل به من الخيرات والحياة والنفع أنه لا بد فيه من رعد وبرق وظلمة بسبب الغيم ، استأنس بذلك ولم يستوحش منه ،ولم يقطعه ذلك عن أخذه بنصيبه من الصيب .

فهذا مثل مطابق للصيِّب الذى نزل به جبريل ﷺ من عند رب العالمين تبارك وتعالى على قلب رسول الله ﷺ ليحيى به القلوب والوجود أجمع ، اقتضت حكمته أن يقارنه من الغيم والرعد والبرق ما يقارن الصيِّب من الماء حكمة بالغة وأسبابا منتظمة نظمها العزيز الحكيم.

فكان حظ المنافق من ذلك الصيِّب سحابه ورعوده وبروقه فقط ، لم يعلم ما وراءه ، فاستوحش بما أنس به المؤمنون ، وارتاب بما اطمأن به العالمون ،وشك فيما تيقّنه المبصرون العارفون ، فبصره فى المثل النارى كبصر الخفاش نحو الظهيرة ،وسمعه فى المثل المائى كسمع من يموت من صوت الرعد . وقد ذكر عن بعض الحيوانات أنها تموت من صوت الرعد.

وإذا صادف هذه العقول والأسماع والأبصار شبهات شيطانية ، وخيالات فاسدة ، وظنون كاذبة ،جالت فيها وصالت ،وقامت بها وقعدت، واتسع فيها مجالها ،وكثر بها قيلها وقالها ، فملأت الأسماع من هذيانها ،والأرض من دويانها ،وما أكثر المستجيبين لهؤلاء ، والقابلين منهم ، والقائمين بدعوتهم ،والمحامين عن حوزتهم ،والمقاتلين تحت ألويتهم ،

والمُكثِّرين لسوادهم عدداً ،وما أقلهم عند اللّه وأوليائه قدراً .

ولعموم البلية بهم،وضرر القلوب بكلامهم،هتك اللّه أستارهم فى كتابه غاية الهتك، وكشف أسرارهم غاية الكشف ، وبين علاماتهم وأعمالهم وأقوالهم ،ولم يزل عز وجل يقول:(ومنهم... ومنهم ... ومنهم ...) حتى انكشف أمرهم ، وبانت حقائقهم، وظهرت أسرارهم .

وقد ذكر اللّه سبحانه وتعالى فى أول سورة (البقرة) أوصاف المؤمنين والكفار والمنافقين ،فذكر فى أوصاف المؤمنين ثلاث آيات ،وفى أوصاف الكفار آيتين ، وفى أوصاف هؤلاء بضع عشرة آية ، لعموم الابتلاء بهم وشدة المصيبة بمخالطتهم فإنهم من الجلدة ، مظهرون الموافقة والمناصرة ، بخلاف الكافر الذى قد تأبد بالعداوة ، وأظهر السريرة ، ودعاك بما أظهره إلى مزايلته ومفارقته .

ونظير هذين المثلين المثلان المذكوران فى سورة (الرعد) فى قوله تعالى: **﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾** [الرعد: ١٧] ، **فهذا هو المثل المائى** ، شبَّه الوحى الذى أنزله بحياة القلوب ، بالماء الذى أنزله من السماء ، وشبه القلوب الحاملة له ، بالأدوية الحاملة للسيل .

فقلب كبير يسع علمًا عظيمًا كوادٍ كبير يسع ماءً كثيراً ،وقلب صغير كوادٍ صغير يسع علماً قليلاً ، فحملت القلوب من هذا العلم بقدرها ،كما سالت الأودية بقدرها .

ولما كنت الأودية ومجارى السيول فيها الغثاء ونحوها مما يمر عليه السيل فيحتمله السيل فيطفو على وجه الماء زبدًا عاليًا يمر عليه متراكباً ،ولكن تحته الماء الفرات الذى به حياة الأرض فيقذف الوادى ذلك الغثاء إلى جنبتيه حتى لا يبقى منه شىء ويبقى الماء الذى تحت الغثاء يسقى الله به الأرض فيحيى به البلاد والعباد،والشجر والدواب ، والغثاء يذهب جفاءً يجفى ، ويطرح على شفير الوادى .

فكذلك العلم والإيمان الذى أنزله من السماء فى القلوب فاحتملته ، فأثار منها بسبب مخالطته لها ما فيها من غثاء الشهوات وزبد الشبهات الباطلة ، فطفا فى أعلاها ،واستقر العلم والإيمان والهدى فى جذر القلب وهو أصله ومستقره ،كما قال النبى ﷺ:« نزل الإيمان فى جذر قُلُوب الرجال » رواه البخارى من حديث حذيفة ، فلا يزال ذلك الغثاء والزبد يذهب جفاء ،ويزول شيئا فشيئا،حتى يزول كله،ويبقى العلم النافع والإيمان الخالص فى جذر القلب يرده الناس ، فيشربون ويسقون ويمرعون.

وفى « الصحيح » من حديث أبى موسى عن النبى ﷺ قالك :« مثل ما بعثنى اللّه تعالى به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا، فكان منها طائفة طيبة ، قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعُشب الكثير ، وكان منها طائفة أجادب أمسكت الماء ، فسقى الناس وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى ،إنما هى قيعان ، لا تُمسك ماء ،ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله تعالى ، ونفعه بما بعثنى اللّه به ، فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ،ولم يقبل هدي اللّه الذى أرسلتُ به » (١).

فجعل النبى ﷺ الناس بالنسبة إلى الهدى والعلم ثلاث طبقات :

الطبقة الأولى : ورثة الرسل وخلفاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام،وهم الذين قاموا بالدين علماً وعملاً ودعوة إلى اللّه عز وجل ورسوله ﷺ ،فهؤلاء أتباع الرسل ـ صلوات اللّه عليهم وسلامه ـ حقا ، وهم بمنزلة الطائفة الطيبة من الأرض التى زكت ، فقبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير،فزكت فى نفسها ، وزكا الناس بها .

وهؤلاء هم الذين جمعوا بين البصيرة فى الدين والقوة على الدعوة، ولذلك كانوا ورثة الأنبياء صلى الله عليهم وسلم الذين قال اللّه تعالى فيهم: ﴿ **وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ** ﴿٤٥﴾ ﴾ [ص] ،فالأيدى: القوة فى أمر اللّه ، والأبصار : البصائر فى دين اللّه عز وجل : فالبصائر يدرك الحق ويعرف ، وبالقوة يتمكن من تبليغه وتنفيذه والدعوة إليه ،فهذه الطبقة كان لها قوة الحفظ والفهمَ فى الدين والبصر بالتأويل، ففجَّرت من النصوص أنهار العلوم ، واستنبطت منها كنوزها ،ورزقت فيها فهما خاصا، كما قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب وقد سئل : هل خصكم رسول اللّه ﷺ بشيء دون الناس؟ فقال:لا والذى فلق الحبة وبرأ النسمة ، إلا فهْما يؤتيه اللّه عبدا فى كتابه (٢).

فهذا الفهم هو بمنزلة الكلأ والعشب الكثير الذى أنبتته الأرض ، وهو الذى تميزت به هذه الطبقة عن الطبقة الثانية .

فإنها(٣) حفظت النصوص ، وكان همها حفظها وضبطها ، فوردها الناس وتلقَّونها منهم،فاستنبطوا منها ، واستخرجوا كنوزها ، واتجروا فيها ،وبذروها فى أرض قابلة للزرع

---

(١) البخارى (٧٩) فى العلم ، باب : فضل من علم وعلم ، ومسلم (٢٢٨٢ / ١٥) فى الفضائل ، باب : بيان ما بعث النبى ﷺ من الهدى والعلم ، وأحمد ٤/ ٣٩٩ .

(٢) البخارى (٣٠٤٧) فى الجهاد ، باب : فكاك الأسير ، والترمذى (١٤١٢) فى الديات ، باب: ما جاء لا يقتل مسلم بكافر ،والنسائى (٤٧٤٤) فى القسامة ، باب: سقوط القود من المسلم للكافر،وأحمد ١/ ٧٩.

(٣) أى الطبقة الثانية .

والنبات، فاستخرجوا غوامضها وأسرارها، ووردوها كلّ بحسبه ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠]وهؤلاء هم الذين قال فيهم النبى ﷺ :« نضر الله امرأ سمع مقالتى فوعاها، ثم أداها كما سمعها ، فرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»(١).

وهذا عبد الله بن عباس حبْر الأمة وترجمان القرآن ، مقدار ما سمع من النبى ﷺ لم يبلغ نحو العشرين حديثاً الذى يقول فيه :سمعت ،ورأيت ،وسمع الكثير من الصحابة، وبورك فى فهمه والاستنباط منه حتى ملأ الدنيا علمًا وفقها .

قال أبو محمد ابن حزم : وجمعت فتاويه فى سبعة أسفار كبار وهى بحسب ما بلغ جامعها ، وإلا فعلم ابن عباس كالبحر ، وفقهه واستنباطه وفهمه فى القرآن بالموضع الذى فاق به الناس،وقد سمع كما سمعوا ،وحفظ القرآن كما حفظوا ، ولكن أرضه كانت من أطيب الأراضى وأقبلها للزرع ، فبذر فيها النصوص ، فأنبتت من كل زوج كريم: ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾ ﴾[الجمعة] .

وأين تقع فتاوى ابن عباس ،وتفسيره،واستنباطه، من فتاوى أبى هريرة وتفسيره ؟ وأبو هريرة أحفظ منه ، بل هو حافظ الأمة على الإطلاق : يؤدى الحديث كما سمعه ، ويدرسه بالليل درسا، فكانت همته مصروفة إلى الحفظ وتبليغ ما حفظه كما سمعه،وهمة ابن عباس مصروفة إلى التفقُّه والاستنباط وتفجير النصوص ، وشق الأنهار منها ، واستخراج كنوزها.

وهكذا الناس بعده قسمان :

قسم حفاظ معتنون بالضبط ،والحفظ ،والأداء ،كما سمعوا ،ولا يستنبطون ولا يستخرجون كنوز ما حفظوه .

وقسم معتنون بالاستنباط واستخراج الأحكام من النصوص ، والتفقُّه فيها .

فالأول كأبى زرعة،وأبى حاتم، وابن دارة. وقبلهم :كبندار محمد بن بشار، وعمرو الناقد ،وعبد الرزاق ،وقبلهم كمحمد بن جعفر غندر ، وسعيد بن أبى عُروبة ،وغيرهم من أهل الحفظ ، والإتقان والضبط لما سمعوه من غير استنباط وتصرف ، واستخراج الأحكام من ألفاظ النصوص .

---

(١) ابن ماجه (٣٠٥٦) فى المناسك باب : الخطبة يوم النحر ، قال فى الزوائد : «هذا إسناد فيه محمد بن إسحاق، وهو مدلس وقد رواه بالعنعنة ، والإسناد على حاله صحيح » . وأحمد ٤/ ٨٠ ، ٨٢ ، والحاكم (١/ ٨٧) فى العلم ، باب : ثلاث لا يغل عليهن قلب مؤمن ، وقال: « صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه » ، ووافقه الذهبى .

والقسم الثاني: كمالك ، والليث ،وسفيان ، وابن المبارك ، والشافعي ، والأوزاعي، وإسحاق ، والإمام أحمد بن حنبل ، والبخاري ، وأبي داود ، ومحمد بن نصر المروزي ،وأمثالهم ممن جمع الاستنباط والفقه إلى الرواية ، فهاتان الطائفتان هما أسعد الخلق بما بعث الله تعالى به رسوله ﷺ، وهم الذين قبلوه ورفعوا به رأساً .

الطبقة الثالثة :وأما الطائفة الثالثة وهم أشقى الخلق الذين لم يقبلوا هدى الله ولم يرفعوا به رأساً ،فلا حفظ ، ولا فهم ، ولا رواية ، ولا دراية ،ولا رعاية .

فالطبقة الأولى :أهل رواية ورعاية ودراية .

والطبقة الثانية : أهل رواية ورعاية ، ولهم نصيب من الدراية ، بل حظهم من الرواية أوفر .

والطبقة الثالثة : الأشقياء ، لا رواية ،ولا دراية ،ولا رعاية .

﴿ **إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً** (٤٤)﴾ [الفرقان]،فهم الذين يضيقون الديار ، ويغلون الأسعار ، إن همة أحدهم إلا بطنُه وفرجه ، فإن ترقَّت همته كان همه ـ مع ذلك ـ لباسه وزينته ، فإن ترقت همّته فوق ذلك ، كان في داره وبستانه ومركوبه ، فإن ترقت همته فوق ذلك ، كان همه في الرياسة والانتصار للنفس الكلبية، فإن ارتفعت همته عن نصرة النفس الكلبية ، كان همه في نصرة النفس السبعية ،وأما النفس الملكية فلم يعطها أحد من هؤلاء .

فإن النفوس كلبية وسبعية وملكية .

فالكلبية : تقنع بالعظم ، والكسرة ، والجيفة ، والعذرة .

والسبعية : لا تقنع بذلك ، بل بقهر النفوس ، والاستعلاء عليها بالحق والباطل .

وأما الملكية : فقد ارتفعت عن ذلك ، وشمَّرت إلى الرفيق الأعلى ، فهمَّتُها العلم والإيمان ،ومحبة الله تعالى ، والإنابة إليه ، والطمأنينة به ، والسكون إليه ، وإيثار محبته ومرضاته، وإنما تأخذ من الدنيا ما تأخذ لتستعين به على الوصول إلى فاطرها وربّها ووليِّها، لا لتنقطع به عنه .

ثم ضرب ـ سبحانه وتعالى ـ مثلاً ثانيا، وهو المثل الناري ، فقال:﴿ **وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُه** ﴾[الرعد:١٧] ،وهو الحديد والنحاس ، والفضة والذهب وغيرها ،فإنها تدخل الكير لتمحص وتخلص من الخبث ، فيخرج خبثها فيرمى به ويطرح ،

ويبقى خالصها ، فهو الذى ينفع الناس .

ولما ضرب اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ هذين المثلين ذكر حكم من استجاب له ، ورفع بهداه رأساً ، وحكم من لم يستجب له ، ولم يرفع بهداه رأساً ، فقال: ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨) ﴾[الرعد] .

والمقصود : أن اللّه تعالى جعل الحياة حيث النور ،والموت حيث الظلمة ، فحياة الوجودين ، الروحى والجسمى بالنور ، وهو مادة الحياة، كما أنه مادة الإضاءة ، فلا حياة بدونه ، كما لا إضاءة بدونه ، وكما أنه به حياة القلب ،فبه انفساحه وانشراحه وسعته ، كما فى الترمذى عن النبى ﷺ :« إذا دخل النُّور القلب انفسخ وانشرح » قالوا:وما علامة ذلك ؟ قال: « الإنابة إلى دار الخُلود ، والتجافى عن دار الغُرور ، والاستعداد للموت قبل نزوله » [١].

ونور العبد هو الذى يصعد عمله وكلمه إلى اللّه تعالى ، فإن اللّه تعالى لا يصعد إليه من الكلم إلى الطيب ،وهو نور ومصدر عن النور ، ولا من العمل إلا الصالح ،ولا من الأرواح إلا الطيبة ،وهى أرواح المؤمنين التى استنارت بالنور الذى أنزله على رسوله ﷺ والملائكة الذين خلقوا من نور ،كما فى « صحيح مسلم »، عن عائشة رضي الله عنها عن النبى ﷺ قال:« خلقت الملائكة من نور ،وخلقت الشياطين من نار ،وخُلق آدم مما وصف لكُم»[٢].

فلما كانت مادة الملائكة من نور ، كانوا هم الذين يعرجون إلى ربهم تبارك وتعالى ، وكذلك أرواح المؤمنين هى التى تعرج إلى ربها وقت قبض الملائكة لها ، فيفتح لها باب السماء الدنيا ، ثم الثانية ، ثم الثالثة ، ثم الرابعة ، إلى أن ينتهى بها إلى السماء السابعة، فتوقف بين يدى اللّه عز وجل ، ثم يأمر أن يكتب كتابه فى أهل عليين . فلما كانت هذه الروح روحاً زاكية طيبة نيّرة مشرقة صعدت إلى اللّه عز وجل مع الملائكة .

وأما الروح المظلمة الخبيثة الكدرة ،فإنها لا تفتح لها أبواب السماء،ولا تصعد إلى اللّه تعالى ، بل ترد من السماء الدنيا إلى عالمها وعنصرها ؛ لأنها أرضية سفلية ،والأولى علوية

---

(١) نوادر الأصول ص ١٢٥ ، ١٢٦ ، والحاكم فى المستدرك (٤/ ٣١١) فى الرقاق ، باب : إعلام النور فى الصدر ، وضعفه الألبانى .

(٢) مسلم (٢٩٩٦ / ٦٠) فى الزهد ، باب: فى أحاديث متفرقة ، وفيه : « وخلق الجان من مارج من نار » .

سماوية ، فرجعت كل روح إلى عنصرها وما هى منه ، وهذا مبين فى حديث البراء بن عازب الطويل الذى رواه الإمام أحمد،وأبو عوانة الإسفراييني فى « صحيحه » ،والحاكم وغيرهم ،وهو حديث صحيح (١).

والمقصود : أن الله عز وجل لا يصعد إليه من الأعمال والأقوال والأرواح إلا ما كان منها نوراً ،وأعظم الخلق نوراً أقربهم إليه وأكرمهم عليه .

وفى « المسند » من حديث عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ: « إن الله تعالى خلق خلقه فى ظُلمةٍ ، وألقى عليهم من نوره ، فمن أصاب من ذلك النُّور اهتدى ، ومن أخطأ ضل ، فلذلك أقول : جفَّ القلمُ على علْم الله تعالى » (٢).

وهذا الحديث العظيم أصل من أصول الإيمان ، وينفتح به باب عظيم من أبواب سر القدر وحكمته ، والله تعالى الموفق .

وهذا النور الذى ألقاه عليهم ـ سبحانه وتعالى ـ هو الذى أحياهم وهداهم ، فأصاب الفطرة منه حظًّها ،ولكن لما لم يستقل بتمامه وكماله ، أكمله لهم ،وأتمه بالروح الذى ألقاه على رسله عليهم الصلاة والسلام،والنور الذى أوحاه إليهم، فأدركته الفطرة بذلك النور السابق الذى حصل لها يوم إلقاء النور ، فانضاف نور الوحى والنبوة إلى نور الفطرة ، نور على نور ، فأشرقت منه القلوب ، واستنارت به الوجوه ، وحييت به الأرواح ، وأذعنت به الجوارح للطاعات طوعاً واختياراً ، فازدادت به القلوب حياة إلى حياتها .

ثم دلها ذلك النور على نور آخر هو أعظم منه وأجل ،وهو نور الصفات العليا الذى يضمحل فيه كل نور سواه ، فشاهدته ببصائر الإيمان مشاهدة نسبتها إلى القلب كنسبة المرئيات إلى العين ، ذلك لاستيلاء اليقين عليها ، وانكشاف حقائق الإيمان لها ، حتى كأنها تنظر إلى عرش الرحمن تبارك وتعالى بارزاً ، وإلى استوائه عليه ، كما أخبر به سبحانه وتعالى فى كتابه ، وكما أخبر به عنه رسوله ﷺ ،يدبِّر أمر الممالك ، ويأمر وينهى ، ويخلق ويرزق ، ويميت ويحيى ،ويقضى وينفذ ،ويعزّ ويذلُّ ،ويقلب الليل والنهار ، ويداول الأيام بين الناس ، ويقلب الدول ، فيذهب بدولة،ويأتى بأخرى .

والرسل من الملائكة عليهم الصلاة والسلام بين صاعد إليه الأمر ، ونازل من عنده به،

---

(١) أبو داود (٤٧٥٣) فى السنة ، باب : فى المسألة فى القبر وعذاب القبر ، والنسائى (٢٠٥٧) فى الجنائز ، باب: عذاب القبر ، وأحمد ٤/ ٢٨٧ ، ٢٨٨ ،والحاكم فى المستدرك (١/ ٣٧ ـ ٤٠) فى الإيمان ، باب: مجىء ملك الموت عند قبض الروح، وقال: هذه الأسانيد التى ذكرتها صحيحة على شرط الشيخين »، ووافقه الذهبى.

(٢) أحمد ٢/ ١٧٦ ، ١٩٧ ، وصححه الشيخ شاكر (٦٦٤٤) .

وأوامره ومراسيمه متعاقبة على تعاقب الأوقات ، نافذة بحسب إرادته ومشيئته ، فما شاء كان كما شاء فى الوقت الذى يشاء على الوجه الذى يشاء ، من غير زيادة ولا نقصان، ولا تقدُّم ولا تأخُّر ،وأمره وسلطانه نافذ فى السموات وأقطارها ، وفى الأرض وما عليها وما تحتها ، وفى البحار والجو ،وفى سائر أجزاء العالم وذرَّاته ، يقلِّبها ويصرفها ، ويحدث فيها ما يشاء ، وقد أحاط بكل شىء علماً ، وأحصى كل شىء عدداً ، ووسع كل شىء رحمة وحكمة ،ووسع سمعه الأصوات ،فلا تختلف عليه ولا تشتبه عليه ، بل يسمع ضجيجها باختلاف لغاتها على تفنن حاجاتها ،فلا يشغله سمع عن سمع ، ولا تغلطه كثرة المسائل ، ولايتبرم بإلحاح الملحين ذوى الحاجات ،وأحاط بصره بجميع المرئيات ،فيرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصمَّاء فى الليلة الظلماء ،فالغيب عنده شهادة ،والسر عنده علانية، يعلم السر وأخفى من السر .

فالسر ما انطوى عليه ضمير العبد ، وخطر بقلبه ،ولم تتحرك به شفتاه ،وأخفى منه ما لم يخطر بقلبه بعد ،فيعلم أنه سيخطر بقلبه كذا وكذا فى وقت كذا وكذا له الخلق والأمر ،وله الملك وله الحمد وله الدنيا والآخرة ،وله النعمة ،وله الفضل،وله الثناء الحسن،وله الملك كله ،وله الحمد ، وبيده الخير كله ، وإليه يرجع الأمر كله ، شملت قدرته كل شىء ،ووسعت رحمته كل شىء ،وسعت نعمته إلى كل حى ﴿ **يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩)** ﴾ [الرحمن] : يغفر ذنباً ، ويفرِّج همًّا ،ويكشف كربا، ويجبر كسيرا ،ويغنى فقيرا ،ويُعلم جاهلا،ويهدى ضالا ، ويرشد حيراناً ،ويغيث لهفانا ، ويفكُّ عانيا، ويُشبع جائعاً ،ويكسو عاريا ،ويشفى مريضا ، ويُعافى مبتلى ،ويقيل تائباً ،ويجزى مُحسنا ،وينصر مظلوما ، ويقصم جبارا ،ويُقبل عثرة، ويستر عورة ، ويؤمِّن روعة ،ويرفع أقواما ،ويضع آخرين ،لا ينام ،ولا ينبغى له أن ينام ،يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ،وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه ، يمينه ملأى، لا تغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار .

أرأيتم ما أنفق منذ خلق الخلق ، فإنه لم يغض ما فى يمينه، قلوب العباد ونواصيهم بيده، وأزمَّة الأمور معقودة بقضائه وقدره ، الأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه ، يقبض سمواته كلها بيده الكريمة ، والأرض باليد الأخرى ، ثم يهزُّهن ، ثم يقول :أنا الملك ، أنا الذى بدأت الدنيا ولم تكن شيئا ،وأنا الذى أعيدها كما بدأتها.ولا يتعاظمه ذنب يغفره ، ولا حاجة يسألها أن يعطيها.

لو أن أهل سماواته ، وأهل أرضه ،وأول خلقه وآخرهم ،وإنسهم وجنهم كانوا على أتقى قلب رجل منهم ، ما زاد فى ملكه شيئا، ولو أن أول خلقه وآخرهم ، وإنسهم وجنهم ، كانوا على أفجر قلب رجل منهم ، ما نقص ذلك من ملكه شيئاً ،ولو أن أهل سمواته ،وأهل أرضه،وإنسهم وجنهم،وحيهم وميتهم ويابسهم ، قاموا فى صعيد واحد ، فسألوه ، فأعطى كلا منهم، ما سأله ، ما نقص ذلك مما عنده مثقال ذرة .

ولو أن أشجار الأرض كلها من حين وجدت إلى أن تنقضى الدنيا أقلام ،والبحر وراءه سبعة أبحر تمده من بعده مداد ، فكتب بتلك الأقلام وذلك المداد ،لفنيت الأقلام ، ونفد المداد،ولم تنفد كلمات الخالق تبارك وتعالى. وكيف تفنى كلماته جل جلاله وهى لا بداية لها ولا نهاية ، والمخلوق له بداية ونهاية ، فهو أحق بالفناء والنفاد وكيف يفنى المخلوق غير المخلوق .

هو الأول الذى ليس قبله شىء ،والآخر ليس بعده شىء ، والظاهر الذى ليس فوقه شىء ، والباطن الذى ليس دونه شىء .

تبارك وتعالى ، أحق من ذكر ، وأحق من عبد ،وأحق من حمد ،وأولى من شكر، وأنصر من ابتغى، وأرأف من ملك ،وأجود من سئل ،وأعفى من قدر ،وأكرم من قصد، وأعدل من انتقم ، حكمه بعد علمه ،وعفوه بعد قدرته،ومغفرته عن عزته ،ومنعه عن حكمته،وموالاته عن إحسانه ورحمته .

ما للعباد عليه حق واجبٌ كلا ولا سعْى لديه ضائعُ

إن عذِّبوا فبعدْله أو نُعّموا فبفضْله ،وهو الكريم الواسعُ

هو الملك الذى لا شريك له ، والفرد فلا ندَ له ،والغنى فلا ظهير له ، والصمد فلا ولد له ، ولا صاحبة له ، والعلى فلا شبيه له ، ولا سميَّ له ،كلُّ شىء هالك إلا وجهه ، وكلُّ ملك زائل إلا ملكه ،وكل ظل قالص إلا ظله ، وكل فضل منقطع إلا فضله ، لن يطاع إلا بإذنه ورحمته ، ولن يعصى إلا بعلمه وحكمته ، يُطاع فيشكر ،ويعصى فيتجاوز ويغفر ، كل نقمة منه عدل ، وكل نعمة منه فضل، أقرب شهيد ، وأدنى حفيظ ، حال دون النفوس ،وأخذ بالنواصى ،وسجَّل الآثار ، وكتب الآجال ، فالقلوب له مفضية ؛ والسر عنده علانية ، والغيب عنده شهادة ، عطاؤه كلام، وعذابه كلام ،﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** (٨٢) ﴾[يس] .

فإذا أشرقت على القلب أنوار هذه الصفات ، اضمحل عندها كل نور ،ووراء هذا ما

لا يخطر بالبال ،ولا تناله عبارة .والمقصود : أن الذكر ينوِّر القلب والوجه والأعضاء، وهو نور العبد فى دنياه ،وفى البرزخ ،وفى القيامة .

وعلى حسب نور الإيمان فى قلب العبد ، تخرج أعماله وأقواله، ولها نور وبرهان ، حتى إن من المؤمنين من يكون نور أعماله إذا صعدت إلى اللّه تبارك وتعالى كُنور الشمس ، وهكذا نور روحه إذا قدم بها على اللّه عز وجل،وهكذا يكون نوره الساعى بين يديه على الصراط، وهكذا يكون نور وجهه فى القيامة ، واللّه تعالى المستعان وعليه الاتكال .

السابعة والثلاثون : أن الذكر رأس الأمور ،وطريق عامة الطائفة ،ومنشور الولاية ، فمن فتح له فيه فقد فتح له باب الدخول على اللّه عز وجل ، فليتطهر وليدخل على ربه عز وجل يجد عنده كل ما يريد ، فإن وجد ربه عز وجل وجد كل شىء ، وإن فاته ربه عز وجل فاته كل شىء .

الثامنة والثلاثون :أن فى القلب خلّة وفاقة لا يسدُّها شىء البتة إلا ذكر اللّه عز وجل، فإذا صار الذكر شعار القلب ،بحيث يكون هو الذاكر بطريق الأصالة ،واللسان تبع له، فهذا هو الذكر الذى يسد الخلة،ويغنى الفاقة،فيكون صاحبه غنيا بلا مال،عزيزاً بلا عشيرة، مهيبا بلا سلطان ، فإذا كان غافلا عن ذكر اللّه عز وجل ، فهو بضد ذلك ، فقير مع كثرة جدته، ذليل مع سلطانه ، حقير مع كثرة عشيرته .

التاسعة والثلاثون : أن الذكر يجمع المتفرّق ، ويفرّق المجتمع ،ويقرّب البعيد ، ويبعد القريب .

فيجمع ما تفرَّق على العبد من قلبه وإرادته ، همومه وعزومه ، والعذاب كل العذاب فى تفرقتها وتشتتها عليه، وانفراطها له .

والحياة والنعيم فى اجتماع قلبه وهمه ، وعزمه وإرادته ،ويفرق ما اجتمع عليه من الهموم ، والغموم ،والأحزان ، والحسرات على فوت حظوظه ،ومطالبه، ويفرق أيضاً ما اجتمع عليه من ذنوبه وخطاياه وأوزاره، حتى تتساقط عنه وتتلاشى وتضمحل ،ويفرق أيضا ما اجتمع على حربه من جند الشيطان ، فإن إبليس لا يزال يبعث له سرية بعد سرية، وكلما كان أقوى طلبا للّه سبحانه وتعالى ، وأشد تعلقا به وإرادة له ، كانت السرية أكثف وأكثر وأعظم شوكة ، بحسب ما عند العبد من مواد الخير والإرادة ولا سبيل إلى تفريق هذا الجمع إلا بدوام الذكر .

وأما تقريبه البعيد ، فإنه يقرب إليه الآخرة التى يبعدها منه الشيطان والأمل، فلا يزال

يلهج بالذكر حتى كأنه قد دخلها وحضرها، فحينئذ تصغر فى عينه الدنيا ، وتعظم فى قلبه الآخرة .

ويبعد القريب إليه وهى الدنيا التى هى أدنى إليه من الآخرة ، فإن الآخرة متى قربت من قلبه بعدت منه الدنيا ، كلما قرب من هذه مرحلة بعد من هذه مرحلة ، ولا سبيل إلى هذا إلا بدوام الذكر والله المستعان .

الأربعون: أن الذكر ينبه القلب من نومه ، ويوقظه من سنته ، والقلب إذا كان نائما فاتته الأرباح والمتاجر ، وكان الغالب عليه الخسران، فإذا استيقظ وعلم ما فاته فى نومته شد المئزر،وأحيا بقية عمره ،واستدرك ما فاته ، ولا تحصل يقظته إلا بالذكر ، فإن الغفلة نوم ثقيل .

الحادية والأربعون : أن الذكر شجرة تثمر المعارف والأحوال التى شمر إليها السالكون، فلا سبيل إلى نيل ثمارها إلا من شجرة الذكر، وكلما عظمت تلك الشجرة ورسخ أصلها، كان أعظم لثمرتها ، فالذكر يثمر المقامات كلها من اليقظة إلى التوحيد ، وهو أصل كل مقام، وقاعدته التى ينبنى ذلك المقام عليها ، كما يبنى الحائط على أُسِّه ، وكما يقوم السقف على حائطه ، وذلك أن العبد إن لم يستيقظ ، لم يمكنه قطع منازل السير ،ولا يستيقظ إلا بالذكر كما تقدم ، فالغفلة نوم القلب أو موته .

الثانية والأربعون: أن الذاكر قريب من مذكوره،ومذكوره معه،وهذه المعية معية خاصة غير معية العلم والإحاطة العامة ،فهى معية بالقرب والولاية والمحبة والنصرة والتوفيق ، كقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا**﴾[النحل : ١٢٨] ، ﴿ **وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)**﴾ [البقرة]، ﴿ **وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩)** ﴾ [العنكبوت] ﴿**لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** ﴾ [التوبة : ٤٠]. وللذاكر من هذه المعية نصيب وافر ، كما فى الحديث الإلهى:« أنا مع عبدى ما ذكرنى وتحركت بى شفتاه »(١).

وفى أثر آخر:« أهل ذكرى أهل مجالستى ،وأهل شكرى أهل زيادتى، وأهل طاعتى أهل كرامتى ،وأهل معصيتى لا أقنطهم من رحمتى،إن تابوا فأنا حبيبهم،فإنى أحب التوابين، وأحب المتطهرين، وإن لم يتوبوا ،فأنا طبيبهم ،أبتليهم بالمصائب،لأطهرهم من المعائب » .

---

(١) البخارى تعليقاً (فتح ١٣ / ٤٩٩) فى التوحيد ، باب : قول الله تعالى : ﴿ **لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦)** ﴾ [القيامة] ، وابن ماجه (٣٧٩٢) فى الأدب ، باب : فضل الذكر ، والحاكم فى المستدرك(١/ ٤٩٦) فى الدعاء، باب : أنا مع عبدى إذا هو ذكرنى ، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ،ووافقه الذهبى .

والمعية الحاصلة للذاكر معية لا يشبهها شيء ،وهى أخص من المعية الحاصلة للمحسن والمتقى ، وهى معية لا تدركها العبارة ، ولا تنالها الصفة ، وإنما تعلم بالذوق : وهى مزلة أقدام إن لم يصحب العبد فيها تمييز بين القديم والمحدث ، بين الرب والعبد، بين الخالق والمخلوق ، بين العابد والمعبود ، وإلا وقع فى حلول يضاهى به النصارى ، أو اتحاد يضاهى به القائلين بوحدة الوجود ،وأن وجود الرب عين وجود هذه المخلوقات، بل ليس عندهم رب وعبد ، ولاخلق وحق ، بل الرب هو العبد ، والعبد هو الرب ،والخلق المشبَّه هو الحق المنزه ، تعالى اللّه عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً .

والمقصود : أنه إن لم يكن مع العبد عقيدة صحيحة ، وإلا فإذا استولى عليه سلطان الذكر ، وغاب بمذكوره عن ذكره وعن نفسه،ولج فى باب الحلول والاتحاد ولا بد .

الثالثة والأربعون :أن الذكر يعدل عتق الرقاب ،ونفقة الأموال،والحمل على الخيل فى سبيل اللّه عز وجل ، ويعدل الضرب بالسيف فى سبيل اللّه عز وجل،وقد تقدم أن«من قال فى يوم مائة مرة : لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، كانت له عدل عشر رقاب ، وكُتبت له مائة حسنة ، ومُحيت عنه مائة سيئة، وكانت لهُ حِرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى . . . » الحديث [١].

وذكر ابن أبى الدنيا ،عن الأعمش ، عن سالم بن أبى الجعد قال : قيل لأبى الدرداء: إن رجلا أعتق مائة نسمة. قال : إن مائة نسمة من مال رجل كثير ، وأفضل من ذلك إيمان ملزُوم بالليل والنهار ، وألا يزال لسان أحدكم رطبا من ذكر الله عز وجل .

وقال ابن مسعود : لأن أسبح الله تسبيحات أحب إلى من أنفق عددهن دنانير فى سبيل الله عز وجل .

وجلس عبد اللّه بن عمرو، وعبد اللّه بن مسعود، فقال عبد اللّه بن مسعود: لأن آخذ فى طريق أقول فيه: سبحان الله ، والحمد للّه ، ولا إله إلا اللّه ، واللّه أكبر أحب إلىَّ من أن أنفق عددهن دنانير فى سبيل اللّه عز وجل، فقال عبد اللّه بن عمرو : لأن آخذ فى طريق ، فأقولهن أحبُّ إلى من أن أحمل عددهن على الخيل فى سبيل اللّه عز وجل.

وقد تقدَّم حديث أبى الدرداء قال:قال رسول اللّه ﷺ:« ألا أنبِّئكُم بخيْرِ أعمالكم، وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم ،وخيرٍ لكم من إنفاق الورق والذهب،وخيرٍ لكم من أن تلقوا عدوَّكُم فتضربوا أعناقكم،ويضربوا أعناقكم »؟ قالوا: بلى يا رسول اللّه،

(١) سبق تخريجه ص ١٨٧ .

قال: « ذكرُ اللّه » (١) رواه ابن ماجه والترمذى ، وقال الحاكم: صحيح الإسناد .

الرابعة والأربعون : أن الذكر رأس الشكر ،فما شكر اللّه تعالى من لم يذكره.

وذكر البيهقى عن زيد بن أسلم، أن موسى عليه السلام قال: ربّ قد أنعمت علىَّ كثيراً ، فدلنى على أن أشكرك كثيراً ، قال: اذكرنى كثيراً ،فإذا ذكرتنى كثيرا فقد شكرتنى كثيراً ، وإذا نسيتنى فقد كفرتنى .

وقد ذكر البيهقى أيضاً فى شعب الإيمان،عن عبد اللّه بن سلام قال:قال موسى عليه السلام: يا رب ،ما الشكر الذى ينبغى لك ؟ فأوحى اللّه تعالى إليه ألا يزال لسانك رطباً من ذكرى، قال: يا رب إنى أكون على حال أجلك أن أذكرك فيها .قال :وما هى ؟ قال: أكون جنباً، أو على الغائط ، أو إذا بلت . فقال: وإن كان . قال: يا رب ،فما أقول؟ قال : تقول: «سبحانك وبحمدك وجنبنى الأذى ، وسبحانك وبحمدك فقنى الأذى » .

قلت: قالت عائشة : كان رسول اللّه ﷺ يذكرُ اللّه تعالى على كل أحيانه (٢).

ولم تستثن حالة من حاله ،وهذا يدل على أنه كان يذكر ربه تعالى فى حال طهارته وجنابته . وأما فى حال التخلى ، فلم يكن يشاهده أحد يحكى عنه ، ولكن شرع لأمته من الأذكار قبل التخلى وبعده ما يدل على مزيد الاعتناء بالذكر ، وأنه لا يخل به عند قضاء الحاجة وبعدها ، وكذلك شرع لأمته من الذكر عند الجماع أن يقول أحدكم :«بسم اللّه ، اللهم جنبنا الشيطان ، وجنب الشيطان ما رزقتنا »(٣) . وأما الذكر عند نفس قضاء الحاجة ، وجماع الأهل ، فلا ريب أنه لا يكره بالقلب ؛ لأنه لا بد لقلبه من ذكر ، ولا يمكنه صرف قلبه عن ذكر من هو أحب شىء إليه ، فلو كلِّف القلب نسيانه لكان تكليفه بالمحال ، كما قال القائل :

يُراد من القلب نِسيانُكُم ... وتأبى الطِّباع على الناقل

(١) الترمذى (٣٣٧٧) فى الدعوات ، باب (٦) ، وابن ماجه (٣٧٧٩) فى الأدب ،باب: فضل الذكر ، والحاكم فى المستدرك (٤٩٦/١) فى الدعاء ، باب : «أنا مع عبدى إذا ذكرنى وتحركت بى شفتاه » .

(٢) مسلم (٣٧٣ / ١١٧) فى الحيض ، باب : ذكر اللّه تعالى فى حال الجنابة وغيرها ، وأبو داود (١٨) فى الطهارة ، باب : فى الرجل يذكر اللّه تعالى على غير طهر ، والترمذى (٣٣٨٤) فى الدعوات ، باب: ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة ، وقال: «غريب » ؛ وابن ماجه (٣٠٢) فى الطهارة ، باب: ذكر اللّه عز وجل على الخلاء والخاتم فى الخلاء ، وأحمد ٦/ ٧٠، ١٥٣ .

(٣) البخارى (١٤١) فى الوضوء ،باب : التسمية على كل حال وعند الوقاع، ومسلم(١١٦/١٤٣٤)فى النكاح، باب: ما يستحب أن يقوله عند الجماع ؛ وأبو داود (٢١٦١) فى النكاح ، باب :جامع النكاح ، وابن ماجه (١٩١٩) فى النكاح ، باب :ما يقول الرجل إذا دخلت عليه امرأته ، وأحمد ٢١٧/١ .

فأما الذكر باللسان على هذه الحالة، فليس مما شرع لنا ، ولا ندبنا إليه رسول الله ﷺ، ولا نقل عن أحد من الصحابة ﷺ .

وقال عبد الله بن أبى الهذيل : إن الله تعالى ليُحبُّ أن يُذكر فى السوق ، ويحبُّ أن يذكر على كُلِّ حال ، إلا على الخلاء .

ويكفى فى هذه الحال استشعار الحياء ، والمراقبة ، والنعمة عليه فى هذه الحالة ، وهى من أجل الذكر ، فذكر كل حال بحسب ما يليق بها . واللائق بهذه الحال ، التقنُّع بثوب الحياء من الله تعالى ، وإجلاله، وذكر نعمته عليه ، وإحسانه إليه فى إخراج هذا القذر المؤذى له الذى لو بقى فيه لقتله . فالنعمة فى تيسير خروجه ، كالنعمة فى التغذى به .

وكان على بن أبى طالب إذا خرج من الخلاء ، مسح بطنه وقال: يا لها نعْمةٌ لو يعلمُ الناسُ قدرها .

وكان بعض السلف يقول: الحمد لله الذى أذاقنى لذّته، وأبقى فى منفعته ، وأذهب عنى مضرته .

وكذلك ذكره حال الجماع ذكر النعمة التى من بها عليه، وهى أجل نعم الدنيا . فإذا ذكر نعمة الله تعالى عليه بها ، هاج من قلبه هائج الشكر ، فالذكر رأس الشكر .

وقال النبى ﷺ لمعاذ : « والله يا معاذ إنى لأحبك ، فلا تنس أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعنى على ذكرك وشكرك ، وحسن عبادتك » (١).

جمع بين الذكر والشكر ، كما جمع سبحانه وتعالى بينهما فى قوله تعالى : ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ** ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة] فالذكر والشكر جماع السعادة والفلاح .

الخامسة والأربعون: أن أكرم الخلق على الله تعالى من المتقين من لا يزال لسانه رطباً بذكره ، فإنه اتقاه فى أمره ونهيه ، وجعل ذكره شعاره .

فالتقوى أوجبت له دخول الجنة والنجاة من النار ، وهذا هو الثواب والأجر.

والذكر يوجب له القرب من الله عز وجل والزلفى لديه ، وهذه هى المنزلة .

وعمال الآخرة على قسمين : منهم من يعمل على الأجر والثواب، ومنهم من يعمل على المنزلة والدرجة ، فهو ينافس غيره فى الوسيلة والمنزلة عند الله تعالى ، ويسابق إلى

---

(١) سبق تخريجه ص ١٨٢ .

القرب منه، وقد ذكر اللّه تعالى النوعين في سورة الحديد في قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾[الحديد]، فهؤلاء أصحاب الأجور والثواب، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ﴾ [الحديد:١٩] ، فهؤلاء أصحاب المنزلة والقرب ، ثم قال: ﴿ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾[الحديد:١٩] فقيل: هذا عطف على الخبر من ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ أخبر عنهم بأنهم هم الصديقون ، وأنهم الشهداء الذين يشهدون على الأمم ، ثم أخبر بخبر آخر: أن لهم أجراً ، وهو قوله تعالى: ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾، فيكون قد أخبر عنهم بأربعة أمور:

أنهم صديقون، وشهداء . فهذه هي المرتبة والمنزلة . قيل: تم الكلام عند قوله تعالى: ﴿الصِّدِّيقُون ﴾ ، ثم ذكر بعد ذلك حال الشهداء، فقال: ﴿ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾، فيكون قد ذكر المتصدقين أهل البر والإحسان، ثم المؤمنين الذين قد رسخ الإيمان في قلوبهم وامتلؤوا منه ، فهم الصديقون ، وهم أهل العلم والعمل ، والأولون أهل البر والإحسان ، ولكن هؤلاء أكمل صدِّيقيَّة منهم .

ثم ذكر ـ سبحانه ـ الشهداء ، وأنه تعالى يجرى عليهم رزقهم ونورهم ؛ لأنهم لما بذلوا أنفسهم لله تعالى أثابهم اللّه تعالى عليها ، أن جعلهم أحياء عنده يرزقون ، فيجرى عليهم رزقهم ونورهم ، فهؤلاء السعداء .

ثم ذكر الأشقياء فقال: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ ﴾ [المائدة]

والمقصود : أنه ـ سبحانه وتعالى ـ ذكر أصحاب الأجور والمراتب ، وهذان الأمران هما اللذان وعدهما فرعون السحرة إن غلبوا موسى عليه الصلاة والسلام فقالوا: ﴿ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الشعراء] أى : أجمع لكم بين الأجر ، والمنزلة عندى والقرب منى .

فالعمال عملوا على الأجور ، والعارفون عملوا على المراتب المنزلة والزلفى عند اللّه ، وأعمال هؤلاء القلبية أكثر من أعمال أولئك ، وأعمال أولئك البدنية قد تكون أكثر من أعمال هؤلاء .

وذكر البيهقى عن محمد بن كعب القرظى رحمه اللّه تعالى قال: قال موسى عليه السلام: يا رب ، أى خلْقك أكْرَم عليك ؟ قال: الذى لا يزال لسانُه رطباً بذكرى . قال: يارب، فأىُّ خلْقك أعْلم َ؟ قال: الذى يلتمسُ إلى علمه علم غيْره . قال : يا ربٍّ ، أىُّ خلقك أعْدلُ ؟ قال: الذى يقضى على نفسه مثلما يقضى على الناس . قال : يا ربٍّ ، أىّ خلقك أعظم ذنباً ؟ قال: الذى يتَّهمُنى . قال: يا ربٍّ وهلّ يتهمك أحدٌ ؟ قال: الذى يستخيرنى ولا يرضى بقضائى .

وذكر أيضا عن ابن عباس قال: لما وفد موسى عليه السلام إلى طور سيناء قال: يا ربٍّ ، أىُّ عبادك أحبُّ إليك ؟ قال: الذى يذكُرنى ولاينسانى .

وقال كعب: قال موسى عليه السلام : يا رب ، أقريبٌ أنت فأناجيك ، أم بعيدٌ فأناديك ؟ فقال تعالى : يا موسى ، أنا جليس منّ ذكرنى . قال : إنى أكون على حال أجلّك عنها . قال: ما هى يا موسى ؟ قال: عند الغائط والجنابة . قال : اذكرنى على كلٍّ حال .

وقال عبيد بن عمير : تسبيحة بحمد اللّه فى صحيفة مؤمن خير له من جبال الدنيا تجرى معه ذهباً .

وقال الحسن : إذا كان يوم القيامة نادى مناد : سيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم ، أين الذين كانت : ﴿ **تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** (١٦) ﴾ [السجدة] ،قال: فيقومون فيتخطون رقاب الناس . قال: ثم ينادى مناد : سيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم ، أين كانت: ﴿ **لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ** ﴾ [النور : ٣٧] ، قال : فيقومون فيتخطون رقاب الناس ، قال : ثم ينادى مناد : وسيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم ، أين الحمَّادون للّه على كل حال؟ قال: فيقومون وهم كثير ، ثم تكون التبعة والحساب فيمن بقى .

وأتى رجل أبا مسلم الخولانى فقال له : أوصنى يا أبا مسلم ، قال :اذكر اللّه تعالى تحت كل شجرة ومدرة ، فقال : زدنى، فقال : اذكر اللّه تعالى حتى يحسبك الناس من ذكر اللّه تعالى مجنوناً ، قال:وكان أبو مسلم يكثر ذكر اللّه تعالى ، فرآه رجل وهو يذكر اللّه تعالى ، فقال : أمجنون صاحبكم هذا؟ فسمعه أبو مسلم فقال: ليس هذا بالجنون يابن أخى ، ولكن هذا دواء الجنون .

السادسة والأربعون: أن فى القلب قسوة لا يذيبها إلا ذكر اللّه تعالى ، فينبغى للعبد أن يداوى قسوة قلبه بذكر اللّه تعالى .

وذكر حماد بن زيد ،عن المعلى بن زياد ، أن رجلاً قال للحسن : يا أبا سعيد، أشكو

إليك قسوة قلبى ، قال: أذِبهُ بالذكر . وهذا لأن القلب كلما اشتدت به الغفلة ،اشتدت به القسوة ، فإذا ذكر اللّه تعالى ذابت تلك القسوة كما يذوب الرصاص فى النار،فما أذيبت قسوة القلوب بمثل ذكر اللّه عز وجل .

السابعة والأربعون :أن الذكر شفاءُ القلب ودواؤه ،والغفلة مرضه ،فالقلوب مريضة، وشفاؤها ،ودواؤها فى ذكر اللّه تعالى .

قال مكحول: ذكر الله تعالى شفاء ، وذكر الناس داءٌ .

وذكر البيهقى عن مكحول مرفوعاً ومرسلاً : فإذا ذَكَرْتَهُ شفاها وعافاها، فإذا غفلت عنه انتكست ،كما قيل :

إذا مرضْنا تداويْنا بذكرِكُمُ ... فنترُكُ الذِّكر أحيانا فننتكسُ

الثامنة والأربعون :أن الذكر أصل موالاة اللّه عز وجل ورأسها ،والغفلة أصل معاداته ورأسها ،فإن العبد لا يزال يذكر ربه عز وجل حتى يحبه فيواليه ،ولا يزال يغفل عنه حتى يبغضه فيعاديه .

قال الأوزاعى : قال حسان بن عطية : ما عادى عبد ربه بشىء أشد عليه من أن يكره ذكره أو من يذكره .

فهذه المعاداة سببها الغفلة ،ولا تزال بالعبد حتى يكره ذكر اللّه ويكره من يذكره ، فحينئذ يتخذه عدوا كما اتخذ الذاكر وليا .

التاسعة والأربعون : أنه ما استجلبت نعم اللّه عز وجل واستدفعت نقمه بمثل ذكر اللّه تعالى ، فالذكر جلاب للنعم ، دافع للنقم ، قال سبحانه وتعالى :﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾، وفى القراءة الأخرى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ** ﴾ [الحج : ٣٨] ، فدفعه ودفاعه عنهم بحسب قوة إيمانهم وكماله ، ومادّة الإيمان وقوته بذكر الله تعالى ، فمن كان أكمل إيماناً ، وأكثر ذكراً ،كان دفع اللّه تعالى عنه ودفاعه أعظم ، ومن نقص نقص ذكراً بذكر ،ونسياناً بنسيان ،وقال سبحانه وتعالى: ﴿ **وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُم** ﴾ [إبراهيم : ٧] .

واالذكر رأس الشكر ، والشكر جلاب النعم ،وموجب للمزيد .

قال بعض السلف ـ رحمة اللّه عليهم :ما أقبح الغفلة عن ذكر من لا يغْفل عن ذكرك.

الخمسون :أن الذكر يوجب صلاة الله عز وجل وملائكته على الذاكر،ومن صلى الله تعالى عليه وملائكته فقد أفلح كل الفلاح ،وفاز كل الفوز ،قال سبحانه وتعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣)** ﴾ [الأحزاب].

فهذه الصلاة منه تبارك وتعالى ومن ملائكته ، إنما هى على الذاكرين له كثيرا ، وهذه الصلاة منه ومن الملائكة هى سبب الإخراج لهم من الظلمات إلى النور ، وإذا حصلت لهم الصلاة من الله تبارك وتعالى وملائكته ،وأخرجوهم من الظلمات إلى النور، فأى خير لم يحصل لهم بذلك ، وأى شر لم يدفع عنهم ؟ فيا حسرة الغافلين عن ربهم ماذا حرموا من خيره وفضله ، وبالله والتوفيق .

الحادية والخمسون : أن من شاء الله أن يسكن رياض الجنة فى الدنيا ، فليستوطن مجالس الذكر ، فإنها رياض الجنة .

وقد ذكر ابن أبى الدنيا وغيره من حديث جابر بن عبد الله قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال:« يا أيها الناس ارتعوا فى رياض الجنة » قلنا : يا رسول الله ، وما رياض الجنة؟ قال :« مجالس الذكر » ،ثم قال : « اغدوا وروحوا واذكروا ، فمن كان يحب أن يعلم منزلته عند الله تعالى ؛ فلينظر كيف منزلة الله تعالى عنده ، فإن الله تعالى ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه » (١).

الثانية والخمسون :أن مجالس الذكر مجالس الملائكة ، فليس من مجالس الدنيا لهم مجلس إلا مجلس يذكر الله تعالى فيه ، كما أخرجا فى « الصحيحين » من حديث الأعمش، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :« إن لله ملائكة فضلا عن كتاب الناس يطوفون فى الطرق يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تعالى تنادوا : هلموا إلى حاجتكم ، قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا ، قال: فيسألهم ربهم تعالى ـ وهو أعلم بهم : ما يقول عبادى ؟ قال: يقولون: يسبحونك ويكبرونك ،ويحمدونك، ويمجدونك . قال: فيقول : هل رأونى ؟ قال : فيقولون: لا والله ما رأوك ، قال: فيقول : كيف لو رأونى ؟ قال: فيقولون: لو رأوك كانوا أشد لك

(١) الحاكم فى المستدرك (١/ ٤٩٤) فى الدعاء ؛ باب : من كان يحب أن يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله عنده ، وقال :صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وتعقبه الذهبى فقال : « عمر ـ أى ابن عبد الله مولى غُفْرة ـ ضعيف » .

عبادة ،وأشد لك تحميدا وتمجيدا ، وأكثر لك تسبيحا. قال: فيقول : ما يسألونى ؟ قال: يسألونك الجنة . قال: فيقول: وهل رأوها ؟ قال: يقولون : لا والله يا رب ، ما رأوها. قال: فيقول : فكيف لو أنهم رأوها ؟ قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصا، وأشد لها طلبا ، وأعظم فيها رغبة . قال : فيقول: فمم يتعوذون ؟ قال: من النار. قال: يقول:وهل رأوها ؟ قال: يقولون:لا والله يا رب ، ما رأوها . قال : يقول : فكيف لو رأوها ، قال : يقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فرارا،وأشد لها مخافة. قال: يقول: فأشهدكم أنى قد غفرت لهم . قال : فيقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم ، إنما جاء لحاجة . قال : هم الجلساء لا يشقى به جليسهم »(١).

فهذا من بركتهم على نفوسهم وعلى جليسهم ، فلهم نصيب من قوله: ﴿**وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ**﴾ [مريم:٣١] ، فهكذا المؤمن مبارك أين حل ، والفاجر مشؤوم أين حل .

فمجالس الذكر : مجالس الملائكة ، ومجالس الغفلة : مجالس الشياطين،وكل مضاف إلى شكله وأشباهه ، وكل امرئ يصير إلى ما يناسبه .

الثالثة والخمسون : أن الله عز وجل يباهى بالذاكرين ملائكته ، كما روى مسلم فى «صحيحه » عن أبى سعيد الخدرى قال : خرج معاوية على حلقة فى المسجد ، فقال : ما أجلسكم ؟ قالوا : جلسنا نذكر الله تعالى . قال : آللّه ما أجلسكم إلا ذاك ؟ قالوا : واللّه ما أجلسنا إلا ذاك . قال : أما إنى لم أستحلفكم تهمة لكم ، وما كان أحد بمنزلتى من رسول الله ﷺ أقل عنه حديثا منى ، وإن رسول اللّه ﷺ خرج على حلقة من أصحابه ، فقال: «ما أجلسكم ؟ » قالوا: جلسنا نذكر الله تعالى ونحمده على ما هدانا للإسلام ومنّ به علينا. قال: « آلله ما أجلسكم إلا ذاك ؟ » قالوا: واللّه ما أجلسنا إلا ذاك . قال : «أما إنى لم أستحلفكم تهمة لكم ، ولكنه أتانى جبريل فأخبرنى : أن اللّه تبارك وتعالى يباهى بكم الملائكة »(٢) .

فهذه المباهاة من الرب تبارك وتعالى دليل على شرف الذكر عنده ،ومحبته له، وأن له

---

(١) البخارى (٦٤٠٨) فى الدعوات، باب : فضل ذكر الله عز وجل ،ومسلم (٢٦٨٩ / ٢٥) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ،باب : فضل مجالس الذكر .

(٢) مسلم (٢٧٠١/ ٤٠) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر .

مزية على غيره من الأعمال .

الرابعة والخمسون: أن مُدمن الذكر يدخل الجنة وهو يضحك ،لما ذكر ابن أبى الدنيا عن عبد الرحمن بن مهدى ، عن معاوية بن صالح، عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير الحضرمى عن أبيه ،عن أبى الدرداء قال: الذين لا تزال ألسنتهم رطبة من ذكر الله عز وجل يدخل أحدهم الجنة وهو يضحك .

الخامسة والخمسون: أن جميع الأعمال إنما شرعت إقامة لذكر اللّه تعالى ، والمقصود بها تحصيل ذكر اللّه تعالى .

قال سبحانه وتعالى: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي** ⑭ ﴾.[طه] . قيل : المصدر مضاف إلى الفاعل ،أى :لأذكرك بها ،وقيل :مضاف إلى المذكور ،أى:لتذكرونى بها .واللام فى هذا لام التعليل. وقيل:هى اللام الوقتية ، أى: أقم الصلاة عند ذكرى .كقوله: ﴿ **أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ** ﴾[الإسراء:٧٨]،وقوله تعالى: ﴿**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ**﴾ [الأنبياء: ٤٧]،وهذا المعنى يراد بالآية ، لكن تفسيرها به يجعل معناها فيه نظر ؛ لأن هذه اللام الوقتية يليها أسماء الزمان والظروف ،والذكر مصدر إلا أن يقدر زمان محذوف ، أى: عند وقت ذكرى ، وهذا محتمل .

والأظهر :أنها لام التعليل ، أى : أقم الصلاة لأجل ذكرى ، ويلزم من هذا أن تكون إقامتها عند ذكره ،وإذا ذكر العبد ربه ، فذكر الله تعالى سابق على ذكره، فإنه لما ذكره ألهمه ذكره ، فالمعانى الثلاثة حق .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ **اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ** ﴾[العنكبوت:٤٥] .

فقيل: المعنى : إنكم فى الصلاة تذكرون الله ، وهو ذاكر من ذكره ،ولذكر اللّه تعالى إياكم أكبر من ذكركم إياه. وهذا يروى عن ابن عباس ،وسلمان ،وأبى الدرداء،وابن مسعود رضي الله عنهم .

وذكر ابن أبى الدنيا عن فضيل بن مرزوق عن عطية : ﴿ **وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ**﴾ قال:هو قوله تعالى : ﴿ **فاذكرونى أذكركم** ﴾ فذكراللّه تعالى لكم أكبر من ذكركم إياه .

وقال ابن زيد وقتادة :معناه : وذكر الله أكبر من كل شىء .

وقيل : لسلمان : أى الأعمال أفضل ؟ فقال: أما تقرأ القرآن: ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾. ويشهد لهذا حديث أبى الدرداء: « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم ،وخير لكم من إنفاق الذهب والوِرق . . . » الحديث (١).

وكان شيخ الإسلام أبو العباس ـ قدس الله روحه ـ يقول: الصحيح : أن معنى الآية: أن الصلاة فيها مقصودان عظيمان ، وأحدهما أعظم من الآخر ، فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ،وهى مشتملة على ذكر الله تعالى، ولما فيها من ذكر الله أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر.

وذكر ابن أبى الدنيا عن ابن عباس أنه سئل :أى العمل أفضل؟ قال: ذكر الله أكبر .

وفى « السنن » عن عائشة ،عن النبى ﷺ قال: « إنما جُعل الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة ورمى الجمار لإقامة ذكر الله تعالى ». رواه أبو داود والترمذى وقال :حديث حسن صحيح (٢).

السادسة والخمسون:أن أفضل أهل كل عمل أكثرهم فيه ذكرا لله عز وجل ،فأفضل الصوام ،أكثرهم ذكرا لله عز وجل فى صومهم،وأفضل المتصدقين ،أكثرهم ذكراً لله عز وجل، وأفضل الحجاج ، أكثرهم ذكرا لله عز وجل . وهكذا سائر الأعمال .

وقد ذكر ابن أبى الدنيا حديثاً مرسلا فى ذلك : أن النبى ﷺ سئل : أى أهل المسجد خير؟ قال:« أكثرهُم ذكرا لله عز وجل » قيل: أى أهل الجنازة خير ؟ قال: « أكثرهم ذكرا لله عز وجل ». قيل : فأى المجاهدين خير ؟ قال: « أكثرهم ذكرا لله عز وجل » . قيل: فأى الحجاج خير ؟ قال : « أكثرهم ذكرا لله عز وجل » قيل : وأى العواد خير ؟ قال : «أكثرهم ذكرا لله عز وجل » . قال أبو بكر : ذهب الذاكرون بالخير كله (٣).

وقال عبيد بن عمير :إن أعظمكم هذا الليل أن تكابدوه ، وبخلتم بالمال أن تنفقوه، وجبنتم عن العدو أن تقاتلوه ، فأكثروا من ذكر الله عز وجل .

---

(١) سبق تخريجه ص ٢١٠ .

(٢) أبو داود (١٨٨٨) فى المناسك ، باب : فى الرمل ، والترمذى (٩٠٢) فى الحج باب: ما جاء كيف يرمى الجمار .

(٣) أحمد (٣ / ٤٣٨) والطبرانى فى الكبير ٢٠ / ١٨٦ (٤٠٧) . وقال الهيثمى فى المجمع (٧٧/١٠) فى الأذكار ، باب : فضل ذكر الله تعالى والإكثار منه : « فيه زبان بن فائد وهو ضعيف ،وقد وثق،وكذلك ابن لهيعة ،وبقية رجال أحمد ثقات » .

السابعة والخمسون :أن إدامة الذكر تنوب عن التطوعات ،وتقوم مقامها ، سواء كانت بدنية ، أومالية ، أو بدنية مالية ، كحج التطوع .

وقد جاء ذلك صريحا فى حديث أبى هريرة : أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله ،ذهب أهل الدثور من الأموال بالدرجات العلى ،والنعيم المقيم، يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم ،ولهم فضل أموالهم ، يحجون بها ،ويعتمرون ، ويجاهدون ويتصدقون . فقال: « ألا أعلمكم شيئا تدركون به من سبقكم ،وتسبقون به من بعدكم ،ولا أحد يكون أفضل منكم إلا من صنع ما صنعتم » ؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: « تسبحون،وتحمدون ، وتكبرون خلف كل صلاة . . » الحديث متفق عليه(١) .

فجعل الذكر عوضاً لهم عما فاتهم من الحج والعمرة والجهاد، وأخبر أنهم يسبقونهم بهذا الذكر ، فلما سمع أهل الدُّثُور بذلك عملوا به ، فازدادوا ـ إلى صدقاتهم وعبادتهم بمالهم ـ التعبد بهذا الذكر ، فحازوا الفضيلتين ،فنافسهم الفقراء ،وأخبروا رسول الله ﷺ بأنهم قد شاركوهم فى ذلك ، فانفردوا عنهم بما لا قدرة لهم عليهم ، فقال:« ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » (٢).

وفى حديث عبد الله بن بسر قال: جاء أعرابى فقال: يا رسول الله، كثرت على خلال الإسلام وشرائعه ،فأخبرنى بأمر جامع يكفينى .قال:« عليك بذكر الله تعالى» قال: ويكفينى يا رسول الله ؟ قال :« نعم ،ويفضل عنك » (٣).

فدله الناصح ﷺ على شىء يعينه على شرائع الإسلام والحرص عليها والاستكثار منها،فإنه إذا اتخذ ذكر الله تعالى شعاره أحبه وأحب ما يحب ، فلا شىء أحب من التقرب بشرائع الإسلام ،فدله ﷺ على ما يتمكن به من شرائع الإسلام،وتسهل به عليه، وهو ذكر الله عز وجل ، توضحه :

الثامنة والخمسون : أن ذكر الله عز وجل من أكبر العون على طاعته، فإنه يحببها

---

(١) البخارى (٨٤٣) فى الصلاة ، باب : الذكر بعد الصلاة ، ومسلم (١٤٢/٥٩٥) فى المساجد ومواضع الصلاة ، باب: استحباب الذكر بعد الصلاة .

(٢) مسلم (١٤٢/٥٩٥) فى الكتاب والباب السابقين .

(٣) رواه بمعناه الترمذى (٣٣٧٦) فى الدعوات ، باب (٥) ،وقال : « غريب » ،وابن ماجه (٣٧٩٣) فى الأدب،باب : فضل الذكر ، والحاكم (٤٩٤/١) فى الدعاء، باب: مداومة الذكر وقال: « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ، ووافقه الذهبى .

إلى العبد،ويسهلها عليه ،ويلذذها له،ويجعل قرة عينه فيها ، ونعيمه وسروره بها ، بحيث لا يجد لها من الكلفة والمشقة والثقل ما يجد الغافل، والتجربة شاهدة بذلك ، توضحه :

الستون :أن ذكر الله عز وجل يذهب عن القلب مخاوفه كلها ، وله تأثير عجيب فى حصول الأمن،فليس للخائف الذى قد اشتد خوفه أنفع من ذكر الله عز وجل ، إذ بحسب ذكره يجده الأمن ويزول خوفه ، حتى كأن المخاوف التى يجدها أمانا له ،والغافل خائف مع أمنه حتى كأن ما هو فيه من الأمن كله مخاوف ،ومن له أدنى حسن قد جرب هذا وهذا .والله المستعان.

الحادية والستون : أن الذكر يعطى الذاكر قوة ،حتى إنه ليفعل مع الذكر ما لم يطق فعله بدونه ، وقد شاهدت من قوة شيخ الإسلام ابن تيمية فى مشيته ،وكلامه ، وإقدامه وكتابته ، أمرا عجيباً ، فكان يكتب فى اليوم من التصنيف ما يكتبه الناسخ فى جمعة وأكثر، وقد شاهد العسكر من قوته فى الحرب أمراً عظيماً .

وقد علم النبى ﷺ ابنته فاطمة وعليا رضى الله تعالى عنهما أن يسبِّحا كل ليلة إذا أخذا مضاجعهما ثلاثا وثلاثين ، ويحمدا ثلاثا وثلاثين ، ويكبرا أربعا وثلاثين ، لما سألته الخادم ، وشكت إليه ما تقاسيه من الطحْن والسعى والخدمة ، فعلمها ذلك وقال: « إنه خير لكما من خادم » .

فقيل : إن من داوم على ذلك وجد قوة فى بدنه مغنية عن خادم .

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ يذكر أثراً فى هذا الباب ويقول: إن الملائكة لما أمروا بحمل العرش قالوا: يا ربنا ،كيف نحمل عرشك وعليه عظمتك وجلالك ؟ فقال : قولوا: لا حول ولا قوة إلا بالله ، فلما قالوا ، حملوه ، حتى رأيت ابن أبى الدنيا قد ذكر هذا الأثر بعينه عن الليث بن سعد ، عن معاوية بن صالح قال: حدثنا مشيختنا أنه بلغهم : أن أول ما خلق الله عز وجل ـ حين كان عرشه على الماء ـ حملة العرش ، قالوا : ربنا ،لم خلقتنا ؟ قال : خلقتكم لحمل عرشى . قالوا : ربنا ، ومن يقوى على حمل عرشك وعليه عظمتك وجلالك ووقارك ؟ قال: لذلك خلقتكم . فأعادوا عليه ذلك مراراً ، فقال لهم : قولوا : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فحملوه .

وهذه الكلمة لها تأثير عجيب فى معاناة الأشغال الصعبة ،وتحمل المشاق والدخول على الملوك ،ومن يخاف ، وركوب الأهوال . ولها أيضاً تأثير عجيب فى دفع الفقر ، كما روى

ابن أبى الدنيا عن الليث بن سعد، عن معاوية بن صالح،عن أسد بن وداعة ـ رحمه الله ـ قال:قال رسول الله ﷺ :« من قال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، مائة مرة فى كل يوم ، لم يصبه فقر أبدا » (١) .

وكان حبيب بن سلمة يستحب إذا لقى عدوا ،أو ناهض حصنا قال: لا حول ولا قوة إلا بالله ،وإنه ناهض يوما حصنا للروم، فانهزم فقالها المسلمون وكبروا ، فانهدم الحصن.

الثانية والستون : أن عمال الآخرة كلهم فى مضمار السباق، والذاكرون هم أسبقهم فى ذلك المضمار، ولكن القَتَرة والغبار يمنع من رؤية سبقهم ، فإذا انجلى الغبار وانكشف ؛ رآهم الناس وقد حازوا قصب السبق .

قال الوليد بن مسلم : حدثنا محمد بن عجلان : سمعت عمر مولى غفرة يقول : إذا انكشف الغطاء للناس يوم القيامة عن ثواب أعمالهم ، لم يروا عملا أفضل ثوابا من الذاكرين، فيتحسر عند ذلك أقوام فيقولون : ما كان شيء أيسر علينا من الذكر .

وقال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ:« سيروا ، سبق المفرِّدون » قالوا: وما المفرِّدون قال:« الذين أهترِوا فى ذكر الله تعالى يضع الذكر عنهم أوزارهم » (٢). اهتروا بالشيء وفيه : أولعوا به ولزموه وجعلوه دأبهم . فى بعض ألفاظ الحديث: « المستهترون بذكر الله » (٣).

ومعناه : الذين أولعوا به ،يقال :استهتر فلان بكذا : إذا أولع به .

وفيه تفسير آخر : أن « أهتروا فى ذكر الله » أى : كبروا ، وهلك أقرانُهم وهم فى ذكر الله تعالى. يقال : أهْتر الرجل ، فهو مُهتر : إذا سقط فى كلامه من الكبر ، والهتر : السقط من الكلام ، كأنه بقى فى ذكر الله تعالى حتى خرف وأنكر عقله ،والهتر:الباطل أيضا، ورجل مستهتر : إذا كان كثير الأباطيل . وفى حديث ابن عمر : أعوذ بالله أن أكون من المستهترين .

وحقيقة اللفظ : أن الاستهتار : الإكثار من الشيء،والولوع به ، حقا؛كان أو باطلا ، وغلب فى عرف الناس استعماله على المبطل، حتى إذا قيل : فلان مستهتر ، لايفهم منه إلا

(١) الترغيب والترهيب (٢ / ٤٤٩) ، وقال: « رواته ثقات إلا أسدًا ».
(٢) أحمد (٢ / ٣٢٣) .
(٣) الترمذى (٣٥٩٦) فى الدعوات ، باب: (١٢٨) ، وقال: « حسن غريب » ، وضعفه الألبانى .

الباطل ،وإنما إذا قيد بشىء تقيد به، نحو : هو مستهتر ،وقد اهتر فى ذكر الله تعالى، أى: أولع به وأُغرِى به .

ويقال : استُهتر فيه وبه. وتفسير هذا فى الأثر الآخر : « أكثروا ذكر الله تعالى حتى يقال: مجنون » (١) .

الثالثة والستون: أن الذكر سبب لتصديق الرب عز وجل عبده ،فإنه أخبر عن اللّه تعالى بأوصاف كماله ونعوت جلاله ، فإذا أخبر بها العبد صدَّقه ربه ،ومن صدقه اللّه تعالى ،لم يحشر مع الكاذبين ، ورجى له أن يحشر مع الصادقين .

روى أبو إسحاق عن الأغرّ أبى مسلم،أنه شهد على أبى هريرة وأبى سعيدالخدرى رضي الله عنهما أنهما شهدا على رسول اللّه ﷺ أنه قال:« إذاقال العبد :لا إله إلا اللّه واللّه أكبر، قال: يقول اللّه تبارك وتعالى: صدق عبدى. لا إله إلا أنا وأنا أكبر ، وإذا قال : لا إله إلا اللّه وحده ، قال: صدق عبدى ،لا إله إلا أنا وحدى ، وإذا قال:لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، قال:صدق عبدى لا إله إلا أنا ،لا شريك لى ،وإذا قال : لا إله إلا الله له الملك وله الحمد ،قال : صدق عبدى ، لا إله إلا أنا ، لى الملك ولى الحمد ،وإذا قال : لا إله إلا اللّه ،ولا حول ولا قوة إلا باللّه، قال :صدق عبدى لا إله إلا أنا ،ولا حول ولا قوة إلا بى » قال أبو إسحاق : ثم قال الأغر شيئا لم أفهمه ، قلت لأبى جعفر : ما قال ؟ قال: « من رزقهن عند موته لم تمسه النار »(٢) .

الرابعة والستون : أن دور الجنة تبنى بالذكر ، فإذا أمسك الذاكر عن الذكر ، أمسكت الملائكة عن البناء . فإذا أخذ فى الذكر أخذوا فى البناء .

وذكر ابن أبى الدنيا فى كتابه ، عن حكيم بن محمد الأخنسى قال: بلغنى أن دور الجنة تبنى بالذكر، فإذا أمسك عن الذكر أمسكوا عن البناء ، فيقال لهم، فيقولون : حتى تأتينا نفقة.

وذكر ابن أبى الدنيا من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال:« من قال سبحان الله

---

(١) سبق تخريجه ص١٨١ .

(٢) الترمذى (٣٤٣٠) فى الدعوات ، باب: ما يقول العبد إذا مرض ،وقال « حسن غريب »،والنسائى فى الكبرى (٩٨٥٨) فى عمل اليوم والليلة ، باب : ثواب من قال: لا إله إلا الله والله أكبر . .إلخ ،وابن ماجه(٣٧٩٤) فى الأدب ، باب: فضل لا إله إلا الله .

وبحمده، سبحان اللّه العظيم ـ سبع مرات ـ بنى له بُرج فى الجنة » (١).

وكما أن بناءها بالذكر ، فغراس بساتينها بالذكر كما تقدم فى حديث النبى ﷺ عن إبراهيم الخليل عليه السلام :« أن الجنة طيبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قيعان ،وأن غراسها : سبحان اللّه ، والحمد لله ،ولا إله إلا الله ،والله أكبر » (٢) .فالذكر غراسها وبناؤها .

وذكر ابن أبى الدنيا من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال : « أكثروا من غراس الجنة » ، قالوا : يارسول اللّه ، وما غراسها ؟ قال : « ما شاء اللّه ، لاحَول ولا قوة إلا باللّه » (٣).

الخامسة والستون : أن الذكر سد بين العبد وبين جهنم ،فإذا كانت له إلى جهنم طريق من عمل من الأعمال ،كان الذكر سدا فى تلك الطريق ، فإذا كان ذكرا دائما كاملا ، كان سدا محكما لامنفذ فيه ، وإلا فبحسبه .

قال عبد العزيز بن أبى روَّاد:كان رجل بالبادية قد اتخذ مسجدا ، فجعل فى قبلته سبعة أحجار،كان إذا قضى صلاته قال: يا أحجار ، أشهدكم أنه لا إله إلا الله ،قال:فمرض الرجل ، فعُرج بروحه ،قال: فرأيت فى منامى أنه أمر بى إلى النار ،قال: فرأيت حجراً من تلك الأحجار أعرفه قد عظم ، فسدَّ عنى بابا من أبواب جهنم ، ثم أتى إلى الباب الآخر ، فإذا حجر من تلك الأحجار أعرفه قد عظم ، فسد عنى باباً من أبواب جهنم ، حتى سد عنى بقية الأحجار أبواب جهنم .

السادسة والستون :أن الملائكة تستغفر للذاكر كما تستغفر للتائب ،كما روى حسين المعلم عن عبد الله بن بريدة ، عن عامر الشعبى ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: أجد فى كتاب الله المنزل : أن العبد إذا قال:« الحمد للّه » قالت الملائكة :« رب العالمين»، وإذا قال : « الحمد لله رب العالمين » ، قالت الملائكة : « اللهم اغفر لعبدك » ،وإذا قال:«سبحان الله وبحمده » ، قالت الملائكة :« اللهم اغفر لعبدك » ، وإذا قال :« سبحان الله » ، قالت الملائكة : « وبحمده » وإذا قال: « لا إله إلا الله» قالت الملائكة:« والله

---

(١) لم أقف عليه ،ويغنى عنه حديث الترمذى الذى سبق ص ١٤ .

(٢) سبق تخريجه ص ١٨٦ .

(٣) روى بنحوه الطبرانى فى الكبير ١٢/ ٣٦٤(١٣٣٥٤)، وقال الهيثمى فى المجمع(١٠/ ١٠١) فى الأذكار، باب: ما جاء فى لا حول ولا قوة إلا بالله : فيه عقبة بن على وهو ضعيف » ، وقال محققه : « فيه أيضا عبد اللّه بن عمر » .

أكبر »،وإذا قال: «لا إله إلا الله والله أكبر» قالت الملائكة:« اللهم اغفر لعبدك » .

السابعة والستون : إن الجبال والقِفار تتباهى ، وتستبشر بمن يذكر الله عز وجل عليها.

قال ابن مسعود: إن الجبل لينادى الجبل باسمه: أمرَّ بك اليوم أحد يذكر الله عز وجل؟ فإذا قال: نعم ، استبشر .

قال عون بن عبد الله: إن البقاع لينادى بعضها بعضا: يا جارتاه، أمرّ بك اليوم أحد يذكر الله؟ فقائلة :نعم ، وقائلة : لا ،فقال الأعمش عن مجاهد : إن الجبل لينادى الجبل باسمه :يا فلان هل مر بك اليون ذاكر للّه عز وجل؟ فمن قائل : لا ، ومن قائل : نعم .

الثامنة والستون : أن كثرة ذكر الله عز وجل أمان من النفاق ، فإن المنافقين قليلو الذكر لله عز وجل .

قال الله عز وجل فى المنافقين : ﴿ **وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا** ﴿١٤٢﴾ ﴾[النساء] .

وقال كعب : من أكثر ذكر الله عز وجل برئ من النفاق . ولهذا ـ والله أعلم ـ ختم الله تعالى سورة المنافقين بقوله تعالى :﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴿٩﴾ ﴾ [المنافقون]،فإن فى ذلك تحذيرا من فتنة المنافقين الذين غفلوا عن ذكر الله عز وجل، فوقعوا فى النفاق.

وسئل بعض الصحابة ﷺ عن الخوارج : منافقون هم ؟ قال : المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلاً .

فهذا من علامة النفاق :قلة ذكر الله عز وجل ،وكثرة ذكره أمان من النفاق ،والله عز وجل أكرم من أن يبتلى قلباً ذاكراً بالنفاق،وإنما ذلك لقلوب غفلت عن ذكر الله عز وجل .

التاسعة والستون : أن للذكر من بين الأعمال لذة لا يشبهها شىء،فلو لم يكن للعبد من ثوابه إلا اللذة الحاصلة للذاكرة. والنعيم الذى يحصل لقلبه،لكفى به؛ ولهذا سميت مجالس الذكر رياض الجنة .

قال مالك بن دينار:ما تلذَّذ المتلذِّذون بمثل ذكر الله عز وجل، فليس شىء من الأعمال أخف مؤونة منه ،ولا أعظم لذة، ولا أكثر فرحة .وابتهاجا للقلب .

السبعون : أنه يكسو الوجه نضرة فى الدنيا ، ونوراً فى الآخرة، فالذاكرون أنضر الناس وجوهًا فى الدنيا ،وأنورهم فى الآخرة .

ومن المراسيل عن النبى ﷺ قال:« من قال كل يوم مائة مرة : لا إله إلا الله وحده لا

شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيى ويميت ، بيده الخير ، وهو على كل شىء قدير ، أتى الله تعالى يوم القيامة ،ووجهه أشد بياضاً من القمر ليلة البدر » [(١)].

الحادية والسبعون :أن فى دوام الذكر فى الطريق ،والبيت،والحضر،والسفر، والبقاع، تكثيراً لشهود العبد يوم القيامة،فإن البقعة ، والدار ،والجبل ، والأرض ، تشهد للذاكر يوم القيامة.

قال تعالى : ﴿**إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا**﴾ [الزلزله] .

فروى الترمذى فى « جامعه » ، من حديث سعيد المقبرى عن أبى هريرة قال : قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ **يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤)**﴾ ،قال : « أتدرون ما أخبارها ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم، قال : « فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها، تقول:عمل يوم كذا ؛كذا وكذا » قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح [(٢)].

والذاكر لله عز وجل فى سائر البقاع مكثر شهوده ،ولعلهم أو أكثرهم أن يقبلوه يوم القيامة يوم قيام الأشهاد،وأداء الشهادات ، فيفرح ويغتبط بشهادتهم .

الثانية والسبعون:أن فى الاشتغال بالذكر اشتغالاً عن الكلام الباطل من الغيبة، والنميمة،واللغو ،ومدح الناس ، وذمهم ،وغير ذلك ، فإن اللسان لا يسكت البتة .

فإما لسان ذاكر ، وإما لسان لاغ ، ولا بد من أحدهما ، فهى النفس إن لم تشغلها بالحق ، شغلتك بالباطل ، وهو القلب إن لم تسكنه محبة الله عز وجل ،سكنته محبة المخلوقين ولا بد،وهو اللسان ،إن لم تشغله بالذكر،شغلك باللغو ، وهو عليك ولا بد ، فاختر لنفسك إحدى الخطتين ، وأنزلها فى إحدى المنزلتين .

الثالثة والسبعون : وهى التى بدأنا بذكرها ،وأشرنا إليها إشارة ،فنذكرها ها هنا مبسوطة لعظيم الفائدة بها ،وحاجة كل أحد،بل ضرورته إليها،وهى أن الشياطين قد احتوشت العبد وهم أعداؤه ،فما ظنك برجل قد احتوشه أعداؤه المحنقون عليه غيظاً ، وأحاطوا به،وكل منهم يناله بما يقدر عليه من الشر والأذى، ولاسبيل إلى تفريق جمعهم عنه إلا بذكر الله عز وجل .

---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ.

(٢) الترمذى (٣٣٥٣) فى التفسير ، باب : من سورة إذا زلزلت ، وضعفه الألبانى .

وفى هذا الحديث العظيم ، الشريف القدر ، الذى ينبغى لكل مسلم أن يحفظه ، فنذكره بطوله لعموم فائدته، وحاجة الخلق إليه ،وهو حديث سعيد بن المسيب ،عن عبد الرحمن بن سمرة بن جندب قال:

خرج علينا رسول الله ﷺ يوما ،وكنا فى صفه بالمدينة، فقام علينا وقال: « إنى رأيت البارحة عجبا :رأيت رجلا من أمتى أتاه ملك الموت ليقبض روحه ، فجاءه بِرُّه بوالديه ، فرد ملك الموت عنه ، ورأيت رجلا من أمتى قد بسط عليه عذاب القبر ، فجاءه وضوؤه فاستنقذه من ذلك، ورأيت رجلا من أمتى قد احتوشته الشياطين، فجاءه ذكر الله عز وجل ، فطرد الشيطان عنه، ورأيت رجلا من أمتى قد احتوشته ملائكة العذاب ، فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم ، وأيت رجلا من أمتى يلهب وفى رواية : يلهث عطشا ، كلما دنا من حوض منع وطرد، فجاءه صيام شهر رمضان ، فاسقاهُ وأرواه ،ورأيت رجلا من أمتى ، ورأيت النبيين جلوساً حلقاً حِلقاً ، كلما دنا إلى حلقة طرد ، فجاءه غسله من الجنابة ، فأخذ بيده فأقعده إلى جنبى ،ورأيت رجلا من أمتى بين يديه ظلمة ، ومن خلفه ظلمة ، وعن يمينه ظلمة،وعن يساره ظلمة،ومن فوقه ظلمة ، ومن تحته ظلمة ، وهو متحير فيها ، فجاء حجه وعمرته ، فاستخرجاه من الظلمة ،وأدخلاه فى النور ، ورأيت رجلا من أمتى يتقى بيده وهج النار وشرره ، فجاءته صدقته ، فصارت سترة بينه وبين النار ،وظلت على رأسه ، ورأيت رجلا من أمتى يكلم المؤمنين ولا يكلمونه، فجاءته صلته لرحمه فقالت: يا معشر المسلمين ، إنه كان وصُولا لرحمه فكلِّموه فكلمه المؤمنون وصافحوه وصافحهم .

ورأيت رجلا من أمتى قد احتوشته الزبانية ، فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ، فاستنقذه من أيديهم ،وأدخله فى ملائكة الرحمة ورأيت رجلا من أمتى جاثيا على ركبتيه ، وبينه وبين الله عز وجل حجاب، فجاءه حسن خلقه، فأخذه بيده، فأدخله على الله عز وجل، ورأيت رجلا من أمتى قد ذهبت صحيفته من قبل شماله ، فجاءه خوفه من الله عز وجل ، فأخذ صحيفته فوضعها فى يمينه ، ورأيت رجلاً من أمتى خف ميزانه ، فجاءه أفراطه فثقلوا ميزانه، ورأيت رجلاً من أمتى قائما على شفير جهنم ، فجاءه رجاؤه فى اللّه عز وجل ، فاستنقذه من ذلك ومضى ، ورأيت رجلا من أمتى قد أهوى فى النار ، فجاءته دمعته التى بكى من خشية اللّه عز وجل ، فاستنقذته من ذلك ، ورأيت رجلاً من أمتى قائماً على الصراط يرعدُ كما ترعد السعفة فى ريح عاصف ، فجاءه حُسن ظنه باللّه عز وجل ، فسكن رعدته ومضى ، ورأيت رجلاً من أمتى يزحف على الصراط ، ويحبو أحيانا ، ويتعلق أحيانا ، فجاءته صلاته علىَّ فأقامته على قدميه ، وأنقذته ، ورأيت رجلاً من أمتى انتهى إلى أبواب الجنة فغلقت الأبواب دونه ، فجاءته شهادة أن لا إله إلا اللّه ، ففتحت له الأبواب ،وأدخلته الجنة ». ورواه الحافظ أبو موسى المدينى فى كتاب « الترغيب فى الخصال

المنجية ،والترهيب من الخلال المردية»[١]، بنى كتابه عليه وجعله شرحا له ، وقال :هذا حديث حسن جدا ،ورواه عن سعيد بن المسيب: عمر بن ذر، وعلى بن زيد بن جدعان،وهلال أبو جبلة .وكان شيخ الإسلام ابن تيمية قدس اللّه روحه يعظم شأن هذا الحديث،وبلغنى عنه أنه كان يقول :شواهد الصحة عليه .

والمقصود منه قوله ﷺ :« ورأيت رجلاً من أمتى قد احتوشه الشياطين، فجاءه ذكر اللّه عز وجل، فطرد الشياطين عنه» فهذا مطابق لحديث الحارث الأشعرى الذى شرحناه فى هذه الرسالة . وقوله فيه : « وآمركم بذكر الله عز وجل ، وإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدوّ ، فانطلقوا فى طلبه سراعا ،وانطلق حتى أتى حصنا حصينا ،فأحرز نفسه فيه »[٢] .

فكذلك الشيطان لا يحرز العباد أنفسهم منه إلا بذكر الله عز وجل ،وفى الترمذى عن أنس بن مالك قال:قال رسول الله ﷺ :« من قال ـ يعنى:إذا خرج من بيته ـ بسم الله، توكلت على اللّه ،لا حول ولا قوة إلا بالله ،يقال له: كُفيت وهديت ووقيت، وتنحى عنه الشيطان ، فيقول لشيطان آخر : كيف لك برجل قد هُدى وكفى ووقى ؟ » رواه أبو داود والنسائى والترمذى وقال :حديث حسن [٣].

وقد تقدم قوله ﷺ : « من قال فى يوم مائة مرة : لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، كانت له حرزاً من الشيطان حتى يُمسى»[٤].

وذكر سفيان عن أبى الزبير ، عن عبد الله بن ضمرة ، عن كعب قال: إذا خرج الرجل من بيته فقال: بسم الله، قال الملك : هُديت ، وإذا قال: توكلت على الله ، قال الملك : كفيت ،وإذا قال: لا حول ولا قوة إلا بالله ،قال الملك : حُفظت . فيقول الشياطين بعضهم لبعض : ارجعوا ،ليس لكم عليه سبيل ، كيف لكم بمن كُفى وهُدى وحفظ ؟

وقال أبو خلاد المصرى : من دخل فى الإسلام ، دخل فى حصن ،ومن دخل

---

(١) الطبرانى فى الأحاديث الطوال (٣٩) باختصار ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠ / ١٨١) فى التعبير ، باب : فيما رآه النبى ﷺ فى المنام : « رواه الطبرانى بإسنادين فى أحدهما سليمان بن أحمد الواسطى ، وفى الآخر خالد بن عبد الرحمن المخزومى ، وكلاهما ضعيف »

(٢) سبق تخريجه ص ١٧٧ .

(٣) أبو داود (٥٠٩٥) فى الأدب ، باب: ما يقول إذا خرج من بيته ، والترمذى (٣٤٢٦) فى الدعوات ، باب: ما يقول إذا خرج من بيته : « حسن صحيح غريب » ، والنسائى فى الكبرى (٩٩١٧) فى عمل اليوم والليلة ، باب: ما يقول إذا خرج من بيته .

(٤) سبق تخريجه ص ١٨٧ .

المسجد، فقد دخل فى حصنين، ومن جلس فى حلقة يذكر الله عز وجل فيها، فقد دخل فى ثلاثة حصون .

وقد روى الحافظ أبو موسى فى كتابه من حديث أبى عمران الجونى،عن أنس ،عن النبى ﷺ قال: « إذا وضع العبد جنبه عن فراشه، فقال: بسم الله ،وقرأ فاتحة الكتاب،أمن من شر الجن والإنس ، ومن شر كل شىء » (١).

وفى « صحيح البخارى » عن محمد بن سيرين ، عن أبى هريرة ، قال : ولانى رسول الله ﷺ زكاة رمضان أن أحتفظ بها، فأتانى آتى،فجعل يحثو من الطعام ، فأخذته ، فقال : دعنى فإنى فإنى لا أعود . . . فذكر الحديث ، وقال : فقال له فى الثالثة : أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ،إذا أويت إلى فراشك، فاقرأ آية الكرسى من أولها إلى آخرها، فإنه لا يزال عليك من الله حافظ،ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فخلى سبيله ، فأصبح، فأخبر النبى ﷺ بقوله ، فقال: « صدقك ، وهو كذوب»(٢).

وذكر الحافظ أبو موسى من حديث أبى الزبير عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ : «إذا أوى الإنسان إلى فراشه، ابتدره ملك وشيطان ، فيقول الملك: اختم بخير ، ويقول الشيطان:اختم بشر. فإذا ذكر الله تعالى حتى يغلبه ـ يعنى النوم ـ طرد الملك الشيطان وبات يكلؤه ، فإذا استيقظ ،ابتدره ملك وشيطان،فيقول الملك ،افتح بخير ،ويقول الشيطان ، افتح بشر،فإن قال:- الحمد لله الذى أحيا نفسى بعد موتها ولم يمتها فى منامها ، الحمد لله الذى يُمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى، الحمد لله الذى يمسك السموات والأرض أن تزولا ،ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ،الحمد للّه الذى يمسك السماء أن تقع على الأرض إلابإذنه ،طرد الملك الشيطان وظل يكلؤه» (٣).

وفى « الصحيحين »:من حديث سالم بن أبى الجعد ،عن كريب ، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ :« أما لو إن أحدكم إذا أتى أهله قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا ، فيولد بينهما ولد لا يضره شيطان أبدا » (٤).

---

(١) كنز العمال (٤١٢٩٩) وعزاه للديلمى عن أنس ، بزيادة : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ،وانظر:ضعيف الجامع (٨٢٢).

(٢) البخارى (٣٢٧٥) فى بدء الخلق ، باب: صفة إبليس وجنوده .

(٣) أبو يعلى (١٧٩١) ،وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٢٣) فى الأذكار ، باب: ما يقول إذا أوى إلى فراشه وإذا انتبه : « رجاله رجال الصحيح غير إبراهيم بن الحجاج الشامى ،وهو ثقة » .

(٤) سبق تخريجه ص٢١٠ .

وذكر الحافظ أبو موسى ،عن الحسن بن على قال: أنا ضامن لمن قرأ هذه العشرين الآية أن يعصمه الله تعالى من كل شيطان ظالم، ومن كل شيطان مريد ، ومن كل سبع ضار ،ومن كل لص عاد : آية الكرسى ، وثلاث آيات من الأعراف: ﴿ **إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ** ﴾ [الأعراف: ٥٤ ـ ٥٧]، وعشرا من الصافات [١ـ ١٠] ،وثلاث آيات من الرحمن ﴿ **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ...** ﴾ [الرحمن ٣٣ ـ ٣٤]، وخاتمة سورة الحشر ﴿ **لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ ...** ﴾[الحشر: ٢١] .

وقال محمد بن أبان : بينما رجل يصلى فى المسجد ،إذا هو بشىء إلى جنبه ، فجفل منه ، فقال : ليس عليك منى بأس،إنما جئتك فى الله تعالى، ائت عروة فسله : ما الذى يتعوذ به ؟ يعنى من إبليس الأباليس ، قال : قل آمنت بالله العظيم وحده ،وكفرت بالجبت والطاغوت ، واعتصمت بالعروة الوثقى لا نفصام لها ،والله سميع عليم ، حسبى الله وكفى ، سمع الله لمن دعا ، ليس وراء الله منتهى .

وقال بشر بن منصور : عن وهب بن الورد قال: خرج رجل إلى الجبانة بعد ساعة من الليل ، قال: فسمعت حسا أو أصواتا شديدة ،وجىء بسرير حتى وضع ، وجاء شىء حتى جلس عليه ، قال: واجتمعت إليه جنوده ،ثم صرخ فقال : من لى بعروة بن الزبير ؟ فلم يجبه أحد حتى تتابع ما شاء الله عز وجل من الأصوات ،فقال واحد: أنا أكفيكه . قال: فتوجه نحو المدينة وأنا ناظر ،ثم أوشك الرجعة، فقال لا سبيل إلى عروة، قال: ويلك لم؟ قال: وجدته يقول كلمات إذا أصبح وإذا أمسى ، فلا نخلص إليه معهن ، قال الرجل ، فلما أصبحت ، قلت لأهلى: جهزونى ، فأتيت المدينة ، فسألت عنه حتى دللت عليه ، فإذا شيخ كبير ، فقلت : أشيئًا تقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت ؟ فأبى أن يخبرنى، فأخبرته بما رأيت وما سمعت ، فقال: ما أدرى، غير أنى أقول إذا أصبحت : آمنت بالله العظيم ، وكفرت بالجبت والطاغوت ، واستمسكت بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها ، والله سميع عليم. إذا أصبحت قلت ثلاث مرات ،وإذا أمسيت قلت ثلاث مرات .

وذكر أبو موسى عن مسلم البطين قال: قال جبريل للنبى ﷺ: إن عفريتا من الجن يكيدك ،فإذا أويت إلى فراشك فقل : أعوذ بكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن برٌ ولا فاجر ،من شر ما ينزل من السماء وما يعرج فيها ،ومن شر ما ذرأ فى الأرض وما يخرج منها ،ومن شر فتن الليل والنهار،ومن شر طوارق الليل والنهار، إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن (١).

---

(١) النسائى فى الكبرى (١٠٧٩٢) فى عمل اليوم والليلة ، باب: ذكر ما يكب العفريت ويطفئ شعلته، موصولا،=

وقد ثبت فى « الصحيحين » أن الشيطان يهرب من الأذان.

قال سهيل بن أبى صالح : أرسلنى أبى إلى بنى حارثة ومعى غلام أو صاحب لنا ، فنادى مناد من حائط باسمه، فأشرف الذى معى على الحائط ،فلم ير شيئاً ، فذكرت ذلك لأبى، فقال: لو شعرت أنك تلقى هذا لم أرسلك ،ولكن إذا سمعت صوتا فناد بالصلاة، فإنى سمعت أبا هريرة يحدث عن رسول الله ﷺ أنه قال: « إن الشيطان إذا نودى بالصلاة، ولى وله حصاص » (١).

وفى رواية : « إذا سمع النداء ولى وله ضراط ، حتى لا يسمع التأذين . . . » (٢) الحديث.

وذكر الحافظ أبو موسى من حديث أبى رجاء ، عن أبى بكر الصديق قال : قال رسول الله ﷺ : « استكثروا من قول لا إله إلا الله والاستغفار ، فإن الشيطان قال : قد أهلكتهم بالذنوب ،وأهلكونى بقول لا إله إلا الله والاستغفار، فلما رأيت ذلك منهم، أهلكتهم بالأهواء حتى يحسبون أنهم مهتدون ، فلا يستغفرون »(٣).

وذكر أيضا عن إبراهيم بن الحكم ،عن أبيه ،عن عكرمة قال: بينا رجل مسافر ، إذ مر برجل نائم، ورأى عنده شيطانين، فسمع المسافر أحد الشيطانين يقول لصاحبه : اذهب فأفسد على هذا النائم قلبه ، فلما دنا منه رجع إلى صاحبه فقال : لقد نام على آية مالنا إليه سبيل ، فذهب إلى النائم ،فلما دنا منه رجع قال: صدقت ،فذهب ، ثم إن المسافر أيقظه وأخبره بما رأى من الشيطانين ، فقال : أخبرنى على أى آية نمت ؟ قال على هذه الآية : ﴿ **إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤)** ﴾ [الأعراف] .

وقال أبو النضر هاشم بن القاسم: كنت أرى فى دارى فقيل: يا أبا النضر ، تحول عن

= ومالك ٢/ ٩٥١ ، ٩٥٢ (١٠) ، فى الشعر ، باب :ما يؤمر به التعوذ مرسلاً .

(١) مسلم (١٨/٣٨٩) فى الصلاة ،باب: فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه .

(٢) البخارى (٦٠٨) فى الأذان ، باب : فضل التأذين ،ومسلم (١٩/٣٨٩). فى الصلاة ، باب : فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه ،وأبو داود (٥١٦) فى الصلاة ،باب : رفع الصوت بالأذان ،والنسائى (٦٧٠) فى الأذان ، باب: فضل التأذين .

(٣) أبو يعلى (١٣٦) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢١٠) فى التوبة ، باب: ما جاء فى الاستغفار : « فيه عثمان ابن مطر وهو ضعيف » .

جوارنا ،قال: فاشتدّ ذلك عليّ ، فكتبت إلى الكوفة إلى ابن إدريس ، والمحاربى ،وأبى أسامة ،فكتب إلى المحاربى:إن بئرا بالمدينة كان يقطع رشاؤها ،فنزل بهم ركب ،فشكوا ذلك إليهم ،فدعوا بدلْو من ماء، ثم تكلموا بهذا الكلام،فصبوه فى البئر ، فخرجت نار من البئر ،فطفئت على رأس البئر،قال أبو النضر:فأخذت تورا من ماء ،ثم تكلمت فيه بهذا الكلام ،ثم تتبعت به زوايا الدار ،فرششته ،فصاحوا بى :أحرقتنا ، نحن نتحول عنك. وهو:بسم الله ،أمسينا بالله الذى ليس منه شىء ممتنع،وبعزة الله التى لا ترام ولا تضام ، وبسلطان اللّه المنيع نحتجب ، وبأسمائه الحسنى كلها عائذ من الأبالسة ،ومن شر شياطين الإنس والجن،ومن شر كل معلن أو مسر،ومن شر ما يخرج بالليل ويكمن بالنهار، ويكمن بالليل ويخرج بالنهار ،ومن شر ما خلق وذرأ وبرأ،ومن شر إبليس وجنوده،ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم ، أعوذ بالله بما استعاذ به موسى وعيسى وإبراهيم الذى وفى من شر ما خلق وذرأ وبرأ ، ومن شر إبليس وجنوده ومن شر ما يبغى .أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم : **﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣) إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (٥) إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (٧) لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلأِ الأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠)﴾** [الصافات] .

فهذا بعض ما يتعلق بقوله ﷺ لذلك العبد :« لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله تعالى » (١) (٢) .

باب منه

إذا أصبح العبد وأمسى وليس همه إلا اللّه وحده تحمل الله ـ سبحانه ـ حوائجه كلها، وحمل عنه كل ما أهمه،وفرغ قلبه لمحبته، ولسانه لذكره،وجوارحه لطاعته . وإن أصبح وأمسى والدنيا همه حمله الله همومها وغمومها وانكادها،ووكله إلى نفسه ،فشغل قلبه عن محبته بمحبة الخلق،ولسانه عن ذكره بذكرهم،وجوارحه عن طاعته بخدمتهم وأشغالهم،فهو يكدح كدح الوحش فى خدمة غيره ، كالكير ينفخ بطنه يعصر أضلاعه فى نفخ غيره.فكل من أعرض عن عبودية الله وطاعته ومحبته بلى بعبودية المخلوق ومحبته وخدمته.قال تعالى: **﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾** [الزخرف: ٣٦] .

---

(١) الوابل الصيب (٨٤ ـ ١٧٧) .

(٢) سبق تخريجه ص ١٧٧ .

قال سفيان بن عيينة : لا تأتون بمثل مشهور للعرب إلا جئتكم به من القرآن . فقال له قائل: فأين فى القرآن: « أعط أخاك تمرة، فإن لم يقبل فأعطه جمرة؟» فقال: فى قوله: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا ﴾الآية [الزخرف: ٣٦] (١).

فصل
فى أن الذكر من أسباب انشراح الصدر

من أسباب شرح الصدر دوام ذكره على كل حال وفى كل موطن، فللذكر تأثير عجيب فى انشراح الصدر ونعيم القلب ، وللغفلة تأثير عجيب فى ضيقه وحبسه وعذابه (٢).

فصل
فى أن الذاكر يحب ربه عز وجل

محبة ذكره ـ سبحانه وتعالى ـ من علامة محبته ، فإن المحب لا يشبع من ذكر محبوبه بل لا ينساه فيحتاج إلى من يذكره به (٣) .

فصل
فى بيان حَمْد العبد وشكره لله عز وجل على نعمه

قال أبو المليح :قال موسى: يا رب ،ما أفضل الشكر؟ قال: أن تشكرنى على كل حال.

وقال بكر بن عبد الله :قلت لأخ لى: أوصنى ، فقال:ما أدرى ما أقول غير أنه ينبغى لهذا العبد ألا يفتر من الحمد والاستغفار ؛ فإن ابن آدم بين نعمة وذنب،ولا تصلح النعمة إلا بالحمد والشكر،ولا يصلح الذنب إلا بالتوبة والاستغفار، فأوسعنى علماً ما شئت.

وقال عبد العزيز بن أبى داود: رأيت فى يد محمد بن واسع قرحة، فكأنه رأى ما شق علىّ منها ، فقال لى: أتدرى ماذا لله علىّ فى هذه القرحة من نعمة حين لم يجعلها فى حدقتى ،ولا طرف لسانى ،ولا على طرف ذكرتى ؛ فهانت علىّ قرحته .

---

(١) الفوائد (١٤ / ١١٥) . (٢) زاد المعاد (٢/ ٢٥) .
(٣) روضة المحبين (٢٠١) .

وروى الجريرى ، عن أبى الورد ، عن اللجلاج ، عن معاذ بن جبل ﷺ : أن رسول الله ﷺ أتى علىّ رجل وهو يقول : اللهم إنى أسألك تمام النعمة فقال: « ابن آدم، هل تدرى ما تمام النعمة ؟ » قال: يا رسول الله ، دعوت دعوة أرجو بها الخير ،فقال: «إن تمام النعمة فوز من النار ودخول فى الجنة » (١) .

وقال سهم بن سلمة : حدثت أن الرجل إذا ذكر اسم الله على أول طعامه وحمده على آخره ، لم يُسأل عن نعيم ذلك الطعام .

ويدل على فضل الشكر على الصبر،أن الله سبحانه يحب أن يسأل العافية، وما يسأل شيئا أحب إليه من العافية، كما فى المسند عن أبى صالح ،عن أبى هريرة ﷺ ، قال: قام أبو بكر ﷺ على المنبر ، ثم قال: سلوا الله العافية؛ فإنه لم يعط عبدا بعد اليقين خيرا من العافية .

وفى حديث آخر : « إن الناس لم يعطوا فى هذه الدنيا شيئا أفضل من العفو والعافية؛ فسلوهما الله عز وجل » (٢).

وقال لعمه العباس:« يا عم، أكثر من الدعاء بالعافية » (٣). وفى الترمذى ، قلت : يا رسول الله ،علمنى شيئا أسأل الله ؟ قال:« سل الله العافية»،فمكثت أياما ثم جئت فقلت:علمنى شيئا أسأله الله ؟فقال لى:« يا عباس ،يا عم رسول الله ﷺ ، سل الله العافية فى الدنيا والآخرة » (٤).

وقال فى دعائه يوم الطائف:« إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى ، غير أن عافيتك أوسع لى » (٥) ،فلاذ بعافيته ،كما استعاذ بها فى قوله:« أعوذ برضاك من سخطك، أعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك » (٦).

وفى حديث آخر:« سلوا العفو والعافية والمعافاة » (٧).وهذا السؤال يتضمن العفو عما مضى ، والعافية فى الحال ،والمعافاة فى المستقبل بدوام العافية واستمرارها .

---

(١) الترمذى (٣٥٢٧) فى الدعوات ، باب: (٩٤) ،وقال: « حسن » . وأحمد (٥/ ٢٣١) .
(٢) أحمد (١/ ٧) ،وقال الشيخ شاكر (٣٤): « إسناده صحيح » .
(٣، ٤) الترمذى (٣٥١٤) فى الدعوات ، باب(٨٥) ، وقال: « صحيح » ، وأحمد (١/ ٢٠٩) .
(٥) سبق تخريجه ص١٩٣ .
(٦) أبو داود (٨٧٩) فى الصلاة ، باب: فى الدعاء فى الركوع والسجود ، والترمذى (٣٤٩٣) فى الدعوات، باب: (٧٦) ، وقال : « حسن » ، والنسائى (١٦٩) فى الطهارة ، باب: ترك الوضوء من مس الرجل امرأته من غير شهوة .
(٧) أحمد (١/ ٨) .

وكان عبد الأعلى التيمى يقول : أكثروا من سؤال الله العافية ؛ فإن المبتلى وإن اشتد بلاؤه ليس بأحق بالدعاء من المعافى الذى لا يأمن البلاء،وما المبتلون اليوم إلا من أهل العافية بالأمس ، وما المبتلون بعد اليوم إلا من أهل العافية اليوم، ولو كان البلاء يجر إلى خير ما كنا من رجال البلاء ؛ إنه رب بلاء قد أجهد فى الدنيا وأخزى فى الآخرة؛ فما يؤمن من أطال المقام على معصية الله أن يكون قد بقى له فى بقية عمره من البلاء ما يجهده فى الدنيا ويفضحه فى الآخرة ، ثم يقول بعد ذلك : الحمد لله الذى إن نعد نعمه لا نحصيها، وإن نداب له عملاً لا نجزيها ،وإن نعمر فيها لا نبليها .

ومر رسول الله ﷺ برجل يسأل الله الصبر ، فقال : « لقد سألت البلاء فاسأل العافية» (١). وفى صحيح مسلم : أنه ﷺ عاد رجلا قد هفت ـ أى هزل ـ فصار مثل الفرخ ؛ فقال ﷺ : « هل كنت تدعو الله بشىء أو تسأله إياه؟» قال :نعم ،كنت أقول اللهم ما كنت معاقبنى به فى الآخرة فعجله لى فى الدنيا . فقال رسول اللّه ﷺ :« سبحانه لا تطيقه ولا تستطيعه، أفلا قلت : اللهم ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار» ،فدعا الله له فشفاه (٢).

وقال الترمذى،من حديث أبى هريرة رضي الله عنه ،قال: دعاء حفظته من رسول الله لا أدعه : « اللهم اجعلنى أعظم شكرك ، وأكثر ذكرك ، وأتبع نصيحتك ، وأحفظ وصيتك » (٣).

وقال شيبان : كان الحسن إذا جلس مجلساً يقول: لك الحمد بالإسلام، ولك الحمد بالقرآن ،ولك الحمد بالأهل والمال؛ بسطت رزقنا ، وأظهرت أمننا، وأحسنت معافاتنا ، ومن كل ما سألناك أعطيتنا ؛ فلك الحمد كثيرا كما تنعم كثيرا؛ أعطيت خيرا كثيرا ، وصرفت شرا كثيرا ؛ فلوجهك الجليل الباقى الدايم الحمد .

وكان بعض السلف يقول:اللهم ما أصبح بنا من نعمة ،أو عافية، أو كرامة فى دين ، أو دنيا جرت علينا فيما مضى وهى جارية علينا فيما بقى؛فإنها منك وحدك لا شريك لك ؛ فلك الحمد بذلك علينا ،ولك المن ولك الفضل ، ولك الحمد عدد ما أنعمت به علينا وعلى جميع خلقك لا إله إلا أنت .

وقال مجاهد :إذا كان ابن عمر فى سفر ،فطلع الفجر رفع صوته ونادى :سمع سامع

(١) الترمذى (٣٥٢٧) فى الدعوات ،باب : (٩٤)، وقال : « حسن » ، وأحمد (٥/ ٢٣١) ، وضعفه الألبانى.
(٢) مسلم (٢٦٨٨ / ٢٣) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: كراهة الدعاء بتعجيل العقوبة فى الدنيا.
(٣) الترمذى (٥/ ٣٨٠) وقال:غريب ،وأحمد (٢/ ٣١١، ٤٧٧)،وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٧٥):«رواه أحمد من طريق أبى سعيد المدينى،وفى رواية:عن أبى سعد الحمصى ولم أعرفها وبقية رجاله ثقات»،وضعفه الألبانى .

بحمد الله ونعمه وحسن بلائه علينا ثلاثا، اللهم صاحبنا فأفضل علينا، عائذ بالله من النار، ولا حول ولا قوة إلا بالله ثلاثاً .

وذكرالإمام أحمد: أن الله سبحانه أوحى إلى موسى بن عمران عليه السلام: « يا موسى، كن يقظان مرتاداً لنفسك أخدانا ، وكل خدن لا يواتيك على مسرتى فلا تصحبه ؛ فإنه عدو لك ، وهو يقسى قلبك ، وأكثر من ذكرى حتى تستوجب الشكر وتستكمل المزيد.

وقال الحسن :خلق الله آدم حين خلقه ، فأخرج أهل الجنة من صفحته اليمنى ، وأخرج أهل النار من صفحته اليسرى ، فدبوا على وجه الأرض منهم : الأعمى والأصم المبتلى ، فقال آدم : يا رب ألا سويت بين ولدى؟ قال : يا آدم إنى أريد أن أشكر.

وفى السنن عنه ﷺ : « من قال حين يصبح : اللهم ما أصبح بى من نعمتك أو بأحد من خلقك، فمنك وحدك لا شريك لك ؛ فلك الحمد ولك الشكر إلا أدى شكر ذلك اليوم . ومن قال ذلك حين يمسى ، فقد أدى شكر ليلته »(١).

ويذكر عن النبى ﷺ : « من ابتلى فصبر ، وأعطى فشكر ، وظلم فغفر ، وظلم فاستغفر ؛ أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » (٢).

ويذكر عنه ﷺ: أنه أوصى رجلاً بثلاث ، فقال: « أكثر من ذكر الموت يشغلك عما سواه، وعليك بالدعاء فإنك لا تدرى متى يستجاب لك، وعليك بالشكر فإن الشكر زيادة»(٣).

ويذكر عنه ﷺ : أنه كان إذا أكل قال : « الحمد لله الذى أطعمنى وسقانى وهدانى ، وكل بلاء حسن أبلانى ، الحمد لله الرازق ذى القوة المتين ؛اللهم لا تنزع منا صالحا أعطيتنا ولا صالحا رزقتنا ، واجعلنا لك من الشاكرين » (٤) ويذكر عنه ﷺ : أنه إذا أكل قال : «الحمد لله الذى أطعم وسقى وسوغه وجعل له مخرجا »(٥).

وكان عروة بن الزبير إذا أتى بطعام لم يزل مخمرا حتى يقول هذه الكلمات: الحمد لله الذى هدانا وأطعمنا وسقانا ونعمنا ، الله أكبر . . اللهم ألفتنا نعمتك ونحن بكل شر

---

(١) أبو داود (٥٠٧٣) فى الأدب، باب: ما يقول إذا أصبح ، وموارد الظمآن (٢٣٦١) فى الأذكار ، باب: ما يقول إذا أصبح وإذا أمسى وإذا أوى إلى فراشه .

(٢) شعب الإيمان (٤٤٣١) فى باب: تعديد نعم الله ، والطبرانى فى الكبير ١٣٨/٧ (٦٦١٣) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٨٧) فى الزهد ، باب: ما جاء فى الشكر والصبر: « فيه أبو داود الأعمى وهو متروك » .

(٣) حلية الأولياء (٧/ ٣٠٥) ، والمطالب العالية (٣٠٩٨) فى الرقائق، باب : ذكر الموت وقصر الأمل .

(٤) الحاكم فى المستدرك (١/ ٥٤٦) فى الدعاء ، باب : دعاء يقال بعد فراغ الطعام ، وقال : « صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه » ووافقه الذهبى ، وابن أبى الدنيا فى الشكر (١٦٧) .

(٥) أبو داود (٣٨٥١) فى الأطعمة ، باب: ما يقول الرجل إذا طعم .

فأصبحنا وأمسينا بخير ، نسأل تمامها وشكرها ،لا خير إلا خيرك ، ولا إله غيرك ، إله الصالحين ورب العالمين. . الحمد للّه ، لا إله إلا الله ،ماشاء الله لا قوة إلا بالله. . اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وقنا عذاب النار .

وقال وهب بن منبه : رؤوس النعم ثلاثة : فأولها: نعمة الإسلام التى لا تتم نعمة إلا بها، والثانية:العافية التى لا تطيب إلا بها ، والثالثة:نعمة الغنى التى لا يتم العيش إلا به .

وقدم سعيد الجريرى من الحج فجعل يقول: أنعم الله علينا فى سفرنا بكذا وكذا ،ثم قال: تعداد النعم من الشكر .

ومر وهب بمبتلى أعمى مجذوم ، مقعد عريان ،به وضح ،وهو يقول: الحمد لله على نعمه ، فقال رجل كان مع وهب :أى شىء بقى عليك من النعمة تحمد الله عليها؟ فقال له المبتلى: ارم ببصرك إلى أهل المدينة ،فانظر إلى كثرة أهلها ،أفلا أحمد الله أنه ليس فيها أحد يعرفه غيرى .

ويذكر عن النبى ﷺ أنه قال:« إذا أنعم اللّه على عبد نعمة فحمده عندها فقد أدى شكرها » (١) .

وذكر على بن أبى طالب رضي الله عنه أن بختنصر أتى بدانيال ، فأمر به فحبس فى جب وأضرى أسدين ثم خلى بينهما وبينه ،ثم فتح عليه بعد خمس أيام فوجده قائما يصلى والأسدان فى ناحية الجب لم يعرضا له ؛ فقال له : ما قلت حين دفع عنك ؟ قال : قلت: « الحمد لله الذى لا ينسى من ذكره ،والحمد لله الذى لا يخيب رجاه ،والحمد لله الذى لا يكل من توكل عليه إلى غيره ،والحمد لله الذى هو ثقتنا حين تنقطع عنا الحيل ، والحمد لله الذى هو رجاؤنا حين يسوء ظننا بأعمالنا،والحمد لله الذى يكشف عنا ضرنا بعد كربتنا ، والحمد لله الذى يجزى بالإحسان إحسانا، والحمد لله الذى يجزى بالصبر نجاة».

ويذكر عنه ﷺ أنه كان إذا نظر فى المرآة قال:« الحمد لله الذى أحسن خلقى وخُلُقى، وزان منى ما شان من غيرى »(٢).

وقال ابن سيرين:كان ابن عمر يكثر النظر فى المرآة ، وتكون معه فى الأسفار ، فقلت له : ولم ؟ قال: أنظر فما كان فى وجهى زين فهو فى وجه غيرى شين أحمد الله عليه .

وسئل أبو بكر بن أبى مريم :ما تمام النعمة ؟ قال: أن تضع رجلا على الصراط ورجلا فى الجنة .

---

(١) ابن أبى الدنيا فى الشكر (١٧٢) .

(٢) ابن أبى الدنيا فى الشكر (١٧٤) .

وقال بكر بن عبد الله : يا بن آدم ،إن أردت أن تعرف قدر ما أنعم الله عليك فغمض عينيك .

وقال مقاتل فى قوله : ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان : ٢٠] ، قال: أما الظاهرة : فالإسلام ،وأما الباطنة : فستره عليكم المعاصى .

وقال ابن شوذب : قال عبد الله - يعنى ابن مسعود رضي الله عنه : إن لله على أهل النار منّة لو شاء أن يعذبهم بأشد من النار لعذبهم .

وقال أبو سليمان الدارنى : جلساء الرحمن يوم القيامة مَنْ جعل فيه خصالاً : الكرم، والسخاء، والحلم ،والرأفة ،والرحمة ،والشكر ، والبر ، والصبر .

وقال أبو هريرة رضي الله عنه : من رأى صاحب بلاء فقال: « الحمد لله الذى عافانى مما ابتلاك به ،وفضلنى عليك وعلى جميع خلقه تفضيلا » فقد أدى شكر تلك النعمة ، وقال عبد الله بن وهب : سمعت عبد الرحمن بن زيد يقول: الشكر يأخذ بجذم الحمد وأصله وفرعه ،قال: ينظر فى نعم الله : فى بدنه ،وسمعه ،وبصره، ويديه ،ورجليه ، وغير ذلك ، ليس من هذا شىء إلا فيه نعمة من الله ، حق على العبد أن يعمل فى النعمة التى هى فى بدنه لله فى طاعته ، ونعمة أخرى فى الرزق وحق عليه أن يعمل لله فيما أنعم عليه به من الرزق بطاعته ؛ فمن عمل بهذا كان قد أخذ بجذم الشكر وأصله وفرعه .

وقال كعب : ما أنعم الله على عبد من نعمة فى الدنيا ، فشكرها لله وتواضع بها لله، إلا أعطاه الله نفعها فى الدنيا ،ورفع له بها درجة فى الأخرى. وما أنعم الله على عبد نعمة فى الدنيا ،فلم يشكرها لله ولم يتواضع بها ،إلا منعه الله نفعها فى الدنيا ،وفتح له طبقات من النار يعذبه إن شاء أو يتجاوز عنه .

وقال الحسن : من لا يرى لله عليه نعمة إلا فى مطعم أو مشرب أو لباس، فقد قصر علمه وحضر عذابه .

وقال الحسن يوما لبكر المزنى : هات يا أبا عبد الله دعوات لإخوانك ؛ فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على النبى ﷺ ، ثم قال : والله ما أدرى أى النعمتين أفضل علىّ وعليكم: أنعمة المسلك أم نعمة المخرج إذا أخرجه منا ؟ قال الحسن: إنها لمن نعمة الطعام.

وقالت عائشة رضي الله عنها: ما من عبد يشرب الماء القراح، فيدخل بغير أذى ويخرج الأذى، إلا وجب عليه الشكر .

قال الحسن: يا لها من نعمة تدخل كل لذة وتخرج مسرحا، لقد كان ملك من ملوك هذه القرية يرى الغلام من غلمانه يأتى الحب فيكتال منه ثم يجرجر قائما ، فيقول : يا ليتنى

مثلك ما يشرب حتى يقطع عنه العطش ،فإذا شرب كان له فى تلك الشربة موتات يا لها من نعمة .

وكتب بعض العلماء إلى أخ له: أما بعد ، فقد أصبح بنا من نعم الله ما لا تحصيه مع كثرة ما تعصيه ، فما ندرى أيهما نشكر: أجميل ما يستر أم قبيح ما ستر .

وقيل للحسن: ها هنا رجل لا يجالس الناس ، فجاء إليه فسأله عن ذلك، فقال: إنى أمسى وأصبح بين ذنب ونعمة، فرأيت أن أشغل نفسى عن الناس بالاستغفار من الذنب والشكر لله على النعمة ؛ فقال له الحسن : أنت عندى يا عبد الله أفقه من الحسن ، فالزم ما أنت عليه .

وقال ابن المبارك : سمعت علياً بن صالح يقول فى قوله تعالى : ﴿ **لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُم** ﴾[إبراهيم:٧] ، قال: أى من طاعتى ،والتحقيق أن الزيادة من النعم ،وطاعته من أجل نعمه .

وذكر ابن أبى الدنيا:أن محارب بن دثار ،كان يقوم بالليل ويرفع صوته أحيانا :أنا الصغير الذى ربيته فلك الحمد، وأنا الضعيف الذى قويته فلك الحمد،وأنا الفقير الذى أغنيته فلك الحمد،وأنا الصعلوك الذى مولته فلك الحمد،وأنا العزب الذى زوجته فلك الحمد ،وأنا الساغب الذى أشبعته فلك الحمد ،وأنا العارى الذى كسوته فلك الحمد ،وأنا المسافر الذى صاحبته فلك الحمد،وأنا الغائب الذى رددته فلك الحمد ،وأنا الراجل الذى حملته فلك الحمد،وأنا المريض الذى شفيته فلك الحمد ،وأنا السائل الذى أعطيته فلك الحمد، وأنا الداعى الذى أجبته فلك الحمد. . ربنا ولك الحمد حمداً كثيرا .

وكان بعض الخطباء يقول فى خطبته:اختط لك الأنف فأقامه وأتمه فأحسن تمامه،ثم أدار منك الحدقة فجعلها بجفون مطبقة ،وبأشفار معلقة، ونقلك من طبقة إلى طبقة ، وحنن عليك قلب الوالدين برقة ومقة؛ فنعمه عليك مورقة ، وأياديه بك محدقة .

وكان بعض العلماء يقول فى قوله تعالى: ﴿ **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا** ﴾ [إبراهيم: ٣٤] ، سبحان من لم يجعل لحد معرفة نعمه إلا العلم بالتقصير عن معرفتها كما لم يجعل لحد إدراكه أكثر من العلم أنه لا يدرك،فجعل معرفة نعمه بالتقصير عن معرفتها شكراً ، كما شكر علم العالمين أنهم لا يدركونه فجعله إيماناً ، علماً منه أن العباد لا يتجاوزون ذلك .

وقال عبد الله بن المبارك : أخبرنا مثنى بن الصباح ،عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه، عن جده قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « خصلتان من كانتا فيه كتبه الله صابراً شاكرا، ومن لم يكونا فيه ، لم يكتبه الله صابرا شاكرا : من نظر فى دينه إلى من هو فوقه فاقتدى به ، ومن نظر فى دنياه إلى من هو دونه فحمد الله على ما فضله به عليه ، كتبه الله صابرا

شاكرا ومن نظر فى دينه إلى من هو دونه ونظر فى دنياه إلى من هو فوقه فأسف على ما فاته منه لم يكتبه الله شاكراً ولا صابراً » (١)، وبهذا الإسناد عن عبد الله بن عمرو موقوفا عليه : أربع خصال من كنَّ فيه بنى الله له بيتاً فى الجنة : من كان عصمة أمره لا إله إلا الله ،وإذا أصابته مصيبة قال: إنا لله وإنا إليه راجعون ،وإذا أعطى شيئا قال: الحمد لله ، وإذا أذنب قال: أستغفر الله .

وقال ابن المبارك: عن شبل ،عن أبى نجيح ،عن مجاهد فى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾[الإسراء:٣] ،قال:لم يأكل شيئا إلا حمد الله عليه،ولم يشرب شرابا قط إلا حمد الله عليه،ولم يبطش بشىء قط إلا حمد الله عليه فأثنى الله عليه أنه كان عبدا شكوراً.

وقال محمد بن كعب : كان نوح إذا أكل قال : الحمد لله ،وإذا شرب قال: الحمد لله، وإذا لبس قال: الحمد لله ، وإذا ركب قال : الحمد لله فسماه الله كان عبدا شكوراً .

وقال ابن أبى الدنيا : بلغنى عن بعض الحكماء قال: لو لم يعذب الله على معصيته لكان ينبغى ألا يعصى لشكر نعمته (٢).

فصل
فى أفضل الذكر

وأما المسألة الثانية (٣) وهى :تفضيل « سبحان الله وبحمده عدد خلقه ، ورضا نفسه، وزنة عرشه ،ومداد كلماته» (٤) على مجرد الذكر بسبحان الله أضعافا مضاعفة ،فإن ما يقوم بقلب الذاكر حين يقول:« سبحان الله وبحمده عدد خلقه » من معرفته وتنزيهه وتعظيمه من هذا القدر المذكور من العدد : أعظم مما يقوم بقلب القائل:« سبحان الله » فقط .

وهذا يُسمى : الذكر المضاعف ،وهو أعظم ثناء من الذكر المفرد .

فلهذا كان أفضل منه ، وهذا إنما يظهر فى معرفة هذا الذكر وفهمه. فإن قول المسبح: « سبحان الله وبحمده عدد خلقه » يتضمن إنشاءً وإخباراً عما يستحقه الرّبُّ من التسبيح

---

(١) الترمذى (٢٥١٢) فى صفة القيامة والرقائق والورع ،باب:(٥٨)،وقال:«حسن غريب » ،وضعفه الألبانى .

(٢) عدة الصابرين (١٧٧ ـ ١٨٥) .

(٣) أى من المسائل التى سئل عنها الإمام ابن القيم رحمه الله .

(٤) مسلم (٢٧٢٦ / ٧٩) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: التسبيح أول النهار وعند النوم ،وأبو داود (١٥٠٣) فى الصلاة ، باب : التسبيح بالحصى ،والترمذى (٣٥٥٥) فى الدعوات، باب(١٠٤)، والنسائى (١٣٥٢) فى السهو ، باب: نوع آخر من عدد التسبيح .

عدد كل مخلوق كان أو هو كائن ،إلى ما لا نهاية له .

فتضمّن الإخبار عن تنزيهه الربّ وتعظيمه والثناء عليه هذا العدد العظيم، الذى لا يبلغه العادُّون ، ولا يحصيه المحصون. وتضمن إنشاء العبد لتسبيح هذا شأنه ،لا أن ما أتى به العبد من التسبيح هذا قدره وعدده ، بل أخبر أن ما يستحقه الرب ـ سبحانه وتعالى ـ من التسبيح : هو تسبيح يبلغ هذا العدد الذى لو كان فى العدد ما يزيد لذكره ، فإن تجدد المخلوقات لا ينتهى عدداً ،ولا يُحصى الحاضر .

وكذلك قوله: « ورضا نفسه » فهو يتضمن أمرين عظيمين : أحدُهما: أن يكون المراد تسبيحاً هو والعظمة والجلال سيَّان ولرضا نفسه كما أنه فى الأول مخبر عن تسبيح مساوٍ لعدد خلقه، ولا ريب أن رضا نفس الرب لا نهاية له فى العظمة والوصف. والتسبيح: ثناء عليه ـ سبحانه ـ يتضمن التعظيم والتنزيه .

فإذا كانت أوصاف كماله ونعوتُ جلاله لا نهاية لها ولا غاية، بل هى أعظم من ذلك وأجل، كان الثناء عليه بها كذلك إذا هو تابع لها إخباراً وإنشاءً . وهذا المعنى ينتظم المعنى الأول من غير عكس .

وإذا كان إحسانه ـ سبحانه ـ وثوابه وبركته وخيره لا منتهى له ، وهو من موجبات رضاه وثمرته فكيف بصفة الرضا ؟

وفى الأثر:«إذا باركتُ لم يكن لبركتى منتهى» فكيف بالصفة التى صدرت عنها البركة؟

والرضا يستلزم المحبة، والإحسان ،والجود ،والبر ، والعفو ، والصفح ،والمغفرة .

والخلق :يستلزم العلم، والقدرة ، والإرادة ،والحياة،والحكمة . وكلٌّ ذلك داخل فى رضا نفسه ، وصفة خلقه .

وقوله :« وزنة عرشه » فيه إثبات للعرش ،وإضافته إلى الربّ سبحانه وتعالى وأنه أثقل المخلوقات على الإطلاق ،إذ لو كان شيء أثقل منه لوزن به التسبيح .وهذا يرد على من يقول: إن العرش ليس بثقيل ولا خفيف .وهذا لم يعرف العرش ، ولا قدره حق قدره.

فالتضعيف الأول: للعدد والكمية ،والثانى: للصفة والكيفية ،والثالث: للعظم والثقل، وليس للمقدار .

وقوله :« ومداد كلماته » هذا يعمُّ الأقسام الثلاثة ويشملها . فإن مداد كلماته سبحانه وتعالى لا نهاية لقدره ،ولا لصفته ،ولا لعدده . قال تعالى: ﴿ **قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا** (١٠٩) ﴾ [الكهف]، وقال تعالى : ﴿ **وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ**

اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧)﴾ [لقمان] .

ومعنى هذا : أنه لو فُرِض البحرُ مداداً ،وبعده سبعة أبحر تمدُّه كلُّها مدادا ، وجميع أشجار الأرض أقلاما وهو ما قام منها على ساق من النبات،والأشجار المثمرة وغير المثمرة، وتستمد بذلك المداد لفنيت البحار والأقلام ،وكلمات الرب لا تفنى ولا تنفد. فسبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضا نفسه ،وزنة عرشه ،ومداد كلماته .

فأين هذا من وصف من يصفه بأنه ما تكلم ولا يتكلم ،ولا يقوم به كلام أصلا؟ وقول من وصف كلامه بأنه معنى واحد، لا ينقضى ولا يتجزأ ولا له بعضٌ ولا كلٌ، ولا هو سور وآيات، ولا حُروف وكلمات ؟

والمقصود: أن فى هذا التسبيح من صفات الكمال ونعوت الجلال ما يوجب أن يكون أفضل من غيره ،وأنه لو وزن غيره به لوزن وزاد عليه .

وهذا بعض ما فى هذه الكلمات من المعرفة بالله ،والثناء عليه بالتنزيه والتعظيم ، مع اقترانه بالحمد المتضمن لثلاثة أصول:

أحدها: إثبات صفات الكمال له سبحانه ،والثناء عليه.

الثانى: محبته والرضا به .

الثالث: فإذا انضاف هذا الحمد إلى التسبيح والتنزيه على أكمل الوجوه، وأعظمها قدرا، وأكثرها عددا ،وأجزلها وصفا ، واستحضر العبد ذلك عند التسبيح ، وقام بقلبه معناه كان له من المزية والفضل ما ليس لغيره ،وبالله التوفيق[١].

وأيضا

من الذاكرين :من يبتدئ بذكر اللسان وإن كان على غفلة، ثم لا يزال فيه حتى يحضر قلبه فيتواطآ على الذكر .ومنهم: من لا يرى ذلك ولا يبتدئ على غفلة بل يسكن حتى يحضر قلبه فيشرع فى الذكر بقلبه ،فإذا قوى استتبع لسانه فتواطآ جميعاً . فالأول : ينتقل الذكر من لسانه إلى قلبه . والثانى: ينتقل من قلبه إلى لسانه ، من غير أن يخلو قلبه منه ،بل يسكن أولاً حتى يحس بظهور الناطق فيه. فإذا أحس بذلك نطق قلبه ، ثم انتقل النطق القلبى إلى الذكر اللسانى، ثم يستغرق فى ذلك حتى يجد كل شيء منه ذاكراً .

وأفضل الذكر وأنفعه ما واطأ فيه القلب اللسان،وكان من الأذكار النبوية ، وشهد الذاكر معاينة ومقاصده [٢].

---

(١) المنار المنيف (٣٤ ـ ٣٨) .

(٢) الفوائد (٢٦٠) .

فصل
فى بيان أن الذكر أفضل من الدعاء

الذكر أفضل من الدعاء ؛ لأن الذكر ثناء على الله عز وجل بجميل أوصافه وآلائه وأسمائه ،والدعاء سؤال العبد حاجته ،فأين هذا من هذا ؟

ولهذا جاء فى الحديث :« من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين» [1].

ولهذا كان المستحب فى الدعاء أن يبدأ الداعى بحمد الله تعالى، والثناء عليه بين يدى حاجته ، ثم يسأل حاجته . كما فى حديث فضالة بن عبيد :أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يدعو فى صلاته لم يحمد الله تعالى ولم يصل على النبى ﷺ فقال رسول الله ﷺ: « لقد عجل هذا » ثم دعاه فقال له أو لغيره: « إذا صلى أحدكم فليبدأ بتمجيد ربه عز وجل والثناء عليه، ثم يصلى على النبى ﷺ ،ثم يدعو بعد بما شاء» رواه الإمام أحمد،والترمذى وقال: حديث حسن صحيح. ورواه الحاكم فى « صحيحه» [2].

وهكذا دعاء ذى النون عليه السلام الذى قال فيه النبى ﷺ : « دعوة أخى ذى النون ، ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كُربته: لا إله إلا أنت،سبحانك إنى كنت من الظالمين » وفى الترمذى:«دعوة أخى ذى النون إذْ دعا وهو فى بطن الحوت «لا إله إلا أنت، سبحانك إنى كنت من الظالمين ، فإنه لم يدْعُ بها مُسلم فى شىء قط إلا استجاب الله له»[3].

وهكذا عامة الأدعية النبوية على قائلها أفضل الصلاة والسلام.

ومنه قوله ﷺ فى دعاء الكرب :«لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم » [4].

---

(١) سبق تخريجه ص١٨٦ برقم (١) .

(٢) أحمد (٦ /١٨) ،والترمذى (٣٤٧٧) فى الدعوات ، باب :(٦٥) وقال : « حسن غريب » ، والحاكم فى المستدرك (١/ ٢٣٠) فى الصلاة ، باب : إذا صلى أحدكم فليبدأ بتمجيد ربه والثناء عليه ، وقال:« صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه » ، ووافقه الذهبى .

(٣) الترمذى (٣٥٠٥) فى الدعوات، باب (٨٢) ، وأحمد (١ / ١٧٠)، وقال الشيخ شاكر (١٤٦٢) : « إسناده صحيح » ، والحاكم فى المستدرك (١/ ٥٠٥) فى الدعاء ، باب:من دعا بدعوة ذى النون استجاب الله له . وقال :« صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ووافقه الذهبى .

(٤) البخارى (٦٣٤٦) فى الدعوات ، باب :الدعاء عند الكرب ،مسلم (٢٧٣٠ / ٨٣) فى الذكر والدعاء والتوبة والاسغتفار ، باب :دعاء الكرب ، والترمذى (٣٤٣٥) فى الدعوات ،باب:ما جاء ما يقول عند الكرب، وابن ماجه (٣٨٨٣) فى الدعاء ، باب : عند الكرب .

ومنه حديث بريدة الأسلمى الذى رواه أهل السنن ، وابن حبان فى « صحيحه » : أن رسول الله ﷺ سمع رجلا يدعو وهو يقول : اللهم إنى أسألك بأنى أشهد أنك الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ،فقال: «والذى نفسى بيده،لقد سأل الله باسمه الأعظم ،الذى إذا دُعى به أجاب ،وإذا سئل به أعطى»(١).

وروى أبو داود،والنسائى من حديث أنس: أنه كان مع النبى ﷺ جالساً ورجل يصلى ثم دعا :اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد ،لا إله إلا أنت ،المنان،بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حى يا قيوم . فقال النبى ﷺ:« لقد دعا الله باسمه الأعظم الذى إذا دعى به أجاب ،وإذا سئل به أعطى » (٢).

فأخبر النبى ﷺ أن الدعاء يستجاب إذا تقدمه هذا الثناء والذكر،وأنه اسم الله الأعظم، فكان ذكر الله عز وجل والثناء عليه أنجح ما طلب به العبد حوائجه.

وهذه فائدة أخرى من فوائد الذكر والثناء ، أنه يجعل الدعاء مستجاباً .

فالدعاء الذى يتقدمه الذكر والثناء، أفضل وأقرب إلى الإجابة من الدعاء المجرد،فإن انضاف إلى ذلك إخبار العبد بحاله ومسكنته ، وافتقاره واعترافه ، كان أبلغ فى الإجابة وأفضل،فإنه يكون قد توسل المدعو بصفات كماله وإحسانه وفضله،وعرّض بل صرح بشدة حاجته وضرورته وفقره ومسكنته، فهذا المقتضى منه ،وأوصاف المسؤول مقتضى من الله ، فاجتمع المقتضى من السائل ،والمقتضى من المسؤول فى الدعاء ،وكان أبلغ وألطف موقعاً ، وأتم معرفة وعبودية .

وأنت ترى فى الشاهد ـ ولله المثل الأعلى ـ أن الرجل إذا توسل إلى من يريد معروفه بكرمه وجوده وبره،وذكر حاجته هو ،وفقره ومسكنته ،كان أعطف لقلب المسؤول،وأقرب لقضاء حاجته .

فإذا قال له : أنت جودك قد سارت به الركبان ، وفضلك كالشمس لا تنكر ، ونحو ذلك ، وقد بلغت بى الحاجةوالضرورة مبلغا لا صبر معه ونحو ذلك ، كان أبلَغ فى قضاء حاجته من أن يقول ابتداء : أعطنى كذا وكذا .

---

(١) أبوداود (١٤٩٣) فى الصلاة، باب: الدعاء ،والترمذى (٣٤٧٥) فى الدعوات، باب:جامع الدعوات، وقال : حسن غريب ،وابن ماجه (٣٨٥٧) فى الدعاء ، باب: اسم الله الأعظم ،وابن حبان (٨٨٩) فى الرقائق، باب:الأدعيه.

(٢) أبو داود (١٤٩٥) فى الصلاة ، باب : الدعاء ،والنسائى (١٣٠٠) فى السهو، باب : الدعاء بعد الذكر .

فإذا عرفت هذا ، فتأمل قول موسى ﷺ فى دعائه : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [القصص] وقول ذى النون ﷺ فى دعائه ﴿ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنبياء] ، وقول أبينا آدم ﷺ: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعراف] .

وفى « الصحيحين » : أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال: يا رسول الله ، علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى : فقال :« قل : اللهم إنى ظلمت نفسى ظُلما كثيرًا ،وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى ، إنك أنت الغفور الرحيم » (١).

فجمع فى هذا الدعاء الشريف العظيم القدر ، بين الاعتراف بحاله، والتوسل إلى ربه عز وجل بفضله وجوده ، وأنه المنفرد بغفران الذنوب ، ثم سأل حاجته بعد التوسل بالأمرين معا، فهكذا أدب الدعاء وآداب العبودية .

فصل
فى أن قراءة القرآن أفضل من الذكر

قراءة القرآن أفضل من الذكر ،والذكر أفضل من الدعاء ، هذا من حيث النظر إلى كل منهما مجرداً .

وقد يعرض للمفضول ما يجعله أولى من الفاضل، بل يعينه ، فلا يجوز أن يعدل عنه إلى الفاضل ،وهذا كالتسبيح فى الركوع والسجود ،فإنه أفضل من قراءة القرآن فيهما ، بل القراءة فيهما منهى عنها نهى تحريم أو كراهة ، وكذلك التسميع(٢) والتحميد فى محلهما أفضل من القراءة ، وكذلك التشهد ، وكذلك : « رب اغفر لى وارحمنى واهدنى وعافنى وارزقنى» بين السجدتين أفضل من القراءة، وكذلك الذكر عقيب السلام من الصلاة ـ ذكر التهليل ، والتسبيح،والتكبير ،والتحميد ـ أفضل من الاشتغال عنه بالقراءة ،وكذلك إجابة المؤذن ، والقول كما يقول أفضل من القراءة ،وإن كان فضل القرآن على كل كلام كفضل الله تعالى على خلقه،لكن لكل مقام مقال ، متى فات مقاله فيه وعدل عنه إلى غيره ، اختلت الحكمة ،وفاتت المصلحة المطلوبة منه .

وهكذا الأذكار المقيدة بمحال مخصوص أفضل من القراءة المطلقة ، والقراءة المطلقة أفضل من الأذكار المطلقة ،اللهم إلا أن يعرض للعبد ما يجعل الذكر أو الدعاء أنفع له من

(١) البخارى (٨٣٤) فى الأذان باب:الدعاء قبل السلام،ومسلم (٢٧٠٥ / ٤٨) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب : استحباب خفض الصوت بالذكر .

(٢) أى :سمع الله لمن حمده .

قراءة القرآن، مثاله :

أن يتفكر فى ذنوبه، فيحدث ذلك له توبة واستغفار ، أو يعرض له ما يخاف أذاه من شياطين الإنس والجن ،فيعدل إلى الأذكار والدعوات التى تحصنه وتحوطه .

وكذلك أيضاً قد يعرض للعبد حاجة ضرورية إذا اشتغل عن سؤالها بقراءة أو ذكر لم يحضر قلبه فيهما ،وإذا أقبل على سؤالها والدعاء لها ، اجتمع قلبه كله على الله تعالى ، وأحدث له تضرعاً وخشوعا وابتهالا ، فهذا قد يكون اشتغاله بالدعاء والحالة هذه أنفع ، وإن كان كل من القراءة والذكر أفضل وأعظم أجراً .

وهذا باب نافع يحتاج إلى فقه نفس ،وفرقان بين فضيلة الشىء فى نفسه وبين فضيلته العارضة ، فيعطى كل ذى حق حقه ،ويوضع كل شىء موضعه .

فللعين موضع ،وللرِّجل موضع ،وللماء موضع،وللحم موضع ،وحفظ المراتب هو من تمام الحكمة التى هى نظام الأمر والنهى ،والله تعالى الموفق .

وهكذا الصابون والأشنان ، أنفع للثوب فى وقت ،والتجمير وماء الورد وكيُّه أنفع له فى وقت.

وقلت لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى يوماً : سئل بعض أهل العلم :أيما أنفع للعبد ، التسبيح أو الاستغفار ؟ فقال: إذا كان الثوب نقياً ، فالبخور وماء الورد أنفع له، وإن كان دنساً فالصابون والماء الحار أنفع له ، فقال لى رحمه الله تعالى: فكيف والثياب لا تزال دنسة ؟ .

ومن هذا الباب:أن سورة ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾ [الإخلاص] تعدل ثلث القرآن ،ومع هذا فلا تقوم مقام آيات المواريث، والطلاق، والخلع ،والعدد ونحوها، بل هذه الآيات فى وقتها وعند الحاجة إليها أنفع من تلاوة سورة الإخلاص .

ولما كانت الصلاة مشتملة على القراءة والذكر الدعاء ، وهى جامعة لأجزاء العبودية على أتم الوجوه ، كانت أفضل من كل القراءة والذكر والدعاء بمفرده ،لجمعها ذلك كله مع عبودية سائر الأعضاء.

فهذا أصل نافع جدا ، يفتح للعبد باب معرفة مراتب الأعمال وتنزيلها منازلها ، لئلا يشتغل بمفضولها عن فاضلها،فيربح إبليس الفضل الذى بينهما ،أو ينظر إلى فاضلها فيشتغل به عن مفضولها وإن كان ذلك وقته ، فتفوته مصلحته بالكلية ،لظنه أن اشتغاله بالفاضل أكثر ثوابا وأعظم أجراً .

وهذا يحتاج إلى معرفة بمراتب الأعمال ،وتفاوتها ، ومقاصدها ، وفقه فى إعطاء كل

عمل منها حقه، وتنزيله فى مرتبته ،وتفويته لما هو أهم منه ،أو تفويت ما هو أولى منه وأفضل، لإمكان تداركه والعود إليه ، وهذا المفضول إن فات لا يمكن تداركه ،فالاشتغال به أولى ـ وهذا كترك القراءة لرد السلام ،وتشميت العاطس ـ وإن كان القرآن أفضل ، لأنه يمكنه الاشتغال بهذا المفضول والعود إلى الفاضل ، بخلاف ما إذا اشتغل بالقراءة فاتته مصلحة رد السلام وتشميت العاطس ،وهكذا سائر الأعمال إذا تزاحمت .والله الموفق[١].

فصل
فى أحب الكلام إلى الله عز وجل بعد القرآن

ثبت فى «صحيح مسلم » عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ :« أحب الكلام إلى الله تعالى أربع، لا يضرك بأيهن بدأت :سبحان الله ،والحمد لله ،ولا إله إلا الله ، والله أكبر» [٢].

وفى أثر آخر :« أفضل الكلام بعد القرآن أربع وهن من القرآن:سبحان الله ،والحمد لله ،ولا إله إلا الله ،والله أكبر »[٣].

وفى أثر آخر :« أفضل الكلام ما اصطفى الله لملائكته :سبحان الله وبحمده »[٤].

وفى «الصحيحين » عن أبى هريرة عن النبى ﷺ : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ،حبيبتان إلى الرحمن:سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم »[٥].

فى « صحيح مسلم » عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال:« لأن أقول :سبحان الله، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ،والله أكبر ،أحب إلىَّ مما طلعت عليه الشمس»[٦] .

فصل
فى الذكر المضاعف

فى « صحيح مسلم » عن جويرية أم المؤمنين: أن النبى ﷺ خرج من عندها بكرة حين

---

(١) الوابل الصيب (١٨٢ ـ ١٨٩) .

(٢) مسلم (٢١٣٧ / ١٢) فى الآداب ، باب : كراهية التسمية بالأسماء القبيحة وبنافع ونحوه .

(٣) أحمد (٥/ ٢٠) .

(٤) البخارى (٦٤٠٦) فى الدعوات ، باب : فضل التسبيح .

(٥) ومسلم (٢٦٩٤ / ٣١) فى الذكر والدعاء والاستغفار ، باب : فضل التهليل والتسبيح والدعاء.

(٦) مسلم (٢٦٩٥/ ٣٢) فى الكتاب والباب السابقين .

صلى الصبح وهى فى مسجدها ، ثم رجع بعد أن أضحى وهى جالسة ، فقال: « ما زلت على الحال التى فارقتك عليها ؟» قالت : نعم . فقال النبى ﷺ :« لقد قُلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات ،لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده عدد خلقه، سبحان الله رضا نفسه ، سبحان الله زنة عرشه ،سبحان الله مداد كلماته »(١) .

وعن سعد بن أبى وقاص : أنه دخل مع رسول الله ﷺ على امرأة وبين يديها نوى أو حصى تسبح به فقال :« أخبرك بما هو أيسر عليك من هذا وأفضل» فقال:« سبحان الله الله عدد ما خلق فى السماء ، سبحان اللّه عدد ما خلق فى الأرض ، سبحان اللّه عدد ما بين ذلك ،سبحان الله عدد ما هو خالق ، واللّه أكبر مثل ذلك ،ولا إله إلا اللّه مثل ذلك، والحمد لله مثل ذلك ،ولا حول ولا قوة إلا باللّه مثل ذلك » (٢) .رواه أبو داود والترمذى وقال : حديث حسن(٣) .

فصل
فى أنواع الذكر

الذكر نوعان :

أحدهما :

ذكر أسماء الرب تبارك وتعالى وصفاته ، والثناء عليه بهما ، وتنزيهه وتقديسه عما لا يليق به تبارك وتعالى ، وهذا أيضاً نوعان :

أحدهما : إنشاء الثناء عليه بها من الذكر ، وهذا النوع هو المذكور فى الأحاديث ، نحو:«سبحان اللّه والحمد لله ،ولا إله إلا الله ،والله أكبر » و« سبحان الله وبحمده » ، و « لا إله إلا اللّه وحدهُ لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير » ، ونحو ذلك . فأفضل هذا النوع ، أجمعه للثناء ،وأعمه ، نحو «سبحان اللّه عدد خلقه » ، فهذا أفضل من مجرد « سبحان اللّه » ، وقولك : « الحمد للّه عدد ما خلق فى السماء ، وعدد ما خلق فى الأرض ، وعدد ما بينهما،وعدد ما هو خالق » أفضل من مجرد قولك : «الحمد لله » .

وهذا فى حديث جويرية ، أن النبى ﷺ قال لها :« لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث

(١) مسلم (٢٧٢٦/ ٧٩) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: التسبيح أول النهار .
(٢) أبو داود (١٥٠٠) فى الصلاة ، باب: التسبيح بالحصى واللفظ له ، والترمذى (٣٥٦٨) فى الدعوات ، باب: فى دعاء النبى ﷺ وتعوذه دبر كل صلاة وقال: « حسن غريب ». وقال الألبانى : « منكر » .
(٣) الوابل الصيب (٣٢٤ ـ ٣٢٦) .

مرات ،لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن :سبحان الله وبحمده عدد خلقه ، سبحان الله رضا نفسه ، سبحان الله زنة عرشه ، سبحان الله مداد كلماته » رواه مسلم (١).

وفى الترمذى وسنن أبى داود ،عن سعد بن أبى وقاص: أنه دخل مع رسول الله ﷺ على امرأة بين يديها نوى أو حصى تسبّح بها ، فقال: « أخبرك بما هو أيسر عليك من هذا أو أفضل » فقال: « سبحان الله عدد ما خلق فى السماء ، وسبحان الله عدد ما خلق فى الأرض ، وسبحان الله عدد ما بين ذلك ، وسبحان الله عدد ما هو خالق ، والله أكبر مثل ذلك ، والحمد لله مثل ذلك ، ولا إله إلا الله مثل ذلك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله مثل ذلك » (٢).

النوع الثانى : الخبر عن الرب تعالى بأحكام أسمائه وصفاته ، نحو قولك : الله عز وجل يسمع أصوات عباده ، ويرى حركاتهم ، ولا تخفى عليه خافية من أعمالهم ، وهو أرحم بهم من آبائهم وأمهاتهم ،وهو على كل شىء قدير ، وهو أفرح بتوبة عبده من الفاقد راحلته الواجد ونحو ذلك .

وأفضل هذا النوع : الثناء عليه بما أثنى به على نفسه،وبما أثنى به عليه رسول الله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تشبيه ولا تمثيل .وهذا النوع أيضاً ثلاثة أنواع :حمدٌ ، وثناءٌ ، ومجدٌ .

فالحمد لله الإخبار عنه بصفات كماله سبحانه وتعالى ، مع محبته والرضا به فلا يكون المحب الساكت حامداً،ولا المثنى بلا محبة حامداً حتى تجتمع له المحبة والثناء،فإن كرر المحامد شيئا بعد شىء كانت ثناءً،فإن كان المدح بصفات الجلال العظمة والكبرياء والملك كان مجداً.

وقد جمع الله تعالى لعبده الأنواع الثلاثة فى أول الفاتحة:« فإذا قال العبد: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ قال الله: حمدنى عبدى،وإذا قال: ﴿ **الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** ﴾ قال:أثنى علىّ عبدى، وإذا قال: ﴿ **مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ** ﴾ قال: مجدنى عبدى » (٣) .

النوع الثانى ـ من الذكر:

ذكر أمره ونهيه وأحكامه ،وهو أيضًا نوعان :

أحدهما : ذكره بذلك إخباراً عنه بأنه أمر بكذا ،ونهى عن كذا، وأحب كذا ،وسخط

(١) مسلم (٢٧٢٦ / ٧٩) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: التسبيح أول النهار وعند النوم .

(٢) انظر : تخريجه فى الصفحة السابقة رقم (٢) .

(٣) جزء حديث رواه مسلم (٣٩٥ / ٣٨) فى الصلاة ، باب : وجوب قراءة الفاتحة فى كل ركعة ومالك ١/ ٨٤، ٨٥ (٣٩) فى الصلاة ، باب : القراءة خلف الإمام .

كذا ، ورضى كذا .

والثانى :ذكره عند أمره ،فيبادر إليه ، وعند نهيه فيهرب منه ، فذكر أمره ونهيه شىء، وذكره عند أمره ونهيه شىء آخر، فإذا اجتمعت هذه الأنواع للذاكر فذكره أفضل الذكر وأجلُّه وأعظمه فائدة .

فهذا الذكر من الفقه الأكبر ،وما دونه أفضل الذكر إذا صحت فيه النية .

ومن ذكره سبحانه وتعالى : ذكر آلائه وإنعامه وإحسانه وأياديه، ومواقع فضله على عبيده،وهذا أيضاً من أجل أنواع الذكر.

فهذه خمسة أنواع :

وهى تكون بالقلب واللسان تارة ،وذلك أفضل الذكر .

وبالقلب وحده تارة ، وهى الدرجة الثانية .

وباللسان وحده تارة ، وهى الدرجة الثالثة .

فأفضل الذكر : ما تواطأ عليه القلب واللسان، وإنما كان ذكر القلب وحده أفضل من ذكر اللسان وحده،لأن ذكر القلب يثمر المعرفة ، ويهيج المحبة ، ويثير الحياء ، ويبعث على المخافة،ويدعو إلى المراقبة،ويزع عن التقصير فى الطاعات،والتهاون فى المعاصى والسيئات، وذكر اللسان وحده لا يوجب شيئاً من هذه الآثار ،وإن أثمر شيئاً منها ، فثمرة ضعيفة (١).

فصل
فى حكم رفع الصوت بالذكر

رفع الأصوات بالذكر المشروع مكروه إلا حيث جاءت به السنة كالآذان والتلبية ، وفى الصحيح عن أبى موسى قال: « كنا مع رسول اللّه ﷺ ـ فى سفر ، فكنا إذا علونا ارتفعت أصواتنا بالتكبير فقال : « يا أيها الناس ، اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إنما تدعون سمعيا قريباً،إن الذى تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » (٢) وقد قال تعالى : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥)﴾ [الأعراف] ، وقال :

(١) الوابل الصيب (١٧٨ ـ ١٨١) .

(٢) البخارى (٦٣٨٤) فى الدعوات ، باب : الدعاء إذا علا عقبة ، ومسلم (٢٧٠٤ / ٤٤) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب : استحباب خفض الصوت بالذكر ، وأبو داود (١٥٢٨) فى الصلاة ، باب : فى الاستغفار ، وأحمد ٤ / ٣٩٤ .

﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥)﴾[الأعراف]،وقال تعالى: ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣)﴾[مريم]،وقال الحسن البصرى :« رفع الصوت بالدعاء بدعة » ونص عليه الإمام أحمد وغيره ، وقال قيس بن عباد من كبار التابعين:« كانوا يستحبون خفض الصوت عند الذكر وعند الجنائز وعند القتال» وهذه المواطن الثلاث تطلب فيها النفوس الحركة الشديدة عند الذكر والدعاء لما فيه من الحلاوة ومحبة ذكر اللّه ودعائه وعند الجنائز بالحزن والبكاء وعند القتال بالغضب والحمية .

ومضرة رفع الصوت بذلك أعظم من منفعته ، بل قد يكون ضرراً محضا وإن كانت النفس تشتفى به ، وتبرأ النبى ﷺ من الصالقة ـ وهى التى ترفع صوتها بالمصيبة ـ فكيف بالمغنية التى ترفع صوتها بالغناء ، وأما القتال فالسنة فيه أيضا خفض الصوت .

وأما هذه الدبادب والأبواق والطبول فإنها لم تكن على عهد الخلفاء الراشدين ولا من بعدهم من أمراء المسلمين ، وإنما حدثت من جهة بعض ملوك المشرق من أهل فارس ، وانتشرت فى الأرض وتداولها الملوك حتى ربا فيها الصغير وهرم عليها الكبير لا يعرفون غير ذلك وينكرون على من ينكره .

ويزعم بعض الجهال أن هذا من إحداث عثمان وليس الأمر كذلك ، بل ولا من فعل من بعده من الخلفاء،وإنما ورثته الأمة من الأعاجم ولم يكن منه بد تحقيقاً لقول النبى ﷺ: « لتأخذن أمتى مأخذ الأمم قبلها شبرا بشبر وذراعاً بذراع » فقالوا : فارس والروم قال : « ومن الناس إلا هؤلاء » (١) وكما فى الحديث الآخر : « لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة ،حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه » قالوا: يا رسول اللّه،اليهود النصارى؟ قال :« فمن » (٢) والحديثان فى الصحيح،فأخبر أنه لا بد من أن يكون فى الأمة من يتشبه باليهود والنصارى وبفارس والروم.

وظهور هذا الشبه فى الطوائف إنما يعرفه من عرف الحق وضده وعرف الواجب الواقع،وطابق بين هذا وهذا ،ووازن بين ما عليه الناس اليوم وبين ما كان عليه السلف الصالح، فإذا كان رفع الصوت فى مواطن العبادات بالذكر والدعاء الذى يحبه الله ويرضاه بدعة مكروهة لا يتقرب بها إلى اللّه ، فكيف يكون رفعه بالغناء الذى هو قرآن الشيطان قربة وطاعة ،وقد سماه النبى ﷺ صوتا ،فاجرا أحمق ونهى عنه(٣) .

---

(١) الكلام فى مسألة السماع (٣٤٨ ـ ٣٥١) .

(٢) البخارى (٧٣١٩) فى الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب : قول النبى ﷺ : « لتتبعن سنن من كان قبلكم » .

(٣) أحمد ٤ / ١٢٥ ، والطبرانى فى الكبير ٧ / ٢٨١ (٧١٤٠) وقال الهيثمى فى المجمع (٧ / ٢٦٤) فى الفتن ، باب فى اتباع سنن من مضى : « ورجاله مختلف فيهم » .

فصل
فى أن القرآن والدعاء من أقوى الأسباب في حصول المطلوب ودفع المكروه

وقد أخبر ـ سبحانه ـ عن القرآن أنه شفاء ، فقال تعالى: ﴿ **وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ** ﴾[فصلت: ٤٤]، وقال: ﴿**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الإسراء :٨٢] .

و﴿ **مِن** ﴾ ها هنا لبيان الجنس لا للتبعيض ؛ فإن القرآن كله شفاء ، كما قال فى الآية المتقدمة، فهو شفاء للقلوب من داء الجهل الشك والريب ، فلم ينزل اللّه تعالى من السماء شفاء قط أعم ولا أنفع ولا أعظم ولا أنجع فى إزالة الداء من القرآن .

وقد ثبت فى الصحيحين من حديث أبى سعيد قال: « انطلق نفر من أصحاب النبى ﷺ فى سفرةٍ سافروها ، حتى نزلوا على حى من أحياء العرب فاستضافوهم ، فأبوا أن يضيفوهم. فلدغ سيد ذلك الحى ، فسعوا له بكل شىء لا ينفعه شىء ، فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا ، لعله أن يكون عند بعضهم شىء ، فأتوهم، فقالوا : يا أيها الرهط ، إن سيدنا لدغ ، وسعينا له بكل شىء لا ينفعه شىء . فهل عند أحد منكم من شىء ؟ فقال بعضهم : واللّه إنى لأرقى ، ولكن والله لقد استضفناكم فلم تُضيفونا ، فما أنا براق لكم حتى تجعلوا لى جُعلا ، فصالحوهم على قطيع من الغنم، فانطلق يتفل عليه ويقرأ ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [الفاتحة :٢] فكأنما نشط من عقال. فانطلق يمشى ، وما به قلبة. فأوفوهم جعلهم الذى صالحوهم عليه . فقال بعضهم : اقتسموا ، فقال الذى رقى: لا نفعل حتى نأتى النبى ﷺ فنذكر له الذى كان، فننظر ما يأمرنا. فقدموا على رسول الله ﷺ، فذكروا له ذلك. فقال: «وما يدريك أنها رُقية ؟ » ثم قال : « قد أصبتم ، اقتسموا واضربوا لى معكم سهما » (١).

فقد أثر هذا الدواء فى هذا الداء وأزاله حتى كأنه لم يكن، وهو أسهل دواء وأيسره، ولو أحسن العبد التداوى بالفاتحة لرأى لها تأثيرا عجيباً فى الشفاء .

ومكثت بمكة مدة يعترينى أدواء ولا أجد طبيبًا ولا دواء ، فكنت أعالج نفسى بالفاتحة ، فأرى لها تأثيرًا عجيبًا ، فكنت أصف ذلك لمن يشتكى ألما، فكان كثير منهم يبرأ سريعاً .

---

(١) البخارى (٢٢٧٦) فى الإجارة ، باب : ما يعطى فى الرقية على أحياء العرب بفاتحة الكتاب ، ومسلم (٢٢٠١/ ٦٥) فى السلام ، باب : جواز أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن والأذكار .

ولكن هاهنا أمر ينبغى التفطن له ، وهو أن الأذكار والآيات أو الأدعية التى يستشفى بها ويرقى بها ، هى فى نفسها نافعة شافية . ولكن تستدعى قبول المحل ، وقوة همة الفاعل؛ وتأثيره ، فمتى تخلف الشفاء كان لضعف تأثير الفاعل ، أو لعدم قبول المنفعل ، أو لمانع قوى فيه يمنع أن ينجع فيه الدواء . كما يكون ذلك فى الأدوية والأدواء الحسية؛ فإن عدم تأثيرها قد يكون لعدم قبول الطبيعة لذلك الدواء ، وقد يكون لمانع قوى يمنع من اقتضائه أثره، فإن الطبيعة إذا أخذت الدواء بقبول تام كان انتفاع البدن به بحسب ذلك القبول. فكذلك القلب إذا أخذ الرقى والتعاويز بقبول تام ، وكان للراقى نفس فعالة مؤثرة؛ أثر فى إزالة الداء.

وكذلك الدعاء ، فإنه من أقوى الأسباب فى دفع المكروه وحصول المطلوب ، لكن قد يتخلف عنه أثره ، إما لضعفه فى نفسه ـ بأن يكون دعاء لا يحبه الله ، لما فيه من العدوان ـ وإما لضعف القلب وعدم إقباله على الله وجمعيته عليه وقت الدعاء ، فيكون بمنزلة القوس الرخو جدا ، فإن السهم يخرج منه خروجًا ضعيفا ، وإما لحصول المانع من الإجابة: من أكل الحرام، والظلم، ورين الذنوب على القلوب، واستيلاء الغفلة والسهو واللهو وغلبتها عليها .

كما فى مستدرك الحاكم من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة ، واعلموا أن الله لا يقبل دعاء من قلب غافل لاه » [١].

فهذا دواء نافع مزيل للداء ، ولكن غفلة القلب عن الله تبطل قوته ، وكذلك أكل الحرام يبطل قوته ويضعفها .

كما فى « صحيح مسلم» من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:« أيها الناس، إن الله طيب ، لا يقبل إلا طيبا ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) ﴾[المؤمنون] ، وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾[البقرة: ١٧٢] ، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، يمد يديه إلى السماء : يا رب، يا رب ، يا رب، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام، وملبسه حرام ، وغذى بالحرام ، فأنى يُستجاب لذلك ؟» [٢].

وذكر عبد الله بن الإمام أحمد فى كتاب « الزهد » لأبيه: « أصاب بنى إسرائيل بلاء ، فخرجوا مخرجاً ، فأوحى الله عز وجل إلى نبيهم أن أخبرهم : أنكم تخرجون إلى الصعيد

---

(١) الحاكم فى المستدرك (١ / ٤٩٣) فى الدعاء ، باب : لا يقبل الله دعاء من قلب غافل لاه ، وقال : «مستقيم الإسناد » وتعقبه الذهبى فقال : « صالح متروك » .

(٢) مسلم (١٠١٥ / ٦٥) فى الزكاة، باب : قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها .

بأبدان نجسه ،وترفعون إلى أكفاً قد سفكتم بها الدماء،وملأتم بها بيوتكم من الحرام ،الآن حين اشتد غضبى عليكم ؟ ولن تزدادوا منى إلا بعداً » .

وقال أبو ذر : يكفى من الدعاء مع البر ، ما يكفى الطعام من الملح.

والدعاء من أنفع الأدوية ،وهو عدو البلاء ، يدافعه ويعالجه،ويمنع نزوله، ويرفعه ، أو يخففه إذا نزل ،وهو سلاح المؤمن .

كما روى الحاكم فى صحيحه من حديث على بن أبى طالب ﷺ قال:قال رسول الله: «الدعاء سلاح المؤمن ،وعماد الدين ،ونور السموات والأرض » (١).

وله مع البلاء ثلاث مقامات :

أحدها : أن يكون أقوى من البلاء فيدفعه .

الثانى : أن يكون أضعف من البلاء فيقوى عليه البلاء ،فيصاب به العبد ،ولكن قد يخففه ،وإن كان ضعيفاً .

الثالث : أن يتقاوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه .

وقد روى الحاكم فى صحيحه من حديث عائشة ﵂،قالت: قال لى رسول الله ﷺ : « لا يغنى حذر من قدر، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل ،وإن البلاء لينزل فيلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة » (٢).

وفيه أيضاً من حديث ابن عمر عن النبى ﷺ قال:« الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل فعليكم عباد الله بالدعاء »(٣) .

وفيه أيضًا من حديث ثوبان عن النبى ﷺ:« لا يرد القدر إلا الدعاءُ ،ولا يزيد فى العمر إلا البر ،وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » (٤) (٥) .

---

(١) الحاكم فى المستدرك (١/ ٤٩٢) فى الدعاء ، باب: الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ، وقال: « صحيح ، فإن محمد بن الحسن هذا هو التل ،وهو صدوق فى الكوفيين » ووافقه الذهبى .

(٢) الحاكم فى المستدرك (١/ ٤٩٢) فى الدعاء ،باب :الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل ،وقال :« صحيح الإسناد »، وتعقبه الذهبى فقال :« زكريا مجمع على ضعفه » .

(٣) الحاكم فى المستدرك (١/ ٤٩٣) فى الدعاء ، باب :الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل وسكت عنه وتعقبه الذهبى فقال :« عبد الرحمن واه » .

(٤) الحاكم فى المستدرك (١/ ٤٩٣) فى الدعاء ، باب : لا يرد القدر إلا الدعاء ، وقال: « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ووافقه الذهبى .

(٥) الداء والدواء (١٩ ـ ٢٥) .

وأيضًا

الدعاء من أقوى الأسباب ، إذا قدر وقوع المدعو به بالدعاء لم يصح أن يقال: لا فائدة فى الدعاء ،كما لا يقال: لا فائدة فى الأكل والشرب وجميع الحركات والأعمال. وليس شىء من الأسباب أنفع من الدعاء ،ولا أبلغ فى حصول المطلوب .

ولما كان الصحابة ﷺ أعلم الأمة بالله ورسوله ﷺ وأفقههم فى دينه ،كانوا أقوم بهذا السبب وشروطه وآدابه من غيرهم .

وكان عمر بن الخطاب ﷺ يستنصرون به على عدوه ، وكان أعظم جنديه ، وكان يقول لأصحابه : « لستم تنصرون بكثرة ،وإنما تنصرون من السماء »،وكان يقول: « إنى لا أحمل هم الإجابة ولكن هم الدعاء ، فإذا ألهمتم الدعاء فإن الإجابة معه ، وأخذ الشاعر هذا المعنى فنظمه ، فقال :

لو لم ترد نيل ما أرجو وأطلبه   من جود كفيك ما عودتنى الطلبا

فمن ألهم الدعاء فقد أريد به الإجابة ،فإن اللّه سبحانه يقول: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] ، وقال: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦]

وفى سنن ابن ماجه من حديث أبى هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ : « من لم يسأل اللّه يغضب عليه » (١).

وهذا يدل على أن رضاءه فى سؤاله وطاعته . وإذا رضى الرب تبارك وتعالى فكل خير فى رضاه ، كما أن كل بلاء ومعصية فى غضبه .

وقد ذكر الإمام أحمد فى « كتاب الزهد » أثرا :« أنا الله ،لا إله إلا أنا ، إذا رضيت باركت ، وليس لبركتى منتهى ، وإذا غضبت لعنت ، ولعنتى تبلغ السابع من الولد » .

ولقد دل العقل والنقل والفطرة وتجارب الأمم ـ على اختلاف أجناسها ومللها ونحلها ـ على أن التقرب إلى رب العالمين ، وطلب مرضاته ، والبر والإحسان إلى خلقه من أعظم الأسباب الجالبة لكل خير وأضدادها من أكبر الأسباب الجالبة لكل شر ، فما استجلبت نعم الله تعالى واستدفعت نقمته بمثل طاعته والتقرب إليه ، والإحسان إلى خلقه (٢) .

---

(١) ابن ماجه (٣٨٢٧) فى الدعاء ، باب : فضل الدعاء بلفظ : « من لم يدع الله يغضب عليه ».

(٢) الداء والدواء (٣٧ ـ ٣٩) .

فصل
فى آداب دعاء العبادة ودعاء المسألة

قوله عز وجل : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۝٥٥ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ۝٥٦ ﴾ [الأعراف] هاتان الآيتان مشتملتان على آداب نوعى الدعاء: دعاء العبادة ودعاء المسألة ، فإن الدعاء فى فى القرآن يراد به هذا تارة وهذا تارة ،ويراد به مجموعهما وهما متلازمان .فإن دعاء المسألة : هو طلب ما ينفع الداعى ،وطلب كشف ما يضره أو دفعه ، وكل من يملك الضر والنفع فإنه هو المعبود حقا ، والمعبود لا بد وأن مالكا للنفع والضر ؛ ولهذا أنكر الله تعالى على عبد من دونه مالا يملك ضرا ولا نفعا ، وذلك كثير فى القرآن كقوله تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ ﴾ [يونس:١٨]،وقوله تعالى: ﴿وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ ﴾[يونس:١٠٦] ،وقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٧٦ ﴾[المائدة]،وقوله تعالى: ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلايَضُرُّكُمْ ۝٦٦ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [الأنبياء] ، وقوله تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ۝٦٩ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ۝٧٠ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ۝٧١ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝٧٢ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ۝٧٣ ﴾ [الشعراء] ، وقوله تعالى: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا ۝٣ ﴾[الفرقان] ، وقال تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ۝٥٥ ﴾ [الفرقان]، فنفى سبحانه عن هؤلاء المعبودين من دونه النفع والضر القاصر والمتعدى فلا يملكونه لأنفسهم ولا لعابديهم ، وهذا فى القرآن كثير بين أن المعبود لا بد أن يكون مالكا للنفع والضر ، فهو يدعى للنفع والضر دعاء المسألة ويدعى خوفاً ورجاء دعاء العبادة .

فعلم أن النوعين متلازمان ، فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة ، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦] يتناول نوعى الدعاء ،وبكل منهما فسرت الآية ، قيل:أعطيه إذا سألنى ، وقيل : أثيبه إذا عبدنى،والقولان متلازمان ، وليس هذا من

استعمال اللفظ المشترك فى معنييه كليهما ،أو استعمال اللفظ فى حقيقته ومجازه ،بل هذا استعمال له فى حقيقته الواحدة المتضمنة للأمرين جميعاً فتأمله،فإنه موضع عظيم النفع قل من يفطن له،وأكثر ألفاظ القرآن الدالة على معنيين فصاعدا هى من هذا القبيل ، ومثال ذلك قوله: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ [الإسراء: ٧٨] ، فسر الدلوك : بالزوال ، وفسر بالغروب : وحكيا قولين فى كتب التفسير وليسا بقولين ، بل اللفظ يتناولهما معا ،فإن الدلوك : هو الميل ، ودلوك الشمس ميلها؛ ولهذا الميل مبدأ ومنتهى، فمبدؤه الزوال ومنتهاه الغروب ، فاللفظ متناول لهما بهذا الاعتبار لا بتناول المشترك لمعنييه ولا اللفظ لحقيقته ومجازه ، ومثاله أيضا تفسير الغاسق بالليل والقمر وإن ذلك ليس باختلاف بل يتناولهما لتلازمهما فإن القمر آية الليل ونظائره كثيرة .

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴾[الفرقان:٧٧]، قيل: لولا دعاؤكم إياه ، وقيل : دعاؤه إياكم إلى عبادته،فيكون المصدر مضافا إلى المفعول ، وعلى الأول مضافا إلى الفاعل وهو الأرجح من القولين ، وعلى هذا فالمراد به نوعا الدعاء وهو فى دعاء العبادة أظهر،أى ما يعبؤ بكم ربى لولا أنكم تعبدونه .وعبادته تستلزم مسألته، فالنوعان داخلان فيه .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[غافر: ٦٠]،فالدعاء يتضمن النوعين وهو فى دعاء العبادة أظهر ،ولهذا عقبه بقوله:﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر]، فسر الدعاء فى الآية بهذا وهذا ، وقد روى سفيان عن منصور،عن ذر،عن نسيع الكندى ، عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر : « إن الدعاء هو العبادة » ثم قرأ : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ . إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ رواه الترمذى وقال: حديث حسن صحيح[1] .وأما قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾ [الحج :٧٣] ،وقوله:﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا ﴾ [النساء: ١١٧]، وقوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾ [فصلت: ٤٨] ،وكل موضع ذكر فيه دعاء المشركين لأصنامهم وآلهتهم، فالمراد به دعاء العبادة المتضمن دعاء المسألة، فهو فى دعاء العبادة أظهر لوجوه ثلاثة :

---

(١) الترمذى (٣٣٧٢) فى الدعوات ، باب : ما جاء فى فضل الدعاء .

أحدها : أنهم قالوا: إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى فاعترفوا بأن دعاءهم إياهم هو عبادتهم لهم .

الثانى : أن اللّه تعالى فسر هذا الدعاء فى مواضع أخر بأنه العبادة كقوله: ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ (٩٣) ﴾ [الشعراء] وقوله : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وقوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) ﴾[الكافرون]، وهو كثير فى القرآن، فدعاؤهم لآلهتهم هو عبادتهم لها.

الثالث : أنهم إنما كانوا يعبدونها ويتقربون بها إلى اللّه ، فإذا جاءتهم الحاجات والكربات والشدائد دعوا اللّه وحده وتركوها ، ومع هذا فكانوا يسألونها بعض حوائجهم، ويطلبون منها ، وكان دعاؤهم لها دعاء عبادة ودعاء مسألة .

وقوله تعالى: ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [غافر: ١٤] هو دعاء العبادة والمعنى : اعبدوه وحده وأخلصوا عبادته ، لا تعبدوا معه غيره .

وأما قول إبراهيم الخليل ﷺ: ﴿ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) ﴾ [إبراهيم] فالمراد بالسمع هنا السمع الخاص وهو سمع الإجابة والقبول لا السمع العام، لأنه سميع لكل مسموع ، وإذا كان كذلك فالدعاء هنا يتناول دعاء الثناء ودعاء الطلب وسمع الرب تبارك وتعالى له إثابته على الثناء وإجابته للطلب ، فهو سميع لهذا وهذا .

وأما قول زكريا :﴿وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) ﴾ [مريم] فقد قيل : إنه دعاء المسألة، والمعنى : إنك عودتنى إجابتك وإسعافك ولم تشقنى بالرد والحرمان ، فهو توسل إليه تعالى بما سلف من إجابته وإحسانه ،كما حكى أن رجلا سأل رجلا وقال: أنا الذى أحسنتَ إلىَّ وقت كذا وكذا ، فقال: مرحبا بمن توسل إلينا بنا ، وقضى حاجته ، وهذا ظاهر ههنا ويدل عليه أنه قدم ذلك أمام طلبه الولد ، وجعله وسيلة إلى ربه ، فطلب منه أن يجاريه على عادته التى عوده من قضاء حوائجه وإجابته إلى ما سأله .

وأما قوله تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ [الإسراء: ١١٠] ، فهذا الدعاء المشهور ، وأنه دعاء المسألة ، وهو سبب النزول قالوا: كان النبى ﷺ يدعو ربه فيقول مرة : يا الله ، ومرة : يا رحمن فظن الجاهلون من المشركين أنه يدعو إلهين ، فأنزل اللّه تعالى هذه الآية ، قال ابن عباس: سمع المشركون النبى ﷺ يدعو فى سجوده يا رحمن ، يا رحيم ، فقالوا : هذا يزعم أنه يدعو واحدا ، وهو يدعو مثنى مثنى ، فأنزل اللّه هذه الآية : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ﴾، وقيل: إن الدعاء ههنا بمعنى التسمية ، كقولهم دعوت ولدى سعيدا ، وادعه بعبد اللّه ونحوه. والمعنى: سموا اللّه أو سموا الرحمن ، فالدعاء ههنا بمعنى التسمية ،وهذا قول الزمخشرى. والذى حمله على

هذا قوله: ﴿ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾، فإن المراد بتعدده معنى أى وعمومها ههنا تعدد الأسماء ليس إلا ،والمعنى . أى اسم سميتموه به من أسماء الله تعالى إما الله وإما الرحمن فله الأسماء الحسنى ، أى فللمسمى سبحانه الأسماء الحسنى ،والضمير فى (له) يعود إلى المسمى ، فهذا الذى أوجب له أن يحمل الدعاء فى هذه الآية على التسمية ،وهذا الذى قاله هو من لوازم المعنى المراد بالدعاء فى الآية ، وليس هو عين المراد ، بل المراد بالدعاء معناه المعهود المطرد فى القرآن ،وهو دعاء السؤال ودعاء الثناء ،ولكنه متضمن معنى التسمية ، فليس المراد مجرد التسمية الخالية عن العبادة والطلب، بل التسمية الواقعة فى دعاء الثناء والطلب ، فعلى هذا المعنى يصح أن يكون فى (تدعوا) معنى: تسموا ، فتأمله .والمعنى: أياما تسموا فى ثنائكم ودعائكم وسؤالكم والله أعلم .

وأما قوله تعالى :﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨) ﴾ [الطور] ، فهذا دعاء العبادة المتضمن للسؤال رغبة ورهبة ، والمعنى : إنا كنا من قبل نخلص له العبادة ، وبهذا استحقوا أن وقاهم عذاب السموم لا بمجرد السؤال المشترك بين الناجى وغيره ،فإن الله ـ سبحانه ـ يسأله من فى السموات ومن فى الأرض ،والفوز والنجاة إنما هى بإخلاص العبادة لا بمجرد السؤال والطلب ،وكذلك قول الفتية أصحاب الكهف: ﴿ رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا ﴾ [الكهف: ١٤] أى: لن نعبد غيره،وكذلك قوله تعالى: ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) ﴾[الصافات] ،وأما قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (٦٤) ﴾ [القصص] فهذا من دعاء المسألة يبكتهم الله عز وجل ويخزيهم يوم القيامة بإراءتهم أن شركاءهم لا يستجيبون لدعوتهم، وليس المراد :اعبدوهم ،وهو نظير قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾[الكهف: ٥٢].

وهذا التقرير نافع فى مسألة الصلاة وأنها :هل نقلت عن مسماها فى اللغة فصارت حقيقة شرعية منقولة ،أو استعملت فى هذه العبادة مجازا للعلاقة بينها وبين المسمى اللغوى، أو هى باقية على الوضع اللغوى وضم إليها أركان وشرائط ؟ وعلى ما قررناه لا حاجة إلى شىء من ذلك ، فإن المصلى من أول صلاته إلى آخرها لا ينفك عن دعاء،إما دعاء عبادة وثناء أو دعاء طلب ومسأله ، وهو فى الحالين داع ، فما خرجت الصلاة عن حقيقة الدعاء ، فتأمله، إذا عرف هذا فقوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ [الأعراف: ٥٥] يتناول نوعى الدعاء لكنه ظاهر فى دعاء المسألة متضمن دعاء العبادة ؛ ولهذا أمر بإخفائه وإسراره . قال الحسن : بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفاً ، ولقد كان المسلمون يجتهدون فى الدعاء وما يسمع لهم صوت إن كان إلا همسا بينهم وبين ربهم،

وذلك أن اللّه تعالى يقول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ وإن اللّه ذكر عبدا صالحا ورضى بفعله فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ③﴾ [مريم] [١] .

فصل
فى أنفع الدعـاء

الناس فى هذين الأصلين ـ وهما العبادة والاستعانة ـ أربعة أقسام .

أجلها وأفضلها: أهل العبادة والاستعانة باللّه عليها ، فعبادة اللّه غاية مرادهم ، وطلبهم منه أن يعينهم عليها ، ويوفقهم للقيام بها ؛ ولهذا كان من أفضل ما يُسأل الرب تبارك وتعالى: الإعانة على مرضاته ، وهو الذى علَّمه النبى ﷺ لحبه معاذ بن جبل رضي الله عنه فقال: «يا معاذ ، واللّه إنى لأحبك ، فلا تنس أن تقول دبر كل صلاة : اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » [٢].

فأنفع الدعاء : طلب العون على مرضاته ، وأفضل المواهب: إسعافه بهذا المطلوب ، وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا ، وعلى دفع ما يضاده ، وعلى تكميله وتيسير أسبابه. فتأملها .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس اللّه روحه: تأملت أنفع الدعاء: فإذا هو سؤال العون على مرضاته ، ثم رأيته فى الفاتحة فى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ⑤﴾ [الفاتحة]، ومقابل هؤلاء : القسم الثانى . وهم المعرضون عن عبادته والاستعانة به. فلا عبادة ولا استعانة ، بل إن سأله أحدهم واستعان به ، فعلى حظوظه وشهواته ، لا على مرضاة ربه وحقوقه ، فإنه ـ سبحانه ـ يسأله من فى السموات والأرض : يسأله أولياؤه وأعداؤه ، ويمدٌّ هؤلاء وهؤلاء. وأبغض خلقه : عدوه إبليس ، ومع هذا فقد سأله حاجة فأعطاه إياها ، ومتعه بها ، ولكن لما لم تكن عوناً له على مرضاته ، كانت زيادة له فى شقوته ، وبعده عن اللّه وطرده عنه . وهكذا كل من استعان به على أمر وسأله إياه ، ولم يكن عوناً على طاعته : كان مبعداً له عن مرضاته ، قاطعًا له عنه ولا بد .

وليتأمل العاقل هذا فى نفسه وفى غيره. وليعلم أن إجابة اللّه لسائليه ليست لكرامة

(١) بدائع الفوائد (٣ / ٢ ـ ٦) .

(٢) سبق تخريجه ص ١٨٢ .

السائل عليه ، بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها له ، وفيها هلاكه وشقوته . ويكون قضاؤها له من هوانه عليه ، وسقوطه من عينه. ويكون منعه منها لكرامته عليه ومحبته له . فيمنعه حماية وصيانة وحفظا ، لا بخلا، وهذا إنما يفعله بعبده الذى يريد كرامته ومحبته ويعامله بلطفه، فيظن ـ بجهله ـ أن اللّه لا يحبه ولا يكرمه ، ويراه يقضى حوائج غيره ، فيسىء ظنه بربه ، وهذا حشو قلبه ولا يشعر به . والمعصوم من عصمه اللّه ، والإنسان على نفسه بصيرة ، وعلامة هذا : حمله على الأقدار . وعتابه الباطن لها ، كما قيل :

وعاجز الرأى مضياع لفرصته ... حتى إذا فات أمر عاتب القدرا

فواللّه لو كشف عن حاصله وسره لرأى هناك معاتبة القدر واتهامه ، وأنه قد كان ينبغى أن يكون كذا وكذا ، ولكن ما حيلتى ، والأمر ليس إلىّ ؟ والعاقل خصم نفسه ، والجاهل خصم أقدار ربه .

فاحذر كل الحذر أن تسأله شيئاً معيناً خيرته وعاقبته مغيبة عنك ، وإذا لم تجد من سؤاله بدا ، فعلقه على شرط علمه تعالى فيه الخيرة ، وقدم بين يدى سؤالك الاستخارة،ولا تكن استخارة باللسان بلا معرفة ، بل استخارة من لا علم له بمصالحه ، ولا قدرة له عليها ،و لا اهتداء له إلى تفاصيلها ، ولا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، بل إن وكل إلى نفسه هلك كل الهلاك ، وانفرط عليه أمره .

وإذا أعطاك ما أعطاك بلا سؤال : تسأله أن يجعله عوناً لك على طاعته وبلاغاً إلى مرضاته،ولا يجعله قاطعاً لك عنه ،ولا مبعداً عن مرضاته ،ولا تظن أن عطاءه كل ما أعطى لكرامة عبده عليه؛ولا منعه كل ما يمنعه لهوان عبده عليه،ولكن عطاؤه ومنعه ابتلاء وامتحان ،يمتحن بهما عباده ، قال اللّه تعالى: ﴿ **فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلاَّ** ﴾[الفجر] أى ليس كل من أعطيته ونعمته وخولته: فقد أكرمته ،وماذاك لكرامته على. ولكنه ابتلاء منى ، وامتحان له : أيشكرنى فأعطيه فوق ذلك ، أم يكفرنى فأسلبه إياه ، وأخوّل فيه غيره ؟ وليس كل من ابتليته فضيقت عليه رزقه ، وجعلته بقدر لا يفضل عنه ، فذلك من هوانه علىّ ، ولكنه ابتلاء وامتحان مني له : أيصبر ؟ فأعطيه أضعاف أضعاف ما فاته من سعة الرزق ، أم يتسخط ، فيكون حظه السخط .

فرد اللّه ـ سبحانه ـ على من ظن أن سعة الرزق إكرام ،و أن الفقر إهانة ، فقال : لم أبتل عبدى بالغنى لكرامته علىّ ، ولم أبتله بالفقر لهوانه علىّ . فأخبر أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرزق وتقديره، فإنه ـ سبحانه ـ يوسع على الكافر لا لكرامته،

ويقتِّر على المؤمن لا لإهانته ، إنما يكرم من يكرمه بمعرفته ومحبته وطاعته، ويهين من يهينه بالإعراض عنه ومعصيته ، فله الحمد على هذا وعلى هذا، هو الغنى الحميد .فعادت سعادة الدنيا والآخرة إلى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾(١) .

فصل
فى الأخذ بوسائل قبول الدعاء

لما كان سؤال الله الهداية إلى الصراط المستقيم أجل المطالب ونيله أشرف المواهب ، علم الله عباده كيفية سؤاله،وأمرهم أن يقدموا بين يديه حمده والثناء عليه وتمجيده ،ثم ذكر عبوديتهم وتوحيدهم فهاتان وسليتان إلى مطلوبهم:توسل إليه بأسمائه وصفاته، وتوسل إليه بعبوديته،وهاتان الوسيلتان لا يكاد يرد معهما الدعاء ويؤيدهما الوسيلتان المذكورتان فى حديثى الاسم الأعظم اللذين رواهما ابن حبان فى صحيحه والإمام أحمد والترمذى .

أحدهما :حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: سمع النبى ﷺ رجلا يدعو ويقول: اللهم إنى إسألك بأنى أشهد أنك الله الذى لا إله إلا أنت، الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.فقال:« والذى نفسى بيده ، لقد سأل الله باسمه الأعظم الذى إذا دعى به أجاب ،وإذا سئل به أعطى » (٢) . قال الترمذى :حديث صحيح . فهذا توسل إلى الله بتوحيده وشهادة الداعى له بالوحدانية وثبوت صفاته المدلول عليها باسم «الصمد»، وهو كما قال ابن عباس :« العالم الذى كمل علمه ، القادر الذى كملت قدرته» .

وفى رواية عنه:« هو السيد الذى قد كمل فيه جميع أنواع السؤدد »،وقال أبو وائل:«هو السيد الذى انتهى سؤدده » وقال سعيد بن جبير :« هو الكامل فى جميع صفاته وأفعاله وأقواله » ،وبنفى التشبيه والتمثيل عنه بقوله:« ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾ [الإخلاص] ، وهذه ترجمة عقيدة أهل السنة والتوسل بالإيمان بذلك والشهادة به هو الاسم الأعظم .

والثانى : حديث أنس : أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يدعو : اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنّان ، بديع السموات والأرض ذا الجلال والإكرام يا حى يا قيوم فقال:« لقد سأل الله باسمه الأعظم » (٣) . فهذا توسل إليه بأسمائه وصفاته ، وقد جمعت الفاتحة الوسيلتين ، وهما : التوسل بالحمد والثناء عليه وتمجيده ، والتوسل إليه بعبوديته

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٧٨ ـ ٨٠) .

(٢ ، ٣) سبق تخريجهما ص ٢٤٣ .

وتوحيده ، ثم جاء سؤال أهم المطالب وأنجح الرغائب - وهو الهداية بعد الوسيلتين ، فالداعى به حقيق بالإجابة ونظير هذا دعاء النبى ﷺ الذى كان يدعو به إذا قام يصلى من الليل . رواه البخارى فى صحيحه من حديث ابن عباس : « اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت الحق ، ووعدك حق ،ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، والساعة حق ، ومحمد حق . اللهم لك أسلمت ،و بك آمنت ،وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ،وإليك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت ،وما أسررت وما أعلنت ، أنت إلهى لا إله إلا أنت »[١] فذكر التوسل إليه بحمده والثناء عليه وبعبوديته له ثم سأله المغفرة [٢].

وأيضا

إذا جُمع مع الدعاء حضور القلب وجمعيته بكليته على المطلوب ، وصادف وقتاً من أوقات الإجابة الستة وهى :

الثلث الأخير من الليل ، وعند الأذان ، وبين الأذان والإقامة ، وأدبار الصلوات المكتوبات ، وعند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتى تقضى الصلاة من ذلك اليوم ، وآخر ساعة بعد العصر .

وصادف خشوعاً فى القلب ،وانكساراً بين يدى الرب ، وذلاً له وتضرعا ورقة .

واستقبل الداعى القبلة .

وكان على طهارة .

ورفع يديه إلى الله .

وبدأ بحمد الله والثناء عليه .

ثم ثنى بالصلاة على محمد عبده ورسوله .

ثم قدّم بين يدى حاجته التوبة والاستغفار .

ثم دخل على الله ، وألح عليه المسألة ، وتملقه ودعاه رغبة ورهبة .

وتوسّل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده .

وقدّم بين يدى دعائه صدقة ، فإن هذا الدعاء لا يكاد يرد أبدا .

---

(١) البخارى (١١٢٠) فى التهجد ، باب: التهجد بالليل .   (٢) مدارج السالكين (١ / ٢٣) .

ولا سيما إن صادف الأدعية التى أخبر النبى ﷺ أنها مظنة الإجابة ، أو أنها متضمنة للاسم الأعظم .

فمنها ما فى السنن وصحيح ابن حبان من حديث عبد اللّه بن بريدة عن أبيه أن رسول اللّه ﷺ سمع رجلا يقول: اللهم إنى أسألك بأنى أشهد أنك أنت اللّه لا إله إلا أنت ، الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . فقال: « لقد سأل اللّه بالاسم الذى إذا سُئل به أعطى ، وإذا دعى به أجاب » وفى لفظ: « لقد سألت اللّه باسمه الأعظم »(١) .

فى السنن وصحيح ابن حبان أيضاً من حديث أنس بن مالك: أنه كان مع رسول اللّه ﷺ جالسا ورجل يصلى ، ثم دعا فقال: اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا حى يا قيوم . فقال النبى ﷺ : « لقد دعا اللّه باسمه العظيم ، الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى »(٢) .

وأخرج الحديثين الإمام أحمد فى مسنده .

وفى جامع الترمذى ، من حديث أسماء بنت يزيد أن النبى ﷺ قال: « اسم اللّه الأعظم فى هاتين الآيتين : ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (١٦٣)﴾ [البقرة] وفاتحة آل عمران ﴿الٓمٓ (١) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢)﴾» وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح(٣) .

وفى مسند الإمام أحمد وصحيح الحاكم من حديث أبى هريرة وأنس بن مالك وربيعة ابن عامر عن النبى ﷺ أنه قال: « ألظُّوا بياذا الجلال الإكرام »(٤) ، يعنى تعلقوا بها والزموها وداوموا عليها .

وكثيرا ما نجد أدعية دعا بها قوم فاستجيب لهم ، ويكون قد اقترن بالدعاء ضرورة صاحبه وإقباله على اللّه ، أو حسنة تقدمت منه جعل اللّه ـ سبحانه ـ إجابة دعوته شكراً لحسنته ، أو صادف وقت إجابة ونحو ذلك فأجيبت دعوته ، فيظن الظان أن السر فى لفظ ذلك الدعاء ، فيأخذه مجرداً عن تلك الأمور التى قارنته من ذلك الداعى . وهذا كما إذا استعمل رجل دواء نافعا ، فى الوقت الذى ينبغى استعماله ، على الوجه الذى ينبغى، فانتفع به ، فظن غيره أن استعمال هذا الدواء بمجرده كاف فى حصول المطلوب، كان

(١ ، ٢) سبق تخريجهما ص ٢٤٣ .

(٣) الترمذى (٣٤٧٨) فى الدعوات ، باب : (٦٥) .

(٤) أحمد (٤ / ١٧٧) ، والحاكم فى المستدرك (١/ ٤٩٩) ، فى الدعاء ، باب: ألظوا بياذا الجلال والإكرام ، وقال: « صحيح » ، ووافقه الذهبى .

غالطا، وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس .

ومن هذا أنه قد يتفق دعاؤه باضطرار عند قبر فيجاب ، فيظن الجاهل أن السر للقبر، ولم يعلم أن السر للاضطرار وصدق اللجأ إلى اللّه ، فإذا حصل ذلك فى بيت من بيوت الله ، كان أفضل وأحب إلى اللّه .

والأدعية والتعوذات بمنزلة السلاح ،والسلاح بضاربه، لابحدّه فقط .فمتى كان السلاح سلاحاً لا آفة به ،والساعد ساعد قوى، والمانع مفقود،حصلت به النكاية فى العدو، ومتى تخلف واحد من هذه الثلاثة تخلف التأثير. فإذا كان الدعاء فى نفسه غير صالح، أو الداعى لم يجمع بين قلبه ولسانه فى الدعاء،أو كان ثمّ مانع من الإجابة ،لم يحصل الأثر (١).

فائدة
فى قوله ﷺ : « اتقوا اللّه وأجملوا فى الطلب» (٢)

جمع النبى ﷺ فى قوله:«فاتقوا اللّه وأجملوا فى الطلب» بين مصالح الدنيا والآخرة،ونعيمها ولذاتها إنما ينال بتقوى اللّه،وراحة القلب والبدن وترك الاهتمام والحرص الشديد والتعب والعناد والكد والشقاء فى طلب الدنيا ، إنما ينال بالإجمال فى الطلب فمن اتقى الله فاز بلذة الآخرة ونعيمها ومن أجمل فى الطلب استراح من نكد الدنيا وهمومها ، فالله المستعان .

قد نادت الدنيا على نفسها ... لو كان فى ذا الخلق من يسمع
كم واثق بالعيش أهلكته ... وجامع فرقت ما يجمع

فصل
فى الأخذ بالأسباب مع الدعاء

سمع بعض أهل العلم رجلا يدعو بالعافية فقال له: يا هذا استعمل الأدوية ، وادع بالعافية فإن اللّه تعالى إذا كان قد جعل إلى العافية طريقا وهو التداوى . ودعوته بالعافية ربما كان جوابه : قد عافيتك بما جعلته ووضعته سببا للعافية ، وما هذا إلا بمثابة من بين زرعه وبين الماء ثلمة يدخل منها الماء يسقى زرعه ، فجعل يصلى ويستسقى لزرعه ويطلب

---

(١) الداء والدواء (٢٧ ـ ٣٠ ، ٣٤ ، ٣٥) .

(٢) ابن ماجه (٢١٤٤) فى التجارات ، باب: الاقتصاد فى طلب المعيشة ، وفى الزوائد : « إسناده ضعيف ؛ لأن فيه الوليد بن مسلم وابن جريج وكل منهما يدلس » .

المطر ، مع قدرته على فتح تلك الثلمة لسقى زرعه ، فإن ذلك لا يحسن منه شرعا ولا عقلا، ولم يكن ذلك إلا لأنه سبق بإعطاء الأسباب ، فهو إعطاء بأحد الطريقين ، وله أن يعطى بسبب وبغير سبب،وبالسبب ليتبين به ما أفاض من صنعه، وما أودع فى مخلوقاته من القوى والطبائع والمنافع ، وإعطاؤه بغير سبب ليتبين للعباد أن القدرة غير مفتقرة إلى واسطة فى فعله، فإذا دعوته بالعافية فاستنقذ ما أعطاك من العتائد والأرزاق ، فإن وصلت بها وإلا فاطلب طلب من أفلس من مطلوبه فرغب إلى المعدن ، كما قال سيد الخلائق :« اللهم هذا قسمى فيما أملك ، فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك »[(١)] قلت : هذا كلام حسن، وأكمل منه أن يبذل الأسباب ، ويسأل سؤال من لم يدل بشىء البتة .

والناس فى المقام أربعة أقسام :

فأعجزهم من لم يبذل السبب ولم يكثر الطلب ، فذاك أمهن الخلق .

والثانى :مقابله وهو أحزم الناس من أدلى بالأسباب التى نصبها اللّه مفضية إلى المطلوب، وسأل سؤال من لم يدل بسبب أصلا،بل سؤال مفلس بائس ليس له حيلة ولا وسيلة.

الثالث :من استعمل الأسباب وصرف همته إليها ، وقصر نظره عليها، فهذا وإن كان له حظ مما رتبه اللّه عليها ولكنه منقوص منقطع نصب الآفات المعارضات ، لا يحصل له إلا بعد جهد ، فإذا حصل فهو وشيك الزوال سريع الانتقال غير معقب له توحيدا ولا معرفة، ولا كان سببا لفتح الباب بينه وبين معبوده .

الرابع : مقابله وهو رجل نبذ الأسباب وراء ظهره ، وأقبل على الطلب والدعاء والابتهال فهذا يحمد فى موضع ويذم فى موضع ويشينه الأمر فى موضع . فيحمد عند كون تلك الأسباب غير مأمور بها ، إذ فيها مضرة عليه فى دينه ، فإذا تركها وأقبل على السؤال والابتهال والتضرع للّه كان محمودا ، ويذم حيث كانت الأسباب مأموراً بها فتركها وأقبل على الدعاء ، كمن حصره العدو وأمره بجهاده ،فترك جهاده وأقبل على الدعاء والتضرع أن يصرفه اللّه عنه ،وكمن جهده العطش وهو قادر على تناول الماء ، فتركه أقبل يسأل اللّه تعالى أن يرويه ، وكمن أمكنه التداوى الشرعى فتركه وأقبل يسأل العافية ، ونظائر هذا . يشتبه الأمر فى الأسباب التى لا يتبين له عواقبها وفيها بعض الاشتباه ولها لوازم قد يعجز عنها ، وقد يتولد عنها ما يعود بنقصان دينه ، فهذا موضع اشتباه وخطر، والحاكم فى ذلك كله الأمر ، فإن خفى فالاستخارة وأمر اللّه وراء ذلك [(٢)].

---

(١) أبو داود (٢١٣٤) فى النكاح ، باب : فى القسم بين النساء ، والترمذى (١١٤٠) فى النكاح ، باب : ما جاء فى التسوية بين الضرائر ، والنسائى (٣٩٤٣) فى عشرة النساء ، باب : ميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض ، وابن ماجه (١٩٧١) فى النكاح ، باب : القسم بين النساء ، وأحمد ٦/ ١٤٤ ، وضعفه الألبانى .

(٢) بدائع الفوائد (٣ / ١٧٨ ـ ١٨٠) .

فصل
فى الدعاء بأطيب ما فى الدنيا والآخرة

قد جمع النبى صلى اللّه تعالى عليه وسلم بين هذين الأمرين فى الدعاء الذى رواه النسائى والإمام أحمد ، وابن حبان فى صحيحه وغيرهم ، من حديث عمار بن ياسر : أن رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وسلم كان يدعو به : « اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق ، أحينى ما علمت الحياة خيرا لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى، وأسألك خشيتك فى الغيب الشهادة، وأسألك كلمة الحق فى الغضب والرضا، وأسألك القصد فى الفقر والغنى وأسألك نعيما لا ينفدُ ، وأسألك قُرّة عين لا تنقطع ، وأسألك الرضا بعد القضاء ، وأسألك برْد العيش بعد الموت ، وأسألك لذة النظر إلى وجهك ، وأسألك الشوق إلى لقائك ، فى غير ضراء مُضرّة ، ولا فتنة مضلة ، اللهم زينا بزينة الإيمان ، واجعلنا هُداة مهتدين »[1].

فجمع فى هذا الدعاء العظيم القدر بين أطيب شىء فى الدنيا ، وهو الشوق إلى لقائه ـ سبحانه ـ وأطيب شىء فى الآخرة ، وهو النظر إلى وجهه ـ سبحانه ـ ولما كان كل ذلك وتمامه موقوفاً على عدم ما يضر فى الدنيا ويفتن فى الدين قال: « فى غير ضرَّاء مُضرّة ولا فتنة مُضلة » .

ولما كان كمال العبد فى أن يكون عالما بالحق متبعا له معلما لغيره ، مرشداً له قال : « واجْعَلْنَا هُداةً مهتَدين » .

ولما كان الرضا النافع المحصل للمقصود هو الرضا بعد وقوع القضاء لا قبله ، فإن ذلك عزم على الرضا ، فإذا وقع القضاء انفسخ ذلك العزم ، سأل الرضا بعده ، فإن المقدور يكتنفه أمران : الاستخارة قبل وقوعه ، والرضا بعد وقوعه. فمن سعادة العبد أن يجمع بينهما ، كما فى المسند وغيره عنه صلى اللّه تعالى عليه وآله وسلم : « إن من سعادة ابن آدم استخارة اللّه ورضاه بما قضى اللّه، وإن من شقاوة ابن آدم ترك استخارة اللّه ، وسخطه بما قضى اللّه تعالى»[2].

---

(١) النسائى (١٣٠٥ ، ٣١٠٦) فى السهو ، باب: نوع آخر ، وأحمد (٤/ ٢٦٤) ، وابن حبان (١٩٦٨) فى صفة الصلاة ، باب: دعاء المرء فى الصلاة بما ليس فى كتاب اللّه .

(٢) الترمذى (٢١٥١) فى القدر باب :ما جاء فى الرضا بالقضاء وقال :« غريب »، وأحمد (١/ ١٦٨) ،وقال: « غريب »، وقال الشيخ أحمد شاكر (١٤٤٤) : « إسناده ضعيف » .

ولما كانت خشية اللّه عزّ وجل رأس كل خير فى المشهد والمغيب ، سأله خشيته فى الغيب والشهادة .

ولما كان أكثر الناس إنما يتكلم بالحق فى رضاه ،فإذا غضب أخرجه غضبه إلى الباطل، وقد يدخله أيضاً رضاه فى الباطل ، سأل اللّه عز وجل أن يوفقه لكلمة الحق فى الغضب والرضا ، ولهذا قال بعض السلف : لا تكن ممن إذا رضى أدخله رضاه فى الباطل، وإذا غضب أخرجه غضبه من الحق .

ولما كان الفقر والغنى بليلتين ومحنتين ، يبتلى اللّه بهما عبده ، ففى الغنى يبسط يده ، وفى الفقر يقبضها ، سأل اللّه عز وجل القصد فى الحالين، وهو التوسط الذى ليس معه إسراف ولا تقتير .

ولما كان النعيم نوعين : نوعا للبدن . ونوعا للقلب وهو قرة العين ، وكماله بدوامه واستمراره ، جمع بينهما فى قوله : « أسألك نعيما لا ينفد ، وقرة عين لا تنقطع » .

ولما كانت الزينة زينتين : زينة البدن ، وزينة القلب ، وكانت زينة القلب أعظمهما قدراً وأجلهما خطراً ،وإذا حصلت زينة البدن على أكمل الوجوه فى العُقْبى ،سأل ربه الزينة الباطنة فقال:« زينا بزينة الإيمان » .

ولما كان العيش فى هذه الدار لا يبرد لأحد كائناً من كان ، بل هو محشو بالغصص والنكد ،ومحفوف بالآلام الباطنة والظاهرة ، سأل برد العيش بعد الموت .

والمقصود : أنه جمع فى هذا الدعاء بين أطيب ما فى الدنيا ،وأطيب ما فى الآخرة، فإن حاجة العباد إلى ربهم فى عبادتهم إياه وتأليههم له ،كحاجتهم إليه فى خلقه لهم ، ورزقه إياهم ،ومعافاة أبدانهم ،وستر عوراتهم ، وتأمين روعاتهم ، بل حاجتهم إلى تأليهه ومحبته وعبوديته أعظم،فإن ذلك هو الغاية المقصودة لهم،لا صلاح لهم ولا نعيم ولا فلاح ولا لذة ولا سعادة بدون ذلك بحال ،ولهذا كانت « لا إله إلا اللّه » أحسن الحسنات ، وكان توحيد الإلهية رأس الأمر ،أما توحيد الربوبية الذى أقر به المسلم والكافر ،وقرره أهل الكلام فى كتبهم ، فلا يكفى وحده ، بل هو الحجة عليهم ، كما بين ذلك ـ سبحانه ـ فى كتابه الكريم فى عدة مواضع ؛ولهذا كان حق اللّه على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، كما فى الحديث الصحيح الذى رواه معاذ بن جبل رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: « أتدرى ما حق اللّه على عباده ؟ » قلت : اللّه ورسوله أعلم ، قال: « حقه على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً » ، أتدرى ما حق العباد على اللّه إذا فعلوا ذلك ؟ » قلت : اللّه

ورسوله أعلم ،قال: «حقهم عليه ألا يعذبهم بالنار» (١)؛ ولذلك يحب ـ سبحانه ـ عباده المؤمنين الموحدين ويفرح بتوبتهم ،كما أن فى ذلك أعظم لذة العبد وسعادته ونعيمه ،فليس فى الكائنات شيء غير اللّه عز وجل يسكن القلب إليه،ويطمئن به ويأنس به ،ويتنعم بالتوجه إليه ،ومن عبد غيره ـ سبحانه ـ وحصل له به نوع منفعة ولذة ، فمضرته بذلك أضعاف أضعاف منفعته ،وهو بمنزلة أكل الطعام المسموم اللذيذ ،وكما أن السموات والأرض لو كان فيهما آلهة غيره سبحانه لفسدتا، كما قال تعالى :﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا** ﴾ [الأنبياء :٢٢] فكذلك القلب إذا كان فيه معبود غير اللّه تعالى فسد فسادا لا يرجى صلاحه إلا بأن يخرج ذلك المعبود منه،ويكون اللّه تعالى وحده إلهه ومعبوده الذى يحبه ويرجوه ،ويخافه ويتوكل عليه وينيب إليه(٢) .

فصل
فى فوائد إخفاء الدعاء

وفى إخفاء الدعاء فوائد عديدة .

أحدها : أنه أعظم إيمانا ،لأن صاحبه يعلم أن اللّه يسمع دعاء الخفى وليس كالذى قال: إن اللّه يسمع إن جهرنا ، ولا يسمع أن أخفينا !

وثانيها : أنه أعظم فى الأدب والتعظيم ، ولهذا لا تخاطب الملوك ولا تسأل برفع الأصوات ، وإنما تخفض عندهم الأصوات، ويخف عندهم الكلام بمقدار ما يسمعونه ، ومن رفع صوته لديهم مقتوه ، وللّه المثل الأعلى ،فإذا كان يسمع الدعاء الخفى ،فلا يليق بالأدب بين يديه إلا خفض الصوت به.

وثالثها : أنه أبلغ فى التضرع والخشوع الذى هو روح الدعاء ولبه ومقصوده ، فإن الخاشع الذليل الضارع إنما يسأل مسألة مسكين ذليل قد انكسر قلبه وذلت جوارحه ، وخشع صوته ، حتى إنه ليكاد تبلغ به ذلته و سكنته وكسره وضراعته إلى أن ينكسر لسانه

---

(١) البخارى (٢٨٥٦) فى الجهاد والسير ، باب: اسم الفرس والحمار ، ومسلم (٢٩ / ٥٠) فى الإيمان ، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا ،والترمذى (٢٦٤٣) فى الإيمان ، باب: ما جاء فى افتراق هذه الأمة ، وأحمد (٥/ ٢٣٠) .

(٢) إعلام الموقعين (١ / ٢٨ ـ ٣٠) .

فلا يطاوعه بالنطق، فقلبه سائل طالب مبتهل ، ولسانه لشدة ذله وضراعته ومسكنته ساكت ، وهذه الحالة لا يتأتى معها رفع الصوت بالدعاء أصلا .

ورابعها : أنه أبلغ فى الإخلاص .

وخامسها : أنه أبلغ فى جمعية القلب على اللّه فى الدعاء ، فإن رفع الصوت يفرقه ويشتته ، فكلما خفض صوته كان أبلغ فى صمده وتجريد همته وقصده للمدعو سبحانه وتعالى .

وسادسها: وهو من النكت السرية البديعة جدا : أنه دال على قرب صاحبه من اللّه ، وأنه لاقترابه منه وشدة حضوره يسأله مسألة أقرب شيء إليه فيسأله مسألة مناجاة القريب للقريب، لا مسألة نداء البعيد للبعيد ، ولهذا أثنى ـ سبحانه ـ على عبده زكريا بقوله : ﴿**إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا** (٣)﴾ [مريم] فكلما استحضر القلب قرب اللّه تعالى منه ، وأنه أقرب إليه من كل قريب ، وتصور ذلك أخفى دعاءه ما أمكنه ، ولم يتأت له رفع الصوت به ، بل يراه غيرمستحسن ، كما أن من خاطب جليسا له يسمع خفى كلامه فبالغ فى رفع الصوت استهجن ذلك منه ، وللّه المثل الأعلى ـ سبحانه .

وقد أشار النبى ﷺ إلى هذا المعنى بعينه بقوله فى الحديث الصحيح ، لما رفع الصحابة أصواتهم بالتكبير ، وهم معه فى السفر ، فقال: « اربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، إنكم تدعون سميعا قريباً، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته »(١) ، وقال تعالى: ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** ﴾ [البقرة :١٨٦] ، وقد جاء أن سبب نزولها أن الصحابة قالوا: يا رسول اللّه، ربنا قريب فنناجيه أم بعيد فنناديه ، فأنزل اللّه عز وجل : ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** ﴾(٢) وهذا يدل على إرشادهم للمناجاة فى الدعاء لا للنداء الذى هو رفع الصوت ، فإنهم عن هذا سألوا ، فأجيبوا بأن ربهم تبارك وتعالى قريب لا يحتاج فى دعائه وسؤاله إلى النداء ، وإنما يسأل مسألة القريب المناجى ، لا مسألة البعيد المنادى . وهذا القرب من الداعى هو قرب خاص ليس قربا عاما من كل أحد ، فهو قريب من داعيه وقريب من عابده ، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، وهو أخص من قرب الإنابة وقرب الإجابة الذى لم يثبت أكثر المتكلمين سواه ، بل هو قرب خاص من الداعى والعابد ، كما قال النبى ﷺ راويا عن ربه تبارك وتعالى: « من تقرب منى شبرا تقربت منه ذراعا ، ومن تقرب منى

---

(١) سبق تخريجه ص ٢٤٩ .

(٢) ابن جرير فى التفسير ٢/ ٩٢ .

ذراعاً تقربت منه باعا »[1]، فهذا قربه من عابده ، وأما قربه من داعيه وسائله فكما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[البقرة :١٨٦] وقوله :﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ [الأعراف: ٥٥] فيه الإشارة والإعلام بهذا القرب. وأما قربه تبارك وتعالى من محبه فنوع آخر ،وبنوع آخر ، وشأن آخر ،كما قد ذكرناه فى كتاب التحفة المكية ، على أن العبارة تنبو عنه ،ولا تحصل فى القلب حقيقة معناه أبدا ، لكن بحسب قوة المحبة وضعفها يكون تصديق العبد بهذا القرب ، وإياك ثم إياك أن تعبر عنه بغير العبارة النبوية أو يقع فى قلبك غير معناها ومرادها ، فتزل قدم بعد ثبوتها ، وقد ضعف تمييز خلائق فى هذا المقام ، وساء تعبيرهم فوقعوا فى أنواع من الطامات والشطح وقابلهم من غلظ حجابهم فأنكر محب العبد لربه جملة وقربه منه وأعاد ذلك إلى مجرد الثواب المخلوف فهو عنده المحبوب القريب ليس إلا وقد ذكرنا من طرق الرد على هؤلاء وهؤلاء فى كتاب التحفة أكثر من مائة طريق والمقصود ههنا الكلام على هذه الآية .

وسابعها: أنه أدعى إلى دوام الطلب والسؤال ، فإن اللسان لا يمل ، والجوارح لا تتعب، بخلاف ما إذا رفع صوته فإنه قد يكل لسانه ، وتضعف بعض قواه . وهذا نظير من يقرأ ويكرر رافعاً صوته ، فإنه لا يطول له ذلك ، بخلاف من يخفض صوته .

وثامنها : أن إخفاء الدعاء أبعد له من القواطع والمشوشات والمضعفات ،فإن الداعى إذا أخفى دعاءه لم يدر به أحد فلا يحصل هناك تشويش ولا غيره ،وإذا جهر به تفطنت له الأرواح الشريرة والباطولية والخبيثة من الجن والإنس فشوشت عليه ولا بد ، وما نعته وعارضته ، ولو لم يكن إلا أن تعلقها به يفرق عليه همته فيضعف أثر الدعاء لكفى ،ومن له تجربة يعرف هذا ، فإذا أسر الدعاء وأخفاه أمن هذه المفسدة.

وتاسعها: أن أعظم النعم الإقبال على الله والتعبد له،والانقطاع إليه، والتبتل إليه، ولكل نعمة حاسد على قدرها دقت أو جلت ، ولا نعمة أعظم من هذه النعمة ، فأنفس الحاسدين المنقطعين متعلقة بها ، وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد ، وألا يقصد إظهارها له . وقد قال يعقوب ليوسف: ﴿ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ ﴾ [يوسف] ،وكم من صاحب قلب وجمعية وحال مع الله قد تحدث بها وأخبر بها فسلبه إياها الأغيار ، فأصبح يقلب كفيه ؛ ولهذا يوصى العارفون والشيوخ بحفظ السر مع الله وألا يطلعوا عليه أحدا ، ويتكتمون به غاية التكتم

---

(١) البخارى (٨٥٣٧) فى التوحيد ، باب: ذكر النبى ﷺ وروايته عن ربه ، ومسلم (٢٦٧٥ / ١) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب : فضل الحث على ذكر الله تعالى ، والترمذى (٣٦٠٣) فى الدعوات ، باب : فى حسن الظن بالله عز وجل ، وابن ماجه (٣٨٢١) فى الأدب ، باب: فضل العمل ، وأحمد (٢٥١/٢) .

كما أنشد بعضهم فى ذلك :

من سارروه فأبدى السر مجتهدا   لم يأمنوه على الأسرار ما عاشا
وأبعدوه فلم يظفر بقربهم   وأبدلوه مكان الأنس إيحاشا
لا يأمنون مذيعا بعض سرهم   حاشا ودادهم من ذلكم حاشا

والقوم أعظم شيء كتمانا لأحوالهم مع الله ،ولا سيما للمبتدى والسالك ، فإذا تمكن أحدهم وقوى وثبتت أصول تلك الشجرة الطيبة التى أصلها ثابت وفرعها فى السماء فى قلبه بحيث لا يخشى عليه من العواصف ، فإنه إذا أبدى حاله شأنه مع اللّه ليقتدى به ويؤتم به لم يبال . وهذا باب عظيم النفع ، وإنما يعرفه أهله . وإذا كان الدعاء المأمور بإخفائه يتضمن دعاء الطلب والثناء والمحبة والإقبال على اللّه ، فهو من أعظم الكنوز التى هى أحق بالإخفاء والستر عن أعين الحاسدين ،وهذه فائدة شريفة نافعة .

وعاشرها : أن الدعاء هو ذكر للمدعو ـ سبحانه ـ متضمن للطلب منه والثناء عليه بأسمائه وأوصافه ، فهو ذكر وزيادة ، كما أن الذكر سمى دعاء لتضمنه الطلب ، كما قال النبى ﷺ : « أفضل الدعاء الحمد للّه » (١) فسمى الحمد للّه دعاء وهو ثناء محض ؛ لأن الحمد يتضمن الحب والثناء ؛ والحب أعلا أنواع الطلب للمحبوب ، فالحامد طالب لمحبوبه فهو أحق أن يسمى داعيا من السائل الطالب من ربه حاجة ما، فتأمل هذا الموضع ولا تحتاج إلى ما قيل: إن الذاكر متعرض للنوال وإن لم يكن مصرحاً بالسؤال ، فهو داع بما تضمنه ثناؤه من التعرض ، كما قال أمية بن أبى الصلت :

أأذكر حاجتى أم قد كفانى   حياؤك إن شيمتك الحياء
إذا أثنى عليك المرء يوما   كفاه من تعرضه الثناء

وعلى هذه الطريقة التى ذكرناها فنفس الحمد والثناء متضمن لأعظم الطلب وهو طلب المحب ،فهو دعاء حقيقة،بل أحق أن يسمى دعاء من غيره من أنواع الطلب الذى هو دونه، والمقصود : أن كل واحد من الدعاء والذكر يتضمن الآخر ويدخل فيه ،وقد قال تعالى: **﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾** [الأعراف:٢٠٥] فأمر تعالى نبيه أن يذكره فى نفسه . قال مجاهد وابن جريج : أمر أن يذكروه فى الصدور بالتضرع والاستكانة دون رفع الصوت أو الصياح ،وقد تقدم حديث أبى موسى : كنا مع النبى ﷺ

---

(١) الترمذى (٣٣٨٣) فى الدعوات ، باب: ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة ، وقال : « غريب » ، وابن ماجه (٣٨٠٠) فى الأدب ، باب: فضل الحامدين .

فى سفر فارتفعت أصواتنا بالتكبير فقال: « يا أيها الناس ، أربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، إنما تدعون سميعا قريبا أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته »[1] .

وتأمل كيف قال فى آية الذكر: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَة﴾ [الأعراف: ٢٠٥] وفى آية الدعاء : ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَة﴾[الأعراف: ٥٥]، فذكر التضرع فيهما معاً وهو التذلل والتمسكن والانكسار وهو روح الذكر والدعاء، وخص الدعاء بالخفية لما ذكرنا من الحكم وغيرها ،وخص الذكر بالخفية لحاجة الذاكر إلى الخوف، فإن الذكر يستلزم المحبة ويثمرها ولابد،فمن أكثر من ذكر الله أثمر له ذلك محبته ،والمحبة ما لم تقرن بالخوف فإنها لا تنفع صاحبها ، بل قد تضره لأنها توجب الإدلال والانبساط ، وربما آلت بكثير من الجهال المغرورين إلى أنهم استغنوا بها عن الواجبات وقالوا : المقصود من العبادات إنما هو عبادة القلب وإقباله على الله ومحبته له وتألهه له ، فإذا حصل المقصود فالاشتغال بالوسيلة باطل .

ولقد حدثنى رجل أنه أنكر على رجل من هؤلاء خلوة له ترك فيها حضور الجمعة، فقال له الشيخ : أليس الفقهاء يقولون : إذا خاف على شىء من ماله فإن الجمعة تسقط عنه؟ فقال له : بلى ، فقال له : فقلب المريد أعز عليه من ضياع عشرة دراهم أو كما قال: وهو إذا خرج ضاع قلبه فحفظُه لقلبه عذرٌ مسقط للجمعة فى حقه فقال له : هذا غرور بل الواجب عليه الخروج إلى أمر الله ، وحفظ قلبه مع الله ، فالشيخ المربى العارف يأمر المريد بأن يخرج إلى الأمر ،ويراعى حفظ قلبه أو كما قال .

فتأمل هذا الغرور العظيم كيف آل بهؤلاء إلى الانسلاخ عن الإسلام جملة فإن من سلك هذا المسلك انسلخ عن الإسلام العام كانسلاخ الحية من قشرها ، وهو يظن أنه من خاصته الخاصة ،وسبب هذا عدم اقتران الخوف من الله بحبه وإرادته ؛ ولهذا قال بعض السلف : من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق ،ومن عبده بالخوف وحده فهو حرورى، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء ، فهو مؤمن . وقد جمع تعالى هذه المقامات الثلاث بقوله : ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧] فابتغاء الوسيلة هو محبته الداعية إلى التقرب إليه ،ثم ذكر بعدها الرجاء والخوف ،فهذه طريقة عباده وأوليائه، وربما آل الأمر بمن عبده بالحب المجرد إلى استحلال المحرمات ،ويقول: المحب لا يضره ذنب .

---

(١) سبق تخريجه ص ٢٤٩ .

وصنف بعضهم فى ذلك مصنفا وذكر فيه أثرا مكذوبا: « إذا أحب اللّه العبد لم تضره الذنوب » ،وهذا كذب قطعا ،مناف للإسلام ، فالذنوب تضر بالذات لكل أحد كضرر السم للبدن لو قدر أن هذا الكلام صح عن بعض الشيوخ ، وأما عن رسول اللّه ﷺ فمعاذ اللّه من ذلك فله محمل وهو أنه إذا أحبه لم يدعه حبه إياه إلى أن يصر على ذنب؛ لأن الإصرار على الذنب مناف لكونه محبا للّه ،وإذا لم يصر على الذنب بل بادر إلى التوبة النصوح منه فإنه يمحى أثره ، ولا يضره الذنب،وكلما أذنب وتاب إلى اللّه زال عنه أثر الذنب وضرره ، فهذا المعنى صحيح .

والمقصود أن تجريد الحب والذكر عن الخوف يوقع فى هذه المعاطب،فإذا اقترن بالخوف جمعه على الطريق ورده إليها كلما شرد ،فكأن الخوف سوط يضرب به مطيته لئلا تخرج عن الدرب ،والرجاء حاد يحدوها يطيب لها السير، والحب قائدها وزمامها الذى يسوقها ، فإذا لم يكن للمطية سوط ولا عصا يردها إذا حادت عن الطريق ،وتركت تركب التعاسيف، خرجت عن الطريق وضلت عنه .فما حفظت حدود اللّه ومحارمه ،ووصل الواصلون إليه بمثل خوفه ورجائه ومحبته ،فمتى خلا القلب عن هذه الثلاثة فسد فسادا لا يرجى صلاحه أبدا، ومتى ضعف فيه شيء من هذه ضعف إيمانه بحسبه ، فتأمل أسرار القرآن وحكمته فى اقتران الخيفة بالذكر والخفية بالدعاء ، مع دلالته على اقتران الخيفة بالدعاء والخيفة بالذكر أيضا ، فإنه قال: ﴿ **وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ** ﴾[الأعراف:٢٠٥] فلم يحتج بعدها أن يقول: خفية، وقال فى الدعاء: ﴿ **وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا** ﴾ [الأعراف: ٥٦] فلم يحتج أن يقول فى الأول: ادعوا ربكم تضرعاً وخفية فانتظمت كل واحدة من الآيتين للخيفة والخفية والتضرع أحسن انتظام، ودلت على ذلك أكمل دلالة ، وذكر الطمع الذى هو الرجاء فى آية الدعاء؛ لأن الدعاء مبنى عليه ،فإن الداعى ما لم يطمع فى سؤله ومطلوبه لم تتحرك نفسه لطلبه ، إذ طلب مالا طمع فيه ممتنع ، وذكر الخوف فى آية الذكر لشدة حاجة الخائف إليه ،فذكر فى كل آية ما هو اللائق بها والأولى بها من الخوف والطمع فتبارك من أنزل كلامه شفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين (١).

---

(١) بدائع الفوائد (٣/٦ ـ ١٢) .

فصل
فى الإلحاح فى الدعاء

ومن أنفع الأدوية : الإلحاح فى الدعاء .

وقد روى ابن ماجه فى سننه من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ :«من لم يسأل الله يغضب عليه» (١).

وفى صحيح الحاكم من حديث أنس عن النبى ﷺ :« لا تعجزوا فى الدعاء، فإنه لا يهلك مع الدعاء أحد » (٢).

وذكر الأوزاعى عن الزهرى عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : «إن الله يحب الملحين فى الدعاء » (٣).

وفى « كتاب الزهد » للإمام أحمد عن قتادة قال: قال مُورّق: ما وجدت للمؤمن مثلا إلا رجلا فى البحر على خشبة، فهو يدعو: يا رب يا رب ،لعل الله عز وجل أن ينجيه(٤).

فصل
فى أنه « لا حول ولا قوة إلا بالله »

ليس فى الوجود الممكن سبب واحد مستقل بالتأثير ، بل لا يؤثر سبب البتة إلا بانضمام سبب آخر إليه وانتفاء مانع يمنع تأثيره . هذا فى الأسباب المشهودة بالعيان ، وفى الأسباب الغائبة والأسباب المعنوية كتأثير الشمس فى الحيوان والنبات فإنه موقوف على أسباب أخر ،من وجود محل قابل ، وأسباب أخر تنضم إلى ذلك السبب .وكذلك حصول الولد موقوف على عدة أسباب غير وطء الفحل ، وكذلك جميع الأسباب مع مسبباتها ، فكل ما يخاف ويرجى من المخلوقات فأعلى غاياته أن يكون جزء سبب غير مستقل بالتأثير، ولا يستقل بالتأثير وحده دون تأثيره على غيره إلا الله الواحد القهار ، فلا ينبغى أن يرجى ولا يخاف غيره .وهذا برهان قطعى على أن تعلق الرجاء والخوف بغيره باطل؛ فإنه لو

(١) سبق تخريجه ص٢٥٤ .

(٢) الحاكم فى المستدرك (١ / ٤٩٤) فى الدعاء ، باب: لا يهلك مع الدعاء أحد، وقال: « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ، وقال الذهبى « لا أعرف عمراً تعبت عليه » . .

(٣) الضعفاء الكبير (٤/٤٥٢) ، الكامل فى ضعفاء الرجال (٧/ ١٦٤) ، وقال الألبانى « باطل » .

(٤) الزهد للإمام أحمد ،الوابل الصيب (٢٥ ، ٢٦).

فرض أن ذلك سبب مستقل وحده بالتأثير لكانت سببيته من غيره لا منه ، فليس له من نفسه قوة يفعل بها ، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله ،فهو الذى بيده الحول كله والقوة كلها،فالحول والقوة التى يرجى لأجلهما المخلوق ويخاف إنما هما لله وبيده فى الحقيقة. فكيف يخاف ويرجى من لا حول له ولا قوة،بل خوف المخلوق ورجاؤه أحد أسباب الحرمان ونزول المكروه ممن يرجوه ويخافه ؛فإنه على قدر خوفك من غير الله يسلط عليك، وعلى قدر رجائك لغيره يكون الحرمان.وهذا حال الخلق أجمعه وإن ذهب عن أكثرهم علما وحالا ، فما شاء الله كان ولا بد وما لم يشأ لم يكن ولو اتفقت عليه الخليقة (١).

فصل
فى تأثير « لا إله إلا الله » عند الموت

لشهادة « أن لا إله إلا الله » عند الموت تأثير عظيم فى تكفير السيئات وإحباطها ؛ لأنها شهادة من عبد موقن بها عارف بمضمونها ، قد ماتت منه الشهوات ولانت نفسه المترددة ، وانقادت بعد إبائها واستعصائها ، وأقبلت بعد إعراضها وذلت بعد عزها ، وخرج منها حرصها على الدنيا وفضولها ، واستخزت بين يدى ربها وفاطرها ومولاها الحق أذل ما كانت وأرجى ما كانت لعفوه ومغفرته ورحمته . وتجرد منها التوحيد بانقطاع أسباب الشرك وتحقق بطلانه ، فزالت منها تلك المنازعات التى كانت مشغولة بها ، واجتمع همها على من أيقنت بالقدوم عليه والمصير إليه، فوجه العبد وجهه بكليته إليه ،وأقبل بقلبه وروحه وهمه عليه ، فاستسلم وحده ظاهرا وباطنا ،واستوى سره وعلانيته فقال: لا إله إلا الله ، مخلصا من قلبه . وقد تخلص قلبه من التعليق بغيره والالتفات إلى ما سواه . قد خرجت الدنيا كلها من قلبه وشارف القدوم على ربه ، وخمدت نيران شهوته ، وامتلأ قلبه من الآخرة فصارت نصب عينيه ،وصارت الدنيا وراء ظهره ،فكانت تلك الشهادة الخالصة خاتمة عمله، فطهرته من ذنوبه،وأدخلته على ربه؛ لأنه لقى ربه بشهادة صادقة :خالصة، وافق ظاهرها باطنها ، وسرها علانيتها ، فلو حصلت له الشهادة على هذا الوجه فى أيام الصحة لاستوحش من الدنيا وأهلها ،وفر إلى الله من الناس ،وأنس به دون ما سواه ، لكنه شهد بها بقلب مشحون بالشهوات وحب الحياة وأسبابها ،ونفس مملوءة بطلب الحظوظ والالتفات إلى غير الله .فلو تجردت كتجردها. عند الموت،لكان لها نبأ آخر وعيش آخر سوى عيشها البهيمى ، والله المستعان .

(١) الفوائد (٧١ ، ٧٢) .

ماذا يملك من أمره من ناصيته بيد الله ونفسه بيده ، وقلبه بين أصبعين من أصابعه يقلبه كيف يشاء ، وحياته بيده وموته بيده ، وسعادته بيده ، وشقاوته بيده ، وحركاته وسكناته وأقواله وأفعاله بإذنه ومشيئته . فلا يتحرك إلا بإذنه ، ولا يفعل إلا بمشيئته إن وكله إلى نفسه وكله إلى عجز وضيعة وتفريط وذنب وخطيئة و إن وكله إلى غيره وكله إلى من لا يملك له ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، وإن تخلى عنه استولى عليه عدوه وجعله أسيرا له ، فهو لا غنى له عنه طرفة عين ، بل هو مضطر إليه على مدى الأنفاس فى كل ذرة من ذراته باطنا وظاهرا ، فاقته تامة إليه ، ومع ذلك فهو متخلف عنه معرض عنه ، يتبغض إليه بمعصيته ،مع شدة الضرورة إليه من كل وجه ، قد صار لذكره نسيا واتخذه وراءه ظهريا ،هذا وإليه مرجعه وبين يديه موقفه(١) .

فصل
فى سيد الاستغفار

فى الحديث الصحيح حديث : « سيد الاستغفار ،أن يقول العبد : اللهم إنك ربى لا إله إلا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استعطت، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علىّ وأبوء بذنبى ، فاغفر لى، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . من قالها إذا أصبح موقناً بها فمات من يومه دخل الجنة ،ومن قالها إذا أمسى موقناً بها فمات من ليلته دخل الجنة » (٢).

وفى حديث أبى بكر الصديق من طريق أبى هريرة وعبد الله بن عمر :أن رسول الله ﷺ علمه ما يقوله إذا أصبح ،وإذا أمسى،وإذا أخذ مضجعه:« اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة ، رب كل شيء ومليكه ، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسى وشر الشيطان وشركه ، وأن أقترف على نفسى سوءًا أو أجره إلى مسلم. قله إذا أصبحت ،وإذا أمسيت ،وإذا أخذت مضجعك » (٣).

وكان النبى ﷺ يقول فى خطبته:« الحمد لله ، نستعينه ونستغفره ،ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا »(٤) .

---

(١) الفوائد (٧٦ ـ ٧٧)

(٢) البخارى (٦٣٠٦) فى الدعوات ، باب : أفضل الاستغفار ، والترمذى (٣٣٩٣) فى الدعوات ، باب (١٥) .

(٣) الترمذى (٣٥٢٩) فى الدعوات ، باب (٩٥) ، وقال : « حسن غريب من هذا الوجه » ،وأحمد ١/ ١٤ .

(٤) الهيثمى فى المجمع (٢ / ١٩١) وقال : « رواه الطبرانى فى الكبير ، ورجاله ثقات » .

وقد قال النبى ﷺ : « إنى آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تهافتون تهافت الفراش »[١] ، شبههم بالفراش لجهله وخفة حركته ، وهى صغيرة النفس ؛ فإنها جاهلة سريعة الحركة .

وفى الحديث : « مثل القلب مثل ريشة ملقاة بأرض فلاة »[٢] وفى حديث آخر : « للقلب أشد تقلبا من القدر إذا استجمعت غلياناً »[٣]. ومعلوم سرعة حركة الريشة وسرعة حركة القدر مع الجهل، ولهذا يقال لمن أطاع من يغويه : إنه استخفه . قال عن فرعون : « إنه استخف قومه فأطاعوه » [٤] ، وقال تعالى : ﴿ **فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ** (٦٠) ﴾ [الروم] فإن الخفيف لا يثبت بل يطيش ، وصاحب اليقين ثابت ، يقال : أيقن إذا كان مستقراً ، واليقين : استقرار الإيمان فى القلب علماً وعملاً، فقد يكون علم العبد جيداً لكن نفسه لا تصبر عند المصائب بل تطيش .

قال الحسن البصرى : إذا شئت أن ترى بصيراً لا صبر له رأيته ، وإذا شئت أن ترى صابراً لا بصيرة له رأيته ، فإذا رأيت بصيراً صابرا فذاك ، قال تعالى : ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** (٢٤) ﴾ [السجدة] .

ولهذا تشبه النفس بالنار فى سرعة حركتها وإفسادها وغضبها ، وشهوتها من النار والشيطان من النار .

فى السنن عن النبى ﷺ أنه قال : « الغضب من الشيطان والشيطان من النار ، وإنما تطفأ النار بالماء ، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ » [٥]. وفى الحديث الآخر : « الغضب جمرة توقد فى جوف ابن آدم » [٦]، ألا ترى إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه ، وهو غليان دم القلب لطلب الانتقام . وفى الحديث المتفق على صحته : « الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم » [٧].

وفى الصحيحين : أن رجلين استبا عند النبى ﷺ وقد اشتد غضب أحدهما ، فقال النبى ﷺ : « إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد ، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » [٨] ، وقد قال تعالى : ﴿ **ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ**

---

(١) البخارى (٦٤٨٣) فى الرقاق ، باب : الانتهاء عن المعاصى ، ومسلم (٢٢٨٥ / ١٩) فى الفضائل ، باب : شفقته ﷺ على أمته ، ومبالغته فى تحذيرهم مما يضرهم .

(٢) الهيثمى فى المجمع (٢/ ٢٩٦) ، وقال : « رواه البزار وفيه أحمد بن عبد الجبار العطاردى ، وثقه الدارقطنى وغيره ، وقال ابن عدى ، رأيت أهل العراق مجمعين على ضعفه » .

(٣) أحمد ٦/ ٤ ، وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٢١٤) : « رواه الطبرانى بأسانيد ورجال أحدها ثقات » .

(٤) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ **فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ** ﴾ [الزخرف :٥٤]

(٥) أحمد ٤ / ٢٢٦ .

(٦) الترمذى (٢١٩١) فى الفتن ، باب (٢٦) وقال : « حسن صحيح » ، وأحمد ٣ / ١٩ .

(٧) البخارى (٧١٧١) فى الأحكام ، باب : الشهادة تكون عند الحاكم فى ولاية القضاء أو قبل ذلك الخصم .

(٨) انظر : مشكاة المصابيح (٢٤١٨) .

عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) ﴾ [فصلت] .

وقال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) ﴾ [الأعراف] .

وقال تعالى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦) وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ (٩٨) ﴾ [المؤمنون] .

فصل

فى الاعتداء فى الدعاء

قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥)﴾ [الأعراف] قيل : المراد :أنه لا يحب المعتدين فى الدعاء ؛ كالذى يسأل ما لا يليق به من منازل الأنبياء وغير ذلك ، وقد روى أبو داود فى سننه من حديث حماد بن سلمة عن سعيد الجريرى عن أبى نعامة : أن عبد الله ابن مغفل سمع ابنه يقول: اللهم إنى أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها . فقال: يا بنى سل الله الجنة ، وتعوذ به من النار ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه سيكون فى هذه الأمة قوم يعتدون فى الطهور والدعاء»[1] .

وعلى هذا فالاعتداء فى الدعاء تارة بأن يسأل ما لا يجوز له سؤاله من الإعانة على المحرمات ، وتارة بأن يسأل مالا يفعله الله ، مثل أن يسأله تخليده إلى يوم القيامة، أو يسأله أن يرفع عنه لوازم البشرية من الحاجة إلى الطعام والشراب ، أو يسأله أن يطلعه على غيبه ، أو يسأله أن يجعله من المعصومين ،أو يسأله أن يهب له ولدا من غير زوج ولا أمة ، ونحو ذلك مما سؤاله اعتداء .

فكل سؤال يناقض حكمة الله ، أو يتضمن مناقضة شرعه وأمره ، أو يتضمن خلاف ما أخبر به فهو اعتداء لا يحبه الله ولا يحب سائله وفسر الاعتداء برفع الصوت أيضا فى

(١) البيهقى فى الكبرى (١ / ١٩٧) فى الطهارة .

الدعاء ، قال ابن جريج: من الاعتداء رفع الصوت فى الدعاء ،والنداء فى الدعاء والصياح.

وبعد فالآية أعم من ذلك كله ، وإن كان الاعتداء فى الدعاء مرادًا بها، فهو من جملة المراد ، والله لا يحب المعتدين فى كل شىء ، دعاء أو غيره ، كما قال: ﴿ **وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ﴿١٩٠﴾ ﴾ .

وعلى هذا فيكون قد أمر بدعائه وعبادته ،وأخبر أنه لا يحب أهل العدوان وهم يدعون معه غيره، فهؤلاء أعظم المعتدين عدوانا ،فإن أعظم العدوان الشرك ، وهو وضع العبادة فى غير موضعها ، فهذا العدوان لا بد أن يكون داخلا فى قوله : ﴿ **إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ﴿٥٥﴾ ﴾.

ومن العدوان : أن يدعوه غير متضرع ، بل دعاء مدل كالمستغنى بما عنده المدل على ربه به، وهذا من أعظم الاعتداء المنافى لدعاء الضارع الذليل الفقير المسكين من كل جهة فى مجموع حالاته ، فمن لم يسأل مسألة مسكين متضرع خائف فهو معتد ومن الاعتداء: أن تعبده بما لم يشرعه وتثنى عليه بما لم يثن به على نفسه ولا أذن فيه ، فإن هذا اعتداء فى دعاء الثناء والعبادة ،وهو نظير الاعتداء فى دعاء المسألة والطلب ، وعلى هذا فتكون الآية دالة على شيئين :

أحدهما : محبوب للرب تبارك وتعالى مرضى له ، وهو الدعاء تضرعا وخفية .

والثانى : مكروه له مبغوض مسخوط ، وهو الاعتداء ، فأمر بما يحبه الله وندب إليه ، وحذر مما يبغضه وزجر عنه بما هو أبلغ طرق الزجر والتحذير ، وهو أنه لا يحب فاعله ، ومن لم يحبه الله فأى خير يناله .

وفى قوله :﴿ **إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ﴿٥٥﴾ ﴾ عقب قوله : ﴿ **ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً** ﴾ دليل على أن من لم يدعه تضرعا وخفية فهو من المعتدين الذين لا يحبهم ، فقسمت الآية الناس إلى قسمين داع لله تضرعاً وخفية ، ومعتد بترك ذلك(١).

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١٢ ـ ١٤) .

فائدة
فى الاستعاذة

قوله :« اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن ،والعجز والكسل ،والجبن والبخل وضلع الدين وغلبة الرجال »(١) : استعاذ من ثمانية أشياء ، كل اثنين منها قرينان، فالهم والحزن قرينان ،وهما من آلام الروح ومعذباتها ، والفرق بينهما : أن الهم توقع الشر فى المستقبل ، والحزن التألم على حصول المكروه فى الماضى أو فوات المحبوب ، وكلاهما تألم عذاب يرد على الروح ، فإن تعلق بالماضى سمى حزنا ،وإن تعلق بالمستقبل سمى هما .

والعجز والكسل قرينان ،وهما من أسباب الألم ،لأنهما يستلزمان فوات المحبوب ، فالعجز يستلزم عدم القدرة ،والكسل يستلزم عدم إرادته ، فتتألم الروح لفواته بحسب تعلقها به والتذاذها بإدراكه لو حصل .

والجبن والبخل قرينان ؛ لأنهما عدم النفع بالمال والبدن وهما من أسباب الألم ؛ لأن الجبان تفوته محبوبات ومفرحات وملذوذات عظيمة ، لا تنال إلا بالبذل والشجاعة ، والبخل يحول بينه دونها أيضا ، فهذان الخلقان من أعظم أسباب الآلام .

وضلع الدين وقهر الرجال قرينان وهما مؤلمان للنفس معذبان لها ،أحدهما قهر بحق وهو ضلع الدين ، والثانى قهر بباطل وهو غلبة الرجال ، وأيضا فضلع الدين قهر بسبب من العبد فى الغالب وغلبة الرجال قهر بغير اختياره .

ومن ذلك تعوذه ﷺ « من المأثم والمغرم »(٢) فإنهما يسببان الألم العاجل ،ومن ذلك قوله: « أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك » (٣)،والسخط سبب الألم، والعقوبة هى الألم ، فاستعاذ من أعظم الآلام وأقوى أسبابها (٤).

---

(١) البخارى (٢٨٩٣) فى الجهاد ، باب : من غزا بصبى للخدمة .
(٢) البخارى (٨٣٢) فى الأذان ، باب : الدعاء قبل السلام .
(٣) مسلم (٤٨٦ / ٢٢٢) فى الصلاة ، باب : ما يقال فى الركوع والسجود .
(٤) بدائع الفوائد (٢ / ٢٠٧) .

فصل
فى معنى دعاء النبى ﷺ : « اللهم طهرنى من خطاياى بالماء والثلج والبرد »

سألت شيخ الإسلام عن معنى دعاء النبى ﷺ :« اللهم طهرنى من خطاياى بالماء والثلج والبرد » ، كيف يطهر الخطايا بذلك ؟ وما فائدة التخصيص بذلك وقوله فى لفظ آخر : « والماء البارد » والحار أبلغ فى الإنقاء ؟

فقال: الخطايا توجب للقلب حرارة ونجاسة وضعفاً ، فيرتخى القلب وتضطرم فيه نار الشهوة وتنجسه ،فإن الخطايا والذنوب له بمنزل الحطب الذى يمد النار ويوقدها ؛ ولهذا كلما كثرت الخطايا اشتدت نار القلب وضعفه،والماء يغسل الخبث ويطفئ النار ، فإن كان بارداً أورث الجسم صلابة وقوة ، فإن كان معه ثلج وبرد كان أقوى فى التبريد وصلابة الجسم وشدته ، فكان أذهب لأثر الخطايا . هذا معنى كلامه ،وهو محتاج إلى مزيد بيان وشرح .

فاعلم أن هاهنا أربعة أمور : أمران حسيان وأمران معنويان ، فالنجاسة التى تزول بالماء هى ومزيلها حسيان،وأثر الخطايا التى تزول بالتوبة والاستغفار هى ومزيلها معنويان ، وصلاح القلب وحياته ونعيمه لا يتم إلا بهذا وهذا ، فذكر النبى صلى اللّه عليه وآله وسلم من كل شطر قسما نبه به على القسم الآخر ، فتضمن كلامه الأقسام الأربعة فى غاية الاختصار وحسن البيان كما فى حديث الدعاء بعد الوضوء « اللهم اجعلنى من التوابين ، واجعلنى من المتطهرين » فإنه يتضمن ذكر الأسماء الأربعة .

ومن كمال بيانه صلى اللّه تعالى عليه وآله وسلم وتحقيقه لما يخبر به ويأمر به : تمثيله الأمر المطلوب المعنوى بالأمر المحسوس ،وهذا كثير فى كلامه ،كقوله فى حديث على بن أبى طالب : « سل اللّه الهدى والسداد ، واذكر بالهدى هدايتك الطريق، وبالسداد سداد السهم » إذ هذا من أبلغ التعليم والنصح ، حيث أمره أن يذكر إذا سأل اللّه الهدى إلى طريق رضاه وجنته : كونه مسافرا وقد ضل عن الطريق ولا يدرى أين يتوجه فطلع له رجل خبير بالطريق عالم بها ، فسأله أن يدله على الطريق ، فهكذا شأن طريق الآخرة تمثيلا لها بالطريق المحسوس للمسافر وحاجة المسافر إلى اللّه سبحانه :إلى أن يهديه تلك الطريق أعظم من حاجة المسافر إلى بلد إلى من يدله على الطريق الموصل إليها .

وكذلك السداد ـ وهو إصابة القصد قولاً وعملاً ـ فمثله مثل رامى السهم إذا وقع سهمه فى نفس الشىء الذى رماه فقد سدد سهمه وأصاب ولم يقع باطلا، فهكذا المصيب للحق فى قوله وعمله بمنزلة المصيب فى رميه . وكثيرا ما يقرن فى القرآن هذا وهذا ، فمنه قوله تعالى ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ [البقرة :١٩٧] أمر الحاج بأن يتزودوا لسفرهم ولا يسافروا بغير زاد ،ثم نبههم على أن زاد سفر الآخرة هو التقوى ، فكما أنه لا يصل المسافر إلى مقصده إلا بزاد يبلغه إياه ، فكذلك المسافر إلى الله تعالى والدار الآخرة لا يصل إلا بزاد من التقوى ، فجمع بين الزادين .

ومنه قوله تعالى﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف : ٢٦]جمع بين الزينتين : زينة البدن باللباس وزينة القلب بالتقوى ، زينة الظاهر والباطن وكمال الظاهر والباطن .

ومنه قوله تعالى﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) ﴾ [طه] فنفى عنه الضلال الذى هو عذاب القلب والروح الشقاء الذى هو عذاب البدن والروح أيضا ، فهو منعم القلب والبدن بالهدى والفلاح .

ومنه قول امرأة العزيز عن يوسف عليه السلام لما أرته النسوة اللائمات لها فى حبه : ﴿ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾ [يوسف :٣١] فأرتهن جماله الظاهر، ثم قالت : ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ [يوسف : ٣١] فأخبرت عن جماله الباطن بعفته فأخبرتهن بجمال باطنه وأرتهن جمال ظاهره .

فنبه صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: اللهم طهرنى من خطاياى بالماء والثلج والبرد» على شدة حاجة البدن والقلب إلى ما يطهرهما ويبردهما ويقويهما، وتضمن دعاؤه سؤال هذا وهذا ، والله تعالى أعلم .

وقريب من هذا :أنه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم كان إذا خرج من الخلاء قال : « غفرانك » [١]،وفى هذا من السر ـ والله أعلم ـ:أن النجو يثقل البدن ويؤذيه باحتباسه ، والذنوب تثقل القلب وتؤذيه باحتباسها فيه ،فهما مؤذيان مضران بالبدن والقلب، فحمد

(١) أبو داود (٣٠) فى الطهارة ، باب : ما يقول الرجل إذا خرج من الخلاء ، والترمذى (٧) فى الطهارة ،باب : ما يقول إذا خرج من الخلاء ، وقال : « حسن غريب » ، وصححه الألبانى .

الله عند خروجه على خلاصه من هذا المؤذى لبدنه ، وخفة البدن وراحته ، وسأل أن يخلصه من المؤذى الآخر ، ويريح قلبه منه ويخففه ، وأسرار كلماته وأدعيته صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فوق ما يخطر بالبال[١] .

فصل

فى علاج مرض القلب من استيلاء النفس عليه

إن سائر أمراض القلب إنما تنشأ من جانب النفس ، فالمواد الفاسدة كلها إليها تنصب ثم تنبعث منها إلى الأعضاء ، وأول ما تنال القلب .وقد كان رسول الله ﷺ يقول فى خطبة الحاجة :« الحمد لله نستعينه ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا » [٢].

وفى المسند والترمذى من حديث حصين بن عبيد ورد أن رسول الله ﷺ قال له :« يا حصين ، كم تعبد ؟» قال :سبعة ، ستة فى الأرض وواحد فى السماء. قال: «فمن الذى تُعِد لرغبتك ورهبتك ؟ » ، قال : الذى فى السماء ، قال : أسلم حتى أعلمك كلمات ينفَعك الله بها » فأسلم . فقال :« قل :اللهم ألهمنى رشدى ، وقنى شر نفسى » [٣] .

وقد استعاذ ﷺ من شرها عموماً ومن شر ما يتولد منها من الأعمال ، ومن شر ما يترتب على ذلك من المكاره والعقوبات ،وجمع بين الاستعاذة من شر النفس ومن سيئات الأعمال . وفيه وجهان:

أحدهما :أنه من باب إضافة النوع إلى جنسه ، أى أعوذ بك من هذا النوع من الأعمال .

والثانى : أن المراد به عقوبات الأعمال التى تسوء صاحبها .

فعلى الأول : يكون قد استعاذ من صفة النفس وعملها، وعلى الثانى : يكون قد استعاذ سن العقوبات وأسبابها [٤].

---

(١) إغاثة اللهفان (١ / ٥٧ ـ ٥٩) .

(٢) أبو داود (٢١١٨) فى النكاح ، باب : فى خطبة النكاح .

(٣) الترمذى (٣٤٨٣) وقال : « غريب » ، وضعفه الألبانى .

(٤) إغاثة اللهفان (١ / ٧٤ ، ٧٥) .

فصل
فى الدعاء والقدر

هاهنا سؤال مشهور ، وهو :

أن المدعوّ به إن كان قد قدر لم يكن بد من وقوعه ، دعا به العبد أو لم يدْعُ ، وإن لم يكن قد قُدر لم يقع، سواء سأله العبد أو لم يسأله.

فظنت طائفة صحة هذا السؤال ، فتركت الدعاء وقالت : لا فائدة فيه. وهؤلاء ـ مع فرط جهلهم وضلالهم ـ متناقضون ، فإن طرد مذهبهم يوجب تعطيل جميع الأسباب ، فيقال لأحدهم :

إن كان الشبع والرى قد قُدِّرا لك فلابد من وقوعهما ، أكلت أو لم تأكل ، وإن لم يقدرا لم يقعا ، أكلت أو لم تأكل .

وإن كان الولد فد قدر لك فلا بد منه، وطئت الزوجة أو الأمة أو لم تطأ، وإن لم يقدر ذلك لم يكن ؛ فلا حاجة إلى التزوج والتسرى . وهلم جرا .

فهل يقول هذا عاقل أو آدمى ؟ بل الحيوان البهيم مفطور على مباشرة الأسباب التى بها قوامه وحياته ، فالحيوانات أعقل وأفهم من هؤلاء الذين هم كالأنعام، بل هم أضل سبيلاً .

وتكايس[1] بعضهم وقال: الاشتغال بالدعاء من باب التعبد المحض يثيب اللّه عليه الداعى، من غير أن يكون له تأثير فى المطلوب بوجه ما ، ولا فرق عند هذا المتكيس بين الدعاء وبين الإمساك عنه بالقلب واللسان فى التأثير فى حصول المطلوب . وارتباط الدعاء عندهم به كارتباط السكوت ، ولا فرق .

وقالت طائفة أخرى أكيس من هؤلاء : بل الدعاء علامة مجردة نصبها اللّه ـ سبحانه ـ أمارة على قضاء الحاجة ، فمتى وفق اللّه العبد للدعاء كان ذلك علامة له وأمارة على أن حاجته قد قضيت ، وهذا كما إذا رأينا غيما أسود بارداً فى زمن الشتاء ، فإن ذلك دليل وعلامة على أنه يمطر .

قالوا : وهكذا حكم الطاعات مع الثواب،والكفر والمعاصى مع العقاب ، هى أمارات

---

(١) أى تظرَّف .

محضة لوقوع الثواب والعقاب ،لا أنها أسباب له .

وهكذا عندهم الكسر مع الانكسار ، و الحرق مع الإحراق، والإزهاق مع القتل، ليس شيء من ذلك سبباً البتة،ولا ارتباط بينه وبين ما يترتب عليه ، إلا مجرد الاقتران العادى ، لا التأثير السببى ،وخالفوا بذلك الحس والعقل ،والشرع والفطرة ،وسائر طوائف العقلاء، بل أضحكوا عليهم العقلاء .

والصواب : أن هاهنا قسما ثالثا،غير ما ذكره السائل،وهو أن هذا المقدّر قدر بأسباب، ومن أسبابه الدعاء. فلم يقدر مجرداً عن سببه ،ولكن قدّر بسببه ، فمتى أتى العبد بالسبب وقع المقدور ،ومتى لم يأت بالسبب انتفى المقدور ،وهذا كما قدر الشبع والرى بالأكل والشرب،وقدر الولد بالوطء،وقدر حصول الزرع بالبذر، وقدر خروج نفس الحيوان بالذبح،وكذلك قدر دخول الجنة بالأعمال ،ودخول النار بالأعمال ،وهذا القسم هو الحق، وهذا الذى حرمه السائل ولم يوفق له (١) .

فصل

فى آفات الدعاء

من الآفات التى تمنع ترتب أثر الدعاء عليه : أن يستعجل العبد ، ويستبطئ الإجابة ، فيستحسر ويدعُ الدعاء ، وهو بمنزلة من بذر بذرا أو غرس غرسا ، فجعل يتعهده ويسقيه ، فلما استبطأ كماله وإدراكه تركه وأهمله .

وفى صحيح البخارى من حديث أبى هريرة أن رسول اللّه ﷺ قال:« يُستجابُ لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوتُ فلم يُستجب لى » (٢).

وفى صحيح مسلم عنه : « لا يزالُ يستجابُ للعبد ،ما لم يدْع بإثم أو قطيعة رحم،ما لم يستعجل » قيل : يا رسول اللّه ، وما الاستعجال ؟ قال: « يقول: دعوت وقد دعوت ، فلم يستجاب لى ، فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء » (٣) .

وفى مسند من حديث أنس قال: قالرسول ﷺ: « لايزال العبد بخير يستعجل: قالوا : يا رسول الله ، كيف يستعجل؟ قال : يقول: قد دعوت ربى فلم يستجب لى » (٤) (٥) .

---

(١) الداء والداء (٣٥ ـ ٣٧) .

(٢) البخارى (٦٣٤٠) فى الدعوات ، باب: يستجاب للعبد ما لم يعجل .

(٣) مسلم (٢٧٣٥ / ٩٢) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: بيان أنه يستجاب للداعى ما لم يعجل فيقول: دعوت فلم يستجب لى

(٤) أحمد ١٩٣/٣ ، ٢١٠ .

(٥) الداء والدواء (٢٦ ، ٢٧) .

وأيضا

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) ﴾ [الطلاق]: لما ذكر كفايته للمتوكل عليه فربما أوهم ذلك تعجل الكفاية وقت التوكل فعقبه بقوله : ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) ﴾. أى وقتا لا يتعداه فهو يسوقه إلى وقته الذى قدره له. فلا يستعجل المتوكل ويقول: قد توكلت ودعوت فلم أر شيئاً ولم تحصل لى الكفاية ، فاللّه بالغ أمره فى وقته الذى قدر له [١].

فصل
فى فساد ذكر اللّه بالاسم المفرد

قوله تعالى : ﴿ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ ﴾ [الأنعام:٩١] : رتب على ذلك بعضهم[٢] أن الذكر بالاسم المفرد وهو « اللّه، اللّه » أفضل من الذكر بالجملة المركبة كقوله: « سبحان اللّه ،والحمد للّه، ولا إله إلا اللّه، والله أكبر » وهذا فاسد مبنى على فاسد. فإن الذكر بالاسم المفرد غيرمشروع أصلا ، ولا مفيد شيئا ، ولا هو كلام أصلا ،ولا يدل على مدح ولا تعظيم ، ولا يتعلق به إيمان ،ولا ثواب ، ولا يدخل به الذاكر فى عقد الإسلام جملة ، فلو قال الكافر : « اللّه ، اللّه » من أول عمره إلى آخره لم يصر بذلك مسلما ،فضلا عن أن يكون من جملة الذكر ، أو يكون أفضل الأذكار ، وبالغ بعضهم فى ذلك حتى قال: الذكر بالاسم المضمر أفضل من الذكر بالاسم الظاهر! فالذكر بقوله : « هو ، هو » أفضل من الذكر بقولهم : « الله ، اللّه » ، كل هذا من أنواع الهوس والخيالات الباطلة المفضية بأهلها إلى أنواع من الضلالات ، فهذا فساد هذا البناء الهائر ، وأما فساد المبنى عليه فإنهم ظنوا أن قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ [الأنعام : ٩١] أى قل:هذا الاسم ، فقل : الله الله ، وهذ من عدم فهم القوم لكتاب الله ، فإن اسم الله هذا جواب لقوله : ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام:٩١] إلى أن قال: « الله » أتى وقال اللّه أنزله . فإن السؤال معاد فى الجواب فيتضمنه فيحذف اختصارا كما يقول : من خلق السموات والأرض؟ فيقال: الله . أى اللّه خلقها ، فيحذف الفعل لدلالة السؤال عليه . فهذا معنى الآية الذى لا تحتمل غيره [٣].

---

(١) إعلام الموقعين (٤ / ٢٠٧ ، ٢٠٨) . (٢) من المتصوفة .

(٣) طريق الهجرتين (٣٣٨ ، ٣٣٩) .

باب
فى هديه ﷺ فى الذكر

كان النبى ﷺ أكمل الخلق ذكرا لله عز وجل ، بل كان كلامه كلّه فى ذكر اللّه وما والاه ، وكان أمره ونهيه وتشريعه للأمة ذكرا منه للّه، وإخباره عن أسماء الربّ وصفاته ، أحكامه، وأفعاله ، ووعده ووعيده ، ذكراً منه له ، وثناؤه عليه بآلائه ،وتمجيده وحمده وتسبيحه ذكراً منه له ، وسؤاله دعاؤه إياه ، ورغبته ورهبته ذكرا منه له ، وسكوته وصمته ذكرا منه له بقلبه ، فكان ذاكراً للّه فى كل أحيانه، وعلى جميع أحواله ،وكان ذكره للّه يجرى مع أنفاسه ، قائما وقاعدا وعلى جنبه ، وفى مشيه وركوبه ،ومسيره ، ونزوله وظعنه وإقامته [١] .

فصل
فى ذكر طرفى النهار وهما بين الصبح وطلوع الشمس ، وما بين العصر والغروب

قال سبحانه وتعالى :﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٤٢)** ﴾ [الأحزاب] والأصيل:قال الجوهرى :هو الوقت بعد العصر إلى المغرب وجمعه : أصل وآصال وأصائل ، كأنه جمع أصيلة .

قال الشاعر :

لعمـرى لأنت البيت أكـرم أهـله وأَقْعُـدُ فى أفيـائـه بالأصَـائـل

ويجمع أيضاً على أصلان ، مثل بعير وبُعْران ،ثم صغّروا الجمع فقالوا : أُصيْلان، ثم أبدلوا من النون لاماً ، فقالوا : أُصيْلال .

قال الشاعر :

وقفـتُ فيـها أصيْلالا أُسـائلُها أعيتْ جـوابـا مـا بالربْـع من أحـدِ

(١) زاد المعاد (٢ / ٣٦٥) .

وقال تعالى: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ (٥٥) ﴾ [غافر]، فالإبكار: أول النهار، والعشي: آخره، وقال تعالى: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) ﴾[ق]، وهذا تفسير ما جاء في الأحاديث: من قال كذا وكذا حين يصبح وحين يمسي، أن المراد به: قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، وأن محل هذه الأذكار بعد الصبح وبعد العصر.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: « من قال حين يصبح وحين يمسي: سبحان الله وبحمده مائة مرة، لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به، إلا أحد قال مثل ما قال، أو زاد عليه » (١).

وفي صحيحه أيضا عن ابن مسعود قال: كان نبي الله ﷺ إذا أمسى قال: « أمسينا وأمسى الملك لله، والحمد لله، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، رب أسألك خير ما في هذه الليلة، وخير ما بعدها وأعوذ بك من شرِّ ما في هذه الليلة وشر ما بعدها، رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر، رب وأعوذ بك من عذاب في النار وعذاب في القبر » وإذا أصبح قال ذلك أيضا: « أصبحنا وأصبح الملك لله » (٢).

وفي « السنن » عن عبد الله بن خُبيب قال: قال رسول الله ﷺ: « قل » قلت: يا رسول الله، ما أقول؟ قال: « قُلْ: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) ﴾ والمعوذتين، وحين تُمسي، وحين تُصبح ثلاث مرات تكفيك من كلِّ شيء ». قال الترمذي: حديث حسن صحيح (٣).

وفي الترمذي أيضا عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ كان يعلم أصحابه يقول: « إذا أصبح أحدكم فليقل: اللهم بك أصبحنا، وبك أمسينا، وبك نحيا، وبك نموت، وإليك النشور، وإذا أمسى فليقل: اللهم بك أمسينا، وبك أصبحنا، وبك نحيا، وبك نموت، وإليك المصير »، قال الترمذي: حديث حسن صحيح (٤).

وفي صحيح البخاري عن شداد بن أوس، عن النبي ﷺ قال: « سيدُ الاستغفار: اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا

---

(١) مسلم (٢٦٩٢/ ٢٩) في الذكر والدعاء، باب: فضل التهليل والتسبيح والدعاء.

(٢) مسلم (٢٧٢٣ / ٧٥) في الذكر والدعاء، باب: التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل.

(٣) أبو داود (٥٠٨٢) في الأدب، باب: ما يقول إذا أصبح، والترمذي (٣٥٧٥) في الدعوات، باب (١١٧)، وقال: « حسن صحيح غريب »، والنسائي (٥٤٢٨) في الاستعاذة.

(٤) الترمذي (٣٣٩١) في الدعوات، باب: ما جاء في الدعاء إذا أصبح وإذا أمسى، وقال: « حسن ».

يغفر الذنوب إلا أنت ،من قالها حين يُمسى ، فمات من ليلته دخل الجنة، ومن قالها حين يُصبح ، فمات من يومه دخل الجنة » [(١)].

وفى الترمذى عن أبى هريرة :أن أبا بكر الصديق قال لرسول الله ﷺ: مرنى بشىء أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت. قال: « قُل : اللهم عالمُ الغيب والشهادة ، فاطر السموات والأرض ،رب كلُ شىء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسى وشر الشيطان وشركه ،وأن نقترف سوءا على أنفسنا أو نجرّه إلى مسلم [(٢)]. قله إذا أصبحت ، وإذا أمسيت ،وإذا أخذت مضجعك ».قال الترمذى : حديث حسن صحيح[(٣)] .

وفى الترمذى أيضا عن عثمان بن عفان قال: قال رسول الله ﷺ :« ما من عبد يقول فى صباح كل يوم ومساء كل ليلة : بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء وهوالسميع العليم ـ ثلاث مرات ـ فيضره شىء ». وقال الترمذى: حديث حسن صحيح [(٤)].

وفيه أيضاً عن ثوبان وغيره ، أن رسول الله ﷺ قال:« من قال حين يُمسى وإذا أصبح : رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا ، كان حقا على الله أن يرضيه ». وقال :حديث حسن صحيح [(٥)].

وفى الترمذى أيضا :عن أنس ،أن رسول الله ﷺ قال:« من قال حين يصبح أو يمسى:اللهم إنى أصبحت أشهدك ؛وأشهد حملة عرشك ،وملائكتك ،وجميع خلقك؛ أنك أنت الله لا إله إلا أنت ،وأن محمدا عبدك ورسولك ،أعتق الله رُبعه من النار، ومن قالها مرتين ،أعتق الله نصفه من النار ،ومن قالها ثلاثا ، أعتق الله ثلاث أرباعه من النار ، ومن قالها أربعا ، أعتقه الله من النار » [(٦)].

وفى « سنن أبى داود » عن عبد الله بن غنام ،أن رسول اللهﷺ قال:« من قال حين يصبح : اللهم ما أصبح بى نعمة أو بأحد من خلقك ،فمنك وحدك لا شريك لك، لك

---

(١) البخارى (٦٣٠٦) فى الدعوات ، باب: أفضل الاستغفار .

(٢) جملة : « وأن نقترف سوءا على أنفسنا أو نجره إلى مسلم » من رواية أخرى ، الترمذى (٣٥٢٩) فى الدعوات، باب: (٩٥) وقال: « حسن غريب من هذا الوجه » .

(٣) الترمذى (٣٣٩٢) فى الدعوات ، باب (١٤) .

(٤) الترمذى (٣٣٨٨) فى الدعوات ، باب: ما جاء فى الدعاء إذا أصبح وإذا أمسى ، وقال:« حسن صحيح غريب » .

(٥) الترمذى (٣٣٨٩) فى الدعوات ، باب : ما جاء فى الدعاء إذا أصبح وإذا أمسى .

(٦) أبو داود (٥٠٦٩) فى الأدب ، باب : ما يقول إذا أصبح ، وضعفه الألبانى .

الحمد ولك الشكر، فقد أدى شكر يومه، ومن قال مثل ذلك حين يُمسى ، فقد أدى شكر ليلته» (١).

وفى السنن و صحيح الحاكم عن عبد الله بن عمر قال: « لم يكن النبى ﷺ يدع هؤلاء الكلمات حين يمسى ، وحين يصبح: « اللهم إنى أسألك العافية فى الدنيا والآخرة، اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى ، وأهلى ومالى، اللهم استر عوراتى، وآمن روعاتى ، اللهم احفظنى من بين يدى ، ومن خلفى ، وعن يمينى، وعن شمالى ، ومن فوقى ، وأعوذ بنعمتك أن أغتال من تحتى »(٢) قال وكيع : يعنى الخسف .

وعن طلق بن حبيب قال: جاء رجل إلى أبى الدرداء فقال: يا أبا الدرداء ، قد احترق بيتك . فقال: ما احترق ، لم يكن الله ليفعل ذلك ، لكلمات سمعتهن من رسول الله ﷺ ، من قالها أول النهار لم تصبه مصيبة حتى يمسى ، ومن قالها آخر النهار لم تصبه مصيبة حتى يصبح : « اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ، عليك توكلت ، وأنت رب العرش العظيم، ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، أعلم أن الله على كل شىء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شىء علما . اللهم إنى أعوذ بك من شر نفسى ، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم » (٣) (٤) .

وأيضا

كان ﷺ إذا صلى الصبح ، جلس فى مصلاه حتى تطلع الشمس يذكر الله عز وجل.

وكان يقول إذا أصبح : « اللهم بك أصبحنا ، وبك أمسينا ، وبك نحيا، وبك نموت، وإليك النشور »(٥) حديث صحيح .

وكان يقول : « أصبحنا وأصبح الملك لله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك، وله الحمد ، وهو على كلّ شىء قدير ، رب أسألك خير ما فى

---

(١) أبو داود (٥٠٧٣) فى الأدب ، باب : ما يقول إذا أصبح ، وضعفه الألبانى .

(٢) أبو داود (٥٠٧٤) فى الأدب ، باب: ما يقول: إذا أصبح ، وابن ماجه (٣٨٧١) فى الدعاء ، باب: ما يدعو به الرجل إذا أصبح وإذا أمسى ، والحاكم فى المستدرك ١/ ٥١٧ فى الدعاء ، باب: دعاء الصبح والمساء ، وقال: « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ، ووافقه الذهبى .

(٣) ابن السنى فى عمل اليوم والليلة (٥٧ ، ٥٨) ، وقال العراقى فى تخريج الإحياء : « رواه الطبرانى بسند ضعيف » .

(٤) الوابل الصيب (١٩٢ ـ ٢٠١) .

(٥) أبو داود (٥٠٦٨) فى الأدب ، باب : ما يقول إذا أصبح ، والترمذى (٣٣٨٨) فى الدعوات ، باب : ما جاء فى الدعاء إذا أصبح .

هذا اليوم ، وخير ما بعده ، وأعوذ بك من شر هذا اليوم ، وشر ما بعده ، رب أعوذ بك من الكسل ، وسوء الكبر ، رب أعوذ بك من عذاب فى النار ، وعذاب فى القبر ، وإذا أمسى قال: أمسينا وأمسى الملك لله . . . » إلى آخره ، ذكره مسلم [(١)].

وقال له أبو بكر الصديق ﷺ : مرنى بكلمات أقولهن إذا أصبحت وإذا أمسيت ، قال: قلْ :« اللهم فاطر السماوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ،رب كل شىء ومليكه ومالكه ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أعوذ بك من شر نفسى ، ومن شر الشيطان وشركه ، وأن أقترف على نفسى سوءا أو أجره إلى مسلم » قال:« قُلها إذا أصبحت وإذا أمسيت، وإذا أخذت مضجعك » [(٢)] ،حديث صحيح .

وقال ﷺ :« ما من عبد يقول فى صباح كل يوم ومساء كل ليلة : بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم ، ثلاث مرات ، إلا ن يضره شىء » حديث صحيح[(٣)] .

وقال :« من قال حين يصبح وحين يمسى : رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا ،وبمحمد نبيا ، كان حقا على الله أن يرضيه » صححه الترمذى والحاكم [(٤)].

وقال:« من قال حين يصبح وحين يمسى : اللهم إنى أصبحت أشهدك ، وأشهد حملة عرشك وملائكتك ، وجميع خلقك ،أنك أنت الله الذى لا إله إلا أنت، وأن محمد عبدك ورسولك ؛ أعتق الله ربعه من النار ، وإن قالها مرتين ، أعتق الله نصفه من النار ، وإن قالها ثلاثاً أعتق ثلاثة أرباعه من النار ، وإن قالها أربعاً أعتقه الله من النار » حديث حسن[(٥)] .

وقال :« من قال حين يصبح :اللهم ما أصبح بى من نعمة أو بأحد من خلقك، فمنك وحدك لا شريك لك ، لك الحمد ،ولك الشكر، فقد أدى شكر يومه ،ومن قال ذلك حين يمسى ،فقد أدى شكر ليلته » [(٦)] حديث حسن .

وكان يدعو حين يصبح وحين يمسى بهذه الدعوات « اللهم إنى أسألك العافية فى الدنيا والآخرة ،واللهم إنى أسألك العفو العافية فى الدنيا والآخرة ،اللهم إنى أسألك العفو العافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى ، اللهم استر عوراتى ،وآمن روعاتى ،اللهم احفظنى

---

(١) مسلم (٢٧٢٣ / ٧٥) فى الذكر والدعاء ، باب : التعوذ من شر ما عمل وشر ما لم يعمل .
(٢) سبق تخريجه ص ٢٨٩ .
(٣) سبق تخريجه ص ٢٨٩.
(٤) الترمذى (٣٣٨٩) فى الدعوات ، باب : ما جاء فى الدعاء إذا أصبح وإذا أمسى ، والحاكم (١ / ٥١٨) .
(٥) أبو داود (٥٠٦٩) فى الأدب ، باب : ما يقول إذا أصبح . وضعفه الألبانى .
(٦) سبق تخريجه ص ٢٩٠.

من بين يدى ،ومن خلفى ،وعن يمينى وعن شمالى ،ومن فوقى، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتى » صححه الحاكم(١) .

وقال: « إذا أصبح أحدكم فليقل: أصبحنا وأصبح الملك لله رب العالمين ،اللهم إنى أسألك خير هذا اليوم فتحه ونصره ونوره وبركته وهدايته ،وأعوذ بك من شر ما فيه وشر ما بعده ،ثم إذا أمسى ، فليقل مثل ذلك » حديث حسن(٢) .

وذكر أبو داود عنه أنه قال لبعض بناته : «قولى حين تصبحين: سبحان اللّه وبحمده ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلى العظيم ، ما شاء اللّه كان ، وما لم يشأ لم يكن، أعلم أن اللّه على كل شىء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شىء علما ، فإنه من قالهن حين يصبح، حفظ حتى يمسى ،ومن قالهن حين يمسى حفظ حتى يصبح » (٣).

وقال لرجل من الأنصار : « ألا أعلمك كلاما إذا قلته أذهب الله همك ، وقضى عنك دينك » قلتُ : بلى يا رسول اللّه ،قال: « قل إذا أصبحت وإذا أمسيت: اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن ،وأعوذ بك من العجز والكسل ،وأعوذ بك من الجبن البخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال » قال: فقلتهن ،فأذهب اللّه همى ،وقضى عنى دينى (٤).

وكان إذا أصبح قال: « أصبحنا على فطرة الإسلام ، وكلمة الإخلاص ، ودين نبينا محمد ﷺ ، وملة أبينا إبراهيم حنيفا مسلما ، وما كان من المشركين » (٥) .

هكذا فى الحديث« ودين محمد ﷺ » وقد استشكله بعضهم وله حكم نظائره كقوله فى الخطب والتشهد فى الصلاة « أشهد أن محمداً رسول اللّه » فإنه ﷺ مكلف بالإيمان بأنه رسول اللّه ﷺ إلى خلقه ، ووجوب ذلك عليه أعظم من وجوبه على المرسل إليهم، فهو نبى إلى نفسه وإلى الأمة التى هو منهم ، وهو رسول اللّه إلى نفسه وإلى أمته .

ويذكر عنه ﷺ أنه قال لفاطمة ابنته : « ما يمنعك أن تسمعى ما أوصيك به: أن تقولى إذا أصبحت وإذا أمسيت: يا حى يا قيوم بك أستغيث ، فأصلح لى شأنى ،ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين »(٦).

---

(١) سبق تخريجه ص ٢٩٠ .

(٢) أبو داود (٥٠٨٤) فى الأدب ، باب ما يقول إذا أصبح . وضعفه الألبانى .

(٣) أبو داود (٥٠٧٥) فى الأدب ، باب: ما يقول إذا أصبح ،وضعفه الألبانى .

(٤) أبو داود (١٥٥٥) فى الصلاة ، باب: فى الاستعاذة ، وضعفه الألبانى .

(٥) أحمد ٣/٤٠٦ ، ٤٠٧ ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/١١٨ ، ١١٩) فى الأذكار ، باب: ما يقول إذا أصبح وإذا أمسى : فيه إسماعيل بن يحيى بن سلمة بن كهيل ، وهو متروك » .

(٦) الحاكم فى المستدرك (١/٥٤٥) فى الدعاء ،باب: ما يقال إذا أصبح وإذا أمسى ،وقال :«صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبى . قال الأرناؤوطى:«وفيه عثمان بن موهب وليس عثمان بن عبد الله ابن موهب كما فى المستدرك. قال أبو حاتم : صالح الحديث وباقى رجاله ثقات » .

ويذكر عنه ﷺ أنه قال لرجل شكا إليه إصابة الآفات « قل: إذا أصبحت: بسم الله على نفسى .وأهلى ومالى ، فإنه لا يذهب عليك شيء » (١).

ويذكر عنه أنه كان إذا أصبح قال:« اللهم إنى أسألك علما نافعا ،ورزقا طيباً ، وعملاً متقبلاً » (٢).

يذكر عنه ﷺ:أن العبد إذا قال حين يُصبح ثلاث مرات:« اللهم إنى أصبحت منك فى نعمة عافية وستر ،فأتم على نعمتك وعافيتك وسترك فى الدنيا والآخرة ،وإذا أمسى، قال ذلك ، كان حقا على الله أن يتم عليه» (٣) .

ويذكر عنه ﷺ أنه قال:« من قال فى كلّ يوم حين يصبح وحين يُمسى : حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم سبع مرات، كفاه الله ما أهمه من أمر الدنيا والآخرة »(٤) .

ويذكر عنه ﷺ أنه من قال هذه الكلمات فى أول نهاره ، لم تُصبه مصيبة حتى يُمسى، ومن قالها آخر نهاره لم تُصبه مصيبة حتى يُصبح : « اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ، عليك توكلت ،وأنت رب العرش العظيم ، ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، أعلم أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ، اللهم إنى أعوذ بك من شر نفسى وشر كل دابة أنت آخذ بناصيتها، إن ربى على صراط مستقيم » (٥) وقد قيل لأبى الدرداء :قد احترق بيتك فقال: ما احترق،ولم يكن الله عز وجل ليفعل ، لكلمات سمعتهن من رسول الله ﷺ فذكرها .

وقال :« سيد الاستغفار: أنت ربى، لا إله إلا أنت حلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ،أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك على ، وأبوء بذنبى فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، من قالها حين يصبح موقنا بها فمات من يومه ، دخل الجنة ،ومن قالها حين يُمسى موقنا بها ، فمات من ليلته ، دخل الجنة » (٦).

(١) الأذكار للنووى (٢١٣) وضعف إسناده .

(٢) ابن ماجه (٩٢٥) فى إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب : ما يقال بعد التسليم .

(٣) الأذكار للنووى (٢١٥) وعزاه لابن السنى .

(٤) أبو داود (٥٠٨١) فى الأدب ، باب: ما يقول إذا أصبح موقوفا على أبى الدرداء بزيادة :« صادقا كان بها أو كاذبا » ، وضعفه الألبانى .

(٥) كنز العمال (٣٥٨٣) وعزاه للديلمى .

(٦) البخارى (٦٣٠٦) فى الدعوات ، باب: أفضل الاستغفار .

« من قال حين يصبح وحين يمسى : سبحان اللّه وبحمده مائة مرة ،لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به إلا أحد قال مثل ما قال ، أو زاد عليه » (١).

وقال : «من قال حين يصبح عشر مرات لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له ، له الملك، وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير ، كتب اللّه له بها عشر حسنات ، ومحا عنه بها عشر سيئات ، وكانت كعدل عشر رقاب ، وأجاره اللّه يومه من الشيطان الرجيم، وإذا أمسى فمثل ذلك حتى يصبح » (٢).

وقال :« من قال حين يصبح: لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له،له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير ، وفى اليوم مائة مرة ، كانت له عدل عشر رقاب ، وكتب له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ،وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه » (٣).

وفى « المسند » وغيره أنه ﷺ علم زيد بن ثابت، وأمره أن يتعاهد به أهله فى كل صباح « لبّيك اللهم لبيك ، لبيك وسعديك ،والخير فى يديك ،ومنك وبك وإليك ، اللهم ما قلت من قول ، أو حلفت من حلف . أو نذرت من نذر .فمشيئتك بين يدى ذلك كله، ما شئت كان وما لم تشأ لم يكن،ولا حول ولا قوة إلا بك ،إنك على كل شىء قدير، اللهم ما صليت من صلاة فعلى من صليت ،وما لعنت من لعنة فعلى من لعنت ، أنت وليى فى الدنيا الآخرة ، توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين ، اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة ،ذا الجلال والإكرام ،فإنى أعهد إليك فى هذه الحياة الدنيا ، وأشهدك ـ وكفى بك شهيدا ـ بأنى أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك،لك الملك، ولك الحمد ،وأنت على كل شىء قدير ،وأشهد أن محمدا عبدك ورسولك ، وأشهد أن وعدك حق .ولقاءك حق ،والساعة حق آتية لا ريب فيها ،وأنك تبعث من فى القبور، وأشهد أنك إن تكلنى إلى نفسى تكلنى إلى ضعف وعورة وذنب وخطيئة،وإنى لا أثق إلا برحمتك ،فاغفر لى ذنوبى كلها إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ،وتب على إنك أنت

---

(١) البخارى (٦٤٠٥) فى الدعوات ، باب: فضل التسبيح ، ومسلم (٢٦٩٢ / ٢٩) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب : فضل التهليل والتسبيح والدعاء ، واللفظ لمسلم .

(٢) أبو داود (٥٠٧٧) فى الأدب ،باب : ما يقول إذا أصبح ، وابن ماجه (٣٨٦٧) فى الدعاء ، باب: : ما يدعو به الرجل إذا أصبح وإذا أمسى .

(٣) البخارى (٦٤٠٣) فى الدعوات ، باب : فضل التهليل، ومسلم (٢٦٩١ / ٢٨) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب : فضل التهليل والتسبيح والدعاء

التواب الرحيم » (١) (٢).

باب : منه

عن أبى هريرة رضي الله عنه ، عن النبى ﷺ :أنه كان يقول إذا أصبح :« اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحْيا ، وبك نموت ، وإليك النشور ، وإذا أمسى قال: اللهم بك أمسينا، وبك نحيا ،وبك نموت ، وإليك النشور » .

وأخرجه الترمذى والنسائى وابن ماجه . وقال الترمذى : حسن(٣) .

ولفظ النسائى فيه: أن النبى ﷺ كان يقول إذا أصبح :« اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا، وبك نحيا ، وبك نموت، ،وإليك النشور » فقط .

ورواه أبو حاتم بن حبان فى صحيحه ، وقال: إن النبى ﷺ كان يقول إذا أصبح : «اللهم بك أصبحنا ، وبك أمسينا ، وبك نحيا ، وبك نموت ،وإليك النشور ، وإذا أمسى قال:اللهم بك أمسينا ، وبك أصبحنا ،وبك نحيا ، وبك نموت ، وإليك المصير » .

فرواية أبى داود فيها « النشور » فى المساء ، و « المصير » فى الصباح .

ورواية الترمذى فيها « النشور » فى المساء، و « المصير» فى الصباح .

ورواية الترمذى وابن حبان فيها « النشور » فى الصباح و « المصير » فى المساء ، وهى أولى الروايات أن تكون محفوظة ، لأن الصباح والانتباه من النوم : بمنزلة النشور ،وهو الحياة بعد الموت .والمساء والصيرورة إلى النوم : بمنزلة الموت ،والمصير إلى الله؛ولهذا جعل الله ـ سبحانه ـ فى النوم الموت والانتباه بعده دليلا على البعث النشور ؛ لأن النوم أخو الموت ،والانتباه نشور وحياة قال تعالى :﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣)**﴾ [الروم].ويدل عليه أيضا ما رواه البخارى فى صحيحه عن حذيفة : أن النبى ﷺ وكان إذا استيقظ قال :« الحمد لله الذى أحيانا بعد ما

---

(١) أحمد (٥/ ١٩١).

(٢) زاد المعاد (٢ / ٣٧٠ ـ ٣٧٩) .

(٣) أبو داود (٥٠٦٨) فى الأدب ، باب : ما يقول : إذا أصبح والترمذى (٣٣٩١) فى الدعوات ، باب: ما جاء فى الدعاء إذا أصبح وإذا أمسى ،والنساء فى الكبرى (١٠٣٩٩) فى عمل اليوم الليلة ،باب : ما يقول: إذا أمسى ، وابن ماجه (٣٨٦٨) ، فى الدعاء ، باب: ما يدعو به الرجل إذا أصبح وإذا أمسى .

أماتنا وإليه النشور » (١) (٢).

وعن أبى عياش رضي الله عنه ، أن رسول اللّه ﷺ قال: « من قال إذا أصبح : لا إله إلا اللّه وحده ،لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ،وهو على كل شيء قدير :كان له عدلُ رقبة من ولد إسماعيل،وكتب له عشر حسنات،وحُط عنه عشر سيئات،ورفع له عشر درجات،وكان فى حرز من الشيطان حتى يمسى ؛ وإن قالها إذا أمسى : كان له مثل ذلك حتى يصبح » قال فى حديث حماد ـ وهو ابن سلمة ـ فرأى رجل رسول اللّه ﷺ فيما يرى النائم ،فقال: يا رسول اللّه ، إن أبا عياش يحدث عنك بكذا وكذا ؟ قال : « صدق أبو عياش»(٣). قال أبو داود : رواه إسماعيل بن جعفر عن سهيل عن أبيه عن ابن عائش .

وقال أبو بكر الخطيب : عند القاضى ـ يعنى أبا عمر الهاشمى شيخه ـ ابن أبى عائش. وكذا عند غيره .

وأخرجه النسائى وابن ماجه (٤). وفى حديثهما : عن أبى عياش الزرقى .

وأبو عياش الزرقى الأنصارى:اسمه زيد بن الصامت . وقيل : غير ذلك ، وهو بفتح العين المهملة وتشديد الياء آخر الحروف وفتحها وبعد الألف شين معجمة ، وذكره أبو أحمد الكرابيسى فى كتاب الكنى وقال: له صحبة من النبى ﷺ ،ليس حديثه من وجه صحيح وذكر له هذا الحديث .

وقد أخرجا فى الصحيحين عن أبى أيوب الأنصارى عن النبى ﷺ قال: « من قال: لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له ،له الملك وله الحمد ،وهو على كل شيء قدير ،عشر مرات كان كمن أعتق عشرة أنفس من ولد إسماعيل » (٥).

وقال البخارى : « رقبة من ولد إسماعيل » رواه تعليقاً .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول اللّه ﷺ قال: « من قال: لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير فى يوم مائة مرة ، كانت

---

(١) البخارى (٧٣٩٤) فى التوحيد ، باب : السؤال بأسماء اللّه تعالى والاستعاذة بها .

(٢) تهذيب السنن (٧ / ٣٣٠ ، ٣٣١) .

(٣) أبو داود (٥٠٧٧) فى الأدب ، باب : ما يقول إذا أصبح .

(٤) النسائى فى الكبرى (٩٨٥٥) فى عمل اليوم والليلة ، باب: من قال ذلك مائة مرة ، وابن ماجه (٣٨٦٧) فى الدعاء ، باب : ما يدعو به الرجل إذا أصبح وإذا أمسى .

(٥) البخارى (٦٤٠٤) فى الدعوات، باب : فضل التهليل ، ومسلم (٢٦٩٣ / ٣٠) فى الذكر الدعاء والتوبة والاستغفار ، باب : فضل التهليل والتسبيح والدعاء .

له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ،ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر من ذلك ،ومن قال:سبحان الله وبحمده ،فى يوم مائة مرة ،حطت عنه خطاياه ،وإن كانت مثل زبد البحر »(١) .

فهذا الحديث يدل على أن كل رقبة يعدلها عشر مرات تهليلا ،وهو يوافق رواية البخارى فى الحديث الذى قبله .

وحديث ابن عباس يدل على أن كل مرة برقبة ، ويوافقه حديث أبى أيوب الذى رواه مسلم ، ولكن حديث أبى أيوب قد اختلف فيه البخارى ومسلم .

وحديث أبى هريرة صريح بأن المائة تعدل عشر رقاب ،ولم يختلف فيه ،فيترجح من هذا الوجه على خبر أبى أيوب ، تترجح رواية مسلم لحديث أيوب : بحديث ابن عباس المتقدم فقد تقابل الترجيحان .

وقد يقال :خبر ابن عباس قد تكلم فيه ، وأنه لا يصح ،وخبر أبى أيوب قد اختلف فى لفظه ،وخبر أبى هريرة :صحيح ،لا علة فيه ولا اختلاف،فوجب تقديمه ،والله أعلم.

وقد روى الترمذى من حديث زيد بن أبى أنيسة عن عبد الرحمن بن غنم عن أبى ذر أن رسول الله ﷺ قال:« من قال فى دبر كل صلاة الفجر ،وهو ثان رجليه ، قبل أن يتكلم : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ،يحيى ويميت ،وهو على كل شىء قدير ، عشر مرات ، كتب له عشر حسنات ، ومحيى عنه عشر سيئات ، ورفع له عشر درجات . وكان يومه ذلك كله فى حرز من كل مكروه ، وحرس من الشيطان ، ولم ينبغى لذنب أن يدركه ذلك اليوم إلا الشرك بالله » وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه » (٢) .

وأما الحديث الذى رواه الترمذى فى جامعه عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال:« من دخل السوق ، فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد ، يحيى ويميت ، وهو حى لا يموت ، بيده الخير ،وهو على كل شىء قدير ، كتب له ألف ألف حسنة ،ومحى عنه ألف ألف سيئة ،ورفع له ألف ألف

---

(١) البخارى (٦٤٠٣) فى الدعوات ، باب : فضل التهليل ، (٦٤٠٥) فى الدعوات ، باب: فضل التسبيح ، ومسلم (٢٦٩١ / ٢٨) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: فضل التهليل والتسبيح والدعاء .
(٢) الترمذى (٣٤٧٤) فى الدعوات ، باب : ٦٣ .

درجة » (١). فهو حديث معلول لا يثبت مثله ،وذكر له الترمذى طرقاً :

أحدها :أحمد بن منيع :حديثا أزهر بن سنان حدثنا محمد بن واسع قال: قدمت مكة فلقينى أخى سالم بن عبد الله بن عمر ، فحدثنى عن أبيه عن جده : أن رسول الله ﷺ - فذكره وقال: هذا حديث غريب .

والثانى : رواه عمرو بن دينار ، قهرمان آل الزبير ، عن سالم نحوه .

قال الترمذى :حدثنا أحمد بن عبدة حدثنا حماد بن عبدة حدثنا حماد بن زيد والمعتمر ابن سليمان قالا حدثنا عمرو بن دينار - وهو قهرمان آل الزبير - عن سالم عن جده .

وقال: « وبنى له بيت فى الجنة » ولم يقل: « ألف ألف درجة » .

والثالث : رواه يحيى بن سالم الطائفى عن عمران بن مسلم عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر عن النبى ﷺ ، ولم يذكر عمر ، ذكره الترمذى تعليقاً عن يحيى(٢).

فأما الطريق الأولى فهى أمثل طرقه ،وأزهر بن سنان لا بأس به ، قد تكلم فيه بعض الأئمة ،وقد ذكر حديثه هذا الحافظ أبو عبد الله المقدسى فى المختارة .

وأما الطريق الثانية :ففيها عمرو بن دينار قهرمان آل الزبير،قال البخارى فى التاريخ: فيه نظر ،وذكر هذا الإسناد بعينه ،ولم يذكر له أمتنا ، فقال: قال موسى بن عبد الرحمن حدثنا زيد بن خباب حدثنا سعيد بن زيد عن عمرو بن دينار مولى الأنصارى عن سالم عن أبيه عن عمر ، وقال الترمذى : تكلم فيه بعض أصحاب الحديث ، وقد روى عن سالم أحاديث لا يتابع عليها .

وأما الطريقة الثالثة :ففيها عمران بن مسلم ، وليس هو عمران بن مسلم القصير، فإن ذاك من رجال الصحيح ،وهذا منكر الحديث ، قاله البخارى وغيره .

وقد قيل: إنه القصير والله أعلم (٣).

---

(١) الترمذى (٣٤٢٨) فى الدعوات ، باب: ما يقول إذا دخل السوق .

(٢) انظر : الترمذى ٥/ ٤٥٧ / ٤٥٨ .

(٣) تهذيب السنن (٧ / ٣٣٥ - ٣٣٧)

فصــل
فى أذكـار النـوم

فى « الصحيحين » عن حذيفة قال: كان رسول اللّه ﷺ إذا أراد أن ينام قال: «باسمك اللهم أموت وأحيا »وإذا استيقظ من منامه قال: « الحمد للّه الذى أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور » (١).

وفى « الصحيحين » أيضا ،عن عائشة، أن النبى ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة،جمع كفيه ، ثم نفث فيهما يقرأ فيهما : ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ** ﴾ و﴿ **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ**﴾ و﴿ **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ** ﴾ ثم يسمح بهما ما استطاع من جسده ، يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده ، يفعل ذلك ثلاث مرات (٢).

وفى «صحيح البخارى » عن أبى هريرة أنه أتاه آت يحثو من الصدقة ، وكان قد جعله النبى ﷺ عليها ليلة بعد ليلة فلما كان فى الليلة الثالثة قال: لأرفعنك إلى رسول اللّه ﷺ، قال :دعنى أعلمك كلمات ينفعك اللّه بهن ـ وكان أحرص شىء على الخير ـ فقال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى ﴿ **اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ** ﴾حتى ختمها، فإنه لا يزال عليك من اللّه حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح . فقال النبى ﷺ :«صدقك وهو كذوب »(٣).

وقد روى الإمام أحمد نحو هذه القصة فى « مسنده » أنها جرت لأبى الدرداء ، ورواها الطبرانى فى « مجمعه » أنها جرت لأبى بن كعب .

وفى « الصحيحين » عن أبى مسعود الأنصارى ، عن النبى ﷺ قال: «من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه » (٤).

الصحيح : أن معناها : كفتاه من شر ما يؤذيه ، وقيل : كفتاه من قيام الليل ، وليس بشىء .

---

(١) البخارى (٦٣٢٤) فى الدعوات ، باب: ما يقول إذا أصبح ، ومسلم (٢٧١١/ ٥٩) فى الذكر والدعاء ، والتوبة والاستغفار باب : ما يقول عند النوم وأخذ المضجع ، وهو عن البراء وليس عن حذيفة .

(٢) البخارى (٥٠١٧) فى فضائل القرآن ، باب: فضل المعوذات ،ولم يعزه صاحب التحفة إلا للبخارى ١٢/ ٦٠.

(٣) البخارى (٢٣١١) فى الوكالة ، باب : إذا وكل رجلا فترك الوكيل شيئا فأجازه الموكل فهو جائز .

(٤) البخارى (٥٠٠٩) فى فضائل القرآن ، باب: فضل سورة البقرة ، ومسلم (٨٠٨ / ٢٥٦) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب: فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة .

وقال على بن أبى طالب : ما كنت أرى أحدا يعقل وينام قبل أن يقرأ الآيات الثلاث الأواخر من سورة البقرة .

وفى « الصحيحين » عن أبى هريرة أن رسول اللّه ﷺ قال: « إذا قام أحدكم عن فراشه ، ثم رجع إليه ، فلينفضه بصنفة إزاره ثلاث مرات؛ فإنه لا يدرى ما خلفه عليه بعده ، وإذا اضطجع فليقل؛ باسمك اللهم ربى وضعت جنبى ،وبك أرفعه ، فإن أمسكت نفسى فارحمها ،وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » (١).

وفى « الصحيحين » عنه عن النبى ﷺ :« إذا استيقظ أحدكم من نومه فليقل :الحمد لله الذى عافانى فى جسدى ، ورد على روحى ، وأذن لى بذكره » (٢).

وقد تقدم(٣) حديث على، ووصية النبى ﷺ له ولفاطمة رضي الله عنها :أن يسبحا إذا أخذا مضاجعهما للنوم ثلاثا وثلاثين ، ويحمدا ثلاثا وثلاثين ، ويكبرا أربعا وثلاثين ، وقال: «هو خير لكما من خادم » (٤).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس اللّه روحه : بلغنا أنه من حافظ على هذه الكلمات لم يأخذه إعياء فيما يعانيه من شغل وغيره .

وفى « سنن أبى داود » عن حفصة أم المؤمنين : أن النبى ﷺ كان إذا أراد يرقد ، وضع يده اليمنى تحت خده ثم يقول:« اللهم قنى عذابك يوم تبعث عبادك » ثلاث مرات، قال الترمذى : حديث حسن(٥) .

وفى «صحيح مسلم » عن أنس أن النبى ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه قال:« الحمد للّه الذى أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا ، فكم ممن لا كافى له ،ولا مُؤوى »(٦) .

فى « صحيحه » أيضا ، عن ابن عمر أنه أمر رجلا إذا أخذ مضجعه أن يقول: «اللهم

---

(١) البخارى (٧٣٩٣) فى التوحيد ،باب: السؤال بأسماء اللّه تعالى والاستعاذة بها ، ومسلم (٢٧١٤ ٦٤) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ،باب: ما يقول عند النوم وأخذ المضجع .

(٢) كنز العمال (٢١٤١٨) وعزاه لابن السنى.

(٣) انظر : الوابل الصيب (١٥٦) .

(٤) البخارى (٣٧٠٥) فى فضائل الصحابة ،باب : مناقب على ابن طالب ، ومسلم (٢٧٢٧/ ٨٠) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: التسبيح أول النهار وعدم النوم .

(٥) أبو داود (٥٠٤٥) فى الأدب ،باب: ما يقال عند النوم ،والترمذى (٣٣٩٩) فى الدعوات ، باب: ١٨ وهو عن البراء بن عازب .

(٦) مسلم (٢٧١٥/ ٦٤) فى الذكر والدعاء والتوب والاستغفار ، باب: ما يقول عند النوم وأخذ المضجع

أنت خلقت نفسى ، وأنت تتوفاها ، لك مماتها ومحياها ،إن أحييتها فاحفظها ،وإن أمتها فاغفر لها ، اللهم إنى أسألك العافية » قال ابن عمر: سمعتهن من رسول الله ﷺ(١) .

وفى الترمذى ، عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ : « من قال حين يأوى إلى فراشه : أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب ـ ثلاث مرات غفر الله له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر ، وإن كانت عدد ورق الشجر وإن كانت عدد رمل عالج ،وإن كانت عدد أيام الدنيا » (٢).

وفى « صحيح مسلم »،عن أبى هريرة أن النبى ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه قال: «اللهم رب السموات ،ورب الأرض ،ورب العرش العظيم ،ربنا ورب كل شىء ، فالق الحب والنوى ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان ، أعوذ بك من شر كل شىء أنت آخذ بناصيته ،أنت الأول فليس قبلك شىء ،وأنت الآخر فليس بعدك شىء ،وأنت الظاهر فليس فوقك شىء،وأنت الباطن فليس دونك شىء،اقض عنا الدين ،وأغننا من الفقر»(٣).

وفى « الصحيحين » عن البراء بن عازب قال: قال لى رسول الله ﷺ :« إذا أتيت مضجعك ، فتوضأ وضوءك للصلاة ، ثم اضطجع على شقك الأيمن وقل :اللهم إنى أسلمت نفسى إليك ،ووجهت وجهى إليك ،وفوضت أمرى إليك ، وألجأت ظهرى إليك، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذى أنزلت ، وبنبيك الذى أرسلت ،فإن مت من ليلتك مت على الفطرة ، واجعلهن آخر ما تقول» (٤).

فصل
فى أذكار الانتباه من النوم

روى البخارى فى «صحيحه » ، عن عبادة بن الصامت ، عن النبى ﷺ قال:«من تعارّ من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير . الحمد لله ، وسبحان الله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة

(١) مسلم (٢٧١٢ / ٦٠) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: ما يقول عند النوم وأخذ المضجع .
(٢) الترمذى (٣٣٩٧) فى الدعوات ، باب : ١٧ ، وقال : « حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه » .
(٣) مسلم (٢٧١٣ / ٦١) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب : ما يقول عند النوم وأخذ المضجع .
(٤) البخارى (٦٣١٣) فى الدعوات ، باب: ما يقول: إذا نام ، ومسلم (٢٧١٠ / ٥٦) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب : ما يقول عند النوم وأخذ المضجع .

إلا بالله ، ثم قال: اللهم اغفر لى ، أو دعا ، استجيب له ، فإن توضأ وصلى قبلت صلاته » (١).

وفى الترمذى عن أبى أمامة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أوى إلى فراشه طاهراً ، وذكر الله تعالى حتى يدركه النعاسُ ، لم ينقلب ساعة من الليل يسأل الله تعالى فيها خَيرا ـ من خير الدنيا والآخرة ـ إلا أعطاه إياه »حديث حسن(٢) .

وفى « سنن أبى داود » ، عن عائشة ، أن رسول الله ﷺ كان إذا استيقظ من الليل قال: «لا إله إلا أنت ، سبحانك اللهم، أستغفرك لذنبى، وأسألك رحمتك، اللهم زدنى علما، ولا تزغ قلبى بعد إذ هديتنى، وهب لى من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب » (٣).

فصل
فى أذكار الفزع فى النوم والقلق

روى الترمذى عن بريدة قال :شكا خالد بن الوليد إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، ما أنام الليل من الأرق . فقال النبى ﷺ : « إذا أويت إلى فراشك فقُل : اللهم رب السموات السبع وما أظلت، ورب الأرضين وما أقلت ، ورب الشياطين وما أضلّت ، كن لى جارا من شر خلقك كلهم جميعا ، أن يفرط على أحد منهم ، أو يبغى على ، عز جارك ، وجل ثناؤك ، ولا إله غيرك ، لا إله إلا أنت »(٤).

وفى « سنن أبى داود » والترمذى عن عبد الله بن عمرو ، أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم من الفزع كلمات: « أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه ، وشر عباده ، ومن همزات الشياطين ، وأن يحضرون » (٥).

وكان عبد الله بن عمرو يعلمهن من عقل من بنيه ، ومن لم يعقل كتبه وعلقه عليه.

---

(١) البخارى (١١٥٤) فى التهجد باب: فضل من تعار من الليل فصلى .

(٢) الترمذى (٣٥٢٦) فى الدعوات ، باب: ٩٣ .

(٣) أبو داود (٥٠٦١) فى الأدب ، باب: ما يقول الرجل إذا تعار من الليل .

(٤) الترمذى (٣٥٢٣) فى الدعوات ، باب: ٩١ ، وقال: « هذا حديث ليس إسناده بالقوى » .

(٥) أبو داود (٣٨٩٣) فى الطب ، باب: كيف الرقى ؟ والترمذى (٣٥٢٨) فى الدعوات . باب: ٩٤، وقال: «هذا حديث حسن غريب » .

فصل
فى أذكار من رأى رؤيا يكرهها أو يحبها

فى « الصحيحين » عن أبى قتادة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « الرؤيا من الله، والحلم من الشيطان ، فإذا رأى أحدكم الشىء يكرهه فلينفس عن يساره ثلاث مرات إذا استيقظ ، وليتعوذ بالله من شرّها ، فإنها لن تضره إن شاء الله » (١). قال أبو قتادة: كنت أرى الرؤيا تمرضنى ، حتى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الرؤيا الصالحة من اللّه ، فإذا رأى أحدكم ما يُحب فلا يحدث به إلا من يحب ، وإذا رأى ما يكره فلا يحدث به ،وليتفل عن يساره ثلاثا ، وليتعوذ باللّه من الشيطان الرجيم، ومن شرّ ما رأى فإنها لا تضره » (٢).

وفى « صحيح مسلم » عن جابر ،عن رسول الله ﷺ قال: « إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها ، فليبصق عن يساره ثلاث مرات ،وليستعذ باللّه من الشيطان ثلاثا ،وليتحول عن جنبه الذى كان عليه » (٣).

ويذكر عن النبى ﷺ أن رجلا قص عليه رؤيا فقال:« خيراً رأيت ،وخيرا يكون »(٤).

وفى رواية:« خيرا تلقاه ،وشرا توقاه .خيرا لنا ، وشرا على أعدائنا ،والحمد لله رب العالمين »(٥) (٦) .

وأيضا

وكان ﷺ إذا أوى إلى فراشه للنوم قال: « باسمك اللهم أحيا وأموت »(٧) . وكان يجمع كفيه ثم ينفث فيهما ، وكان يقرأ فيهما : ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ①** ﴾ و﴿ **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ①** ﴾ و﴿ **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ①** ﴾ ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده ، يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده ، يفعل ذلك ثلاث مرات (٨).

---

(١) البخارى (٥٧٤٧) فى الطب ، باب: النفث فى الرقية ، ومسلم (٢٢٦١ / ١) فى أول الرؤيا .

(٢) مسلم (٢٢٦١ / ٤) فى أول الرؤيا . (٣) مسلم (٢٢٦٢ / ٥) فى أول الرؤيا .

(٤) كنز العمال (٣٠٣٧) وعزاه لابن السنى فى عمل يوم وليلة عن أبى موسى .

(٥) الهيثمى فى مجمع الزوائد ٧/ ١٨٦ ،١٨٧ وقال :« رواه الطبرانى وفيه سليمان بن عطاء القرشى وهو ضعيف »، وكنز العمال (٤١٤٧٠) .

(٦) الوابل الصيب (٢٠٢ ـ ٢١٤) .

(٧) البخارى (٦٣١٢) فى الدعوات ، باب:ما يقول إذا نام ، وأبو داود (٥٠٤٩) فى الأدب ، باب:ما يقال عند النوم .

(٨) البخارى (٥٠١٧) فى فضائل القرآن ، باب: فضل المعوذات، وأبو داود (٥٠٥٦) فى الأدب ، باب: ما يقال عند النوم

وكان ينام على شقه الأيمن ويضع يده اليمنى تحت خده الأيمن ثم يقول: « اللهم قنى عذابك يوم تبعث عبادك »(١) وكان يقول إذا أوى إلى فراشه :« الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا ، فكم ممن لا كافى له ولا مؤوى »ذكره مسلم (٢). وذكر أيضا أنه كان يقول إذا أوى إلى فراشه : « اللهم رب السموات والأرض ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شىء فالق الحب والنوى منزل التوراة والإنجيل والفرقان ، أعوذ بك من شر كل ذى شىء أنت أخذ بناصيته ، أنت الأول فليس قبلك شىء وأنت الآخر فليس بعدك شىء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شىء ،وأنت الباطن ، فليس دونك شىء ، اقض عنا الدين وأغننا من الفقر » (٣).

وكان إذا استيقظ من منامه فى الليل قال:« لا إله إلا أنت سبحانك ، اللهم إنى أستغفرك لذنبى ، وأسألك رحمتك ، اللهم زدنى علماً ، ولا تزغ قلبى بعد إذ هديتنى ، وهب لى من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب » (٤).

وكان إذا انتبه من نومه قال:« الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور »(٥) ثم يتسوك ، وربما قرأ العشر الآيات من آخر (آل عمران) من قوله :﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ** ...... ﴾ إلى آخرها [آل عمران: ١٩٠ ـ ٢٠٠] وقال:« اللهم لك الحمد، أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد ، أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن ،ولك الحمد ،أنت الحق، ووعدك الحق ،ولقاؤك حق ،والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ،ومحمد حق ،والساعة حق ،اللهم لك أسلمت ،وبك آمنت ، وعليك توكلت ،وإليك أنبت ، بك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ،أنت إلهى لا إله إلا أنت»(٦) (٧).

وأيضا

كان إذا استيقظ قال: « الحمد للّه الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور » .

---

(١) أبو داود (٥٠٤٥) فى الأدب ، باب: ما يقال عند النوم .
(٢) مسلم (٢٧١٥ / ٦٤) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: ما يقول عند النوم وأخذ المضجع .
(٣) مسلم (٢٧١٣ / ٦١) فى الذكر والدعاء والتوبة الاستغفار ، باب: ما يقول عند النوم وأخذ المضجع .
(٤) أبو داود (٥٠٦١) فى الأدب ، باب: ما يقال عند النوم .
(٥) البخارى (٦٣٢٥) فى الدعوات ، باب: ما يقول إذا أصبح .
(٦) البخارى (٦٣١٧) فى الدعوات ، باب: الدعاء إذا انتبه من الليل ، ومسلم (٧٦٩ / ١٩٩) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب: الدعاء فى صلاة الليل وقيامه .
(٧) زاد المعاد (١ / ١٥٥ ـ ١٥٨) .

وقالت عائشة : كان إذا هبّ من الليل ، كبّر الله عشرا ، وحمد الله عشرا، وقال : « سبحان الله وبحمده » عشرا ،« سبحان الملك القدوس» عشرا ،و« أستغفر اللّه عشرا ، وهلل عشرا ، ثم قال : « اللهم إنى أعوذ بك من ضيق الدنيا ،وضيق يوم القيامة»[١] عشرا ، ثم يستفتح الصلاة .

وقالت : أيضا :كان إذا استيقظ من الليل قال: « لا إله إلا أنت سبحانك ، اللهم أستغفرك لذنبى ، وأسألك رحمتك ، اللهم زدنى علما ، ولا تزغ قلبى بعد إذ هديتنى ، وهب لى من لدنك رحمة، إنك أنت الوهاب » ذكرهما أبو داود [٢].

وأخبر أن من استيقظ من الليل فقال:« لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك، وله الحمد ،وهو على كل شىء قدير ، الحمد لله ، وسبحان الله ، ولا إله إلا الله، والله أكبر ،ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ثم قال: اللهم اغفر لى ـ أو دعا بدعاء آخر ـ استجيب له ، فإن توضأ وصلى ، قبلت صلاته »[٣] ذكره البخارى وقال ابن عباس عنه ﷺ ليلة مبيته عنده: إنه لما استيقظ ، رفع رأسه إلى السماء وقرأ العشر الآيات الخواتيم من سورة (آل عمران)﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ** ﴾ إلى آخرها .

ثم قال :« اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ،ولك الحمد ، أنت قيمُ السماوات والأرض ومن فيهن ،ولك الحمد ،أنت الحق ،ووعدك الحق ، وقولك الحق ،ولقاؤك حق ، والجنة حق ،والنار حق،والنبيون حق ،ومحمد حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت ،وما أسررت وما أعلنت ، أنت إلهى ، لا أله إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » [٤] .

وقالت عائشة ﵂ كان إذا قام من الليل قال : « الله رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم » [٥].

وربما قالت : كان يفتتح صلاته بذلك . وكان إذا أوتر ، ختم وتره بعد فراغه بقوله:

---

(١) أبو داود (٥٠٨٥) فى الأدب ،باب: ما يقول إذا أصبح ، وأحمد (٦/ ١٤٣) .

(٢) أبو داود (٥٠٦١) فى الأدب ، باب: ما يقول الرجل إذا تعار من الليل .

(٣) البخارى (١١٥٤) فى التهجد ، باب : فضل من تعار من الليل فصلى .

(٤) البخارى (١١٢٠) فى التهجد ، باب : التهجد بالليل ، ،ومسلم (٧٦٩ / ١٩٩) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب: الدعاء فى صلاة الليل وقيامه .

(٥) مسلم (٧٧٠ / ٢٠٠) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب: الدعاء فى صلاة الليل وقيامه ،وأبو داود (٧٦٧) فى الصلاة ، باب: ما يستفتح به الصلاة من الدعاء .

« سبحان الملك القدوس » ثلاثا، ويمدُّ بالثالثة صوته[١] .

وأيضا

وشكى إليه ﷺ خالد بن الوليد الأرق بالليل ،فقال له : « إذا أويت إلى فراشك فقل: اللهم رب السموات السبع وما أظلت ،ورب الأرضين السبع وما أقلّت ،ورب الشياطين وما أضلت ، كن لى جارا من شر خلقك كلهم جميعا من أن يفرط أحد منهم على ،أو أن يطغى على ، عز جارك ،وجل ثناؤك ،ولا إله إلا أنت » [٢].

وكان ﷺ يُعلم أصحابه من الفزع : « أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه ومن شرّ عباده ومن شر همزات الشياطين ، وأن يحضرون » [٣].

ويذكر أن رجلا شكى إليه ﷺ أنه يفزع فى منامه ، فقال : « إذا أويت إلى فراشك فقل . . . » ثم ذكرها ، فقالها فذهب عنه[٤] .

وأيضا

صح عنه ﷺ :« الرؤيا الصالحة من الله ، والحلم من الشيطان ، فمن رأى رؤيا يكره منها شيئا ، فلينفث عن يساره ثلاثا ،وليتعوذ بالله من الشيطان ،فإنها لا تضره، ولا يخبر بها أحداً . وإن رأى رؤيا حسنة ، فليستبشر ، ولا يخبر بها إلا من يحب »[٥].

وأمر من رأى ما يكرهه أن يتحول عن جنبه الذى كان عليه ، وأمره أن يصلى [٦].

فأمره بخمسة أشياء : أن ينفث عن يساره ، وأن يستعيذ بالله من الشيطان ، وألا يخبر بها أحدا، وأن يتحول عن جنبه الذى كان عليه .وأن يقوم يصلى ، ومتى فعل ذلك ، لم تضره الرؤيا المكروهة ، بل هذا يدفع شرها.

---

(١) زاد المعاد (٢/ ٣٦٥ ـ ٣٦٨) .

(٢) الترمذى (٣٥٢٣) فى الدعوات ، باب : ٩١ ، وقال : « ليس إسناده بالقوى » .

(٣) أبو داود (٣٨٩٣) فى الطب ،باب : كيف الرقى ، والترمذى (٣٥٢٨) فى الدعوات ، باب: ٩٤ ، وقال : « حسن غريب » .

(٤) زاد المعاد (٢/ ٤٦٧ ، ٤٦٨) .

(٥) البخارى (٦٩٩٥) فى التعبير ، باب: من رأى النبى ﷺ فى المنام ، ومسلم (٢٢٦١ / ٣) فى أول الرؤيا .

(٦) مسلم (٢٢٦٢ / ٥) فى أول الرؤيا .

وقال : « الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبّر ، فإذا عُبّرت وقعت ،ولا يقُصُّها إلا على وادٍّ ، أو ذى رأى » (١).

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، إذا قُصت عليه الرؤيا ، قال: اللهم إن كان خيرا فلنا ، وإن كان شرا ، فلعدونا.

ويُذكر عن النبى ﷺ: « من عُرضت عليه رؤيا ، فليقُل لمن عرض عليه خيرا »(٢) .

ويذكر عنه أنه كان يقول للرائى قبل أن يعبرها له:« خيرا رأيت » (٣) .ثم يعبرها .

وذكر عبد الرزاق ،عن معمر ، عن أيوب ،عن ابن سيرين ،قال:كان أبو بكر الصديق إذا أراد أن يعبر رؤيا ، قال:إن صدقت رؤياك يكون كذا وكذا (٤).

فصل
فى أذكار الخروج من المنزل

فى « السنن » عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ:« من قال: يعنى إذا خرج من بيته: بسم الله ، توكلت على الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » يقال له : « كفيت ووقيت وهديت ، وتنحى عنه الشيطان ،فيقول لشيطان آخر، كيف لك برجل قد هُدى وكفى ووقى؟ » (٥).

وفى مسند الإمام أحمد :« بسم الله ،آمنت بالله،واعتصمت بالله ،توكلت على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله » حديث حسن (٦).

وفى السنن الأربع ،عن أم سلمة قالت :ما خرج رسول الله ﷺ من بيتى إلا رفع طرفه إلى السماء فقال:« اللهم إنى أعوذ بك أن أضل أو أضل ، أو أزِل أو أُزَل ، أو أظْلِم

(١) أبو داود (٥٠٢٠) فى الأدب ، باب: ما جاء فى الرؤيا ، والترمذى (٢٢٧٩) فى الرؤيا ، باب : ما جاء فى تعبير الرؤيا ، وقال: « حسن صحيح » ، واللفظ لأبى داود .

(٢)انظر : الأذكار للنووى ص ١٢٦ .

(٣) كنز العمال (٣٠٣٧) ، وعزاه لابن السنى فى عمل اليوم والليلة عن أبى موسى .

(٤) عبد الرزاق (٢٠٥٨) فى الجامع ، باب: الرؤيا .

(٥) أبو داود (٥٠٩٥) فى الأدب ،باب:ما جاء فيمن خرج من بيته ما يقول ،والترمذى (٣٤٢٦) فى الدعوات ، باب : ما يقول إذا خرج من بيته ، وقال هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، والنسائى (٥/٩٩١٧) فى عمل اليوم والليلة ، باب : ما يقول إذا خرج من بيته، وابن ماجه (٣٨٨٦) فى الدعاء ، باب: ما يدعو به الرجل إذا خرج من بيته .

(٦) أحمد (٦٦/١) ، وقال الشيخ شاكر (٤٧١) :« إسناده ضعيف » .

أو أُظلَم ، أو أجهل أو يُجْهل عليّ » . قال الترمذى :حديث حسن صحيح (١).

وكان إذا خرج من بيته يقول : « بسم الله ، توكلت على الله ، اللهم إنى أعوذ بك أن أضل أو أُضلّ ، أو أزِل أو أُزَلَّ ، أو أظلم أو أُظلم ، أو أجهل أو يُجهل عليّ » حديث صحيح(٢) .

وقال ﷺ :« من قال إذا خرج من بيته: بسم الله ، توكلت على اللّه ،ولا حول ولا قوة إلا بالله ،يقال له :هُديت ،وكفيت ،ووقيت ،وتنحى عنه الشيطان »حديث حسن (٣).

وقال ابن عباس عنه ليلة مبيته عنده :إنه خرج إلى صلاة الفجر وهو يقول: « اللهم اجعل فى قلبى نورا ،واجعل فى لسانى نورا ،واجعل فى سمعى نورا ،واجعل فى بصرى نورا ، واجعل من خلفى نورا، ومن أمامى نورا ، واجعل من فوقى نورا ، واجعل من تحتى نورا ، اللهم أعظم لى نورا »(٤) .

وقال فضيل بن مرزوق ،عن عطية العوفى ، عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ :« ما خرج رجل من بيته إلى الصلاة فقال : اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاى هذا إليك ، فإنى لم أخرج بطرا ولا أشرا ، ولا رياء ، ولا سمعة، وإنما خرجت اتقاء سخطك ، وابتغاء مرضاتك ، أسألك أن تنقذنى من النار ، وأن تغفر لى ذنوبى ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، إلا وكل اللّه به سبعين ألف ملك يستغفرون له ، وأقبل الله عليه بوجهه حتى يقضى صلاته »(٥) (٦).

(١ ، ٢) أبو داود (٥٠٩٤) فى الأدب ، باب:ما جاء فيمن خرج من بيته ما يقول، والترمذى (٣٤٢٧) فى الدعوات، باب: ما يقول إذا خرج من بيته ، وقال: « هذا حديث حسن صحيح» ، والنسائى فى الكبرى (٩٩١٣) فى عمل اليوم والليلة باب: ما يقول إذا خرج من بيته، وابن ماجه (٣٨٨٤) فى الدعاء ، باب : ما يدعو به الرجل إذا خرج من بيته .

(٣) الترمذى (٣٤٢٦) فى الدعوات ،باب ما يقول إذا خرج من بيته ، وكان « حسن صحيح غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه » .

(٤) البخارى (٦٣١٦) فى الدعوات ، باب: الدعاء إذا انتبه من الليل ، مسلم (٧٦٣ / ١٩١) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب: الدعاء فى صلاة الليل وقيامه ، واللفظ لمسلم .

(٥) أحمد (٣/ ٢١) ، وابن ماجه (٧٧٨) فى المساجد والجماعات ، باب المشى إلى الصلاة .

(٦) زاد المعاد (٢ / ٣٦٨ ، ٣٦٩) .

فصل
فى أذكار دخول المنزل

فى « صحيح مسلم » عن جابر ، قال :سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إذا دخل الرجل بيته، فذكر الله تعالى عند دخوله وعند طعامه ، قال :الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل فلم يذكر الله تعالى عند طعامه قال: أدركتم المبيت والعشاء » [١].

وفى « سنن أبى داود » عن أبى مالك الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ: « إذا ولج الرجل بيته ، فليقل : اللهم إنى أسألك خير المولج ،وخير المخرج ، بسم الله ولجنا، وبسم الله خرجنا ،وعلى اللّه ربنا توكلنا ، ثم ليسلم على أهله »[٢] .

وفى الترمذى عن أنس ،قال :قال لى رسول الله ﷺ :« يا بنى إذا دخلت على أهلك فسلّم يكُن بركة عليك وعلى أهل بيتك » [٣]. قال الترمذى : حديث حسن صحيح[٤].

وأيضا

يذكر عنه ﷺ أنه كان يقول إذا انقلب إلى بيته : « الحمد للّه الذى كفانى ، وآوانى، والحمد لله الذى أطعمنى وسقانى ، والحمد لله الذى منَّ علىَّ فأفضل ، أسألك أن تجيرنى من النار » [٥] .

وثبت عنه ﷺ أنه قال لأنس : « إذا دخلت على أهلك فسلم يكن بركة عليك وعلى أهلك » قال الترمذى : حديث حسن صحيح[٦].

وفى السنن عنه ﷺ « إذا ولج الرجل بيته ، فليقل: اللهم إنى أسألك خير المولج ، وخير المخرج ، بسم الله ولجنا ، وعلى اللّه ربنا توكلنا ، ثم ليسلم على أهله » [٧].

---

(١) أحمد (٣/ ٣٤٧ ، ٣٨٣) ، مسلم (٢٠١٨ / ١٠٣) فى الأشربة ، باب :آداب الطعام والشراب وأحكامهما.

(٢) أبو داود (٥٠٩٦) فى الأدب ، باب: ما جاء فيمن دخل بيته ما يقول .

(٣) الترمذى (٢٦٩٨) فى الاستئذان ، باب : ما جاء فى التسليم إذا دخل بيته ، وقال : « حسن غريب » .

(٤) الوابل الصيب (٢١٦ ، ٢١٧) .

(٥) الحاكم فى المستدرك (١/ ٥٤٥ ، ٥٤٦) فى الدعاء ، باب : دعاء إذا أوى إلى فراشه وقال: « هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ، ووافقه الذهبى .

(٦) الترمذى (٢٦٩٨) فى الاستئذان ، باب: ما جاء فى التسليم إذا دخل بيته ، وقال: «حسن غريب » .

(٧) أبو داود (٥٠٩٦) فى الأدب ، باب ، ما جاء فيمن دخل بيته ما يقول، ولم يعزه صاحب التحفة ٩/ ٢٨١ إلا لأبى داود .

وفيها عنه ﷺ :« ثلاثة كلهم ضامن على الله : رجل خرج غازيا فى سبيل الله ، فهو ضامن على الله حتى يتوفاه فيدخله الجنة أو يرده بما نال من أجر وغنيمة ، ورجل راح إلى المسجد ،فهو ضامن على الله حتى يتوفاه فيدخله الجنة أو يرده بما نال من أجر وغنيمة، ورجل دخل بيته بسلام، فهو ضامن على الله » حديث صحيح(١) .

وصح عنه ﷺ: « إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه ، قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء ، وإذا دخل ، فلم يذكر الله عند دخوله ، قال الشيطان: أدركتم المبيت، وإذا لم يذكر الله عند طعامه، قال: أدركتم المبيت العشاء » ذكره مسلم (٢)(٣).

فصل
فى أذكار دخول المسجد والخروج منه

فى « صحيح مسلم » ، عن أبى حميد ، أو أبى أسيد قال: قال رسول الله ﷺ : « إذا دخل أحدكم إلى المسجد ، فليسلم على النبى ﷺ وليقل : اللهم افتح لى أبواب رحمتك، وإذا خرج فليقل : اللهم إنى أسألك من فضلِك »(٤) .

وفى « سنن أبى داود » عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ : أنه كان إذا دخل المسجد قال: « أعوذ بالله العظيم ، وبوجهه الكريم ،وسلطانه القديم ، من الشيطان الرجيم » فإذا قال ذلك ، قال الشيطان : حفظ منى سائر اليوم (٥) (٦).

أيضا

ذكر أبو داود عنه ﷺ أنه كان إذا دخل المسجد قال: « أعوذ بالله العظيم ، وبوجهه الكريم ، وسلطانه القديم ، من الشيطان الرجيم ،» فإذا قال ذلك قال الشيطان : حُفظ منى سائر اليوم .

---

(١) أبو داود (٢٤٩٤) فى الجهاد ، باب: فضل الغزو فى البحر .

(٢) مسلم (٢٠١٨ / ١٠٣) فى الأشربة ، باب: آداب الطعام والشراب وأحكاها .

(٣) زاد المعاد (٢/ ٣٨١ ـ ٣٨٣) .

(٤)مسلم (٧١٣ / ٦٨) فى صلاة المسافرين وقصرها ،باب: ما يقول إذا دخل المسجد .

(٥) أبو داود (٤٦٦) فى الصلاة ، باب:فيما يقوله الرجل عند دخوله المسجد .

(٦) الوابل الصيب (٢١٧ ، ٢١٨) .

وقال ﷺ : « إذا دخل أحدكم المسجد ، فليسلم على النبى ﷺ ، وليقل: اللهم افتح لى أبواب رحمتك ، فإذا خرج ، فليقل : اللهم إنى أسألك من فضلك » (١).

وذكر عنه أنه كان إذا دخل المسجد صلى على محمد وآله وسلم ، ثم يقول: «اللهم اغفر لى ذنوبى وافتح لى أبواب رحمتك» ، فإذا خرج صلى على محمد وآله وسلم ، ثم يقول: « اللهم اغفر لى ذنوبى وافتح لى أبواب فضلك » (٢) (٣).

فصل
فى أذكار الآذان

فى « الصحيحين » عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ : « إذا سمعتم النداء فقولوا مثل ما يقول المؤذن » (٤).

وفى « صحيح مسلم » عن عبد الله بن عمرو أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « إذا سمعتم المؤذن ، فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علىّ ، فإنه من صلى علىّ صلاة ، صلى اللّه عليه بها عشرا ، ثم سلوا الله لى الوسيلة ، فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل لى الوسيلة حلت له الشفاعة » (٥).

وفى «صحيح مسلم » عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول اللّه ﷺ: « إذا قال المؤذن: الله أكبر الله أكبر ، فقال أحدكم : الله أكبر الله أكبر ، ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله ، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله ، ثم قال : أشهد أن محمدا رسول الله ، قال: أشهد أن محمدا رسول الله، ثم قال: حى على الصلاة ، قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: حى الفلاح قال : لا حول ولا قو إلا بالله ، ثم قال الله أكبر الله أكبر ، قال: الله أكبر الله أكبر ، ثم قال: لا إله إلا الله، قال: لا إله إلا الله من قلبه ، دخل الجنة»(٦).

---

(١) أبو داود (٤٦٥) فى الصلاة ، باب: فيما يقوله الرجل عند دخوله المسجد .

(٢) الترمذى (٣١٤) فى الصلاة ، باب: ما جاء ما يقول عند دخول المسجد ، وقال: « حديث فاطمة حديث حسن، وليس إسناده بمتصل »، وابن ماجه (٧٧١) فى المساجد والجماعات، باب: الدعاء عند دخول المسجد .

(٣) زاد المعاد (٢ / ٣٦٩ ، ٣٧٠)

(٤) البخارى (٦١١) فى الأذان ، باب: ما يقول إذا سمع المنادى ، ومسلم (٣٨٣ / ١٠) فى الصلاة ، باب: استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ثم يصلى على النبى ﷺ.

(٥) مسلم (٣٨٤ / ١١) فى الصلاة ، باب :استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ثم يصلى على النبى ﷺ .

(٦) مسلم (٣٨٥ / ١٢) فى الصلاة ، باب: استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ثم يصلى على النبى ﷺ .

وفى « صحيح البخارى » عن جابر: أن رسول الله ﷺ قال: « من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة ، آت محمداً الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاماً محمودا الذى وعدته ، حلت له شفاعتى يوم القيامة »(١) .

وفى « سنن أبى داود» عن عبد الله بن عمرو قال: يا رسول الله، إن المؤذنين يفضلوننا ، فقال رسول الله ﷺ :« قُل كما يقولون ، فإذا انتهيت ، فسَلْ تعْطَهْ »(٢).

وفى الترمذى عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ:« الدعاء لا يردّ بين الأذان والإقامة». قالوا :فماذا نقول يا رسول الله؟ قال:« سلوا الله العافية فى الدنيا والآخرة »،قال الترمذى: حديث حسن صحيح (٣).

وفى « سنن أبى داود » عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ : « ثنتان لا تردان ، أو قلما تُردان :الدُّعاءُ عند النداء ، وعند البأس حين يلحم بعضهم بعضاً »(٤).

وفى «سنن أبى داود » عن أم سلمة قالت: علمنى رسول الله ﷺ أن أقول عند المغرب:«اللهم هذا إقبال ليلك ، وإدبار نهارك ،وأصوات دعاتك ،وحضور صلواتك ، فاغفر لى » (٥).

ففى « سنن أبى داود » عن بعض أصحاب النبى ﷺ ، أن بلالا أخذ فى الإقامة ، فلما أن قال : قد قامت الصلاة، قال النبى ﷺ :« أقامها الله وأدامها » (٦).

فهذه خمس سنن فى الأذان : إجابته ، وقول : رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً حين يسمع التشهد ،وسؤال الله تعالى لرسوله ﷺ الوسيلة ،والصلاة عليه ﷺ، والدعاء لنفسه ما شاء .

وعن سعد بن أبى وقاص، عن رسول الله ﷺ قال:« من قال حين يسمع المؤذن : وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،وأن محمد عبده ورسوله، رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا ، وبمحمد رسولا ، غفر الله له ذنوبه » (٧) (٨).

---

(١) البخارى (٦١٤) فى الأذان ، باب: الدعاء عند النداء .

(٢) أبو داود (٥٢٤) فى الصلاة ، باب: ما يقول إذا سمع المؤذن ، بلفظ : « عن عبد الله بن عمرو أن رجلا قال : يا رسول الله . . . ».

(٣) الترمذى (٣٥٩٤) فى الدعوات ، باب: فى العفو والعافية، وقال: « حسن » .

(٤) أبو داود (٢٥٤٠) فى الجهاد ، باب: الدعاء عند اللقاء .

(٥) أبو داود (٥٣٠) فى الصلاة ، باب: ما يقول عند أذان المغرب .

(٦) أبو داود (٥٢٨) فى الصلاة ، باب: ما يقول إذا سمع الإقامة .

(٧) أبو داود (٥٢٥) فى الصلاة ، باب: ما يقول إذا سمع المؤذن .

(٨) الوابل الصيب (٢١٩ ـ ٢٢٣) .

باب منه

أما هديه ﷺ فى الذكر عند الأذان وبعده ، فشرع لأمته منه خمسة أنواع :

أحدها : أن يقول السامع ، كما يقول المؤذن ، إلا فى لفظ « حى على الصلاة »«حى الفلاح » فإنه صح عنه إبدالُهما بـ « لا حول ولا قوّة إلا بالله » (١) ولم يجئ عنه الجمع بينها وبين « حى على الصلاة » « حى على الفلاح » ولا الاقتصار على الحيعلة ، وهديه ﷺ الذى صح عنه إبدالهما بالحوقلة ،وهذا مقتضى الحكمة المطابقة لحال المؤذن والسامع، فإن كلمات الأذان ذكر ،فسن للسامع أن يقولها ، وكلمة الحيعلة ، إلى الصلاة لمن سمعه، فسن للسامع أن يستعين على هذه الدعوة بكلمة الإعانة وهى « لا حول ولا قوة إلا بالله » العلى العظيم .

الثانى : أن يقول:وأنا أشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسولُ الله ، رضيت بالله ربا وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً ، وأخبر أن من قال ذلك غُفر له ذنبه (٢).

الثالث: أن يُصلى على النبىّ ﷺ بعد فراغه من إجابة المؤذن ، وأكمل ما يصلى عليه به ،ويصلى إليه ، هى الصلاة الإبراهيمية كما علّم أمته أن يصلوا عليه ، فلا صلاة عليه أكمل منها ،وإن تحذلق المتحذلقون .

الرابع :أن يقول بعد صلاته عليه :« اللهم ربَّ هذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاما محموداً الذى وعدته إنك لا تخلف الميعاد »(٣) هذا جاء بهذا اللفظ « مقاما محمودا » بلا ألف ولا لام، وهكذا صح عنه ﷺ.

الخامس : أن يدعو لنفسه بعد ذلك ، ويسأل اللّه من فضله ، فإنه يُستجاب له ، كما فى « السنن » عنه ﷺ : « قل كما يقولون يعنى المؤذنين ، فإذا انتهيت فسل تُعطه » (٤).

وذكر الإمام أحمد عنه ﷺ: « من قال حين ينادى المنادى : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة النافعة ،صلِّ على محمد وارض عنه رضى لا سخط بعده ،استجاب الله له

---

(١) أبو داود (٥٢٧) فى الصلاة ، باب: ما يقول إذا سمع المؤذن .

(٢) سبق تخريجه فى الصفحة السابقة .

(٣) البخارى (٦١٤) فى الأذان ، باب: الدعاء عند النداء دون لفظة : « أنك لا تخلف الميعاد » ، والبيهقى فى الكبرى (١/ ٤١٠) فى الصلاة ، باب: ما يقول إذا فرغ من ذلك ،واللفظ له .

(٤) أبو داود (٥٢٤) فى الصلاة ، باب: ما يقول إذا سمع المؤذن .

دعوته » (١).

وقالت أم سلمة رضي الله عنها : علمنى رسول الله ﷺ أن أقول عند أذان المغرب : « اللهم إن هذا إقبال ليلك وإدبار نهارك ، وأصوات دعاتك ، فاغفر لى » ذكره الترمذى(٢).

وذكر الحاكم فى « المستدرك » من حديث أبى أمامة يرفعه أنه كان إذا سمع الأذان قال: « اللهم رب هذه الدعوة التامة المستجابة ،والمستجاب لها ، دعوة الحق وكلمة التقوى، توفنى عليها وأحينى عليها ، واجعلنى من صالحى أهلها عملا يوم القيامة » وذكره البيهقى من حديث ابن عمر موقوفاً عليه (٣).

وذكر عنه ﷺ أنه كان يقول عند كلمة الإقامة : « أقامها الله وأدامها » (٤).

وفى السنن عنه ﷺ : « الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة » قالوا : فما نقول يا رسول الله ؟ قال: « سلُوا اللّه العافية فى الدنيا والآخرة » حديث صحيح (٥).

وفيها عنه : « ساعتان ، يفتح الله فيهما أبواب السماء ، وقلما تُرد على داع دعوته: عند حضور النداء ، والصف فى سبيل الله »(٦) (٧).

فصل
فى أذكار الاستفتاح

فى « الصحيحين » أن النبى ﷺ كان يقول فى استفتاحه:« اللهم باعدْ بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم نقنى من خطاياى ،كما ينقى الثوب الأبيض

---

(١) أحمد (٣٣٧٣) .

(٢) الترمذى (٣٥٨٩) فى الدعوات ، باب : دعاء أم سلمة ، وقال: « غريب » .

(٣) الحاكم فى المستدرك ١ / ٥٤٦ (٥٤٧) فى الدعاء ، باب: إجابة الأذان والدعاء بعده ، وقال: « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » وتعقبه الذهبى وقال: « عفير واه جدا » ، والبيهقى فى الكبرى (١/ ٤١١) فى الصلاة ، باب: ما يقول إذا سمع الإقامة .

(٤) أبو داود (٥٢٨) فى الصلاة ، باب: ما يقول إذا سمع الإقامة .

(٥) أبو داود (٥٢١) فى الصلاة ، باب : ما جاء فى الدعاء بين الأذان والإقامة ، والترمذى (٣٥٩٤) فى الدعوات ، باب: فى العفو والعافية وقال : « حسن » ، واللفظ له ، والنسائى فى الكبرى (٩٨٩٥) فى عمل اليوم والليلة ، باب: الترغيب فى الدعاء بين الأذان والإقامة .

(٦) أبو داود (٢٥٤٠) فى الجهاد ، باب : الدعاء عند اللقاء.

(٧) زاد المعاد (٢/ ٣٩١ ـ ٣٩٤) .

من الدنس ، اللهم اغسلنى من خطاياى بالماء والثلج والبرد » (١).

وفى « سنن أبى داود » ،عن جبير بن مطعم ،أنه رأى رسول الله ﷺ يصلى صلاة قال: « الله أكبر كبيرًا ، والحمد لله كثيرًا ، وسبحان الله بكرة وأصيلا ـ ثلاثًا ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من نفخه ونفثه وهمزه » (٢). قال : نفثه : الشعر ، ونفخه: الكبر ، وهمزه : الموتة .

وفى « السنن الأربعة »،عن عائشة وأبى سعيد وغيرهما ،أن النبى ﷺ كان إذا استفتح الصلاة قال: «سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ،وتعالى جدك ،ولا إله غيرك»(٣). وهو فى « صحيح مسلم » عن عمر موقوف عليه (٤) .

وفى « صحيح مسلم » عن على بن أبى طالب قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة قال: « وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ، إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا من المسلمين ،اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربى وأنا عبدك ،ظلمت نفسى ، واعترفت بذنبى ، فاغفر لى ذنوبى جميعا ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدنى لأحسن الأخلاق لا يهدى لأحسنها إلا أنت ،واصرف عنى سيئها لا يصرف عنى سيئها إلا أنت ، لبيك وسعديك ،والخير كله فى يديك ،والشر ليس إليك، أنا بك وإليك ، تباركت وتعاليت أستغفرك وأتوب إليك » (٥).

وفى «صحيح مسلم » ، عن عائشة: كان رسول الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل: « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل،فاطر السموات والأرض،عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ،اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم » (٦).

---

(١) البخارى (٧٤٤) فى الأذان ، باب: ما يقول بعد التكبير ، ومسلم (٥٩٨ / ١٤٧) فى المساجد ومواضع الصلاة ، باب : ما يقال بين تكبيرة الإحرام والقراءة .

(٢) أبو داود (٧٦٤) فى الصلاة ، باب: ما تستفتح به الصلاة من الدعاء .

(٣) أبو داود (٧٧٦) فى الصلاة ،باب: من رأى الاستفتاح بسبحانك اللهم وبحمدك ، والترمذى (٢٤٣) فى الصلاة، باب:ما يقول عند افتتاح الصلاة وقال: « هذا حديث لا نعرفه من حديث عائشة إلا من هذا الوجه »، والنسائى (٨٩٩) فى الافتتاح ، باب: الذكر بين افتتاح الصلاة وبين القراءة ،وابن ماجه (٨٠٦) فى إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب: افتتاح الصلاة .

(٤) مسلم (٣٩٩ / ٥٢) فى الصلاة ، باب: حجة من قال : لا يجهر بالبسملة .

(٥) مسلم (٧٧١ / ٢٠١) فى صلاة المسافرين وقصرها . ، باب: الدعاء فى صلاة الليل وقيامه .

(٦) مسلم (٧٧٠ / ٢٠٠) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب: الدعاء فى صلاة الليل وقيامه .

وفى « الصحيحين » : عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يقول إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل : « اللهم لك الحمد ، أنت نُور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت قيّام السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت رب السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت الحق ،ووعدك الحق ، وقولك الحق ، ولقاؤك حق ، والساعة حق . اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت إلهى لا إله إلا أنت » (١).

فصل
فى ذكر الركوع والسجود والفصل بينهما وبين السجدتين

فى « السنن الأربعة » عن حذيفة رضى الله تعالى عنه ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول إذا ركع :« سبحان ربى العظيم » ثلاث مرات،وإذا سجد قال « سبحان ربى الأعلى » ثلاث مرات (٢).

وفيه حديث على ﷺ ، أن رسول الله ﷺ يقول فى ركوعه :« اللهم لك ركعت ، وبك آمنت، ولك أسلمت خشع لك سمعى وبصرى، ومخى وعظمى وعصبى»وإذا رفع رأسه من الركوع يقول : « سمع اللّه لمن حمده ربنا ولك الحمد ملء السموات وملء الأرض ، وملء ما بينهما ، وملء ما شئت من شىء بعد » وإذا سجد يقول فى سجوده: «اللهم لك سجدت وبك آمنت ،ولك أسلمت سجد وجهى للذى خلقه وصوّره ، وشق سمعه وبصره ، تبارك الله أحسن الخالقين » (٣).

وفى « الصحيحين » عن عائشة ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده :« سبحانك اللهم ربنا وبحمدك .اللهم اغفر لى »(٤).

(١) البخارى (١١٢٠) فى التهجد، باب: التهجد بالليل ،ومسلم (٧٦٩/ ١٩٩) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب: الدعاء فى صلاة الليل وقيامه .

(٢) أبو داود (٨٧١) فى الصلاة ، باب: ما يقول الرجل فى ركوعه وسجوده ، والترمذى (٢٦٢) فى الصلاة ، باب:ما جاء فى التسبيح فى الركوع والسجود وقال :« حسن صحيح » ،والنسائى (١٠٤٦) فى الافتتاح ، باب: الذكر فى الركوع ،وابن ماجه (٨٨٨) فى إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب: التسبيح فى الركوع والسجود

(٣) مسلم (٧٧١/٢٠١) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب : الدعاء فى صلاة الليل وقيامه ، والترمذى (٣٣٢١) فى الدعوات ، باب (٣٢) .

(٤) البخارى (٧٩٤) فى الأذان ،باب: الدعاء فى الركوع ، ومسلم (٤٨٤/ ٢١٧) فى الصلاة ، باب: ما يقال فى الركوع والسجود .

وفى « صحيح مسلم » عنها رضي الله عنها : كان رسول الله ﷺ يقول فى ركوعه وسجوده : «سبّوح قدّوس،رب الملائكة والروح » (١).

وفى « سنن أبى داود » عن عوف بن مالك رضي الله عنه، أن النبى ﷺ كان يقول فى ركوعه وسجوده: « سبحان ذى الجبروت ،والملكوت ،والكبرياء ،والعظمة » (٢).

وفى « صحيح مسلم » عن أبى سعيد رضي الله عنه قال: كان رسول اللّه ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع قال:« اللهم ربنا لك الحمد ،ملء السموات ،وملء الأرض وملء ما بينهما، وملء ما شئت من شىء بعد ، أهل الثناء والمجد ،أحق ما قال العبد ،وكلنا لك عبد، اللهم لا مانع لما أعطيت ولامعطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»(٣) .

وفى « صحيح البخارى » عن رفاعة بن رافع رضي الله عنه قال : كنا نصلى يوما وراء النبى ﷺ ، فلما رفع رأسه من الركعة قال: « سمع الله لمن حمده » ، فقال رجل وراءه : ربنا ولك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ، فلما انصرف قال: « من المتكلم ؟» قال: أنا يا رسول الله . قال: « لقد رأيت بضعة وثلاثين ملكا يبتدرونها أيهم يكتبها أول »(٤) .

وفى « صحيح مسلم » عن أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال: « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا الدعاء »(٥) .

وعنه رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ كان يقول فى سجوده: « اللهم اغفر لى ذنبى كله ، دقَّه ، وجِلَّه ،وأوَّله وآخره ،وعلانيته ، وسرَّه » (٦).

وقالت عائشة رضي الله عنها :افتقدت النبى ﷺ ذات ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدى على بطن قدميه وهو فى المسجد وهما منصوبتان وهو يقول:« اللهم إنى أعُوذ برضاك من سخطك ،وبمُعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك لا أحصى ثناءً عليك ،أنت كما أثنيت على نفسك »(٧). روى مسلم هذه الأحاديث .

وفى « سنن أبى داود » عن ابن عباس رضى اللّه تعالى عنهما قال:كان رسول الله ﷺ

---

(١) مسلم (٤٨٧ / ٢٢٣) فى الصلاة ، باب: ما يقال فى الركوع والسجود .

(٢) أبو داود (٨٧٣) فى الصلاة ، باب: ما يقول الرجل فى ركوعه وسجوده .

(٣) مسلم (٤٧٧ / ٢٠٥) فى الصلاة ،باب : ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع

(٤) البخارى (٧٩٩) فى الأذان ،باب: ١٢٦ .

(٥) مسلم (٤٨٢ / ٢١٥) فى الصلاة ، باب: ما يقال فى الركوع والسجود .

(٦) مسلم (٤٨٣/ ٢١٦) فى الصلاة ، باب: ما يقال فى الركوع والسجود .

(٧) مسلم (٤٨٦ / ٢٢٢) فى الصلاة ، باب: ما يقال فى الركوع والسجود .

يقول بين السجدتين : « اللهم اغفر لى وارحمنى ، واهدنى، واجبرنى ، وعافنى وارزقنى»[١].

وفى « السنن » أيضا عن حذيفة ـ رضى الله عنه وأرضاه ـ أن رسول الله ﷺ كان يقول بين السجدتين : « رب اغفر لى ، رب اغفر لى » [٢].

فصل
فى أدعية الصلاة بعد التشهد

فى « الصحيحين » عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا فرغ أحدكم من التشهد الآخر ، فليتعوذ بالله من أربع : من عذاب القبر ، ومن عذاب جهنم ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن شر فتنة المسيح الدجال » [٣].

وفيهما أيضا عن عائشة رضي الله عنها ، أن النبى ﷺ كان يدعو فى الصلاة : « اللهم إنى أعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات، اللهم إنى أعوذ بك من المأثم والمغرم » ، فقال له قائل: ما أكثر ما تستعيذ من المغرم فقال : «إن الرجل إذا غَرِم حدَّث فكذَّب ، ووعد فأخلف »[٤] .

وقد تقدم فى « الصحيحين » ، أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال لرسول اللّه ﷺ : علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى ، فقال: « قُل : اللهم إنى ظلمت نفسى ظلماً كثيرا ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لى مغفرة من عندك ، وارحمنى ، إنك أنت الغفور الرحيم»[٥].

وفى « صحيح مسلم » من حديث على فى صفة صلاة رسول اللّه ﷺ أنه كان يقول من آخر ما يقول بين التشهد والتسليم: « اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت

---

(١) أبو داود (٨٥٠) فى الصلاة ، باب: الدعاء بين السجدتين .

(٢) أبو داود (٨٧٤) فى الصلاة ، باب : ما يقول الرجل فى ركوعه وسجوده ، والترمذى فى الشمائل ص ١٩٠ ، والنسائى (١١٤٥) فى التطبيق ، باب: الدعاء بين السجدتين ، وابن ماجه (٨٩٧) فى إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب: ما يقول بين السجدتين .

(٣) البخارى (١٣٧٧) فى الجنائز ، باب: التعوذ من عذاب القبر ، ومسلم (٥٨٨ / ١٣٠) فى المساجد ومواضع الصلاة ، باب: ما يستعاذ منه فى الصلاة .

(٤) البخارى (٨٣٢) فى الأذان ، باب: الدعاء قبل السلام ، ومسلم (٥٨٩ / ١٢٩) فى المساجد ومواضع الصلاة ، باب: ما يستعاذ منه فى الصلاة .

(٥) البخارى (٨٣٤) فى الأذان ، باب: الدعاء قبل السلام ، ومسلم (٢٧٠٥ / ٤٨) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: استحباب خفض الصوت بالذكر .

وما أعلنت وما أسرفت ،وما أنت أعلم به منى أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت»(١).

وفى « سنن أبى داود » أن النبى ﷺ قال لرجل : « كيف تقول فى الصلاة » ؟ قال: أتشهد وأقول: اللهم إنى أسألك الجنة ، وأعوذ بك من النار ، أما إنى لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ ، فقال النبى ﷺ :« حولها ندندن » (٢).

وفى « المسند » و « السنن » ، عن شداد بن أوس رضي الله عنه ،أن رسول الله ﷺ كان يقول فى صلاته : « اللهم إنى أسألك الثبات فى الأمر ،والعزيمة على الرشد ، وأسألك شُكر نعمتك ، وحُسن عبادتك ، وأسألك قلبا سليما ، ولسانا صادقا ، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم ، وأستغفرك لما تعلم ، إنك أنت علام الغيوب » (٣).

وفى « سنن النسائى » : أن عمار بن ياسر صلى صلاة ،ودعا فيها بدعوات وقال: سمعتهن من رسول الله ﷺ .« اللهم بعلمك الغيب ،وقدرتك على الخلق ، أحينى إذا علمت الحياة خيرا لى ،وتوفنى إذا علمت الوفاة خيراً لى ،الله إنى أسألك خشيتك فى الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الحق فى الغضب والرضا. وأسألك نعيما لا ينفد وأسألك قرة عين لا تنقطع ،وأسألك القصد فى الفقر والغنى ،وأسألك الرضا بعد القضاء ،وأسألك برد العيش بعد الموت ،وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم ،والشوق إلى لقائك ، فى غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة ، اللهم زينًا بزينة الإيمان، واجعلنا هُداة مهتدين»(٤).

فصل
فى الأذكار المشروعة بعد السلام ، وهو إدبار السجود

فى«صحيح مسلم» عن ثوبان رضي الله عنه :كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر اللّه ثلاثا وقال:«اللهم أنت السلام ،ومنك السلام ، تباركت يا ذا الجلال والإكرام » (٥).

وفى « الصحيحين » عن المغيرة بن شعبة أن رسول اللّه ﷺ كان إذا فرغ من الصلاة قال: « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شىء

---

(١) مسلم (٧٧١ / ٢٠١) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب : الدعاء فى صلاة الليل وقيامه.

(٢) أبو داود (٧٩٢) فى الصلاة، باب : فى تخفيف الصلاة .

(٣) أحمد (٤/ ١٢٥) ، والترمذى (٣٤٠٧) فى الدعوات ، باب: ٢٣ ، وقال : هذا حديث إنما نعرفه من هذا الوجه ، والنسائى (١٣٠٤) فى السهو ، باب: نوع آخر من الدعاء .

(٤) النسائى (١٣٠٥) فى السهو ، باب : ٦٢ نوع آخر .

(٥) مسلم (٥٩١ / ١٣٥) فى المساجد ومواضع الصلاة ،باب: استحباب الذكر بعد الصلاة ، وبيان صفته .

قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»(١).

وفى « صحيح مسلم » عن عبد الله بن الزبير رضى الله تعالى عنهما ، أن رسول الله ﷺ كان يهلل دُبر كل صلاة حين يسلم بهؤلاء الكلمات : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه ، له النعمة وله الفضل ، وله الثناءُ الحسن ، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون »(٢) .

وفى « صحيح مسلم » عن أبى هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال: « من سبح الله فى دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين ، وكبر الله ثلاثا وثلاثين ، وحمد الله ثلاثا وثلاثين ، وقال تمام المائة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد ، وهو على شىء قدير ، غُفرت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر » (٣).

وفى « السنن » عن عبد الله بن عمرو، عن النبى ﷺ قال: « خصلتان ـ أو خلتان ـ لا يحافظ عليهما عبد مسلم إلا دخل الجنة ، هما يسير ، ومن يعمل بهما قليل: يُسبح الله فى دبر كل صلاة عشراً ، ويحمده عشراً ، ويكبره عشراً ، فذلك خمسون ومائة باللسان، وألف وخمسمائة فى الميزان. ويكبر أربعا وثلاثين إذا أخذ مضجعه ، ويحمد ثلاثا وثلاثين ، ويسبح ثلاثا وثلاثين ، فذلك مائة باللسان ، وألف فى الميزان » قال: ولقد رأيت رسول الله ﷺ يعقدها بيده . قالوا: يا رسول الله ، كيف هما يسير ومن يعمل بهما قليل ؟ قال: « يأتى أحدكم ـ يعنى الشيطان ـ فى منامه ، فيُنومه قبل أن يقولهما ، ويأتيه فى صلاته فيذكره حاجته قبل أن يقولهما »(٤) .

وفى « السنن » عن عقبة بن عامر : أمرنى رسول الله ﷺ أن أقرأ بالمعوذتين دبُر كل صلاة (٥).

---

(١) البخارى (٨٤٤) فى الأذان ، باب: الذكر بعد الصلاة ، ومسلم (٥٩٣ / ١٣٧) فى المساجد ومواضع الصلاة، باب: استحباب الذكر بعد الصلاة .

(٢) مسلم (٥٩٤ / ١٣٩) فى المساجد ومواضع الصلاة ، باب: استحباب الذكر بعد الصلاة ، وبيان صفته .

(٣) مسلم (٥٩٧ / ١٤٦) فى المساجد ومواضع الصلاة ، باب: استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته .

(٤) أبو داود (٥٠٦٥) فى الأدب ، باب: فى التسبيح عند النوم ، والترمذى (٣٤١٠) فى الدعوات ، باب: ٢٥، وقال : « حسن صحيح» ، والنسائى (١٣٤٨) فى السهو، باب: عدد التسبيح بعد التسليم ، وابن ماجه (٩٢٦) فى إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب : ما يقال بعد التسليم .

(٥) أبو داود (١٥٢٣) فى الصلاة ، باب : فى الاستغفار ، والترمذى(٢٩٠٣) فى فضائل القرآن، باب: ما جاء فى المعوذتين، وقال: « حسن غريب »، والنسائى (١٣٣٦) فى السهو ، باب : الأمر بقراءة المعوذات بعد التسليم من الصلاة .

وفي « النسائي الكبير » عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ :من قرأ آية الكرسي عقب كل صلاة ،لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت » [١] يعني : لم يكن بينه وبين دخول الجنة إلا الموت .

وبلغني عن شيخ الإسلام ابن تيمية، قال: ما تركته عقيب كل صلاة إلا نسياناً أو نحوه.

قلت : وقد بالغ أبو الفرج ابن الجوزي في إدخاله هذا الحديث في الموضوعات، وقال شيخنا : أبو الحجاج المزي ـ رحمه الله : إسناده على شرط البخاري .

فصل
في ذكر التشهد

ثبت في « الصحيحين » عن عبد الله بن مسعود قال: علمني رسول الله ﷺ التشهد ـ وكفي بين كفيه ـ كما يعلمني سورة من القرآن: « التحيات لله، والصلوات والطيبات ، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عبادنا الصالحين ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله » [٢].

وفي « صحيح مسلم » عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يعلمنا التشهد كما يعلمنا السورة من القرآن ، وكان يقول: « التحيات المباركات ، الصلوات ، الطيبات لله، السلام عليك أيها النبيُّ ورحمةُ الله وبركاته، السلام علينا على عباد الله الصالحين. أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله »[٣] .

وفي « صحيح مسلم » ، عن أبي موسى ، أن النبي ﷺ علمهم التشهد: « التحياتُ الطيبات ، الصلوات لله ، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله » [٤].

وروى أبو داود عن ابن عمر بن الخطاب ، عن رسول الله ﷺ في التشهد: « التحيات لله الصلوات الطيبات ، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله ـ قال ابن عمر : وزاد فيها : وحده لا شريك له ـ وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله » [٥] .

---

(١) النسائي في الكبرى (٩٩٢٨) في عمل اليوم والليلة ، باب: ثواب من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة .
(٢) البخاري (٦٢٦٥) في الاستئذان، باب: الأخذ باليد ، ومسلم (٤٠٢/ ٥٩) في الصلاة، باب: التشهد في الصلاة.
(٣) مسلم (٤٠٣/ ٦٠) في الصلاة ، باب: التشهد في الصلاة .
(٤) مسلم (٤٠٤ / ٦٢) في الصلاة ، باب: التشهد في الصلاة .
(٥) أبو داود (٩٧١) في الصلاة ، باب : التشهد .

وروى أبو داود ، عن سمرة بن جندب : أما بعد : أمرنا رسول الله ﷺ إذا كان فى وسط الصلاة ، أو حين انقضائها ، فابدؤوا قبل السلام فقولوا: « التحيات الطيبات والصلوات، والملك لله ، ثم سلموا على اليمين ، ثم على قارئكم وعلى أنفسكم » (١).

وذكر مالك فى «الموطأ »: أن عمر كان يعلم الناس التشهد وهو على المنبر يقول: قولوا: « التحيات لله، الزاكيات لله ، الصلوات الطيبات لله ، السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله »(٢) .

فأى تشهد أتى به من هذه التشهدات أجزأه .

وذهب الإمام أحمد وأبو حنيفة إلى تشهد ابن مسعود ، وذهب الشافعى إلى تشهد ابن عباس ، وذهب مالك إلى تشهد عمر رضي الله عنه ، والكل كافٍ يجزئ .

فصل
فى ذكر الصلاة على النبى ﷺ

فى « الصحيحين » عن كعب بن عجرة قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقلنا: قد عرفنا كيف نسلم عليك ، فكيف نصلى عليك ؟ قال: « قولوا اللهم صلِّ على محمد، وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم ، وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد ، وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد »(٣) .

وفى «الصحيحين» أيضاً : عن أبى حميد الساعدى أنهم قالوا: يا رسول الله ، كيف نصلى عليك ؟ قال: « قولوا : اللهم صلّ على محمد ، وعلى أزواجه وذريته ، كما صليت على آل إبراهيم ، وبارك على محمد ، وعلى أزواجه وذريته ، كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد » (٤).

وفى « صحيح مسلم » عن أبى مسعود الأنصارى قال : أتانا رسول الله ﷺ ونحن

(١) أبو داود (٩٧٥) فى الصلاة ، باب: التشهد .
(٢) مالك فى الموطأ ١/ ٩٠ ، ٩١ (٥٣) فى الصلاة ، باب: التشهد فى الصلاة .
(٣) البخارى (٦٣٥٧) فى الدعوات ، باب: الصلاة على النبى ﷺ ، ومسلم (٦٦/٤٠٦) فى الصلاة ، باب: الصلاة على النبى ﷺ بعد التشهد .
(٤) البخارى (٦٣٦٠) فى الدعوات ، باب : هل يصلى على غير النبى ﷺ ، ومسلم (٦٩/٤٠٧) فى الصلاة، باب: الصلاة على النبى ﷺ بعد التشهد .

فى مجلس سعد بن عبادة ،فقال له بشير بن سعد : أمرنا الله أن نصلى عليك يا رسول الله ، كيف نصلى عليك؟ قال: فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسأله. ثم قال رسول الله ﷺ : « قولوا : اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم ، وبارك على محمد ، وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم ، فى العالمين إنك حميد مجيد . والسلام كما قدْ علمتم » (١) .

ذكر ابن ماجه فى« سننه » عن عبد الله بن مسعود قال: إذا صليتم على رسول الله فأحسنوا الصلاة عليه ، فإنكم لا تدرون لعل ذلك يعرض عليه .قال: فقالوا له: فعلمنا، قال:قولوا: اللهم اجعل صلاتك ،ورحمتك،وبركاتك على سيد المرسلين ،وإمام المتقين، وخاتم النبيين ،محمد عبدك ورسولك ،إمام الخير ،وقائد الخير ،ورسول الرحمة،اللهم ابعثه مقاما محمودا يغبطُه به الأولون والآخرون ،اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ،إنك حميد مجيد،اللهم بارك على محمد ، وعلى آل محمد ،كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد (٢).

فصل
فى ذكر الاستخارة

فى « صحيح البخارى » عن جابر قال :كان رسول الله ﷺ يُعلمنا الاستخارة فى الأمر كما يعلمنا السورة من القرآن ،يقول:« إذا هم أحدكم بالأمر ، فليركع ركعتين من غير الفريضة ،ثم ليقُل :اللهم إنى أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علاّم الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر - ويسمى حاجته - خير لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى ، فاقدره لى ، ويسره لى ،ثم بارك لى فيه ، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى، فاصرفه عنى ، واصرفنى عنه ،واقدر لى الخير حيث كان ، ثم أرضنى به » (٣).

وفى « مسند الإمام أحمد » ، من حديث سعد بن أبى وقاص ، عن النبى ﷺ أنه قال:« من سعادة ابن آدم استخارة الله ومن سعادة ابن آدم رضاه بما قضى الله ،ومن شقوة

(١) مسلم (٤٠٥ / ٦٥) فى الصلاة ، باب: الصلاة على النبى ﷺ بعد التشهد .
(٢) ابن ماجه (٩٠٦) فى إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب: الصلاة على النبى ﷺ.
(٣) البخارى (٦٣٨٢) فى الدعوات ، باب: الدعاء عند الاستخارة .

ابن آدم تركه استخارة اللّه ، ومن شقوة ابن آدم سخطه بما قضى اللّه » (١) .

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يقول : ما ندم من استخار الخالق .وشاور المخلوقين، وتثبت فى أمره . وقد قال سبحانه وتعالى :﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾[آل عمران : ١٥٩] .

وقال قتادة : ما تشاور قوم يبتغون وجه اللّه إلا هدوا إلى أرشد أمرهم .

فصل
فى أذكار الكرب والغم والحزن والهم

فى « الصحيحين »: عن ابن عباس ، أن رسول اللّه ﷺ كان يقول عند الكرب: « لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا اللّه رب العرش العظيم لا إله إلا اللّه رب السموات ، ورب الأرض ،رب العرش الكريم » (٢).

وفى الترمذى عن أنس رضي الله عنه ، أن النبى ﷺ كان إذا حزبه أمر قال:« يا حى يا قيوم ، برحمتك أستغيث » (٣).

و فيه أيضا : عن أبى هريرة ، أن النبى ﷺ كان إذا أهمه الأمر ، رفع رأسه إلى السماء فقال :« سبحان اللّه العظيم » ،وإذا اجتهد فى الدعاء قال:« يا حى يا قيوم » (٤).

وفى «سنن أبى داود » عن أبى بكرة ،أن رسول اللّه ﷺ قال:«دعواتُ المكروب: اللهم رحمتك أرجو، فلا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ،وأصلح لى شأنى كلّهِ ،لا إله إلا أنت » (٥).

وفى « السنن » أيضا ، عن أسماء بنت عميس قالت : قال رسول اللّه ﷺ : «ألا أعلمك كلمات تقولينهن عند الكرب ؟ اللّه اللّه ربى لا أشرك به شيئاً » (٦) .

---

(١) أحمد (١٦٨/١) ، وقال الشيخ شاكر (١٤٤٤):« إسناده ضعيف » .

(٢) البخارى (٦٣٤٦) فى الدعوات ، باب : الدعاء عند الكرب ، ومسلم (٢٧٣٠/ ٨٣) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار) باب : دعاء الكرب .

(٣) الترمذى (٣٥٢٤) فى الدعوات ، باب : ٩٢ وقال : « غريب ».

(٤) الترمذى (٣٤٣٦) فى الدعوات ، باب: ما جاء ما يقول عند الكرب ، وقال : « غريب » .

(٥) أبو داود (٥٠٩٠) فى الأدب ، باب : ما يقول إذا أصبح .

(٦) أبو داود (١٥٢٥) فى الصلاة، باب: فى الاستغفار ،والنسائى فى الكبرى (١٠٨٥) فى عمل اليوم والليلة ، باب : ما يقول عند الكرب إذا نزل به ، وابن ماجه (٣٨٨٢) فى الدعاء ، باب الدعاء عند الكرب.

في رواية أنها تقال سبع مرات .

وفي الترمذي عن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله ﷺ: « دعوة ذي النون إذا دعا وهو في بطن الحوت: ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين (٨٧) ﴾ [الأنبياء] لم يدعُ بها رجل مسلم في شيء قط ، إلا استجاب الله له »(١).

وفي رواية « إني لأعلمك كلمة لا يقولها مكروب إلا فرج الله عنه ، كلمة أخي يونس عليه السلام »(٢).

وفي « مسند الإمام أحمد » و « صحيح ابن حبان» عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: « ما أصاب عبدا هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ، ناصيتي بيدك ماض فيّ حكمك ، عدل في قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحدا من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ، ونور بصري ، وجلاء حزني ، وذهاب همي ، إلا أذهب الله همه وحزنه ، وأبدله مكانه فرحاً » (٣) (٤) .

باب : منه

في جامع الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : أن النبي ﷺ كان إذا أهمه الأمر رفع رأسه إلى السماء ، وإذا اجتهد في الدعاء قال: « يا حي يا قيوم » (٥).

وفيه أيضًا من حديث أنس بن مالك ، قال : كان النبي ﷺ إذا كربه أمر قال: « يا حي يا قيوم ، برحمتك أستغيث » (٦).

وفي صحيح الحاكم من حديث أبي أمامة عن النبي ﷺ أنه قال : « اسم الله الأعظم في ثلاث سور من القرآن : البقرة وآل عمران وطه » ، قال القاسم : فالتمستها فإذا هي آية (الحي القيوم) (٧) .

وفي جامع الترمذي وصحيح الحاكم من حديث سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ

---

(١) الترمذي (٣٥٠٥) في الدعوات، باب: ٨٢ .

(٢) كنز العمال (٣٤٢٧) في أدعية الهم والكرب والحزن ، وعزاه لابن السني في عمل يوم وليلة عن سعد .

(٣) أحمد (١/ ٣٩١) ، وابن حبان (٩٦٨) في الرقائق ، باب: ذكر الأمر لمن أصابه حزن أن يسأل الله ذهابه عنه وإبداله إياه فرجا .

(٤) الوابل الصيب (٢٢٣ ـ ٢٥٠) .

(٥) الترمذي (٣٤٣٦) في الدعوات ، باب :ما جاء ما يقول عند الكرب ، وقال: « حسن غريب ».

(٦) الترمذي (٣٥٢٤) في الدعوات ، باب: ٩٢ ، وقال : « غريب » .

(٧) الحاكم في المستدرك (١/ ٥٠٥) في الدعاء ، باب: اسم الله الأعظم الحي القيوم ، وسكت عنه هو والذهبي.

قال: « دعوة ذى النون ، إذا دعا وهو فى بطن الحوت : ﴿ **لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنبياء] إنه لم يدع بها مسلم فى شىء قط إلا استجاب الله له» قال الترمذى: حديث صحيح(١).

وفى مستدرك الحاكم أيضا من حديث سعد عن النبى ﷺ : «ألا أخبركم بشىء إذا نزل برجل منكم أمر مهم ، فدعا به يفرّج الله عنه ؟ دُعاء ذى النون »(٢) .

وفى صحيحه أيضا عنه أنه سمع النبى ﷺ وهو يقول:«هل أدلكم على اسم الله الأعظم ؟ دُعاءُ يونس » . قال رجل: يا رسول الله،هل كانت ليونس خاصّة ؟ فقال : « ألا تسمع قوله تعالى: ﴿ **فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ** ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٨]، فأيما مسلم دعا بها فى مرضه أربعين مرة فمات فى مرضه ذلك أُعطى أجر شهيد ، وإن برأ برأ مغفورًا له »(٣) .

وفى الصحيحين من حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب : «لا إله إلا الله العظيم الحليم ،لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات ورب العرش الكريم » (٤).

وفى مسند الإمام أحمد من حديث على بن أبى طالب رضي الله عنه قال: علمنى رسول الله ﷺ إذ نزل بى كرب أن أقول :« لا إله إلا الله الحليم الكريم ،سُبحان الله وتبارك الله رب العرش العظيم ، والحمد لله رب العالمين » (٥).

وفى مسنده أيضا من حديث عبد الله بن مسعود . قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أصاب أحداً قط همّ ولا حُزن ، فقال : اللّهم إنى عبدك ابن عبدك ابن أمتك ، ناصيتى بيدك، ماض فىّ حكمك ، عدلٌ فىّ قضاؤك ، أسألك اللهم بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو علمته أحدًا من خلقك ، أو أنزلته فى كتابك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك : أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ، ونور صدرى ،وجلاء حزنى ، وذهاب همى، إلا أذهب الله عز وجل همه وحزنه ، وأبدله مكانه فرحا» ، فقيل : يا رسول الله ، أنتعلمها ؟ قال :« بلى ينبغى لمن سمعها أن يتعلمها » (٦).

---

(١) سبق تخريجه فى الصفحة السابقة .

(٢) الحاكم فى المستدرك (١ / ٥٠٥) فى الدعاء ، باب : اسم الله الأعظم الحى القيوم،وسكت عنه هو والذهبى.

(٣) الحاكم فى المستدرك (١ / ٥٠٦) فى الدعاء ، باب اسم الله الأعظم الحى القيوم ، وسكت عنه وهو والذهبى .

(٤) البخارى (٦٣٤٦) فى الدعوات ، باب: الدعاء عند الكرب ، ومسلم (٢٧٣ / ٨٣) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: دعاء الكرب.

(٥) أحمد (١/ ٩١) ، وقال الشيخ شاكر (٧٠١) : « إسناده صحيح ».

(٦) أحمد (١/ ٣٩١) ،وقال الشيخ شاكر (٣٧١٢) : « إسناده صحيح »

وقال ابن مسعود : « ما كرب نبى من الأنبياء ،إلا استغاث بالتسبيح » .

وذكر ابن أبى الدنيا فى كتاب « المجابين فى الدعاء » عن الحسن قال: « كان رجل من أصحاب النبى ﷺ من الأنصار يكنى أبا معلق ، وكان تاجراً يتجر بمال له ولغيره ، يضرب به الآفاق ، وكان ناسكا ورعاً ، فخرج مرة فلقيه لصّ مقنع فى السلاح. فقال له: ضع ما معك ، فإنى قاتلك ، قال: ما تريده من دمى ؟ شأنك بالمال . قال: أما المال فلى ، ولست أريد إلا دمك. قال: أما إذا أبيت فذرنى أصلى أربع ركعات . قال:صلّ ما بدا لك. فتوضأ ثم صلى أربع ركعات . فكان من دعائه فى آخر سجدة أن قال: يا ودود، يا ذا العرش المجيد ، يا فعالاً لما تريد، أسألك بعزك الذى لا يرام ، وبملكك الذى لا يضام ،وبنورك الذى ملأ أركان عرشك :أن تكفينى شر هذا اللص. يا مغيث أغثنى يا مغيث أغثنى. ثلاث مرات . فإذا هو بفارس قد أقبل بيده حربة قد وضعها بين أذنى فرسه ، فلما بصُر باللص أقبل نحوه ، فطعنه فقتله. ثم أقبل إليه فقال : قم .فقلت : من أنت بأبى أنت وأمى ؟ فقد أغاثنى اللّه بك اليوم . فقال : أنا ملك من أهل السماءالرابعة ، دعوت بدعائك الأول فسمعت لأهل السماء قعقعة ، ثم دعوت بدعائك الثانى فسمعت لأهل السماء ضجة .ثم دعوت بدعائك الثالث ، فقيل لى : دعاء مكروب . فسألت اللّه أن يولينى قتله . قال الحسن :فمن توضأ وصلى أربع ركعات،ودعا بهذا الدعاء، استجيب له ، مكروبا كان أو غير مكروب (١).

فوائد
فى حديث إزالة الهم والحزن

فى المسند وصحيح أبى حاتم من حديث عبد اللّه بن مسعود قال: قال رسول اللّه ﷺ: « ما أصاب عبداً هم ولا حزن فقال :اللهم إنى عبدك ابن عبدك ابن أمتك ، ناصيتى بيدك ،ماض فى حكمك ، عدل فىّ قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته فى كتابك ،أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبى ، ونور صدرى،وجلاء حزنى ،وذهاب همى وغمى، إلا أذهب همه وغمه ، وأبدله مكانه فرحاً » . قالوا : يا رسول اللّه،أفلا نتعلمهن ؟ قال:« بلى، ينبغى لمن سمعهن أن يتعلمهن»(٢). فتضمن هذا الحديث العظيم أموراً من المعرفة والتوحيد

(١) الداء والدواء (٣٠ ـ ٣٤ ، ٣٤٩) .

(٢) سبق تخريجه فى الصفحة السابقة .

والعبودية: منها: أن الداعي به صدر سؤاله بقوله: « إنى عبدك ابن عبدك ابن أمتك »، وهذا يتناول من فوقه من آبائه وأمهاته إلى أبويه آدم وحواء، وفى ذلك تملق له واستخذاء [1] بين يديه واعتراف بأنه مملوكه وآباؤه مماليكه، وأن العبد ليس له غير باب سيده وفضله وإحسانه ، وأن سيده إن أهمله وتخلى عنه هلك ولم يؤه أحد ولم يعطف عليه بل يضيع أعظم ضيعة. فتحت هذا الاعتراف : إنى لا غنى بى عنك طرفة عين، وليس لى من أعوذ به وألوذ به غير سيدى الذى أنا عبده ، وفى ضمن ذلك الاعتراف بأنه مربوب مدبر مأمور منهى ، إنما يتصرف بحكم العبودية لا بحكم الاختيار لنفسه . فليس هذا شأن العبد بل شأن الملوك والأحرار. وأما العبيد فتصرفهم على محض العبودية ، فهؤلاء عبيد الطاعة المضافون إليه سبحانه فى قوله :

﴿ **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ** ﴾ [الحجر : ٤٢] ، وقوله : ﴿ **وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا** ﴾ [الفرقان: ٦٣] ، ومن عداهم عبيد القهر والربوبية ، فإضافتهم إليه كإضافة سائر البيوت إلى ملكه ، وإضافه أولئك كإضافة البيت الحرام إليه ، وإضافة ناقته إليه وداره التى هى الجنة إليه ، وإضافة عبودية رسوله إليه بقوله: ﴿ **وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا** ﴾ [البقرة: ٢٣] ، ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ** ﴾ [الإسراء: ١] ، ﴿ **وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ** ﴾ [الجن: ١٩] .

وفى التحقيق بمعنى قوله: « إنى عبدك » التزام عبوديته من الذل والخضوع والإنابة وامتثال أمر سيده واجتناب نهيه ودوام الافتقار إليه ، واللجأ إليه ، والاستعانة به ، والتوكل عليه، وعياذ العبد به ولياذه به وألا يتعلق قلبه بغيره محبة وخوفاً ورجاء ، وفيه أيضاً: إنى عبد من جميع الوجوه : صغيراً وكبيراً ، حياً وميتاً ، مطيعاً وعاصياً ، معافى ومبتلى بالروح والقلب واللسان والجوارح ، وفيه أيضا : أن مالى ونفسى ملك لك، فإن العبد وما يملك لسيده ، وفيه أيضا: إنك أنت الذى مننت على بكل ما أنا فيه من نعمة ، فذلك كله من إنعامك على عبدك . وفيه أيضاً : إنى لا أنصرف فيما خولتنى من مالى ونفسى إلا بأمرك ، كنما لا يتصرف العبد إلا بإذن سيده وإنى لا أملك لنفسى ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً . فإن صح له شهود ذلك فقد قال: إنى عبدك حقيقة .

ثم قال: «ناصيتى بيدك »، أى أنت المتصرف فى، تصرفنى كيف تشاء ، لست أنا المتصرف فى نفسى وكيف يكون له فى نفسه تصرف من نفسه بيد ربه وسيده وناصيته بيده وقلبه بين أصبعين من أصابعه ، وموته وحياته وسعادته وشقاوته وعافيته وبلاؤه كله إليه

(١) أى انكسار .

سبحانه ،ليس إلى العبد منه شيء،بل هو فى قبضة سيده أضعف من مملوك ضعيف حقير ، ناصيته بيد سلطان قاهر مالك له تحت تصرفه وقهره بل الأمر فوق ذلك.

ومتى شهد العبد أن ناصيته ونواصى العباد كلها بيد اللّه وحده و يصرفهم كيف يشاء لم يخفهم بعد ذلك ، ولم يرجهم ولم ينزلهم منزلة المالكين ، بل منزلة عبيد مقهورين مربوبين ، المتصرف فيهم سواهم والمدبر لهم غيرهم ، فمن شهد نفسه بهذا المشهد صار فقره وضرورته إلى ربه وصفاً لازماً له ، ومتى شهد الناس كذلك لم يفتقر إليهم ولم يعلق أمله ورجاءه بهم ، فاستقام توحيده وتوكله وعبوديته ؛ ولهذا قال هود لقومه :﴿ **إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦)** ﴾ [هود:٥٦]

وقوله : « ماض فى حكمك ،عدل فى قضاؤك » تضمن هذا الكلام أمرين :

أحدهما: مضاء حكمه فى عبده .

والثانى : يتضمن حمده وعدله وهو ـ سبحانه ـ له الملك وله الحمد ، وهذا معنى قول نبيه هود :﴿ **مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا** ﴾ ثم قال:﴿ **إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦)** ﴾أى مع كونه مالكًا قاهراً متصرفاً فى عباده ، نواصيهم بيده فهو على صراط مستقيم . وهو العدل الذى يتصرف به فيهم فهو على صراط مستقيم فى قوله وفعله وقضائه وقدره وأمره ونهيه وثوابه وعقابه . فخبره كله صدق ،وقضاؤه كله عدل وأمره كله مصلحة، والذي نهى عنه كله مفسدة،وثوابه لمن يستحق الثواب بفضله ،ورحمته وعقابه لمن يستحق العقاب بعدله وحكمته .

وفرق بين الحكم والقضاء وجعل المضاء للحكم والعدل للقضاء،فإن حكمه ـ سبحانه ـ يتناول حكمه الدينى الشرعى وحكمه الكونى القدرى . والنوعان نافذان فى العبد ماضيان فيه ، وهو مقهور تحت الحكمين قد مضيا فيه ونفذا فيه شاء أم أبى ، لكن الحكم الكونى لا يمكنه مخالفته ،وأما الدينى الشرعى فقد يخالفه .

ولما كان القضاء هو الإتمام والإكمال ، وذلك إنما يكون بعد مضيه ونفوذه قال:« عدل فى قضاؤك » أى الحكم الذى أكملته وأتممته ونفذته فى عبدك عدل منك فيه . وأما الحكم فهو ما يحكم به ـ سبحانه ـ وقد يشاء تنفيذه وقد لا ينفذه ،فإن كان حكماً دينياً فهو ماض فى العبد ،وإن كان كونياً ، فإن نفذه ـ سبحانه ـ مضى فيه وإن لم ينفذه اندفع عنه ، فهو ـ سبحانه ـ يقضى ما يقضى به. وغيره قد يقضى بقضاء ويقدر أمراً ولا يستطيع تنفيذه.وهو ـ

سبحانه ـ يقضى ويمضى فله القضاء والإمضاء .

وقوله: «عدل فى قضاؤك» يتضمن جميع أقضيته فى عبده من كل الوجوه ، من صحة، وسقم ، وغنى ، وفقر ، ولذة ، وألم ، وحياة ، وموت ، وعقوبة ، وتجاوز وغير ذلك ، قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ (٤٨)﴾[الشورى: ٤٨] ، فكل ما يقضى على العبد فهو عدل فيه .

فإن قيل: فالمعصية عندكم بقضائه وقدره ! فما وجه العدل فى قضائها ؟ فإن العدل فى العقوبة عليها غير ظاهر . قيل : هذا سؤال له شأن ، ومن أجله زعمت طائفة أن العدل هو المقدور والظلم ممتنع لذاته . قالوا : لأن الظلم هو التصرف فى ملك الغير ، والله له كل شىء ، فلا يكون تصرفه فى خلقه إلا عدلاً .

وقالت طائفة: بل العدل أنه لا يعاقب على ما قضاه وقدره ، فلما حسن منه العقوبة على الذنب علم أنه ليس بقضائه وقدره ، فيكون العدل هو جزاؤه على الذنب بالعقوبة والذم، إما فى الدنيا وإما فى الآخرة . وصعب على هؤلاء الجمع بين العدل وبين القدر ، فزعموا أن من أثبت القدر لم يمكنه أن يقول بالعدل ومن قال بالعدل لم يمكنه أن يقول بالقدر . كما صعب عليهم الجمع بين التوحيد وإثبات الصفات ، فزعموا أنهم لا يمكنهم إثبات التوحيد إلا بإنكار الصفات ، فصار توحيدهم تعطيلاً وعدلهم تكذيباً بالقدر .

وأما أهل السنة فهم مثبتون للأمرين ، والظلم عندهم هو وضع الشىء فى غير موضعه كتعذيب المطيع ومن لا ذنب له ، وهذا قد نزه الله نفسه عنه فى غير موضع من كتابه ، وهو ـ سبحانه ـ وإن أضل من شاء وقضى بالمعصية وألغى على من شاء فذلك محض العدل فيه ؛ لأنه وضع الإضلال والخذلان فى موضعه اللائق به ، كيف ومن أسمائه الحسنى العدل الذى كل أفعاله وأحكامه سداد وصواب وحق وهو ـ سبحانه ـ قد أوضح السبل وأرسل الرسل وأنزل الكتب وأزاح العلل ومكن من أسباب الهداية والطاعة بالأسماع والأبصار والعقول ، وهذا عدله ، ووفق من شاء بمزيد عناية وأراد من نفسه أن يعينه ويوفقه ، فهذا فضله، وخذل من ليس بأهل لتوفيقه وفضله ،وخلى بينه وبين نفسه ، ولم يرد ـ سبحانه ـ من نفسه أن يوفقه فقطع عنه فضله ولم يحرمه عدله ، وهذا نوعان :

أحدهما : ما يكون جزاء منه للعبد على إعراضه عنه وإيثار عدوه فى الطاعة والموافقة عليه وتناسى ذكره وشكره ، فهو أهل أن يخذله ويتخلى عنه .

والثانى : ألا يشاء له ذلك ابتداء لما يعلم منه أنه لا يعرف قدر نعمة الهداية ، ولا يشكره عليها ، ولا يثنى عليه بها ، ولا يحبه ، فلا يشاؤها له لعدم صلاحية محله . قال

تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣)﴾ [الأنعام] ،وقال: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٣] .

فإذا قضى على هذه النفوس بالضلال والمعصية كان ذلك محض العدل، كما إذا قضى على الحية بأن تقتل وعلى المعصية كان ذلك محض العدل ،كما إذا قضى على الحية بأن تقتل وعلى العقرب وعلى الكلب العقور كان ذلك عدلاً فيه وإن كان مخلوقاً على هذه الصفة .

والمقصود :أن قوله ﷺ :« ماض فى حكمك ،عدل فى قضاؤك » رد على الطائفتين: القدرية الذين ينكرون عموم أقضية الله فى عبده، ويخرجون أفعال العباد عن كونها بقضائه وقدره ،ويردون القضاء إلى الأمر والنهى. وعلى الجبرية الذين يقولون: كل مقدور عدل ، فلا يبقى لقوله : « عدل فى قضاؤك » فائدة ، فإن العدل عندهم كل ما يمكن فعله والظلم هو المحال لذاته ، فكأنه قال:ماض ونافذ فى قضاؤك ، وهذا هو الأول بعينه.

وقوله :« أسألك بكل اسم » إلى آخره ، توسل إليه بأسمائه كلها ما علم العبد منها وما لم يعلم . وهذه أحب الوسائل إليه ، فإنها وسيلة بصفاته وأفعاله التى هى مدلول أسمائه .

وقوله:« أن تجعل القرآن ربيع قلبى ونور صدرى » الربيع : المطر الذى يحيى الأرض، شبه القرآن به لحياة القلوب به ، وكذلك شبهه الله بالمطر ، وجمع بين الماء الذى تحصل به الحياة ، والنور الذى تحصل به الإضاءة والإشراق ، كما جمع بينهما ـ سبحانه ـ فى قوله : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ﴾ [الرعد: ١٧] .

وفى قوله: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِم ﴾ [البقرة: ١٧] .ثم قال: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ [البقرة: ١٩].

وفى قوله: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ [النور: ٣٥] .

ثم قال: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ﴾ [النور :٤٣] .

فتضمن الدعاء أن يحيى قلبه بربيع القرآن ، وأن ينور به صدره ، فتجتمع له الحياة والنور، قال تعالى :﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام: ١٢٢] .

ولما كان الصدر أوسع من القلب كان النور الحاصل له يسرى منه إلى القلب ؛ لأنه قد حصل لما هو أوسع منه . ولما كانت حياة البدن والجوارح كلها بحياة القلب تسرى الحياة منه إلى الصدر ثم إلى الجوارح سأل الحياة له بالربيع الذى هو مادتها ، ولما كان الحزن والهم والغم يضاد حياة القلب واستنارته سأل أن يكون ذهابها بالقرآن،فإنها أحرى ألا تعود ، وأما إذا ذهبت بغير القرآن من صحة أو دنيا أو جاه أو زوجة أو ولد فإنها تعود بذهاب ذلك. والمكروه الوارد على القلب إن كان من أمر ماض أحدث الحزن ، وإن كان من مستقبل أحدث الهم ،وإن كان من أمر حاصر أحدث الغم ، والله أعلم(١) .

فصل
فى الأذكار الجالبة للرزق الدافعة للضيق والأذى

قال الله سبحانه وتعالى عن نبيه نوح ﷺ : ﴿ **فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا (١٢)** ﴾ [نوح] .

وفى بعض « المسانيد »،عن ابن عباس :أن رسول الله ﷺ قال:« من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ،ومن كل ضيق مخرجا ،ورزقه من حيث لا يحتسب » (٢).

وذكر أبو عمر بن عبد البر فى « التمهيد » له حديثاً مرفوعاً إلى النبى :« من قرأ سورة الواقعة كل يوم لم تصبه فاقة أبداً » (٣).

فصل
فى الذكر عند لقاء العدو ومن يخاف سلطاناً وغيره

فى « سنن أبى داود » و« النسائى »، عن أبى موسى، أن النبى ﷺ كان إذا خاف قوماً قال: « اللهم إنا نجعلُك فى نُحورهم ، ونعوذ بك من شرورهم » (٤).

---

(١) الفوائد (٣٣ ـ ٤١) .
(٢) أحمد (١ / ٢٤٨) ،وقال الشيخ شاكر (٢٢٣٤) : « إسناده صحيح » .
(٣) ابن عبد البر فى التمهيد (١٥ / ٣٧٥) فى العين ، باب: تعالج المريض .
(٤) أبو داود (١٥٣٧) فى الصلاة ، باب: ما يقول إذا خاف قوما ، والنسائى فى الكبرى (٨٦٣١) فى السير، باب: الدعاء إذا خاف قوما .

ويذكر عن النبى ﷺ أنه كان يقول عند لقاء العدو: « اللهم أنت عضُدى ، وأنت ناصرى ، وبك أقاتِلُ » (١).

وعنه ﷺ أنه كان فى غزوة فقال: « يا ملك يوم الدين ، إياك أعبُدُ ، وإياك أستعين ، قال أنس: فلقد رأيتُ الرجال تصرعها الملائكة من بين يديها ، ومن خلفها » (٢).

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ : إذا خفت سلطاناً أو غيره فقل: لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، لا إله إلا أنت، عز جارك ، وجل ثناؤك ، ولا إله غيرك » (٣).

وفى « صحيح البخارى » عن ابن عباس قال: ﴿ **حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ** (١٧٣) ﴾ قالها إبراهيم ﷺ حين ألقى فى النار ، وقالها محمد ﷺ حين قال له الناس: ﴿**إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ**﴾ [آل عمران] (٤) .

فصل
فى الأذكار التى تطرد الشيطان

قد تقدم « أن من آية الكرسى عند نومه لم يقربه شيطان »(٥)، و « أن من قرأ الآيتين من آخر من آخر سورة البقرة كفتاه »(٦) ، « ومن قال فى يوم مائة مرة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وهو على كل شىء قدير ، كانت له حرزاً من الشيطان يومه كلَّه » (٧).

---

(١) أبو داود (٢٦٣٢) فى الجهاد ، باب: ما يدعى عند اللقاء ، وأحمد (٣ / ١٨٤) .

(٢) الطبرانى فى الأوسط (٨١٦٣) ، وقال الهيثمى فى المجمع ٣٣١/٥ : « وفيه عبد السلام بن هاشم وهو ضعيف » .

(٣) ضعيف الجامع (٥٧٨) ، وقال : « رواه ابن السنى عن ابن عمر وهو حديث ضعيف جداً » .

(٤) البخارى (٤٥٦٣) فى التفسير ، باب: ﴿ **الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ** (١٧٣) ﴾ .

(٥) الترمذى (٢٨٧٩) فى فضائل القرآن ، باب : ما جاء فى فضل سورة البقرة وآية الكرسى ، بمعناه وقال : « غريب» .

(٦) البخارى (٥٠٥١) فى فضائل القرآن ، باب: فى كم يقرأ القرآن ، ومسلم (٨٠٨ / ٢٥٦) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب: فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة ، الترمذى (٢٨٨١) فى فضائل القرآن ، باب: ما جاء فى آخر سورة البقرة .

(٧) البخارى (٦٤٠٣) فى الدعوات ، باب: فضل التهليل ، ومسلم (٢٦٩١/ ٢٨) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: فضل التهليل والتسبيح والدعاء .

وقد قال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ (٩٨) ﴾ [المؤمنون] .

وكان النبى ﷺ يقول: « أعوذ بالله السميع العليم ، من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه » (١).

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) ﴾ [فصلت] .

وعن زيد بن أسلم : أنه ولى معادن ، فذكروا كثرة الجن بها، فأمرهم أن يؤذنوا كل وقت ، ويكثروا من ذلك ، فلم يكونوا يرون بعد ذلك شيئاً .

وفى « صحيح مسلم » عن عثمان بن أبى العاص رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله، إن الشيطان حال بينى وبين صلاتى وبين قراءتى يلبسها على ، فقال رسول الله ﷺ : «ذاك شيطان يقال له : خنزب ، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه ، واتفل عن يسارك ثلاثا » ففعلت ذلك ،فأذهبه الله عز وجل عنى » (١) .

وأمر ابن عباس رجلاً وجد فى نفسه شيئًا من الوسوسة والشك أن يقرأ : ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣)﴾ [الحديد].

ومن أعظم ما يندفع به شره بقراءة المعوذتين ،وأول ﴿ الصافات ﴾ وآخر ﴿ الحشر﴾ .

فصل
فى الذكر الذى تحفظ به النعم ، وما يقال عند تجددها

قال الله سبحانه وتعالى فى قصة الرجلين : ﴿ وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ ﴾ [الكهف: ٣٩] . فينبغى لمن دخل بستانه ، أو داره ، أو رأى فى ماله وأهله ما يعجبه أن يبادر إلى هذه الكلمة ،فإنه لا يرى فيه سوءاً .

وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ : « ما أنعم الله على عبد نعمة فى أهل ومال

(١) أبو داود (٧٧٥) فى الصلاة ، باب: من رأى الاستفتاح بسبحانك اللهم وبحمدك ، والترمذى (٢٤٢) فى الصلاة ، باب: ما يقول عند افتتاح الصلاة .

(٢) مسلم (٢٢٠٣ / ٦٨) فى السلام ، باب: التعوذ من شيطان الوسوسة فى الصلاة .

وولد فقال : ﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ ﴾ فيرى فيها آفة دون الموت »(١) .

وعنه ﷺ أنه كان إذا رأى ما يسره قال: « الحمد للّه الذى بنعمته تتم الصالحات »، وإذا رأى ما يسوؤه قال: « الحمد للّه على كل حال »(٢) .

فصل
فى الذكر عند المصيبة

قال اللّه تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧) ﴾ [البقرة].

ويذكر عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ : « ليسترجع أحدكم فى كل شىء حتى فى شسع نعله فإنها من المصائب »(٣) .

وقالت أم سلمة : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: « ما من عبد تُصيبه مصيبة فيقول: إنا للّه وإنا إليه راجعون ، اللهم أجرنى فى مصيبتى ، وأخلف لى خيراً منها ، إلا آجره اللّه تعالى فى مصيبته ، وأخلف له خيراً منها » قالت : فلما توفى أبو سلمة قلت كما أمرنى رسول اللّه ﷺ ، فأخلف اللّه لى خيراً منه ، رسول اللّه ﷺ (٤).

وروى أيضاً عنها رضي الله عنها قالت: دخل رسول اللّه ﷺ على أبى سلمة وقد شق بصره، فأغمضه، ثم قال : « إنّ الرّوح إذا قُبض تبعه البصر » فضج ناس من أهله ، فقال: « لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير ، فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون » ثم قال: « اللهم اغفر لأبى سلمة ، وارفع درجتهُ فى المهديين، واخلفه فى عقبه فى الغابرين ، واغفر لنا وله يا رب العالمين ، وافسح له فى قبره ، ونوّر له فيه » (٥).

---

(١) الطبرانى فى الأوسط (٤٢٦١) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠ / ١٤٣) : « رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط وفيه عبد الملك بن زرارة وهو ضعيف » ، والبيهقى فى شعب الإيمان (٤٥٢٥) باب فى تعديد نعم اللّه عز وجل وما يجب من شكرها ، والدر المنثور (٤/ ٢٢٣) .

(٢) الحاكم فى المستدرك (١/ ٤٩٩) فى الدعاء، باب: أكثروا ذكر الله حتى يقولوا مجنون وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه » وسكت عنه الذهبى . وابن أبى شيبة (٩٦٠٣) فى الدعاء ، باب: ما يدعو إذا رأى الأمر يعجبه .

(٣) كنز العمال (٦٦٣٦) فى الصبر على المصائب مطلقا ، وعزاه لابن السنى فى عمل اليوم والليلة عن أبى هريرة.

(٤) مسلم (٩١٨ / ٣) فى الجنائز ، باب: ما يقال عند المصيبة ، وأبو داود (٣١١٩) فى الجنائز ، باب: فى الاسترجاع ، والترمذى (٣٥١١) فى الدعوات باب: ٨٤، واللفظ لمسلم .

(٥) مسلم (٩٢٠ / ٧) فى الجنائز ، باب: فى إغماض الميت والدعاء له إذا حُضر، وأبو داود(٣١١٨) فى الجنائز، باب: تغميض الميت .

فصل
فى الذكر الذى يدفع به الدين ويرجى قضاؤه

وفى الترمذى عن على ﷺ ، أن مُكاتباً جاءه فقال: إنى عجزتُ عن كتابتى فأعنى، فقال: ألا أعلمك كلمات علَّمنيهن رسول الله ﷺ ، لو كان عليك مثل جبل أحد دينا إلا أداه الله عنك ، قل: « اللهم اكفنى بحلالك عن حرامك ، وأغننى بفضلك عمن سواك » قال الترمذى : حديث حسن (١).

فصل
فى الذكر الذى يرقى به من اللسعة واللدغة وغيرهما

فى « صحيح البخارى » عن عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يعوذُ الحسين ﷺ ويقول: « إن أباكما كان يعوذُ بهما إسماعيل وإسحاق : أعيذكما بكلمات الله التامة ،من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة » (٢).

وفى « الصحيحين » عن أبى سعيد الخدرى ﷺ أن رجلاً من أصحاب النبى ﷺ رقى لديغا بفاتحة الكتاب ، فجعل يتفل عليه ويقرأ : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ ﴾ ،فكأنما نشط من عقال ، فانطلق يمشى وما به قلبة . . . الحديث(٣).

وفى « الصحيحين » عن عائشة ﷺ : أن النبى ﷺ كان إذا اشتكى الإنسان الشىء ، أو كانت قرحة به ،أو جرح ، قال النبى ﷺ بإصبعه هكذا ـ ووضع سفيان بن عيينة إصبعه بالأرض ثم رفعها ـ وقال : « بسم الله ، تربة أرضنا بريقة بعضنا ، يشفى به سقيمنها ، بإذن ربنا » (٤).

وفى « الصحيحين » أيضا عنها ﷺ : « أن النبى ﷺ كان يعوِّذ بعض أهله، يمسح بيده

(١) الترمذى (٣٥٦٣) فى الدعوات ، باب: ١١١ ، وقال :« حسن غريب » .

(٢) البخارى (٣٣٧١) فى الأنبياء ، باب : حديث أبى ذر أى مسجد وضع فى الأرض أول .

(٣) البخارى (٥٧٣٦) فى الطب ، باب: الرقى بفاتحة الكتاب ، ومسلم (٢٢٠١/ ٦٥)فى السلام ، باب: جواز أخذ الأجرة على الرقية

(٤) البخارى (٥٧٤٥) فى الطب ، باب: رقيه النبى ﷺ ،ومسلم (٢١٩٤ / ٥٤) فى السلام ، باب: استحباب الرقية من العين والنملة والحمة والنظرة .

اليمنى ويقول: « اللهم رب الناس، أذهب البأس،واشف أنت الشافى،لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر شقما »[١] .وفى « صحيح مسلم » عن عثمان بن أبى العاص ﷺ : أنه شكا إلى رسول اللّه ﷺ وجعاً يجده فى جسده منذ أسلم ، فقال النبى ﷺ : « ضع يدك على الذى يألم من جسدك وقلْ : بسم اللّه ـ ثلاثا ـ وقل سبع مرات: أعوذ بعزة اللّه وقدرته من شر ما أجد وأحاذر » [٢].

وفى « السنن » عن ابن عباس ﷺ، عن النبى ﷺ قال:«من عاد مريضا لم يحضر أجله، فقال عنده سبع مرات : أسأل اللّه العظيم ، رب العرش العظيم أن يشفيك ، إلا عافاه اللّه تعالى » [٣]. .

وفى «سنن أبى داود والنسائى »،عن أبى الدرداء قال:سمعت رسول اللّه ﷺ يقول:«من اشتكى منكم ،أو اشتكى أخ له فليقل: ربُّنا اللّه الذى فى السماء ،تقدس اسمك ، أمرك فى السماء والأرض ،كما رحمتُك فى السماء، فاجعل رحمتك فى الأرض، اغفر لنا حَوْبنا وخطايانا ، أنت رب الطيبين ،أنزل رحمة من رحمتك وشفاء من شفائك على هذا الوجع ، فيبرأ » [٤].

فصل
فى ذكر دخول المقابر

فى « صحيح مسلم » عن بريدة بن الحصيب قال: كان رسول اللّه ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر ، أن يقول قائلهم: « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إنْ شاء اللّه بكم لاحقون ، نسأل اللّه لنا ولكم العافية » [٥].

وفى «سنن ابن ماجه » عن عائشة، قالت: فقدت النبى ﷺ : فإذا هو بالبقيع فقال:

---

(١) البخارى (٥٧٤٣) فى الطب ، باب: رقية النبى ﷺ ، ومسلم (٢١٩١/٤٦) فى السلام ، باب: استحباب رقية المريض .

(٢) مسلم (٢٢٠٢ / ٦٧) فى السلام ، باب: استحباب وضع يده على موضع الألم .

(٣) أبو داود (٣١٠٦) فى الجنائز ، باب: الدعاء للمريض عند العيادة ، والترمذى (٢٠٨٣) فى الطب ، باب: ٣٢وقال: حسن غريب ، والنسائى فى الكبرى (١٠٨٨٤) فى عمل اليوم الليلة ، باب: موضع مجلس الإنسان من المريض عند الدعاء له .

(٤) أبو داودو (٣٨٩٢) فى الطب ، باب: كيف الرقى ، والنسائى فى الكبرى (١٠٨٧٧) فى عمل اليوم والليلة ، باب: ما يقول من كان به أسر .

(٥) مسلم (٩٧٥ / ١٠٤) فى الجنائز ، باب: ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها .

« السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، أنتم لنا فرط ،وإنا بكم لاحقون ، اللهم لا تحرمنا أجرهم، ولا تفتنا بعدهم » (١).

فصل
فى ذكر الاستسقاء

قال تعالى: ﴿**اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١)**﴾ [نوح].

عن جابر بن عبد الله قال: أتت النبى ﷺ بواك فقال: «اللهم اسقنا غيثا مُغيثا ،مريئًا، نافعا غير ضار ، عاجلا غير آجل » فأطبقت عليهم السماء(٢) .

وعن عائشة :شكا الناس إلى رسول اللّهﷺ قحوط المطر ،فأمر بمنبر فوضع له فى المصلى ،ووعد الناس يوما يخرجون فيه ،فخرج رسول الله ﷺ حين بدا حاجب الشمس، فقعد على المنبر ،فكبر وحمد اللّه عز وجل ، ثم قال:« إنكم شكوتم جدب دياركم ، واستئخار المطر عن إبان زمانه عنكم ، وقد أمركم اللّه سبحانه وتعالى أن تدعوه ، ووعدكم أن تستجيب لكم ». ثم قال: ﴿ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)**﴾، لا إله إلا اللّه، يفعل ما يريد، اللهم أنت اللّه لا إله إلا أنت الغنى ، ونحن الفقراء ، أنزل علينا الغيث ،واجعل ما أنزلته علينا قوة وبلاغا إلى حين »، ثم رفع يديه ،فلم يزل فى الرفع حتى بدا بياض إبطيه ، ثم حول إلى الناس ظهره ، وقلب ـ أو حول ـ رداءه وهو رافع يديه ،ثم أقبل على الناس ،فنزل ، فصلى ركعتين، فأنشأ اللّه عز وجل سحابة ،فرعدت وبرقت ، ثم أمطرت بإذن اللّه تعالى ،فلم يأت مسجده حتى سالت السيول ،فلما رأى سرعتهم إلى الكن ،ضحك النبى ﷺ حتى بدت نواجذه وقال:« أشهد أن الله على كل شيء قدير ، وأنى عبد الله ورسوله » (٣).

وفى « سنن أبى داود » عن عبد اللّه بن عمرو : كان رسول اللّه ﷺ إذا استسقى قال: « اللهم اسق عبادك وبهائمك، وانشر رحمتك ،وأحى بلدك الميت» (٤).

وقال الشعبى : خرج عمر يستسقى ، فلم يزد على الاستغفار . فقالوا : ما رأيناك

---

(١) ابن ماجه (١٥٤٦) فى الجنائز ،باب: ما جاء فيما يقال إذا دخل المقابر .
(٢) أبو داود (١١٦٩) فى الصلاة ، باب: رفع اليدين فى الاستسقاء .
(٣) أبو داود (١١٧٣) فى الصلاة ، باب: رفع اليدين فى الاستسقاء .
(٤) أبو داود (١١٧٦) فى الصلاة ، باب: رفع اليدين فى الاستسقاء .

استسقيت ، فقال: لقد طلبت الغيث بمجاديح السماء التى يستنزلون بها المطر ، ثم قرأ : ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ⑩ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ⑪﴾ [نوح]، ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [هود : ٣] .

فصل
فى أذكار الريح إذا هاجت

قال أبو هريرة :سمعت رسول اللّه ﷺ يقول:« الريح من روح اللّه تعالى ، تأتى بالرحمة ، وتأتى بالعذاب ، فإذا رأيتموها فلا تسبوها، واسألوا اللّه من خيرها ،واستعيذوا باللّه من شرها » رواه أبو داود(١) .

وفى « صحيح مسلم » عن عائشة قالت:كان النبى ﷺ إذا عصفت الريح قال:« اللهم إنى أسألك خيرها ، وخير ما فيها ،وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به » (٢).

وفى « سنن أبى داود » عن عائشة أيضاً رضي الله عنها :« أن النبى ﷺ كان إذا رأى ناشئاً فى أفق السماء ترك العمل وإن كان فى صلاة ، ثم يقول:« اللهم إنى أعوذ بك من شرها» فإن مطر قال:« اللهم صيبا هنيئاً » (٣).

فصل
فى الذكر عند الرعد

كان عبد اللّه بن الزبير رضي الله عنه إذا سمع الرعد ترك الحديث فقال: سبحان الذى﴿ يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ [الرعد ١٤] .

وعن كعب أنه قال: من قال ذلك ثلاثا، عوفى من ذلك الرعد .

وفى الترمذى عن عبد اللّه بن عمر رضى الله تعالى عنهما ، أن رسول اللّه ﷺ كان إذا سمع صوت الرعد والصواعق قال: « اللهم لا تقتلنا بغضبك ،ولا تهلكنا بعذابك ،

---

(١) أبو داود (٥٠٩٧) فى الأدب ، باب:ما يقول إذا هاجت الريح .

(٢) مسلم (٨٩٩ / ١٥) فى صلاة الاستسقاء، باب : التعوذ عند رؤية الريح والغيم والفرح بالمطر .

(٣) أبو داود (٥٠٩٩) فى الأدب ، باب:ما يقول إذا هاجت الريح .

وعافنا قبل ذلك » (١).

فصل
فى الذكر عند نزول الغيث

فى « الصحيحين » عن زيد بن خالد الجُهنى قال : صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية فى إثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال: « هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال :« قال : أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ، ورحمته ، فذلك مؤمن بى ، وكافر بالكواكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا ، فذاك كافر بى ، مؤمن بالكواكب» (٢).

وقد قيل : إن الدعاء عند نزول الغيث مستجاب .

وفى « صحيح البخارى » عن عائشة ﵂ : أن النبى ﷺ كان إذا رأى المطر قال : « صيباً نافعاً » (٣).

وفى « صحيح مسلم » عن أنس ﵁ قال : أصابنا ونحن مع رسول الله ﷺ مطر، فحسر رسول الله ﷺ ثوبه حتى أصابه من المطر ، فقلنا ، يا رسول الله ، لم صنعت هذا؟ قال : « لأنه حديث عهد بربه» (٤).

فصل
فى الذكر والدعاء عند زيادة المطر وكثرة المياه والخوف منها

فى « الصحيحين » عن أنس قال: دخل رجل المسجد يوم جمعة ورسول الله ﷺ قائم يخطب الناس، فقال: يا رسول الله، هلكت الأموال ، وانقطعت السبل ، فادع الله يغيثنا،

---

(١) الترمذى (٣٤٥٠) فى الدعوات ، باب: مايقول إذا سمع الرعد وقال: « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه » .

(٢) البخارى (٨٤٦) فى الأذان ، باب: يستقبل الإمام الناس إذا سلم ، ومسلم (٧١/ ١٢٥) فى الإيمان ، باب : بيان كفر من قال مطرنا بالنوء .

(٣) البخارى (١٠٣٢) فى الاستسقاء ، باب: ما يقال إذا أمطرت .

(٤) مسلم (٨٩٨ / ١٣) فى صلاة الاستسقاء ، باب: الدعاء فى الاستسقاء .

فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال: « اللهم أغثنا ، اللهم أغثنا ، اللهم أغثنا » قال أنس . ولا والله ما نرى فى السماء من سحاب ولا قزعة ، وما بيننا وبين سلع من بيت ولا دار ، فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس،فلما توسطت السماء انتشرت ،ثم أمطرت ، فلا والله ما رأينا الشمس سبْتاً ، ثم دخل رجل من ذلك الباب فى الجمعة المقبلة ،ورسول الله ﷺ قائم يخطب،فاستقبله قائما ، فقال : يا رسول الله ، هلكت الأموال ، وانقطعت السبل ، فادع الله يُمسكها عنا ، فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال : « اللهم حوالينا ولا علينا ، اللهم على الآكام والظّراب ، وبطون الأودية ، ومنابت الشجر » قال : فأقلعت ، وخرجنا نمشى فى الشمس » (١).

فصل
فى الذكر عند رؤية الهلال

عن عبد الله بن عمر قال: كان رسول اللهَ ﷺ إذا رأى الهلال قال:« الله أكبر ، اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان ، والسلامة والإسلام والتوفيق لما تحب وترضى ،ربنا وربك الله » (٢).

وفى «سنن أبى داود» عن قتادة ، أنه بلغه : أن نبى الله ﷺ كان إذا رأى الهلال قال: «هلال خير ورشد ،هلال خير ورشد ،هلال خير ورشد ، آمنت بالله الذى خلقك » ثلاث مرات ثم يقول:« الحمد لله الذى ذهب بشهر كذا ،وجاء بشهر كذا » (٣) (٤).

وأيضا

يُذكر عنه ﷺ أنه كان يقول:« اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان ،والسلامة والإسلام، ربى وربك الله » قال الترمذى :حديث حسن (٥).

---

(١) البخارى (١٠١٤) فى الاستسقاء ، باب : الاستسقاء فى خطبة الجمعة غير مستقبل القبلة، ومسلم (٨/٨٩٧) فى صلاة الاستسقاء ، باب: الدعاء فى الاستسقاء .

(٢) الدارمى (٣/٢ ، ٤) فى الصوم ، باب : الصوم لرؤية الهلال .

(٣) أبو داود (٥٠٩٢) فى الأدب ، باب: ما يقول الرجل إذا رأى الهلال .

(٤) الوابل الصيب (٢٥١ ـ ٢٧٠) .

(٥)الترمذى (٣٤٥١) فى الدعوات ، باب: ما يقول عند رؤية االهلال ، وقال : « حسن غريب ».

ويُذكر عنه أنه كان يقول عند رؤيته : « اللّه أكبر، اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان ، والسلامة والإسلام والتوفيق لما يحب ربنا ويرضى، ربُّنا وربك اللّه » ذكره الدارمى(١) .

وذكر أبو داود عن قتادة أنه بلغه أن نبى اللّه ﷺ كان إذا رأى الهلال قال: « هلال خير ورشد ، هلال خير ورشد ، آمنت بالذى خلقك ثلاث مرات ثم يقول: الحمد للّه الذى ذهب بشهر كذا ، وجاء بشهر كذا » (٢) . وفى أسانيدها لين .

ويُذكر عن أبى داود وهو فى بعض نسخ سننه أنه قال : ليس فى هذا الباب عن النبى ﷺ حديث مسند صحيح (٣) .

فصل
فى الذكر للصائم وعند فطره

عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: « ثلاثة لا تُردُّ دعوتهم، الصائم حتى يُفطر، والإمام العادل ، ودعوة المظلوم » رواه الترمذى وقال: حديث حسن(٤) .

وروى ابن ماجه ، عن ابن أبى مليكة ، عن عبد اللّه بن عمرو : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: « إن للصائم عند فطره لدعوة ما ترد » (٥) .

وقال ابن أبى مليكة : سمعت عبد اللّه بن عمرو رضى اللّه تعالى عنهما يقول إذا أفطر : اللهم إنى أسألك برحمتك التى وسعت كل شىء أن تغفر لى .

ويذكر عن النبى ﷺ أنه كان إذا أفطر قال: «اللهم لك صُمت، وعلى رزقك أفطرت»(٦).

ومن وجه آخر: «اللهم لك صُمنا ، وعلى رزقك أفطرنا ، فتقبل منا . إنك أنت السميع العليم »(٧).

(١ ، ٢) سبق تخريجهما ص ٣٤١ .

(٣) زاد المعاد (٢ / ٣٩٦ ـ ٣٩٧) .

(٤) الترمذى (٣٥٩٨) فى الدعوات ، باب: فى العفو والعافية .

(٥) ابن ماجه (١٧٥٣) فى الصيام ، باب: فى الصائم لا ترد دعوته .

(٦) أبو داود (٢٣٥٨) فى الصوم ، باب: القول عند الإفطار .

(٧) الدارقطنى ٢/ ١٨٥ (٢١) فى الصيام ، باب: القبلة للصائم.

فصل
فى أذكار السفر

روى الطبرانى عن النبى ﷺ أنه قال: « ما خلف أحد عند أهله أفضل من ركعتين يركعهما عندهم حين يريد سفراً » [١].

وفى « مسند الإمام أحمد » عن أبى هريرة رضى اللّه تعالى عنه عن النبى ﷺ أنه قال: « من أراد سفراً فليقُل لمن يُخلِّفُ : أستودعكُم اللّه الذى لا تضيع ودائعه » [٢].

وفى « المسند » أيضاً ، عن ابن عمر عن النبى ﷺ، قال: « إن اللّه إذا استودع شيئاً حفظه » [٣].

وقال سالم: كان ابن عمر يقول لرجل إذا أراد سفراً : ادْنُ منى أودِّعْك ، كما كان رسول اللّه ﷺ يودعُنا ، فيقول: « أستودعُ اللّه دينك وأمانتك وخواتيم عملك »[٤].

ومن وجه آخر : كان النبى ﷺ إذا ودع رجلاً أخذ بيده ، فلا يدعْها حتى يكون الرجل هو الذى يدعُ يد النبى ﷺ . . . وذكر تمام الحديث [٥]. قال الترمذى : حديث حسن صحيح .

وقال أنس رضي الله عنه : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، إنى أريد سفراً فزودنى . فقال : « زودك اللّه التقوى » ، قال: زدنى ، قال: « وغفر ذنبك » ، قال: زدنى ، قال: « ويسر لك الخير حيثما كنت » قال الترمذى : حديث حسن [٦].

وعن أبى هريرة أن رجلا قال: يا رسول اللّه، إنى أريد أن أسافر فأوصنى ، قال: عليك بتقوى اللّه عز وجل ، والتكبير على كل شرف » فلما ولى الرجل قال: « اللهم اطو له البعد ، وهوّن عليه السفر » قال الترمذى : حديث حسن [٧].

---

(١) السلسلة الضعيفة (٣٧٢) ، والأذكار (٥٣٣) .

(٢) أحمد (٢ / ٤٠٣) .

(٣) أحمد (٢/ ٨٧).

(٤) أبو داود (٢٦٠٠) فى الجهاد ، باب : فى الدعاء عند الوداع ، والترمذى (٣٤٤٣) فى الدعوات ، باب: ما يقول إذا ودع إنسانا وقال: «حسن صحيح غريب » ، وأحمد (٢/ ٢٥) .

(٥) الترمذى (٣٤٤٢) فى الدعوات ، باب: ما يقول إذا ودع إنسانا وقال : « غريب من هذا الوجه » .

(٦) الترمذى (٣٤٤٤) فى الدعوات ، باب: ما يقول إذا ودع إنسانا ،وقال : « حسن غريب » .

(٧) الترمذى (٣٤٤٥) فى الدعوات ، باب: ٤٦ .

فصل
فى ركوب الدابة والذكر عنده

قال على بن ربيعة : شهدت على بن أبى طالب ﷺ أُتى بدابة ليركبها ، فلما وضع رجله فى الركاب قال : بسم الله ، فلما استوى على ظهرها قال : الحمد لله ، ثم قال : ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ۝ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ** ۝ ﴾ [الزخرف] ثم قال: « الحمد لله » ثلاث مرات ،ثم قال : « الله أكبر ثلاث مرات ، ثم قال : سبحانك إنى ظلمت نفسى فاغفر لى ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، ثم ضحك. فقيل: يا أمير المؤمنين ! من أى شيء ضحكت ، فقال : رأيت النبى ﷺ فعل كما فعلت ، ثم ضحك ، فقلت: يا رسول الله ،من أى شيء ضحكت؟ فقال: « إن ربك سبحانه وتعالى يعجب من عبده إذا قال: اغفر لى ذنوبى ،يعلم أنه لا يغفر الذنوب غيرى » رواه أهل السنن ، وصححه الترمذى (١).

وفى « صحيح مسلم » عن عبد الله بن عمر ﷺ ، أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفر ، كبر ثلاثا ثم قال: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ۝ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ** ۝ ﴾ [الزخرف] اللهم إنا نسألك فى سفرنا هذا البر والتقوى ،ومن العمل ما ترضى ،اللهم هون علينا سفرنا هذا واطو عنا بعده،اللهم أنت الصاحب فى السفر ،والخليفة فى الأهل،اللهم إنى أعوذ بك من وعثاء السفر،وكآبة المنظر،وسوء المنقلب فى المال والأهل » ،وإذا رجع قالهن وزاد فيهن : « آيبون ، تائبون، عابدون ، لربنا حامدون »(٢) .

وفى وجه آخر :« كان رسول الله ﷺ وأصحابه ﷺ إذا علوا الثنايا كبروا ،وإذا هبطوا سبّحوا » (٣) .

---

(١) أبو داود (٢٦٠٢) فى الجهاد ، باب: ما يقول الرجل إذا ركب ، والترمذى (٣٤٤٦) فى الدعوات ، باب: ما يقول إذا ركب الناقة .

(٢) مسلم (١٣٤٢/٤٢٥) فى الحج ، باب: ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره .

(٣) أبو داود (٢٥٩٩) فى الجهاد ، باب: ما يقول الرجل إذا سافر .

فصل
فى ذكر الرجوع من السفر

قال عبد اللّه بن عمر : « كان رسول اللّه ﷺ إذا قفل من حج أو عمرة أو غزوٍ ، يكبر على كل شرف من الأرض ثلاث تكبيرات ، ثم يقول: لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، له الملك،وله الحمد ،وهو على كل شىء قدير، آيبون، تائبون، عابدون،ساجدون، لربنا حامدون،صدق اللّه وعده ،ونصر عبده ،وهزم الأحزاب وحده ». رواه البخارى ومسلم(١) .

فصل
فى الذكر على الدابة إذا استصعبت

قال يونس بن عبيد : ليس رجل يكون على دابة صعبة فيقول فى أذنها : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣) ﴾ [آل عمران] إلا وقفت بإذن اللّه تعالى .

قال شيخنا ـ قدس اللّه روحه : وقد فعلنا ذلك فكان كذلك .

فصل
فى الدابة إذا انفلتت وما يذكر عند ذلك

عن ابن مسعود رضي الله عنه، عن رسول اللّه ﷺ قال:«إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة، فليناد: يا عباد اللّه،احبسوا ، يا عباد اللّه احبسوا، فإن للّه عز وجل حاضرا سيحبسه »(٢) .

---

(١) البخارى (٦٣٨٥) فى الدعوات ، باب: الدعاء إذا أراد سفرا أو رجع ، ومسلم (١٣٤٤/٤٢٨) فى الحج ، باب: ما يقول إذا قفل من سفر الحج وغيره .

(٢) مسند أبى يعلى (٥٢٦٩) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٣٥/١٠) فى الأذكار ، باب: ما يقول إذا انفلتت دابته أو أراد غوثا أو أضل شيئًا : « رواه أبو يعلى والطبرانى وزاد سيحبسه عليكم ، وفيه معروف بن حسان وهو ضعيف ، والسلسلة الضعيفة (٦٥٥) .

فصل
فى الذكر عند دخول القرية أو البلدة إذا أراد دخولها

عن صهيب ﷺ ، أن النبى ﷺ لم ير قرية يريد دخولها إلا قال حين يراها : « اللهم رب السموات السبع وما أظللن ،ورب الأرضين السبع وما أقللن ،ورب الشياطين وما أضللن ، ورب الرياح وما ذرين ،أسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها ، وأعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها » رواه النسائى (١).

فصل
فى ذكر المنزل يريد نزوله

قالت خولة بنت حكيم ﷺ : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من نزل منزلاً ثم قال: أعوذ بكلمات اللّه التامات من شر ما خلق ، لم يضره شىء حتى يرتحل من منزله ذلك ». رواه مسلم (٢).

وعن عبد اللّه بن عمر ﷺ قال: كان رسول اللّه ﷺ إذا سافر فأقبل الليل قال:« يا أرض ، ربى وربك اللّه ، أعوذ باللّه من شرك وشر ما فيك ، وشر ما خلق فيك ،وشر ما يدب عليك ،وأعوذ باللّه من أسد وأسود ، ومن الحية والعقرب ،ومن ساكن البلد ، ومن والد وما ولد » . رواه أبو داود (٣) (٤).

وأيضا

ذكر البيهقى وغيره ، عن أنس ﷺ قال : لم يُرد النبى ﷺ سفرا قطّ إلا قال حين ينهض من جلوسه :« اللهم بك انتشرتُ وإليك توجهت ، وبك اعتصمت ، وعليك

---

(١) النسائى فى الكبرى (١٠٣٧٨) فى عمل اليوم والليلة ، باب: ما يقول إذا رأى قرية يريد دخولها .

(٢) مسلم (٢٧٠٨/ ٥٤) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: فى التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره .

(٣) أبو داود (٢٦٠٣) فى الجهاد ، باب : ما يقول الرجل إذا نزل المنزل ، وهو عن عبد اللّه بن عمرو وليس عبد اللّه بن عمر .

(٤) الوابل الصيب (٢٧٠ ـ ٢٨٠) .

توكلت، اللهم أنت ثقتى وأنت رجائى ، اللهم اكفنى ما أهمنى وما لا أهتمّ له، وما أنت أعلم به منى ، عز جارك ،وجل ثناؤك ،ولا إله غيرك ، اللهم زودنى التقوى ، واغفر لى ذنبى ، ووجهنى للخير أينما توجهت »[(١)]، ثم يخرج .

وكان إذا ركب راحلته ، كبّر ثلاثا ،ثم قال:« سبحان الذى سخر لنا هذا ، وما كنا له مقرنين،وإنا إلى ربنا لمنقلبون ». ثم يقول:« اللهم إنى أسألك فى سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى ، اللهم هوّن علينا سفرنا هذا ، واطو عنا بعده ، اللهم أنت الصاحب فى السفر، والخليفة فى الأهل ، اللهم اصحبنا فى سفرنا ، واخلفنا فى أهلنا » وإذا رجع قالهن وزاد فيهن : « آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون »[(٢)].

وذكر أحمد عنه ﷺ أنه كان يقول: « أنت الصاحب فى السفر، والخليفة فى الأهل ، اللهم إنى أعوذ بك من الضُّبنة فى السفروالكآبة فى المنقلب ،اللهم اقبض لنا الأرض ، وهوّن علينا السفر » ، وإذا أراد الرجوع قال :« آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون » ، وإذا دخل أهله قال : توباً توباً لربنا أوبًا ، لا يغادر علينا حوْباً »[(٣)].

وفى « صحيح مسلم» : أنه كان إذا سافر يقول: « اللهم إنى أعوذ بك من وعثاء السفر ، وكآبة المنقلب ، ومن الحور بعد الكور ، ومن دعوة المظلوم، ومن سوء المنظر فى الأهل والمال »[(٤)].

وكان إذا وضع رجله فى الرّكاب لركوب دابته . قال:« بسم اللّه » فإذا استوى على ظهرها، قال:« الحمد للّه » ثلاثا « اللّه أكبر » ثلاثا ثم يقول:« سبحان الذى سخر لنا هذا، وما كنا له مقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون » ثم يقول : « الحمد للّه » ثلاثا ، « واللّه أكبر » ثلاثا، ثم يقول :« سبحان اللّه » ثلاثا ،ثم يقول : « لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، سبحانك إنى ظلمت نفسى ، فاغفر لى ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت »[(٥)].

وكان إذا ودّع أصحابه فى السفر يقول لأحدهم: « أستودع اللّه دينك وأمانتك ،

---

(١) البيهقى فى الكبرى (٥/ ٢٥٠) فى الحج ، باب:الدعاء إذا سافر ، ومسند أبى يعلى (٢٧٧٠) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠ / ١٣٣) فى الأذكار ، باب: ما يقول إذا نهض للسفر : « وفيه عمر بن مساور وهو ضعيف» .

(٢) مسلم (١٣٤٢ / ٤٢٥) فى الحج ، باب: ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره ، وأبو داود (٢٥٩٩) فى الجهاد ، باب : ما يقول الرجل إذا سافر .

(٣) أحمد (١ / ٢٥٦) .

(٤) مسلم (١٣٤٣ / ٤٢٦) فى الحج ، باب: ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره .

(٥) أبو داود (٢٦٠٢) فى الجهاد ، باب : ما يقول الرجل إذا ركب ، والترمذى (٣٤٤٦) فى الدعوات ، باب : ما يقول إذا ركب الناقة ،وقال: « حسن صحيح » .

وخواتيم عملك » (١).

وجاء إليه رجل وقال: يا رسول اللّه ، إنى أريد سفرا ، فزودنى فقال: « زودك اللّه بالتقوى ». قال: زدنى . قال: « وغفر لك ذنبك » . قال :زدنى . قال:« ويسر لك الخير حيثما كنت» (٢).وقال رجل : إنى أريد سفراً، فقال: « أوصيك بتقوى اللّه ، والتكبير على كل شرف » فلما ولّى ، قال:« اللهم ازو له الأرض ، وهوّن عليه السفر » (٣).

وكان النبى ﷺ وأصحابه ، إذا علوا الثنايا ،كبروا، وإذا هبطوا ، سبحوا ، فوضعت الصلاة على ذلك (٤).

وقال أنس: كان النبى ﷺ إذا علا شرفا من الأرض ،أو نشزا ، قال:« اللهم لك الشرف على كل شرفٍ ،ولك الحمد على كل حمدٍ » (٥).

وكان سيرُه فى حجه العنقَ ، فإذا وجد فجوة ،رفع السير فوق ذلك ، وكان يقول: «لا تصحب الملائكة رفقة فيها كلب ولا جرس » (٦).

وكان يكره للمسافر وحده أن يسير بالليل،فقال: « لو يعلم الناس ما فى الوحدة ما سار أحد وحده بليل » (٧).

بل كان يكره السفر للواحد بلا رفقة،وأخبر:«أن الواحد شيطان، والاثنان شيطانان، والثلاثة ركْب »(٨).

وكان يقول: « إذا نزل أحدكم منزلاً فلْيقل : أعُوذ بكلمات اللّه التامات من شر ما خلق، فإنه لا يضره شىء حتى يرتحل منه » .

ولفظ مسلم:« من نزل منزلاً ثم قال: أعُوذُ بكلمات اللّه التامات من شرّ ما خلق،

(١) أبو داود (٢٦٠٠) فى الجهاد ، باب: فى الدعاء عند الوداع ، والترمذى (٣٤٤٣) فى الدعوات ، باب: ما يقول إذا ودع إنسانا ، وقال : « حسن صحيح غريب » .

(٢) الترمذى (٣٤٤٤) فى الدعوات ، باب: ٤٥ ، وقال : « حسن غريب » .

(٣) الترمذى (٣٤٤٥) فى الدعوات ، باب: ٤٦ ، وقال: « حسن » .

(٤) أبو داود (٢٥٩٩) فى الجهاد ، باب: ما يقول الرجل إذا سافر .

(٥) أحمد (٣/١٢٧) .

(٦) مسلم (٢١١٣ / ١٠٣) فى اللباس والزينة ، باب: كراهة الكلب والجرس فى السفر ، وأبو داود (٢٥٥٥) فى الجهاد ، باب: فى تعليق الأجراس ، والترمذى (١٧٠٣) فى الجهاد ، باب: ما جاء فى كراهية الأجراس على الخيل .

(٧) البخارى (٢٩٩٨) فى الجهاد ، باب: السير وحده ، وابن ماجه (٣٧٦٨) فى الأدب ، باب: كراهية الوحدة، وأحمد (٢/٢٣) .

(٨) أبو داود (٢٦٠٧) فى الجهاد ، باب: فى الرجل يسافر وحده ، وأحمد (٢/١٨٦) .

فإنه لا يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك »[١] .

وذكر أحمد عنه أنه كان إذا غزا أو سافر، فأدركه الليل، قال: « يا أرض، ربى وربك الله، أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك ، وشر ما خلق فيك، وشر ما دبَّ عليك، أعوذ بالله من شر كلّ أسد وأسود ، وحيّة وعقرب، ومن شر ساكن البلد، ومن شر والد، وما ولد»[٢] .

وكان يقول: « إذا سافرتم فى الخِصب ، فأعطوا الإبل حظها من الأرض ، وإذا سافرتم فى السنة، فبادروا نقيها » . وفى لفظ: « فأسرعوا عليها السير، وإذا عرَّستم ، فاجتنبوا الطريق، فإنها طرق الدواب ومأوى الهوام بالليل »[٣] .

وكان إذا رأى قرية يريد دخولها قال حين يواها : « اللهم رب السموات السبع وما أظللن ، ورب الأرضين السبع وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، ورب الرياح وما ذرين، إنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها ، ونعوذ بك من شرها وشر ما فيها » [٤] .

وكان إذا بدا له الفجر فى السفر ، قال: « سمع سامع بحمد الله وحُسن بلائه علينا، ربنا صاحبنا وأفضل علينا عائذاً بالله من النار » [٥] .

وكان ينهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو ، مخافة أن يناله العدو [٦] .

وكان ينهى المرأة أن تسافر بغير محرم ، ولو مسافة بريد [٧] .

وكان يأمر المسافر إذا قضى نهمته من سفره ، أن يعجل الأوبة إلى أهله [٨] .

---

(١) مسلم (٢٧٠٨/ ٥٤، ٥٥) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: فى التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره .

(٢) أحمد (٢ / ١٣٢) .

(٣) مسلم (١٩٢٦/ ١٧٨) فى الإمارة ، باب: مراعاة مصلحة الدواب فى السير ، والنهى عن التعريس فى الطريق.

(٤) سبق تخريجه ص ٣٤٦ .

(٥) مسلم (٢٧١٨/ ٨) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: التعوذ من شر ما عمل ، ومن شر ما لم يعمل، وأبو داود (٥٠٨٦) فى الأدب ، باب: ما يقول إذا أصبح .

(٦) البخارى (٢٩٩٠) فى الجهاد ، باب: كراهية الضرب إلى أرض العدو بالمصاحف ، ومسلم (١٨٦٩/ ٩٢) فى الإمارة ، باب: النهى أن يسافر بالمصاحف إلى أرض الكفار ، وأبو داود(٢٦١٠) فى الجهاد ، باب: فى المصحف يسافر به إلى أرض العدو ، وابن ماجه (٢٨٧٩) فى الجهاد ، باب : النهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو، ومالك ٢/ ٤٤٦ (٧) فى الجهاد ، باب: النهى عن أن يسافر بالقرآن إلى أوض العدو ، وأحمد ٢/ ٦ ، ٧ .

(٧) أبو داود (١٧٢٥) فى المناسك ، باب : فى المرأة تحج بغير محرم ، والحاكم فى المستدرك ١/ ٤٤٢ ، وقال : «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه بهذا اللفظ » ، ووافقه الذهبى .

(٨) البخارى (١٨٠٤) فى العمرة ، باب: السفر قطعة من العذاب، ومسلم (١٩٢٧ / ١٧٩) فى الإمارة ، باب: السفر قطعة من العذاب ، وابن ماجه (٢٨٨٢) فى المناسك ، باب : الخروج إلى الحج ، ومالك ٢/ ٩٨٠ (٣٩) فى الاستئذان ، باب: ما يؤمر به من العمل فى السفر ، وأحمد ٢/ ٢٣٦ .

وكان إذا قفل من سفره يكبر على كل شرف من الأرض ثلاث تكبيرات ، ثم يقول: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له،له الملك،وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير، آيبون تائبون ، عابدون ،لربنا حامدون ،صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده» (١).

وكان ينهى أن يطرق الرجل أهله ليلاً إذا طالت غيبتُهُ عنهم (٢).

وفى « الصحيحين » : كان لا يطرق أهله ليلاً يدخل عليهن غدوة أو عشية (٣).

وكان إذا قدم من سفره يلقى بالولدان من أهل بيته. قال عبد الله بن جعفر: وأنه قدم مرة من سفر فسبِق بى إليه ، فحملنى بين يديه،ثم جيء بأحد ابنى فاطمة ، إما حسن وإما حسين،فأردفه خلفه . قال: فدخلنا المدينة ثلاثة على دابة(٤).

وكان يعتنق القادم من سفره ،ويقبله إذا كان من أهله. قال الزهرى: عن عروة ، عن عائشة :قدم زيد بن حارثة المدينة ،ورسول الله ﷺ فى بيتى،فأتاه ،فقرع الباب ، فقام إليه رسول الله ﷺ عُريانا يجرُّ ثوبه ،والله ما رأيته عُريانا قبله ولا بعده ، فاعتنقه وقبّله (٥).

قالت عائشة: لما قدم جعفر وأصحابه، تلقاه النبى ﷺ ،فقبّل ما بين عينيه واعتنقه(٦).

قال الشعبى :وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا قدموا من سفر، تعانقوا .

وكان إذا قدم من سفر ، بدأ بالمسجد ، فركع فيه ركعتين (٧) (٨).

---

(١) البخارى (١٧٩٧) فى العمرة. ، باب: ما يقول إذا رجع من الحج أو العمرة أو الغزو ، وأبو داود (٢٧٧٠) فى الجهاد ، باب:فى التكبير على كل شرف فى السير ، ومالك ١/ ٤٢١ (٢٤٣) فى الحج، باب: جامع الحج، وأحمد ٣/ ٦٣ .

(٢) البخارى (٥٢٤٦) فى النكاح ، باب: طلب الولد ،ومسلم (٧١٥/ ١٨٣) فى الإمارة ، باب:كراهة الطروق، وأبو داود (٢٧٧٦) فى الجهاد ، باب: فى الطروق ،والترمذى (٢٧١٢) فى الاستئذان باب: ما جاء فى كراهية طروق الرجل أهله ليلا، والدارمى (٢/ ٢٧٥) فى الاستئذان باب: فى النهى أن يطرق الرجل أهله ليلاً ، وأحمد ٣/ ٣٠٢ .

(٣) البخارى (١٨٠٠) فى العمرة ، باب: الدخول بالعشى ، ومسلم (١٩٢٨/ ١٨٠) فى الإمارة ، باب: كراهة الطروق .

(٤) مسلم (٢٤٢٨ / ٦٦) فى فضائل الصحابة ، باب : فضائل عبد الله بن جعفر رضي الله عنه .

(٥) الترمذى (٢٧٣٢) فى الاستئذان ، باب : ما جاء فى المعانقة، وقال: « حسن غريب » ، وضعفه الألبانى .

(٦) أبو داود (٥٢٢٠) فى الأدب ، باب: فى قبلة ما بين العينين .

(٧) البخارى (٤٤١٨) فى المغازى ، باب: حديث كعب بن مالك ، ومسلم (٢٧٦٩/ ٥٣) فى التوبة ، باب: حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه ، وأبو داود (٢٧٨١) فى الجهاد ، باب: فى الصلاة عند القدوم من السفر .

(٨) زاد المعاد (٢/ ٤٤٥ ـ ٤٥٤) .

فصل
فى ذكر الطعام والشراب

قال سبحانه وتعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ** (١٧٢) ﴾[البقرة].

قال عمر بن أبى سلمة ﵄ : قال لى رسول الله ﷺ : « يا بُنىّ ، سم اللّه وكل بيمينك ، وكلْ مما يليك » متفق عليه[(١)] .

وقالت عائشة ﵂ :قال رسول الله ﷺ:« إذا أكل أحدكم فليذكر اسم اللّه تعالى فى أوله ، فإن نسى أن يذكر اسم اللّه تعالى فى أوله فلْيقل : بسم اللّه أوله وآخره » ، قال الترمذى : حديث حسن صحيح [(٢)].

وقال أميّة بن مخشى ﵁ : كان رسول اللّه ﷺ جالساً ورجل يأكل ، فلم يسم حتى لم يبق من طعامه إلا لقمة ، فلما رفعها إلى فيه قال: بسم الله أوله وأخره ، فضحك النبى ﷺ ثم قال: ما زال الشيطان يأكل معه ، فلما ذكر اسم الله تعالى استقاء ما فى بطنه» رواه أبو داود [(٣)].

وقال رسول اللّه ﷺ:« إن اللّه ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ، ويشرب الشربة فيحمده عليها » .رواه مسلم فى « صحيحه » من حديث أنس ﵁ [(٤)] .

وقال أبو هريرة:« ما عاب رسول اللّه ﷺ طعاماً قط، إنْ اشتهاه أكله ،وإلا تركه» . متفق عليه [(٥)].

وعن وحشى : أن أناساً قالوا: يارسول اللّه ، إنا نأكل ولا نشبع ،قال: « فلعلكم تفترقون » ؟ قالوا ؛ نعم . قالوا:« فاجتمعوا على طعامكم ،واذكروا اسم اللّه تعالى يبارك

---

(١) البخارى (٥٣٧٦) فى الأطعمة ، باب: التسمية على الطعام والأكل باليمين ، ومسلم (٢٠٢٢/١٠٨) فى الأشربة ، باب: آداب الطعام والشراب وأحكامهما .

(٢) الترمذى (١٨٥٨) فى الأطعمة ، باب: ما جاء فى التسمية على الطعام.

(٣) أبو داود (٣٧٦٨) فى الأطعمة ، باب: التسمية على الطعام ، وضعفه الألبانى .

(٤) مسلم (٢٧٣٤/٨٩) فى الذكر والدعاء ، باب: استحباب حمد اللّه تعالى بعد الأكل والشرب .

(٥) البخارى (٥٤٠٩) فى الأطعمة ، باب: ما عاب النبى ﷺ طعاماً ، ومسلم (٢٠٦٤/١٨٧) فى الأشربة ، باب: لا يعيب الطعام .

لكم فيه » رواه أبو داود [١].

وعن معاذ بن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :« من أكل أو شرب فقال: الحمد لله الذى أطعمنى هذا الطعام ،ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة ، غُفِر له ما تقدم من ذنبه »، قال الترمذى : حديث حسن [٢].

وعن أبى سعيد ﷺ : أن النبى ﷺ كان إذا فرغ من طعامه قال:« الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين» رواه أبو داود والترمذى [٣].

وذكر النسائى عن رجل خدم النبى ﷺ أنه كان يسمع النبى ﷺ إذا قرب إليه طعامه يقول :« بسْمِ الله » وإذا فرغ من طعامه قال: « اللهم أطعمت وسقيت ، وأغنيت وأقنيت، وهديت وأحييت ، فلك الحمد على ما أعطيت » [٤] .

وفى « صحيح البخارى » عن أبى أمامة ﷺ، أن النبى ﷺ كان إذا رفع مائدته قال: « الحمد لله كثيراً مباركاً فيه ، غير مكفى ولا مودع ، ولا مستغنى عنه ربنا » [٥] [٦] .

وأيضا

كان ﷺ إذا رفع الطعام من بين يديه يقول:« الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه غير مكفى ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا عز وجل» ذكره البخارى [٧]. وربما كان يقول:« الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين » [٨] ،وكان يقول:« الحمد لله الذى أطعم وسقى وسوّغه وجعل له مخرجاً »[٩] ،وذكر البخارى عنه أنه كان يقول:« الحمد لله الذى كفانا

---

(١) أبو داود (٣٧٦٤) فى الأطعمة ، باب: الاجتماع على الطعام .

(٢) الترمذى (٣٤٥٨) فى الدعوات، باب: ما يقول إذا فرغ من الطعام ، وقال: « حسن غريب ».

(٣) أبو داود (٣٨٥٠) فى الأطعمة ، باب :ما يقول الرجل إذا طعم ، والترمذى (٣٤٥٧) فى الدعوات، باب: ما يقول إذا فرغ من الطعام ، وضعفه الألبانى .

(٤) النسائى فى الكبرى(٦٨٩٨) فى الدعاء بعد الأكل ، باب: ما يقول إذا رفعت مائدته .

(٥) البخارى (٥٤٥٨) فى الأطعمة، باب: ما يقول إذا فرغ من طعامه .

(٦) الوابل الصيب (٢٨٠ ـ ٢٨٤) .

(٧) انظر : تخريج الحديث السابق .

(٨) سبق تخريجه فى الصفحة نفسها برقم ٣ .

(٩) أبو داود (٣٨٥١) فى الأطعمة ، باب:ما يقول الرجل إذا طعم .

وآوانـا » (١) ، وذكـر الترمـذى عنـه أنـه قـال : « مـن أكـل طعاماً فقال : الحمد للّه الذى أطعمنى هذا من غير حول منى ولا قوة،غفر الله لـه مـا تقدم من ذنبه » (٢) حديث حسن، ويذكر عنه أنه كان إذا قرب إليه الطعام قال:« بسم اللّه » فإذا فرغ من طعامه قال:« اللهم أطعمـت وسقيت وأغنيت وأقنيت وهديـت وأحييت ، فلـك الحمـد علـى مـا أعطيـت» (٣) وإسناده صحيح.

وفى السنن عنه أنه كان يقول إذا فرغ:« الحمد للّه الذى منّ علينا وهدانا ،والذى أشبعنا وأروانا، ومن كل الإحسان آتانا »(٤) حديث حسن، وفى السنن عنه أيضاً :إذا أكل أحدكم طعاماً فليقل :« اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيراً منه »،ومن سقاه الله لبناً فليقل: «اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه ،فإنه ليس شىء ويجزئ عن الطعام والشراب غير اللبن »(٥) حديث حسن ويذكر عنـه أنـه إذا شرب فـى الإناء تنفس ثلاث أنفاس ، ويحمد اللّه فى كل نفس ويشكره فى آخرهن(٦) (٧) .

وأيضاً

كان ﷺ إذا وضع يده فى الطعام قال: «بسم اللّه »(٨)ويأمر الآكل بالتسمية، ويقول: «إذا أكل أحدكم ، فليذكر اسم اللّه تعالى ، فإن نسى أن يذكر اسم اللّه فى أوله ، فليقل: بسم الله فى أوله وآخره » (٩) حديث صحيح (١٠) .

---

(١) البخارى (٥٤٥٩) فى الأطعمة ، باب: ما يقول إذا فرغ من طعامه .

(٢، ٣) سبق تخريجهما ص ٣٥٢ .

(٤) الأذكار للنووى(٥٩٧).

(٥) الترمذى (٣٤٥٥) فى الدعوات ، باب:ما يقول إذا أكل طعاماً .

(٦) انظر: النسائى فى الكبرى (٦٨٨٤ ـ ٦٨٨٨) فى آداب الشراب، باب: الرخصة فى التنفس فى الإناء .

(٧) زاد المعاد (٢/ ٤٠٠ ، ٤٠١) .

(٨) سبق تخريجه ص ٣٥٢ .

(٩) سبق تخريجه ص ٣٥١ .

(١٠) زاد المعاد(٢/ ٣٩٧) .

فصل
فى ذكر الضيف إذا نزل بقوم

عن عبد الله بن بسر قال: نزل رسول الله ﷺ على أبى طالب، فقربنا إليه طعاماً ووطبة ، فأكل منها ، ثم أتى بتمر ، فكان يأكله ويلقى النوى بين إصبعيه ، ويجمعُ السبابة والوسطى قال شعبة : هو ظنى ، وهو فيه إن شاء الله إلقاء النوى بين الإصبعين . ثم أُتى بشراب فشربه ،ثم ناوله الذى عن يمينه ، قال: فقال أبى ـ وأخذ بلجام دابته ـ ادع الله لنا ، فقال: « اللهم بارك لهم فيما رزقتهم ،واغفر لهم وارحمهم» رواه مسلم (١).

وعن أنس : أن النبى ﷺ جاء إلى سعد بن عبادة ، فجاء بخبزٍ وزيت فأكل، ثم قال النبى ﷺ: « أفطر عندكم الصائمون،وأكل طعامكم الأبرار ،وصلت عليكم الملائكة »رواه أبو داود (٢).

وعن جابر قال: صنع أبو الهيثم بن التيهان للنبى ﷺ طعاماً، فدعا النبى ﷺ وأصحابه، فلما فرغوا قال: « أثيبوا أخاكم » قالوا :يا رسول اللّه ،وما إثابته ؟ قال: « إن الرجل إذا دخل بيته فأُكِل طعامُهُ وشرابُهُ ، فادعوا له، فذلك إثابته» رواه أبو داود (٣).

فصل
فى السلام

عن عبد اللّه بن عمر رضي الله عنهما أن رجلاً سأل رسول اللّه ﷺ: أى الإسلام خير ؟ قال: «تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف » ، متفق عليه (٤).

وقال أبـو هـريرة : قال رسول الله ﷺ :« لا تدخـلوا الجنـة حتى تؤمنـوا ، ولا تؤمنـوا حتى تحابـوا، أفـلا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببـتم؟ أفشوا السلام بينكم»

---

(١) مسلم (٢٠٤٢ / ١٤٦) فى الأشربة ،باب : استحباب وضع النوى خارج التمر .

(٢) أبو داود (٣٨٥٤) فى الأطعمة ، باب: ما جاء فى الدعاء لرب الطعام .

(٣) أبو داود (٣٨٥٣) فى الأطعمة ، باب: ما جاء فى الدعاء لرب الطعام إذا أكل عنده .

(٤) البخارى (١٢) فى الإيمان ، باب: إطعام الطعام من الإسلام ، ومسلم (٦٣/٣٩) فى الإيمان ، باب: بيان تفاضل الإسلام .

رواه أبو داود(١).

وقال عمار بن ياسر رضي الله عنه: « ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان: الإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم ، والإنفاق من الإقتار »، ذكره البخارى(٢) .

وقال عمران بن حصين : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: السلام عليكم ، فرد عليه، ثم جلس ، فقال النبى ﷺ « عشرٌ »، ثم جاء آخر ، فقال: السلام عليكم ورحمة الله، فرد عليه ، جلس ، فقال: « عشرون » ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فرد عليه ، فجلس ، فقال : « ثلاثون » . قال الترمذى: حديث حسن (٣).

وعن أبى أمامة قال: قال رسول الله ﷺ : « إن أولى الناس بالله من ابتدأهم بالسلام» قال الترمذى : حديث حسن (٤).

وخرج أبو داود ، عن على رضي الله عنه ، عن النبى ﷺ قال: « يجزئ عن الجماعة إذا مروا أن يسلم أحدهم ويُجزئ عن الجلوس أن يرد أحدهم»(٥) .

وقال أنس : مرّ النبى ﷺ على صبيان يلعبون ، فسلم عليهم . حديث صحيح (٦).

وقال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ: «إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم فإن بدا له أن يجلس فليجلس ، ثم إذا قام ، فليسلم ، فليست الأولى بأحق من الآخرة »(٧).

فصل
فى الذكر عند العطاس

قال أبو هريرة عن النبى ﷺ : « إنّ الله يحب العُطاس، ويكره التثاؤب ، فإذا عطس

(١) أبو داود (٥١٩٣) فى الأدب ، باب: فى إفشاء السلام ، الحديث فى مسلم (٥٤ / ٩٣) فى الإيمان ، باب: بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمن ، والترمذى (٢٦٨٨) فى الاستئذان ، باب: ما جاء فى إفشاء السلام ، وابن ماجه (٦٨) فى المقدمة ، باب: فى الإيمان .

(٢) البخارى معلقاً وموقوفًا (الفتح ١/ ٨٢) فى الإيمان ، باب: إفشاء السلام من الإسلام .

(٣) الترمذى (٢٦٨٩) فى الاستئذان ، باب: ما ذكر فى فضل السلام، وقال: « حسن صحيح غريب من هذا الوجه».

(٤) الترمذى (٢٦٩٤) فى الاستئذان ، باب: ما جاء فى فضل الذى يبدأ بالسلام .

(٥) أبو داود (٥٢١٠) فى الأدب ، باب: ما جاء فى رد الواحد عن الجماعة .

(٦) البخارى (٦٢٤٧) فى الاستئذان ، باب: التسليم على الصبيان ، ومسلم (٢١٦٨ / ١٥) فى السلام ، باب: استحباب السلام على الصبيان ، وأبو داود (٥٢٠٢) فى الأدب ، باب: السلام على الصبيان ، والترمذى (٢٦٩٦) فى الاستئذان ، باب: ما جاء فى التسليم على الصبيان .

(٧) أبو داود (٥٢٠٨) فى الأدب، باب: فى السلام إذا قام من المجلس ، والترمذى (٢٧٠٦) فى الاستئذان ، باب : ما جاء فى التسليم عند القيام وعند النوم ، وقال : « حسن » .

أحدكم وحمد الله ، كان حقاً على كل مسلم سمعه أن يقول : يرحمك الله، وأما التثاؤب فإنما هو من الشيطان، فإذا تثاءب أحدكم ،فليرده ما استطاع ، فإن أحدكم إذا تثاءب ضحك الشيطان منه» ، رواه البخارى [١].

وعنه أيضاً عن النبى ﷺ قال:« إذا عطس أحدكم فليقل: الحمد لله ، وليقل له أخوه أو صاحبه :يرحمكم الله ، فإن قال له : يرحمكم الله ، فليقل : يهديكم الله ويصلح بالكم » ، رواه البخارى[٢] ، وفى لفظ أبى داود: « الحمد لله على كل حال » [٣].

وقال أبو موسى الأشعرى رضي الله عنه : سمعت رسول الله ﷺ يقول:« إذا عطس أحدكم فحمد الله فشمتوه ،فإن لم يحمد الله ، فلا تشمتوه» رواه مسلم [٤] [٥].

وأيضا

عن أبى هريرة رضي الله عنه ، قال: كان رسول الله ﷺ إذا عطس وضع يده ، أو ثوبه على فيه ، خفض أو غضّ، بها صوته[٦] ـ شك يحيى ، وهو القطان .

وأخرجه الترمـذى . وقال : حسن صحيح [٧]. وفى إسناده : محمد بن عجلان

وعنه رضي الله عنه، قال : قال رسول الله ﷺ: « خمسٌ تجب للمسلم على أخيه: رد السلام ، وتشميت العاطس، وإجابة الدعوة ، وعيادة المريض، واتباع الجنازة » [٨].

وأخرجه البخارى ، ومسلم والنسائى [٩]،فى لفظ لمسلم:« حق المسلم على المسلم ست» [١٠] وزاد : « وإذا استنصحك فانصح له » .

وقد أخرج الترمذى عن نافع :أن رجلاً عطس إلى جنب ابن عمر ،فقال:الحمد لله ،

---

(١) البخارى (٦٢٢٣) فى الأدب ، باب : ما يستحب من العطاس وما يكره من التثاؤب .

(٢) البخارى (٦٢٢٤) فى الأدب ، باب: إذا عطس كيف يشمت .

(٣) أبو داود (٥٠٣٣) فى الأدب ، باب: ما جاء فى تشميت العاطس .

(٤) مسلم (٢٩٩٢/ ٥٤) فى الزهد ، باب: تشميت العاطس وكراهة التثاؤب .

(٥) الوابل الصيب (٢٨٥ ـ ٢٩٠) .

(٦) أبو داود (٥٠٢٩) فى الأدب ، باب: فى العطاس .

(٧) الترمذى (٢٧٤٥) فى الأدب ، باب: ما جاء فى خفض الصوت وتخمير الوجه عند العطاس.

(٨) أبو داود (٥٠٣٠) فى الأدب ، باب: فى العطاس .

(٩) البخارى (١٢٤٠) فى الجنائز ، باب:الأمر باتباع الجنائز ،ومسلم (٢١٦٢/ ٤) فى السلام ، باب:من حق المسلم للمسلم رد السلام ،والنسائى فى الكبرى (١٠٠٤٩) فى عمل اليوم والليلة ، باب: ما يقول إذا عطس .

(١٠) مسلم (٢١٦٢ / ٥) فى السلام ،باب: من حق المسلم للمسلم رد السلام.

والسلام على رسول الله ، قال ابن عمر: وأنا أقول: الحمد لله ، والسلام على رسول الله، وليس هكذا علمنا رسول الله ﷺ أن نقول ، علمنا أن نقول: « الحمد لله على كل حال»(١) .وقال هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث زياد بن الربيع.

وفى الترمذى أيضًا من حديث سعيد المقبرى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « لما خلق الله آدم ، ونفخ فيه الروح عطس، فقال : الحمد لله،فحمد الله بإذنه، فقال له ربه: رحمك الله يا آدم ، اذهب إلى أولئك الملائكة إلى ملأ منهم جلوس، فقال: السلام عليكم ، قالوا: وعليك السلام ورحمة الله ،ثم رجع إلى ربه ،فقال: إن هذه تحيتك وتحية ذريتك بينهم » (٢)وذكر الحديث ،وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه. وقد روى من غير وجه عن النبى ﷺ،ورواه زيد بن أسلم عن أبى صالح عن أبى هريرة(٣).

وأيضاً

عن أنس رضي الله عنه ، قال: عطس رجلان عند النبى ﷺ ، فشمّت أحدهما وترك الآخر، قال: فقيل : يا رسول الله، رجلان عطسا، فشمت أحدهما ـ قال أحمد،وهو ابن يونس ـ وتركت الآخر؟ فقال : إن هذا حمد الله ،وإن هذا لم يحمد الله » (٤).

وأخرجه البخارى ومسلم والترمذى (٥).

وقد تقدم حديث أبى هريرة وفيه: « فإذا عطس أحدكم ، وحمد الله، كان حقاً على كل مسلم سمعه أن يقول: يرحمك الله» (٦).

وترجم الترمذى على حديث أنس : باب ما جاء فى إيجاب التشميت بحمد العاطس ، وهذا يدل على أنه واجب عنده وهو الصواب للأحاديث الصريحة الظاهرة فى كل الوجوب من غير معارضة ، والله أعلم .

فمنها : حديث أبى هريرة وقد تقدم ، ومنها: حديثه الآخر:« خمس للمسلم على

---

(١) الترمذى (٢٧٣٨) فى الأدب ، باب: ما يقول العاطس إذا عطس.

(٢) الترمذى (٣٣٦٨) فى تفسير القرآن ، باب: ٩٤ .

(٣) تهذيب السنن (٧/ ٣٠٤ـ ٣٠٦) .

(٤) أبو داود (٥٠٣٩) فى الأدب ، باب: فيمن يعطس ولا يحمد الله .

(٥) البخارى (٦٢٢٥) فى الأدب ، باب: لا يشمت العاطس إذا لم يحمد الله ، ومسلم (٢٩٩١/ ٥٣) فى الزهد والرقائق ، باب: تشميت العاطس وكراهة التثاؤب ، والترمذى (٢٧٤٢) فى الأدب ، باب:ما جاء فى إيجاب التشميت بحمد العاطس .

(٦) سبق تخريجه فى الصفحة السابقة .

أخيه » [١]، ومنها :حديث سالم من عبيد وفيه: «وليقل له من عنده : يرحمك الله »[٢] ، ومنها: ما رواه الترمذى عن على قال: قال رسول الله ﷺ:« للمسلم على المسلم ست بالمعروف: يسلم عليه إذا لقيه ، ويجيبه إذا دعاه ، ويشمته إذا عطس ، ويعوده إذا مرض ، ويتبع جنازته إذا مات ،ويحب له ما يحب لنفسه » [٣]وقال: هذا حديث حسن ، قد روى من غير وجه عن النبى ﷺ وقد تكلم بعضهم فى الحارث الأعور ، فى الباب عن أبى هريرة وأبى أيوب والبراء وأبى مسعود .

ومنها :ما رواه الترمذى عن أبى أيوب : أن رسول الله ﷺ قال:« إذا عطس أحدكم فليقل: الحمد لله ،وليقل : على كل حال ، وليقل الذى يرد عليه:يرحمك الله ، وليقل هو: يهديكم الله ويصلح بالكم » [٤].

فهذه أربعة طرق من الدلالة:

أحدها : التصريح ثبوت وجوب التشميت بلفظه الصريح الذى لا يحتمل تأويلا .

الثانى : إيجاب بلفظ الحق .

الثالث : إيجابه بلفظ « على» الظاهر فى الوجوب.

الرابع : الأمر به،ولا ريب ،فى إثبات واجبات كثيرة بدون هذه الطرق ،والله تعالى أعلم [٥].

وأيضاً

عن إياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه ﷺ:أن رجلاً عطس عند النبى ﷺ ، فقال له: « يرحمك الله ».ثم عطس ، فقال النبى ﷺ :« الرجل مزكوم » [٦].

وأخرجه مسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه [٧].

---

(١) سبق تخريجه ص ٣٥٦ .

(٢) أبو داود (٥٠٣١) فى الأدب ، باب: ما جاء فى تشميت العاطس ، والترمذى (٢٧٤٠) فى الأدب، باب: ما جاء كيف تشميت العاطس .

(٣) الترمذى (٢٧٣٦) فى الأدب ، باب: ما جاء فى تشميت العاطس .

(٤) الترمذى (٢٧٤١) فى الأدب ، باب: ما جاء كيف تشميت العاطس.

(٥) تهذيب السنن (٧/ ٣١١ ـ ٣٢١) .

(٦) أبو داود (٥٠٣٧) فى الأدب ، باب : كم مرة يشمت العاطس .

(٧) مسلم (٢٩٩٣ / ٥٥) فى الزهور والرقائق، باب: تشميت العاطس وكراهة التثاؤب ، والترمذى (٢٧٤٣) فى الأدب ، باب: ماجاء كم يشمت العاطس ، والنسائى فى الكبرى(١٠٠٥١) فى عمل اليوم والليلة، باب: كم مرة يشمت ، وابن ماجه (٣٧١٤) فى الأدب، باب: تشميت العاطس .

ذكر حديث أبى داود: أن رجلاً عطس فقال له :« يرحمك اللّه »، ثم عطس، فقال النبى ﷺ :« الرجل مزكوم » .

هذا لفظ أبى داود ، ولفظ مسلم : « ثم عطس أخرى » ولفظ النسائى : « ثم عطس الثانية » ، فقال: إنه مزكوم » .

وأما ابن ماجه فلفظه :« يشمت العاطس ثلاثاً ، فما زاد فهو مزكوم » رواه عن على ابن محمد حدثنا وكيع،عن عكرمة بن عمار،عن إياس بن سلمة،عن أبيه، عن النبى ﷺ. وهذا يوافق رواية أبى هريرة ، وعبيد بن رفاعة فى حد ذلك بالثلاث.

وأما الترمذى فلفظه فيه:عن إياس بن سلمة عن أبيه قال:«عطس رجل عند النبى ﷺ، وأنا شاهد ، فقال رسول اللهﷺ:« يرحمك اللّه » ،« ثم عطس الثانية ، أو الثالثة، فقال رسول اللّه ﷺ : « هذا رجل مزكوم» رواه من حديث سويد عن ابن المبارك عن عكرمة ابن عمار.

ثم قال: حدثنا محمد بن يسار، حدثنا يحيى بن يسار ، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا عكرمة بن عمار ، عن إياس بن سلمة ، عن أبيه ، عن النبى ﷺ نحوه، إلا أنه قال له فى الثالثة :« إنك مزكوم » .

قال الترمذى : وهذا أصح من حديث ابن المبارك ، وقد روى شعبة عن عكرمة بن هذا الحديث نحو رواية يحيى بن سعيد (١).

وأيضاً

ثبت عنه ﷺ :« إن اللّه يحب العطاس ويكره التثاؤب ،فإذا عطس أحدكم وحمد اللّه كان حقاً على كل مسلم سمعه أن يقول له : يرحمك الله ، وأما التثاؤب فإنما هو من الشيطان، فإذا تثاءب أحدكم فليرده ما استطاع ، فإن أحدكم إذا تثاءب ضحك منه الشيطان» ذكره البخارى (٢). وثبت عنه فى « صحيحه » : « إذا عطس أحدكم فليقل: الحمد لله ، وليقل له أخوه أو صاحبه : يرحمك اللّه ، فإذا قال له : يرحمك اللّه ، فليقل : يهديكم الله ويصلح بالكم » (٣).

---

(١) تهذيب السنن (٧/ ٣١٠) .

(٢) البخارى (٦٢٢٦) فى الأدب ، باب: إذا تثاءب فليضع يده على فيه .

(٣) البخارى (٦٢٢٤) فى الأدب ، باب: إذا عطس كيف يشمت ؟

وفى« الصحيحين »عن أنس : أنه عطس عنده رجلان فشمت أحدهما ولم يشمت الآخر، فقال الذى لم يشمته : عطس فلان فشمته ،وعطس فلم تشمتنى ،فقال:«هذا حمد الله وأنت لم تحمد الله»(١).

وثبت عنه فى « صحيح مسلم »:« إذا عطس أحدكم فحمد الله فشمتوه ،فإن لم يحمد فلا تشمتوه » (٢)، وثبت عنه فى« صحيحه » :من حديث أبى هريرة:« حق المسلم على المسلم ست إذا لقيته فسلم عليه ، وإذا دعاك فأجبه ،وإذا استنصحك فانصح له،وإذا عطس وحمد الله فشمته ،وإذا مرض فعده ،وإذا مات فاتبعه » (٣) .

وروى أبو داود عنه بإسناد صحيح:« إذا عطس أحدكم فليقل: الحمد لله على كل حال، وليقل أخوه أو صاحبه : يرحمك الله،وليقل هو :يهديكم الله ويصلح بالكم»(٤) .

وروى الترمذى أن رجلاً عطس عند ابن عمر فقال:الحمد لله والسلام على رسول الله، فقال ابن عمر: وأنا أقول: الحمد لله والسلام على رسول الله ﷺ ،وليس هكذا علمنا رسول الله ﷺ ولكن علمنا أن نقول: « الحمد على كل حال » (٥).

وذكر مالك عن نافع عن ابن عمر: كان إذا عطس فقيل له:يرحمك الله ، قال: يرحمنا الله وإياكم ، ويغفر لنا ولكم. فظاهر الحديث المبدوء به : أن التشميت فرض عين على كل من سمع العاطس يحمد الله، ولا يجزئ تشميت الواحد عنهم ، وهذا أحد قولى العلماء واختاره ابن أبى زيد وأبو بكر بن العربى المالكيان ولا دافع له .

وقد روى أبو داود:أن رجلا عطس عند النبى ﷺ فقال: السلام عليكم ، فقال رسول الله ﷺ: « وعليك السلام وعلى أمك» ،ثم قال: « إذا عطس أحدكم فليحمد الله » قال: فذكر بعض المحامد ،وليقل له من عنده: « يرحمك الله ، وليرد ـ يعنى عليهم : يغفر الله لنا ولكم » (٦) (٧) .

---

(١) سبق تخريجه ص ٣٥٧ .
(٢) مسلم (٢٩٩٢ / ٥٤) فى الزهد والرقائق، باب : تشميت العاطس وكراهة التثاؤب .
(٣) مسلم (٢١٦٢ / ٥) فى السلام ، باب: من حق المسلم للمسلم رد للسلام .
(٤) أبو داود (٥٠٣٣) فى الأدب ، باب: ما جاء فى تشميت العاطس .
(٥) سبق تخريجه ص ٣٥٧ .
(٦) أبو داود (٥٠٣١) فى الأدب، باب: ما جاء فى تشميت العاطس .
(٧) زاد المعاد (٢/ ٤٣٥ ، ٤٣٧) .

فصل
فى ذكر النكاح والتهنئة به
وذكر الدخول بالزوجة

قال ابن مسعود : علمنا رسول الله ﷺ خطبة النكاح :

« الحمد لله نحمده ، ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهد الله فلا مضل له ،ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله » ـ وفى رواية زيادة :« أرسله بالحق بشيرا ونذيرا بين يدى الساعة ،من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فإنه لا يضر إلا نفسه، ولا يضر الله شيئاً ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢)** ﴾ [آل عمران] . ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (١)** ﴾ [النساء] ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً (٧١)** ﴾ [الأحزاب] .

رواه أهل السنن الأربعة، وقال الترمذى: حديث حسن(١) .

وعن أبى هريرة ، أن النبى ﷺ كان إذا رفَّأ الإنسان إذا تزوج قال: « بارك الله لك ، وبارك عليك وجمع بينكما فى خير وعافية » .

قال الترمذى: حديث حسن صحيح (٢).

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه ، عن جده ، عن النبى ﷺ قال:« إذا تزوج أحدكم امرأة ،أو اشترى خادماً فليقل: اللهم إنى أسألك خيرها،وخير ما جبلتها عليه، وأعوذ بك من شرها وشر ما جبلتها عليه ،وأعوذ بك من شرها وشر من جبلتها عليه،وإذا اشترى

---

(١) أبو داود (٢١١٨) فى النكاح ، باب: فى خطبة النكاح، والترمذى (١١٠٥) فى النكاح ، باب: ما جاء فى خطبة النكاح ، والنسائى (١٤٠٤) فى الجمعة ، باب: كيفية الجمعة ،وابن ماجه (١٨٩٢) فى النكاح ، باب: خطبة النكاح .

(٢) أبو داود (٢١٣٠) فى النكاح ، باب : ما يقال للمتزوج ،والترمذى (١٠٩١) فى النكاح ، باب: ما جاء فيما يقال للمتزوج ،وابن ماجه (١٩٠٥) فى النكاح ، باب: تهنئة النكاح .

بعيراً ، فليأخذ بذِرْوة سنامه وليقُل مثل ذلك » رواه أبو داود (١).

وفى الصحيحين عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال : بسم الله ، اللهم جنبنا الشيطان ، وجنب الشيطان ما رزقتنا ، فقضى بينهما ولد ، لم يضره الشيطان أبداً » (٢) (٣).

وأيضاً

ثبت عنه ﷺ أنه علمهم خُطبة الحاجة : « الحمد للّه نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ، من يهدى الله ، فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا اللّه ، وأشهد أن محمد عبده ورسوله ، ثم يقرأ الآيات الثلاث : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) ﴾ [آل عمران] ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (١) ﴾ [النساء] ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً (٧١) ﴾ [الأحزاب] (٤).

قال شعبة : قلت لأبى إسحاق : هذه فى خطبة النكاح ، أو فى غيرها ؟ قال : فى كل حاجة .

وقال : « إذا أفاد أحدكم امرأة ، أو دابة ، أو خادماً ، أو دابة ، فليأخذ بناصيتها ، وليدع اللّه بالبركة ويُسمى الله عز وجل ، وليقل : اللهم إنى أسألك خيرها وخير ما جلبت عليه » (٥).

وكان يقول للمتزوج : « بارك اللّه لك وبارك عليك ، وجمع بينكما فى خير » (٦).

وقال : « لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتى أهله ، قال : بسم اللّه ، اللهم جنِّبنا الشيطان ،

---

(١) أبو داود (٢١٦٠) فى النكاح ، باب : فى جامع النكاح .

(٢) البخارى (٥١٦٥) فى النكاح ، باب : ما يقول الرجل إذا أتى أهله ، ومسلم (١٤٣٤/١١٦) فى النكاح ، باب : ما يستحب أن يقوله عند الجماع .

(٣) الوابل الصيب (٢٩٠ ـ ٢٩٣).

(٤) سبق تخريجه فى الصفحة السابقة .

(٥ ، ٦) سبق تخريجهما فى الصفحة نفسها .

وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولدٌ فى ذلك ، لم يضره الشيطان أبداً»(١) (٢).

فصل
فى الذكر عند الولادة والذكر المتعلق بالولد

يذكر أن فاطمة رضي الله عنها لما دنا ولادها ، أمر النبى ﷺ أم سلمة وزينب بنت جحش أن تأتيا فتقرآ عليها آية الكرسى ،و ﴿ **إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ** ﴾إلى آخرالآيتين [الأعراف :٥٤ ـ ٥٥]، وتعوذاها بالمعوذتين (٣).

وقال أبو رافع : رأيتُ رسول الله ﷺ أذن فى أذن الحسن بن على حين ولدته فاطمة بالصلاة ، قال الترمذى :حديث حسن صحيح (٤).

ويذكر عن الحسين بن على قال: قال رسول الله ﷺ :« من ولد له مولود ، فأذن فى أذنه اليمنى ،وأقام فى أذنه اليسرى لم تضره أمُّ الصّبيان » (٥) .

وقالت عائشة : كان النبى ﷺ يؤتى بالصبيان ، فيدعو لهم بالبركة ويحنكُهُم ، رواه أبو داود(٦).

وقال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما : أن النبى ﷺ أمر بتسمية المولود يوم سابعه، ووضع الأذى عنه ،والعقّ. قال الترمذى: حديث حسن (٧).

وقد سمى النبى ﷺ ابنه إبراهيم،وإبراهيم بن أبى موسى ،وعبد الله بن أبى طلحة ، والمنذر بن أبى أسيد قريباً من ولادتهم .

وعن أبى الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ : « إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم ، فأحسنوا أسماءكم » ذكره أبو داود (٨).

---

(١) سبق تخريجه فى الصفحة السابقة .

(٢) زاد المعاد (٢ / ٤٥٤ ـ ٤٥٦) .

(٣) الأذكار للنووى (٧٢٧) .

(٤) الترمذى (١٥١٤) فى الأضاحى ، باب: الأذان فى أذن المولود .

(٥) الأذكار للنووى (٧٢٩) .

(٦) أبو داود (٥١٠٦) فى الأدب ، باب : الصبى يولد فيؤذن فى أذنه .

(٧) الترمذى (٢٨٣٢) فى الأدب ،باب: ما جاء فى تعجيل اسم المولود ، وقال : « حسن غريب » .

(٨) أبو داود (٤٩٤٨) فى الأدب ، باب:فى تغيير الأسماء ، وضعفه الألبانى .

وذكر مسلم عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: « إن أحب أسمائكم إلى الله عز وجل : عبد الله ، عبد الرحمن » (١).

وعن أبى وهب الجشمى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « تسموا بأسماء الأنبياء وإن أحب الأسماء إلى الله عز وجل: عبد الله ، وعبد الرحمن، وأصدقها : حارث وهمام ، وأقبحها : حرب ومرّة » رواه أبو داود والنسائى (٢).

وغير النبى ﷺ الأسماء المكروهة إلى أسماء حسنة ، فغير اسم برة إلى زينب ، وغير اسم حزن إلى سهل ، وغير اسم عاصية فسماها جميلة ، وغير أصرم إلى زُرعة .

وسمى حربا سلماً، وسمى المضطجع المنبعث، وسمى أرضا يقال لها: عفْرة ، خضرة ، وشعْب الضلالة سماه شعب الهدى ، وبنو الزنية سماهم بنى الرشد .

فصل
فى صياح الديكة والنهيق والنباح

فى « الصحيحين » عن أبى هريرة رضي الله عنه ، عن النبى ﷺ قال: «إذا سمعتم نُهاق الحمير، فتعوذوا بالله من الشيطان فإنها رأت شيطانا ، وإذا سمعتم صياح الديكة ، فسلوا الله من فضله ، فإنها رأت ملكاً » (٣).

وفى « سنن أبى داوَد » عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: « إذا سمعتم نُباح الكلاب ونهيق الحمير بالليل ، فتعوذوا بالله منهن ، فإنهن يرين ما لا ترون ». رواه أبو داود(٤) (٥).

---

(١) مسلم (٢١٣٢ / ٢) فى الآداب، باب : النهى عن التكنى بأبى القاسم وبيان ما يستحب من الأسماء.

(٢) أبو داود (٤٩٥٠) فى الأدب ، باب: فى تغيير الأسماء ، والنسائى (٣٥٦٥) فى الخيل ، باب: ما يستحب من شية الخيل ، وقال الألبانى: صحيح دون قوله : « تسموا بأسماء الأنبياء » .

(٣) البخارى (٣٣٠٣) فى بدء الخلق ، باب: خير مال المسلم غنم ، ومسلم (٢٧٢٩/ ٨٢)فى الذكر والدعاء ، باب : استحباب الدعاء عند صياح الديك .

(٤) أبو داود (٥١٠٣) فى الأدب ، باب: ما جاء فى الديك والبهائم .

(٥) الوابل الصيب (٢٩٣ ـ ٢٩٧) ، وزاد المعاد (٢/ ٤٦٦) .

فصل
فى الذكر يطفأ به الحريق

يذكر عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ﷺ قال: قال رسول اللّه ﷺ: « إذا رأيتم الحريق فكبروا ، فإن التكبير يطفئه» (١) (٢).

فصل
فى كفارة المجلس

عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ : من جلس مجلساً ، فكثر فيه لغطه ، فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك سبحانك اللّهم وبحمدك،أشهد أن لا إله إلا أنت ،أستغفرك وأتوب إليك،إلا كُفر له ما كان فى مجلسه ذلك». قال الترمذى:حديث حسن صحيح(٣).

وفى حديث آخر : أنه إن كان فى مجلس خير كان كالطابع له ،وإن كان فى مجلس تخليط كان كفارة له (٤).

وفى « السنن » عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ : « ما من قوم يقومون من مجلس لا يذكرون الله تعالى فيه إلا قاموا عن مثل جيفة حمار،وكان عليهم حسرة » (٥).

وعن ابن عمر قال: قلّما كان رسول الله ﷺ يقوم فى مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه: « اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك ، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا ،اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا ،واجعل ثأرنا على من ظلمنا ،وانصرنا على من عادانا،ولا تجعل مصيبتنا فى ديننا ،ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ،ولا مبلغ علمنا،ولا تسلط علينا من لا يرحمنا ». قال الترمذى : حديث حسن(٦) (٧).

---

(١) الأذكار للنووى (٧٦٦) .

(٢) الوابل الصيب (٢٩٨) ، وزاد المعاد (٢/٤٦٦) .

(٣) الترمذى (٣٤٣٣) فى الدعوات ، باب: ما يقول إذا قام من مجلسه ، وقال الترمذى : « حسن غريب صحيح» .

(٤) الحاكم فى المستدرك وقال : « صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبى » .

(٥) أبو داود (٤٨٥٥) فى الأدب ، باب: كراهية أن يقوم الرجل من مجلسه ولا يذكر الله .

(٦) الترمذى (٣٥٠٢) فى الدعوات ، باب (٨٠) .

(٧) الوابل الصيب (٢٩٨ ، ٢٩٩) .

وأيضاً

كره ﷺ لأهل المجلس أن يُخلوا مجلسهم من ذكر اللّه عز وجل ،وقال:« ما من قوم يقومون من مجلس لا يذكرون الله فيه إلا قاموا عن مثل جيفة الحمار » (١).

وقال: « من قعد مقعداً لم يذكر اللّه فيه كانت عليه من اللّه ترَةٌ ومن اضطجع مضجعا لا يذكر الله فيه ، كانت عليه من اللّه ترة» (٢). والتِّرَةُ : الحسرة .

وفى لفظ :« وما سلك أحد طريقاً لم يذكر الله فيه ، إلا كانت عليه تِرَةٌ » (٣) .

وقال ﷺ :« من جلس فى مجلس ، فكثر فيه لغطُهُ ، فقال قبل أن يقوم من مجلسه: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك إلا غفر له ما كان فى مجلسه ذلك (٤) .

وفى « سنن أبى داود » و « مستدرك الحاكم » أنه ﷺ كان يقول ذلك إذا أراد أن يقوم من المجلس ، فقال له رجل : يا رسول اللّه ،إنك لتقول قولاً ما كنت تقوله فيما مضى . قال:« ذلك كفارة لما يكون فى المجلس» (٥) (٦).

فصل
فيما يقال ويفعل عند الغضب

قال اللّه سبحانه وتعالى: ﴿ **وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦)** ﴾ .

وقال سليمان بن صرد : كنت جالساً مع النبى ﷺ ورجلان يستبّان ،أحدهما قد احمر وجهه وانتفخت أوداجه ، فقال النبى ﷺ:« إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد ،

---

(١) سبق تخريجه فى الصفحة السابقة .
(٢) أبو داود (٤٨٥٦) فى الأدب ، باب: كراهية أن يقوم الرجل من مجلسه ولا يذكر اللّه .
(٣) أحمد ٢/ ٤٣٢ .
(٤) سبق تخريجه بالصفحة السابقة .
(٥) أبو داود (٤٨٥٩) فى الأدب ،باب: كفارة المجلس، والحاكم ١/ ٥٣٧ وسكت عنه هو والذهبى .
(٦) زاد المعاد (٢/ ٤٦٦ ، ٤٦٧) .

لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ذهب عنه ما يجدُ » متفق عليه [١].

وعن عطية بن عروة قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ الغضب من الشيطان ، وإن الشيطان خُلق من النار ، وإنما تطفأ النار بالماء ، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ » رواه أبو داود [٢].

وفي حديث آخر : « أنه أمر من غضب إذا كان قائماً أن يجلس، وإذا كان جالساً أن يضطجع » [٣] [٤] .

وأيضاً

لما كان الغضبُ والشهوةُ جمرتين من نار في قلب ابن آدم ، أمر أن يُطفئهما بالوضوء، والصلاة والاستعاذة من الشيطان الرجيم ،كما قال تعالى : ﴿ **أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ** ﴾ [البقرة : ٤٤] ، وهذا إنما يحمل عليه شدة الشهوة ، فأمرهم بما يُطفئون بها جمرتها ، وهو الاستعانة بالصبر والصلاة ، وأمر تعالى بالاستعاذة من الشيطان عند نزغاته ولما كانت المعاصي كلها تتولد من الغضب والشهوة ،وكان نهايةُ قوة الغضب القتل ، ونهاية قوة الشهوة الزنا ،جمع الله تعالى بين القتل والزنا، وجعلهما قرينين في سورة الأنعام ، وسورة الإسراء ،وسورة الفرقان ، وسورة الممتحنة .

والمقصود : أنه ـ سبحانه ـ أرشد عباده إلى ما يدفعون به شرّ قوتي الغضب والشهوة من الصلاة والاستعاذة [٥].

---

(١) البخاري (٦٠٤٨) في الأدب، باب: ما ينهى من السباب واللعن ، ومسلم (٢٦١٠ / ١٠٩) في الأدب ، باب:ما يقال عند الغضب .

(٢) أبو داود (٤٧٨٤) في الأدب ، باب: ما يقال عند الغضب ، وضعفه الألباني .

(٣) أبو داود (٤٧٨٢) في الكتاب والباب السابقين ،وأحمد ٥/ ١٥٢ .

(٤) الوابل الصيب (٣٠٠ ، ٣٠١) .

(٥) زاد المعاد (٢/ ٤٦٣) .

فصل
فيما يقال عند رؤية أهل البلاء

عن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ قال: « من رأى مُبتلى فقال: الحمد للّه الذى عافانى مما ابتلاك به ، وفضلنى على كثير ممن خلق تفضيلاً ، لمْ يُصبه ذلك البلاءُ »(١). قال الترمذى: حديث حسن (٢).

فصل
فى الذكر عند دخول السوق

عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال رسول اللّه ﷺ : « من دَخل السُّوق فقال: لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يُحيى ويميت ، وهو حى لا يموت ، بيده الخير وهو على كل شىء قدير، كتب اللّه له ألف ألف حسنة ، ومحا عنه ألف ألف سيئة ورفع له ألف ألف درجة » رواه الترمذى(٣) .

وعن بريدة ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا دخل السوق قال: « بسم الله ، اللهم إنى أسألك خير هذه السوق وخير ما فيها ، وأعوذ بك من شرّها وشر ما فيها ، اللهم إنى أعوذ بك أن أُصيب بها يمينا فاجرة ، أو صفقة خاسرة »(٤) .

فصل
فى الرجل إذا خدرت رجله

عن الهيثم بن حنش قال: كنا عند عبد اللّه بن عمر ﷺ، فخدرت رجله ، فقال له رجل : اذكر أحب الناس إليك ، فذكر محمداً ، فكأنما نشط من عقال.

---

(١) الترمذى (٣٤٣٢) فى الدعوات ، باب: ما يقول إذا رأى مبتلى وقال : « غريب » .

(٢) الوابل الصيب (٣٠١)، وزاد المعاد (٢/ ٤٥٦) .

(٣) الترمذى (٣٤٢٨) فى الدعوات ، باب: ما يقول إذا دخل السوق ، وقال : « غريب » .

(٤) الحاكم فى المستدرك (١/ ٥٣٩) وقال : « إسناده صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه » ، وقال الذهبى : « أبو عمرو لا يعرف والمدائنى متروك »، وضعفه الألبانى .

وعن مجاهد رحمه الله قال: خدرت رجلُ رجلٍ عند ابن عباس رضي الله عنهما فقال : اذكر أحب الناس إليك ،فقال: محمد رسول الله ، فذهب خدره .

فصل

فى الدابة إذا عثرت

عن أبى المليح عن رجل قال: كنتُ رديف النبى ﷺ فعثرت دابتُه ، فقلت : تعس الشيطان ، فقال: « لا تقُل : تعس الشيطان ، فإنك إذا قلت ذلك تعاظم حتى يكون مثل البيت ،ولكن قلْ : بسم الله ، فإنك إذا قُلتَ ذلك تصاغر حتى يكون مثل الذُّباب »[١] .

فصل

فيمن أهدى هديه أو تصدق بصدقة فدعا له ،ماذا يقول ؟

عن عائشة رضي الله عنها قالت : أُهديتْ لرسول الله ﷺ شاة فقال : « اقسميها »،وكانت عائشة رضي الله عنها إذا رجعت الخادم تقول: ماذا قالوا ؟ تقول الخادم : قالوا: بارك الله فيكم ، تقول عائشة رضي الله عنها : وفيهم بارك الله ،نرد عليهم مثل ما قالوا ويبقى أجرنا لنا[٢] .

وقد روى عنها فى الصدقة مثل ذلك[٣] .

وأيضاً

كان ﷺ يدعو لمن تقرّب إليه بما يُحب وبما يناسب ، فلما وضع له ابن عباس وضوءه قال: « اللهم فقّههُ فى الدين ، وعلّمهُ التأويل» [٤].

ولما دعّمه أبو قتادة فى مسيره بالليل لّما مال عن راحلته ،قال: « حفظك الله بما

(١) أبو داود (٤٩٨٣) فى الأدب ، باب: لا يقال : خبثت نفسى.

(٢) الأذكار للنووى (٨١٥).

(٣) الوابل الصيب (٣٠٢ ـ ٣٠٤) .

(٤) أحمد ٢٦٦/١ ،وقال الشيخ شاكر (٢٣٩٧) : « إسناده صحيح » .

حفظت به نبيّه » (١).

وقال :« من صُنع إليه معروف ، فقال لفاعله: جزاك اللّه خيراً ، فقد أبلغ فى الثناء»(٢).

واستقرض من عبد الله بن أبى ربيعة مالا ،ثم وفاه إياه، وقال: « بارك الله لك فى أهلك ومالك ، إنما جزاءُ السلف الحمد والأداء » (٣).

ولما أراحه جرير بن عبد الله البجلى من ذى الخلصة ـ صنم دوس ـ برّك على خيل قبيلته أحمس ورجالها خمس مرات (٤).

وكان ﷺ إذا أُهديت إليه هدية فقبلها ، كافأ عليها بأكثر منها (٥)، وإن ردها اعتذر إلى مهديها،كقوله ﷺ للصعب بن جثامة لما أهدى إليه لحم الصيد : « إنا لم نرده عليك إلا أنا حُرُم »(٦) واللّه أعلم(٧) .

فصل

فيمن أميط عنه أذى

عن أبى أيوب رضي الله عنه ،أنه تناول من لحية رسول اللّه ﷺ أذى، فقال رسول اللّه ﷺ : « مسح الله عنك يا أبا أيوب ما تكره » .

وفى لفظ آخر : « لا يكن بك السوءُ يا أبا أيوب» (٨).

وعن عمر رضي الله عنه ، أنه أخذ عن رجل شيئاً ، فقال: الرجل: صرف الله عنك السوء ،

---

(١) مسلم (٦٨١ / ٣١١) فى المساجد ومواضع الصلاة ، باب: قضاء الصلاة الفائتة .

(٢) الترمذى (٢٠٣٥) فى البر والصلة ، باب: ما جاء فى المتشبع بما لم يعط .وقال : « حسن جيد غريب » .

(٣) النسائى (٤٦٨٣) فى البيوع ، باب: الاستقراض ، وابن ماجه (٢٤٢٤) فى الصدقات ، باب: حسن القضاء، وأحمد (٤/ ٣٦) .

(٤) البخارى (٤٣٥٦) فى المغازى ، باب: غزوة ذى الخلصة ، ومسلم (٢٤٧٦ / ١٣٧) فى فضائل الصحابة ، باب: من فضائل جرير بن عبد الله رضي الله عنه ، وأحمد ٤/ ٣٦٢ .

(٥) البخارى (٢٥٨٥) فى الهبة ،باب: المكافأة فى الهبة ، وأبو داود (٣٥٣٦) فى البيوع ، باب: قبول الهدايا ، والترمذى (١٩٥٣) فى البر والصلة ، باب: ما جاء فى قبول الهدية والمكافأة عليها .

(٦) البخارى (٢٥٧٣) فى الهبة ،باب: قبول الهدية ،ومسلم (١١٩٣/ ٥٠) فى الحج، باب: تحريم الصيد للمحرم .

(٧) زاد المعاد (٤٦٤ ، ٤٦٥) .

(٨) الأذكار للنووى (٨١٧) .

فقال عمر رضي الله عنه : صرف الله عنا السوء منذُ أسلمنا ، ولكن إذا أخذ عنك شيء فقل : أخذت يداك خيراً .

فصل
فى رؤية باكورة الثمرة

قال أبو هريرة رضي الله عنه : كان الناس إذا رأوا أول الثمر جاؤوا به إلى رسول الله ﷺ فقال : « اللهم بارك لنا فى ثمرنا ، وبارك لنا فى مدينتنا ، وبارك لنا فى صاعنا ، وبارك لنا فى مدنا » ثم يعطيه أصغر من يحضره من الولدان . رواه مسلم [١] [٢] .

فصل
فى الشيء يراه ويعجبه ويخاف عليه العين

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ ﴾ [الكهف: ٣٩]

وقال النبى ﷺ : « العين حق ، ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين » حديث صحيح [٣] .

ويذكر عن النبى ﷺ أنه قال: «إذا رأى أحدكم ما يعجبه فى نفسه أو ماله فليبرك عليه، فإن العين حق » [٤] .

ويذكر عنه ﷺ أنه قال: « من رأى شيئاً فأعجبه فقال: ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله لم يضره [٥] .

ويذكر عنه ﷺ فيمن خاف أن يصيب شيئاً بعينه قال : « اللهم بارك لنا فيه ولا تضره » [٦] .

وقال أبو سعيد :كان رسول الله ﷺ يتعوذ من الجانّ ،وعين الإنس، حتى نزلت

(١) مسلم (١٣٧٣ / ٤٧٣) فى الحج ، باب: فضل المدينة .

(٢) مسلم (٢١٨٨ / ٤٢) فى السلام ، باب: الطب والمرض والرقى، وأحمد ١/ ١٧٤ .

(٣) الوابل الصيب (٣٠٥ ، ٣٠٦) .

(٤) أحمد ٣/ ٤٨٦ ، والحاكم فى المستدرك ٣/ ٤١١ ، ٤١٢ وقال : « على شرط الشيخين ولم يخرجاه » ،وسكت عنه الذهبى .

(٥) الأذكار للنووى (٨٤٠) .

(٦) الأذكار للنووى (٨٣٩) .

المعوذتان ، فلما نزلتا أخذ بهما وترك ما سواهما ». قال الترمذى : حديث حسن ، ورواه ابن ماجه فى سننه» (١) (٢).

فصل
فى الفأل والطيرة

قال النبى ﷺ: لا عدوى ولا طيرة ، وأصدقُها الفألُ »قيل:وما الفأل ؟ قال: «الكلمة الحسنة يسمعها الرجل » (٣).

وكان النبى ﷺ يعجبه الفأل.

كما كان فى سفر الهجرة فلقيهم رجل فقال:« ما اسْمُك » ؟ قال بريدة .قال «برُد أمرنا»(٤).

وقال ﷺ:« رأيتُ فى منامى ،كأنّى فى دار عُقبة بن رافع ،وأتينا برطب من رطب ابن طاب، فأولتهما الرفعة لنا فى الدنيا، والعاقبة لنا فى الآخرة ،وأن ديننا قد طاب »(٥).

وأما الطيرة:فقال معاوية بن الحكم قلت : يا رسول اللّه ، منا رجال يتطيرون. قال : « ذلك شىء تجدونه فى صدوركم فلا يصدنكم » وهذه الأحاديث فى« الصحاح»(٦).

وعن عقبة بن عامر قال : سئل رسول اللّه ﷺ عن الطيرة فقال: أصدقُها الفأل، ولا تردّ مسلما، وإذا رأيتم من الطيرة شيئاً تكرهونه، فقولوا: اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت،ولا يذهب بالسيئات إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بالله» (٧) (٨).

---

(١) الترمذى (٢٠٥٨) فى الطب ، باب: الرقية بالمعوذتين ، وابن ماجه (٣٥١١) فى الطب ، باب: من استرقى من العين .

(٢) الوابل الصيب (٣٠٥ ـ ٣٠٧)

(٣) البخارى (٥٧٥٥) فى الطب ، باب : الفأل ، ومسلم (٢٢٢٣ / ١١٠) فى السلام ، باب : الطيرة والفأل ، وأبو داود (٣٩١٦) فى الطب، باب: فى الطيرة .

(٤) الاستيعاب بهامش الإصابة (١/ ١٧٤ ، ١٧٥) ،وأسد الغابة (١/ ١٧٦) .

(٥) مسلم (٢٢٧٠ / ١٨) فى الرؤيا،باب:رؤيا النبى ﷺ ،وأبو داود (٥٠٢٥) فى الأدب،باب:ما جاء فى الرؤيا .

(٦) مسلم (٥٣٧ / ٣٣) فى المساجد ومواضع الصلاة ، باب: تحريم الكلام فى الصلاة، ونسخ ما كان من إباحة، وأبو داود (٩٣٠) فى الصلاة ،باب: تشميت العاطس فى الصلاة ، والنسائى (١٢١٨) فى السهو، باب : الكلام فى الصلاة .

(٧) ابن أبى شيبة (١٠ / ٣٣٥ ، ٣٣٦) فى الدعاء ، باب: ما يقول الرجل إذا تطيره ، وهو عن عروة بن عامر وليس عقبة بن عامر .

(٨) الوابل الصيب (٣٠٨ ـ ٣١٠) .

وأيضاً

ذكر عنه ﷺ أنه ذكرت الطيرةُ عنده ، فقال : « أحسنُها الفأل ولا تردُّ مسلماً ، فإذا رأيت من الطيرة ما تكره فقل : اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت ،ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك » (١).

وكان كعب يقول: اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك ،ولا رب غيرك ، ولا حول ولا قوة إلا بك ، والذى نفسى بيده ، إنها لرأسُ التوكل ، وكنز العبد فى الجنة، ولا يقولهن عبد عند ذلك ، ثم يمضى إلا لم يضره شىء (٢).

فصل
فى الحمام

يذكر عن أبى هريرة أنه قال: نعم البيت الحمَّام يدخلُه المسلم ، إذا دخله سأل الله الجنة ،واستعاذ به من النار .

فصل
فى الذكر عند دخول الخلاء والخروج منه

فى « الصحيحين » عن أنس رضي الله عنه قال: كان النبى ﷺ إذا دخل الخلاء قال: « اللهم إنى أعوذ بك من الخبث والخبائث »(٣)وزاد سعيد بن منصور« بسم الله ».

وفى« مسند الإمام أحمد » عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله ﷺ:« إن هذه الحشوش محتضرة ، فإذا أتى أحدكم الخلاء فليقل : أعوذ بالله من الخبث والخِبائث »(٤).

---

(١) أبو داود (٣٩١٩) فى الطب ، باب: فى الطيرة .

(٢) زاد المعاد (٢/ ٤٥٧) .

(٣) البخارى (١٤٢) فى الوضوء، باب: ما يقول عند الخلاء ، ومسلم (٣٧٥/ ١٢٢) فى الحيض ، باب: ما يقول إذا أراد دخول الخلاء .

(٤) أحمد (٤/ ٣٦٩) .

وفى « سنن ابن ماجه» عن أبى أمامة أن رسول اللّه ﷺ قال: « لا يعجز أحدكم إذا دخل مرفقه أن يقول: اللهم إنى أعوذ بك من الرجس والنجس الخبيث المخبث الشيطان الرجيم » (١).

وفى الترمذى عن على رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: « ستْرُ ما بين الجنّ وعورات بنى آدم إذا دخل الكنيف أن يقول: « بسم اللّه » (٢) .

وقالت عائشة : كان رسول اللّه ﷺ إذا خرج من الغائط قال: « غُفرانك » رواه الإمام أحمد وأهل السنن (٣).

وفى« سنن ابن ماجه » عن أنس رضي الله عنه: كان النبى ﷺ إذا خرج من الخلاء قال: «الحمد لله الذى أذهب عنى الأذى وعافانى » (٤) (٥) .

وأيضاً

ثبت عنه فى « الصحيحين » أنه كان يقول عند دخوله الخلاء: « اللهم إنى أعوذ بك من الخُبث والخبائث » (٦).

وذكر أحمد عنه أنه أمر من دخل الخلاء أن يقول ذلك (٧).

ويُذكر عنه: « لا يعجز أحدكم إذا دخل مرفقه أن يقول: « اللهم إنى أعوذ بك من الرجس النجس ،الخبيث المخبث الشيطان الرجيم »(٨).

ويذكر عنه ﷺ قال: « سترُ ما بين الجنّ وعورات بنى آدم إذا دخل أحدكم الكنيف أن يقول : بسم الله » (٩).

---

(١) ابن ماجه (٢٩٩) فى الطهارة وسننها، باب: ما يقول الرجل إذا دخل الخلاء، وفى الزوائد : « إسناده ضعيف ».

(٢) الترمذى (٦٠٦) فى الصلاة ، باب: ما ذكر من التسمية عند دخول الخلاء ، وقال : « غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه » .

(٣) أحمد (٦/ ١٥٥) وأبو داود (٣٠) فى الطهارة ، باب: ما يقول الرجل إذا خرج من الخلاء ، والترمذى (٧) فى الطهارة ، باب : ما يقول إذا خرج من الخلاء ، وقال: « حسن غريب » ، وابن ماجه(٣٠٠) فى الطهارة وسننها، باب: ما يقول إذا خرج من الخلاء.

(٤) ابن ماجه (٣٠١) فى الطهارة وسننها ، باب: ما يقول إذا خرج من الخلاء .

(٥) الوابل الصيب (٣١٠ ـ ٣١٣) .

(٦ ، ٧) سبق تخريجهما بالصفحة السابقة .

(٨ ، ٩) سبق تخريجهما بنفس الصفحة .

وثبت عنه ﷺ أن رجلاً سلَّم عليه وهو يبول فلم يرد عليه (١).

وأخبرأن الله ـ سبحانه ـ يمقت الحديث على الغائط: فقال: «لا يخرج الرجلان يضربان الغائط كاشفين عن عورتهما يتحدثان، فإن الله عز وجل يمقت على ذلك» (٢) (٣).

وكان إذا خرج من الخلاء قال: « غفرانك »، ويذكر عنه أنه كان يقول: «الحمد لله الذى أذهب عنى الأذى، وعافانى ». ذكره ابن ماجه(٤) (٥).

فصل
فى الذكر عند إرادة الوضوء

ثبت فى النسائى عنه ﷺ أنه وضع يده فى الجفنة وقال: « توضؤوا ببسم الله» (٦).

وفى « صحيح مسلم» عن جابر رضي الله عنه فى حديثه الطويل، وفيه: « يا جابر، ناد بوضوء» فقلت: ألا وضوء؟ ألا وضوء ؟ ألا وضوء؟ وفيه فقال: « خُذ يا جابر فصُبّ علىّ وقلْ: بسم الله » فصببت عليه، وقلت: بسم الله، فرأيت الماء يفور من بين أصابع رسول الله ﷺ (٧).

وفى « المسند »و « السنن » من حديث سعيد بن زيد عن النبى ﷺ: « لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه »(٨).

قال البخارى: هذا أحسن شىء فى هذا الباب.

وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ« لا صلاة لمن لاوضوء له، ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه » رواه الإمام أحمد وأبو داود (٩).

وفى « المسند » من حديث أبى سعيد رضي الله عنه عن النبى ﷺ : لا وضوء لمن لم

---

(١) مسلم (٣٧٠ / ١١٥) فى الحيض، باب : التيمم، وأبو داود (١٧) فى الطهارة، باب: أيرد السلام وهو يبول ؟، والترمذى(٩٠) فى الطهارة، باب: فى كراهة رد السلام غير متوضئ .

(٢) أبو داود (١٥) فى الطهارة، باب: كراهية الكلام عند الحاجة، وأحمد (٣/ ٣٦) .

(٣) زاد المعاد (٢/ ٣٨٣، ٣٨٤) .

(٤) سبق تخريجه بالصفحة السابقة .

(٥) زاد المعاد (٢/ ٣٨٦، ٣٨٧) .

(٦) النسائى (٧٨) فى الطهارة، باب : التسمية عند الوضوء .

(٧) مسلم (٣٠١٣) فى الزهد والرقائق، باب: حديث جابر الطويل، وقصة أبى اليسر .

(٨) أحمد (٢ /٤١٨)، والترمذى (٢٥) فى الطهارة، باب : فى التسمية عند الوضوء، وابن ماجه (٣٩٨) فى الطهارة وسننها، باب: ما جاء فى التسمية فى الوضوء .

(٩) أحمد (٢/ ٤١٨)، وأبو داود (١٠١) فى الطهارة، باب: التسمية على الوضوء .

يذكر اسم اللّه عليه » (١).

فصل
فى الذكر بعد الفراغ من الوضوء

روى مسلم فى«صحيحه » عن عمر بن الخطاب عن النبى ﷺ قال:« ما منكم من أحد يتوضأ فيُبلِغُ ـ أو فيُسبغ ـ الوضوء ثم يقول:« أشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء»(٢).

وزاد فيه الترمذى بعد ذكر الشهادتين « اللهم اجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين» (٣).

وفى بعض طرقه ذكرها أبو داود والإمام أحمد : « فأحسن الوضوء ثم رفع نظره إلى السماء فقال . . . » وذكره(٤).

وفى لفظ للإمام أحمد :« من توضأ فأحسن الوضوء ثم قال ثلاث مرات :أشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله . . . » (٥).

وفى « سنن النسائى» عن أبى سعيد الخدرى قال:«من توضأ ففرغ من وُضوئه وقال: «سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك، طُبع عليها، بطابع ،ثم رفعت تحت العرش فلم تكسر إلى يوم القيامة ».هكذا رواه من قول أبى سعيدﷺ (٦). ورواه بقى بن مخلد فى « مسنده » من حديثه أيضاً مرفوعاً .

وأما الأذكار التى يقولها العامة على الوضوء عند كل عضو فلا أصل لها عن رسول اللّه ﷺولا عن أحد من الصحابة والتابعين ولا الأئمة الأربعة، وفيها حديث كذب على رسول اللّه ﷺ (٧).

---

(١) أحمد (٣/ ٤١) .
(٢) مسلم (٢٣٤ / ١٧) فى الطهارة ، باب : الذكر المستحب عقب الوضوء .
(٣) الترمذى (٥٥) فى الطهارة ، باب: فيما يقال بعد الوضوء .
(٤) أبو داود (١٧٠) فى الطهارة ، باب: ما يقول الرجل إذا توضأ ، وأحمد (٤/ ١٥٠ ، ١٥١) .
(٥) أحمد (١/ ١٩ ، ٢٠) .
(٦) النسائى فى الكبرى (٩٩٠٩) فى عمل اليوم والليلة، باب: ما يقول إذا فرغ من وضوئه .
(٧) الوابل الصيب (٣١٣ ـ ٣١٦) .

وأيضاً

ثبت عنه ﷺ أنه وضع يديه فى الإناء الذى فيه الماء ،ثم قال للصحابة : « توضؤوا بسم اللّه » (١) .

وثبت عنه أنه قال لجابر رضي الله عنه « نادِ بوضوء » فجيء بالماء ، فقال: « خذ يا جابر فصب عليّ وقلْ بسم اللّه » قال: فصببتُ عليه ، وقلتُ : بسم الله ، قال: فرأيت الماء يفور من بين أصابعه (٢).

وذكر أحمد عنه من حديث أبى هريرة ، وسعيد بن زيد ، وأبى سعيد الخدرى رضي الله عنهم : « لا وضُوء لمن لم يذكر اسم اللّه عليه » (٣).

وفى أسانيدها لين .

وصحَّ عنه ﷺ أنه قال:« من أسبغ الوضوء ثُم قال : أشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء » ذكره مسلم(٤) .

وزاد الترمذى بعد التشهد:« اللهم اجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين » (٥) وزاد الإمام أحمد : ثم رفع نظره إلى السماء(٦) وزاد ابن ماجه مع أحمد قول ذلك ثلاث مرات.

وذكر بقيّ بن مخلد فى « مسنده » من حديث أبى سعيد الخدرى مرفوعاً :« من توضأ ففرغ من وضوئه ، ثم قال : سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، كتب فى رق وطبع عليها بطابع، ثم رُفعت تحت العرش فلم يكسر إلى يوم القيامة ». ورواه النسائى فى كتابه الكبير من كلام أبى سعيد الخدرى(٧)،وقال النسائى : باب ما يقول بعد فراغه من وضوئه فذكر بعض ما تقدم. ثم ذكر بإسناد صحيح من حديث أبى موسى الأشعرى قال: أتيتُ رسول اللّه ﷺ بوضوءٍ فتوضأ ، فسمعته يقول ويدعو : اللهم اغفر لى ذنبى ، ووسع لى فى دارى ، وبارك لى فى رزقى » ، فقلتُ: يا نبى اللّه ، سمعتك تدعو بكذا وكذا ، قال : « وهل تركت من شىء ؟ » وقال ابن السنى : باب ما

(١ ـ ٣) سبق تخريجها ص ٣٧٥ .

(٤ ـ ٧) سبق تخريجها بالصفحة السابقة .

يقول بين ظهرانى وضوئه . . . فذكره [(١)] [(٢)] .

فصل
فى ذكر صلاة الجنازة

فى« صحيح مسلم » عن عوف بن مالك قال :صلى رسول اللّه ﷺ على جنازة ، فحفظت من دعائه وهو يقول: « اللهم اغفر له وارحمه، وعافه واعف عنه ، وأكرم نزله ، ووسع مدخله ،واغسله بالماء والثلج والبرد ،ونقه من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ،وأبدله داراً خيراً من داره ،وأهلا خيراً من أهله،وزوجاً خيراً من زوجه ، وأدخله الجنة ،وأعذْه من عذاب القبر» قال: حتى تمنيتُ أن أكون أنا ذلك الميت، لدعاء رسول اللّه ﷺ .وفى لفظ : « وقه فتنة القبر وعذاب النار » [(٣)].

وفى « سنن أبى داود » عن أبى هريرة قال: صلى رسول اللّه ﷺ على جنازة فقال: «اللهم اغفر لحيِّنا وميّتنا ،وشاهدنا وغائبنا، وصغيرنا وكبيرنا ،وذكرنا وأنثانا، اللهم من أحييته منا ، فأحيه على الإسلام ، ومن توفيته منا فتوفه على الإيمان،اللهم لا تحرمنا أجره، ولا تضلنا بعده » [(٤)].

وفى «سنن أبى داود » أيضاً عن واثلة بن الأسقع قال : صلى رسول اللّه ﷺ على رجل من المسلمين فسمعته يقول:« اللهم إن فُلان بن فلان فى ذمتك وحبل جوارك ، فقه فتنة القبر وعذاب النار ، وأنت أهل الوفاء والحمد ، اللهم فاغفر له وارحمه ، إنك أنت الغفور الرحيم » [(٥)].

وسأل مروان أبا هريرة : كيف سمعت رسول اللّه ﷺ يصلى على الجنازة ؟ قال: «اللهم أنت ربُّها ،وأنت خلقتها ، وأنت هديتها للإسلام ،وأنت قبضت روحها ،وأنت أعلم بسرها وعلانيتها ،جئناك شُفعاء فاغفر له » رواه الإمام أحمد وأبو داود [(٦)].

---

(١) النسائى فى الكبرى (٩٩٠٨) فى عمل اليوم والليلة ، باب: ما يقول إذا توضأ .
(٢) زادُ المعاد (٣٨٧ ـ ٣٨٩)
(٣) مسلم (٩٦٣ / ٨٥ ، ٨٦) فى الجنائز ، باب : الدعاء للميت فى الصلاة .
(٤) أبو داود (٣٢٠١) فى الجنائز ، باب: الدعاء للميت .
(٥) أبو داود (٣٢٠٢) فى الجنائز ، باب: الدعاء للميت .
(٦) أحمد (٢/٢٥٦) ، وأبو داود (٣٢٠٠) فى الجنائز ، باب: الدعاء للميت .

فصل
فى الذكر إذا قال هجراً أو جرى على لسانه ما يسخط ربه عز وجل

ثبت عن النبى ﷺ أنه قال: « من حلف منكم فقال فى حلفه: واللات والعزى، فليقل: لا إله إلا الله، ومن قال لصاحبه: تعال أقامرك، فليتصدق »(١).

فكل من حلف بغير الله فهذه كفارته؛ لأن النبى ﷺ قال: « من حلف بغير الله فقد أشرك » حديث صحيح (٢).

وكفارة الشرك: التوحيد، وهو كلمة « لا إله إلا الله ». ومن قال: تعال أقامرك، فقد تكلم بهجر وفحش يتضمن أكل المال وإخراجه بالباطل، وكفارة هذه الكلمة بضد القمار، وهو إخراج المال فى أحق مواضعه وهو الصدقة.

وقال مصعب بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه: حلفتُ باللات والعزى ـ وكان العهد قريباً ـ فذكرت ذلك للنبى ﷺ فقال: « قد قُلت هُجراً، قُل: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وانفُثْ عن يسارك سبعاً، ولا تعد »(٣).

فصل
فيما يقول من اغتاب أخاه المسلم

يذكر عن النبى ﷺ: أن كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته تقول: « اللهم اغفر لنا وله » ذكره البيهقى فى كتاب « الدعوات الكبير » وقال: فى إسناده ضعف.

---

(١) البخارى (٦٦٥٠) فى الأيمان والنذور، باب: لا يحلف باللات والعزى، ومسلم (١٦٤٧ / ٥) فى الأيمان، باب: من حلف باللات والعزى، فليقل: لا إله إلا الله، وأبو داود (٣٢٤٧) فى الأيمان، باب: فى كراهية الحلف بالآباء.

(٢) أبو داود (٣٢٥١) فى الأيمان والنذور، باب: فى كراهية الحلف بالآباء، والترمذى (١٥٣٥) فى النذور والأيمان، باب: ما جاء فى كراهية الحلف بغير الله، وقال: « حسن ».

(٣) النسائى (٣٧٧٦) فى الأيمان والنذور، باب: الحلف باللات والعزى، وابن ماجه (٢٠٩٧) فى الكفارات باب: النهى أن يحلف بغير الله، وأحمد (١/ ١٨٣)، وكلهم بلفظ: « ثم انفث عن يسارك ثلاثاً » بدل « سبعاً ».

وهذه المسألة فيها قولان للعلماء ـ هما روايتان عن الإمام أحمد ـ وهما هل يكفى فى التوبة من الغيبة الاستغفار للمغتاب ، أم لا بد من إعلامه وتحليله ؟

والصحيح أنه لا يحتاج إلى إعلامه ، بل يكفيه الاستغفار له وذكره بمحاسن ما فيه فى المواطن التى اغتابه فيها . وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره .

والذين قالوا :لا بد من إعلامه، جعلوا الغيبة كالحقوق المالية ، والفرق بينهما ظاهر ، فإن الحقوق المالية ينتفع المظلوم بعود نظير مظلمته إليه فإن شاء أخذها وإن شاء تصدق بها.

وأما فى الغيبة،فلا يمكن ذلك ،ولا يحصل له بإعلامه إلا عكس مقصود الشارع ﷺ، فإنه يوغر صدره ويؤذيه إذا سمع ما رمى به ، ولعله يهيج عداوته ولايصفو له أبداً ، وما كان هذا سبيله ، فإن الشارع الحكيم ﷺ لا يبيحه ولا يجوزه ، فضلاً عن أن يوجبه ويأمر به ، ومدار الشريعة على تعطيل المفاسد وتقليلها ،لا على تحصيلها وتكميلها ، والله تعالى أعلم .

فصل

فيما يقال ويفعل عند كسوف الشمس وخسوف القمر

فى « الصحيحين » عن عائشة رضي الله عنها عن النبى ﷺ قال:«إنّ الشمس والقمر لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتموهما فكبروا ،وادعوا الله وصلوا وتصدقوا »[١].

وفى « صحيح مسلم » عن عبد الرحمن بن سمرة قال : بينما أنا أرمى بأسهم لى فى حياة رسول الله ﷺ إذ كسفت الشمس ، فنبذتهن وقلت : لأنظرنّ إلى ما يحدث لرسول الله ﷺ فى انكساف الشمس اليوم ،فانتهيت إليه وهو رافع يديه يدعو ويكبر ويحمد ويهلل ويدعو ،حتى جُلّى عن الشمس ، فقرأ بسورتين وركع ركعتين[٢] .

والنبى ﷺ أمر فى الكسوف بالصلاة والعتاقة،والمبادرة إلى ذكر الله تعالى ، والصدقة، فإن هذه الأمور تدفع أسباب البلاء .

---

(١) البخارى (١٠٥٨) فى الكسوف ، باب: لا تنكسف الشمس لموت أحد ولا لحياته ، ومسلم (١/٩٠١) فى الكسوف ، باب : صلاة الكسوف .

(٢) مسلم (٩١٣ / ٢٥) فى الكسوف ، باب: ذكر النداء بصلاة الكسوف.

فصل
فيما يقول من ضاع له شيء ويدعو به

ذكر على بن المدينى عن سفيان عن ابن عجلان عن عمر بن كثير بن أفلح قال: كان ابن عمر يقول للرجل إذا أضل شيئاً : قل : اللهم رب الضالة ،هادى الضالة، تهدى من الضلالة ، رُد على ضالتى بقدرتك وسلطانك ،فإنها من عطائك وفضلك .

وفى وجه آخر : سئل ابن عمر ﷺ عن الضالة فقال : يتوضأ ويصلى ركعتين ، ثم يتشهد ، ثم يقول : اللهم راد الضالة ، هادى الضلالة ، تهدى من الضلال ، رُد علىّ ضالتى بعزك وسلطانك ، فإنهـا مـن فضلك وعطائك ، قال البيهقى : هذا موقوف ، وهو حسن.

وقد قيل : إن من ضاع له شيء فقال : يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه رد علىّ ضالتى ، ردها الله تعالى عليه .

فصل
فى عقد التسبيح بالأصابع وأنه أفضل من السبحة

روى الأعمش عن عطاء بن السائب عن أبيه عن عبد الله بن عمرو قال: « رأيت رسول الله يعقد التسبيح بيمينه »، رواه أبو داود (١).

وروت يسيرة إحدى المهاجرات ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: « عليكن بالتسبيح والتهليـل والتقديس ، ولا تغفلـن فتنسين الرحمـة ، واعقـدن بالأنامـل فإنهـن مسـؤولات ومستنطقات» (٢).

(١) أبو داود (١٥٠٢) فى الصلاة ، باب: التسبيح بالحصى .

(٢) الترمذى (٣٥٨٣) فى الدعوات ، باب: فى فضل التسبيح والتهليل والتقديس . وقال : « غريب » .

فصل
فيما يقال لمن حصل له وحشة

روينا فى « معجم الطبرانى » عن البراء بن عازب أن رجلاً اشتكى إلى رسول الله ﷺ الوحشة ، فقال : « قلْ : سبحان اللّه الملك القدوس، رب الملائكة والروح، جُلّلت السموات والأرض بالعزة والجبروت » فقالها الرجل ، فأذهب الله عنه الوحشة [١].

فصل
فى الذكر الذى يقوله أو يقال له
إذا لبس ثوباً جديداً

عن أبى نضرة عن أبى سعيد الخدرى قال: كان رسول اللّهﷺ إذا استجدّ ثوباً سماه باسمه قميصاً أو إزاراً أو عمامة يقول: « اللهم لك الحمد أنت كسوتنيه ، أسألك من خيره وخير ما صُنع له ، وأعوذ بك من شره وشر ما صُنع له »[٢].

قال أبو نضرة : وكان أصحاب رسول اللّه ﷺ إذا رأى أحدهم على صاحبه ثوباً قال: تبلى ويخلف الله تعالى . ذكره البيهقى .

وعن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه أن رسول اللّه ﷺ قال: « من لبس ثوباً جديداً فقال : الحمد للّه الذى كسانى هذا ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة ، غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر » [٣] [٤].

وأيضاً

كان ﷺ إذا استجد ثوباً سمّاه باسمه ، عمامة ، أو قميصاً ، أو رداء ، ثم يقول: «اللهم لك الحمدُ ، أنت كسوتنيه ، أسألك خيره، وخير ما صنع له ، وأعوذ بك من شرّه ،

---

(١) الطبرانى فى الكبير ٢/ ٢٤ (١١٧١) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٣١) : « فيه محمد بن أبان الجعفى، وهو ضعيف » .

(٢) أبو داود (٤٠١٦) فى اللباس، فى فاتحته ، والترمذى (١٧٦٧) فى اللباس ، باب : ما يقول إذا لبس ثوبًا جديدًا ، وقال « حسن غريب صحيح » والنسائى فى الكبرى ، فى عمل اليوم والليلة ، باب : ما يقول إذا استجد ثوبا (١٠١٤١ / ١) بنحوه .

(٣) أبو داود (٤٠٢٣) فى أول كتاب اللباس .

(٤) الوابل الصيب (٣١٧ ـ ٣٢٨) .

وشر ما صُنع له » حديث صحيح(١).

ويذكر عنه أنه قال: « من لبس ثوباً فقال: الحمد لله الذى كسانى هذا ورزقنيه من غير حولْ منى ولا قوة، غفر الله له ما تقدم من ذنبه »(٢).

وفى «جامع الترمذى» عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من لبس ثوباً جديداً فقال: الحمد لله الذى كسانى ما أُوارى به عورتى ، وأتجمل به فى حياتى ، ثم عمد إلى الثوب الذى أخلق فتصدق به ، كان فى حفظ الله ، وفى كنف الله، وفى سبيل الله ، حيًا وميتًا »(٣).

وصح عنه أنه قال لأم خالد لما ألبسها الثوب الجديد : «أبلى وأخلقى ، ثم أبلى وأخلقى » مرتين (٤).

وفى «سنن ابن ماجه » أنه ﷺ رأى على عُمر ثوباً فقال: «أجديدٌ هذا ، أم غسيلٌ ؟» فقال: بل غسيل ،فقال: «البسْ جديداً ، وعش حميداً ، ومُت شهيداً » (٥) (٦).

فصل

فيما يقال عند رؤية الفجر

روى ابن وهب عن سليمان بن بلال عن سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة قال : كان رسول الله ﷺ إذا كان فى سفر فبدا له الفجر قال: « سمع سامع بحمد الله ونعمته وحُسن بلائه علينا ، ربنا صاحبنا فأفضل علينا ، عائذا بالله من النار »يقول ذلك ثلاث مرات ، ويرفع بها صوته . هذا إسناد صحيح على شرط مسلم(٧) (٨) .

(١ ، ٢) سبق تخريجهما بالصفحة السابقة .

(٣) الترمذى (٣٥٦٠) فى الدعوات ، باب : ١٠٨ ، وقال: «غريب ».

(٤) البخارى (٥٨٤٥) فى اللباس ، باب: ما يدعى لمن لبس ثوباً جديداً .

(٥) ابن ماجه (٣٥٥٨) فى اللباس، باب:ما يقول الرجل إذا لبس ثوباً جديداً ،وفى الزوائد: « إسناده صحيح» .

(٦) زاد المعاد (٢/٣٧٩ ، ٣٨٠) .

(٧) مسلم (٢٧١٨ / ٦٨) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: التعويذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ، وأبو داود (٥٠٨٦) فى الأدب ، باب: ما يقول إذا أصبح ،والحاكم فى المستدرك(١/٤٤٦) فى المناسك، باب: الدعاء عند بدء الفجر فى السفر ، واللفظ للحاكم .

(٨) الوابل الصيب (٣٢٨) .

فصل
فيما يقوله من رأى ما يحب أو ما يكره

وكان ﷺ إذا رأى ما يحب ، قال :« الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ».وإذا رأى ما يكره ، قال : « الحمد لله على كل حال »(١) (٢) .

فصل
فيما يقوله ويفعله من ابتلى بالوسواس ، وما يستعين به على الوسوسة

روى صالح بن كيسان ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، عن ابن مسعود يرفعه: « إن للملك الموكل بقلب ابن آدم لَمّة ،وللشيطان لَمّة،فلمّه : الملك إيعاد بالخير، وتصديق بالحق ،ورجاء صالح ثوابه ،ولمة الشيطان ، إيعاد بالشر ،وتكذيب بالحق، وقنوط من الخير ،فإذا وجدتم لمة الملك ، فاحمدوا الله ، وسلوه من فضله ، وإذا وجدتم لَمّة الشيطان ، فاستعيذوا بالله واستغفروه »(٣) .

وقال له عثمان بن أبى العاص : يا رسول الله ، إن الشيطان قد حال بينى وبين صلاتى وقراءتى ، قال: « ذاك شيطان يقال له : خنزَبُ ، فإذا أحسستُه ،فتعوذْ بالله منه ، واتفُل عن يسارك ثلاثاً » (٤).

وشكى إليه الصحابة أن أحدهم يجد فى نفسه ـ يُعرض بالشىء ـ لأن يكون حُمَمَةً أحبُّ إليه من أن يتكلم به ، فقال:« الله أكبر الله أكبر، الحمد لله الذى رد كيده إلى الوسوسة» (٥).

وأرشد من بُلى بشىء من وسوسة التسلسل فى الفاعلين ، إذا قيل له :هذا الله خلق الخلق ،فمن خلق الله؟ أن يقرأ :﴿ **هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**(٣) ﴾ [الحديد] .

---

(١) ابن ماجه (٣٨٠٣) فى الأدب ، باب :فضل الحامدين ، وفى الزوائد :« إسناده صحيح، ورجاله ثقات ».
(٢) زاد المعاد (٢/ ٤٦٤).
(٣) الترمذى (٢٩٨٨) فى تفسير القرآن ، باب: ومن سورة البقرة، وقال: « حسن غريب » ، وابن جرير فى التفسير (٣/ ٥٩) .
(٤) مسلم (٢٢٠٣ / ٦٨) فى السلام ، باب: التعوذ من شيطان الوسوسة فى الصلاة ،وأحمد (٤/ ٢١٦) .
(٥) أبو داود (٥١١٢) فى الأدب باب: فى رد الوسوسة ، وأحمد (١/ ٣٤٠) .

كذلك قال ابن عباس لأبى زُميل سماك بن الوليد الحنفى وقد سأله: ما شىء أجده فى صدرى ؟ قال: ما هو؟ قال: قلت: والله لا أتكلم به قال: قال لى: أشىء من شك؟ قلت: بلى، فقال لى: ما نجا من ذلك أحد، حتى أنزل الله عز وجل: ﴿ **فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ** ﴾[يونس: ٩٤] قال: فقال لى: فإذا وجدت فى نفسك شيئاً، فقل: ﴿ **هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣)** ﴾ (١).

فأرشدهم بهذه الآية إلى بطلان التسلسل الباطل ببديهة العقل، وأن سلسلة المخلوقات فى ابتدائها تنتهى إلى أول ليس قبله شىء. كما تنتهى فى آخرها إلى آخر ليس بعده شىء، كما أن ظهوره هو العلو الذى ليس فوقه شىء، وبطونه هو الإحاطة التى لا يكون دونه فيها شىء، ولو كان قبله شىء يكون مؤثراً فيه، لكان ذلك هو الرب الخلاق، ولا بد أن ينتهى الأمر إلى خالق غير مخلوق، وغنى عن غيره وكلُّ شىء موجود به. قديم لا أول له، وكلُّ ما سواه فوجوده بعد عدمه، باق بذاته، وبقاء كل شىء به، فهو الأول الذى ليس قبله شىء، والآخر الذى ليس بعده شىء، الظاهر الذى ليس فوقه شىء، الباطن الذى ليس دونه شىء.

وقال ﷺ: «لا يزال الناس يتساءلون حتى يقول قائلهم: هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟ فمن وجد من ذلك شيئاً، فليستعذْ بالله ولْينته» (٢)، وقد قال تعالى: ﴿ **وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦)** ﴾ [فصلت].

ولما كان الشيطان على نوعين: نوع يُرى عياناً، وهو شيطان الإنس، ونوع لا يُرى، وهو شيطان الجن، أمر سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يكتفى من شر شيطان الإنس بالإعراض عنه، والعفو، والدفع بالتى هى أحسن، ومن شيطان الجن بالاستعاذة منه، وجمع بين النوعين فى سورة الأعراف، وسورة المؤمنين، وسورة فصلت، والاستعاذة فى القراءة والذكر أبلغ فى دفع شر شياطين الجن، والعفو والإعراض والدفع بالإحسان أبلغ فى دفع شر شياطين الإنس، قال:

فما هو إلا الاستعاذة ضارعاً ... أو الدفع بالحسنى هُما خير مطلوب
فهذا دواءُ الدّاء من شرّ ما يرى ... وذاك دواء الداء من شر محجوب(٣)

(١) أبو داود (٥١١٠) فى الأدب، باب: فى رد الوسوسة.
(٢) البخارى (٣٢٧٦) فى بدء الخلق، باب: صفة إبليس وجنوده، ومسلم (١٣٤/ ٢١٢) فى الإيمان، باب: بيان الوسوسة، وأبو داود (٤٧٢١) فى السنة، باب: فى الجهمية.
(٣) زاد المعاد (٢/ ٤٦٠ ـ ٤٦٣).

فصل
فى الإكثار من الذكر فى عشر ذى الحجة

وكان ﷺ يُكثر الدعاء فى عشر ذى الحجة ، ويأمر فيه بالإكثار من التهليل والتكبير والتحميد .

ويُذكر عنه أنه كان يُكبّر من صلاة الفجر يوم عرفة إلى العصر من آخر أيام التشريق ، فيقول: « اللّه أكبر ، اللّه أكبر ، لا إله إلا اللّه ، واللّه أكبر ، الله أكبر وللّه الحمد»[(١)]، وهذا وإن كان لا يصح إسناده فالعمل عليه ، ولفظه هكذا يشفع التكبير وأما كونه ثلاثا ، فإنما رُوى عن جابر وابن عباس من فعلهما ثلاثاً فقط ، وكلاهما حسن. قال الشافعى: إن زاد فقال: اللّه أكبر كبيراً،والحمد للّه كثيراً ،وسبحان الله بكرة وأصيلاً لا إله إلا اللّه ، ولا نعبد إلا إياه،مخلصين له الدين ولوكره الكافرون، لا إله إلا الله وحده ،صدق وعده ، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده ، لا إله إلا الله والله أكبر، كان حسناً [(٢)].

فصل
فى جوامع من أدعية النبى ﷺ
وتعوذاته لا غنى للمرء عنها

قالت عائشة : كان النبى ﷺ يحب الجوامع من الدعاء ويدع ما بين ذلك .

وفى المسند والنسائى وغيرهما :أن سعداً سمع ابناً له يقول: اللهم إنى أسألك الجنة وغُرفها وكذا وكذا،وأعوذ بك من النار وأغلالها وسلاسلها ، فقال سعد رضي الله عنه : لقد سألت اللّه خيراً كثيراً ،وتعوذت من شر كثير،وإنى سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: « سيكون قوم يعتدون فى الدعاء » وبحسبك أن تقول :اللهم إنى أسألك من الخير كله ما علمت منه وما لم أعلم ، وأعوذ بك من الشرّ كله ما علمت منه وما لم أعلم »[(٣)].

وفى « مسند الإمام » ،و « سنن النسائى » عن ابن عباس قال: كان من دعاء النبى

---

(١) الدارقطنى ٢/ ٥٠ (٢٩) فى العيدين .

(٢) زاد المعاد (٢/ ٣٩٥ ، ٣٩٦) .

(٣) أحمد (١/ ١٧٢) ، وأبو داود (١٤٨٠) فى الصلاة ، باب: الدعاء ولم يعزه صاحب التحفة (٣/ ٣٢٣) إلا لأبى داود.

ﷺ:«رب أعنّى ولا تُعن علىّ، وانصرنى ولا تنصر علىّ،وامكر لى ولا تمكر علىّ وانصرنى على من بغى علىّ،رب اجعلنى لك شكّاراً ،لك ذكّاراً ، لك رهّاباً، لك مطواعًا، لك مخْبتا ، إليك أوَّاها مُنيباً، رب تقبل توبتى ، واغسل حوْبتى ، وأجبْ دعوتى ، وثبت حُجتى ، واهد قلْبى ، وسدد لسانى ، واسلُل سخيمة قلْبى » . هذا حديث صحيح ورواه الترمذى وحسنه وصححه (١).

وفى « الصحيحين » من حديث أنس بن مالك قال: كنت أخدم النبى ﷺ ، فكنت أسمعه يكثر أن يقول : « اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن ،والعجز والكسل، والبخل والجبن ،وضلع الديْن وغلبة الرجال » (٢).

وفى « صحيح مسلم » عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال:لا أقول لكم إلا كما كان رسول اللّه ﷺ يقول : كان يقول : « اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل والجُبن والبُخل والهرم وعذاب القبر ، اللهم آت نفسى تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها وأنت وليها ومولاها ، اللهم إنى أعوذ بك من قلب لا يخشع، ونفس لا تشبع ،وعلم لا ينفع ، ودعوة لا يستجاب لها » (٣).

وفى « الصحيحين » عن عائشة رضي الله عنها أن رسول اللّه ﷺ كان يدعو:« اللهم أنى أعوذ بك من عذاب القبر ،وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ،وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات، اللهم إنى أعوذ بك من المأثم والمغرم » فقال له قائل: ما أكثر ما تستعيذ من المغرم يا رسول اللّه ! فقال :« إن الرجل إذا غرم ، حدث فكذب ، ووعد فأخلف » (٤).

وفى « صحيح مسلم » عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان من دعاء النبى ﷺ :« اللهم إنى أعوذ بك من زوال نعمتك،وتحوُّل عافيتك ، ومن فُجاءة نقمتك ،ومن جميع سخطك»(٥).

---

(١) أحمد (١/ ٢٢٧) ، والنسائى فى الكبرى (١٠٤٤٣) فى عمل اليوم والليلة ،باب: الاستنصار عند اللقاء ، والترمذى (٣٥٥١) فى الدعوات ، باب: فى دعاء النبى ﷺ .

(٢) البخارى (٦٣٦٩) فى الدعوات ، باب: الاستعاذة من الجبن والكسل ، ومسلم (٢٧٠٦ / ٥٠) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: التعوذ من العجز والكسل وغيره ، بمعناه ، واللفظ للبخارى .

(٣) مسلم (٢٧٢٢ / ٧٣) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: التعوذ من شر ما عمل ، ومن شر ما لم يعمل .

(٤) البخارى (٨٣٢) فى الأذان ، باب : الدعاء قبل السلام ، ومسلم (٥٨٩ / ١٢٩) فى المساجد ومواضع الصلاة، باب: ما يستعاذ منه فى الصلاة .

(٥) مسلم (٢٧٣٩ / ٩٦) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: أكثر أهل الجنة الفقراء ، وأكثر أهل النار النساء .

وفى الترمذى عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله ، أرأيت إن وافقت ليلة القدر ما أسأل ؟ قال: « قولى : اللهم إنك عفوّ تُحب العفو فاعف عنى» قال الترمذى: صحيح[١].

وفى « مسند الإمام أحمد » عن أبى بكر الصديق، عن النبى ﷺ أنه قال: « عليكم بالصدق ، فإنه مع البر وهما فى الجنة ، وإياكم والكذب ، فإنه مع الفجور وهما فى النار، وسلوا الله المعافاة ، فإنه لم يؤت رجل بعد اليقين خيراً من المعافاة »[٢].

وفى « صحيح الحاكم » عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال: « ما سئل الله عز وجل شيئاً أحب إليه من أن يسأل العافية » [٣] .

وذكر الفريابى فى كتاب الذكر من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: أى الدعاء أفضل ؟ قال: « تسأل الله العفو والعافية ، فإذا أُعطيت ذلك فقد أفلحت»[٤].

وفى « الدعوات » للبيهقى عن معاذ بن جبل قال: مرّ رسول الله ﷺ برجل يقولُ : اللهم إنى أسألك الصبر ، قال: « سألت الله البلاء ، فسل العافية» ومر برجل يقولُ : اللهم إنى أسألك تمام النعمة ؟ فقال: « وما تمام النعمة»، قال: سألتُ وأنا أرجو الخير ، قال له: «تمام النعمة الفوز من النار ، ودُخول الجنة »[٥] .

وفى « صحيح مسلم » عن أبى مالك الأشجعى عن أبيه رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يعلم من أسلم أن يقول: « اللهم اغفر لى، واهدنى، وارزقنى ، وعافنى، وارحمنى »[٦].

وفى « المسند » عن بسر بن أرطاة رضي الله عنه ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « اللهم أحسن عاقبتنا فى الأمور كلها، وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة»[٧].

وفى « المسند » و « صحيح الحاكم » عن ربيعة بن عامر عن النبى ﷺ : ألظوا بياذا الجلال والإكرام » [٨] أى : الزموها وداوموا عليها .

---

(١) الترمذى (٣٥١٣) فى الدعوات ، باب: ٨٥ ، وقال : «حسن صحيح ».

(٢) أحمد (١/ ٥) .

(٣) الحاكم فى المستدرك (١/ ٤٩٨) فى الدعاء ، باب: من فتح له فى الدعاء منكم فتحت له أبواب الجنة ، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه » وتعقبه الذهبى وقال: المليكى ضعيف .

(٤) انظر : الترمذى (٣٥١٢) فى الدعوات ، باب: ٨٥ ، وقال : « حسن غريب من هذا الوجه » .

(٥) انظر : الترمذى (٣٥٢٧) فى الدعوات ، باب: ٩٤ ، وقال الترمذى : « حسن » .

(٦) مسلم (٢٦٩٧ / ٣٤ ، ٣٥) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: فضل التهليل والتسبيح والدعاء.

(٧) أحمد (٤/ ١٨١) .

(٨) أحمد (٤/ ١٧٧) ، والحاكم فى المستدرك (١/ ٤٩٨, ٤٩٩) فى الدعاء، باب: ألظوا بياذا الجلال والإكرام، وقال: « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ، ووافقه الذهبى .

وفى «صحيح الحاكم» أيضاً عن أبى هريرة ،أن رسول اللّه ﷺ قال: لهم: « أتُحبون أيها الناس أن تجتهدوا فى الدعاء» ؟ قالوا : نعم يا رسول اللّه . قال : قولوا : اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » (١).

وفى الترمذى وغيره : أن النبى ﷺ أوصى معاذاً أن يقولها ، فى دبر كل صلاة (٢).

وفى « صحيحه » أيضاً : عن أنس قال: كنا مع النبى ﷺ فى حلقة ، ورجل قائم يصلى، فلما ركع وسجد تشهد ودعا فقال فى دعائه: اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت بديع السموات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا حى يا قيوم ، فقال النبى ﷺ : « لقد سألت باسمه الأعظم الذى إذا دُعى به أجاب ، وإذا سُئل به أعطى »(٣) .

وفى« المسند » و « صحيح الحاكم »أيضاً ، عن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: قال لى رسول الله: « يا شدادُ ، إذا رأيت الناس يكنزون الذهب والفضة ، فاكنُزْ هؤلاء الكلمات : اللهم إنى أسألك الثبات فى الأمر ،والعزيمة على الرشد ، وأسألك شكر نعمتك،وحسن عبادتك ،وأسألك قلباً سليماً ، ولساناً صادقاً ، وأسألك من خير ما تعلم ،وأعوذ بك من شر ما تعلم ، وأستغفرك لما تعلم ، إنك أنت علام الغيوب » (٤).

وفى الترمذى :أن حصين بن خلف الخزاعى رضي الله عنه ،قال له النبى ﷺ :« كم تعبد إلهاً»؟ قال :سبعة :ستة فى الأرض ،وواحد فى السماء .قال:« فأيهم تُعد لرغبتك ورهبتك» ؟ قال: الذى فى السماء . قال : « أما لو أسلمت لعلمتك كلمتين تنفعانك » ، فلما أسلم قال: يا رسول اللّه ،علمنى الكلمتين اللتين وعدتنى ، قال :« قل اللهم ألهمنى رُشدى، وقنى شرّ نفسى » حديث صحيح (٥).

وزاد الحاكم فيه فى « صحيحه »: « اللهم قنى شر نفسى ،واعزم لى على أرشد أمرى، اللهم اغفر لى ما أسررت وما أعلنت وما أخطأت وما تعمدت ، ما علمتُ وما جهلت» وإسناده على شرط « الصحيحين » (٦).

---

(١) الحاكم فى المستدرك (١/ ٤٩٩) فى الدعاء ، باب: ألظوا بياذا الجلال والإكرام ،وقال:«صحيح الإسناد . . . » ، ووافقه الذهبى .

(٢) أبو داود (١٥٢٢) فى الصلاة ، باب: فى الاستغفار ،ولم يعزه صاحب التحفة (٨/ ٤٠٦) للترمذى .

(٣) الحاكم فى المستدرك (١/ ٥٠٣ ، ٥٠٤) فى الدعاء ، باب: اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى ، وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ،ووافقه الذهبى .

(٤) أحمد (٤/ ١٢٣) ،والحاكم فى المستدرك (١/ ٥٠٨) فى الدعاء ، وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه » ، ووافقه الذهبى.

(٥) الترمذى (٣٤٨٣) فى الدعوات ، باب: ٧٠ ، وقال : « غريب » .

(٦) الحاكم فى المستدرك (١/ ٥١٠) فى الدعاء ، باب: دعاء وقاية شر النفس .

وفى « صحيح الحاكم » : عن عائشة قالت : دخل علىّ أبو بكر رضي الله عنه فقال: هل سمعت من رسول اللّه ﷺ دعاء علمنيه ؟ قلت :ما هو ؟ قال: كان عيسى ابن مريم ﷺ يعلمه أصحابه ، قال: « لو كان على أحدكم جبل ذهب ديناً ، فدعا اللّه بذلك لقضاه اللّه عنه: « اللهم فارج الهم ، كاشف الغم ، مُجيب دعوة المضطرين ، رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما ،أنت ترحمنى فارحمنى رحمة تُغنينى بها عن رحمة من سواك» (١).

وفى « صحيحه » أيضاً عن أم سلمة عن النبى ﷺ : هذا ما سأل محمد ربه : «اللهم إنى أسألك خير المسألة ، وخير الدعاء ، وخير النجاح ،وخير العمل ،وخير الثواب ، وخير الحياة،وخير الممات ، وثبتنى ، وثقل موازينى ،وحقق إيمانى ،وارفع درجتى ،وتقبل صلاتى، واغفر خطيئتى،وأسألك الدرجات العلى من الجنة ، اللهم إنى أسألك فواتح الخير وخواتمه وجوامعه ،وأوله وآخره ، وظاهره وباطنه ، والدرجات العلى من الجنة آمين.

اللهم إنى أسألك خير ما آتى ، وخير ما أفعل ، وخير ما بطن، وخير ما ظهر والدرجات العلى من الجنة آمين .

اللهم إنى أسألك أن ترفع ذكرى ،وتضع وزرى ،وتصلح أمرى،وتطهر قلبى ،وتحصن فرجى ، وتنور لى قلبى، وتغفر لى ذنبى ،وأسألك الدرجات العلى من الجنة آمين .

اللهم إنى إسألك أن تبارك لى فى نفسى،وفى سمعى،وفى بصرى ،وفى روحى، وفى خلقى وفى خُلُقى وفى أهلى ،وفى محياى ،وفى مماتى ،وفى عملى ،وتقبل حسناتى ، وأسألك الدرجات العُلى من الجنة آمين» (٢) .

وفى« صحيحه » أيضاً من حديث معاذ قال: أبطأ عنا رسول اللّه ﷺ بصلاة الفجر حتى كادت أن تدركنا الشمس ، ثم خرج ، فصلى بنا فخفف ، ثم انصرف فأقبل علينا بوجهه فقال :« على مكانكم ،أخبركمْ ما أبطأنى عنكم اليوم ؟ إنى صليت فى ليلتى هذه ما شاء اللّه ،ثم ملكتنى عينى فنمت ،فرأيت ربى تبارك وتعالى ، فألهمنى أن قلت: « اللهم إنى أسألك الطيبات ، وفعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحبَّ المساكين ، وأن تتوب علىَّ، وتغفر لى وترحمنى ، وإذا أردت فى خلقك فتنة فنجنى إليك منها غير مفتون ، اللهم وأسألك حبك ، وحب من يُحبك ،وحب عمل يقربنى إلى حبك » ثم أقبل علينا

---

(١) الحاكم فى المستدرك (١/ ٥١٥) فى الدعاء ، باب: دعاء قضاء الدين ، وقال : قد اجتمع البخارى بعبد الله ابن عمر النميرى وهذا حديث صحيح غير أنهما لم يحتجا بالحكم بن عبد عبد الله الأيلى ، ووافقه الذهبى .

(٢) الحاكم فى المستدرك (١/ ٥٢٠) فى الدعاء ، باب: الدعاء الجامع ، وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه »، ووافقه الذهبى .

رسول اللّه ﷺ فقال : « تعلموهن وادرسوهن، فإنهن حق» ورواه الترمذى والطبرانى وابن خزيمة وغيرهم بألفاظ أخر (١).

وفى « صحيح الحاكم » أيضاً : عن ابن عباس قال : كان النبى ﷺ يدعو :« اللهم قنعنى بما رزقتنى ،وبارك لى فيه ، واخلفْ على كل غائبة لى بخير » (٢).

وفيه عن أنس بن مالك : أن رسول اللّه ﷺ كان يقول : « اللهم انفعنى بما علمتنى ، وعلمنى ما ينفعنى ، وارزقنى علماً ينفعنى »(٣).

وفيه أيضاً عن عائشة : أن رسول اللّه ﷺ أمرها أن تدعو بهذا الدعاء:« اللهم إنى أسألك من الخير كله عاجله وآجله ،ما علمت منه وما لم أعلم ، وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم ، وأسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل ، وأعوذ بك من النار ، وما قرب إليها من قول أو عمل وأسألك من خير ما سألك عبدك ورسولك محمد ﷺ ، وأعوذ بك من شر ما استعاذ بك منه عبدك ووسولك محمد ﷺ ، وأسألك ما قضيت لى من أمر أن تجعل عاقبته رشدا » (٤).

وفيه عن أبى هريرة : أن رسول اللّه ﷺ أوصى سلمان الخير فقال له: « إنى أريد أن أمنحك كلمات تسألهن الرحمن ، وترغب إليه فيهن ،وتدعو بهن فى الليل والنهار، قل : اللهم إنى أسألك صحة فى إيمان ،وإيمان فى حسن خُلق، ،ونجاحاً يتبعه فلاح، ورحمة منك وعافية، ومغفرة منك ورضواناً »(٥).

وفيه أيضاً : عن أم سلمة عن النبى ﷺ أنه كان يدعو بهؤلاء الدعوات: « اللهم أنت الأول لا شىء قبلك ، وأنت الآخر لا شىء بعدك ، أعوذ بك من كلّ دابة ناصيتها بيدك، وأعوذ بك من الإثم والكسل ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة الغنى ، ومن فتنة الفقر ، وأعوذ بك من المأثم والمغرم ، اللهم نق قلبى من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من

---

(١) الحاكم فى المستدرك (١/ ٥٢٩) فى الدعاء ، باب: أمر الرب تبارك وتعالى نبيه ﷺ أن يقول : اللهم إنى أسألك الطيبات وترك المنكرات ، والترمذى (٣٢٣٥) فى تفسير القرآن ، باب : ومن سورة ص ، وقال: «حسن صحيح » ، والطبرانى فى الكبير ٢٠/ ١٤١ ، ١٤٢ (٢٩٠) ، وأحمد (٥/ ٢٤٣) .

(٢) الحاكم فى المستدرك (١/ ٥١٠) فى الدعاء ، وقال: « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ، ووافقه الذهبى .

(٣) الحاكم فى المستدرك(١/ ٥١٠) فى الدعاء ، باب: دعاء حصول النفع بالعلم ،وقال : « صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه » ، ووافقه الذهبى .

(٤) الحاكم فى المستدرك (١/ ٥٢١ ، ٥٢٢) فى الدعاء ، باب: الدعاء الجامع الجامع الكامل وقال: « صحيح الإسناد ولم يخرجاه »،ووافقه الذهبى .

(٥) الحاكم فى المستدرك (١/ ٥٢٣) فى الدعاء ، باب : الدعاء الذى علم النبى ﷺ سلمان الخير ، وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » وسكت عن الذهبى .

الدنس، اللهم بعّد بينى وبين خطيئتى كما بعَّدْت بين المشرك والمغرب»(١).

وفى « مسند الإمام أحمد » و « صحيح الحاكم » أيضاً ، عن عمار بن ياسر رضي الله عنه ، أنه صلى صلاة أوجز فيها ، فقيل له فى ذلك، قال : لقد دعوت الله فيها بدعوات سمعتهن من رسول الله ﷺ : « اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق، أحينى ما علمت الحياة خيراً لى ، وتوفنى إذا علمت الوفاة خيراً لى ، اللهم وأسألك خشيتك فى الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الحق فى الغضب والرضا، وأسألك القصد فى الفقر والغنى ، وأسألك نعيماً لا ينفد ، وأسألك قُرة عين لا تنقطع ، وأسألك الرضا بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت ، وأسألك لذة النظر إلى وجهك ، وأسألك الشوق إلى لقائك، من غير ضراء مضرة ، ولا فتنة مضلة ، اللهم زينا بزينة الإيمان ، واجعلنا هداة مهتدين »(٢) .

وفى « صحيح الحاكم » أيضاً : عن ابن مسعود قال: كان من دعاء رسول الله ﷺ: «اللهم إنا نسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك، والسلامة من كل إثم، والغنيمة من كل برّ، والفوز بالجنة ، والنجاة من النار » (٣).

وفيه أيضاً : عن رسول الله ﷺ أنه كان يدعو : « اللهم احفظنى بالإسلام قائماً ، واحفظنى بالإسلام قاعداً، واحفظنى بالإسلام راقداً ، ولا تُشمِّتْ بى عدوا حاسداً ، اللهم إنى أسألك من كل خير خزائنه بيدك، وأعوذ بك من كل شر خزائنه بيدك » (٤).

وعن النواس بن سمعان : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « ما من قلب إلا بين إصبعين من أصابع الرحمن ، إن شاء أقامه، وإن شاء أزاغه »(٥) .

وكان رسول الله ﷺ يقول : « يا مُقلب القلوب ، ثبت قلبى على دينك ، والميزان بيد الرحمن عز وجل، يرفع أقواما ويخفض آخرين إلى يوم القيامة » حديث صحيح رواه الإمام أحمد والحاكم فى « صحيحه »(٦) .

وفى « صحيح الحاكم » أيضاً عن ابن عمر ، أنه لم يكن يجلس مجلساً ـ كان عنده

---

(١) الحاكم فى المستدرك (١/ ٥٢٤) فى الدعاء ، وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ، ووافقه الذهبى .

(٢) أحمد (٤/ ٢٦٤) ، والحاكم فى المستدرك (١/ ٥٢٤ ، ٥٢٥) فى الدعاء ، باب: دعاء عمار بن ياسر رضي الله عنه الذى كان يدعو به فى الصلاة ، وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه »، ووافقه الذهبى .

(٣) الحاكم فى المستدرك (١/ ٥٢٥) فى الدعاء ، وقال: « صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه »، ووافقه الذهبى.

(٤) الحاكم فى المستدرك (١/ ٥٢٥) فى الدعاء ، باب: كان يدعو : اللهم احفظنى بالإسلام قائما ، وقال: « صحيح على شرط البخارى ولم يخرجاه » ، وتعقبه الذهبى وقال: « أبو الصهباء لم يخرج له البخارى » .

(٥ ، ٦) أحمد (٤/ ١٨٢)، والحاكم فى المستدرك (١/ ٥٢٥) فى الدعاء باب: ما من قلب إلا بين أصبعين من أصابع الرحمن ، وقال : « صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه » ، ووافقه الذهبى .

أحد أو لم يكن ـ إلا قال: « اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت، وما أنت أعلم به منى ، اللهم ارزقنى من طاعتك ما تحول به بينى وبين معصيتك ، وارزقنى من خشيتك ما تبلغنى به رحمتك ، وارزقنى من اليقين ما تهون به علىّ مصائب الدنيا، وبارك لى فى سمعى وبصرى ، واجعلهما الوارث منى ، اللهم اجعل ثأرى على من ظلمنى ، وانصرنى على من عادانى ، ولا تجعل الدنيا أكبر همى ، ولا مبلغ علمى، اللهم لا تسلط علىّ من لا يرحمنى ». فسئل عنهن ابن عمر فقال: كان رسول اللّه ﷺ يختم بهن مجلسه (١) (٢).

فصل جامع
فى فتاوى النبى ﷺ فى الذكر والدعاء

سئل ﷺ : أى المجاهدين أعظم أجراً ؟ قال: « أكثرهم ذكراً لله » ، قيل: فأى الصائمين أعظم أجراً ؟ قال: « أكثرهم للّه ذكراً» ، ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة كل ذلك يقول: « أكثرهم للّه ذكراً »، فقال أبو بكر لعمر ﷺ: ذهب الذاكرون بكل خير ، فقال رسول اللّه ﷺ : « أجل» . ذكره أحمد (٣).

وسئل ﷺ عن المفردين الذين هم أهل السبق ، فقال: « الذاكرون للّه كثيراً ، وفى لفظ : « المشتهرون بذكر اللّه ، يضع الذكر عنهم أثقالهم فيأتون يوم القيامة خفافاً » . ذكره الترمذى(٤) .

وسئل ﷺ عن أهل الجنة ، فقال: «حِلَقُ الذكر»(٥).

وسئل ﷺ عن أهل الكرم الذين يقال لهم يوم القيامة : سيعلم أهل الجمع من أهل الكرم ،فقال: « هم أهل الذكر فى المساجد » ذكره أحمد (٦).

وسئل عن غنيمة مجالس الذكر ، فقال: « غنيمة مجالس الذكر : الجنة » . ذكره أحمد (٧).

---

(١) الحاكم فى المستدرك (١/ ٥٢٨) فى الدعاء ، باب: الدعاء الجامع الذى يختم به المجلس ، وقال: « صحيح على شرط البخارى ولم يخرجاه » ، ووافقه الذهبى .

(٢) الوابل الصيب (٣٣١ ـ ٣٣٤) .
(٣) أحمد (٣/ ٤٣٨) .

(٤) الترمذى (٣٥٩٦) فى الدعوات ، باب : فى العفو والعافية ، وقال: « حسن غريب » .

(٥) أحمد (٣/ ١٥٠)
(٦) أحمد (٣/ ٦٨) .

(٧) أحمد (٢/ ١٧٧) .

وسئل ﷺ عن قوم غزوا فقالوا : ما رأينا أفضل غنيمة ، ولا أسرع رجعة منهم ، فقال : « أدلكم على قوم أفضل غنيمة منهم ، وأسرع رجعة ، قوم شهدوا صلاة الصبح، ثم جلسوا يذكرون الله حتى طلعت الشمس، فأولئك أسرع رجعة وأفضل غنيمة » . ذكره الترمذى [١].

وسئل ﷺ عن خيار الناس ،فقال :« الذين إذا رأوا ذكر اللّه ذكروا ».ذكره أحمد[٢].

وسئل ﷺ عن خير الأعمال وأزكاها عند الله وأرفعها فى الدرجات ، فقال: « ذكره اللّه »، ذكره أحمد [٣].

وسئل ﷺ :أى الدعاء أسمع؟ فقال:« جوف الليل الآخر،ودبر الصلوات المكتوبات». ذكره أحمد [٤]، وقال: « الدعاء بين الأذان والإقامة لا يُرد» ، قالوا: فماذا نقول يا رسول اللّه ؟ قال: « سلوا الله العافية فى الدنيا والآخرة » . ذكره الترمذى [٥].

وسئل ﷺ : بأى شىء نختم الدعاء ؟ فقال : « آمين ». ذكره أبو داود .

وسئل ﷺ عن تمام النعمة ،فقال: « الفوز بالجنة والنجاة من النار ».ذكره الترمذى[٦]، فنسأل الله تمام نعمته بالفوز بالجنة والنجاة من النار .

وسئل ﷺ عن الاستعجال المانع من إجابة الدعاء ، فقال: « يقول: قد دعوت ، قد دعوت فلم يُستجب لى، فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء » ، ذكره مسلم [٧]. وفى لفظ : «يقول: قد سألت ، قد سألت فلم أعط شيئاً » .

وسئل ﷺ عن الباقيات الصالحات ، فقال: « التكبيرُ والتهليل والتسبيح والتحميد،ولا حول ولا قوة إلا بالله» . ذكره أحمد [٨].

وسأله ﷺ الصديقُ رضي الله عنه أن يُعلمه دعاء يدعو به فى صلاته ، فقال: « قل: اللهم

---

(١) الترمذى (٣٥٦١) فى الدعوات ،باب: (١٠٩) ، وقال: « غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه » .
(٢) أحمد (٤/ ٢٢٧) .
(٣) أحمد (٥/ ٢٣٩) .
(٤) أحمد (٤/ ٣٨٥ ، ٣٨٧)
(٥) الترمذى (٣٥٩٤) فى الدعوات ، باب : فى العفو والعافية ، وقال: « حسن ».
(٦) الترمذى (٣٥٢٧) فى الدعوات ، باب: (٩٤) ، وقال: « حسن ».
(٧) مسلم (٢٧٣٥/ ٩٢) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: بيان أنه يستجاب للداعى ما لم يعجل فيقول: دعوت فلم يستجب لى .
(٨) أحمد (٣/ ٧٥) .

إنى ظلمت نفسى ظلما كثيرا ، وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى ،إنك أنت الغفور الرحيم » . متفق عليه (١).

وسأله ﷺ الأعرابىُّ الذى علمه أن يقول: « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، الله أكبر كبيراً ، والحمد لله كثيراً ، وسبحان الله رب العالمين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم ».فقال : هذا لربى فما لى ؟ فقال: « قل اللهم اغفر لى وارحمنى ، واهدنى وارزقنى وعافنى ؛ فإن هؤلاء تجمع لك دنياك وآخرتك ». ذكره مسلم(٢) .

وسئل ﷺ عن رياض الجنة ، فقال: « المساجد »، فسئل ﷺ عن الرَّتع فيها ، فقال: «سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله، والله أكبر ». ذكره الترمذى (٣).

واستفتاه ﷺ رجلٌ فقال: لا أستطيع أن آخذ من القرآن شيئاً فعلمنى ما يجزينى ، قال: « قل :سبحان الله ،والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ». قال: يا رسول الله،هذا لله ،فما لى؟ قال :« قل: اللهم ارحمنى وعافنى ، واهدنى وارزقنى »، فقال: هكذا بيده وقبضها، فقال رسول الله ﷺ : « أما هذا فقد ملأ يده من الخير». ذكره أبو داود (٤).

ومرّ ﷺ بأبى هُريرة وهو يغرس غرْساً ، فقال: « ألا أدلك على غِراس خير لك من هذا؟سبحان الله ،والحمد لله ، ولا إله إلا الله،والله أكبر ، يغرس لك بكل واحدة شجرة فى الجنة » .ذكره ابن ماجه (٥).

وسئل ﷺ : كيف يكسب أحدُنا كل يوم ألف حسنة ؟ قال: « يسبح مائة تسبيحة، يكتب له ألف حسنة أو يحط عنه خطيئة ». ذكره مسلم (٦).

وأفتى ﷺ من قال له : لدغتنى عقرب ، بأنه لو قال حين أمسى: « أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ، لم تضره » . ذكره مسلم (٧).

وسأله ﷺ رجلٌ أن يعلمه تعوذا يتعوذ به ،فقال:« اللهم إنى أعوذ بك من شر

---

(١) البخارى (٨٣٤) فى الأذان ، باب: الدعاء قبل السلام ، ومسلم (٢٧٠٥ / ٤٨) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب : استحباب خفض الصوت بالذكر .

(٢) مسلم (٢٦٩٦/ ٣٣) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: فضل التهليل والتسبيح والدعاء .

(٣) الترمذى (٣٥٠٩) فى الدعوات ، باب: (٨٣) ، وقال : « حسن غريب » .

(٤) أبو داود (٨٣٢) فى الصلاة ، باب : ما يجزئ الأمى والأعجمى من القراءة .

(٥) ابن ماجه (٣٨٠٧) فى الأدب ، باب: فضل التسبيح ، وفى الزوائد : « إسناده حسن » .

(٦) مسلم (٢٦٩٨ / ٣٧) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: فضل التهليل والتسبيح والدعاء .

(٧) مسلم (٢٧٠٩) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: فى التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره .

سمعى، وشر بصرى ، وشر لسانى ، وشر قلبى ، وشر هَنى » يعنى : الفرج . ذكره النسائى(١).

وسئل ﷺ عن كيفية الصلاة عليه. فقال: « قولوا : اللهم صلّ على محمد، وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ؛ إنك حميد مجيد ، وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد » . متفق عليه(٢) (٣).

---

(١) النسائى (٥٤٨٤) فى الاستعاذة ، باب: الاستعاذة من شر الذكر .

(٢) البخارى (٣٣٧٠) فى الأنبياء، باب: حديث أبى ذر : أى مسجد وضع فى الأرض أول ، ومسلم (٤٠٦/٦٦) فى الصلاة ، باب: الصلاة على النبى ﷺ بعد التشهد .

(٣) إعلام الموقعين (٤/ ٣٨٦ ـ ٣٨٩) .

كتاب

اللباس والزينة



فصل
فى هديه ﷺ فى اللباس

كان له ﷺ ثلاث جباب يلبسها فى الحرب .قيل فيها: جبة سندس أخضر ، والمعروف أن عروة بن الزبير كان له يلمق من ديباج ، بطانته سندس أخضر ،يلبسه فى الحرب ، والإمام أحمد فى إحدى روايتيه يجوز لبس الحرير فى الحرب (١).

ولبس حلة حمراء ، والحلة :إزار ورداء ولا تكون الحلة إلا اسماً للثوبين معاً ،وغلط من ظن أنها كانت حمراء بحتًا لا يخالطها غيره ،وإنما الحلة الحمراء :بردان يمانيان منسوجان بخطوط حمر مع الأسود كسائر البرود اليمنية ، وهى معروفة بهذا الاسم باعتبار ما فيها من الخطوط الحمر ، وإلا فالأحمر البحت منهى عنه أشد النهى،ففى « صحيح البخارى » :أن النبى ﷺ نهى عن المياثر الحمر(٢)،وفى « سنن أبى داود » عن عبد الله بن عمرو أن النبى ﷺ رأى عليه ريطة مضرجة بالعصفر ،فقال:« ما هذه الريطة التى عليك؟» فعرفت ما كره فأتيت أهلى وهم يسجرون تنور لهم فقذفتها فيه ،ثم أتيته من الغد فقال:« يا عبد الله ،ما فعلت الريطة؟» فأخبرته ،فقال:« هلا كسوتها بعض أهلك،فإنه لابأس بها للنساء» (٣) ،وفى « صحيح مسلم » عنه أيضاً قال:رأى النبى ﷺ علىَّ ثوبين معصفرين فقال:« إن هذه من لباس الكفار فلاتلبسها » (٤)،وفى « صحيحه » أيضاً عن على رضي الله عنه قال:نهى النبى ﷺ عن لباس المعصفر (٥)،ومعلوم أن ذلك إنما يصبغ صبغاً أحمر.

وفى بعض « السنن » أنهم كانوا مع النبى ﷺ فى سفر ، فرأى على رواحلهم أكسية فيها خطوط حمراء ، فقال:« ألا أرى هذه الحمرة قد علتكم !» فقمنا سراعاً لقول رسول الله ﷺ حتى نفر بعض إبلنا ، فأخذنا الأكسية فنزعناها عنها . رواه أبو داود (٦).

وفى جواز لبس الأحمر من الثياب والجوخ وغيرها نظر ،وأما كراهته فشديدة جداً، فكيف يظن بالنبى ﷺ أنه لبس الأحمر القانى ؟! كلا ، لقد أعاذه الله منه ، وإنما وقعت

---

(١) زاد المعاد (١/ ١٣١).
(٢) البخارى (٥٨٤٩) فى اللباس ، باب :الميثرة الحمراء.
(٣) أبو داود (٤٠٦٦) فى اللباس ، باب : فى الحمرة.
(٤) مسلم (٢٠٧٧/ ٢٧) فى اللباس والزينة ، باب : النهى عن لبس الرجل الثوب المعصفر.
(٥) مسلم (٢٠٧٨/ ٢٩) فى اللباس والزينة ، باب : النهى عن لبس الرجل الثوب المعصفر.
(٦) أبو داود (٤٠٧٠) فى اللباس ، باب:فى الحمرة ، وضعفه الألبانى .

الشبهة من لفظ الحلة الحمراء ، والله أعلم[1] .

واشترى سراويل ، والظاهر أنه انما اشتراها ليلبسها ،وقد روى فى غير حديث أنه لبس السراويل ، وكانوا يلبسون السراويلات بإذنه ، ولبس الخفين ،ولبس النعل الذى يسمى التاسومة،ولبس الخاتم ، واختلفت الأحاديث هل كان فى يمينه أو يسراه؟ وكلها صحيحة السند .ولبس البيضة التى تسمى:الخوذة ، ولبس الدرع التى تسمى:الزودية،وظاهر يوم أحد بين الدرعين[2].وكان قميصه من قطن،وكان قصير الطول قصير الكمين ، وأما هذه الأكمام الواسعة الطوال التى هى كالأخراج ، فلم يلبسها هو ولا أحد من أصحابه البتة ، وهى مخالفة لسنته ،وفى جوازها نظر ؛فإنها من جنس الخيلاء [3].ولبس ﷺ خاتما من ذهب ثم رمى به ، ونهى عن التختم بالذهب ، ثم اتخذ خاتماً من فضة ولم ينه عنه[4]،وأما حديث أبى داود أن النبىﷺ نهى عن أشياء ، وذكر منها:ونهى عن لبوس الخاتم ، إلا لذى سلطان . فلا أدرى ماحال الحديث ولا وجهه ،والله أعلم.

وكان يجعل فص خاتمه مما يلى باطن كفه ، وذكر الترمذى أنه كان إذا دخل الخلاء نزع خاتمه ، وصححه ،وأنكره أبو داود [5] [6].

وكانت مخدته ﷺ من أدم حشوها ليف،فالذين يمتنعون عما أباح الله من الملابس والمطاعم والمناكح تزهداً وتعبداً بإزائهم طائفة قابلوهم فلا يلبسون إلا أشرف الثياب ،ولا يأكلون إلا أطيب الطعام .فلا يرون لبس الخشن ولا أكله تكبراً وتجبراً ،وكلا الطائفتين هديه مخالف لهدى النبى ﷺ؛ولهذا قال بعض السلف:كانوا يكرهون الشهرتين من الثياب: العالى والمنخفض.

وفى « السنن » عن ابن عمر يرفعه إلى النبى ﷺ:« من لبس ثوب شهرة ألبسه الله يوم القيامة ثوب مذلة ثم تلهب فيه النار » [7] ؛ وهذا لأنه قصد به الاختيال والفخر فعاقبه الله بنقيض ذلك فأذله ، كما عاقب من أطال ثيابه خيلاء بأن خسف به الأرض فهو يتجلجل فيها

---

(١) زاد المعاد (١/ ١٣٧ ـ ١٣٩).

(٢) زاد المعاد (١/ ١٣٩ـ١٤٠).

(٣) زاد المعاد (١/ ١٤٠).

(٤) أبو داود (٤٢١٨) فى الخاتم ،باب:ما جاء فى اتخاذ الخاتم.

(٥) الترمذى (١٧٤٦) فى اللباس،باب :ماجاء فى لبس الخاتم فى اليمين ،وقال:« هذا حديث حسن غريب » ، وضعفه الألبانى ،وأبو داود (١٩) فى الطهارة،باب:الخاتم يكون فيه ذكر الله يدخل به الخلاء ،وضعفه الألبانى.

(٦) زاد المعاد (١/ ١٤١).

(٧) أبو داود (٤٠٢٩) فى اللباس،باب :فى لبس الشهرة،وابن ماجه (٣٦٠٧) فى اللباس،باب:من لبس شهرة من الثياب ،وأحمد (٢/ ١٣٩).

إلى يوم القيامة ،وفى « الصحيحين » عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ: « من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة » (١)،وفى « السنن » عنه أيضاً ﷺ قال: « الإسبال فى الإزار والقميص والعمامة من جر شيئاً منها خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة» (٢)،وفى « السنن » عن ابن عمر أيضاً قال: ما قال رسول الله ﷺ فى الإزار فهو فى القميص(٣) .

فصل
فيما يمدح ويذم من اللباس

لبس الدنىء من الثياب يذم فى موضع ، ويحمد فى موضع ، فيذم إذا كان شهرة وخيلاء ، ويمدح إذا كان تواضعاً واستكانة ،كما أن لبس الرفيع من الثياب يذم إذا كان تكبراً وفخرًا وخيلاء ، ويمدح إذا كان تجملاً وإظهارًا لنعمة الله،ففى « صحيح مسلم » عن ابن مسعود قال:قال رسول اللهﷺ:« لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة خردل من كبر،ولا يدخل النار من كان فى قلبه مثقال حبة خردل من إيمان » ، فقال رجل:يا رسول الله،إنى أحب أن يكون ثوبى حسناً ونعلى حسنة ، أفمن الكبر ذاك ؟فقال:« لا،إن الله جميل يحب الجمال ،الكبر:بطر الحق،وغمط الناس » (٤) (٥) .

فصل
فى أنواع الملابس وخواصها

الملابس ثلاثة أقسام:قسم يسخن البدن ويدفئه،وقسم يدفئه ولا يسخنه،وقسم لا يسخنه ولا يدفئه . وليس هناك ما يسخنه ولا يدفئه ، إذ ما يسخنه فهو أولى بتدفئته ، فملابس الأوبار والأصواف تسخن وتدفئ ، وملابس الكتان والحرير والقطن تدفئ ولا تسخن ؛

---

(١) البخارى (٥٧٩١) فى اللباس ،باب:من جر ثوبه من الخيلاء ، ومسلم (٢٠٨٥/٤٤) فى اللباس والزينة ، باب : تحريم جر الثوب خيلاء . . . إلخ.

(٢) أبو داود (٤٠٩٤) فى اللباس ، باب:فى قدر موضع الإزار ، وابن ماجه (٣٥٧٦) فى اللباس ، باب:طول القميص كم هو؟

(٣) أبو داود (٤٠٩٥) فى اللباس ،باب:فى قدر موضع الإزار ، وأحمد (٢/ ١١٠ ، ١٣٧) ، والحديث رواه البخارى (٥٧٩١) فى اللباس ، باب : من جر ثوبه من الخيلاء.

(٤) مسلم (١٤٧/٩١) فى الإيمان ، باب: تحريم الكبر وبيانه.

(٥) زاد المعاد (١/ ١٤٦ ، ١٤٧).

فثياب الكتان باردة يابسة ، وثياب الصوف حارة يابسة ، وثياب القطن معتدلة الحرارة ، وثياب الحرير ألين من القطن وأقل حرارة منه (١).

فصل
فى تأثير الثياب على القلب

بين الثياب والقلوب مناسبة ظاهرة وباطنة ؛ولذلك تدل ثياب المرء فى المنام على قلبه وحاله ،ويؤثر كل منهما فى الآخر؛ولهذا نهى عن لباس الحرير والذهب وجلود السباع ؛ لما تؤثر فى القلب من الهيئة المنافية للعبودية والخشوع.

وتأثير القلب والنفس فى الثياب أمر خفى، يعرفه أهل البصائر ، من نظافتها ودنسها ، ورائحتها ، وبهجتها وكسفتها ،حتى إن ثوب البَرِّ ليعرف من ثوب الفاجر وليسا عليهما (٢).

فصل
فى إباحة الحرير للنساء وتحريمه على الرجال إلا لحاجة

الذى استقرت عليه سنته ﷺ إباحة الحرير للنساء مطلقًا ،وتحريمه على الرجال إلا لحاجة ومصلحة راجحة ، فالحاجة إما من شدة البرد ولا يجد غيره أو لا يجد سترة سواه . ومنها : لباسه للجرب والمرض والحكة وكثرة القمل ، كما دل عليه حديث أنس هذا الصحيح (٣).

والجواز : أصح الروايتين عن الإمام أحمد ، وأصح قولى الشافعى ، إذ الأصل عدم التخصيص،والرخصة إذا ثبتت فى حق بعض الأمة لمعنى ، تعدت إلى كل من وجد فيه ذلك المعنى ؛ إذ الحكم يعم بعموم سببه.

ومن منع منه،قال:أحاديث التحريم عامة ، وأحاديث الرخصة يحتمل اختصاصها

---

(١) زاد المعاد (٤/ ٧٩).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٢١).

(٣) البخارى (٢٩١٩ ـ ٢٩٢٢) فى الجهاد ، باب :الحرير فى الحرب ، ومسلم (٢٠٧٦/ ٢٥، ٢٦) فى اللباس والزينة، باب:إباحة لبس الحرير للرجل إذا كان به حكة أو نحوها.

بعبد الرحمن بن عوف والزبير ، ويحتمل تعديها إلى غيرهما. وإذا احتمل الأمران كان الأخذ بالعموم أولى؛ ولهذا قال بعض الرواة فى هذا الحديث : فلا أدرى أبلغت الرخصة مَنْ بعدهما أم لا ؟

والصحيح : عموم الرخصة؛ فإنه عرف خطاب الشرع فى ذلك ما لم يصرح بالتخصيص ، وعدم إلحاق غير من رخص له أولى به ، كقوله لأبى بردة فى تضحيته بالجذعة من المعز : « تجزيك ولن تجزى عن أحد بعدك » (١)، وكقوله تعالى لنبيه ﷺ فى نكاح من وهبت نفسها له: ﴿ خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأحزاب: ٥٠] .

وتحريم الحرير: إنما كان سدًا للذريعة ؛ ولهذا أبيح للنساء ، وللحاجة ، والمصلحة الراجحة، وهذه قاعدة ماحرم لسد الذرائع ، فإنه يباح عند الحاجة والمصلحة الراجحة ، كما حرم النظر سدًا لذريعة الفعل ، وأبيح منه ما تدعو إليه الحاجة والمصلحة الراجحة وكما حرم التنفل بالصلاة فى أوقات النهى ؛ سدًا لذريعة المشابهة الصورية بعباد الشمس ، وأبيحت للمصلحة الراجحة. وكما حرم ربا الفضل سداً لذريعة ربا النسيئة ، وأبيح منه ما تدعو إليه الحاجة من العرايا. وقد أشبعنا الكلام فيما يحل ويحرم من لباس الحرير فى كتاب « التحبير لما يحل ويحرم من لباس الحرير » (٢) .

وأيضا

سئل ابن عقيل: هل يجوز أن يتخذ النساء السفر والمطارح والمخاد وغير ذلك حريرا ؟ فقال: لا بل ملابس فقط (٣) .

فصل

فى النهى عن الذهب والحرير للصبيان

قال أبو حنيفة وصاحباه : يكره أن يُلبس الذكر من الصبيان الذهب والحرير، وقد صرح الأصحاب أنه حرام ، وقالوا: إن التحريم لما ثبت فى حق الذكور ، وتحريم اللبس يحرم الإلباس ، كالخمر لما حرم شربها حرم سقيها، وكذلك قالوا: يكره منديل الحرير الذى يتمخط

(١) أحمد (٤/ ٣٠٣) .

(٢) زاد المعاد (٤/ ٧٧).

(٣) بدائع الفوائد (٤/ ٤٢).

فيه ويتمسح من الوضوء ، ومرادهم :التحريم [١] .

وأيضا

والجمال منه ما يحبه الله ومنه ما يبغضه ،فإن الله يبغض التجمل بلباس الحرير والذهب ،ويبغض التجمل بلباس الخيلاء وإن كان ذلك جمالاً ، فالجمال ثلاثة أنواع : جمال خال عن معارضة مفسدة فهذا يحبه الله ، وجمال مشتمل على مفسدة مبغوضة لله فهذا يكرهه الله [٢].

فصل
فى نسخ تحريم الذهب على النساء

عن أسماء بنت يزيد ،أن رسول الله ﷺ قال:« أيما امرأة تقلدت قلادة من ذهب قلدت فى عنقها مثلها من النار يوم القيامة ،وأيما امرأة جعلت فى أذنها خرصاً من ذهب جعل فى أذنها مثله من النار يوم القيامة » [٣] . وأخرجه النسائى [٤] .

والخرص:الحلقة.وحمله بعضهم على أنه قال ذلك فى الزمان الأول،ثم نسخ وأبيح للنساء التحلى بالذهب،لقوله ﷺ:« هذان حرام على ذكور أمتى ،حل لإناثها » [٥] .

وقيل:هذا الوعيد فيمن لايؤدى زكاة الذهب،دون من أداها.والله عز وجل أعلم.

قال ابن القطان:وعلة هذا الخبر أن محمود بن عمرو ـ راويه عن أسماء ـ مجهول الحال،وإن كان قد روى عنه جماعة.

وروى النسائى عن أبى هريرة قال: كنت قاعداً عند النبى ﷺ،فأتته امرأة فقالت:يارسول الله،سواران من ذهب؟ قال : « سواران من نار»،قالت:طوق من ذهب؟ قال:« طوق من نار »، قالت:قرطان من ذهب؟قال:« قرطان من نار ».قال:وكان عليها

---

(١) إعلام الموقعين (١/٤٣).

(٢) الكلام على مسألة السماع (٣٧٣).

(٣) أحمد (٦/ ٤٦١).

(٤) النسائى (٥١٣٩) فى الزينة ،باب:الكراهية للنساء فى إظهار الحلى والذهب،وضعفه الألبانى.

(٥) البيهقى فى الكبرى (٢/ ٤٢٥) فى الصلاة ،باب:الرخصة فى الحرير والذهب للنساء ،موارد الظمآن (١٤٦٥)فى اللباس ، باب:ما جاء فى الحرير والذهب وغير ذلك.

سواران من ذهب فرمت بها ، فقالت: يارسول الله، إن المرأة إذا لم تتزين لزوجها صلفت عنده. فقال: « مايمنع إحداكن أن تصنع قرطين من فضة ، ثم تصفره بزعفران أو بعبير» (١) .

قال ابن القطان: وعلته أن أبا زيد راويه عن أبى هريرة مجهول، ولا نعرف روى عنه غير أبى الجهم. ولا يصح هذا.

وفى النسائى أيضًا عن ثوبان قال: جاءت بنت هبيرة إلى رسول الله ﷺ وفى يدها فتخ. فقال : كذا ، وفى كتاب : أى : خواتيم ضخام . فجعل رسول الله ﷺ يضرب يدها. فدخلت على فاطمة بنت رسول الله ﷺ تشكو إليها الذى صنع بها رسول الله ﷺ. فانتزعت فاطمة سلسلة فى عنقها من ذهب. قالت: هذه أهداها إلى أبو حسن. فدخل رسول الله ﷺ والسلسة فى يدها. قال: « يا فاطمة أيغرك أن يقول الناس: ابنة رسول الله ﷺ وفى يدها سلسلة من نار؟» ثم خرج ،ولم يعقد . فأرسلت فاطمة بالسلسلة إلى السوق فباعتها ، واشترت بثمنها غلاماً ـ وقال مرة: عبداً ـ وذكر كلمة معناها : فأعتقته ، فحدث بذلك ، فقال : « الحمد لله الذى أنجى فاطمة من النار» (٢) .

قال ابن القطان: وعلته أن الناس قد قالوا: إن رواية يحيى بن أبى كثير عن أبى سلام الرحبى منقطعة ،على أن يحيى قد قال: حدثنى أبو سلام، وقد قيل: إنه دلس ذلك، ولعله كان أجازه زيد بن سلام فجعل يقول: حدثنا زيد .

وفى النسائى أيضا عن عقبة بن عامر: أن النبى ﷺ كان يمنع أهله الحلية والحرير ، ويقول: « إن كنتم تحبون حلية الجنة وحريرها فلا تلبسوها فى الدنيا » (٣) ، فاختلف الناس فى هذه الأحاديث وأشكلت عليهم .

فطائفة: سلكت بها مسلك التضعيف ، وعللتها كلها.

وطائفة: ادعت أن ذلك كان أول الإسلام ثم نسخ، واحتجت بحديث أبى موسى عن النبى ﷺ قال : « أحل الذهب والحرير للإناث من أمتى، وحرم على ذكورها » ، قال الترمذى : حديث صحيح (٤) .

---

(١) النسائى (٥١٤٢) فى الزينة ، باب :الكراهية للنساء فى إظهار الحلى والذهب ، وضعفه الألبانى.

(٢) النسائى (٥١٤٠) فى الزينة ، باب: الكراهية للنساء فى إظهار الحلى والذهب.

(٣) النسائى (٥١٣٦) فى الزينة ، باب: الكراهية للنساء فى إظهار الحلى والذهب.

(٤) الترمذى (١٧٢٠) فى اللباس ، باب: ما جاء فى الحرير والذهب .

ورواه ابن ماجه فى سننه من حديث على [١]،وعبد الله بن عمر [٢] ،عن النبى ﷺ.

وطائفة: حملت أحاديث الوعيد على من لم يؤد زكاة حليها، فأما من أدته فلا يلحقها هذا الوعيد.

واحتجوا بحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن امرأة من اليمن أتت رسول الله ﷺ ،ومعها ابنة لها،وفى يد ابنتها مسكتان غليظتان من ذهب ، فقال لها: « أتؤدين زكاة هذا ؟ » قالت: لا ،قال: « أيسرك أن يسورك الله بهما يوم القيامة سوارين من نار؟» قال: فخلعتهما فألقتهما إلى النبى ﷺ ،وقالت: هما لله ولرسوله [٣] .

وبما روى أبو داود عن أم سلمة قالت: كنت ألبس أوضاحاً من ذهب. فقلت: يا رسول الله،أكنز هو ؟ فقال: « ما بلغ أن تؤدى زكاته فزكى ،فليس بكنز » [٤] ،وهذا من أفراد ثابت ابن عجلان ،والذى قبله من أفراد عمرو بن شعيب . وطائفة من أهل الحديث حملت أحاديث الوعيد على من أظهرت حليتها وتبرجت بها ، دون من تزينت بها لزوجها .

قال النسائى فى سننه ـ وقد ترجم على ذلك: الكراهة للنساء فى إظهار الحلى والذهب ، ثم ساق أحاديث الوعيد. والله أعلم.

ثم حديث ميمون فيه: «وعن لبس الذهب إلا مقطعاً »[٥] ففيه الانقطاع فى موضعين ، وقد رواه النسائى من حديث أبى البيهس بن فهدان،عن أبى شيخ الهنائى،عن معاوية .وقد تقدم الكلام على هذا الإسناد فى الحج[٦] ،ورواه عن أبى شيخ، عن أبى حمان أنه سمع معاوية [٧] ،ورواه النسائى أيضاً من حديث بيهس بن فهدان: أنا أبو شيخ ،قال: سمعت ابن عمر قال: نهى رسول الله ﷺ عن لبس الذهب إلا مقطعاً [٨].

وقد روى فى حديث آخر احتج به أحمد فى رواية الأثرم: « من تحلى بخريصة كوى بها يوم القيامة »: فقال الأثرم: فقلت :أى شىء خريصة؟قال: شىء صغير مثل الشعيرة ، وقال غيره: من عين الجرادة.

---

(١) ابن ماجه (٣٥٩٥) فى اللباس ، باب: لبس الحرير والذهب للنساء.

(٢) ابن ماجه (٣٥٩٧) فى اللباس ، باب: لبس الحرير والذهب للنساء.

(٣) أبو داود (١٥٦٣) فى الزكاة ،باب: الكنز ما هو ؟ وزكاة الحلى،والنسائى (٢٤٧٩) فى الزكاة ، باب: زكاة الحلى.

(٤) أبو داود (١٥٦٤) فى الزكاة، باب: الكنز ما هو ؟ وزكاة الحلى،وضعفه الألبانى.

(٥) أبو داود (٤٢٣٩) فى الخاتم ، باب: ما جاء فى الذهب للنساء ، والنسائى (٥١٥٠) فى الزينة ، باب: تحريم الذهب على الرجال.

(٦) النسائى (٥١٥٩) فى الزينة ، باب : تحريم الذهب على الرجال.

(٧) النسائى (٥١٥٣) فى الزينة ، باب : تحريم الذهب على الرجال.

(٨) النسائى (٥١٦٠) فى الزينة ، باب: تحريم الذهب على الرجال.

وسمعت شيخ الاسلام يقول: حديث معاوية فى إباحة الذهب مقطعاً: هو فى التابع غير المفرد ، كالزر والعلم ونحوه ، وحديث الخريصة : هو فى الفرد ، كالخاتم وغيره .فلا تعارض بينهما . والله أعلم [(١)] .

فصل
فى النهى عن الجلوس على فراش الحرير

المثال الثامن والأربعون [(٢)] : رد السنة الصحيحة الصريحة المحكمة فى النهى عن الجلوس على فراش الحرير ،كما فى صحيح البخارى من حديث حذيفة: نهانا رسول الله ﷺ أن نشرب فى آنية الذهب والفضة،وأن نأكل فيها ،وعن الحرير والديباج ،وأن نجلس عليه، وقال: «هو لهم فى الدنيا ،ولنا فى الآخرة »[(٣)].ولو لم يأت هذا النص لكان النهى عن لبسه متناولا لافتراشه ،كما هو متناول للالتحاف به،وذلك لبس؛ لغةً وشرعاً ،كما قال أنس: قمت إلى حصير لنا قد اسود من طول ما لبس ،ولو لم يأت اللفظ العام المتناول لافتراشه بالنهى لكان القياس المحض موجباً لتحريمه ،إما قياس المثل أو قياس الأولى ،فقد دل على تحريم الافتراش النص الخاص ، واللفظ العام ،والقياس الصحيح ، ولا يجوز رد ذلك كله بالمتشابه من قوله : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة : ٢٩] .

ومن القياس على ما إذا كان الحرير بطانة الفراش دون ظهارته ،فإن الحكم فى ذلك التحريم على أصح القولين ، والفرق على القول الآخر مباشرة الحرير وعدمها ، كحشو الفراش به ، فإن صح الفرق بطل القياس ،وإن بطل الفرق منع الحكم.

وقد تمسك بعموم النهى عن افتراش الحرير طائفة من الفقهاء ، فحرموه على الرجال والنساء ، وهذه طريقة الخراسانيين من أصحاب الشافعى ،حرم عليه وقابلهم من أباحه للنوعين .

والصواب : التفصيل ، وأن من أبيح له لبسه أبيح له افتراشه،ومن حرم عليه حرم عليه، وهذا قول الأكثرين ،وهى طريقة العراقيين من الشافعية [(٤)] .

---

(١) تهذيب السنن (٦/ ١٢٥ ـ ١٢٨).

(٢) من أمثلة المحتجين بظاهر القرآن فى معارضة السنن .

(٣) البخارى (٥٨٣٧) فى اللباس ، باب :افتراش الحرير .

(٤) إعلام الموقعين (٢/ ٣٨٩، ٣٩٠).

فصل
فى إباحة خاتم الفضة

ثبت أن رسول الله ﷺ كان خاتمه من الفضة وفصّه منه، وكانت قبيعة سيفه فضة،ولم يصح عنه فى المنع من لباس الفضة والتحلى بها البتة ، كما صح عنه المنع من الشرب فى آنيتها ،وباب الآنية أضيق من باب اللباس والتحلى ؛ولهذا يباح للنساء لباسًا وحلية ما يحرم عليهن استعماله آنية ، فلا يلزم من تحريم الآنية تحريم اللباس والحلية.

وفى « السنن » عنه:« وأما الفضة فالعبوا بها لعباً » (١) ، فالمنع يحتاج إلى دليل يبينه ، إما نص أو إجماع ، فإن ثبت أحدهما وإلا ففى القلب من تحريم ذلك على الرجال شىء ، والنبى ﷺ أمسك بيده ذهبًا وبالأخرى حريرًا، وقال :« هذان حرام على ذكور أمتى، حل لإناثهم » (٢) ،والفضة سر من أسرار الله فى الأرض وطلسم الحاجات ،وإحسان أهل الدنيا بينهم ، وصاحبها مرموق بالعيون بينهم ، معظم فى النفوس ،مصدَّر فى المجالس ،لا تغلق دونه الأبواب ، ولا تمل مجالسته ولا معاشرته ، ولا يستثقل مكانه ، تشير الأصابع إليه وتعقد العيون نطاقها عليه ،إن قال سمع قوله ،وإن شفع قبلت شفاعته ،وإن شهد زكيت شهادته ، وإن خطب فكفء لا يعاب ،وإن كان ذا شيبة بيضاء فهى أجمل عليه من حلية الشباب (٣) .

فصل
فى النهى عن اتخاذ المكحلة والمرود من الفضة

قال (٤) فى رواية جعفر بن محمد النسائى: لا يعجبنى المكحلة والمرود ؛يعنى من الفضة. وقد صرح بالتحريم فى عدة مواضع،وهو مذهبه بلا خلاف (٥) .

---

(١) أبو داود (٤٢٣٦) فى الخاتم ، باب:ما جاء فى الذهب للنساء، وأحمد (٢/ ٣٣٤ ، ٣٧٨).

(٢) سبق تخريجه ص٤٠٤ .

(٣) زاد المعاد (٤/ ٣٤٩، ٣٥٠).

(٤) أى : الإمام أحمد رحمه الله .

(٥) إعلام الموقعين (١/ ٤٢).

فصل
فيما جاء فى ترك الخاتم

عن إبراهيم بن سعد ،عن ابن شهاب ، عن أنس ﷺ : أنه رأى فى يد النبى ﷺ خاتما من ورق يوماً واحداً ،فصنع الناس فلبسوا ، وطرح النبى ﷺ فطرح الناس (١). وأخرجه البخارى ومسلم والنسائى (٢) .

وقال أبو داود: رواه عن الزهرى زياد بن سعد، وشعيب ،وابن مسافر، كلهم قال: « من ورق »، هذا آخر كلامه.

وهؤلاء الذين ذكرهم أبو داود قد أشار إليهم البخارى فى صحيحه.

وقد أخرج البخارى ومسلم من حديث يونس بن يزيد عن الزهرى ، وفيه : « من ورق » (٣) فهؤلاء خمسة من ثقات أصحاب الزهرى. رووه عنه كذلك.

وقد قيل: إن هذا عند جميع أصحاب الحديث وَهْمٌ من ابن شهاب: « من خاتم الذهب».

ويدل على وهم ابن شهاب: ما رواه البخارى فى صحيحه من حديث عبيد الله عن نافع عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ اتخذ خاتماً من ذهب ، فجعل فصه مما يلى كفه، فاتخذه الناس ، فرمى به واتخذ خاتماً من ورق أو فضة (٤) .

فهذا يدل على أن الذى طرحه النبى ﷺ: هو خاتم الذهب، ويدل على أن خاتم الفضة استمر فى يده ولم يطرحه ،ولبسه بعده أبو بكر وعمر وعثمان صدراً من خلافته .

وقال النسائى: أخبرنا محمد بن معمر، حدثنا أبو عاصم، عن المغيرة بن زياد ، حدثنا نافع عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ لبس خاتماً من ذهب ثلاثة أيام ، فلما رآه أصحابه فشت خواتيم الذهب، فرمى به ،فلا يدرى مافعل ! ثم أمر بخاتم من فضة ، فأمر أن ينقش فيه: « محمد رسول الله »، وكان فى يد رسول الله ﷺ حتى مات، وفى يد أبى بكر حتى

---

(١) أبو داود (٤٢٢١) فى الخاتم ، باب: ماجاء فى ترك الخاتم.

(٢) الفتح (١٠/٣١٨) فى اللباس ، باب : (٤٧) ،ومسلم (٢٠٩٣/٥٩) فى اللباس والزينة ، باب : فى طرح الخواتم ، والنسائى (٥٢٩١) فى الزينة ، باب: طرح الخاتم وترك لبسه.

(٣) البخارى (٥٨٦٨) فى اللباس ، باب: خاتم الذهب ، ومسلم (٢٠٩٤/ ٦١) فى اللباس والزينة ، باب: فى خاتم الورق فصّه حبش.

(٤) البخارى (٥٨٦٥) فى اللباس ، باب : خاتم الفضة.

مات ،وفى يد عمر حتى مات ،وفى يد عثمان ست سنين من عمله ،فلما كذب عليه دفعه إلى رجل من الأنصار فكان يختم به ، فخرج الأنصارى إلى قليب لعثمان ، فسقط ، فالتمس ، فلم يوجد ، فأمر بخاتم مثله ونقش فيه : « محمد رسول الله » (١) .

وفى الصحيحين من حديث الليث عن نافع عن عبد الله: أن رسول الله ﷺ اصطنع خاتمًا من ذهب ،وكان يجعل فصه فى باطن كفه إذا لبسه ، فصنع الناس ، ثم إنه جلس على المنبر فنزعه ، وقال: « إنى كنت ألبس هذا الخاتم وأجعل فصه من داخل »،فرمى به ، وقال: « والله لا ألبسه أبدًا » ، فنبذ الناس خواتيمهم (٢) . فهذا الحديث متفق عليه ،وله طرق عديدة فى الكتابين.

وقد روى عن البراء بن عازب ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبى وقاص ، وأبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم : أنهم لبسوا خواتيم الذهب.

وهذا ـ إن صح عنهم ـ فلعلهم لم يبلغهم النهى. وهم فى ذلك كمن رخص فى لبس الحرير من السلف ،وقد صحت السنة بتحريمه على الرجال وإباحته للنساء. والله أعلم(٣) .

فصل
فى لباس الشهرة

عن ابن منيب الجرشى عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: « من تشبه بقوم فهو منهم » (٤) .

فى إسناده: عبدالرحمن بن ثابت بن ثوبان . وهو ضعيف .

وأخرجه الإمام أحمد فى المسند أتم منه. ولفظه: « بعثت بالسيف بين يدى الساعة حتى يعبد الله وحده لاشريك له،وجعل رزقى تحت ظل رمحى ،وجعل الذلة والصغار على من خالف أمرى ، ومن تشبه بقوم فهو منهم » (٥) (٦) .

---

(١) النسائى (٥٢٩٣) فى الزينة ، باب: طرح الخاتم وترك لبسه.

(٢) البخارى (٥٨٦٦) فى اللباس ، باب :خاتم الفضة ، ومسلم (٢٠٩١/ ٥٥) فى اللباس والزينة ، باب :لبس النبى ﷺ خاتماً من ورق . . . إلخ.

(٣) تهذيب السنن (٦/ ١١١ ـ ١١٣).

(٤) أبو داود (٤٠٣١) فى اللباس ، باب :فى لبس الشهرة.

(٥) أحمد (٢/ ٥٠) ،وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (٦/ ٥٢) فى المغازى والسير،باب: قوله: بعثت بين يدى الساعة بالسيف ،وقال: « فيه عبد الرحمن بن ثابت :وثقه ابن المدينى وغيره ، وضعفه أحمد وغيره ،وبقية رجاله ثقات » بدون قوله « ومن تشبه بقوم فهو منهم ».

(٦) تهذيب السنن (٦/ ٢٤ ، ٢٥).

فصل
فى لبس ما نسجه الكفار من الثياب

إقرارهم [١] على لبس ما نسخه الكفار من الثياب [٢].

فصل
فى لبس الإزار وكيفيته

سأله ﷺ رجلٌ فقال: أين أتزر ؟ فأشار إلى عظم ساقه ،وقال:« هاهنا اتزر »،قال: فإن أبيت ؟ قال:« فهاهنا أسفل من ذلك ،فإن أبيت فهاهنا فوق الكعبين ،فإن أبيت ،فإن الله لايحب كل مختال فخور ». ذكره أحمد [٣] .

وسأله ﷺ أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال : إن إزارى يسترخى إلا أن أتعاهده ، فقال : « إنك لست ممن يفعله خيلاء » . ذكره البخارى [٤] . وقال :« من جر إزاره خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة » . فقالت أم سلمة: فكيف تصنع النساء بذيولهن ؟ قال : « يرخينه شبرا ». فقالت : إذا تنكف أقدامهن . قال : « يرخين ذراعاً لايزدن عليه » [٥] [٦] .

وأيضا

سألته [٧] عن الإزار تحت السرة أعجب إليك أم فوق السرة ؟فقال :تحت السرة [٨] .

---

(١) أى : إقرار النبى ﷺ للصحابة.
(٢) إعلام الموقعين (٢/ ٤١٦).
(٣) أحمد (٣/ ٤٨٢).
(٤) البخارى (٥٧٨٤) فى اللباس ،باب:من جر إزاره من غير خيلاء .
(٥) الترمذى (١٧٣١) فى اللباس ، باب : ما جاء فى جر ذيول النساء ، والنسائى (٥٣٣٦) فى الزينة ، باب : ذيول النساء، وابن ماجه (٣٥٨٠) فى اللباس ، باب :ذيل المرأة كم يكون ، وأحمد (٦/ ٣١٥).
(٦) إعلام الموقعين (٤/ ٤٠٥ ـ ٥٠٥).
(٧) من مسائل الفضل بن زياد القطان للإمام أحمد رحمه الله .
(٨) بدائع الفوائد (٤/ ٦٩).

فصل
فى لبس الطيلسان

أما الطيلسان فلم ينقل عنه أنه ﷺ لبسه ولا أحد من أصحابه، بل قد ثبت فى «صحيح مسلم» من حديث أنس بن مالك، عن النبى ﷺ أنه ذكر الدجال فقال: «يخرج معه سبعون ألفًا من يهود أصبهان عليهم الطيالسة» (١)، ورأى أنس جماعة عليهم الطيالسة، فقال. ما أشبههم بيهود خيبر. ومن هاهنا كره لبسها جماعة من السلف والخلف، لما روى أبو داود والحاكم فى «المستدرك» عن ابن عمر، عن النبى ﷺ أنه قال: «من تشبه بقوم فهو منهم» (٢)، وفى الترمذى عنه ﷺ: «ليس منا من تشبه بقوم غيرنا» (٣). وأما ما جاء فى حديث الهجرة أن النبى ﷺ جاء إلى أبى بكر متقنعًا بالهاجرة (٤)، فإنما فعله النبى ﷺ تلك الساعة ليختفى بذلك، ففعله للحاجة، ولم تكن عادته التقنع، وقد ذكر أنس عنه ﷺ أنه كان يكثر القناع، وهذا إنما كان يفعله ـ والله أعلم ـ للحاجة من الحر ونحوه وأيضاً ليس التقنع من التطليس (٥).

فصل
فى لبس العمامة السوداء

فى القصة (٦): أنه دخل مكة، وعليه عمامة سوداء، ففيه دليل على جواز لبس السواد أحياناً، ومن ثم جعل خلفاء بنى العباس لبس السواد شعاراً لهم ولولاتهم وقضاتهم، والنبى ﷺ لم يلبس لباساً راتباً، ولا كان شعاره فى الأعياد والجمع والمجامع العظام البتة، وإنما اتفق له لبس العمامة السوداء يوم الفتح دون سائر الصحابة، ولم يكن سائر لباسه يومئذ السواد بل كان لواؤه أبيض (٧).

---

(١) مسلم (٢٩٤٤/ ١٢٤) فى الفتن وأشراط الساعة، باب: فى بقية من أحاديث الدجال.

(٢) أبو داود (٤٠٣١) فى اللباس، باب: فى لبس الشهرة، ولم نعثر عليه فى الحاكم.

(٣) الترمذى (٢٦٩٥) فى الاستئذان، باب: ما جاء فى كراهية إشارة اليد بالسلام.

(٤) البخارى (٥٨٠٧) فى اللباس، باب: التقنع، وأبو داود (٤٠٨٣) فى اللباس، باب: فى التقنع، وأحمد (١٩٨/٦).

(٥) زاد المعاد (١/ ١٤٢).

(٦) أى قصة فتح مكة.

(٧) زاد المعاد (٣/ ٤٥٨، ٤٥٩).

فصل
فى لبس المنطقة

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: لم يبلغنا أن النبى ﷺ شد على وسطه منطقة (١) .

فصل
فى إرخاء الذؤابة بين الكتفين

كان شيخنا أبو العباس ابن تيمية ـ قدس الله روحه فى الجنة ـ يذكر فى سبب الذؤابة شيئاً بديعاً ،وهو أن النبى ﷺ إنما اتخذها صبيحة المنام الذى رآه فى المدينة ،لما رأى رب العزة تبارك وتعالى ، فقال: « يا محمد ،فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت: لا أدرى ، فوضع يده بين كتفى فعلمت ما بين السماء والأرض . . . » الحديث ،وهو فى الترمذى (٢) ، وسئل عنه البخارى فقال: صحيح. قال: فمن تلك الحال أرخى الذؤابة بين كتفيه ،وهذا من العلم الذى تنكره ألسنة الجهال وقلوبهم ،ولم أر هذه الفائدة فى إثبات الذؤابة لغيره (٣) .

فصل
فى صبغ الثوب بالحمرة

عن عمرو بن شعيب،عن أبيه ،عن جده قال: هبطنا مع رسول الله ﷺ من ثنية، فالتفت إلى وعلىَّ ريطة مضرجة بالعصفر، فقال: « ما هذه الريطة عليك؟» فعرفت ما كره ، فأتيت أهلى وهم يسجرون تنوراً لهم فقذفتها فيه، ثم أتيته من الغد، فقال : « يا عبد الله، مافعلت الريطة ؟ » فأخبرته ، فقال: «ألا كسوتها بعض أهلك، فانه لا بأس به للنساء» (٤) .

وحكى عن هشام بن الغاز أنه قال: المضرجة التى ليست بمشبعة ولا الموردة. هذا آخر كلامه.

وقال غيره: ضرجت الثوب، إذا صبغته بالحمرة. وهو دون المشبع ،وفوق المورد.

---

(١) زاد المعاد (١/ ١٣١).

(٢) الترمذى (٣٢٣٣) فى تفسير القرآن ، باب: « ومن سورة ص ».

(٣) زاد المعاد (١/ ١٣٦).

(٤) سبق تخريجه ص ٣٩٩ .

وأخرجه ابن ماجه (١) .

وقد روى مسلم فى صحيحه عن على بن أبى طالب قال : نهى رسول الله ﷺ عن لباس القسى والمعصفر،وعن تختم الذهب،وعن قراءة القرآن فى الركوع (٢) .

وروى أيضاً فى صحيحه عن عبد الله بن عمرو قال:رأى على رسول الله ﷺ ثوبين معصفرين فقال:« أمك أمرتك بهذا ؟» قلت:أغسلهما ؟قال:« بل احرقهما » (٣) .

وروى أيضاً فى صحيحه عن عبد الله بن عمرو أيضاً قال:رأى علىَّ رسول الله ﷺ ثوبين معصفرين،فقال:« إن هذه من لباس الكفار ، فلا تلبسها » (٤) .

وهذه الأحاديث صريحة فى التحريم،لا معارض لها،فالعجب ممن تركها.

وقد عارضها بعض الناس بحديث البراء بن عازب، قال:رأيت رسول الله ﷺ فى حلة حمراء،لم أر شيئاً قط أحسن منه.متفق عليه (٥) .

وكان بعض المنتسبين إلى العلم يخرج إلى أصحابه فى الثوب المصبغ حمرة،ويزعم أنه يقصد اتباع هذا الحديث.وهذا وَهْمٌ وغلط بين.

فإن الحلة هى البرود التى قد صبغ غزلها ونسج الأحمر مع غيره ،فهى برد فيه أسود وأحمر،وهى معروفة عند أهل اليمن قديماً وحديثا.والحلة إزار ورداء مجموعهما يسمى حلة.فإذا كان البرد فيه أحمر وأسود قيل:برد أحمر،وحلة حمراء.فهذا غير المضرج المصبغ حمرة.

وذهب بعض أهل العلم إلى أن النهى إنما هو عن المعصفر خاصة،فأما المصبوغ بغير العصفر من الأصباغ التى تحمر الثوب ،كالمدر والمغرة ، فلا بأس به.

قال الترمذى فى حديث النهى عن المعصفر:معناه عند أهل الحديث:أنه كره المعصفر. قال:ورأوا أن ماصبغ بالحمرة من مدر أو غيره فلا بأس به مالم يكن معصفراً (٦) .

---

(١) ابن ماجه (٣٦٠٣) فى اللباس ، باب :كراهية المعصفر للرجال .

(٢) سبق تخريجه ص٣٩٩ .

(٣) مسلم (٢٠٧٧/٢٨) فى اللباس والزينة ، باب :النهى عن لبس الرجل الثوب المعصفر.

(٤) سبق تخريجه ص ٣٩٩ .

(٥) البخارى (٣٥٥١) فى المناقب ، باب : صفة النبى ﷺ ،ومسلم (٢٣٣٧/ ٩١) فى الفضائل ، باب:صفة النبى ﷺ وأنه كان أحسن وجها.

(٦) تهذيب السنن (٦/ ٣٩ ، ٤٠) .

فصل
فى الذكر عند اتخاذ ثوب جديد

عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه ،قال « كان رسول الله ﷺ إذا استجد ثوباً سماه باسمه: إما قميصاً ،أو عمامة،ثم يقول : « اللهم لك الحمد ،أنت كسوتنيه ،أسألك من خيره ، وخير ما صنع له ،وأعوذ بك من شره ،وشر ما صنع له » (١) .

قال أبو نضرة: فكان أصحاب النبى ﷺ إذا لبس أحدهم ثوباً جديداً قيل له: تبلى ويخلف الله تعالى.

قال أبو داود :عبدالوهاب الثقفى لم يذكر فيه أبا سعيد ،وحماد بن سلمة قال: عن الجريرى عن أبى العلاء عن النبى ﷺ. يعنى أنهما أرسلاه.

وأخرج الترمذى والنسائى المسند منه فقط،وقال الترمذى: حديث حسن (٢) .

وروى أبو بكر بن عاصم فى فوائده من حديث عنبسة بن عبد الرحمن،عن رجل، عن أنس : أن النبى ﷺ كان إذا استجد ثوباً لبسه يوم الجمعة (٣) (٤) .

فصل
فى شعر الخنزير

وسئل (٥) عن شعر الخنزير ،فقال: لا يعجبنى ، وهذا على التحريم (٦) .

فصل
فيما روى ألا يستنفع بإهاب الميتة

عن عبد الله بن عكيم قال : قرئ علينا كتاب رسول الله ﷺ بأرض جهينة ،وأنا غلام

---

(١) أبو داود (٤٠٢٠) أول كتاب اللباس .

(٢) الترمذى (١٧٦٧) فى اللباس ، باب : ما يقول إذا لبس ثوبا جديدا ،والنسائى فى الكبرى (١٠٠٤١) فى عمل اليوم والليلة ، باب : ما يقول إذا استجد ثوباً .

(٣) انظر: شرح السنة للبغوى (٣١١٤) فى اللباس ، باب :مايقول إذا لبس جديدا ، وكنز العمال (١٨٦٨) ،وعزاه للخطيب .

(٤) تهذيب السنن (٦/ ٢١) .

(٥) أى الإمام أحمد رحمه الله .

(٦) إعلام الموقعين (١/ ٤٢).

شاب: « ألا تستمتعوا من الميتة بإهاب ولا عصب » (١) .

وقال أبو الفرج بن الجوزى : حديث ابن عكيم مضطرب جداً ، فلا يقام الأول. واختلف مالك والفقهاء فى حديث ابن عكيم وأحاديث الدباغ .

فطائفة قدمت أحاديث الدباغ عليه ؛ لصحتها وسلامتها من الاضطراب ،وطعنوا فى حديث ابن عكيم بالاضطراب فى إسناده.

وطائفة قدمت حديث ابن عكيم؛ لتأخره وثقة رواته ،ورأوا أن هذا الاضطراب لا يمنع الاحتجاج به.

وقد رواه شعبة عن الحكم عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن عبيد الله بن عكيم ، فالحديث محفوظ.

قالوا: ويؤيده ما ثبت عن النبى ﷺ من النهى عن افتراش جلود السباع والنمور (٢) .

وطائفة علمت بالأحاديث كلها،ورأت أنه لا تعارض بينها ،فحديث ابن عكيم إنما فيه النهى عن الانتفاع بإهاب الميتة.

والإهاب: هو الجلد الذى لم يدبغ ،كما قاله النضر بن شميل،وقال الجوهرى: الإهاب الجلد ما لم يدبغ ، والجمع : أهب . وأحاديث الدباغ: تدل على الاستماع بها بعد الدباغ ، فلا تنافى بينها.

وهذه الطريق حسنة،لولا أن قوله فى حديث ابن عكيم: «كنت رخصت لكم فى جلود الميتة ،فإذا أتاكم كتابى فلا تنتفعوا من الميتة بإهاب ولا عصب » ،والذى كان رخص فيه هو المدبوغ بدليل حديث ميمونة (٣) .

وقد يجاب عن هذا من وجهين:

أحدهما: أن هذه الزيادة لم يذكرها أحد من أهل السنن فى هذا الحديث،وإنما ذكروا قوله ﷺ« لا تنتفعوا من الميتة . . .» الحديث (٤) . وإنما ذكرها الدارقطنى ، وقد رواه خالد الحذاء وشعبة،عن الحكم ،فلم يذكرا: «كنت رخصت لكم»،فهذه اللفظة فى ثبوتها شىء .

---

(١) أبو داود (٤١٢٧) فى اللباس ، باب: من روى ألا ينتفع بإهاب الميتة.

(٢) الترمذى (١٧٧٠م) فى اللباس ، باب : ما جاء فى النهى عن جلود السباع.

(٣) أبو داود (٤١٢٠) فى اللباس ، باب: فى أهب الميتة ، وابن ماجه (٣٦١٠) فى اللباس ، باب: لبس جلود الميتة إذا دبغت.

(٤) أبو داود (٤١٢٨) فى اللباس ، باب : من روى ألا ينتفع بإهاب الميتة.

والوجه الثانى : أن الرخصة كانت مطلقة غير مقيدة بالدباغ ،وليس فى حديث الزهرى ذكر الدباغ ،ولهذا كان ينكره ،ويقول: « نستمتع بالجلد على كل حال »،فهذا هو الذى نهى عنه أخيراً ، وأحاديث الدباغ قسم آخر ، لم يتناولها النهى ،وليست بناسخة ولا منسوخة، وهذه أحسن الطرق.

ولا يعارض ذلك نهيه عن جلود السباع ، فإنه نهى عن ملابستها باللبس والافتراش، كمانهى عن أكل لحومها،لما فى أكلها ولبس جلودها من المفسدة ،وهذا حكم ليس بمنسوخ ، ولا ناسخ أيضاً ،وإنما هو حكم ابتدائى رافع لحكم الاستصحاب الأصلى.

وبهذه الطريقة تأتلف السنن ،وتستقر كل سنة منها فى مستقرها ،وبالله التوفيق [١] .

وأيضاً

قيل له [٢] : تذهب إلى حديث عبد الله بن عكيم أن النبى ﷺ قال: « لاتنتفعوا من الميتة بإهاب ولا عصب » [٣] قال:نعم ،قيل له:وقد رواه خالد الحذاء عمن سمع عبد الله ابن عكيم،قال:قد رواه شعبة عن الحكم عن ابن أبى ليلى عن عبد الله بن عكيم أصح من هذا ،وقد رواه عباد، ورواه شعبة عن الحكم ،كأنه صححه من غير حديث خالد [٤] .

فصل
فى اتخاذ البطة [٥] من جلود الحمر

نص [٦] على كراهة البطة من جلود الحمر،وقال:تكون ذكية،ولا يختلف مذهبه فى التحريم [٧] .

---

(١) تهذيب السنن (٦/ ٦٧، ٦٨) .
(٢) أى :لأحمد بن حنبل رحمه الله.
(٣) سبق تخريجه ص ٤١٦ .
(٤) بدائع الفوائد (٤/ ٧٣).
(٥) البطة :رأس الخلف بلا ساق.
(٦) أى الإمام أحمد رحمه الله.
(٧) إعلام الموقعين (١/ ٤٢).

فصل
فى اتخاذ القد [١] من جلود الحمير

قال [٢]: يكره القد من جلود الحمير ذكيا وغير ذكى ؛ لأنه لا يكون ذكيا، وأكرهه لمن يعمل وللمستعمل [٣] .

فصل
فى الخضاب

عن أبى هريرة ﷺ - يبلغ به النبى ﷺ - قال: «إن اليهود والنصارى لا يصبغون ، فخالفوهم» [٤] وأخرجه البخارى ومسلم والنسائى وابن ماجه [٥] .

والصواب أن الأحاديث فى هذا الباب لا اختلاف بينها بوجه ، فإن الذى نهى عنه النبى ﷺ من تغيير الشيب أمران : أحدهما : نتفه. والثانى : خضابه بالسواد.

والذى أذن فيه : هو صبغه وتغييره بغير السواد ، كالحناء والصفرة ، وهو الذى عمله الصحابة ﷺ .

قال الحكم بن عمرو الغفارى : دخلت أنا وأخى رافع على عمر بن الخطاب ، وأنا مخضوب بالحناء، وأخى مخضوب بالصفرة ،فقال عمر: هذا خضاب الإسلام، وقال لأخى: هذا خضاب الإيمان.

وأما الخضاب بالسواد: فكرهه جماعة من أهل العلم، وهو الصواب بلا ريب .

وقيل للإمام أحمد : تكره الخضاب بالسواد ؟ قال : إى والله.

وهذه المسألة من المسائل التى حلف عليها ، وقد جمعها أبو الحسن ؛ ولأنه يتضمن

---

(١) القد : السير يقد من جلد غير مدبوغ.

(٢) أى الإمام أحمد - رحمه الله .

(٣) إعلام الموقعين (١/ ٤٢).

(٤) أبو داود (٤٢٠٣) فى الترجل ، باب : فى الخضاب.

(٥) البخارى (٥٨٩٩) فى اللباس ، باب: الخضاب ، ومسلم (٢١٠٣/ ٨٠) فى اللباس والزينة ، باب : فى مخالفة اليهود فى الصبغ ، والنسائى (٥٠٢٧) فى الزينة ، باب: الإذن بالخضاب ، وابن ماجه (٣٦٢١) فى اللباس ، باب: الخضاب بالحناء.

التلبيس ، بخلاف الصفرة.

ورخص فيه آخرون ،منهم أصحاب أبى حنيفة ،وروى ذلك عن الحسن والحسين، وسعد بن أبى وقاص ،وعبد الله بن جعفر ،وعقبة بن عامر.

وفى ثبوته عنهم نظر ،ولو ثبت فلا قول لأحد مع رسول اللهﷺ ،وسنته أحق بالاتباع،ولو خالفها من خالفها.

ورخص فيه آخرون للمرأة تتزين به لبعلها ، دون الرجل.وهذا قول إسحاق بن راهويه، وكأنه رأى أن النهى إنما جاء فى حق الرجال،وقد جوز للمرأة من خضاب اليدين والرجلين ما لم يجوز للرجال،والله أعلم (١) .

وأيضا

إنه ﷺ نهى عن التشبه بأهل الكتاب فى أحاديث كثيرة ، كقوله:« إن اليهود والنصارى لا يصبغون ، فخالفوهم » (٢) .

وروى الترمذى عنه:« ليس منا من تشبه بغيرنا » (٣) .

وروى الإمام أحمد عنه:« من تشبه بقوم فهو منهم» (٤) .

وسر ذلك أن المشابهة فى الهدى الظاهر ذريعة إلى الموافقة فى القصد والعمل (٥) .

فإن قيل: فقد ثبت فى «صحيح مسلم» النهى عن الخضاب بالسواد فى شأن أبى قحافة لما أتى به ورأسه ولحيته كالثغامة بياضًا ،فقال:« غيروا هذا الشيب وجنبوه السواد » (٦) ، والكتم يسود الشعر.

فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن النهى عن التسويد البحت،فأما إذا أضيف إلى الحناء شىء آخر كالكتم ونحوه فلا بأس به،فإن الكتم والحناء يجعل الشعر بين الأحمر والأسود بخلاف الوسمة فإنها تجعله أسود فاحماً،وهذا أصح الجوابين .

---

(١) تهذيب السنن (٦/١٠٣، ١٠٤).

(٢) سبق تخريجه من الصفحة السابقة

(٣) سبق تخريجه ص٤١٢ .

(٤) سبق تخريجه ص ٤١٠ .

(٥) إعلام الموقعين (٣/١٨١، ١٨٢).

(٦) مسلم (٢١٠٢/٧٨ ، ٧٩) فى اللباس والزينة ، باب: استحباب خضاب الشيب بصفرة. . .إلخ.

الجواب الثاني: أن الخضاب بالسواد المنهى عنه خضاب التدليس؛ كخضاب شعر الجارية والمرأة الكبيرة تغر الزوج والسيد بذلك، وخضاب الشيخ يغر المرأة بذلك، فإنه من الغش والخداع، فأما إذا لم يتضمن تدليسًا ولاخداعًا فقد صح عن الحسن والحسين رضي الله عنهما أنهما كانا يخضبان بالسواد، ذكر ذلك ابن جرير عنهما فى كتاب « تهذيب الآثار »، وذكره عن عثمان ابن عفان، وعبد الله بن جعفر، وسعد بن أبى وقاص، وعقبة بن عامر، والمغيرة بن شعبة، وجرير ابن عبد الله، وعمرو بن العاص، وحكاه عن جماعة. من التابعين منهم: عمرو بن عثمان، وعلى بن عبد الله بن عباس وأبو سلمة بن عبد الرحمن وعبد الرحمن بن الأسود وموسى ابن طلحة، والزهرى، وأيوب، وإسماعيل بن معدى كرب، وحكاه ابن الجوزى عن محارب ابن دثار، ويزيد، وابن جريج، وأبى يوسف، وأبى إسحاق، وابن أبى ليلى، وزياد بن علاقة، وغيلان ابن جامع، ونافع بن جبير، وعمرو بن على المقدمى، والقاسم بن سلام (١).

فصل
فى الأخذ من اللحية

قال ابن هانئ: سألت أبا عبد الله عن الرجل يأخذ عارضيه؟ قال: يأخذ من اللحية بما فضل عن القبضة. قلت له: فحديث النبى ﷺ: « احفوا الشوارب واعفوا عن اللحى » (٢)، قال: يأخذ من طولها ومن تحت حلقه، ورأيت أبا عبد الله يأخذ من عارضيه ومن تحت حلقه. قال: ورأيت أبا عبد الله يأخذ من حاجبه بالمقراض (٣).

فصل
فى النهى عن الجلوس بالطرقات إلا بحقها

إنه ﷺ نهى عن الجلوس بالطرقات؛ وما ذاك إلا لأنه ذريعة إلى النظر إلى المحرم، فلما أخبروه أنه لا بد لهم من ذلك، قال: « أعطوا الطريق حقه »، قالوا: وما حقه؟ قال: « غض البصر وكف الأذى، ورد السلام » (٤) (٥).

---

(١) زاد المعاد (٤/ ٣٦٧).

(٢) البخارى (٥٨٩٣) فى اللباس، باب: إعفاء اللحى... إلخ، ومسلم (٢٥٩/ ٥٢ ـ ٥٤) فى الطهارة، باب: خصال الفطرة، وأحمد (٢/ ١٦).

(٣) بدائع الفوائد (٤/ ٧٨).

(٤) البخارى (٢٤٦٥) فى المظالم، باب: أفنية الدور والجلوس فيها... إلخ، و(٦٢٦٩) فى الاستئذان، باب: قول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ ﴾، ومسلم (٢١٢١/ ١١٤) فى اللباس والزينة، باب: النهى عن الجلوس فى الطرقات وإعطاء الطريق حقه، وأبو داود (٤٨١٥) فى الأدب، باب: فى الجلوس فى الطرقات، وأحمد (٣/ ٣٦).

(٥) إعلام الموقعين (٣/ ١٩٢).

وأيضا

نهاهم ﷺ عن الجلوس بالطرقات إلا بحقها، فسئل عن حق الطريق، فقال: « غض البصر، وكفُّ الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر » (١) (٢) .

فصل
فى النهى عن البراز فى قارعة الطريق

إنه ﷺ نهى عن البراز فى قارعة الطريق والظل والموارد ؛ لأنه ذريعة لاستجلاب اللعن كما علل به ﷺ بقوله: « اتقوا الملاعن الثلاث »، وفى لفظ: « اتقوا اللاعنين »، قالوا: وما اللاعنان يارسول الله؟ قال: « الذى يتخلى فى طريق الناس، وفى ظلهم » (٣) (٤) .

فصل
فى الرجل يضع إحدى رجليه على الأخرى

عن جابر - وهو ابن عبد الله - قال : نهى رسول الله ﷺ : أن يضع - وقال قتيبة : يرفع - الرجل إحدى رجليه على الأخرى . زاد قتيبة : وهو مستلق على ظهره (٥) . وأخرجه مسلم والترمذى مختصراً ومطولا (٦) .

وأما الحديث الذى رواه الحاكم عن الأصم، عن محمد بن إسحاق الصنعانى ، عن إبراهيم بن المنذر الخزامى ، عن محمد بن فليح ، عن أبيه ، عن سعيد بن الحارث ، عن عبيد بن حنين قال: بينما أنا جالس فى المسجد إذ جاءه قتادة بن النعمان ، فجلس فتحدث، فثاب إليه أناس ، ثم قال: انطلق بنا إلى أبى سعيد الخدرى ، فإنى قد أخبرت أنه اشتكى ،

---

(١) سبق تخريجه الصفحة السابقة

(٢) إعلام الموقعين (٤/ ٥٠٩).

(٣) أبو داود (٢٥) فى الطهارة ، باب : المواضع التى نهى النبى ﷺ عن البول فيها ، ابن ماجه (٣٢٨) فى الطهارة وسننها ، باب : النهى عن الخلاء على قارعة الطريق ، وأحمد (١/ ٢٩٩).

(٤) إعلام الموقعين (٣/ ١٩٠).

(٥) أبو داود (٤٨٦٥) فى الأدب ، باب: فى الرجل يضع إحدى رجليه على الأخرى.

(٦) مسلم (٢٠٩٩/ ٧٢) فى اللباس والزينة ، باب: فى منع الاستلقاء على الظهر . . . إلخ ، والترمذى (٢٧٦٦) فى الأدب ، باب: ما جاء فى الكراهية فى ذلك.

فانطلقنا حتى دخلنا على أبى سعيد الخدرى ، فوجدناه مستلقياً واضعاً رجله اليمنى على اليسرى، فسلمنا وجلسنا. فرفع قتادة يده إلى رجل أبى سعيد الخدرى فقرصها قرصة شديدة. فقال أبو سعيد: سبحان الله ! يا بن أم، أوجعتنى، قال: ذلك أردت ـ فذكر حديث الاستلقاء ـ وقال فيه: « لا ينبغى لأحد من خلقى أن يفعل مثل هذا » (١) .

فهذا الحديث له علتان:

إحداهما: انفراد فليح بن سليمان به. وقد قال عباس الدورى: سمعت يحيى بن معين يقول: فليح بن سليمان لايحتج بحديثه، وقال فى رواية عثمان الدارمى: فليح بن سليمان ضعيف. وقال النسائى: ليس بالقوى.

والعلة الثانية: أنه حديث منقطع؛ فإن قتادة بن النعمان مات فى خلافة عمر، وصلى عليه عمر، وعبيد بن حنين، مات سنة خمس ومائة، وله خمس وسبعون سنة فى قول الواقدى، وابن بكير، فتكون روايته عن قتادة بن النعمان منقطعة، والله أعلم (٢) .

فصل
فى المرأة تستلقى على قفاها

وسئل (٣) عن المرأة تستلقى على قفاها وتنام، يكره ذلك ؟ فقال: إى والله (٤) .

---

(١) انظر: السنة لابن أبى عاصم (٥٦٨) ، وضعفه الألبانى.
(٢) تهذيب السنن (٧/ ٢٠٧ ـ ٢٠٩).
(٣) أى: الإمام أحمد رحمه الله.
(٤) إعلام الموقعين (٤/ ٢١٤)

كتاب

الرؤيا



فصل
فيما جاء فى الرؤيا

عن زفر بن صعصعة ،عن أبيه ، عن أبى هريرة :أن رسول الله ﷺ:كان إذا انصرف من صلاة الغداة يقول:« هل رأى أحد منكم الليلة رؤيا؟»، ويقول:« إنه ليس يبقى بعدى من النبوة إلا الرؤيا الصالحة » [١].وأخرجه النسائى من حديث زفر بن صعصعة، عن أبى هريرة ، من غير ذكر صعصعة [٢] ، والمحفوظ من حديث الإمام مالك بن أنس : إثبات صعصعة فى إسناده.

وقد روى البخارى فى صحيحه من حديث الزهرى:حدثنى سعيد بن المسيب:أن أبا هريرة قال:سمعت رسول الله ﷺ يقول:« لم يبق من النبوة إلا المبشرات ».قالوا:وما المبشرات؟ قال:« الرؤيا الصالحة » [٣].وأخرجه مسلم من حديث ابن عباس [٤] [٥].

فصل
فى أن الرؤيا الصالحة من بشرى المؤمن

سئل ﷺ عن قوله تعالى: ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾ [يونس : ٦٤] ، فقال ﷺ : « هى الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له »[٦] [٧].

وأيضا

سئل ﷺ عن قوله تعالى: ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾ [يونس :٦٤] فقال:« هى الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له » .ذكره أحمد [٨] [٩].

---

(١) أبو داود (٥٠١٧) فى الأدب ، باب:ما جاء فى الرؤيا.
(٢) النسائى فى الكبرى (٧٦٢١) فى التعبير ، باب الرؤيا.
(٣) البخارى (٦٩٩٠) فى التعبير ، باب:المبشرات .
(٤) مسلم (٤٧٩/٢٠٧) فى الصلاة ، باب:النهى عن قراءة القرآن فى الركوع والسجود.
(٥) تهذيب السنن (٧/ ٢٩٥).
(٦) الترمذى (٢٢٧٥) فى الرؤيا ، باب :قوله: ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾، وابن ماجه (٣٨٩٨) فى تعبير الرؤيا ، باب:الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له.
(٧) إعلام الموقعين (٤/ ٣٤٥).
(٨) أحمد (٥/ ٣١٥).
(٩) إعلام الموقعين (٤/ ٥٠٥).

فصل
فى أن الرؤيا الصادقة جزء من أجزاء النبوة

المرتبة العاشرة من مراتب الهداية: الرؤيا الصادقة. وهى من أجزاء النبوة كما ثبت عن النبى ﷺ أنه قال: « الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة » (١).

وقد قيل فى سبب هذا التخصيص المذكور: إن أول مبتدأ الوحى كان هو الرؤيا الصادقة، وذلك نصف سنة. ثم انتقل إلى الوحى اليقظة مدة ثلاث وعشرين سنة، من حين بعث إلى أن توفى صلوات الله وسلامه عليه. فنسبة مدة الوحى فى المنام من ذلك: جزء من ستة وأربعين جزءا. وهذا حسن لولا ماجاء فى الرواية الأخرى الصحيحة: « إنها جزء من سبعين جزءاً » (٢).

وقد قيل فى الجمع بينهما: إن ذلك بحسب حال الرائى، فإن رؤيا الصديقين من ستة وأربعين، ورؤيا عموم المؤمنين الصادقة من سبعين، والله أعلم.

والرؤيا: مبدأ الوحى، وصدقها بحسب صدق الرائى، وأصدق الناس رؤيا أصدقهم حديثاً، وهى عند اقتراب الزمان لاتكاد تخطئ، كما قال النبى ﷺ (٣). وذلك لبعد العهد بالنبوة وآثارها، فيتعوض المؤمنون بالرؤيا. وأما فى زمن قوة نور النبوة: ففى ظهور نورها وقوته ما يغنى عن الرؤيا.

ونظير هذا الكرامات التى ظهرت بعد عصر الصحابة، ولم تظهر عليهم، لاستغنائهم عنها بقوة إيمانهم، واحتياج من بعدهم إليها لضعف إيمانهم. وقد نص أحمد على هذا المعنى. وقال عبادة بن الصامت: رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده فى المنام. وقد قال النبى ﷺ: « لم يبق من النبوة إلا المبشرات». قيل: وما المبشرات، يارسول الله؟ قال: «الرؤيا الصالحة، يراها المؤمن أو ترى له »(٤). وإذا تواطأت رؤيا المسلمين لم تكذب. وقد قال النبى ﷺ - لما أُروا ليلة القدر فى العشر الأواخر - قال: « أرى رؤياكم قد تواطأت فى

(١) البخارى (٦٩٨٣) فى التعبير، باب: رؤيا الصالحين، وابن ماجه (٣٨٩٣) فى تعبير الرؤيا، باب: الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له، وأحمد (٣/١٢٦).

(٢) ابن ماجه (٣٨٩٥) فى تعبير الرؤيا، باب: الرؤيا الصالحة

(٣) البخارى (٧٠١٧) فى التعبير، باب: القيد فى المنام، ومسلم (٦/٢٢٦٣) فى أول الرؤيا.

(٤) سبق تخريجه ص ٣٩٩.

العشر الأواخر، فمن كان منكم متحريها فليتحرها فى العشر الأواخر من رمضان » (١).

والرؤيا كالكشف، منها رحمانى، ومنها نفسانى، ومنها شيطانى. وقال النبى ﷺ: « الرؤيا ثلاثة: رؤيا من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان ، ورؤيا مما يحدث به الرجل نفسه فى اليقظة، فيراه فى المنام » (٢).

والذى هو من أسباب الهداية: هو الرؤيا التى من الله خاصة.

ورؤيا الأنبياء وحى، فإنها معصومة من الشيطان، وهذا باتفاق الأمة ؛ ولهذا أقدم الخليل على ذبح ابنه إسماعيل عليهما السلام بالرؤيا.

وأما رؤيا غيرهم: فتعرض على الوحى الصريح، فإن وافقته وإلا لم يعمل بها.

فإن قيل: فما تقولون إذا كانت رؤيا صادقة ، أو تواطأت؟

قلنا : متى كانت كذلك استحال مخالفتها للوحى ، بل لا تكون إلا مطابقة له ، منبهة عليه، أو منبهة على اندراج قضية خاصة فى حكمه ، لم يعرف الرائى اندراجها فيه ، فيتنبه بالرؤيا على ذلك .ومن أراد أن تصدق رؤياه فليتحر الصدق وأكل الحلال ،والمحافظة على الأمر والنهى ، ولينم على طهارة كاملة مستقبل القبلة ، ويذكر الله حتى تغلبه عيناه ، فإن رؤياه لاتكاد تكذب البتة.

وأصدق الرؤيا: رؤيا الأسحار، فإنه وقت النزول الإلهى ، واقتراب الرحمة والمغفرة ، وسكون الشياطين. وعكسه رؤيا العتمة ، عند انتشار الشياطين والأرواح الشيطانية .وقال عبادة بن الصامت رضي الله عنه : « رؤيا المؤمن كلام، يكلم به الرب عبده فى المنام ».

وللرؤيا ملك موكل بها ، يريها العبد فى أمثال تناسبه وتشاكله ، فيضربها لكل أحد بحسبه .وقال مالك: الرؤيا من الوحى وحى. وزجر عن تفسيرها بلا علم. وقال: « أتتلاعب بوحى الله؟».

ولذكر الرؤيا وأحكامها وتفاصيلها وطرق تأويلها مظان مخصوصة بها ، يخرجنا ذكرها عن المقصود ، والله أعلم (٣).

---

(١) البخارى (١١٥٨) فى التهجد ،باب: فضل من تعار من الليل فصلى، ومسلم (١١٦٥/٢٠٧) فى الصيام ، باب: فضل ليلة القدر . . . إلخ ، وأحمد (٢/٨).

(٢) مسلم (٢٢٦٣/٦) فى أول الرؤيا ، والترمذى (٢٢٧٠) فى الرؤيا ، باب: أن رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة ،وأبو داود (٥٠١٩) فى الأدب ، باب: ما جاء فى الرؤيا ، وأحمد (٢/٢٦٩).

(٣) مدارج السالكين (١/ ٥٠ ـ ٥٢).

فصل
فى أصول وقواعد لعلم تعبير الرؤيا

إنها [١] مبنية على القياس والتمثيل واعتبار المعقول بالمحسوس ،ألا ترى أن الثياب فى التأويل كالقمص تدل على الدين ،فما كان فيها من طول أو قصر أو نظافة أو دنس ، فهو فى الدين ، كما أول النبى ﷺ القميص بالدين والعلم [٢]،والقدر المشترك بينهما أن كلا منهما يستر صاحبه ويجمله بين الناس ، فالقميص يستر بدنه ، والعلم والدين يستر روحه وقلبه ويجمله بين الناس ،ومن هذا تأويل اللبن بالفطرة لما فى كل منهما من التغذية الموجبة للحياة وكمال النشأة ، وأن الطفل إذا خلى وفطرته لم يعدل عن اللبن ، فهو مفطور على إيثاره على ماسواه. وكذلك فطرة الإسلام التى فطر الله عليها الناس.

ومن هذا: تأويل البقر بأهل الدين والخير الذين بهم عمارة الأرض ، كما أن البقر كذلك ،مع عدم شرها ،وكثرة خيرها،وحاجة الأرض وأهلها إليها ،ولهذا لما رأى النبى ﷺ بقراً تنحر [٣] كان ذلك نحراً فى أصحابه.

ومن ذلك تأويل الزرع والحرث بالعمل ؛لأن العامل زارع للخير والشر ، ولابد أن يخرج لـه ما بذره كما يخرج للباذر زرع ما بذره ،فالدنيا مزرعة ، والأعمال : البذر ، ويوم القيامة يوم طلوع الزرع وحصاده .

ومن ذلك تأويل الخشب المقطوع المتساند بالمنافقين ،والجامع بينهما أن المنافق لا روح فيه ،ولا ظل ولا ثمر ، فهو بمنزلة الخشب الذى هو كذلك ؛ولهذا شبه الله تعالى المنافقين بالخشب المسندة؛لأنهم أجسام خالية عن الإيمان والخير ،وفى كونها مسندة نكتة أخرى،وهى أن الخشب إذا انتفع به جعل فى سقف أو جدار أو غيرهما من مظان الانتفاع ، ومادام متروكا فارغاً غير منتفع به،جعل مسنداً بعضه إلى بعض،فشبه المنافقين بالخشب فى الحالة التى لا ينتفع فيها بها.

ومن ذلك : تأويل النار بالفتنة لإفساد كل منهما ما يمر عليه ويتصل بـه ، فهـذه تحرق الأثاث والمتاع والأبدان ، وهذه تحرق القلوب والأديان والإيمان.

---

(١) أى الرؤيا.

(٢) البخارى (٧٠٠٨) فى التعبير ، باب: القميص فى المنام .

(٣) البخارى (٧٠٣٥) فى التعبير ، باب : إذا رأى بقرا تنحر .

ومن ذلك تأويل النجوم بالعلماء والأشراف؛ لحصول هداية أهل الأرض بكل منهما، ولارتفاع الأشراف بين الناس كارتفاع النجوم .

ومن ذلك: تأويل الغيث بالرحمة والعلم والقرآن والحكمة وصلاح حال الناس.

ومن ذلك خروج الدم فى التأويل يدل على خروج المال، والقدر المشترك أن قوام البدن بكل واحد منهما.

ومن ذلك الحدث فى التأويل يدل على الحدث فى الدين ، فالحدث الأصغر ذنب صغير، والأكبر ذنب كبير .

ومن ذلك أن اليهودية والنصرانية فى التأويل بدعة فى الدين ، فاليهودية تدل على فساد القصد واتباع غير الحق ، والنصرانية تدل على فساد العلم والجهل والضلال.

ومن ذلك الحديد فى التأويل وأنواع السلاح ، يدل على القوة والنصر بحسب جوهر ذلك السلاح ومرتبته.

ومن ذلك الرائحة الطيبة تدل على الثناء الحسن، وطيب القول والعمل، والرائحة الخبيثة بالعكس ، والميزان يدل على العدل، والجراد يدل على الجنود والعساكر، والغوغاء الذين يموج بعضهم فى بعض ، والنحل يدل على من يأكل طيباً ويعمل صالحاً ، والديك رجل عالى الهمة بعيد الصيت، والحية: عدو أو صاحب بدعة يهلك بسمه ، والحشرات: أوغاد الناس ، والخلد رجل أعمى يتكفف الناس بالسؤال ، والذئب : رجل غشوم ظلوم غادر فاجر ، والثعلب رجل غادر مكار محتال مراوغ عن الحق ، والكلب : عدو ضعيف كثير الصخب والشر فى كلامه وسبابه ، أو رجل مبتدع متبع هواه مؤثر له على دينه ، والسنور : العبد والخادم الذى يطوف على أهل الدار، والفأرة : امرأة سوء فاسقة فاجرة ، والأسد: رجل قاهر مسلط، والكبش: الرجل المنيع المتبوع.

ومن كليات التعبير: أن كل ما كان وعاء للماء ، فهو دال على الأثاث ، وكل ما كان وعاء للمال كالصندوق والكيس والجراب، فهو دال على القلب ، وكل مدخول بعضه فى بعض وممتزج ومختلط فدال على الاشترك والتعاون أو النكاح، وكل سقوط وخرور من علو إلى أسفل فمذموم، وكل صعود وارتفاع فمحمود إذا لم يجاوز العادة ، وكان ممن يليق به، وكل ماأحرقته النار فجائحة ، وليس يرجى صلاحه ولا حياته ، وكذلك ما انكسر من الأوعية التى لاينشعب مثلها ، وكل ماخطف وسرق من حيث لايرى خاطفه ولا سارقه ، فإنه ضائع لايرجى، وما عرف خاطفه أو سارقه أو مكانه أو لم يغب عن عين صاحبه، فإنه

يرجى عوده.

وكل زيادة محمودة فى الجسم والقامة واللسان والذكر واللحية واليد والرجل ، فزيادة خير، وكل زيادة متجاوزة للحد فى ذلك فمذمومة وشر وفضيحة . وكل ما رُئى من اللباس فى غير موضعه المختص به فمكروه ؛ كالعمامة فى الرجل ، والخف فى الرأس ،والعقد فى الساق،وكل من استقضى أو استخلف أو أمر أو استوزر أو خطب ممن لايليق به ذلك، نال بلاء من الدنيا وشراً ،وفضيحة وشهوة ، وشهرة قبيحة.

وكل ما كان مكروها من الملابس فخلقه أهون على لابسه من جديده ، والجوز : مال مكنوز ، فإن تفقع كان قبيحاً وشراً ، ومن صار له ريش أو جناح صار له مال ، فإن طار سافر ، وخروج المريض من داره ساكتاً يدل على موته ، ومتكلما يدل على حياته ، والخروج من الأبواب الضيقة يدل على النجاة ، والسلامة من شر وضيق هو فيه ، وعلى توبة ، ولا سيما إن كان الخروج إلى فضاء وسعة فهو خير محض،والسفر والنقلة من مكان إلى مكان انتقال من حال إلى حال بحسب حال المكانين.

ومن عاد فى المنام إلى حال كان فيها فى اليقظة عاد إليه ما فارقه من خير أو شر ، وموت الرجل ربما دل على توبته ورجوعه إلى الله ؛لأن الموت رجوع إلى الله ، قال تعالى: ﴿ **ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ** ﴾ [الأنعام:٦٢] ،والمرهون مأسور بدين أو بحق عليه لله أو لعبيده ، ووداع المريض أهله أو توديعهم له دال على موته.

وبالجملة : فما تقدم من أمثال القرآن كلها أصول وقواعد لعلم التعبير لمن أحسن الاستدلال بها ، وكذلك من فهم القرآن ، فإنه يعبر به الرؤيا أحسن تعبير،وأصول التعبير الصحيحة إنما أخذت من مشكاة القرآن ، فالسفينة : تعبر بالنجاة لقوله تعالى: ﴿ **فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ** ﴾ [العنكبوت:١٥] ،وتعبر بالتجارة،والخشب بالمنافقين ،والحجارة بقساوة القلب،والبيض بالنساء،واللباس أيضاً بهن ،وشرب الماء بالفتنة ، وأكل لحم الرجل بغيبته ، والمفاتيح بالكسب والخزائن والأموال .والفتح يعبر مرة بالدعاء ومرة بالنصر . وكالملك يرى فى محلة لا عادة له بدخولها يعبر بإذلال أهلها وفسادها ، والحبل يعبر بالعهد والحق والعضد ، والنعاس قد يعبر بالأمن ، والبقل والبصل والثوم والعدس يعبر لمن أخذه بأنه قد استبدل شيئاً أدنى بما هو خير منه ؛ من مال أو رزق أو علم أو زوجة أو دار . والمرض يعبر بالنفاق والشك وشهوة الزنا.

والطفل الرضيع يعبر بالعدو ؛ لقوله تعالى : ﴿ **فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا**

وَحَزَنًا﴾ [القصص : ٨]. والنكاح بالبناء ،والرماد بالعمل الباطل؛ لقوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ ﴾ [إبراهيم:١٨] والنور يعبر بالهدى. والظلمة بالضلال ، ومن هاهنا قال عمر بن الخطاب لحابس بن سعد الطائى وقد ولاه القضاء ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، إنى رأيت الشمس والقمر يقتتلان ، والنجوم بينهما نصفين ، فقال عمر: مع أيهما كنت ؟ فقال: مع القمر على الشمس، قال : كنت مع الآية الممحوة ، اذهب فلست تعمل لى عملا، ولا تقتل إلا فى لبس من الأمر ،فقتل يوم صفين.

وقيل لعابر: رأيت الشمس والقمر دخلا فى جوفى، فقال: تموت ،واحتج بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ⑦ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ⑧ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ⑨ يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ⑩﴾ [القيامة] . وقال رجل لابن سيرين :رأيت معى أربعة أرغفة خبز ، فطلعت الشمس، فقال: تموت إلى أربعة أيام، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلا ㊺ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ㊻﴾ [الفرقان] ، وأخذ هذا التأويل أنه حمل رزق أربعة أيام ، وقال له آخر : رأيت كيسى مملوءاً أرضة، فقال: أنت ميت ، ثم قرأ: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ﴾ [سبأ: ١٤].

والنخلة: تدل على الرجل المسلم وعلى الكلمة الطيبة. والحنظلة: تدل على ضد ذلك. والصنم: يدل على العبد السوء الذى لاينفع. والبستان: يدل على العمل، واحتراقه: يدل على حبوطه لما تقدم فى أمثال القرآن، ومن رأى أنه ينقض غزلا أو ثوباً ليعيده مرة ثانية ، فإنه ينقض عهداً وينكثه . والمشى سوياً فى طريق مستقيم يدل على استقامته على الصراط المستقيم . والأخذ فى بنيات الطريق يدل على عدوله عنه إلى ما خالفه ، وإذا عرضت له طريقان ذات يمين وذات شمال، فسلك أحدهما ، فإنه من أهلها، وظهور عورة الإنسان له ذنب يرتكبه ويفتضح به. وهروبه وفراره من شىء نجاة وظفر. وغرقه فى الماء : فتنة فى دينه ودنياه. وتعلقه بحبل بين السماء والأرض: تمسكه بكتاب الله وعهده واعتصامه بحبله ،فإن انقطع به فارق العصمة إلا أن يكون ولى أمرا ،فإنه قد يقتل أو يموت.

فالرؤيا أمثال مضروبة، يضربها الملك الذى قد وكله الله بالرؤيا ليستدل الرائى بما ضرب له من المثل على نظيره، ويعبر منه إلى شبهه؛ ولهذا سمى تأويلها: تعبيراً، وهو تفعيل من العبور، كما أن الاتعاظ يسمى اعتباراً وعبرة لعبور المتعظ من النظير إلى نظيره ،ولولا أن حكم الشىء حكم مثله ، وحكم النظير حكم نظيره لبطل هذا التعبير والاعتبار ، ولما وجد إليه سبيل [١].

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ٢٠٧ ـ ٢١٢).

وأيضا

عن ابن عباس رضي الله عنهما : قال كان أبو هريرة يحدث : أن رجلا أتى إلى رسول الله ﷺ فقال: إنى أرى الليلة ظلة ينطف منها السمن والعسل، فأرى الناس يتكففون بأيديهم، فالمستكثر والمستقل ، وأرى سبباً واصلا من السماء إلى الأرض ، فأراك يارسول الله أخذت به، فعلوت ، ثم أخذ به رجل آخر فعلاً ، ثم أخذ به رجل آخر فعلا ، ثم أخذ به رجل آخر فانقطع ثم وصل ، فعلاً به ، قال أبو بكر : بأبى وأمى ، لتدعنى فلأعبرنها ، فقال : « اعبرها» قال : أما الظلة: فظلة الإسلام، وأما ما ينطف من السمن والعسل: فهو القرآن لينه وحلاوته ، وأما المستكثر والمستقل: فهو المستكثر من القرآن، والمستقل منه ، وأما السبب الواصل من السماء إلى الأرض: فهو الحق الذى أنت عليه: نأخذ به ، فيعليك الله ، ثم يأخذ به بعدك رجل فيعلو به ، ثم يأخذ به رجل آخر فيعلو به ، ثم يأخذ به رجل آخر فينقطع ، ثم يوصل له فيعلو به ، أى رسول الله لتحدثنى : أصبت أم أخطأت ؟ فقال : «أصبت بعضاً وأخطأت بعضاً » ، فقال : أقسمت يا رسول الله ، لتحدثنى : ما الذى أخطأت، فقال النبى ﷺ «لاتقسم ». وأخرجه مسلم والترمذى والنسائى وابن ماجة (١).

وهذا يشكل عليه شيئان:

أحدهما : أن فى نفس الرؤيا « ثم وصل له، فعلا به » فتفسير الصديق لذلك مطابق لنفس الرؤيا .

والثانى : أن قتل عثمان رضي الله عنه لا يمنع أن يوصل له، بدليل أن عمر قد قتل ، ومع هذا فأخذ به وعلا به، ولم يكن قتله مانعاً من علوه به.

وقد يجاب عنهما:

أما الأول: فلفظة « ثم وصل له» لم يذكر هذا البخارى، ولفظ حديثه « ثم أخذ به رجل آخر، فانقطع به، ثم وصل »فقط ، وهذا لا يقتضى أن يوصل له بعد انقطاعه به، وقال الصديق فى تفسيره فى نفس حديث البخارى: « فينقطع به ثم يوصل له » فهذا موضع الغلط ، وهذا مما يبين فضل صدق معرفة البخارى ، وغور علمه فى إعراضه عن لفظة « له » فى الأول وإنما انفرد بها مسلم.

وأما الثانى : فيجاب عنه : بأن عمر رضي الله عنه لم ينقطع به السبب من حيث علا به . وإنما

(١) مسلم (٢٢٦٩/١٧) فى الرؤيا ، باب: فى تأويل الرؤيا ، والترمذى (٢٢٩٣) فى الرؤيا ، باب: ماجاء فى رؤيا النبى ﷺ فى الميزان والدلو ، والنسائى فى الكبرى (٧٦٤٠) فى التعبير ، باب: السمن والعسل ، وابن ماجه (٣٩١٨) فى تعبير الرؤيا ، باب : تعبير الرؤيا.

انقطع به بالأجل المحتوم ، كما ينقطع الأجل بالسم وغيره ، وأما عثمان فانقطع به من حيث وصل له من الجهة التى علا بها ، وهى الخلافة ، فإنه إنما أريد منه أن يخلع نفسه ، وإنما قتلوه لعدم إجابتهم إلى خلع نفسه ، فخلعوه هم بالقتل ظلما وعدواناً ، فانقطع به من الجهة التى أخذ به منها ، ثم وصل لغيره ﷺ،وهذا سر سكوت النبى ﷺ عن تعيين موضع خطأ الصديق.

فإن قيل: فلم تكلفتم أنتم بيانه، وقد منع النبى ﷺ الصديق من تعرفه، والسؤال عنه؟

قيل: منعه من هذا: ما ذكرناه من تعلق ذلك بأمر الخلافة ، وما يحصل للرابع من المحنة ، وانقطاع السبب به ، فأما وقد حدث ذلك ووقع ، فالكلام فيه كالكلام فى غيره من الوقائع التى يحذر الكلام فيها قبل وقوعها؛ سدًا للذريعة؛ ودرءًا للمفسدة ، فإذا وقعت زال المعنى الذى سكت عنها لأجله (١).

وعن أنس بن مالك ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: « رأيت الليلة كأنا فى دار عقبة بن رافع، وأتينا برطب من رطب ابن طاب ، فأولت: أن الرفعة لنا فى الدنيا ، والعاقبة فى الآخرة، وأن ديننا قد طاب» ، أخرجه مسلم والنسائى (٢).

ولم يشك البخارى فيه، بل قال: « من رآنى فى المنام فسيرانى فى اليقظة ، ولا يتمثل الشيطان بى » (٣).

وفى الصحيحين من حديث أبى قتادة قال : قال رسول الله ﷺ : « من رآنى فى المنام فقد رأى الحق » (٤).

وأخرجه البخارى من حديث أبى سعيد، وزاد: « فإن الشيطان لايتكوننى »(٥).

وفى لفظ له فى حديث أبى قتادة: « فإن الشيطان لايتراءى بى » (٦).

وفى صحيح مسلم عن جابر عن النبى ﷺ: « من رآنى فى النوم فقد رآنى ، فإنه لاينبغى للشيطان أن يتمثل فى صورتى » (٧).

---

(١) تهذيب السنن (٧/ ٢٠ ـ ٢٢).

(٢) مسلم (١٨/٢٢٧٠) فى الرؤيا، باب: رؤيا النبى ﷺ ، والنسائى فى الكبرى (٧٣٤٤) فى التعبير، باب: الرطب.

(٣) البخارى (٦٩٩٣) فى التعبير، باب: من رأى النبى ﷺ فى المنام.

(٤) البخارى (٦٩٩٦) فى التعبير، باب: من رأى النبى ﷺ فى المنام، ومسلم (١١/٢٢٦٧) فى الرؤيا، باب: قول النبى ﷺ: « من رآنى فى المنام فقد رآنى » .

(٥) البخارى (٦٩٩٧) فى التعبير، باب: من رأى النبى ﷺ فى المنام.

(٦) البخارى (٦٩٩٥) فى التعبير، باب: من رأى النبى ﷺ فى المنام .

(٧) مسلم (١٢/٢٢٦٨) فى الرؤيا ، باب : قول النبى ﷺ : « من رآنى فى المنام فقد رآنى ».

وفى لفظ آخر: « فإنه لاينبغى للشيطان أن يتشبه بى » (١) (٢).

وسألته ﷺ خديجة ﵂ عن ورقة بن نوفل ، فقالت : إنه كان صدقك، ومات قبل أن تظهر ، فقال : « رأيته فى المنام ، وعليه ثياب بيض ، ولو كان من أهل النار،لكان عليه لباس غير ذلك » (٣).

وسأله ﷺ رجل رأى فى المنام كأن رأسه ضرب فتدحرج فاشتد فى أثره. فقال: « لا تحدث الناس بتلعب الشيطان بك فى منامك ». ذكره مسلم (٤).

وسألته ﷺ أم العلاء فقالت: رأيت لعثمان بن مظعون عيناً تجرى ، يعنى بعد موته، فقال: « ذاك عمله يجرى له »(٥) (٦).

وأما تعبيره (٧) حلق رأسه بوضعه ،فهذا لأن حلق الرأس وضع شعره على الأرض وهو لايدل بمجرده على وضع رأسه ،فإنه دال على خلاص من هم أو مرض أو شدة لمن يليق به ذلك وعلى فقر ونكد وزوال رياسة وجاه لمن لا يليق به ذلك ولكن فى منام الطفيل قرائن اقتضت أنه وضع رأسه ،منها أنه كان فى الجهاد ،ومقاتلة العدو ذى الشوكة والبأس.

ومنها: أنه دخل فى بطن المرأة التى رآها ،وهى الأرض التى هى بمنزلة أمه ،ورأى أنه قد دخل فى الموضع الذى خرج منه ، وهذا هو إعادته إلى الأرض ،كما قال تعالى: ﴿ **مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُم** ﴾ [طه: ٥٥]، فأول المرأة بالأرض إذ كلاهما محل الوطء، وأول دخوله فى فرجها بعوده إليها كما خلق منها،وأول الطائر الذى خرج من فيه بروحه، فإنها كالطائر المحبوس فى البدن، فإذا خرجت منه كانت كالطائر الذى فارق حبسه، فذهب حيث شاء؛ ولهذا أخبر النبى ﷺ: «أن نسمة المؤمن طائر يعلق فى شجر الجنة»(٨)، وهذا هو الطائر الذى رؤى داخلاً فى قبر ابن عباس لما دفن ، وسمع قارئ يقرأ : ﴿ **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨)** ﴾ [الفجر] . وعلى حسب بياض هذا الطائر

---

(١) مسلم (٢٢٦٨/ ١٣) فى الرؤيا، باب: قول النبى ﷺ : « من رآنى فى المنام فقد رآنى ».

(٢) تهذيب السنن (٧/ ٣٠٠ - ٣٠٢).

(٣) الترمذى (٢٢٨٨) فى الرؤيا ، باب: ماجاء فى رؤيا النبى (ص) فى الميزان والدلو ،وضعفه الألبانى.

(٤) مسلم (٢٢٦٨/ ١٥) فى الرؤيا ، باب: لا يخبر بتلعب الشيطان به فى المنام.

(٥) البخارى (٧٠١٨) فى التعبير ، باب: العين الجارية فى المنام ، والبيهقى فى الكبرى (٤/ ٧٦) فى الجنائز ، باب: لايشهد لأحد بجنة ولابنار. . .إلخ.

(٦) إعلام الموقعين (٤/ ٥٠٥، ٥٠٦).

(٧) أى : الطفيل بن عمرو .

(٨) النسائى (٢٠٧٣) فى الجنائز، باب: أرواح المؤمنين ،وابن ماجه (٤٢٧١) فى الزهد، باب: ذكر القبر والبلى ،وأحمد (٣/ ٤٥٥، ٤٥٦) ،ومالك فى الموطأ (٤٩) فى الجنائز ، باب: جامع الجنائز.

وسواده وحسنه وقبحه ،تكون الروح،ولهذا كانت أرواح آل فرعون فى صورة طيور سود ترد النار بكرة وعشية،وأول طلب ابنه له باجتهاده فى أن يلحق به فى الشهادة،وحبسه عنه هو مدة حياته بين وقعة اليمامة واليرموك. والله أعلم (١).

وأيضا

إن من النفوس البشرية ما هى على نفوس الحيوانات العادية وغيرها. وهذا هو تأويل سفيان بن عيينة فى قوله تعالى: ﴿ **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ** ﴾ [الأنعام:٣٨]، وعلى هذا الشبه اعتماد أهل التعبير للرؤيا فى رؤية هذه الحيوانات فى المنام عند الإنسان وفى داره أو أنها تحاربه ،وهو كما اعتمدوه ،وقد وقع لنا ولغيرنا من ذلك فى المنام وقائع كثيرة فكان تأويلها مطابقا لأقوام على طباع تلك الحيوانات . وقد رأى النبى ﷺ فى قصة أحد بقرا تنحر » (٢). فكان من أصيب من المؤمنين بنحر الكفار،فإن البقر أنفع الحيوانات للأرض وبها صلاحها وفلاحها،مع ما فيها من السكينة والمنافع والذل ـ بكسر الذال ـ فإنها ذلول مذللة منقادة غير أبية والجواميس كبارهم ورؤساؤهم،ورأى عمر بن الخطاب كأن ديكا نقره ثلاث نقرات فكان طعن أبى لؤلؤة له والديك رجل أعجمى شرير (٣) (٤).

فائدة

تفسير النبى ﷺ البقر التى رآها فى النوم تنحر بالنفر الذين أصيبوا من أصحابه يوم أحد، قيل: وجه هذا التأويل: أن البقر والنفر مشتركان فى صورة الخط،ويمتاز أحدهما عن الآخر بالنقط وهذه جهة من جهات التعبير،وهذا قول فاسد جداً،ولم يكن النبى ﷺ يدرك شيئا من الخط أصلا ولا هذه جهة صحيحة من جهات التأويل ،فلا يؤول النرد بالبرد،ولا الزيد بالزند،ولا العين بالغين ،ولا الحية بالجنة،وأمثال ذلك.

وقيل: وجه الشبه أن البقر معها أسلحتها التى تقاتل بها وهى قرونها،وكانت العرب تستعمل الصياصى والقرون فى الرماح عند عدم الأسنة. وهذا أغرب من الأول ولكنهم مشترك بين المسلمين والكفار،فإن كل طائفة معها سلاحها. وأجود من هذين أن يقال وجه التشبيه: أن الأرض لاتعمر ولا تفلح إلا بالبقر ،فهم عمارة الأرض،وبها صلاح العالم وبقاء معيشتهم وقوام أمرهم،وهكذا المؤمنون بهم إصلاح الأرض وأهلها،وهم زينتها،وأنفع أهل

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٦٢٧، ٦٢٨). (٢) سبق تخريجه ، ص٤٠٢ .
(٣) مسلم (٥٦٧/ ٧٨) فى المساجد ومواضع الصلاة ،باب: نهى من أكل ثوما أو بصلا أو كراثا أو نحوها، وأحمد(١/ ١٥). (٤) مدارج السالكين (١/ ٤٠٢).

الأرض للناس ، كما أن البقر أنفع الدواب للأرض . ومن وجه آخر وهو : أن البقر تثير الأرض وتهيئها لقبول البذر وإنباته ، وهكذا أهل العلم والإيمان يثيرون القلوب ويهيئونها لقبول بذر الهدى فيها ونباته وكماله، والله أعلم [١].

فصل
فى قص الرؤيا على النساء

حديث النهى أن تقص الرؤيا على النساء، قال العقيلى: لا يحفظ من وجه يثبت [٢].

فصل
فى رؤية الحى للميت فى منامه

وقد دل على التقاء أرواح الأحياء والأموات أن الحى يرى الميت فى منامه فيستخبره ويخبره الميت بما لا يعلم الحى فيصادف خبره كما أخبر فى الماضى والمستقبل، وربما أخبره بمال دفنه الميت فى مكان لم يعلم به سواه ، وربما أخبره بدين عليه وذكر له شواهده وأدلته.

وأبلغ من هذا أنه يخبر بما عمله من عمل لم يطلع عليه أحد من العالمين ، وأبلغ من هذا أنه يخبره أنك تأتينا إلى وقت كذا وكذا فيكون كما أخبر ، وربما أخبره عن أمور يقطع الحى أنه لم يكن يعرفها غيره، وقد ذكرنا قصة الصعب بن جثامة وقوله لعوف بن مالك ما قال له، وذكرنا قصة ثابت بن قيس بن شماس وأخباره لمن رآه تدعه وما عليه من الدين.

وقصة صدقة بن سليمان الجعفرى وأخبار ابنه له بما عمل من بعده ، وقصة شبيب بن شيبة، وقول أمه له بعد الموت: جزاك الله خيرا ، حيث لقنها لا إله إلا الله ، وقصة الفضل ابن الموفق مع ابنه وإخباره إياه بعلمه بزيارته .

وقال سعيد بن المسيب التقى عبد الله بن سلام وسلمان الفارسى، فقال أحدهما للآخر: إن مت قبلى فالقنى فأخبرنى مالقيت من ربك، وإن أنا مت قبلك لقيتك فأخبرتك. فقال الآخر: وهل تلتقى الأموات والأحياء؟ قال: نعم أرواحهم فى الجنة تذهب حيث تشاء قال : فمات فلان فلقيه فى المنام، فقال: توكل وأبشر، فلم أر مثل التوكل قط. وقال العامر بن عبد المطلب: كنت أشتهى أن أرى عمر فى المنام، فما رأيته إلا عند قرب الحول، فرأيته يمسح العرق عن جبينه وهو يقول: هذا أوان فراغى، إن كاد عرشى ليهد، لولا أن لقيت رؤوفا رحيما.

ولما حضرت شريح بن عابد الثمالى الوفاة دخل عليه غضيف بن الحارث وهو يجود

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١٩٩).
(٢) المنار المنيف (١٣٢).

بنفسه، فقال: يا أبا الحجاج ، إن قدرت على أن تأتينا بعد الموت فتخبرنا بما ترى فافعل. قال: وكانت كلمة مقبولة فى أهل الفقه. قال : فمكث زمانا لا يراه ، ثم رآه فى منامه فقال له: أليس قدمت؟ قال: بلى. قال: فكيف حالك ؟ قال: تجاوز ربنا عنا الذنوب، فلم يهلك منا إلا الأحراض. قلت: وما الأحراض؟ قال: الذين يشار إليهم بالأصابع فى الشيء.

وقال عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز: رأيت أبى فى النوم بعد موته كأنه فى حديقة فدفع إلى تفاحات، فأولتهن الولد، فقلت: أى الأعمال وجدت أفضل؟ فقال: الاستغفار أى بنى.

ورأى مسلمة بن عبدالملك عمر بن عبدالعزيز بعد موته، فقال: يا أمير المؤمنين ،ليت شعرى إلى أى الحالات صرت بعد الموت؟ قال: يا مسلمة، هذا أوان فراغى، والله ما استرحت إلا الآن. قال: قلت: فأين أنت يا أمير المؤمنين؟ قال: مع أئمة الهدى فى جنة عدن.

قال صالح البراد: رأيت زرارة بن أوفى بعد موته، فقلت: رحمك الله، ماذا قيل لك وماذا قلت ؟ فأعرض عنى ، قلت :فما صنع الله بك ؟ قال : تفضل على بجوده وكرمه، قلت: فأبو العلاء بن يزيد أخو مطرف؟ قال : ذاك فى الدرجات العلى. قلت: فأى الأعمال أبلغ فيما عندكم؟ قال: التوكل وقصر الأمل.

قال مالك بن دينار: رأيت مسلم بن يسار بعد موته، فسلمت عليه فلم يرد على السلام، فقلت: ما يمنعك أن ترد السلام؟ قال: أنا ميت، فكيف أرد عليك السلام، فقلت له : ماذا لقيت بعد الموت؟ قال: لقيت والله أهوالا وزلازل عظاما شدادا ، قال: قلت له : فما كان بعد ذلك ؟ قال: وما تراه يكون من الكريم، قبل منا الحسنات، وعفا لنا عن السيئات، وضمن عنا التبعات. قال: ثم شهق مالك شهقة خر مغشيا عليه، قال: فلبث بعد ذلك مريضاً، ثم انصدع قلبه فمات.

وقال سهيل أخو حزم : رأيت مالك بن دينار بعد موته ، فقلت : يا أبا يحيى ، ليت شعرى ، ماذا قدمت به على الله؟ قال : قدمت بذنوب كثيرة، محاها عنى حسن الظن بالله عز وجل.

ولما مات رجاء بن حيوة رأته امرأة عابدة ،فقالت : يا أبا المقدم ، إلام صرتم: قال: إلى خير، ولكن فزعنا بعدكم فزعة ظننا أن القيامة قد قامت. قالت: قلت: ومم ذلك؟ قال: دخل الجراح وأصحابه الجنة بأثقالهم حتى ازدحموا على بابها.

وقال جميل بن مرة: كان مورق العجلى لى أخا وصديقاً، فقلت له ذات يوم: أينا مات قبل صاحبه فليأت صاحبه فليخبره بالذى صار إليه. قال: فمات مورق، فرأت أهلى فى منامها كأنه أتانا كما كان يأتى، فقرع الباب كما كان يقرع. قالت: فقمت ففتحت له كما كنت أفتح، وقلت: أدخل يا أبا المعتمر إلى باب أخيك. فقال: كيف أدخل وقد ذقت الموت، إنما

جئت لأعلم جميلا بما صنع الله بى،أعلميه أنه جعلنى فى المقربين.

ولما مات محمد بن سيرين حزن عليه بعض أصحابه حزنا شديداً ،فرآه فى المنام فى الحال حسنة،فقال:يا أخى،قد أراك فى حال يسرنى فما صنع الحسن؟قال:رفع فوقى بسبعين درجة،قلت:ولم ذاك وقد كنا نرى أنك أفضل منه ؟قال:ذاك بطول حزنه.

وقال ابن عيينة:رأيت سفيان الثورى فى النوم فقلت:أوصنى.قال:أقل من معرفة الناس.

وقال عمار بن سيف : رأيت الحسن بن صالح فى منامى ، فقلت : قد كنت متمنيا للقائك ، فماذا عندك فتخبرنا به.فقال:أبشر، فإنى لم أر مثل حسن الظن بالله شيئاً.

ولما مات ضيغم العابد،رآه بعض أصحابه فى المنام فقال:أما صليت على؟قال:فذكرت علة كانت،فقال:أما لوكنت صليت على ربحت رأسك.

ولما ماتت رابعة رأتها امرأة من أصحابها وعليها حلة إستبرق وخمار من سندس،وكانت كفنت فى جبة وخمار من صوف ، فقالت لها : ما فعلت الجبة التى كفنتك فيها وخمار الصوف؟ قالت: والله إنه نزع عنى،وأبدلت به هذا الذى ترين على ،وطويت أكفانى وختم عليها ،ورفعت فى عليين ليكمل لى ثوابها يوم القيامة.قالت:فقلت لها:لهذا كنت تعملين أيام الدنيا !فقالت:وما هذا عند ما رأيت من كرامة الله لأوليائه ،فقلت لها:فما فعلت عبدة بنت كلاب ؟ فقالت : هيهات ، سبقتنا والله إلى الدرجات العلى ، قالت : قلت وبم وقد كنت عند الناس أعبد منها ؟ فقالت : إنها لم تكن تبالى على أى حال أصبحت من الدنيا أو أمست ، فقلت : فما فعل أبومالك ـ تعنى ضيغما ؟ فقالت : يزور الله تبارك وتعالى متى شاء ، قالت:قلت فما فعل بشر بن منصور؟ قالت:بخ بخ،أعطى والله فوق ماكان يأمل. قالت:قلت:مرينى بأمر أتقرب به إلى الله تعالى.قالت:عليك بكثرة ذكر الله،فيوشك أن تغتبطى بذلك فى قبرك.

ولما مات عبد العزيز بن سليمان العابد رآه بعض أصحابه وعليه ثياب خضر،وعلى رأسه إكليل من لؤلؤ،فقال:كيف كنت بعدنا؟وكيف وجدت طعم الموت؟ وكيف رأيت الأمر هناك؟ قال:أما الموت فلا تسأل عن شدة كربه وغمه إلا أن رحمة الله وارت عنا كل عيب،وما تلقانا إلا بفضله.

وقال صالح بن بشر:لما مات عطاء السلمى رأيته فى منامى،فقلت:يا أبا محمد ،ألست فى زمرة الموتى؟ قال:بلى،قلت:فماذا صرت إليه بعد الموت ؟قال:صرت والله إلى خير

كثير،ورب غفور شكور ،قال:قلت:أما والله لقد كنت طويل الحزن فى دار الدنيا،فتبسم وقال : والله لقد أعقبنى ذلك راحة طويلة وفرحا دائماً ، قلت : ففى أى الدرجات أنت ؟ قال:مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

ولما مات عاصم الجحدرى رآه بعض أهله فى المنام ، فقال : أليس قد مت ؟ قال: بلى. قال :فأين أنت ؟ قال : أنا والله فى روضة من رياض الجنة ، أنا ونفر من أصحابى، نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى بكر بن عبد الله المزنى فنتلقى أخباركم ، قال: قلت: أجسادكم أم أرواحكم ؟ قال :هيهات ، بليت الأجساد ، وإنما تتلاقى الأرواح.

ورئى الفضيل بن عياض بعد موته ،فقال:لم أر للعبد خيرا من ربه .

وكان مرة الهمدانى قد سجد حتى أكل التراب جبهته ، فلما مات رآه رجل من أهله فى منامه وكأن موضع سجوده كهيئة الكوكب الدرى ، فقال : ما هذا الأثر الذى أرى بوجهك ؟ قال : كسى موضع السجود بأكل التراب له نورا ، قال : قلت : فما منزلتك فى الآخرة ؟ قال .خير منزل ،دار لا ينتقل عنها أهلها ولا يموتون .

وقال أبو يعقوب القارئ :رأيت فى منامى رجلا آدما طوالا والناس يتبعونه ،قلت:من هذا ؟ قالوا : أويس القرنى ، فاتبعته ، فقلت : أوصنى يرحمك الله ، فكلح فى وجهى، فقلت:مسترشد فأرشدنى رحمك الله،فأقبل على فقال:ابتغ رحمة الله عند محبته؛واحذر نقمته عند معصيته ،ولا تقطع رجاءك منه فى خلال ذلك ،ثم ولى وتركنى.

وقال ابن السماك : رأيت مسعرا فى النوم ، فقلت : أى الأعمال وجدت أفضل؟ قال:مجالس الذكر . وقال الأجلح :رأيت سلمة بن كهيل فى النوم ، فقلت : أى الأعمال وجدت أفضل؟ قال:قيام الليل.

وقال أبو بكر بن أبى مريم:رأيت وفاء بن بشر بعد موته،فقلت:ما فعلت يا وفاء؟ قال:نجوت بعد كل جهد ، قلت :فأى الأعمال وجدتموها أفضل؟قال:البكاء من خشية الله عز وجل.

وقال الليث بن سعد عن موسى بن وردان :أنه رأى عبد الله بن أبى حبيبة بعد موته، فقال : عرضت على حسناتى وسيئاتى فرأيت فى حسناتى حبات رمان التقطتهن فأكلتهن ، ورأيت فى سيئاتى خيطى حرير كانا فى قلنسوتى.

وقال سعيد بن داود : حدثنى ابن أخى جويرية بن أسماء قال: كنا بعبادان: فقدم علينا شاب من أهل الكوفة متعبد، فمات بها فى يوم شديد الحر، فقلت: نبرد ثم نأخذ فى جهازه ، فنمت فرأيت كأنى فى المقابر ، فإذا بقبة جوهر تتلألأ حسناً وأنا أنظر إليها ، إذا انفلقت ، فأشرفت منها جارية ما رأيت مثل حسنها ، فأقبلت على فقالت : بالله لا تحبسه عنا إلى الظهر ، قال فانتبهت فزعاً وأخذت فى جهازه ، وحفرت له قبراً فى الموضع الذى رأيت فيه القبة فدفنته فيه.

وقال عبد الملك بن عتاب الليثى: رأيت عامر بن عبد قيس فى النوم، فقلت: أى الأعمال وجدت أفضل؟ قال: ما أريد به وجه الله عز وجل.

وقال يزيد بن هارون : رأيت أبا العلاء أيوب بن مسكين فى المنام ، فقلت : ما فعل بك ربك ؟ قال : غفر لى ، قلت : بماذا ؟ قال : بالصوم ، والصلاة قلت : أرأيت منصور بن زاذان ؟ قال : هيهات ذاك نرى قصره من بعيد .

وقال يزيد بن نعامة: هلكت جارية فى طاعون الجارف فلقيها أبوها بعد موتها، فقال لها: يا بنية ، أخبرينى عن الآخرة ، قالت: يا أبت ، قدمنا على أمر عظيم نعلم ولا نعمل، وتعملون ولا تعلمون، والله لتسبيحة أو تسبيحتان أو ركعة أو ركعتان فى صحيفة عملى أحب إلى من الدنيا وما فيها.

وقال كثير بن مرة : رأيت فى منامى كأنى دخلت درجة علياء فى الجنة، فجعلت أطوف بها وأتعب منها ، فإذا أنا بنساء من نساء المسجد فى ناحية منها، فذهبت ـ حتى سلمت عليهن ثم قلت : بما بلغتن هذه الدرجة ، قلن: بسجدات وتكبيرات.

وقال مزاحم مولى عمر بن عبد العزيز ، عن فاطمة بنت عبدالملك ـ امرأة عمر بن عبد العزيز : قالت: انتبه عمر بن عبد العزيز ليلة فقال : لقد رأيت رؤيا معجبة . قالت فقلت : جعلت فداءك فأخبرنى بها، فقال: ما كنت لأخبرك بها حتى أصبح، فلما طلع الفجر خرج فصلى ثم عاد إلى مجلسه، قالت : فاغتنمت خلوته فقلت: أخبرنى بالرؤيا التى رأيت. قال: رأيت كأنى رفعت إلى أرض خضراء واسعة كأنها بساط أخضر، وإذا فيها قصر أبيض كأنه الفضة ، وإذا خارج قد خرج من ذلك القصر فهتف بأعلى صوته يقول: أين محمد بن عبد الله بن عبدالمطلب ؟ أين رسول ﷺ ؟ إذ أقبل رسول الله ﷺ حتى دخل القصر: قال: ثم إن آخر خرج من ذلك القصر فنادى: أين أبو بكر الصديق؟ أين ابن أبى قحافة؟ إذ أقبل أبو بكر حتى دخل ذلك القصر. ثم خرج آخر فنادى : أين عمر بن الخطاب؟ فأقبل عمر حتى دخل ذلك القصر. ثم خرج آخر فنادى: أين عثمان بن عفان؟ فأقبل حتى دخل

ذلك القصر. ثم خرج آخر فنادى: أين على بن أبى طالب؟ فأقبل حتى دخل ذلك القصر. ثم إن آخر خرج فنادى : أين عمر بن عبد العزيز ؟ قال عمر: فقمت حتى دخلت ذلك القصر. قال : فدفعت إلى رسول الله ﷺ والقوم حوله ، فقلت بينى وبين نفسى : أين أجلس ؟ فجلست إلى جنب أبى عمر بن الخطاب ، فنظرت فإذا أبو بكر عن يمين النبى ﷺ، وإذا عمر عن يساره، فتأملت، فإذا بين رسول الله ﷺ وبين أبى بكر رجل ، فقلت : من هذا الرجل الذى بين رسول الله ﷺ وبين أبى بكر؟ فقال: هذا عيسى ابن مريم ، فسمعت هاتفا يهتف وبينى وبينه ستر نور : يا عمر بن عبد العزيز ، تمسك بما أنت عليه ، واثبت على ما أنت عليه. ثم كأنه أذن لى فى الخروج فخرجت من ذلك القصر، فالتفت خلفى ، فإذا أنا بعثمان ابن عفان وهوخارج من ذلك القصر يقول : الحمد لله الذى نصرنى ، وإذا على بن أبى طالب فى دائرة خارج من ذلك القصر وهو يقول: الحمد لله الذى غفر لى.

وقال سعيد بن أبى عروة عن عمر بن عبد العزيز. رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبو بكر وعمر جالسان عنده، فسلمت وجلست، فبينا أنا جالس إذ أتى بعلى ومعاوية فأدخلا بيتاً وأجيف عليهما الباب، وأنا أنظر، فما كان بأسرع من أن يخرج على وهو يقول: قضى لى ورب الكعبة، وما كان بأسرع من أن خرج معاوية على أثره وهو يقول: غفر لى ورب الكعبة.

وقال حماد بن أبى هاشم: جاء رجل إلى عمر بن عبدالعزيز فقال: رأيت رسول الله ﷺ فى المنام، وأبو بكر عن يمينه، وعمر عن شماله، وأقبل رجلان يختصمان وأنت بين يديه جالس ، فقال لك : يا عمر ، إذا عملت فاعمل بعمل هذين أبى بكر وعمر، فاستحلفه عمر بالله : أرأيت هذه الرؤيا؟ فحلف فبكى عمر.

وقال عبدالرحمن بن غنم : رأيت معاذ بن جبل بعد وفاته بثلاث على فرس أبلق ، وخلفه رجال بيض عليهم ثياب خضر على خيل بلق، وهو قدامهم ، وهو يقول: **﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾** [يس: ٢٧]، ثم التفت عن يمينه وشماله يقول: يا بن رواحة، يا بن مظعون **﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾** [الزمر: ٧٤] ثم صافحنى وسلم على.

وقال قبيصة بن عقبة: رأيت سفيان الثورى فى المنام بعد موته، فقلت: مافعل الله بك؟ فقال:

نظرت إلى ربى عيانا فقال لى هنيئا رضايا عنك يا بن سعيد
فقد كنت قواماً إذا الليل قد دجا بعبرة محزون وقلب عميد
فدونك فاختر أى قصر تريده وزرنى فإنى منك غير بعيد

وقال سفيان بن عيينة: رأيت سفيان الثورى بعد موته يطير فى الجنة من نخلة إلى شجرة، ومن شجرة إلى نخلة، وهو يقول: ﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١] فقيل له: بما أدخلت الجنة؟ قال: بالورع بالورع، قيل له : فما فعل على بن عاصم؟ قال: ما نراه إلا مثل الكوكب.

وكان شعبة بن الحجاج ومسعر بن كدام حافظين، وكانا جليلين، قال أبو أحمد البريدى: فرأيتهما بعد موتها ، فقلت : أبا بسطام ، ما فعل الله بك ؟ فقال : وفقك الله لحفظ ما أقول :

حبانى إلهى فى الجنان بقبة لها ألف باب من لجين وجوهرا
وقال لى الرحمن يا شعبة الذى تبحر فى جمع العلوم فأكثرا
تنعم بقربى إننى عنك ذو رضا وعن عبدى القوام فى الليل مسعرا
كفا مسعرا عزا بأن سيزرونى وأكشف عن وجهى الكريم لينظرا
وهذا فعالى بالذين تنسكوا ولم يألفوا فى سالف الدهر منكرا

قال أحمد بن محمد اللبدى :رأيت أحمد بن حنبل فى النوم ، فقلت: يا أبا عبد الله، مافعل الله بك؟ قال: غفر لى، يا أحمد ،ضربت فى ستين سوطاً ؟قلت: نعم يا رب، قال هذا وجهى ، قد أبحتك فانظر إليه.

وقال أبو بكر أحمد بن محمد بن الحجاج : حدثنى رجل من أهل طرطوس ، قال : دعوت الله عز وجل أن يرينى أهل القبور، حتى أسألهم عن أحمد بن حنبل ما فعل الله به؟ فرأيت بعد عشر سنين فى المنام كأن أهل القبور قد قاموا على قبورهم فبادرونى بالكلام ، فقالوا : يا هذا، كم تدعو الله عز وجل أن يريك إياناً ، تسألنا عن رجل لم يزل منذ فارقكم تحليه الملائكة تحت شجرة طوبى.

قال أبو محمد عبدالحق : وهذا الكلام من أهل القبور إنما هو إخبار عن علو درجة أحمد بن حنبل، وارتفاع مكانه، وعظم منزلته ،فلم يقدروا أن يعبروا عن صفة حاله وعما هو فيه إلا بهذا وما هو فى معناه.

وقال أبو جعفر السقاء، صاحب بشر بن الحارث : رأيت بشرا الحافى ومعروفا الكرخى وهما جائيان ، فقلت: من أين ، قالا: من جنة الفردوس ، زرنا كليم الله موسى.

وقال عاصم الجزرى: رأيت فى النوم كأنى لقيت بشر بن الحارث ، فقلت: من أين يا أبا نصر؟ قال: من عليين ، قلت: فما فعل أحمد بن حنبل ؟ قال: تركته الساعة مع عبد الوهاب الوراق بين يدى الله عز وجل يأكلان ويشربان، قلت له: فأنت؟ قال: علم قلة رغبتى فى الطعام فأباحنى النظر إليه.

وقال أبو جعفر السقاء: رأيت بشر بن الحارث فى النوم بعد موته فقلت: أبا نصر ما فعل الله بك؟ قال: ألطفنى ورحمنى ، وقال لى: يا بشر ، لو سجدت لى فى الدنيا على الجمر ما أديت شكر ما حشوت قلوب عبادى منك، وأباح لى نصف الجنة فأسرح فيها حيث شئت ، ووعدنى أن يغفر لمن تبع جنازتى ، فقلت : ما فعل أبو نصر التمار؟ فقال: ذاك فوق الناس بصبره على بلائه وفقره. قال عبد الحق: لعله أراد بقوله (نصف الجنة) نصف نعيمها ؛ لأن نعيمها نصفان؛ نصف روحانى ونصف جسمانى، فيتنعمون أولاً بالروحانى، فإذا ردت الأرواح إلى الأجساد أضيف لهم النعيم الجسمانى إلى الروحانى، وقال غيره : نعيم الجنة مرتب على العلم والعمل ، وحظ بشر من العمل كان أوفى من حظه فى العلم، والله أعلم.

وقال بعض الصالحين: رأيت أبا بكر الشبلى فى المنام، وكأنه قاعد فى مجلس الرصافة بالموضع الذى كان يعقد فيه، وإذا به قد أقبل وعليه ثياب حسان ، فقمت إليه وسلمت عليه، وجلست بين يديه فقلت له: من أقرب أصحابك إليك ؟ قال: أكثرهم لذكر الله، وأقومهم بحق الله ، وأسرعهم مبادرة فى مرضاة الله.

وقال أبو عبد الرحمن الساحلى: رأيت ميسرة بن سليم فى المنام بعد موته ، فقلت له: طالت غيبتك، فقال : السفر الطويل ، فقلت له : فما الذى قدمت عليه؟ فقال: رخص لى لأنا كنا نفتى بالرخص، فقلت: فما تأمرنى به ؟ قال: اتباع الآثار ، وصحبة الأخيار ، ينجيان من النار، ويقربان من الجبار.

وقال أبو جعفر الضرير: رأيت عيسى بن زاذان بعد موته، فقلت: ما فعل الله بك؟ فأنشأ يقول:

لو رأيت الحسان فى الخلد حولى	وأكاويب معها للشراب
يترغن بالكتاب جميعاً	يتمشين مسبلات الثياب

وقال بعض أصحاب ابن جريج: رأيت كأنى جئت إلى المقبرة التى بمكة، فرأيت على

عامتها سرادقاً، ورأيت منها قبراً عليه سرادق وفسطاط وسدرة ، فجئت حتى دخلت فسلمت عليه ، فإذا بمسلم بن خالد الزنجى فسلمت عليه وقلت : يا أبا خالد ما بال هذه القبور عليها سرادق وقبرك عليه سرادق وفسطاط وفيه سدرة؟ ، فقال: إنى كنت كثير الصيام، فقلت : فأين قبر ابن جريج وأين محله؟ فقد كنت أجالسه وأنا أحب أن أسلم عليه ، فقال : هكذا بيده ، هيهات، وأدار أصبعه السبابة وأين قبر ابن جريج ؟ رفعت صحيفته فى عليين !

ورأى حماد بن سلمة فى النوم أصحابه، فقال له: ما فعل الله بك؟ فقال: قال لى : طال ما كددت نفسك فى الدنيا ، فاليوم أطيل راحتك وراحة المتعبين.

وهذا باب طويل جداً، فإن لم تسمح نفسك بتصديقه ، وقلت: هذه منامات ، وهى غير معصومة ، فتأمل من رأى صاحباً له أو قريباً أو غيره فأخبره بأمر لا يعلمه إلا صاحب الرؤيا ، أو أخبره بمال دفنه ، أو حذره من أمر يقع ، أو بشره بأمر يوجد فوقع كما قال ، أو أخبره بأنه يموت هو أو بعض أهله إلى كذا وكذا فيقع كما أخبر ، أو أخبره بخصب أو جدب أو عدو أو نازلة أو مرض أو بغرض له فوقع كما أخبره، والواقع من ذلك لا يحصيه إلا الله والناس مشتركون فيه، وقد رأينا نحن وغيرنا من ذلك عجائب.

وأبطل من قال: إن هذه كلها علوم وعقائد فى النفس تظهر لصاحبها عند انقطاع نفسه عن الشواغل البدنية بالنوم، وهذا عين الباطل والمحال ، فإن النفس لم يكن فيها قط معرفة هذه الأمور التى يخبر بها الميت ، ولا خطرت ببالها ولا عندها علامة عليها ولا أمارة بوجه ما ، ونحن لاننكر أن الأمر قد يقع كذلك.

وإن من الرؤيا ما يكون من حديث النفس وصورة الاعتقاد، بل كثير من مرائى الناس إنما هى من مجرد صور اعتقادهم المطابق وغير المطابق.

فإن الرؤيا على ثلاثة أنواع: رؤيا من الله، ورؤيا الشيطان، ورؤيا من حديث النفس.

والرؤيا الصحيحة أقسام: منها إلهام يلقيه الله ـ سبحانه ـ فى قلب العبد وهو كلام يكلم به الرب عبده فى المنام ، كما قال عبادة بن الصامت وغيره.

ومنها : مثل يضربه له ملك الرؤيا الموكل بها.

ومنها: التقاء روح النائم بأرواح الموتى من أهله وأقاربه وأصحابه وغيرهم، كما ذكرنا.

ومنها: عروج روحه إلى الله ـ سبحانه ـ وخطابها له.

ومنها: دخول روحه إلى الجنة ومشاهدتها وغير ذلك، فالتقاء أرواح الأحياء والموتى نوع

من أنواع الرؤيا الصحيحة، التى هى عند الناس من جنس المحسوسات.

وهذا موضع اضطرب فيه الناس، فمن قائل: إن العلوم كلها كامنة فى النفس، وإنما اشتغالها بعالم الحس يحجب عنا مطالعتها، فإذا تجردت بالنوم رأت منها بحسب استعدادها، ولما كان تجردها بالموت أكمل كانت علومها ومعارفها هناك أكمل ، وهذا ، فيه حق وباطل ، فلا يرد كله ولا يقبل كله . فإن تجرد النفس يطلعها على علوم ومعارف لا تحصل بدون التجرد ، لكن لو تجردت كل التجرد لم تطلع على علم الله الذى بعث به رسوله ، وعلى تفاصيل ما أخبر به عن الرسل الماضية والأمم الخالية، وتفاصيل المعاد وأشراط الساعة، وتفاصيل الأمر والنهى والأسماء والصفات والأفعال ،وغير ذلك مما لا يعلم إلا بالوحى، ولكن تجرد النفس عون لها على معرفة ذلك وتلقيه من معدنه أسهل وأقرب وأكثر مما يحصل للنفس المنغمسة فى الشواغل البدنية.

ومن قائل: إن هذه المرائى علوم علقها الله فى النفس ابتداء بلا سبب، وهذا قول منكرى الأسباب والحكم القوى، وهو قول مخالف للشرع والعقل والفطرة .

ومن قائل :إن الرؤيا أمثال مضروبة يضربها الله للعبد بحسب استعداد ألفه على يد ملك الرؤيا، فمرة يكون مثلاً مضروباً، ومرة يكون نفس ما رآه الرائى ،فيطابق الواقع مطابقة العلم لمعلومه.

وهذا أقرب من القولين قبله، ولكن الرؤيا ليست مقصورة عليه ،بل لها أسباب أخرى كما تقدم من ملاقات الأرواح وإخبار بعضها بعضاً، من إلقاء الملك الذى فى القلب والروع، ومن رؤية الروح للأشياء مكافحة بلا واسطة.

وقد ذكر أبو عبد الله بن منده الحافظ فى (كتاب النفس والروح) من حديث محمد بن حميد: حدثنا عبد الرحمن بن مغراء الدوسى، حدثنا الأزهر بن عبد الله الأزدى ،عن محمد ابن عجلان ، عن سالم بن عبد الله ، عن أبيه قال: لقى عمر بن الخطاب على بن أبى طالب، فقال له: يا أبا الحسن، ربما شهدت وغبنا ،وشهدنا وغبت؟ ثلاث أسألك عنهن عندك منهن علم ،فقال على بن أبى طالب: وما هن؟فقال: الرجل يحب الرجل ولم ير منه خيراً، والرجل يبغض الرجل ولم ير منه شراً ،فقال على :نعم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الأرواح جنود مجندة ،تلتقى فى الهواء فتشام ،فما تعارف منها ائتلف ،وما تناكر منها اختلف»، فقال: واحدة. قال عمر: والرجل يحدث الحديث إذ نسيه ،فبينا هو وما نسيه إذ ذكره ؟ فقال : نعم سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما فى القلوب قلب إلا وله سحابة

كسحابة القمر ، بينما القمر مضيء إذا تجللته سحابة فأظلم إذ تجلت فأضاء ، وبينا القلب يتحدث إذ تجللته سحابة فنسى،إذ تجلت عنه فيذكر » . قال عمر: اثنتان. قال : والرجل يرى الرؤيا ، فمنها ما يصدق ومنها ما يكذب ؟فقال: نعم ،سمعت رسول الله ﷺ يقول: « ما من عبد ينام يتملى نوماً إلا عرج بروحه إلى العرش،فالذى لا يستيقظ دون العرش،فتلك الرؤيا التى تصدق ، والذى يستيقظ دون العرش فهى التى تكذب » . فقال عمر: ثلاث كنت فى طلبهن ، فالحمد لله الذى أصبتهن قبل الموت (١).

وقال بقية بن الوليد: حدثنا صفوان بن عمرو،عن سليم بن عامر الحضرمى قال: قال عمر بن الخطاب: عجبت لرؤيا الرجل يرى الشيء لم يخطر له على بال،فيكون كأخذ بيد ويرى الشيء فلا يكون شيئاً ،فقال على بن أبى طالب :يا أمير المؤمنين ،يقول الله عز وجل: أنه ﴿ **يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى** ﴾ [الزمر:٤٢]، قال: والأرواح يعرج بها فى منامها ،فما رأت وهى فى السماء فهو الحق،فإذا ردت إلى أجسادها تلقتها الشياطين فى الهواء فكذبتها ، فما رأت من ذلك فهو الباطل ،قال: فجعل عمر يتعجب من قول على. قال ابن منده: هذا خبر مشهور عن صفوان بن عمرو وغيره ،وروى عن أبى الدرداء.

وذكر الطبرانى من حديث على بن أبى طلحة: أن عبدالله بن عباس قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين،أشياء أسألك عنها. قال: سل عما شئت . قال: يا أمير المؤمنين،مم يذكر الرجل؟ ومم ينسى ؟ ومم تصدق الرؤيا ومم تكذب؟فقال له عمر: إن على القلب طخاوة كطخاوة القمر،فإذا تغشت القلب نسى ابن آدم،فإذا انجلت ذكر ما كان نسى، وأما مم تصدق الرؤيا ومم تكذب؟فإن الله عز وجل يقول: ﴿ **اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا** ﴾ [الزمر:٤٢] ، فمن دخل منها فى ملكوت السماء فهى التى تصدق،وما كان منها دون ملكوت السماء فهى التى تكذب.

وروى ابن لهيعة عن عثمان بن نعيم الرعينى،عن أبى عثمان الأصبحى،عن أبى الدرداء قال: إذا نام الإنسان عرج بروحه حتى يؤتى بها العرش ،فإن كان طاهراً أذن لها بالسجود،وإن كان جنباً لم يؤذن لها بالسجود.

وروى جعفر بن عون عن إبراهيم الهجرى،عن أبى الأحوص،عن عبد الله بن مسعود أنه قال : إن الأرواح جنود مجندة ، تتلاقى فتشام كما تشام الخيل ، فما تعارف منها ائتلف

---

(١) الطبرانى فى الأوسط (٥٢٢٠) ،والفردوس بمأثور الخطاب للديلمى (٦١٧٣).

وما تناكر منها اختلف.

ولم يزل الناس قديماً وحديثاً تعرف هذا وتشاهده. قال جميل بن معمر الغنوى:

أظل نهارى مستهاماً وتلتقى　　　مع الليل روحى فى المنام وروحها

فإن قيل : فالنائم يرى غيره من الأحياء يحدثه ويخاطبه ، وربما كان بينهما مسافة بعيدة ويكون المرء يقظان، روحه لم تفارق جسده ،فكيف التقت روحاهما، قيل: هذا إما أن يكون مثلاً مضروباً ضربه ملك الرؤيا للنائم،أو يكون حديث نفس من الرائى تجرد له فى منامه، كما قال حبيب بن أوس:

سقياً لطيفك من زور أتاك به　　　حديث نفسك عنه وهو مشغول

وقد تتناسب الروحان وتشتد علاقة أحدهما بالأخرى ،فيشعر كل منهما ببعض ما يحدث لصاحبه ، وإن لم يشعر بما يحدث لغيره؛ لشدة العلاقة بينهما ،وقد شاهد الناس من ذلك عجائب.

والمقصود: أن أرواح الأحياء تتلاقى فى النوم ،كما تتلاقى أرواح الأحياء والأموات، قال بعض السلف: إن الأرواح تتلاقى فى الهواء فتتعارف أو تتناكر، فيأتيها ملك الرؤيا بما هو لاقيها من خير أو شر. قال: وقد وكل الله بالرؤيا الصادقة ملكاً علمه وألهمه معرفة كل نفس بعينها واسمها ومتقلبها فى دينها ودنياها وطبعها ومعارفها ، لا يشتبه عليه منها شيء ولا يغلط فيها، فتأتيه نسخة من علم غيب الغيب من أم الكتاب بما هو مصيب لهذا الإنسان ، من خير وشر، فى دينه ودنياه ، ويضرب له فيها الأمثال والأشكال على قدر عادته ،فتارة يبشره بخير قدمه أو يقدمه ، وينذره من معصية ارتكبها أو همَّ بها ،ويحذره من مكروه انعقدت أسبابه ليعارض تلك الأسباب بأسباب تدفعها ، ولغير ذلك من الحكم والمصالح التى جعلها الله فى الرؤيا ؛ نعمة منه ورحمة وإحساناً وتذكيراً وتعريفها ، وجعل أحد طرق ذلك تلاقى الأرواح وتذاكرها وتعارفها، وكم من كانت توبته وصلاحه وزهده وإقباله على الآخرة عن منام رآه أو رئى له ،وكم ممن استغنى وأصاب كنزاً دفيناً عن منام.

وفى (كتاب المجالسة) لأبى بكر أحمد بن مروان المالكى عن ابن قتيبة، عن أبى حاتم، عن الأصمعى، عن المعتمر بن سليمان عمن حدثه قال :خرجنا مرة فى سفر وكنا ثلاثة نفر، فنام أحدنا ، فرأينا مثل المصباح خرج من أنفه فدخل غاراً قريباً منه، ثم رجع فدخل أنفه ، فاستيقظ يمسح وجهه وقال : رأيت عجبًا ، رأيت فى هذا الغار كذا وكذا ، فدخلناه فوجدنا فيه بقية من كنز كان.

وهذا عبد المطلب دل فى النوم على زمزم ، وأصاب الكنز الذى كان هناك».

وهذا عمير بن وهب أتى فى منامه، فقيل له: قم إلى موضع كذا وكذا من البيت، فاحفره تجد مال أبيك، وكان أبوه قد دفن مالاً ومات ولم يوص به، فقام عمير من نومه فاحتفر حيث أمره، فأصاب عشرة آلاف درهم وتبرا كثيراً ، فقضى دينه ، وحسن حاله وحال أهل بيته، وكان ذلك عقب إسلامه. فقالت له الصغرى من بناته: يا أبت ، ربنا هذا الذى حبانا بدينه خير من هبل والعزى، ولو أنه كذلك ما ورثك هذا المال، وإنما عبدته أياماً قلائل.

قال على بن أبى طالب القيروانى العابر: وما حديث عمر هذا واستخراجه المال بالمنام، بأعجب مما كان عندنا وشاهدناه فى عصرنا بمدينتنا من أبى محمد عبد الله البغانشى . وكان رجلاً صالحاً مشهوراً برؤية الأموات ، وسؤالهم عن الغائبات ، ونقله ذلك إلى أهلهم وقراباتهم حتى اشتهر بذلك وكثر منه، فكان المرء يأتيه فيشكو إليه أن حميمه قد مات من غير وصية وله مال لا يهتدى إلى مكانه، فيعده خيراً ويدعو الله تعالى فى ليلته ، فيتراآى له الميت الموصوف فيسأله عن الأمر فيخبره به.

فمن نوادره: أن امرأة عجوزاً من الصالحات توفيت ولامرأة عندها سبعة دنانير وديعة ، فجاءت إليه صاحبة الوديعة وشكت إليه ما نزل بها وأخبرته باسمها واسم الميتة صاحبتها، ثم عادت إليه من الغد، فقال لها: تقول لك فلانة: عدى من سقف بيتى سبع خشبات تجدى الدنانير فى السابعة ، فى خرقة صوف ، ففعلت ذلك فوجدتها كما وصف لها.

قال: وأخبرنى رجل لا أظن به كذباً: استأجرتنى امرأة من أهل الدنيا على هدم دار لها وبنائها بمال معلوم، فلما أخذت فى الهدم لزمت الفعلة هى ومن معها فقلت: مالك؟ قالت: والله ما لى إلى هذه الدار من حاجة ، لكن أبى مات وكان ذا يسار كثير فلم نجد له كثير شىء، فخلت أن ماله مدفون فعمدت إلى هدم الدار لعلى أجد شيئاً: فقال لها بعض من حضر. لقد فاتك ما هو أهون عليك من هذا، قالت: وما هو؟ قال: فلان تمضين إليه، وتسألينه أن يبيت قصتك الليلة، فلعله ير أباك فيدلك عن مكان ماله بلا تعب ولا كلفة. فذهبت إليه ثم عادت إلينا ، فزعمت أنه كتب اسمها واسم أبيها عنده ، فلما كان من الغد بكرت إلى العمل، وجاءت المرأة من عند الرجل فقالت: إن الرجل قال لى: رأيت أباك وهو يقول: المال فى الحنية . قال : فجعلنا نحفر تحت الحنية وفى جوانبها حتى لاح لى شق ، وإذا المال فيه. قال: فأخذنا فى التعجب والمرأة تستخف بما وجدت وتقول: مال أبى كان أكثر من هذا، ولكنى أعود إليه، فمضت فأعلمته ثم سألته المعاودة، فلما كان من الغد أتت وقالت: إنه

قال لها: إن أباك يقول لك: احفرى تحت الجابية التى فى مخزن الزيت، قال: ففتحت المخزن فإذا بجابية مربعة فى الركن، فأزلناها وحفرنا تحتها ، فوجدنا كوزاً كبيراً ، فأخذته ثم دام بها الطمع فى المعاودة ففعلت، فرجعت من عنده وعليها الكآبة، فقالت: زعم أنه رآه وهو يقول له: قد أخذت ما قدر لها، وأما مابقى فقد جلس عليه عفريت من الجن يحرسه إلى من قدر له، والحكايات فى هذا الباب كثيرة جداً.

وأما من حصل له الشفاء باستعمال دواء رأى من وصفه له فى منامه فكثير جداً وقد حدثنى غير واحد ممن كان غير مائل إلى شيخ الإسلام ابن تيمية، أنه رآه بعد موته وسأله عن شيء كان يشكل عليه من مسائل الفرائض وغيرها فأجابه بالصواب.

وبالجملة، فهذا أمر لا ينكره إلا من هو أجهل الناس بالأرواح وأحكامها وشأنها، وبالله التوفيق (١).

فصل
فى الرؤيا تظهر آثارها فى اليقظة

إن روح النائم يحصل لها فى المنام آثار فتصبح يراها على البدن عيانا ،وهى من تأثير الروح فى الروح ، كما ذكر القيروانى فى (كتاب البستان) عن بعض السلف.

قال: كان لى جار يشتم أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ،فلما كان ذات يوم أكثر من شتمهما ، فتناولته وتناولنى ، فانصرفت إلى منزلى وأنا مغموم حزين، فنمت وتركت العشاء، فرأيت رسول الله ﷺ فى المنام ،فقلت :يا رسول الله، فلان يسب أصحابك، قال: من أصحابى؟ قلت: أبو بكر وعمر، فقال :خذ هذه المدية فاذبحه بها، فأخذتها ، فأضجعته وذبحته ، ورأيت كأن يدى أصابها من دمه، فألقيت المدية وأهويت بيدى إلى الأرض لأمسحها، فانتبهت وأنا أسمع الصراخ من نحو داره فقلت: ما هذا الصراخ ؟قالوا: فلان مات فجأة، فلما أصبحنا جئت فنظرت إليه، فإذا خط موضع الذبح.

وفى (كتاب المنامات) لابن أبى الدنيا عن شيخ من قريش قال: رأيت رجلا بالشام قد اسود نصف وجهه وهو يغطيه، فسألته عن ذلك؟ فقال: قد جعلت لله على ألا يسألنى أحد عن ذلك إلا أخبرته به، كنت شديد الوقيعة فى على بن أبى طالب رضي الله عنه ،فبينما أنا ذات ليلة نائم، إذ أتانى آت فى منامى فقال لى: أنت صاحب الوقيعة فىَّ ؟ فضرب شق وجهى ، فأصبحت وشق وجهى أسود كما ترى .

---

(١) الروح (٥١ ـ ٧٠)

وذكر مسعدة عن هشام بن حسان،عن واصل مولى أبى عيينة ،عن موسى بن عبيدة ، عن صفية بنت شيبة قالت : كنت عند عائشة رضي الله عنها فأتتها امرأة مشتملة على يدها ، فجعل النساء يولعن بها ، فقالت: ما أتيتك إلا من أجل يدى أبى ،كان رجلا سمحا ، وإنى رأيت فى المنام حياضاً عليها رجال، معهم آنية يسقون من أتاهم ،فرأيت أبى قلت: أين أمى؟ فقال : انظرى ، فنظرت فإذا أمى ليس عليها إلا قطعة خرقة ، فقال : إنها لم تتصدق قط إلا بتلك الخرقة ، وشحمة من بقرة ذبحوها، فتلك الشحمة تذاب وتطرف بها وهى تقول : واعطشاه ! قالت : فأخذت إناء من الآنية فسقيتها، فنوديت من فوقى:من سقاها أيبس الله يده، فأصبحت يدى كما ترين.

وذكر الحارث بن أسد المحاسبى وأصبغ وخلف بن القاسم وجماعة عن سعيد بن مسلمة قال:بينما امرأة عند عائشة إذ قالت : بايعت رسول الله ﷺ ألا أشرك بالله شيئاً ، ولا أسرق ، ولا أزنى ، ولا أقتل ولدى ، ولا آتى ببهتان أفتريه من بين يدى ورجلى ، ولا أعصى فى معروف ، فوفيت لربى ووفى لى ربى ، فوالله لا يعذبنى الله ،فأتاها فى المنام ملك ، فقال لها : كلا إنك تتبرجين ، وزينتك تبدين ، وخيرك تكندين ، وجارك تؤذين ، وزوجك تعصين ، ثم وضع أصابعه الخمس على وجهها،وقال:خمس بخمس، ولو زدت زدناك ، فأصبحت أثر الأصابع فى وجهها.

وقال عبدالرحمن بن القاسم صاحب مالك:سمعت مالكا يقول:إن يعقوب بن عبدالله ابن الأشج كان من خيار هذه الأمة ، نام فى اليوم الذى استشهد فيه ،فقال لأصحابه:إنى قد رأيت أمراً ولأخبرنه ،إنى رأيت كأنى أدخلت الجنة فسقيت لبناً،فاستقاء فقاء اللبن، واستشهد بعد ذلك .قال أبو القاسم :وكان فى غزوة البحر بموضع لا لبن فيه ، وقد سمعت غير مالك يذكره ويذكر أنه معروف ، فقال:إنى رأيت كأنى أدخل الجنة،فسقيت فيها لبناً،فقال له بعض القوم:أقسمت عليك لما تقيأت ، فقاء لبناً يصلد أى يبرق ، وما فى السفينة لبناً ولا شاة ، قال ابن قتيبة :قوله:(يصلد) أى يبرق ، يقال:صلد اللبن يصلد،ومنه حديث عمر:إن الطبيب سقاه لبناً،فخرج من الطعنة أبيض يصلد.

وكان نافع القارئ إذا تكلم يشم من فيه رائحة المسك ، فقيل له:كلما قعدت تتطيب ، فقال:ما أمس طيباً ولا أقربه ، ولكن رأيت النبىﷺ فى المنام وهو يقرأ فى فمى، فمن ذلك الوقت يشم من فىَّ هذه الرائحة.

وذكر مسعدة فى كتابه فى الرؤيا عن ربيع بن زيد الرقاشى قال:أتانى رجلان ،فقعدا إلى فاغتابا رجلا فنهيتهما، فأتانى أحدهما بعد فقال:إنى رأيت فى المنام كأن زنجياً أتانى

بطبق عليه جنب خنزير ، لم أر قط أسمن منه ، فقال لى : كل ،فقلت:آكل لحم خنزير ؟ فتهددنى فأكلت ،فأصبحت وقد تغير فمى، فلم يزل يجد الريح فى فمه شهرين وكان العلاء ابن زيادة له وقت يقوم فيه ، فقال لأهله تلك الليلة : إنى أجد فترة فإذا كان وقت كذا أيقظونى فلم يفعلوا قال:فأتانى آت فى منامى ، فقال:قمْ يا علاء بن زياد اذكر الله يذكرك،وأخذ شعرات فى مقدم رأسى ، فقامت تلك الشعرات فى مقدم رأسى،فلم تزل قائمة حتى مات . قال يحيى بن بسطام:فلقد غسلناه يوم مات ،وإنهن لقيام فى رأسه .

وذكر ابن أبى الدنيا عن أبى حاتم الرازى عن محمد بن على قال : كنا بمكة فى المسجد الحرام قعوداً ، فقام رجل نصف وجهه أسود ونصفه أبيض ، فقام : يا أيها الناس ، اعتبروا بى ، فإنى كنت أتناول الشيخين وأشتمهما ، فبينما أنا ذات ليلة نائم إذ أتانى آت ، فرفع يده فلطم وجهى،وقال لى:يا عدو الله، يافاسق ، ألست تسب أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، فأصبحت وأنا على هذه الحالة.

وقال :محمد بن عبد الله المهلبى:رأيت فى المنام كأنى فى رحبة بنى فلان ،وإذا النبى ﷺ جالس على أكمة ومعه أبو بكر ، وعمر واقف قدامه ، فقال له عمر:يا رسول الله ، إن هذا يشتمنى ويشتم أبا بكر ،فقال:جئ به يا أبا حفص ،فأتى برجل ، فإذا هو العمانى،وكان مشهوراً بسبهما ، فقال له النبى ﷺ : أضجعه ، فأضجعه ثم قال:اذبحه ، فذبحه ، قال :فما نبهنى إلا صياحه، فقلت:ما لى أخبره؟عسى أن يتوب ،فلما تقربت من منزله سمعت بكاء شديداً ،فقلت:ما هذا البكاء؟ فقالوا:العمانى ذبح البارحة على سريره . قال: فدنوت من عنقه ،فإذا من أذنه إلى أذنه طريقة حمراء كالدم المحصور.

وقال القيروانى:أخبرنى شيخ لنا من أهل الفضل قال:أخبرنى أبو الحسن المطلبى إمام مسجد النبى ﷺ قال : رأيت بالمدينة عجباً ! كان رجل يسب أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ، فبينما نحن يوماً من الأيام بعد صلاة الصبح،إذ أقبل رجل وقد خرجت عيناه وسالتا على خديه ، فسألناه : ما قصتك ؟ فقال : رأيت البارحة رسول الله ﷺ ،وعلى بين يديه،ومعه أبو بكر وعمر ، فقالا :يا رسول الله،هذا الذى يؤذينا ويسبنا ! فقال لى رسول الله ﷺ: من أمرك بهذا يا أبا قيس؟فقلت له:وأشرت عليه ، فأقبل على على بوجهه ويده ،وقد ضم أصابعه وبسط السبابة والوسطى،وقصد بها إلى عينى ، فقلت:إن كنت كذبت ففقأ الله عينيك ، وأدخل أصبعيه فى عينى ، فانتبهت من نومى وأنا على هذه الحال ، فكان يبكى ويخبر الناس ، وأعلن بالتوبة.

قال القيروانى:وأخبرنى شيخ من أهل الفضل قال:أخبرنى فقيه قال:كان عندنا رجل يكثر الصوم ويسرده ، ولكنه كان يؤخر الفطر ،فرأى فى المنام كأن أسودين آخذين بضبعيه

وثيابه إلى تنور محمى ليلقياه فيه. قال: فقلت لهما: على ماذا ؟فقالا: على خلافك لسنة رسول الله ﷺ ، فإنه أمر بتعجيل الفطر وأنت تؤخره ، قال : فأصبح وجهه قد اسود من وهج النار ،فكان يمشى متبرقعاً فى الناس.

وأعجب من هـذا الرجل يرى فـى المنام وهو شديد العطش والجوع والألم أن غيره قد سقاه وأطعمه ،أو داواه بدواء ، فيستيقظ وقد زال عنه ذلك كله،وقد رأى الناس من هذا عجائب.

وقد ذكر مالك عن أبى الرجال،عن عمرة،عن عائشة: أن جارية لها سحرتها ، وأن سيدها دخل عليها وهى مريضة ،فقال: إنك سحرت ، قالت: ومن سحرنى ؟قال: جارية فى حجرها صبى قد بال عليها فدعت جاريتها ، فقالت : حتى أغسل بولا فى ثوبى ، فقالت لها : أسحرتنى ؟ قالت :نعم،قالت: وما دعاك إلى ذلك ؟ قالت: أردت تعجيل العتق ، فأمرت أخاها أن يبيعها من الأعراب ممن يسىء ملكها،فباعها ،ثم إن عائشة رأت فى منامها: أن اغتسلى من ثلاثة آبار ،يمد بعضها بعضاً ،فاستسقى لها ،فاغتسلت ،فبرأت.

وكان سماك بن حرب قد ذهب بصره،فرأى إبراهيم الخليل فى المنام ، فمسح على عينيه وقال: اذهب إلى الفرات فانغمس فيه ثلاثاً ، ففعل فأبصر.

وكان إسماعيل بن بلال الحضرمى قد عمى،فأتى فى المنام ،وقيل له: قل : يا قريب ، يا مجيب ، يا سميع الدعاء ، يالطيف بمن يشاء رد على بصرى ،فقال الليث بن سعد: أنا رأيته قد عمى، ثم أبصر.

وقال عبيد الله بن أبى جعفر: اشتكيت شكوى فجهدت منها،فكنت أقرأ آية الكرسى،فنمت فإذا رجلان قائمان بين يدى،فقال أحدهما لصاحبه أن يقرأ آية فيها ثلاثمائة وستون رحمة ، أفلا يصيب هذا المسكين فيها رحمة واحدة؟فاستيقظت فوجدت خفة.

قال ابن أبى الدنيا: اعتلت امرأة من أهل الخير والصلاح بوجع المعدة ،فرأت فى المنام قائلا يقول لها: لا إله إلا الله ،المغلى وشراب الورد. فشربته ، فأذهب الله عنها ما كانت تجد.

قال : وقالت أيضاً : رأيت فى المنام كأنى أقول : السناء والعسل وماء الحمص الأسود شفاء لوجع الأوراك . فلما استيقظت أتتنى امرأة تشكو وجعاً بوركها ، فوصفت لها ذلك فاستنفعت به.

وقال جالينوس : السبب الذى دعانى إلى فصد العروق والضوارب ؛ أنى أمرت به فى منامى مرتين. قال: كنت إذا ذاك غلاما، قال: وأعرف إنساناً شفاه الله من وجع كان به فى

جنبه ، يفصد العرق الضارب لرؤيا رآها فى منامه .

وقال ابن الخراز : كنت أعالج رجلا ممعوداً ، فغاب عنى ، ثم لقيته فسألته عن حاله فقال : رأيت فى المنام إنساناً فى زى ناسك متوكئاً على عصا ، وقف على وقال: أنت رجل ممعود [١] ؟ فقلت نعم ، فقال : عليك بالكباء والجلنجبين ، فأصبحت فسألت عنهما ، فقيل لى : الكباء والمصطكى والجلجنبين والورد والمربى بالعسل فاستعملتها أياماً فبرأت ، فقلت له :قال ذلك جالينوس.

والوقائع فى هذا الباب أكثر من أن تذكر . قال بعض الناس : إن أصل الطب من المنامات ، ولا ريب أن كثيراً من أصوله مستند إلى الرؤيا ، كما أن بعضها عن التجارب ، وبعضها عن القياس ، وبعضها عن إلهام، ومن أراد الوقوف على ذلك فلينظر فى (تاريخ الأطباء) وفى (كتاب البستان للقيروانى) وغير ذلك [٢].

فصل
فى رؤية النبى ﷺ فى المنام

عن أبى هريرة ﷺ قال:سمعت رسول الله ﷺ :« من رآنى فى المنام فسيرانى فى اليقظة ،أو لكأنما رآنى فى اليقظة ، ولا يتمثل الشيطان بى ».وأخرجه البخارى ومسلم[٣].

ولم يشك البخارى فيه، بل قال:« من رآنى فى المنام فسيرانى فى اليقظة ،ولا يتمثل الشيطان ».

وفى الصحيحين من حديث أبى قتادة قال:قال رسول الله ﷺ يقول : « من رآنى فى المنام فقد رأى الحق » [٤].

وأخرجه البخارى من حديث أبى سعيد ، وزاد : « فإن الشيطان لا يتكوننى » [٥] . وفى لفظ له من حديث أبى قتادة:« فإن الشيطان لا يتراءى به » [٦].

وفى صحيح مسلم عن جابر عن النبى ﷺ:« من رآنى فى النوم فقد رآنى ، فإنه لا ينبغى للشيطان أن يتمثل فى صورتى » [٧].

وفى لفظ آخر:« فإنه لا ينبغى للشيطان أن يتشبه بى » [٨] [٩].

---

(١) ممعود : أى فسدت معدته فلم يستمرئ ما يأكله . (القاموس) .

(٢) الروح (٢٨٩ ـ ٢٩٤).

(٣ ـ ٧) سبق تخريجه ص ٤٠٧ .

(٨) سبق تخريجه ص ٤٠٦ .

(٩) تهذيب السنن (٧/ ٣٠١).

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

كتاب الفتيا وآداب المفتين

كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

كتاب الدعوة إلى الله عز وجل

كتاب الأذكار

كتاب اللباس والزينة

كتاب الرؤيا

رقم الإيداع : ٢٠٠٢/١٣٣٨٤م
I.S.B.N:977-15-0375-8